

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية مُحَكَّمة / العدد الخمسون / ربيع / ٢٠٢٥

الإلياذة	عمر شبلي
أثر عملية النقل والترجمة في نمو وإزدهار النثر	د. علي عساف
جدلية التاريخ والذاكرة وإشكالية التجنيس	د. هدى علي عيد
الأبعاد الدلالية للظهور الفنية في الشعر العربي الحديث	د. ريماء غانم
الخطاب المباشر بين واقع الظهور والحث على التغيير	د. الفاضل الكثيري
محاولة تداولية في قراءة خطاب الإمام علي (ع) السياسي	د. هيثم عواركة
تأثير الموقع لبلدة الشبانية في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية	د. إيلي شديد
الاحتجاج والزحف في المسرح العربي	د. منال الذين
مسرحية النولار للكاتب ديفيد بنسكي (تقديم وترجمة)	د. صالح الشكري
المرأة والحب في شعر جورج شكور	ريما داعر
نص شعري مترجم مرثية درب لم يمت	د. منير قاسم
Le destin exceptionnel du monde	DR. Marie Manassa



- موقف "المنافذ الثقافية"
من قضايا الانتماء الفكري
والأدبي والروحي
للأمة العربية والاستجابة
الإيجابية للتحدي

مجلة فصلية ثقافية محكمة

المنافذ الثقافية

العدد الخمسون / ربيع / ٢٠٢٥



المنافذ الثقافية
مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

العدد الخمسون - شتاء 2025

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

نائب رئيس التحرير
أ. د. درية كمال فرحات

المدير المسؤول: علي حمود

الهيئة الثقافية والإدارية

د. هالة أبو حمدان	أ.د. عماد هاشم	د. علي أيوب
أ.د. عيدا زين الدين	أ.د. زهور شتوح (الجزائر)	أ.د. منى دسوقي
د. دلال مهنا الحلبي	د. رضا العليبي (تونس)	أ.د. جمانة أبو علي
د. منال شرف الدين	د. ندى الرمح	د. سمية طليس
د. ربي شوكت محسن	د. أناند فرح	د. رولا الحاج حسن
د. زينب راضي	أ. سمر بحمد	أ. حكمت حسن
أ. سوزان زعيتر	أ.رانية مرعي	أ. مروان درويش
تدقيق لغوي د. فاطمة البزال. د. سامي التراس / د. رثيفة الرزوق		
مسؤولة القسم الانكليزي د. إيمان صالح		

اللجنة المحكّمة

أ.د. ديزيريه سقال	أ.د. حمدة فرحات	أ.د. محمد فرحات
أ.د. فؤاد خليل	أ.د. لارا خالد مخول	أ.د. علي حجازي
أ.د. جمال زعيتر	أ.د. مها خير بك ناصر	أ.د. محمد عواد
أ.د. عائشة شكر	أ.د. أحمد رباح	أ.د. يوسف كيال
أ.د. ماغي عبيد	أ.د. سعيد عبد الرحمن	أ.د. درية فرحات

تصميم المجلة وإخراجها: دار النهضة العربية

ISSN 2708-4302



www.al-manafeth.com – موقع المجلة الإلكتروني

تطلب المجلة من دار النهضة العربية – بيروت – شارع جامعة بيروت العربية

للمراسلات: 00961 1 833 270

darnahdainfo@gmail.com

الإشتراكات السنوية:

لبنان للأفراد 20 دولار – للمؤسسات 40 دولار

باقي الدول العربية:

للأفراد 100 دولار – للمؤسسات 200 دولار

للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

- 5..... عمر شبلي
أثر عمليّة النقل والترجمة في نموّ وازدهار النثر، انطلاقاً من العصر العبّاسيّ حتّى بداية القرن
الواحد والعشرين
- 10..... د. علي عسّاف
«جدليّة التّاريخ والذّكرة وإشكاليّة النّجيس» في كتاب «كما الإعصار» لجان عبدالله توما أنموذجاً
- 26..... د. هدى علي عيد
إشكاليّة المقدّس اللّغويّ في العربيّة
- 48..... د. محمود خليل
الأبعاد الدّالّيّة للصّورة الفنيّة في الشّعر العربيّ الحديث
- 83..... د. ريما غانم
الخطاب المباشر بين واقع الصّورة والحثّ على التّغيير في شعر تميم البرغوثي أنموذجاً
- 115..... د. الفاضل الكثيري
محاولة تداوليّة في قراءة خطاب الإمام علي (ع) السياسيّ، سلطة الخطاب ونظامه في خطبة
«الانصراف من حطّين» أنموذجاً
- 132..... د. هيثم قاسم عواركة
تأثير الموقع لبلدة الشّبانيّة- قضاء بعدا- في أوضاع الاقنصاديّة والاجتماعيّة للسّكان
- 158..... د. إيلي شديد
الاحتجاج والرّفص في المسرح العربيّ (مسرّحيّة «مأساة الحلاج» لصلاح عبد الصّبور أنموذجاً)
- 183..... د. منال شرف الدّين
مسرحيّة الدّولار للكاتب ديفيد بنسكي (تقديم وترجمة)
- 205..... د. صالح مهدي حميد الشكري
المرأة والحبّ في شِعْر جورج شكّور
- 227..... ريما منصور داغر
مفاهيم الأدب ونظريّاته في شعريّة النّص عند العرب
- 254..... عامر علي خريوش

- حركات التحرر الكوردية في سوريا 1914-1980
- 274..... أحمد عبد القادر عثمان
أ.د محمد علي القوزي مشرفاً رئيساً أ.د محمد مراد مشرفاً مشاركاً
إطلالة تاريخية على أحوال الشيعة ونشأة مؤسساتهم التعليمية
- 293..... بلال شمص
أ.د خالد الكردي. مشرفاً رئيساً أ.د محمد علي القوزي مشرفاً مشاركاً
إدارة الدولة اللبنانية رقمياً باعتماد تقنية بلوك تشين
- 318..... أيلا القويق
الرئيس فؤاد شهاب بين التمديد واللا تمديد
- 344..... إيلي بردويل
الطلاق التعسفي (تعريفه- أسبابه - معايير وصوره في الشريعة الإسلامية)
- 358..... منى حديفة
نص شعري مترجم مرثيةً دربٍ لم يمت
- 374..... عمر شبلي
ترجمة د. منير قاسم كندا
- Differentiated Instructions in Online ESL Classrooms: Perceptions and Challenges
- DR. Mohamed Hasan Al Kassem.....1**
- Le destin exceptionnel du monde dans Le Labyrinthe des égarés d'Amin Maalouf
- DR. Marie L. Manassa.....38**
- Fidélisation du personnel infirmier dans les hôpitaux au Liban
- Sandra Abi-Daher Frangieh.....82**

الإلياذة

عمر شبلي

ملحمة الإلياذة هي الكتاب المقدّس عند الإغريق، وقد كتبت في القرن العاشر قبل الميلاد، وهي مرآة فكرهم وروح تاريخهم، وكانت سلاحًا لتعبئة الجماهير، ولروعيتها كانت تتحوّل «إلى كابوس تتعدّر الإفاقة منه» كما يقول جيمس جويس، وقد ترجمها إلى العربية سليمان البستاني، ومطلعها في ترجمة سليمان البستاني:

رَبّة الشّعْر عن إخيل بن بيلا حدثينا واروي احتدامًا وبيلا

والملمحة مأخوذة من اليونانية، ومعناها الكلام. وهي شعر قصصي، بطولي، قومي، يحتوي على أحداث خارقة، وتعتبر الملمحة عن مرحلة بدائية من الحضارة، في مجتمع يمتاز بنظام الطبقات، وفي بلد لم يستقر قومياً ولا سياسياً، أي أنه في حالة حرب مستمرة مع جيرانه. في مثل هذه البيئة لا يقام للفرد وزن ما، وإنما الاعتبار كل الاعتبار للقادة والأمراء. والقصة التي تسردها الملمحة قصة خيالية، هي أشبه بالتاريخ الذي يختلط بالأساطير، تتغنى به الشعوب البدائية وتتناقله، وتظهر فيه أخلاق المجتمع ونظمه، وحياته السياسيّة وعقائده.

وهي أقدم ملحمة في الأدب الإغريقي، ويعود تاريخ نظمها إلى القرن العاشر قبل الميلاد. وهي المنسوبة إلى هوميروس، الشّاعر الأعمى أو عدّة شعراء متجولين، وهي تتألف من 15537 بيتاً (24 أنشودة). وتروي الحرب التي دارت بين اليونان والطّرواديين، وتقع طروادة على السّاحل الغربيّ من آسيا الصّغرى يجلس على عرشها ملك طاعن في السنّ كريم الخلق يدعى «بريام»، وله أبناء كثيرون. أحدهم تتجلى فيه الشّجاعة بأوسع معانيها وهو «هكتور»، وثانيهم مثل أعلى في الجمال والوسامة وهو (باريس). وقد نشأ هذا الأخير نشأة جافة خشنة كما ينشأ أبناء الرّعاة في قمم الجبال. وفي يوم ما، تزوره آلهة الجمال (أفروديت) وآلهة الحكمة (أثينا)، وزوجة كبير الآلهة (هيريّه) ويحتكمن إليه في نزاع بينهن: أيهنّ أجمل، ويحكم الأمير الشّاب للإلهة الأولى

بالنّفوق في الحسن، وتُقسم أفروديت وهي في خمرة النّصر لتمكّنن باريس من أجمل امرأة على ظهر الأرض وهي هيلانة زوجة ملك إسبارطة. وأما أثينة وهيريه فتشعران بإهانة قاسية وتحنقان على سكان طروادة وتصمّمان على خراب المدينة.

وتبر أفروديت بوعدها، وتلقي حبّ باريس في قلب هيلانة، ولا يكاد باريس يختطف هيلانة، حتى تنشأ الحرب بين اليونان والطروديين.

وتسلّم قيادة الجيوش اليونانية إلى العاهل أغاممنون، ومن بين الأمراء اليونانيين الذين اجتمعوا لغسل الإهانة، الشاب الشجاع المتوقّد أخيل، وأوليس الذكي المحتال. ولكن طروادة هي الأخرى محميّة بفرسانها، ونخصّ بالذكر منهم هكتور بن بويام وكان علمًا في الشجاعة والوفاء في الأساطير القديمة.

وتحدثنا الأساطير أنّ حرب طروادة دامت عشرة أعوام، ولكن الإلياذة لا تتناول إلا المرحلة الختاميّة منها. فهي تبدأ بتصوير اليونان إلى جانب أسوار تلك المدينة منذ تسعة أعوام يعانون أصناف الألم وألوان الشقاء.

يفتح المؤلّف الأنشودة الأولى باسم عرائس الشّعر ويستقيهن الإلهام، وهي سنة دينيّة قديمة، ثم يحدثنا أنّ خلافاً قد دبّ بين أغاممنون وبين أخيل بسبب إحدى السبايا.

ويُقسم أخيل أنّه لن يسهم في القتال. ويظهر باريس في الميدان ويتحدّى رؤساء الإغريق، فيبادر زوج هيلانة، وهو مينيلاس إلى تلبية التحدّي. ويعلن أنّه يقبل المباراة، فإذا كانت الغلبة لمينيلاس استردّ اليونان هيلانة ودفع لهم الطّرواديون تعويضاً. وإذا كانت الغلبة لباريس انسحب اليونان ولم يطالبوا بشيءٍ ما. وبينما تدور المفاوضات حول هذا الاتفاق، تصعد هيلانة فوق سور طروادة، فيستقبلها بريام بحنانٍ أبوي، ويلقاها شيوخ طروادة بإعجاب ثم تشرع بتعداد أمراء الإغريق مشيرة إليهم واحداً بعد واحد.

ويتم الاتفاق، وتقدّم القرابين أشهاداً للآلهة على تقديس المعاهدة بين الطّرفين، وتبدأ المباراة بين الخصمين ولا يلبث مينيلاس أن يظفر بخاطف زوجه ويهمّ بالفتكّ به لأنّه ضعيف لا يقوى على الطّعان أمام غريمه الموتور. ولكن أفروديت بومضة البصر تلهه بغمام يعمي بصر خصمه وتحمله مطيّباً بالعطر إلى هيلانة.

وحينئذ تحتم معركة هائلة بين الطرفين، وينتشر الفرع بين صفوف اليونان، ويتوجّه هكتور إلى شقيقه باريس ويحاول عبثاً أن يعيد الشجاعة إلى قلبه، وأن يحمله على العودة إلى القتال. ثم يعود هكتور وزوجه أندروماك وابنه الوحيد قبل ذهابه إلى ساحة الوغى.

وتقول أندروماك بصوتٍ خفيضٍ: «يا حبيبي وسوف تهلكك جرأتك، رحمةً بابنك وبني لقد ذبح أبي وأمي وأختي جميعاً. فأنت يا هكتور أبي وأنت أُمي. وأنت الزوج الذي اختارني في صباي، رحمةً بي، ابقَ إلى جانبي». ويجيبها هكتور: «أني لعلّ يقين بأنّ طروادة قد قدر لها الفناء، وإنّي لأرى مسبقاً ألم الملك والدي وفجيعة أختي، ولكن الذي يشقّ علي أكثر من ذلك، هو أن أتصوّرك سيّئةً من سبايا اليونان، ومع ذلك، فأنا لن أفرّ من المعركة».

هكذا تكلم هكتور، وعلا هتاف الطرواديين فرحاً، وراحوا يستعدّون للقتال، فحملوا الخيل والثيران وأسقوها نبيذاً ممزوجاً بالعسل، وأخذوا القمح من الأهراء، وكدّسوا الخشب أكواماً، وتجمّعوا في حلقاتٍ حول النار، وقد اطمأنوا إلى هدأة الليل. وصعد إلى السماء عطرٌ ممزوجٌ مع الهواء، وكأنّ النجوم قد ازدادت تألّقاً حول القمر، وكأنّ قمم الجبال قد ازدادت ارتفاعاً في الظلام، وكأنّ السماء قد ازدادت وسعةً. في تلك الحقبة كانت الجياد قد ملّت الحرب، تمضغ الشعير، وكان الجند على أهبة القتال، قرب عرباتهم ينتظرون تنسم الفجر.

في اليوم التالي يحتم القتال ويسوء موقف اليونان، فيتفقون على أن يرسلوا سفارةً إلى أخيل ليسترضوه ويعيدوه إلى صفوفهم، غير أنّ أخيل لا يلين، ويرفض أن يغفر الإهانة التي لحقت به. ويكرّ هكتور مرّةً ثانيةً على اليونان «كالزوبعة الثقيلة» التي تهوي من شاهق جبلٍ ضخمٍ مظلم، «ويخرّ جند اليونان صرعى وقد ملأ الظلام مآقيهم». وإذ يرى اليونان هذه الهزيمة المنكرة، لا يجدون بداً من الفرار إلى سفنهم الراسية في الشاطئ. حينذاك نرى باتروكل يصف لصديقه أخيل الحالة الأليمة التي وصل إليها الإغريق. ويطلب إليه أن يمزّق ستار هذه العزلة ويسهم في القتال. فيصرّ أخيل على رفضه إصراراً لا يتزعزع، ولكنّه يسمح لصديقه أن ينزل إلى الميدان ويزوّده بسلاحه الخاص.

ويندفع باتروكل إلى المعمة ويُعمل السيف في ركب الطّراديين، ويتغيّر وجه الحرب. ثم يلتقي بهكتور، فتتسأ بينهما معركة رهيبة تنتهي بموت باتروكل.

وما أن يصل هذا الثّبأ إلى مسامع أخيل، حتى يندفع إلى جيوش الأعداء بلا سلاح ولا دروع يبحث عن جثة صديقه، وإذ يُشرف على جموع الطّراديين، يصرخ فيهم صرخة تجعلهم يفرّون جميعاً أمام هذا الرّجل الأعزل، وعندما يخلو له الميدان يأخذ في التقرّس في وجوه القتلى حتى يعرف جثة صديقه فيحملها إلى خيمة ويقسم ليشتركن في القتال منذ الغد وليقتلن هكتور ولو كان في حماية الآلهة.

ويسوق أخيل جنود طروادة أمامه سوق الأنعام، وكان هكتور ينتظره منفرداً إلى جانب سور طروادة، ويتوسّل إليه والده بريام أن يدخل المدينة. ويقف البطل جامداً مصمماً على أن يلقي خصمه، وما إن يظهر أخيل حتى يرتعب هكتور ويسلم ساقيه للريح، ولكن أخيل يجد في إثره، ويلتقي الخصمان، ونشاهد الجيشين في هلع شامل، ويهوي أخيل على عدوّه ويطعنه طعنةً نجلاء فيسقط مضرّجاً بدمائه، ويصيح اليونان فرحين، وينفطر قلب بريام الشيخ حزناً، وتذرف أندروماك الدّم السّخين.

أمّا أخيل، فلم تنطفئ من صدره جذوة الحقد، فيسحب جثة خصمه الملقاة في التراب على وجهها ويطوف بها حول مجمرة صديقه باتروكل، ويصمّم على أن يلقي بالجثة لقمةً للطير والسباع، وأن يحرمها الطّفوس الدّينية، كيلا تذهب روح هكتور إلى دار النّعيم. وإذ ذاك تتدخّل الآلهة بالأمر، ويأمر زوس بأن تعاد الجثة إلى بريام الذي يأتي ليلاً إلى معسكر اليونان، ثم إلى خيمة أخيل فيمثل بين يديه، ويركع على ركبتيه متوسلاً أن يرحم شيخوخته الفانية. وإذ يرى أخيل ذلك الشّيخ البائس يرقّ له ويعطف عليه ويغمره بكرمه، ثم يأمر بغسل الجثة وتسليمها إليه، فيحملها ويغادر المعسكر قبل طلوع الفجر.

وتنتهي الإلياذة وسط خضمّ من الصّراخ والعيول ينبعث من أفواه الأيامي والنكالي اللواتي أصبحن يرسفن بعد فقد أزواجهن وأخوتهن وأبنائهنّ في قيود الدّل والهوان..

تعدّ الإلياذة لوحة صادقة لحياة اليونان الاجتماعيّة والعسكريّة، ففيها نجد مجتمعاً إقطاعياً، نزاعاً إلى الحرب واستخدام القوّة. بينما تبقى الحرائر في قصورهنّ وقد أحاط

بهن الخدم والعبيد، ينسجن القماش ويغزلن الصّوف، يذهب الرجال بعيداً فيتعرّضون للحروب والأخطار ثم يعودون بالغنائم والأسرى. ويقدم لنا المؤلف فنون الحرب المتبعة في ذلك العصر من تسليح الجنود والقواد، ومن مؤتمرات تعقد بين الرؤساء ومن ضرب الأسوار، ونزال عام ونزال فرديّ، ومن مشادة بين الأمراء المتنافسين على الغنائم.

أثر عمليّة النقل والترجمة في نموّ ازدهار النثر، انطلاقاً من العصر العبّاسيّ حتّى
بداية القرن الواحد والعشرين

The Impact of Translation and Transmission on the Growth and
Prosperity of Prose, from the Abbasid Era to the Early 21st Century

د. علي حسن عسّاف¹

Dr.Ali Hassan Assaf

تاريخ القبول 2024 /9/14

تاريخ الاستلام 2024 /8/28

الملخّص

هدف هذا البحث للتعرّف إلى مفهوم النقل والترجمة، إضافةً إلى مفهوم النثر، ودور عمليّة النقل والترجمة في ازدهار العصر العبّاسيّ وصولاً إلى العصور الحديثة. وقد تناول هذا البحث أنواع النصوص النثرية، والثّقافات التي كانت قائمة في العصر العبّاسيّ، وأبرز المترجمين في ذلك الوقت، إضافةً إلى ذكر أهمّ المترجمين في العصور التي تلت العصر العبّاسيّ.

وقد توصلّ البحث إلى نتائج مهمّة، أبرزها:

- لقد شهد العصر العبّاسيّ تطوّرًا هائلًا على صعيد النقل والترجمة.
- ساعد تنوّع الثّقافات على إغناء اللّغة العربيّة بالمفردات والألفاظ الجديدة.
- شهدت اللّغة العربيّة تراجعًا من جراء الاستعمار الذي حصل في الدّول العربيّة، ولكنّها ما لبثت أن استعادت تأثيرها ودورها الرياديّ.
- إنّ عمليّة الترجمة تعدّ من أهمّ الوسائل المستخدمة في التواصل الإنسانيّ على الأصعدة كافّة.

1 - أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانيّة - كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة - الفرع الخامس الاختصاص الدقيق (الأدب الروائي والمسرحي)

الكلمات المفتاحية: النقل- الترجمة- النثر- العصر العباسي.

Abstract

The aim of this research is to learn about the concept of transmission and translation, in addition to the concept of prose, and the role of the process of transmission and translation in the prosperity of the Abbasid era up to modern times.

This research dealt with the types of prose texts, the cultures that existed in the Abbasid era, and the most prominent criminals at that time, in addition to mentioning the most important translators in the eras that followed the Abbasid era.

The research reached important results, the most notable of which are:

The Abbasid era witnessed tremendous development in the field of transmission and translation.

The diversity of cultures helped enrich the Arabic language with new vocabulary and expressions.

The Arabic language witnessed a decline as a result of the colonialism that took place in the Arab countries, but it soon regained its influence and pioneering.

The translation process is one of the most important means used in human communication at all levels.

Keywords: transmission- translation- prose- the Abbasid era.

المقدمة

إنَّ التَّوَّاصِلَ التَّقَافِيَّ بَيْنَ الحَضَارَاتِ هُوَ أَمْرٌ بَالِغُ الأَهْمِيَّةِ لِتَعْرِيفِهَا بِبَعْضِهَا البَعْضَ، وَخِصُوصًا فِي المَجَالِ الأَدَبِيِّ وَالتَّقَافِيَّ، وَتَتَّخِذُ عَمَلِيَّةَ النَّقْلِ أَشْكَالًا وَطَرَائِقَ عَدَّةً. وَتَعَدُّ التَّرْجُمَةَ مِنْ أَرْقَى الطَّرَائِقِ المَتَّبَعَةِ فِي نَقْلِ التَّقَافَاتِ الأُخْرَى، وَالأفْكَارِ، وَالمَعْتَقَدَاتِ، فَالتَّارِيخُ هُوَ مِنَ الأُمُورِ الخَالِدَةِ الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ، وَالتَّجَارِبُ الإِنْسَانِيَّةُ وَالإِبْدَاعِيَّةُ لَا يَدَّلُهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ دُرُوسًا يُسْتَفَادُ مِنْهَا عَلَى مَرِّ الأَزْمَنَةِ.

هناك الكثير من العلماء والمفكرين الذين كانت لهم إنجازات كبيرة في المجال الأدبي والثقافي، وقد أغنوا التاريخ الحضاري بالعديد من المؤلفات التي استلهم منها المؤرخون فيما بعد، للتأكيد على عظمة الحضارات السابقة وتأثيرها الكبير في البشرية، وخصوصًا العصر العباسي المليء بالإنجازات، والحافل بأخصب الأعمال، ففيه ازدهرت العلوم والآداب.

امتدَّ العصر العباسيُّ أو كما كان يسمَّى بالعصر الذهبي، قرنًا من الزَّمن (132هـ/750م - 232هـ - 847م)، وكان غنيًّا بالإنجازات. فالعرب القدامى وكما وصفهم الله تعالى في القرآن بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ (القرآن الكريم، الجمعة: 2)، أي كان معظمهم أميين يعتمدون على الذاكرة في تسجيل الأحداث التاريخية، إلى أن جاء هذا العصر واشتهر بالتدوين ونقل الأفكار والآداب إلى الأمم الأخرى. وقد ازدهر النثر في العصر العباسي نتيجة اختلاط الثقافات فيه، كالثقافة اليونانية، والفارسية، والهندية، وفيه تجلَّت أولى بدايات النقل والترجمة، واستمرت حتى القرن الواحد والعشرين. وانطلاقًا مما تقدّم، جاء هذا البحث لتسليط الضوء على عملية النقل والترجمة التي ازدهرت في العصر العباسي وامتدَّت إلى العصور الأخرى، الأمر الذي جعل موضوع حوار الحضارات والتواصل فيما بينها متطورًا ومنتشرًا إلى حدٍّ بعيد.

الإشكالية

إنَّ النهوض بعملية النقل والترجمة في العصر العباسي جعل هذا الأخير محطَّ أنظار العلماء والمفكرين العرب والأجانب، فباتت الترجمة طريق كلِّ من يريد التَّعرّف إلى حضارات أخرى غير حضارته، واستمرَّت عبر مرور الزَّمن إلى العصور الحديثة التي وصلت فيها عمليّات الترجمة إلى أوجها في المجالات كافة.

وبما أنَّ النثر هو من العلوم العظيمة والرَّاسخة في التَّراث العربي، فقد دخل طورًا جديدًا في العصر العباسي، وبقي في تطوّر دائم حتّى يومنا هذا.

والسؤال الرّئيس المطروح في هذا البحث هو: ما مدى الأثر الذي تركته عمليّة النقل والترجمة في نموّ وازدهار النثر انطلاقًا من العصر العباسي حتّى بداية القرن الواحد والعشرين؟

أمّا الأسئلة الفرعيّة، فنتلخّص بالآتي:

- ما الترجمة؟ وما دوافعها؟
- ما النثر؟ وكيف تجلّى في العصر العباسي والعصور اللاحقة؟
- ما ملامح تطوّر عمليّة النقل والترجمة في العصر العباسي حتّى القرن الواحد والعشرين؟
- ما أبرز النتائج المترتبة على هذه العمليّة؟

المنهج

لقد اعتمد البحث على المنهجين الوصفي والتاريخي نظرًا للطبيعة التي يتميَّز بها هذا البحث، فهو يتحدّث عن تطوّر النثر عبر التاريخ الإسلامي منذ العصر العباسي حتّى يومنا هذا.

الفرضيات

يتمحور البحث حول عملية الترجمة والنقل، وتأثيرها في نمو النثر. أما الفرضيات فهي على الشكل الآتي:

- أسهمت عملية النقل والترجمة في تطور النثر منذ العصر العباسي وحتى العصور الحديثة.
- من الممكن أن تؤدي هذه العملية إلى تعريف الحضارات الأخرى بالحضارة العباسية وما بعدها، والنهل من معينها في مجالات العلوم والأدب.

الأهداف

- يسعى هذا البحث إلى تحقيق أهداف، أهمها:
- التعرف إلى مفهومي النقل والترجمة.
- تحديد الملامح العامة للعصر العباسي والعصور الحديثة فيما يختص بالنثر.
- التوصل إلى الآثار التي تركتها عملية النقل والترجمة.

أولاً: النقل والترجمة

1 - مفهوم النقل

النقل لغةً: جاء في لسان العرب: نقل: تحويل الشيء من موضع إلى آخر، والتنقل: التحول (ابن منظور، 1999، ص 709).

وجاء في المنجد: نقل: نقل الشيء أي حوله من موضع إلى موضع آخر، والكلام عن قائله: رواه عنه، والكتاب: نسخه، والكتاب إلى لغة كذا: ترجمه بها (الهنائي، 1960، ص 834).

أما **النقل اصطلاحاً**، فهو تحويل الكتاب أو المؤلف من لغة إلى لغة أخرى، كتحويل الكتب التاريخية من اللغة العربية إلى اللغة الإنكليزية.

2 - مفهوم الترجمة

الترجمة لغة: إنّ الترجمة مشتقة من فعل «ترجم»، وعلى نحو ما جاء به لسان العرب يُقال: «ترجم كلامه بمعنى فسره بلسانٍ آخر» (ابن منظور، 1988، ص 316). أمّا في المنجد، فهي: «نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى، وعلى التأويل والتفسير والشرح» (معلوف، 2001).

أمّا الترجمة اصطلاحًا، فهي: نقل الألفاظ والكلمات من لغة إلى أخرى، مع مراعاة احترام المعنى المنقول.

3 - دور الترجمة وهدفها

تؤدي الترجمة دورًا كبيرًا على كافة الأصعدة، وفي كلّ المجالات الثقافية، والاقتصادية، والتكنولوجية، وذلك للاستفادة من علوم وآداب الآخرين، والتواصل بين الأمم وتحسين التبادل التجاري وغيره، وتحقيق التنمية الهادفة إلى ارتقاء الأفراد.

وللترجمة في هذا السياق دور ثلاثي الأبعاد: لغوي، ومعرفي، وفكري، وهي أبعاد مترابطة في حلقة متسلسلة متكاملة يؤدي أحدها إلى الآخر في علاقة خطية دائرية. أمّا دور الترجمة اللغوي، فلا ينحصر في إيجاد مقابلات عربية لمصطلحات علمية جديدة، بل يتعداه إلى التأثير في تطوير اللغة دلاليًا وتركيبياً، وقد أفردت بحوثًا ودراسات عدّة لهذا الأثر، وما زال الأمر يستحقّ المزيد، نظرًا للأهمية البالغة في عملية التطور اللغوي. وأمّا دورها المعرفي، فيتجلّى في نقل المعارف ونتائج الفكر العلمي، والأدبي، والثقافي عند اللغات والحضارات الأخرى، وهذا يقتضي التعريف بالمفاهيم والرؤى الجديدة، وذكر دلالاتها المعاصرة بدقة، وشرحها من دون لبس ضمن سياقها النصّي وسياقها الفكري العام (لواتي، 2016، ص 130).

ولا تستقي الترجمة أهميتها من كونها تأتي بمصطلحات جديدة في شتى حقول العلم والمعرفة، وإنّما لكونها ناقلة للمفاهيم عن طريق شرح دلالات تلك المصطلحات، وإدراج مدلولاتها في المنظوفة الفكرية العربية. فاستيعاب المصطلحات والتراكيب الاصطلاحية الجديدة، وإيجاد مقابلات عربية لها، وشرح دلالاتها، وتيسير تداولها يؤدي إلى رفد الفكر

العربي بمفاهيم محدثة وممارسات جديدة كانت غائبة أو مغيبّة، وتوجيهها للعمل وفق منهجيّة محدّدة، ومن ثمّ خلق واقع فكريّ وسلوكيّ جديد، ينهض بالحاضر ويؤسّس للمستقبل (مشوح، 2001، ص 786).

إدًا، فالترجمة عمليّة نقل رسالة من لغة إلى أخرى، ومن ثقافة إلى أخرى، وتعبيرٍ آخر، فهي تعني نقل المعنى من النّص المنطلق إلى النّص الهدف، وتحويل علامات اللّغة الأولى إلى علامات اللّغة الثّانية، ويقوم المترجم بتفكيك الشّيفرة اللّسانية بعد أن تكون مشقّرة في لغة أخرى، ويتضمّن النّص المترجم مجموعة من العلامات السّيميائيّة كالعلامات المنطقيّة، والعلامات الاجتماعيّة، والعلامات الجماليّة، والعلامات اللّسانية.

ومن ثمّ، فالهدف الرّئيس لمترجمها هو الوصول إلى ترجمة صادقة، ووفيّة، وقريبة من معاني النّص الأصلي (مشوح، ص 131).

ثانياً: النثر في العصر العبّاسيّ

1 - تعريف النثر

النثر لغةً: نثر: اللّيث: النثر نثرك الشّيء بيدك ترمي به متفرّقاً مثل نثر الجوز واللوز والسكر، وكذلك نثر الحبّ إذا بذر، هو النّثار، وقد نثره ينثره، وينثره نثرًا ونثارًا، ونثره فانثر، وتناثر، والنّثارة: ما تناثر منه (ابن منظور، ص 189).

أمّا **النثر اصطلاحاً**، فهو: الكلام المكتوب باللّغة العربيّة، وهو يتمتّع بجماليّة معيّنة نتيجة انتقائه بأسلوبٍ جاذبٍ للقراء. وهو الكلام المنطقيّ السّليم والمقنع، والكلام الذي يخلو من الوزن، أي على عكس الشّعر، ومن الممكن أن يتخلّله بعض السّجع وبعض الصّور البيانيّة ولكن بأسلوب نثري.

2 - واقع النثر في العصر العبّاسيّ

كان العصر العبّاسيّ عصرًا مفصليًا ومحوريًا في تاريخ الأدب النثري والأدب الشّعريّ على حدّ سواء. إذ لاقى هذا العصر نقلةً نوعيّةً على صعيد العلوم، وبلغ فيه النثر ذروته، وقد انتشرت فيه فنون الكتابة على أشكال متعدّدة، مثل: الخطابة، والرّسائل،

والوعظ، والقصاص، والمناظرات. وفي هذا العصر كان هناك خليط من الحضارات كالفارسيّة وغيرها، الأمر الذي جعل النثر يتأثر بهذا الخليط أكثر من تأثر الشعر.

وهناك أنواع كثيرة من النثر عُرفت آنذاك، ومن هذه الأنواع، نذكر:

- النثر العلميّ: وفيه استعمالٌ للنثر من أجل كتابة العلوم الشرعيّة واللّغويّة.
- النثر التّاريخيّ: ويُعنى هذا النثر بتدوين الأحداث التّاريخيّة.
- النثر الأدبيّ: وهو كل ما له علاقة بالفنون الأدبيّة، وكل ما هو جديد على هذا الصّعيد.

- النثر الفلسفيّ: هو النثر المختصّ بالكتابات الفلسفيّة.

وبالنسبة إلى النثر الأدبيّ، فقد برزت فنونٌ أدبيّة جمّة، ومنها:

- **الخطابة:** كان فنّ الخطابة نشطاً في العصر العبّاسيّ وخصوصاً الخطابة السياسيّة، إذ كان الحاكم يجمع أنصاره ويخطب فيهم، وكانت تُقام المنافسات بين الخطباء على المنابر، حيث يكثر التّجيش ولكن بأسلوب فصيح، ومن أهمّ هؤلاء الخطباء كان الخليفة أبو العبّاس مؤسس الدّولة العبّاسيّة. ومن بعدها انتشرت الخطابة الدّينيّة للخلفاء، أمثال المهدي والرّشيد.

- **المناظرات:** لاقى أسلوب المناظرة ازدهاراً واسعاً في العصر العبّاسيّ، وهذا النّوع من النثر هو نوعٌ جديد لم يكن موجوداً في السّابق. ففي الجاهليّة كان يُعرف باسم أدب التّفاخر حيث كان الجاهليّون يتفاخرون ببعض صفاتهم، كالفروسيّة، والكرم، والقوّة، والبأس، وغيرها من الصّفات. إلى أن جاء العصر العبّاسيّ فأضفى تجديداً على المفاخرات، وعرفت بالمناظرات، إذ يقوم كل فرد بالإدلاء بآرائه وما يعرفه، وبالتالي يقوم المناظر الآخر بالردّ عليه، والإدلاء بما لديه. وفي هذا العصر كانت تدور المناظرات حول الأمور الفقهيّة واللّغويّة.

- **الرسائل:** مع تطوّر مفهوم الدّولة، وخصوصاً الإسلاميّة، ظهر مصطلح الدّواوين التي تنظّم شؤون الدّولة، ولكلّ ديوان كان هناك كتاب، والكاتب يجب أن يتميّز

بتقافةٍ عالية، وبأسلوبٍ جميلٍ في الكتابة، ومن أبرز الكُتّاب في العصر العباسيّ ابن المقفّع، وسهل ابن هارون وغيرهم.

3 - عمليّة نقل وترجمة النثر في العصر العباسيّ

لاقى النثر نموًّا كبيرًا في العصر العباسيّ، نظرًا لاستقرار الدّولة العباسيّة وتمتّعها بالعلوم المتنوّعة نتيجة الفتوحات الإسلاميّة التي حصلت. وقد عرف هذا العصر رواجًا لعمليّة النّقل والترجمة، إذ عني به الخلفاء العباسيون ووزرائهم، وهذه العمليّة هي التي أثّرت بشكلٍ إيجابيّ في تطوّر العباسيين، وتصنيفهم على أنّهم أصحاب إنجازات على الصّعدين العلمي والأدبيّ. وكان ابن المقفّع أوّل المترجمين آنذاك، فقد استقى الكثير من الثقافات الأجنبيّة عبر ترجمة الكتب، وتحويلها إلى اللّغة العربيّة كما فعل في كتاب (كليلة ودمنة) الذي كان كتابًا هنديًّا في الأصل، إضافةً إلى كتاب (المنطق) لأرسطو. وعرفت الترجمة تطوّرًا بالغًا وهائلًا في عهد الخليفة المأمون، وقد عمل على إنشاء خزانة للكتب وأسماها (دار الحكمة).

إنّ النثر العربي عند العباسيين تميّز بمرونته وانفتاحه على استقبال كلّ ما هو جديد، وأصبح خزائنًا للثقافات الأخرى وتنوّعها في العلوم كافّة، كالنثر العربي، والفلسفي، والعلمي. وتميّز هذا النثر بالابتعاد من الألفاظ البدويّة القديمة، والمعقّدة، والمبهمّة المعاني، وفي نفس الوقت لم يعتمد المفردات المبتذلة، والعاميّة، إذ استخدم اللّغة الفصحى بأسلوبٍ جميل، وواضح، وسهل الفهم، مع الاحتفاظ بجزالة اللفظ، ورسانته، وأصوله البيانيّة التي تضيف جماليّةً على النصوص.

ونظرًا لوجود مزيج سكّاني في العصر العباسيّ ناتج من تعدّد الثقافات، أرسى هذا المزيج بوتقة واحدة رعنتها النخبة السّياسيّة وقدمت لها الحماية، ممّا أدّى إلى خلق ثقافة جديدة، نظرت إلى التّراث الضّمخ للحضارات السّابقة نظرة إيجابيّة فأخذت تنهل من هذا الإرث الضّمخ في أكبر وأطول حركة ترجمة عرفها التّاريخ. وإذا كان للخلفاء العباسيين الدور الرّئيس في إطلاق حركة الترجمة، وبخاصّة الخليفة أبو جعفر المنصور، والتي تتحدّث كتب التّاريخ أنّه أمر بإحضار بعض كتب الطّب لترجمتها، مع استدعاء بعض الأطبّاء

من جند يسابور لمداواته من علةً أصابته، ومع اتفاقنا على أنّ الخليفة المنصور كان له الفضل الأساسي في إطلاق هذه الحركة، إلّا أننا نتفق مع السبب الذي جعل الخليفة يتبنى هذه الحركة، فحركة بهذا الشمول، والتي امتدت بعده أكثر من قرنين لا يعقل أن تكون حركتها حاجة محدّدة لدى الخليفة، أضف إلى ذلك أنّ المنصور أمر بترجمة بعض الكتب في المجالات الأخرى غير الطبّ (غواتس، 2003، ص 55-56).

وأهمّ الثقافات التي نُقلت وترجمت في العصر العباسي، نذكر:

- الثقافة الفارسيّة.

- الثقافة اليونانيّة والرومانيّة.

- الثقافة الهنديّة.

4 - نتائج عمليّة النقل والترجمة في العصر العباسي

لقد أفرزت عمليّة الترجمة في تلك الفترة، نتائج على قدر من الأهميّة، وهي:

- توسّع رقعة المعرفة في العالم الإسلامي، ودخول فنون وفلسفات جديدة لم تكن مألوفة لدى العرب والإسلام من قبل، وأوجد التفاعل بين الفكر الأجنبي والتراث العربي إنتاجاً علمياً وحضارياً فريداً.

- أصبحت اللّغة العربيّة لغة المعارف الإنسانيّة، بعد أن كانت مقتصرّة على مجموعة من القبائل في الجزيرة العربيّة.

- تلقّي المعجم العربي الكثير من المفردات الأجنبيّة التي تمّ تعريبها لكي تناسب اللّغة العربيّة، الأمر الذي أثبت جدارة هذه اللّغة وقدرتها على استيعاب الثقافات الأخرى المتنوّعة.

- فاقت الحضارة العربيّة كل الحضارات الأخرى من حيث العظمة والغنى، فهي إضافةً إلى كونها حضارة أدبيّة مليئة بالإنجازات، فإنّ أرضها تمتلك الكثير من التّروات والمقدّرات التي تميّزها عن باقي الحضارات.

- إنَّ الحضارة الإسلاميَّة أضحت صلة الوصل بين الحضارة القديمة، والحضارة الأوروبيَّة الحديثة.
- إنَّ علماء ومفكرِّي تلك الحقبة، أثروا المعارف العلميَّة، ممَّا أحدث تقدِّمًا وازدهارًا عارمًا في العصر العبَّاسيِّ وما بعده.

ثالثًا: عمليَّة النُّقل والترجمة في العصر الحديث

على الرِّغم من أصالة اللُّغة العربيَّة إلاَّ أنَّها تأثَّرت ببعض الألفاظ الأجنبيَّة، ولم يخف العرب من دخول تلك الألفاظ إلى لغتهم، فقاموا بتقريبها ووضعوها على أوزان عربيَّة، وأخضعوها لقواعد اللُّغة العربيَّة، فأصبحت فيما بعد ألفاظًا معرَّبة. وقد ازدهرت الترجمة في العصر العبَّاسيِّ بوجود علماء، وفلاسفة، ومفكرين تأثَّروا بعمليَّة ترجمة المعارف القديمة، وكتبوا رسائل ومؤلَّفات، ووضعوا المصطلحات لمواكبة ما وصلت إليه المعرفة الإنسانيَّة في مختلف مجالات العلوم، واجتهدوا في إغناء اللُّغة، وتطويعها لتصبح لغة البحث العلميِّ والتدريس على جميع المستويات (التَّميمي، 2013، ص 72).

جاء عصر الانحطاط وهي تلك الفترة الزمنيَّة الممتدَّة بين عام 1258م تاريخ سقوط بغداد وعام 1789م تاريخ حملة نابليون بونابرت على مصر، وامتدَّ عصر الضَّعف إلى عام 1916م تاريخ سقوط الخلافة العثمانيَّة. فتراجعت اللُّغة العربيَّة وانكشمت في المساجد والكتاتيب، واقتصرت على العلوم الدينيَّة، وأصبحت اللُّغات الأجنبيَّة هي اللُّغات الرّسميَّة، والدَّارجة بين الجماهير نتيجة السَّيطرة الاستعماريَّة العسكريَّة والفكريَّة، ومحاولتهم محو اللُّغة العربيَّة وإحلال لغات أخرى محلَّها (ص 73). إلاَّ أنَّ محاولاتهم باءت بالفشل، فاللُّغة العربيَّة هي لغة القرآن، وهي لغة لها تاريخها، ووجودها الحضاريِّ والإنسانيِّ.

وبعدها ظهر ما عرف بـ«اليقظة العربيَّة» بين عامي 1800-1950، وهذه الحركة ظهرت في البلاد العربيَّة بعد أن قامت فيها النهضة، واستعادت اللُّغة العربيَّة مجدها، وعادت إلى احتكاكها بباقي اللُّغات، والحضارات المتقدِّمة والمتطوِّرة. وفي هذا العصر عرفت بلاد الشَّام عمليَّة الترجمة في بداية القرن التَّاسع عشر، واقتصرت على الكتب

الدنيّة والأدبيّة. أمّا في مصر فقد أولى محمد علي باشا اهتمامًا بالترجمة بهدف إحداث تغيير في الدولة المصريّة، للوصول إلى الحداثة.

وقد أدّى الرّواد الأوائل من المترجمين في العصرين الأموي والعبّاسيّ، وعصر النّهضة، مثل الشّيخ الطّهطاوي، والكاتب اللّبناني بطرس البستاني، وإبراهيم اليازجي، ونجيب حدّاد الذي نقل إلى العربيّة مأساة شكسبير «روميو وجوليت»، والأدباء العرب، مثل أحمد حسن الزيّات، وخليل مطران، وطه حسين، ومصطفى لطفى المنفلوطي وغيرهم دورًا عظيمًا في عمليّة التّرجمة، وفي ترسيخ اللّغة العربيّة وتنقيتها بفضل دأبهم، وعملهم المتواصل لصيانة اللّغة العربيّة وتطويرها، إذ بذلوا جهودًا محمودة، ووضعوا مصطلحات تعبر عن الجديد، وأصدروا مجلّات تخدم العلم، وأهدافه (ص 73).

1 - مظاهر تطوّر النثر العربي الحديث

إنّ التطوّر في النثر، لم يجر بشكلٍ سريع، بل جاء نتيجة تراكم تجارب عدّة، من تواتر ثقافات متنوّعة. وهناك مظاهر لتطوّر هذا النثر، وهي اللّغة، والموضوعات، والفنون.

- اللّغة: بعد ضعف الدولة العربيّة الإسلاميّة، مالت اللّغة العربيّة إلى التّعقيد اللّفظي المليء بالصّور البيانيّة والمحسنات البديعيّة، وهذا أثر في المعنى إلى حدّ كبير، إذ باتت اللّغة صعبة الفهم، وبعيدة كلّ البعد من لغة الحياة. إلّا أنّ وجود مجموعة كبيرة من المفكرين والمترجمين، وانتشار المعارف، أصبح الأسلوب اللّغويّ أكثر سلاسة، وسهولة، ووضوح، وابتعد من التكلّف والتّعقيد.

ولكنّ تحوّل اللّغة إلى هذا المستوى من السلاسة لم يكن أمرًا سهلاً، بل تخلّله الكثير من العوائق، التي جاءت نتيجة الخصومات بين الأدباء، فكلّ منهم لديه رأي خاصّ به، وقد اختلفت الآراء بين المحدثين والقدماء على موضوع الأسلوب؛ فمنهم من نادى بضرورة الحفاظ على التّراث القديم بما فيه من تعقيدات، ومنهم من قال بضرورة التّغيير واعتماد أساليب جديدة. والمقصود في تغيير الأسلوب ليس عدم الاهتمام بالشّكل، إنّما إيلاء الاهتمام بالشّكل والمضمون.

إنَّ الغالبية من الأدباء مالت إلى البساطة، والإيجاز، والبعد من التأنق بكلِّ أنواعه في الجوانب الشكليَّة، حتَّى يكون ما يكتبونه مفهومًا عند الجميع، فالأدباء والمترجمون لم يرجعوا إلى الأسلوب القديم الفصيح، أو الأسلوب المرسل الحر، بل أخذوا يبسطون أسلوبهم تبسيطاً لا ينزل به إلى مستوى العامَّة، أو إلى الابتذال، وفي الوقت ذاته لا يعلو عليهم، بحيث يشعرون بشيءٍ من العسر في قراءته وفهمه، إنَّه أسلوبٌ بسيطٌ سهلٌ، لكنَّه عربيٌّ فصيحٌ (ضيف، 2004، ص 176).

- **الموضوعات:** تمثَّل الموضوعات مظهرًا ثانيًا من مظاهر تطوُّر النثر العربي الحديث، إذ تعددت الموضوعات وتنوعت. ونتيجة الوعي السياسي في القرن التاسع عشر، وانتشار الصَّحف، حلَّت موضوعات جديدة محلَّ الموضوعات القديمة التي كانت تتصَّف بالجمود والتقليد، وقد حلَّت الأُمَّة محلَّ الفرد، فلم يعد الأديب يتوجَّه إلى شخص معيَّن، بل أصبحت كتاباته تعني الجميع على اختلافهم.

سعى النثر إلى التوسُّع وعدم القوقعة، إذ إنَّ الكاتب أصبح يتمتَّع بحريَّة أكبر، ولم يعد مرتعناً لزعيم أو قبيلة أو غير ذلك. يكتب أفكاره بكل ديمقراطيَّة بعيداً من الضغوط، وتحوُّل إلى الجماعة الأكبر، ويهتمُّ بها، ويسعى إلى استقطابها، وتحوُّل الشان العام الشغل الشاغل للأدباء، بعدما كانوا يصبون جُلَّ اهتمامهم على أشخاص بعينهم. وانتشرت الموضوعات السياسيَّة والاجتماعيَّة التي تخصَّ المجتمع والناس بشكلٍ عام، إلى جانب الموضوعات الأدبيَّة.

- **الفنون:** أمَّا فيما يتعلَّق بفنون النثر، فقد تأثَّر النثر الحديث بالأداب الأوروبيَّة المترجمة، كانتشار الصَّحف، والمقالة. والقصة، والمسرحيَّة. وقد ازدهرت الخطابة بشكلٍ كبير، وخصوصاً تلك التي تناولت قضايا سياسيَّة، والسبب في ذلك يعود إلى التآثر بالقيم الغربيَّة المنادية بالحريَّة والدِّفاع عن الحقوق، كما أنَّ ظهور الأحزاب السياسيَّة زاد من وجود الخطباء، وكلَّ خطيب يسعى لشدَّ عصب جمهوره، ومن أشهر الخطباء السياسيِّين، هناك في مصر سعد زغلول ومصطفى كامل.

أمّا ما طرأ على النثر، بالمعنى العامّ الذي يعني الكتابة والتأليف، من تطوّر وتغيير، فقد أوضحه جرجي زيدان على الوجه الآتي:

- سلاسة العبارة، وسهولتها بحيث لا يتكلّف القارئ إعمال الفكر في فهمها.
- تجنّب الألفاظ المهجورة والعبارات المنسجمة، إلّا ما يجيء عفواً ولا يثقل على السّمع.
- تقصير العبارة وتجريدها من التّسويق والحشو، حتّى يكون اللفظ على قدر المعنى.
- ترتيب الموضوع ترتيباً منطقيّاً في حلقات متناسقة، يأخذ بعضها برقاب بعض، وتنطبق أوائلها على أواخرها.
- تقسيم الموضوعات إلى أبواب وفصول، وتصدير كل باب أو فصل بلفظ أو عبارة تدلّ على موضوعه.
- تذييل الكتب بفهارس أبجديّة تسهّل البحث عن فروع الموضوع الأصليّ، وقد يجعلون للكتاب الواحد عدّة فهارس: فهرس الموضوعات، وثانٍ للأعلام، وثالث لغير ذلك.
- تنويع أشكال الحروف على مقتضى أهميّة الكلام، فيجعلون للمتن حرفاً، وللشكل حرفاً، وللرّؤوس حرفاً.
- تسمية الكتب باسم يدلّ على موضوعها، كتسمية كتاب تاريخ مصر بتاريخ مصر، وكتاب الكيمياء بالكيمياء، وكتاب النّحو بالنّحو، وأبطلوا التّسجيع في أسمائها.
- تزيين المؤلّفات بالرّسوم، وضبط الألفاظ بالحركات عند الاقتضاء.
- إذا أرادوا إسناد الكلام إلى كتاب، أشاروا إلى ذلك في ذيل الصّحيفة.
- فصل الجمل بنقاط، أو علامات تدلّ على أغراض الكاتب، كالوقف، والتّعجب، والاستفهام أو نحو ذلك، وعلامات الجمل المعترضة، أو تمييز بعض الأحوال (زيدان، 2014، ص 607-608).

إدًا، نخلص إلى القول بأنَّ النَّثر العربي الحديث مزج بين الحضارات المختلفة، ونهل من معينها، مع الإبقاء على خصوصية وفراة اللّغة العربيّة، واتّبع الأسلوب السّهل في المضمون بما يخدم البيئّة والمحيط الذي يعيشه الكاتب. فالكاتب أصبح أكثر واقعيّة في العصر الحديث، يستلهم موضوعاته من ظروف الحياة التي يعيشها.

الخاتمة

إنّ عملية النّقل والترجمة هي عمليّة لا بدّ منها في المجال الأدبيّ والعلميّ، لأنّها صلة الوصل التي تربط بين مختلف الشّعوب والثّقافات، إذ تودّي إلى تحقيق النّمّ والازدهار من خلال تبادل الأفكار، والخبرات، والإصدارات، والمؤلّفات، وكل ما له علاقة بالإنتاج النَّثري الأدبيّ.

لا يمكن أن يتحقّق أي تواصل بشري بين شعوب المعمورة إلّا عن طريق وجود ترجمة فاعلة ومؤثّرة، ولا سيّما أنّنا نعيش في عصر العولمة والتّقدّم التكنولوجي المتسارع.

لقد كان العصر العبّاسي رائدًا في مجال النّقل والترجمة، إذ شهد على الكثير من التّدخل الثّقافي والحضاريّ، فقد استلهم من الحضارة القديمة وصحّح بعض أخطائها في مجالات عدّة، وفي الوقت ذاته انفتح على الحضارة الأجنبيّة ونهل من معينها، ممّا أغنى هذه الحضارة بمفردات ومصطلحات اعتمدت في الدّين، والقانون، والسّياسة، وغيرها.

واستكمل العصر الحديث، ما بدأ به العصر العبّاسي من اهتمام بالنّثر وترجمته، والاستقاء من الحضارات الأجنبيّة في سبيل خدمة الحضارة العربيّة وإغنائها بما هو جديد.

لائحة المصادر والمراجع

- ابن منظور، محمد بن مكرم (1988). **لسان العرب**. بيروت: دار الجيل.
- _____ (1999). **لسان العرب**، تق: عبد الله العلايلي. بيروت: دار لسان العرب.
- التميمي، رجحان (2013). «حركة الترجمة والتعريب في الوطن العربي: تاريخها ومعطياتها». **مجلة اتحاد الجامعات العربية للأداب** 10 (1)، ص 71-88.
- زيدان، جرجي (2014). **تاريخ آداب اللغة العربية (لا. ط)**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع.
- ضيف، شوقي (2004). **الأدب العربي المعاصر في مصر (لا. ط)**. مصر: دار المعارف.
- غوتاس، ديميتري (2003). **الفكر اليوناني والثقافة العربية (لا. ط)**، تر: نقولا زيادة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- لواتي، فاطمة (2016). **الترجمة وحوار الحضارات**. (رسالة ماجستير). جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر.
- معلوف، لويس (2001). **المنجد في اللغة العربية المعاصرة (ط2)**. بيروت: دار المشرق.
- مشوح، لبانة (2001). «الترجمة والتنمية الفكرية- القطاع الإداري أنموذجًا». **مجلة جامعة دمشق** 27 (3-4)، ص 786.
- الهنائي، علي بن الحسن (1960). **المنجد في اللغة والإعلام (ط21)**. بيروت: دار المشرق.

«جدلية التاريخ والذاكرة وإشكالية التّجنيس»

في كتاب « كما الإعصار » لجان عبدالله توما¹ أنموذجاً

«The dialectic of history and memory and the dilemma of gendering»

in the book «As a hurricane» by Jean Abdallah Touma as a sample

د. هدى علي عيد²

Dr. Houda Ali Eid

تاريخ القبول 2024 /9/20

تاريخ الاستلام 2024 /9/2

ملخص

يسعى هذا البحث إلى تقصي تجليات انصهار التجربتين الحيائية والفنية، في كتاب «كما الإعصار»³ لجان عبدالله توما، وذلك انطلاقاً من تنوع المادة النفسية، الاجتماعية، واللغوية التي رفدت أحوال الأنا الساردة في تأملاتها، وفي خطابها السردية، وفي الشكل الذي اتخذته مضامينها.

1 - الأستاذ الدكتور جان عبدالله توما، من مواليد الميناء - طرابلس - أديب وراو، حائز الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها - الجامعة اللبنانية (2001)، رئيس قسم اللغة العربية في جامعة الجنان حالياً - طرابلس - لبنان، أستاذ محاضر في كلية الفنون الجميلة والعمارة في الجامعة اللبنانية منذ العام 2011، أستاذ محاضر سابقاً في جامعة سيّدة اللوزة، في جامعة البلمند، مدير تحرير مجلة منارات ثقافية، وعضو في هيئات استشارية تحكيمية عدّة منها مجلة المشرق (الجامعة اليسوعية) ومجلة نشر بحث، له مقالات عديدة ودراسات، وله إلى تاريخه ١٨ كتاباً في النقد والأدب، عضوفي اتحاد الكتاب اللبنانيين - المجلس الثقافي للبنان الشمالي (إميل يعقوب، موسوعة أدباء لبنان وشعرائه. بيروت: دار نوبيليس، ط1، 2006، ص186، وحشيمة، كميل (الأب اليسوعي: المؤلفون العرب المسيحيون من قبل الإسلام إلى القرن العشرين، دار المشرق، بيروت: ط1، 2011، ص 289-288)

2 - باحثة متخصصة في النقد الأدبي الحديث. تُعدّ من الأصوات المبادرة في المشهد الثقافي اللبناني. أسهمت بمقالات نقدية وثقافية، في العديد من الدوريات، والمجلات المحكمة. لها تسع روايات، وعدد من الإسهامات القصصية. أستاذ مشارك في جامعة الجنان، ومحاضرة في عدد من الندوات، والمؤتمرات النقدية الأدبية الدولية والمحلية. حائزة جائزة مؤسسة الحريري للتنمية البشرية المستدامة عن روايتها «حبّ في زمن الغفلة»، وجائزة المطران الأب سليم غزال، للسلم والحوار الوطني اللبناني، عن أعمالها الزوائية، بالإضافة إلى عدد من الجوائز الوطنية الأخرى. أدرجت روايتها « حبيبتي مريم» في القائمة القصيرة لجائزة كتارا للرواية العربية دورة 2023. houdaeid@hotmail.com

3- جان عبدالله توما، كما الإعصار، بيروت: منشورات منتدى شاعر الكورة الخضراء، ط1، 2022.

يتبنّى الكاتب في بعض نصوص كتابه، صيغتي «المذكرات» و«اليوميّات»، جاعلاً منهما موضوعاً، وسبيلَ كشف تأملات الذات، والتّعريف بعلاقاتها، وبرحلتها الوجوديّة ما بين الحياة والموت، انطلاقاً من المكان/ المَنبت (طرابلس/ الميناء -لبنان- وما يجاورهما)، مفيداً من مقارنة النّص الأدبيّ المستند إلى ثنائيّة الدّاخل/الخارج، وذلك بوساطة نصّ مختلف الهوية، والنّمط لكونه يمنحُ من التّاريخ الشّخصيّ الحميم، إلّا أنّه يفرّ من الانغلاق على الذات، في دعوته القارئ الفرد، والقارئ/ الجماعة إلى مشاركته تجربته الدّنيّة، بأبعادها الفنّيّة الإنسانيّة.

تتبلور الإشكاليّة في السّؤال عن هويّة هذا النّصّ/ النّصوص؟ وعن مدى إمكانيّة التّأسيس لأدبيّته انطلاقاً من آليات اشتغاله، واحتكاماً إلى مرجعيّاته الفاعلة؟ أمّا المنهج المعتمد، في هذا البحث، فهو المنهج الاستقرائيّ التّحليليّ وقوامه السرديّة¹ البنيويّة السيميائيّة.

كلمات مفتاحيّة: المذكرات - اليوميّات - الأدبيّة - المرجعيّة - السيميائيّة - التّأويليّة

Abstract

This research seeks to investigate the manifestations of the fusion of life and artistic experiences, in the book «As a Hurricane» by Jean Abdallah Touma, based on the diversity of psychological, social, and linguistic material that supplemented the conditions of the narrated ego in its reflections, narrative discourse, and the form taken by its contents.

In some of the texts in his book, the author adopts the forms of «memoirs» and «diaries,» transforming them into a subject, and a way to reveal the reflections of the self, introduce its relationships, and its existential journey

1- بعدّ علم السرد أحد تفرّعات البنيويّة الشّكلانيّة التي تبلورت في دراسات كلود ليفي- شتراوس Claude Lévi-Strauss، ثمّ: «تتأمى هذا الحقل في أعمال دارسين بنيويين آخرين، وأبرزهم: تودوروف Todorov وGréimas. هذا ويتداخل السرد مع السيميائيّة: التي تتناول أنظمة العلامات، بالنظر إلى أسس دلالتها وكيفية تفسيرنا لها»، ينظر في: حميد لحداني، أسلوبيّة الزوايا- مدخل نظريّ، الدّار البيضاء: مطبعة النّجاح الجديدة، منشورات دراسات سيميائيّة أدبيّة لسانيّة (سال)، ط.1، 1989، ص. 109.

between life and death. By selecting the place/source (Tripoli–Lebanon the port and its vicinity), as a starting point, the author benefits from the approach of the literary text relying on the duality of the inside and the outside through a text of different identity and style given that it emanates from his intimate personal history, yet escapes from closing in on the self. Thus, he asks both the individual reader and the collective reader to share their personal experiences with the human and artistic dimensions.

The problem arises in enquiring about the authorship of this text(s), and about the possibility of establishing its literature based on its work mechanisms and its effective references. As for the method adopted in this research, it is the inductive analytical approach and its basis is the semiotic structural narrative.

Keywords: Memoirs – diaries – literary – reference – semiotics – hermeneutics

المقدمة والإشكالية

تتعمد مركزية الذات في الكتابة الأدبية، على النوع الأدبي الذي تتخيره وسيلة للتعبير عن هاجسها القولي، وعن تمثلاته، ما يبرر مشروعية السؤال عن أهمية الكتابات الذاتية، وعن وضعيتها في المنتج الثقافي، لكونها قد باتت تشكل حقلاً نظرياً خصباً، في المعرفة النقدية العربية والعالمية، وصارت تحلّ مركزاً نقدياً لا يخفى على الناقد المنتبّع، لا سيما منذ أوائل سبعينيات القرن الماضي.

وإذا كانت للكاتب الفرنسي جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau¹ الريادة في كتابة السيرة الذاتية، من خلال كتابه «الاعترافات» Les Confessions مشرعاً

1 - جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (1712-1778) كاتب وفيلسوف ومربّ فرنسي، أثرت أعماله على القوى السياسية، فأحدثت الثورة الفرنسية عام 1789. (موريس حنا شربل، موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب. طرابلس/ لبنان: جروس برس، 1996، ص 227).

من بعده السبيل أمام آخرين، لكتابة النوع، في أوروبا، والعالم، فإنّ من الإنصاف أن نستذكر بعض أسماء رواد هذا النوع من الكتابة الأدبية، في عالمنا العربيّ، برزت أعمالُ أصحابها في الثلث الأوّل من القرن العشرين، وهم طه حسين في كتاب «الأيام» (1929)، وتوفيق الحكيم في كتابه «يوميات نائب في الأرياف» (1937)، أحمد أمين «حياتي» (1950)؛ لأنّ لكتابة السيرة الذاتية، لا سيّما العربية منها، أهميّة خاصّة لكونها تمثّل «حمالةً للذاكرة التاريخية العربية خارج حدود التاريخ الرسمي»¹، فهي تتبدّى مرآة للوعي الفرديّ، في تفاعله مع معطيات عصره، ومع قضايا الهوية والانتماء والوجود، في عالم كثير الاشتباك والتعقيد. لكن ما المقصود بمصطلح الهوية؟

الهوية في اللغة من هوي. اسم منسوب إلى هو. وهوية الإنسان حقيقته المطلقة وصفاته الجوهرية. هوية: حقيقة مطلقة في الأشياء والأحياء مشتملة على الحقائق والصفات الجوهرية: «هوية النفس الإنسانية، بطاقة الهوية (في الفلسفة) حقيقة الشيء، أو الشخص التي تميزه عن غيره»². (هوية: ما يجعل، من طبيعة شيء، نفس طبيعة الآخر).³ «q'une autre: وفي الاصطلاح: الهوية مصطلح يُستخدم لوصف مفهوم الشخص، وتعبيره عن فرديته، وعلاقته مع الجماعات (كالهوية الوطنية أو الهوية الثقافية). ويستخدم هذا المصطلح كثيراً في علم الاجتماع، وفي علم النفس⁴، وتلقت إليه الأنظار بشكل كبير؛ يقول الفارابي: «هوية الشيء، وعينيته، وتشخصه وخصوصيته، ووجوده المنفرد

1 - يُنظر في: شفيح بالزّين، مؤانسات أدبية، برنامج شهريّ يعنى بالكتابات الأدبية والنّدوات، <https://ma.artpress/article/8612/arbaat-fa-23-nofembar-2022-tamt-zayara-fa-18-ka-2023>.
2 - أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار الكتب العلميّة، ط1، مج4، 2003، مادّة (ه و ي).

3- Petit Larousse illustré. 1977.Librairie Larousse. Rue de Montparnasse. 114. Paris 19

4- حسن بحرأوي، بنية الشكل الروائيّ، بيروت: المركز الثقافيّ العربيّ، ط2، 2009، ص2.

له كلُّ واحدٌ¹.

ولكن ماذا عن مفهوم الهوية على صعيد الكتابة الذاتية، بوصفها نوعاً أدبيّاً؟ وكيف يمكن تصنيف بعض نصوص كتاب « كما الإعصار»، وتبيين الهوية الأدبية التي تمثلها؟ وما مدى أهمية هذا النوع من الكتابة، في علاقته بالمجتمع الذي يشكّل أحد أبرز روافده؟ بل هل ينضوي ما كتبه توما في خانة «السيرة الأدبية» التي روى فيها وقائع حياته، وأحداثها في خطية زمنية متوالية، أم أنّه اتخذ لمسروده أنواعاً أدبية أخرى تشترك مع الأولى، في عدد من الخصائص والسّمات، لا سيّما «المذكرات»، واليوميات؟ وتالياً، ما الخصائص التي أمكن لنا تبيينها، فشكّلت معياراً في عملية التصنيف؟

يسعى البحث إلى الإجابة عن كلّ ما سبق، مع التأكيد أنّ لكلّ كاتب سمات يتفرد بها عن سواه، تمنحه امتياز الاختلاف في توليد طقسه، وفضاءه الأدبيّ.

في المنهج: المعلوم أنّ اتجاهات النّقد المعاصر قد انبثقت من نوعين رئيسيين، من الرّؤية هما: النّقد الاجتماعيّ، والنّقد البنيويّ؛ وشكّل هذان النوعان تيارين كبيرين شمالاً كافة الجهود النّقدية، واتفقا على الرّغم من افتراقهما، في بعض المسائل الجوهرية، على عامل قويّ يوحد أفراد كلّ اتجاه، ويحسم موقف هؤلاء «النّقاد» ألا وهو الموقف من قضية الوعي، ومن علاقته بالوجود، والموقف من «الأدب» في علاقته بالواقع الاجتماعيّ، وذلك انطلاقاً من مقولة كارل ماركس Karl Marx²: «ليس وعي البشر هو الذي يحدّد وجودهم، بل إنّ وجودهم الاجتماعيّ هو الذي يحدّد وعيهم»³.

1 - أبو نصر محمد الفارابي، التعليقات، الهند: طبعة حيدر آباد، 1929، ص 21.
* الفارابي (من المرجح أنه توفي سنة 339هـ - 950م). ارتحل في شبابه إلى مدينة السلام والتحق بأمير حلب ورافقه إلى دمشق، ثمّ اعتزل الناس، وعاش عيشة فاضلة حتى وفاته. فلسفته تجلّت في السياسة المدنية ويعتبر أنّ المدينة الفاضلة تكون تلك التي يحكمها فيلسوف له صفات خاصة وفضائل. (إيلي ألفا روني، وجورج ونخل، أعلام الفلسفة العرب والأجانب، دار بيروت: الكتب العلميّة، ط1، 1412هـ - 1993م، ص 127-128)

2 - كارل ماركس Karl Marx (1818 - 1883) فيلسوف ألماني وثوري اشتراكيّ وهو ناشر البيان الشيوعيّ وكتاب رأس المال، أدت أفكاره دوراً مهماً في تأسيس علم الاجتماع وفي تطوير الحركات الاشتراكية. ورد في: لوكانش، جورج، الرواية كملحمة بورجوازية، تر. جورج طرابيشي، بيروت: دار الطليعة، 1979، ص. 60.

3 - ينظر في: عبد المنعم تليمة، مقدّمة في نظرية الأدب، القاهرة: دار الثقافة، 1973، ص 3.

وفي ضوء التّبع لهذا الوعي/ الموقف، وملاحقة تمثّلاته، برز الاشتغال في هذه الدّراسة، على تقصّي دلالة العنوان، حيث تمّت الاستفادة من إجراءات المنهج الاستقرائيّ التحليليّ، وقوامه السرديةّ البنيويةّ السيميائيةّ التي أتاحت دراسته كعتبة من عتبات النّص، اهتمّ بها علم السيمياء اهتمامًا ملحوظًا، حاسبًا إيّاه علامة إجرائية ناجحة، في مقارنة النّص الرّوائي، وفي حسن استقرائه، لكونه أولى الفواتح النّصية: «علامة سيميوطيقية*¹ تضمن أفق تفكيك النّص، وضبط انسجامه، فهو المحور الذي يتوالد ويتنامى، ويعيد إنتاج نفسه»²، والكاتب الدّكيّ هو الذي يتمكّن، من اجتذاب القارئ/ المتلقّي، إلى عالمه السرديةّ الواقعيّ أو التخييليّ، من خلال الإضاءة الأولى التي يسلّطها على نصّه، أي من خلل العنوان المتخيّر، لمنتجه الفنّي الجماليّ.

كذلك تمّ البحث في إشكالية العلاقة بين النّص والنّوع، عبر دراسة مفهوم السيرة الدّاتية ومساراتها المعروفة، من خلال استقراء نماذج دالة من نصوص «كما الإعصار» (سبع نصوص من اليوميات/ سبع نصوص من المذكرات)، أي البحث في مسألة التّجنيس وحدوده، بحسبانها إحدى القضايا التي تحظى باهتمام المنشغلين بعملية الإبداع الأدبيّ التي تتخطى دائمًا منتجها، لتدخل في علاقة مشتبكة، مع قارئ النّص وناقده. وهذا فعلٌ أتاح لنا تظهير حقيقة الانتماء الأجناسيّ، لبعض نصوص الكتاب، وتعالقها مع أجناس أدبية تماثلها، أو تتقاطع معها، ومع أخرى مفارقة لها.

دلالة العنوان

يوّديّ العنوان ببعده الدلاليّ والإيحائيّ، دورًا مهمًّا في عملية تأويل النّص واختزاله، فهو يقوم بتعيين طبيعة النّص الذي يسمه، ويشكّل الإشارة الأولى التي تواجه المتلقّي لتكون أحيانًا مفتاحًا دلاليًّا يستطيع اختزال النّص.

1 - السيميوطيقية أو السيمياء - Sémiotique - Sémiologie وفق تعريف فرديناند دو سوسير F. de Saussure: علم يدرس حياة العلامات في الحياة الاجتماعية. ووفق بيرس: «المنطق بمعناه العام اسم آخر للسيمياء، وهي مذهب شبه ضروريّ وشكليّ للعلامات». وقد وضع السيميائيّون تحديدات متكاملة للعلامة تعبّر عن مظاهر مختلفة من عملها. ورد في: لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرّواية، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون - دار النهار للنشر، ط1، لا.ت. ص. 22.

2 - محمّد مفتاح، دينامية النّص (تنظير وإنجاز)، الدّار البيضاء: المركز الثقافيّ العربيّ، ط.2، 1990م، ص. 72.

يضعنا الكاتب اللبّانيّ جان عبدالله توما، من خلال عنوان كتابه «كما الإعصار»، أمام تركيب بيانيّ تشبيهيّ يستحضر بوساطته، وطأة المرجعيّ/ الهاجس على وجدان الكاتب المتأمل، في أحوال مجتمعه، وفي تفحص أحوال حيوات أبنائه؛ فهذا التّركيب اللّغويّ المكثّف، والذي اقتصر على شبه الجملة (الكاف حرف جرّ، وما المصدرية + المبتدأ الإعصار الذي حذف خبره وجملته الإسميّة = الإعصار... واقعة في محلّ جرّ بحرف الجرّ الكاف)، يجعل القارئ يتساءل عن ماهية هذا الأمر، أو هذا الشّيء الذي يهزّ وجدان الشّاعر بحيث يتبدّى فعله قوياً مزعزعاً، كما يزعزع الإعصار ما يمرّ به أو عليه، انكفاء على المعنى التّعينيّ لمفردة «إعصار = جمع أعاصر وأعاصير: ريح تهبّ بشدة وتثير الغبار، وترتفع كالعمود إلى السماء»¹.

نتيح لنا القراءة التّحليليّة لعنوان كتاب توما «كما الإعصار» البحث، في دائرتين مشتبكتي العلاقة هما: عنوان النّصّ ومتن النّصّ، فالعنوان: «يثير لدى القارئ توقّعات قويّة حول ما يمكن أن يكوّنه موضوع الخطاب الذي يتحكّم في تأويل المتلقّي»²، وقراءة نصوص الكتاب تجعلنا ننحاز إلى الفعل التّشبيهيّ المتبنيّ، من كاتبه، لما تتّضح به هذه النّصوص من مشاعر حبّ واعتزاز، وتجذّر في المكان، ومشاعر فياضة تؤرّ وجدان الكاتب، وتجعله يُعنى بحفظ ذاكرة المكان، وناسه. وهو يهجس بذلك، ويعبأ بتفاصيله وبتحوّلاته المباعثة القاسية التي تكاد تشبه الإعصار الذي يغيّر معالم الأمكنة، في سرعة قياسيةّ أحياناً، فيفلق الدّات بما يحدثه من تحوّل قد يصل إلى حالة الدّمار.

وإنّ العنوان/العتبة النّصيّة يؤكّد على أهميّة توظيفه، من حيث هو - العنوان - مؤشّر «تعريفيّ وتحديديّ، ينقذ النّصّ من الغفلة، لكونه يشكّل الحدّ الفاصل بين الوجود، وبين الفناء والامتلاء؛ فأن يمتلك النّصّ عنواناً، هو أن يحوز كينونة، والاسم/ العنوان، في هذه الحال هو علامة هذه الكينونة»³.

1 - www.almaany.com تمّت الزّيارة في 29 ك 2023.

2 - ويول براون، تحليل الخطاب، تر. محمّد لطفي الزّليطيّ ومنير التركي، الرياض: دار الفجر للتوزيع والنّشر، 1997، ص 90.

3 - خالد حسين حسين، في نظريّة العنوان، مغامرة تأويليّة في شؤون العتبة النّصيّة، دمشق: دار التكوّن للنّشر، 2007، ص 32.

تعريف مصطلح السيرة الذاتية ومساراتها: هل يشكّل حضور ضمير المتكلم مفردًا وجماعة، واستعادة صاحبه الكثير من الأحداث التي عاينها، أو عايش أصحابها مبرزًا لإدراج كتاب ما، ككتاب «كما الإعصار»، في خانة كتابة «سيرة الذات»؟

يبرز الكتاب، منذ صفحاته الأولى، منتجًا أدبيًا ملتبس الهوية لناحية المضامين التي يعالجها، والأشكال التي تتخذها تلك المضامين، ومن حيث الضمائر التي يتمّ إسناد السرد إليها، ما يستدعي التمييز بداءة، ما بين السيرة الذاتية، وبين أنواع أدبية أخرى تشترك وإياها، في عدد من الخصائص، وأبرز هذه الأنواع اليوميّات والمذكرات.

مفردة السيرة مأخوذة لغويًا من المادّة سير؛ وورد في تاج العروس للزبيدي: «السيرة بالكسر السنّة والطريقة، يقال سار الوالي في رعيته سيرة حسنة»¹، وفي لسان العرب لابن منظور: «السيرة الطريقة، يقال: سار بهم سيرة حسنة، وسير سيرة حدّث أحاديث الأوائل»²، وفي المعجم الوسيط: «سير سيرة: حدّث أحاديث الأوائل»³.

يتطابق هذا المعنى الاصطلاحيّ مع تعريفي لسان العرب، والمعجم الوسيط للمفردة، ففي هذا الأخير تقترن السيرة بنقل أحاديث الأولين، ما يتوافق مع تعريف فيليب لوجون⁴ Philippe Lejeune للسيرة الذاتية Autobiographie بحسبانها: «حكيًا استعاديًا نثرًا يقوم به شخص واقعيّ، عن وجوده الخاصّ، عند التّركيز على حياته الفرديّة، وتاريخ شخصيّة»⁵، مفترضًا توافر عناصر فيها، تنتمي إلى أربعة أصناف، وهي: الموضوع المتعلّق بتاريخ شخصيّة لها حياة خاصّة، وشكل اللّغة القائم على النثر المترسّل، ووضعيّة السارد عند قيامه بالحكي الاستعادي، ووضعيّة المؤلّف الذي يحيل اسمه على شخصيّة واقعيّة، إلى حدّ التّطابق بينهما.

1 - مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت: مكتبة الحياة، 1، ط1، 1304هـ، مادة: س ي ر، ص 387.

2 - ابن منظور، لسان العرب، م.س. مادّة س ي ر، ص 451.

3 - المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة: مكتبة الشّروق الدّوليّة، ط4، 2004، مادة سار، ص 465.

4 - Philippe Lejeune french literature at the Université Paris-Nord until 2004. His work focuses on autobiography (Le Pacte autobiographique: 1975, Les Brouillons de soi: 1998, Signes de vie: 2005). Shs.cairn. info

5 - Philippe Lejeune : Le pacte autobiographique, édition Seuil, collection : poétique, Paris 1975, p14.

وصِفة الاستعادة تقنيّة من تقنيّات السرد، وطريقة من طرائقه، في التّعامل مع مفصل الزّمن ومساراته، بدءًا من الماضي، وانتهاءً باللحظة الآنيّة التي تعدّ والحال هذه، محطة البدء الأولى.

فالسيرة الدّاتيّة: «طريقة لتوثيق الصّلة بالحاضر، ووسيلة دائمة لوضع العالم والإنسان موضع النّسأول¹»، حيث تتيح إبراز علاقة المبدع بمحيطة المنتمي إليه، والذي يتميّز بخصوصيّته الواقعيّة، فيغدو النّصّ السّيريّ في حال صياغته، مركز التّبيير الذي يستعيد شتات الأنا التي توزّعها أحداث الحياة وأمكنتها، وتتمثّل المادّة الأولى للسيرة الدّاتيّة في سرد وقائع حياة شخصٍ ما، يصف ويروي من منظوره بواقعيّة وأمانة، ملتزمًا الحقائق التّاريخيّة بلغة سهلة بسيطة، توظّف العاميّة أو مفردات أجنبيّة عند الاقتضاء، ملتزمة قصر العبارة، والابتعاد عن الزخرفة والتّعقيد، وقد تجنح إلى الشّعريّة أحيانًا وفق المقتضى.

على أنّ التزام السيرة بالحقائق الواقعيّة يفريها من التّاريخ، أمّا بناؤها على التّخييليّ فيفسح المجال للحديث عن أدبيّتها؛ ويميّز النّاقّد عبد المجيد زراقت بين السيرة/ التّرجمة أي كتابة قصّة حياة شخص ما «تكون ترجمة تاريخ الحياة الموجز للفرد»²، في كونها تقترب من التّاريخ إلى درجة استحالتها تاريخًا في بعض الأحيان، وبين السيرة- القصّة، وفيها تؤدّي المادّة التّاريخيّة من منظور الزّراوي، في بناء متخيّل ينطق برؤية صاحبه، فتكون أدبًا أو تأملًا في الواقع، وهذه السيرة الأدبيّة أي السيرة المتخذة «ترجمة الحياة مادّة أولىّة لإقامة بنائها القصصيّ النّاطق برؤية صاحبتها، تكون إمّا سيرة شعبيّة مثل «سيرة بني هلال» و«سيرة عنتر»...، أو سيرة ذاتيّة مثل «الأيام لطفه حسين... وسيرة شخص آخر أي سيرة غيريّة مثل سيرة «جبران خليل جبران» لميخائيل نعيمة، وقد يعتمد الأديب إلى كتابة سيرة ما نصًّا روائئيًّا، من دون أن يعلن عن ذلك، مثل «بقايا صور» لحنّا مينا»³، أو هو قد يعلن ذلك شأن النّاقدة يمنى العيد، في سيرتها الرّوائيّة الواقعة في

1 - عبد السّلام المسدي، النّقد والحداثة، بيروت: دار الطليعة، ط1، 1983، ص114.

2 - يحيى إبراهيم عبد الذّايم، التّرجمة الدّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، بيروت: دار النهضة العربيّة، د.ط، 1974، ص 31.

3 - عبد المجيد زراقت، في السرد العربيّ... شعريّة وقضايا، بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم، ط1، 2019، ص 301.

جزئين، هما: «أرق الرّوح» (2013)، و«زمن المتاهة» (2015).

يتبلور مفهوم مصطلح «الأدبيّة» في تخطي اللّغة قدرة الإيصال والتّعبير عن المعنى، إلى إحداه الأثر الممتع، من خلال الصّيّغة الفنّيّة الجماليّة التي تتجلّى صورًا، وعبارات، وتراكيب، ومفارقات، أي بما يعرف بالبعد الأدبيّ (نعت منسوب إلى المنعوت (الأدب) للّغة، أو بأدبيّة الأدب التي تمثّل: «الحقيقة الكامنة في الشّكل، والتي يحولها المؤلّف بالصّيّغة الخاصّة إلى تجربة قابلة للتّفاعل، وللمشاركة القائمة على الجدل ما بين العمل الأدبيّ والمتلقّي»¹؛ هذا المتلقّي الذي يشكّل جزءًا لا يتجزّأ في منظومة الفعل الإبداعي، من خلال تحاوره الفاعل مع النّصّ، وعبر إعطائه الأهميّة للدّال في موازاة المدلول، ما ينقل الاهتمام من العناصر الخارجيّة، إلى العناصر الدّاخلية للنّصّ.

مسارات الكتابة الدّاتيّة كما برزت في كتاب «كما الإعصار»:

أ- تعريف «اليوميّات»: إنّ الخلط بين السّيرة الدّاتيّة واليوميّات لا يعزى إلى صعوبة التّجنيس، بقدر ما يعود إلى الجهل بالفروقات، فالتّاريخ والتّقويم هما أبرز ما يميّز اليوميّات، بحسبان كل يوم وحدة زمنيّة، ووحدة كلاميّة مستقلّة، نظرًا لما تفرضه الدّاكّة من فراغات قد تعثرها، ما يجعل وتيرتها غير ثابتة، ويفتحها على التّغيير المستمرّ، فنصّ اليوميّات كما ترى الباحثة المغربيّة جليّة طريطر²: «هو نصّ لا بنية له؛ لأنّه نصّ يتخيّر فيه كاتبه ما يكتبه، وما يرى أنّه يستحقّ الكتابة بحسب رغبته التّعبيريّة، وما أرادت ذاته التّنفيس عنه بوساطة الكتابة»³.

يسجّل الكاتب في اليوميّات «ما يجري في أيّامه من أحداث، ويعلّق عليها، ويكون هذا التّسجيل منقطّعا، لا يشكّل بنية نصيّة متكاملة ومتماسكة، وفي الغالب لا تتمّ العناية بأدبيّة النّصّ على مستويي البنية الكلّيّة والأسلوب»⁴، ولذلك تتعدّم إمكانيّة الالتباس ما

1 - عبد القادر الرّباعي، تحولات النّقد النّقائي، عمان: دار جرير للنّشر والتّوزيع، ط1، 2007، ص 95.
2 - تلحظ طريطر أنواعًا لليوميّات تدرجها وفاق الآتي: يوميّات وقائع يكون فيها حضور الآخر قويًا/ يوميّات استنبطانيّة تعبّر عن مكنونات الدّات والوجدان/ ويوميّات الرّوبورتاج الإخباري. يُنظر في: شفيق بالزّين، مؤانسات أدبيّة، برنامج شهريّ يعنى بالكتابات الأدبيّة والنّدوات، <https://ma.artpress/arti-8612/cle> الأربعاء في 23 نوفمبر 2022/ تمّت الزيارة في 18 ك2 2023

3 - م.ن.

4 - عبد المحيد زراقات، في السرد العربي... شعريّة وقضايا، م.س. ص 299.

بين اليوميات والسيرة الذاتية، وإن اندرجت الأولى ضمن مكونات كتابة «السيرة الذاتية»، إلا أنها ليست كذلك؛ وهذه اليوميات لا تكتب لغرض النشر أصلاً، بل هي عبارة عن سجل للتجربة الشخصية أسراراً ومشاعر وانطباعات، ويمكن لها أن تكون شكلاً تعبيرياً، إذا ما عبر الكاتب من خلالها، إلى كتابة حياة الناس.

وتطرح قضية النوع الأدبي لكتاب «كما الإعصار» منذ العتبة النصية/ التصدير ص 5، والذي يشكل إحدى «النصوص الموازية المحيطة بالنص لتحقيق تجسيرا لفظيا وسيطاً يمهد الكاتب بوساطته، السبيل أمام القارئ للولوج إلى داخل النص»¹، حيث تبرز اليوميات نوعاً متّضح المعالم، كما يتأكد، من خلال قراءتنا تمثيلات متعدّدة لها في متن الكتاب. ونستقرئ النصوص الآتية على سبيل التمثيل:

1 - النصّ: «أجمل المواعيد» ص5، أدرج تاريخ كتابته في الحاشية السفلى، من الصفحة عينها (8 آذار 2021)، على أنه تاريخ مثل «أجمل المواعيد» بالنسبة إلى الكاتب، لأنه اليوم الذي أصبح فيه ولده والداً، متيحاً لجان ولزوجته نوال رتبة الجدّ والجدّة؛ وتحيلنا ضمائر المتكلم المفرد، الجمع والمخاطب (ولدي- علينا- شبابنا- حماك) على المنحى الذاتي في الكتابة/ التسجيل.

2 - النصّ: «اللغة العربية: اليوم العالمي في 18 كانون الأول» ص11، يترافق وحاشية سفلية أظهرت موقع وزمن نشره (11 ك1 2021) - في حين أنّ النصّ السابق في ترتيب مادّة الكتاب لاحق زمنياً، على النصّ الثاني- يحدّثنا الكاتب عبر سطره، متبنياً ضمير المتكلم المفرد، عن قصّة «حدثت معي بالأمس، إذ اتصلت بي أمّ طالبة في صفّ البريفه...» مفادها اعتقاد الابنة بموت كلّ أصحاب النصوص العربية التي يدرّسها الطلاب في مدارسهم، ما يجعل الكاتب يتفكّر في ظاهرة تكريمنا للمبدعين الراحلين، متجاوزين الاحتفاء بالأحياء منهم.

3 - النصّ «ماجد الدرويش: أيام الماضي عودي» ص 17، نقرأ في الحاشية السفلية موقع وتاريخ النشر: موقع ALEPH-LAM، 25 أيلول 2020. تاريخ يشي

1- نجاة عرب الشّعبة، عتبة التصدير في الرواية العربية المعاصرة، مجلّة النصّ، مج 8، عدد1، 2022، ص 533.

مجدداً بفقدان ترتيب زمن الأحداث تصاعدياً، فالكاتب في هذا النصّ مسكون بهاجس تفاصيل اللقاء الأوّل الذي جمعه بالشيخ ماجد الدرويش «أعود إلى بدايات معرفتنا: كان اللقاء الأوّل معه حول كتاب، أردت أخذ رأيه قبل نشره، ففاجأني بمقدمة مسبقة للكتاب...»؛ ومن ثمّ يستتبط في نصّه، تمايز هذا الشيخ حضوراً، وثراءً معرفياً، وتواضعاً يحقّر على حبّ العلماء الذين يماثلونه فكراً وروحاً؛ وبذلك، نجد الكاتب يستحضر هذه الشخصية عبر توصيف سلوكياتها المحمودة، ومن خلال إطرانها.

4 - النصّ: «أرجوحة نوم» ص 67، الحاشية السفلية: موقع ALEPH-LAM 8 حزيران 2021، يقف الكاتب في موقع المتأمل لجزئية من جزئيات الحياة اليومية للمخلوق البشري، يتفكّر في ذكاء من نحت من كلمتي المخّ والخذّ كلمة المخدّة، وهو يلقي برأسه مجهداً عليها، يوصّف مجرداً من ذاته آخر يخاطبه، حالة التنازع في الذات أمام تدفق العوامل المتعددة التي «تتاديك» «من لوحات الجدران، والضوء من السقف، ومعارض طفولتك، ووجوه من أحببت»¹؛ ليخلص إلى أنّ هدأة ما قبل الغفوة استيقاظ لعالمه الداخلي، وتنبّه إلى ما كان، وإلى ما سيكون.

5 - النصّ: «المولد النبوي الشريف»، في الحاشية السفلية: موقع وزمان النّشر: الفايسبوك - 10-28-2020، تأمل في معنى عيد المولد النبوي، وفي استدعائه المحبّة في قلوب البشر، ودعوته إلى التقلّت من إفسار المحدودية وقصور الرّؤية: «هي دعوة إلى الخروج من محدوديتنا إلى حيث يأخذنا المولى بكليتنا إليه في مجانية الحبّ، ولا محدودية العطاء»²، تهيمن الخطابية على النصّ.

6 - النصّ: «جميل عكاري» ص 262، الحاشية السفلية: موقع ALEPH-LAM، 262، استحضار لشخصية الطبيب جميل عكاري، ولتفاصيل العلاقة مع هذه الشخصية المنتمية إلى مدينة الميناء، والمحبّة لناسها، والمتواضعة لهم ولحاجاتهم إليه. ويبرز في النصّ توصيف الشخصية/ الأنموذج للمتعلّم الفاعل في مجتمعه وبيئته.

1 - كما الإعصار، م.س، ص 31.
2 - كما الإعصار، م.س. ص 233.

7 - النَّصّ: «هاشم الأيوبي: أمير موسم «قطاف الخريف»، في الحاشية السّفلية: موقع ALEPH-LAM 6 شباط 2023، ينتقي الكاتب مناسبة عيد مولد المحتفى به، ويلوغه سنّ الخامسة والسّبعين، مقترناً بصّور مجموعته الشعريّة «قطاف الخريف»، فيحيي هذه الشّخصيّة الأدبيّة المبدعة، مستعيداً بلغة شعريّة مائزة مسار صاحبها منذ بدايات رحلته التّعلّميّة: «ورد الهاشم إلى موارد العلم بين بيروت وبرلين وعواصم أمّهات الكتب. أبحر في دكاكين الكتّانيب، لازم الخطّاطين، تلقّن الكلمة الموحية على يد شعراء كبار في حواضر الأماسي، ولو كلّفه ذلك العودة ليلاً سيراً على القدمين من طرابلس إلى بلدته في الكورة»¹، والنّصّ يغادر الانطباعيّة إلى عناية واضحة باللّغة الّتي تبنّاها الكاتب في صياغته نصّه، ما منحه أبعاداً شعريّة عكست مشاعر المحبّة الّتي يكتنّها الكاتب حيال صاحب المناسبة، فتبلورت صوراً مؤثّرة من مثل: (إنّ قصدته برأي خرجت بشال قصائد/ لا سلطان له إلاّ سلطان الحبّ/ إن استشرته خرجت متخايلاً بعباءة شواهد لكبارٍ من خليل حاوي، والسّيّاب وأدونيس...).

استنتاج

أ - غلب المنحى السّرديّ الوصفيّ الواقعيّ الحميم والإنسانيّ، على النّصوص/ الشّواهد، ما يدرجها في خانة اليوميّات الّتي ترد فيها الأحداث منقطّعة، تنفّر إلى المنظور الاستعاديّ في القصّ الّذي يحكم مسار الكتابة السّيرة الدّاتيّة. واعتمدت هذه اليوميّات في أسلوبها على اللّغة المكثّفة، وتبنّت الطّريقة المركّزة، حيث تمّ فيها إخضاع عرض الأحداث إلى «سلطة الرّمن اليوميّ»، وتقيد - كاتبها - كتابياً بالظّروف الزّمكانيّة والنّفسيّة والاجتماعيّة، لكيفيّة اليوم الّذي تسجّل فيه كلّ يوميّة، وهي «لا تعتمد على آليّات السّرد الاسترجاعيّ كما هو الحال في سرد السّيرة الدّاتيّة؛ لأنّ الرّمن الحاضر الآنيّ هو الرّمن المهيمن في كتابة اليوميّة»²؛ لذلك، وجدناها تنفّذ تقنياً إلى ترتيب زمن الأحداث بشكلها التّصاعديّ، حيث تمّ تدوينها منفصلة يوماً بيوم، مع رصد للأفكار والمشاعر والانطباعات، وميل إلى التأمّل الدّاتيّ في انفعالات الدّات، وفي تأثيرات الآخرين على هذه الدّات.

1 - كما الإعصار، م.س. ص 106

2- محمّد صابر عبيد، السّيرة الدّاتيّة الشعريّة، الأردن: عالم الكتب الحديث، 2008، ص 131.

ب- مصطلح المذكرات: هي نوع من الكتابة الشخصية التي يركّز فيها صاحبها على تسجيل مذكراته، وتسجيل ما يجري من أحداث واقعية من منظوره، و«تعدّ بمثابة شهادة على مرحلة تاريخية معينة»¹، بمعنى أنّ مضامين المذكرات تهتمّ برصد الأحداث الواقعية وتسجيلها، ويعنى كاتبها بتصوير الأحداث الواقعية أكثر من اعتناؤه بواقعه الذاتي؛ وعليه، فالمذكرات تمثل إعادة بناء لواقع غابت تفاصيله أثناء الكتابة، واتّجاه إلى: «التاريخ والأحداث والموضوعات، والقضايا أكثر من اتّجاهها إلى البناء الشخصاني للزاوي كما هو»²، في حين يقتضي البناء السيريّ التزاماً بحدود الشخصية في خصوصياتها الذاتية، وفي خروجها إلى الأحداث والموضوعات والقضايا؛ كذلك، نلحظ قصر الاسترجاعات في متون المذكرات، والتي تطول في كتابة السيرة الذاتية.

أما تمثيلات هذا النوع فتبرز في النصوص/ النماذج الآتية:

1 - النصّ: «ليلة رأس السنة»، ص 52؛ نصّ قصير: يقع في عشرة أسطر، ويبدأ النصّ بإسناد فعل التذكّر إلى واو الجماعة في الصيغة المضارعية «يستذكرون»، لاستعادة ما «جرى من مائة وثلاثين سنة لما اتصلت مدينة الميناء بالخارج عملياً»³؛ فالحدث هامّ وجلل، يتمثّل في تأسيس شركة مساهمة، برأسمال كافٍ لإنشاء طريق جديدة تسير عليها المركبات؛ ليتّم بعد ذلك، تدشين الطريق في شباط 1880، ويمثّل المكتوب بذلك، شهادة تاريخية يدلي بها الكاتب، ويرصد بوساطتها هذا الحدث التاريخي، محتفظاً بمسافة زمنية فاصلة، عن المشهد المستحضر.

2 - النصّ: «الميناء هبة البحر» ص 43؛ يرصد توما من خلاله، نهوض (إنشاءات معرض طرابلس الدولي) (أدرجته منظمة الأونيسكو حديثاً ضمن لائحة التراث العالمي)، ويستذكر الجهود المبذولة من المهندس البرازيلي أوسكار نيماير، في سبيل استيلاء أشكال المعرض الهندسية، مع التنبّه إلى خصوصية العام 1977 تاريخ

1- عبد العاطي إبراهيم هواري، لغة التهميش - سيرة الذات المهمّشة، الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، 2008، ص 23

2 - م.ن. ص 29

3 - كما الإعصار، م.س. ص 52

«انطلاق ورشة بناء ضخمة في المنطقة الغربية للمدينة، وصارت المربعات السكنية منعزلة عن بعضها البعض، في غياب وحدة الهم عند السكان الجدد»¹، منوهاً بالتطور العمراني في المدينة، من دون أن تغيب عن باله، التدايعات السلبية له، والمتمثلة في غياب «وحدة الهم» عند السكان الجدد، بمعنى انتفاء قيمة خلقية سامية لطالما اتسم بها سلوك السكان الأصليين من أبناء المدينة.

3 - النَّص: «عصير الليمون يحيي المكنون» ص 37؛ يسلط الكاتب ضوءاً في هذا النص، على «التراث المملوكي ومنقرقات من الآثار الفينيقية والبيزنطية والإفريقية والعربية»²؛ تلك الآثار التي منحت داخل المدينة العتيقة طابعها الأثري المائز، مُدينًا بشكل مباشر، تخريب مدينة طرابلس القديمة، بإقامة القيمين مسرى باطونياً على مجراه، بسبب من طوفانه في يوم من الأيام، «يوم حملوا نهر قاديشا أو (أبو علي) جريمة طوفانه وخراب المدينة عام 1955، وعاقبوا مجراه بمسرى باطوني»³، موجهاً أصابع الاتهام إلى المسؤولين المتعاسين عن إنقاذ التاريخ الطبيعي/ البيئي والإنساني (وبائع عصير الليموناضة أحد رموزه)، وتقصيرهم عن حماية المعالم الهندسية والعمرانية الراقية التي عرفها تاريخ المدينة.

4 - النَّص: «من طرابلس، إلى الأسكلة، فالميناء» ص 40؛ يستعيد ابن الميناء في النص المذكور، ذكرى تغيير اسم مدينته وفق مجرى الأحداث التاريخي: «في مثل هذا اليوم 19 أيلول 1979، اتخذ مجلس بلدية الميناء، توصية طالب فيها بتغيير اسم (الأسكلة) إلى (الميناء). كان اسم المدينة قبل العام 1289م طرابلس، ولما انتصر سلطان المماليك قلاوون على الفرنجة، دمر طرابلس البحرية، وبنى قرب القلعة طرابلس النهريّة على ضفاف نهر أبي علي»⁴. ويبدو الكاتب معنياً بتسجيل هذا الحدث التاريخي مركزاً على الوقائع، من دون العناية بأدبية نصّه.

1 - كما الإصعاص، م.س. ص 43.

2 - م.ن. ص 37

3 - م.ن. ص 38

4 - كما الإصعاص، م.س. ص 40

5 - « قلب المدن » ص 41؛ يشكّل ما يشبه الأرشفة لذاكرة العمران في مدينة طرابلس، حيث يتمّ توثيق تواريخ افتتاح شارع «بور سعيد»، و«مار الياس» فيها؛ ففي العام 1954 تمّ فتح شارع بور سعيد ومار الياس، في تخطيط وضعه الفرنسيون عام 1936، واستكمل 1947. كذلك، يتّخذ الكاتب الذّكرى مناسبة لاستدعاء ذكرى أكثر قدماً، تمثّلت في إقامة متصرّف طرابلس عزمي بك العام 1908 شارعاً ما زال معروفاً باسمه، في قلب بساتين اللّيمون، وذلك قبل أن يصبح والياً على بيروت العام 1915، منوهاً كذلك بقسمة الشّارع الجديد «الميناء» إلى مربعين: الميناء القديمة، والميناء الجديدة، مدرجاً المرسوم البلديّ 16352، وموثّقاً تاريخ صدره 2006/10/2، مع ما حمله من قرار برفع التّخطيطات، عن أكثر من 500 بيت، في الميناء القديمة.

6 - النّصّ: «قطراني»، ص 47؛ وفيه بسط للحديث عن خشب «أرز لبنان» الذي ارتفع أسقفاً داخليةً للبيوت، وتمييزه عن سواه، من أخشاب تُدهن بمادّة القطران، مثنياً على نوعه، وعلى وجوه تصنيعه منتجاتٍ كالآثاث، والأبواب، والزّورق لمتانتة، معيداً تاريخ استخدامه إلى زمن الهندسة العثمانية، مذكّراً باستخدام الممالك له، في بنائهم طرابلس النهريّة عام 1289م.

7 - النّصّ: «طرابلس... جامعة النّاس»، ص 63؛ وفيه يسلّط الكاتب الضّوء، في نصّه هذا، على تجدّر بعض السلوكيات الاجتماعية الخلفية من تكافل، وانفتاح، واحترامٍ للآخر ميّزت مدينة طرابلس منذ العهد التّركي، حيث يحتفي النّاس بالتهوض للتّسحر، مستضيئين بإشعال «الدّومري» للفوانيس، وتتمّ دعوة المسيحيين لمشاركة الصّائمين المسلمين طعام الإفطار، فيحترم الآخرون مشاعر من دعا، ويلتزمون بفريضة الصّيام حتّى يصحّ الأجر: «اعتاد النّاس في العهد التّركي على «الدّومري» الذي يمرّ ليلاً في الأحياء لإنارة الفوانيس... ومن المعروف أنّ المسيحي إذا دعي إلى إفطار صام نهاره؛ ليكون إفطاراً مباركاً ومحموداً»¹، مقدّمين بذلك أنموذجاً راقياً عن تعايش الطوائف، مع بعضها بعضاً، بمحبّة ووثام.

1 - كما الإعمار، م.س. ص 64-63

استنتاج: يلاحظ في الشواهد الموظفة، تسجيل جان توما مذكراته عن المرجعي الواقعي الذي عايشه، بلغة غلبت عليها الموضوعية، والمنحى التاريخي في التدوين، عبر استدعائه الكثير من الأحداث، والوقائع التاريخية التي عرفتها مدينتنا طرابلس والميناء وجوارهما؛ استعادها جميعاً من منظوره، متقاطعةً مع اهتماماته المتمثلة، بضرورة الحفاظ على القيم الإنسانية الراقية التي تواضع عليها أهل المكان سابقاً، وحماية طبيعة المدينة الجمالية التي كانت حافلة ماضياً ببساتين الليمون، وبروائح أشجارها العطرة، والتي تم اختراقها، أو شطرها، أو إزالتها لصالح العمران وأطنان الباطون، مقدماً بذلك ما يعدّ شهادة حيّة على مرحلة تاريخية معينة، من خلال مضامين المذكرات التي عُيّنت برصد الوقائع، وبتسجيلها، وبتصوير الأحداث الواقعية أكثر من عنايتها، بواقع كاتبها الذاتي.

أنواع أدبية أخرى: على أنّ في الكتاب أنواعاً أدبية أخرى يمكن رصدها، ودراسة تمثلاتها، إلا أنّنا نترك المجال، لباحث جديد يتحرى غنى هذا المنتج الأدبي، في أبحاث أخرى، أذكر منها على سبيل التمثيل، نصّاً أدرجه في باب الخاطرة الوجدانية (ما يخطر على البال)، وهو نصّ: القناديل، ص56: ضجرت قناديلُ بلادي / من العواصف والأنواء / اشتاقت لشراعها يتهادى في وجه النسائم / شعبي واقفٌ على أرصفة الرّحيل كمصباح تتلوى ناره / بالقلق، بالشوق والحنين / أمّهات تلوح لأولادها بمناديل السفر / ودموع الوجد حاملةً بميناء أمين.

وفيها، كما نلاحظ، يشخص الكاتب، بوساطة خاطرة -والخاطرة وليدة فكرة عبرت في ذهن قائلها- قناديل الوطن التي سئمت من المشقات الكثيرة، كما يعبر، ومن الأزمات التي لا تتي تتوالد في أنحاءه، فباتت تضيق بدموع الأمهات اللواتي صرن يودعن أفواجاً تلو أخرى من الأبناء، ويسكنها حلم الوصول إلى ميناء آمن لا يعرف الأوجاع.

تشي هذه الخاطرة بحالة شعورية عاشها توما، هي حالة الألم والحزن تسببه هجرة الأبناء المتوالية، فيعبر بأدبية شقافة، وبلغة بسيطة صافية، عن المعنى الذي سكنه، وحرك وجدانه.

هذا إضافة إلى الرسالة الأدبية التي نضحت شعريةً وجماليةً لغويةً ثريةً، فاستوت في الكتاب مرآةً تعكس وجدان الكاتب ورهافته الكامنة، مفارقةً بلغتها بشكل عام اللغة التي وظفها توما في يومياته، وفي مذكراته، والتي بدت أقرب إلى الموضوعية، وإلى الاقتصاد. وأكتفي بتوظيف شاهد يؤكد ما أذهب إليه:

1 - النَّصّ: (4 أب: رسالة من أم إلى ابنها) ص 171؛ برزت بعد العنوان، لوحة موحية للفنان فضل زيادة تتقاطع في مضمونها، وفي ألوانها، مع مضمون النصّ (مشهد صحراء ممتدة باهتة اللون، في مقدّمة اللوحة حذاءان فارغان (لرجل)، على مسافة أمامهما تلةٌ دارسة، وكأنها قبر تُعمل الريح عملها تموجاتٍ وأشكالاً، على سطحه). ويتموضع الكاتب، في الرسالة، في موضع الأمّ التي مات ولدها في انفجار مرفأ بيروت، يحكي بلسانها، حسرتها متيحاً لها تصوير آلامها، وأحزانها الطّاحنة، وهي تخسر بعضها، أو كلّها «كأنك بعضٌ من بعضي، بل كلّي، تسكن أمني ووعدي».

يتمّ إسناد القول إلى ضمير المتكلم، فيكتسب الكلام طابع البوح الوجدانيّ الشّفيف؛ ليتمكّن من توصيف كلّ الأذى الذي لحق بالأمّ، وبمثيلاتها من الأمهات اللواتي تكلن أبناءهنّ: «تركتُ باب المنزل مفتوحاً لك يا ولدي، قلت: لربّما عدت من بين دخان الموت، وغبار البيوت المهذّمة»؛ فيدخل الكاتب إلى عمق تجربة الأمّ ومأساتها، فيصير لسان حالها، فتبدو تجربتها في لحظات، غير منفصلة عن حياته، ما يصير كتابتها كتابةً للمجتمع، وتعبيراً عنه، ورصدًا لتحوّلاته من فرح وطمأنينة إلى موت، وحسرة، وخواء، وتأملاً في تجاربه ووقائعه، وما يعنّ على بال الكاتب من أفكار وملاحظات وتدايعات؛ ليختلط بذلك، الوعي الفردي بالوعي الجمعيّ.

خاتمة البحث: تظهر الشواهد الموظفة الفعل الانتقائيّ الذي مارسه الكاتب في ترصد المذكرات، واليوميات المدوّنة، والتي وردت فيها الأحداث متقطّعة، وكتابتها يؤرّخ الشّخصيّ مستعرضاً أبرز المحطّات الحياتيّة، عبر تعاقب الزّمنيّ غير المتوالي، متخذاً الصّدق منهجاً في نقل الأحداث، والأمانة سببياً في عرضها، فكان تسجيله لها متقطّعا، لا يشكّل بنية نصيّة متكاملة و متماسكة، ينصرف الكاتب إلى العناية بها، أو إلى تدبيجها.

التزم جان توما في تسجيل هذه الأحداث/الوقائع، بالظروف الزمانية، والمكانية، والاجتماعية، والنفسية التي تعرض لها، أو غرق فيها، واكتفى أحياناً بالتعليق عليها، وأحياناً أخرى بالاسترسال في ذكرها، أو في تذكّر تفاصيلها.

هيمن الزمن الماضي في معظم تلك النصوص، في استرجاعات سريعة مكثفة: «كان الخشب - ارتفع - صنعوا/ ضجرت - اشتاقت - تركت - ابتلعك حوث الردي/ كنت أستعدّ لمهاافته لتسليمه نسخة من كتابي الجديد، حين وصلني نعيه صباحاً»¹.

تجلّت لدى توما، قدرة الذاكرة التي تعي تفاصيل المكان، وتفاصيل حياة إنسانه، وتعباً بأحداثه المهمة، فتعمل على التسجيل والتوظيف للحظات، ومواقف وأحداث فارقة، إلا أنّ الكاتب لم يلتزم في استرجاعاته بالزمن الخطّي، ما جعل كتابته تخرج من تصنيف السيرة الذاتية، إلى بعض مساراتها الأخرى، لا سيما اليوميّات والمذكرات.

يكشف البحث سعي الكاتب، إلى مناوأة التغيّر/ المسخ، من خلال المكتوب، فهو يكافح بالنثريّ الذي اتسم بالشعرية - في نصوص بعضها - كالرسالة مثلاً، يغزل في رحابه، فضاءً متحدثاً لهذا التغيّر القسريّ، وظهر فعل التأمل الذاتي محاولة من قبله، لمكافحة النسيان، أو النكران، واعتداء الزمن على الوجود الإنسانيّ القيميّ الذي منح المكان المحليّ هويته المميزة، فتمكّن جان توما بذلك، من إقامة بناء سرديّ ناطق برويته، إلى العالم المحليّ الذي أحبه ويحبه، مشكلاً بوساطته الفضاء السيريّ الذي استعادته كتابةً، ونعني بالفضاء المكان الجغرافيّ وأشياءه، والعلاقات التي تتخلّق بينهما، وبين بعض الشخصيات المستحضرة بالذكر: (تأبيناً - تكريماً واحتفاءً بخصالها) / أو بالقول المباشر، تحكي هي بأصواتها (رسالة الأمّ في 4 آب)، ما ولدّ وظائف المرجعية، والإيهام بالصدقية، وتنمية السرد الجاذب.

تميّز جان توما بأسلوب نثريّ بسيط، بعيد من التعقيد واللبس والغموض، واللغة القاموسية، في نصوص متفاوتة الطول، خضعت في تصميمها لرغبته التعبيرية، بدليل أنّ بعض النصوص تصدرتها لوحات موحية تقاطعت، مع مضامينها؛ وإذا كانت بعض نصوص الكتاب تصنّف ضمن أنواع أدبية سوى اليوميّات والمذكرات، كالخاطرة

1 - كما الإعصار، م.س. ص 265.

الوجدانية والرسالة الأدبية على سبيل التمثيل، فإنّ القارئ المتمعن سيقع حتماً، بين دفتي الكتاب، على أنواع أخرى كالقصة القصيرة، والمقالة، وترجمات بعض الشخصيات... ما يعكس ثراء المخزون اللغويّ المعرفيّ عند هذا الأديب الملتزم.

هذا وقد توارت الأنا/الكاتبة أحياناً، لصالح أنا/الآخر، تستحضر هواجسه، وترقبه، وأرقه وحنينه، ما جعل الكتاب يتسم بوحدة شعوريّة ذات أبعاد إنسانيّة، ظهرت تجربة جان توما التثريّة شكلاً من أشكال الوعي الإنسانيّ، في علاقته بالزّمان، وبالمكان، وفي توظيفه اللّغة السّاردة وسيلة مثلى لتسليط الضّوء على جدليّات: التّاريخ/ الذاكرة، البقاء/ الهجرة، موت الجسد/ خلود النّفس، وبقاء ذكرها الحسن...

وإن كان لنا أن نستشفّ تأويلاً لمنظور أيديولوجيّ هيمن على ذهن الكاتب، في إنتاجه نصّه/ كتابه هذا، هاجساً لم يصرّح به، وإنّما تشكّل في دلالة كليّة يدركها المتلقّي المستقرئ له، عند اكتمال الدّوال اللّفظيّة وتآلفها» على اعتبار أنّ كلّ نصّ له متصوّر ذهنيّ غائب، أو وهميّ في وعي المتلقّي، يتشكّل لديه من تراكم الخبرات القرائيّة، والمخزون الذاكريّ، وما تضيفه قدراته الإبداعية من خلق وابتكار»¹، فإنّ لنا أن نختصر ذلك بعبارة كاشفة مفادها: بالكتابة وحدها يكون حفظ التّاريخ، وهزيمة الموت، وانتصار الإنسان على قسوة الزّمن.

1 - عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشّعر العربيّ، سوريا: دار صفحات، 2012، ص 12.

مكتبة البحث: أولاً: المصادر

عبدالله توما، جان، كما الإعصار، بيروت: منشورات منتدى شاعر الكورة الخضراء، ط1، 2022.

ثانياً: المراجع: المراجع العربيّة

- ألفا روني، إيلي، ونخل، جورج، أعلام الفلسفة العرب والأجانب، بيروت/ لبنان: دار الكتب العلمية، ط1، 1412هـ - 1993م.

تليمة، عبد المنعم، مقدّمة في نظريّة الأدب، القاهرة: دار الثقافة، 1973.

حسين حسين، خالد، في نظريّة العنوان، مغامرة تأويليّة في شؤون العتبة النصّية، دمشق: دار التكوين للنشر، 2007.

حشيمة، كميل (الأب اليسوعي)، المؤلفون العرب المسيحيون من قبل الإسلام إلى القرن العشرين، بيروت: دار المشرق، ط1، 2011.

زراقت، عبد المجيد، في السرد العربي... شعريّة وقضايا، بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم، ط1، 2019.

الرباعي، عبد القادر، تحولات النّقد الثّقافي، عمان: دار جرير للنشر والتوزيع، ط1، 2007
شربل، مورييس حنا، موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب. طرابلس/ لبنان: جروس برس، 1996، ص227.

عبد الدائم، إبراهيم يحيى، التّرجمة الدّائميّة في الأدب العربيّ الحديث، بيروت: دار النهضة العربيّة، 1974.

عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربيّ، سوريا: دار صفحات، 2012،
عبيد، محمّد صابر، السيرة الدّائميّة الشعريّة، الأردن: عالم الكتب الحديث، ط1، 2008.

الفارابي، أبو نصر محمد، التعليقات، الهند: طبعة حيدر آباد، 1929، ص21.
لحمداني، حميد، أسلوبية الرواية - مدخل نظريّ، الدّار البيضاء: مطبعة النّجّاح الجديدة، منشورات دراسات سيميائية أدبية لسانية (سال)، ط1، 1989

المسدي، عبد السلام، النّقد والحداثة، بيروت: دار الطليعة، ط1، 1983.
مفتاح، محمّد، ديناميّة النّصّ (تنظير وإنجاز)، الدّار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ، ط2، 1990م.

هواري، عبد العاطي إبراهيم، لغة التّهميش - (سيرة الذات المهمّشة)-، الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ط1، 2008.

يعقوب، إميل، موسوعة أدباء لبنان وشعرائه. بيروت: دار نوبيليس، ط1، 2006.

ثالثاً: المراجع المعربة:

- ويول، براون، تحليل الخطاب، تر. محمد لطفي الزليطي ومنير التركي، الرياض: دار الفجر للتوزيع والنشر، 1997.
- لوكاتش، جورج، الرواية كملحمة بوجوازية، تر. جورج طرابيشي، بيروت: دار الطليعة 1979، ص. 60.

رابعاً: المراجع الأجنبية

- Philippe le Jeune: Le pacte autobiographique ,édition Seuil, collection : poétique, Paris 1975.
- Petit Larousse illustré. Librairie Larousse. Rue de Montparnasse. Paris. 1977

الدوريات:

- عرب الشّعبة، نجاه، عتبة التصدير في الرواية العربية المعاصرة، مجلة النّصّ، الجزائر: مخبر النّصّ المسرحي، مج 8، عدد1، 2022.

خامساً: المعاجم

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت: دار الكتب العلميّة، ط1، مج4، 2003.
- البعلبكي، منير، المورد، بيروت: دار العلم للملايين، ط37، 2003.
- بوقرة، نعمان، المصطلحات الأساسية في لسانيات النّصّ وتحليل الخطاب، عمان: عالم الكتب الحديث، ط1، 2009
- الزبيدي، السيّد المرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت: مكتبة الحياة، مج1، ط1، 1304 هـ.
- زيتوني، لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون - دار النهار للنشر، بيروت، ط1، لات. - مجمع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط، القاهرة: مكتبة الشّروق الدوليّة، ط4، 2004.

سادساً: المواقع الإلكترونيّة

www.almaany.com

<https://artpress.ma/article8612/>

إشكالية المقدس اللغوي في العربية

The Problematic Of The Linguistic Sacred In Arabic

د. محمود خليل¹

Dr. Mahmoud Khalil

تاريخ القبول 2024 /8/28

تاريخ الاستلام 2024 /8/16

الملخص

يتناول بحثنا هذا قضية «إشكالية المقدس في اللغة العربية» ويبين أنها - أي اللغة - تميّزت عن سواها من الألسن الأخرى بمجموعة كبيرة من المزايا والخصائص التي جعلتها في موقع الصدارة بين سائر اللغات.. ثم حاولت هذه الدراسة أن تعالج قضية المقدس اللغوي كإشكالية ظاهرة على مستوى الوجود اللغوي في العربية، وعملت على ما قدمته من خلال بعدين اثنين: السمات الطبيعية في العربية، والنص ذاته وما يمثله من قداسة حتمية ذاتية. وذلك من خلال تحولاتها المختلفة، وأيضاً من خلال قداستها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وبعض النصوص الأدبية الراقية «نماذج مختارة» وصولاً إلى الدرس اللغوي عند ثلة من علماء العربية الأقدمين.

الكلمات المفاتيح: الإشكالية - المقدس - اللغة - اللسان - النص - القرآن الكريم - الحديث النبوي - النثر - الشعر - المعنى - المبنى - التحوّل - الإبداع.

Abstract

This research deals with the issue of the sacred in the Arabic language, and it shows that this language is distinguished from all other languages by a large number of features and characteristics that have placed it in

1- أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية الدولية.

Assistant professor at Lebanese International University. Email: dr.mahmoud-khalil73@outlook.com

a leading position, among all those languages. Then, the study at hands has tried to address the issue of the linguistic sacred as a problem that appears at the level of linguistic existence in Arabic and worked on what it has presented through two dimensions: the natural features in Arabic, and the text itself and what it represents in terms of inevitable intrinsic sanctity, through its various transformations and also its sanctity in the Holy Qur'an, the Noble Prophetic Hadith, and some high-level literary texts «sample models,» including the linguistic study of a group of ancient Arabic scholars.

Keywords:

The problematic – The sacred – Language – Text – The Holy Qur'an – Hadith – Prose – Poetry – Meaning – Style – Transformation – Creativity.

المقدّمة

تميّزت العربيّة عن سواها من الألسن بمجموعة كبيرة من المزايا والخصائص التي جعلتها في موقع الصدارة بين سائر الألسن. وقد جرى اللّسان بين النقاد والباحثين على استخدام لفظ «اللّغة» في موقع اللّغة واللّسان على حدّ سواء، أما فيما يختص، بموقفنا نحن تجاه هذه المسألة، وتجاه التمييز بين اللّغة واللّسان، فإننا وإن كنا نقرّ اللّسان على أنّه خصوصية لغوية يقوم ما أو شعب ما، فنحن نفضل إطلاق لفظ «اللّغة» على العربيّة رغم معرفتنا بأن اللّغة هي ذلك النّظام العام الذي يستخدمه سائر الناس وهو نظام مشترك بين جميع أفراد البشر، وما يدفعنا إلى ذلك ذلك الاتساع الهائل للغة العربيّة على مستوى دلالاتها من جهة، وعلى مستوى غناها اللفظي من جهة أخرى. فنحن نرى أنّ العربيّة نظام قائم بذاته، له مزاياه النحوية والبلاغية، والسياقية بما لا يشبه سائر ألسن البشر. فمن ناحية سعة اللّغة العربيّة فإنّ فيها ما لا يوازيه لسان في العالم فمفرداتها تكاد لا تحصى، ففي الحقل الدلالي المختص بالحزن – مثلاً – تجد الأسى، والكرب والهَم، والنّرح، والشجن، والغم، والوجد، والكآبة، والجزع، والأسف، واللهفة، والحسرة والجوى،

واللوعة، والحرقة وسواها في الحقل الدلالي نفسه، ولكل (لفظ) من هذا الحقل خصوصية دلالية قائمة بذاتها، ويضاف إلى هذا القدرة لدى العربيّة في التمييز بين المذكر والمؤنث في اللفظ الواحد من خلال زيادة التاء المربوطة، كما في قولك قارئ وقارئة أو قاتل وقاتلة في حين يعبر بالإنكليزية عن هذين المعنيين في التذكير والتأنيث بمعنى واحد كما في قولك (Reader, Killer). وتكاد لا تحصى تلك الخصائص التي تتميز بها العربيّة عن سواها كخاصية التّخفيف كما في قولك (ميعاد) وأصلها الصرفي (موعاد) فأبدلت الواو بالياء وذلك لتسهيل وتخفيف النطق، ومن أبرز ما يعنينا في هذا المقام وصف العربيّة بأنها لغة معجزة، ونقصد بمصطلح المعجزة عدم قابلية العربيّة للترجمة في معظم مبادئها الدلالية حيث تمتنع الكثير من المعاني والدلالات عن الانتقال إلى غير العربيّتين وبطريق خاص الشّعريّ العربيّ والنّصّ الدينيّ العربيّ، ولهذا نجد أنّ معظم النّصوص المتميّزة بمستويات دلالية عالية لم يتمكّن أحد من ترجمتها وما سمي لها من ترجمات لا يعدو كونه نقلاً للمعنى - ليس إلّا - ونجد تلك النّصوص المترجمة إلى غير العربيّة قد فقد الكثير الكثير من مستويات دلالاتها وسقطت من أعلى إلى أسفل، في حين نجد العكس تماماً عندما نقل نصّاً من لسان غير العربيّة إلى العربيّة حيث «يعلو النّص إلى مستوى أرفع عندما يتلبس بالعربيّة»¹.

لقد كانت ولا تزال العربيّة لغة قادرة على استيعاب أي معنى في الحياة، وهي لغة مطواعة تمنح ناطقيها والعارفين بأسرارها من جهة الإبداع والتفوق لمن كان يرجو الإبداع والتفوق. وليست الحال واحدة في جميع اللّغات جميعها أو الألسن كما يعتقد بعضنا وذلك يرجع إلى خصوصية كل لسان على حدة، فإن أي لغة تمنح ناطقيها مجالاً كبيراً ومساحة واسعة للتعبير، لكن الأمر مختلف في العربيّة والفرق شاسع وكبير بين ما تقدمه العربيّة وسائر الألسن. وفي بحثنا هذا نتقصى واحدة من أعظم ميزات العربيّة، وهي صفة القداسة، بما تمثّلت به من عظمة بالغة بعد نزول القرآن الكريم، وسنسعى في بحثنا هذا إلى تظهير هذه الإشكاليّة وملابساتها وما يرتبط بها.

1 - محمّد صابر عبد الإله، أحاديّة اللغة العربيّة، بغداد، دار الشروق، 1975، ص 30 - 34.

2- إشكالية البحث

يطرح بحثنا هذا «إشكالية المقدّس اللّغويّ» المقدّس اللّغويّ كإشكالية ظاهرة على مستوى الوجود اللّغويّ في العربيّة ويبحث في الموقف العام من الظاهرة، وطريقة التّعاطي معها، وما نقصده بالمقدّس اللّغويّ هو موجود ببعدين:

الأول: السّمات الطّبيعيّة في اللّغة العربيّة.

الثاني: النّص ذاته وما يمثّله من قداسة حتمية ذاتية.

وبناءً على هذا الموجود فإنّ البحث يطرح جملة من التساؤلات ويجب بطريق علمي وبدقة متناهية ومن جملة ما يطرح البحث:

1 - ما هو المقدّس اللّغويّ وما هي ملامحه في اللّغة العربيّة؟

2 - ما آثار المقدّس اللّغويّ على مستوى فهم النّصوص العربيّة؟

3 - هل من الممكن تجاوز هذا المقدّس الموجود معياريّ؟

ومن غير الممكن لنا أن نجيب على هذه التساؤلات من غير الوقوف الدقيق على مفهوم اللّغة وتعريفها وتاريخها، وعلى تلك التّحوّلات الكبرى التي حصلت للغة العربيّة منذ بدايات استخدامها إلى يومنا هذا، وقد يظن القارئ للوهلة الأولى أنّ مسألة القداسة اللّغويّة، - أو المقدّس اللّغويّ - كما افترضنا من عنوان لبحثنا هذا لا تعدو كونها مسألة افتراضية، ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ أحدًا لم يلتفت لهذه المسألة من قبل، وجلّ ما التفتوا إليه هو أن مثل ما ذكرنا من أمر وصفناه بالمقدّس اللّغويّ لا يعدو كونه مسلمة معيارية واعتبارية، وقد جرت سنن الأولين والآخرين على هذا المنوال في البحث اللّغويّ حتى صار الأمر طبعياً ومن المسلمّات، لكن هذه المسلمّات - هي مقدّسات بالمعنى الدقيق ولا يمكن لنا أو لأيّ باحث عارف باللّغة العربيّة أن يتجاوز هذه المقدّسات أو يهملها.

إنّ ما نفترضه في بحثنا حول «المقدّس اللّغويّ» هو فرض بالمعنى الوجودي الدقيق لواحدة من أهم ما ميّز اللّغة العربيّة من صفات رفعت مستوى أدائها وميزتها عن أي

لسان منطوق في العالم. فما هي هذه اللّغة وما هو هذا المكوّن السحري الذي بواسطته تتحقق المعرفة شكلاً وتلبس موضوعاً في الخارج؟

3 - ماهية اللّغة

عبّر ابن جنّي في تعريفه للغة بالقول: «أما حدّها فإنّها أصوات يعبر كل قوم عن أغراضهم»¹. وهذا التعريف لا يعدو كونه تعريفاً موضوعياً يحدد اللّغة بماهيتها الظاهرية على أنّها مجموع أصوات وهي مستخدمة لأجل التعبير عن أغراض متعددة مختلفة، وهي ذات صفة ألسنية متعددة حيث لكل قوم لسانهم الخاص بهم والذي يتواصلون به وهو يختلف بالشيء القليل أو الكثير عن سواه، وتعدّ اللّغة العربيّة واحدة «من اللّغات السامية المعروفة منذ القدم، وقد كانت لغة عاد، وثمود، وجديس، وجرهم، وكانت منتشرة في اليمن، والعراق، وتعدّ مرحلة الحجاز مرحلة النّضوج والاستقرار، وعلى وجه الخصوص عندما صارت لغة الدّين الإسلاميّ الحنيف حيث تحوّلت إلى ضرورة وحاجة ماسة لكل مسلم مؤمن بالدّين الإسلاميّ، وفي سياق الحديث عن ماهية اللّغة نذكر أنّ اللّغة نظام اجتماعي تابع للإنسان دون سواه حيث تشكّل أداة للتواصل ووسيلة فهم وإفهام، ووسيلة أساسية لتدوين العلوم وسائر النشاط الفكري. ووصف علماء الألسنية اللّغة بأنها كائن حي، وذلك لارتباط اللّغة بالإنسان، وهذه الفكرة نشأت في بيئة غربية حيث ربط الباحثون بين حركة تطور اللّغة والإنسان، والربط هذا نفهمه ببساطة تامة أما اعتبار اللّغة كائن حي من وجهة فسيولوجية تأخذ بعين الاعتبار مسالة نمو الخلايا وموتها بعد ضعفها، فإننا لا نؤيد هذا الرأي ولا نصدّق هذا القول، حيث لم تمت لفظة منذ الجاهليّة إلى يومنا هذا، وفي قبالة هذا قد نعترف بإهمال لفظة ما والتوقف عن استخدامها في زمن ما لكنّ هذا لا يعني موتها، ويمكن القول: «إنّ مقولة اللّغة كائن حي إذا فهمت من جانب فسيولوجي، وقورنت بالكائنات الحية التي تموت أنسجتها وخلاياها. ثم تظهر أنسجة جديدة، وفق نظام مقدّر من الله تعالى، فهي مرفوضة. وإذا فهمت من خلال ارتباط مصيرها بمصير الكائن الحي الناطق بها، فهي مقبولة، ويمكن تطبيقها

1 - أبو الفتح عثمان جنّي، الخصائص، تحقيق عبد الحميد هنداوية، بيروت، دار الكتب العلمية، جزء 1، ص 33.

على اللّغة العربيّة¹.

خلاصة القول في ماهية اللّغة تقضي بالاعتراف بأنّ بين اللّغة والإنسان علاقة ثابتة، حيث لا تتفك اللّغة عن الإنسان ولا ينفك عنها، كما وتُمثّل اللّغة الظهور الإنساني الأكبر والأعظم، حيث تتمظهر بواسطة اللّغة جميع أنشطة الإنسان الفكرية والثّقافية، والمعرفية، وهي التجسيد الأكثر ملاءمة للنشاط الفكري، واللّغة مدمجة في وجودها مع الإنسان منذ بداية الخلق والتّكوين إلى يومنا هذا، وهي شيء من الخلقة الإنسانيّة كما السّمع، وكما البصر، وسائر الحواس، والحديث عن ماهيتها حديث تكتنفه الضّبابيّة ويعتريه الغموض، ويحيط به التّساؤل، وذلك لأنّ اللّغة متعلّقة الإنسان ولا تتفك عنه وهي نشاط عظيم مرتبط بعقل الإنسان وفكره وحاجاته.

4 - تحولات اللّغة العربيّة

لا نقصد بتحوّلات اللّغة العربيّة تلك التّحوّلات الخاصة على مستوى متفرّق، كما هو الحال في لغة الشّعْر التي شهدت تحولات كبيرة منذ بدايات الشّعْر العربيّ في العصر الجاهلي إلى يومنا هذا؟ إذ شهدت لغة الشّعْر العربيّ تحولات متفاوتة منذ الجاهليّة إلى يومنا هذا؛ بل نقصد بالتّحوّلات تلك التّحوّلات التي طاولت اللّغة العربيّة بشكل عام، ومنها التّحوّل اللّغويّ بين الفصحى والعامية على سبيل المثال، أو تراجع اللّغة من مستوى عالميّ في انتشارها إلى مستوى أدنى كما حصل للعربيّة بعد عصر النهضة وتراجعها من مستوى انتشار دوليّ في العصر العبّاسيّ إلى مستوى انحسارها واقتصرها على العالم العربيّ كلغة رسميّة. لكن هذه التّحوّلات لا تعيننا الآن في بحثنا بطريق محدد وواضح، إنّما يعيننا ذلك التّحوّل الكبير المرتبط بمجمل بحثنا، «المقدّس اللّغويّ»، وهو نزول القرآن الكريم، الكتاب السّمائي الذي أحدث أعظم تحوّل في اللّغة العربيّة على مستوى وجودها، وخلق لها نظامًا تعبيرياً ذا مزايا خاصة تختلف عن جميع أساليب اللّغة العربيّة من قبل، ومن بعد. ولهذا السّبب أطلقنا على الطّريقة القرآنية لفظ النّظام ولم نسمه بالأسلوب، لأنّ النّظام موحد، والنّظام إطار عام كبير يندرج في طياته الأسلوب

1 - أيمن خالد شداد، اللغة العربية كائن حي، توافق أم تعارض، مقالة علمية منشورة في مجلة اللغة العربية، العدد 316، سنة 2012، الأردن.

وليس العكس.

بالطبع شهدت اللغة العربية العديد من التحوّلات الظاهرية التي أصابتها بسبب التغيرات الثقافية والحضارية على مرّ العصور. وكان أبرزها وأعظمها التحوّل الكبير الذي طرأ في عصر الحداثة، مع بدايات التحوّل اللغويّ عند شعراء الحداثة وأدبائها. وليس من شكّ في أنّ هذا التحوّل وقع إثر عوامل كثيرة ومتعددة، كان أبرزها الاحتكاك الواقع مع الغرب، والانتقال الحضاري الذي عقّد الحياة ودفّع بها نحو رفاهية عظمى وتبدلات كبيرة، هذه التبدلات خلقت معاني جديدة ألزمت الناطقين بالعربية بمواكبتها والعمل الدؤوب على استيعابها. وقد أدّت الحضارة بما خلقت من جديد نحو خلق كمّ هائل من الألفاظ الجديدة، وشحن العديد من الألفاظ بطاقة دلالية جديدة. وبين القديم والجديد يظلّ تحوّل نزول القرآن هو التحوّل الأعظم الذي أصاب اللغة العربية، وهو تحوّل أصاب ماهية اللغة، وروحها، إذ دفع القرآن باللغة من مستوى إلى مستوى أعظم وأعلى، وهذه القداسة التي منحها هذا النصّ الدينيّ للعربية سرعة في اللغة العربية في كلّ الاتجاهات وظهرت آثاره في الشعر، والأدب، والنثر وشكّل تحدياً كبيراً بالعربية للعربية على كافة المستويات في التعبير، والأشكال، والموسيقى، والدلالة. وبناءً على ما تقدّم ينبغي كشف اللثام عن هذا التحوّل الذي جرى منذ سنة 610 ميلادية أي ما يقارب ألفاً وأربع مائة وعشر سنوات.

5 - التحوّل الدينيّ في اللغة العربية

شهدت العربية تحوّلًا متميزًا عن أي تحوّل قد يصيب أي لغة في العالم، ويقولنا التحوّل الدينيّ فإننا لا نقصر التحوّل على القرآن الكريم وما أحدثه؛ بل على الحديث النبويّ الشريف أيضًا بالدرجة الأولى بعد القرآن الكريم، ثم تلك الثقافة الدينيّة التي انتشرت في أرجاء الصحراء العربية، وسائر العالم بعد انتشار الإسلام في العالم، بين بلاد فارس، وبلاد الشام، وإسبانيا وسواها، والبداية من دون أدنى شكّ مع القرآن الكريم.

القرآن الكريم

لقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بجملة من الصفات التي ظهرت في آيات القرآن الكريم، وقد ذكر الله تعالى لكتابه العزيز العديد من الأسماء، ومنها: القرآن، والكتاب، والذكر، وغير ذلك، «مما يدل على شرف المسمى وعلو شأنه¹. وعندما كانت المهمة الأولى المناطة بالقرآن الكريم هي الهداية والإرشاد، كان لا بد أن يكون مبيّناً وكاشفاً للحقائق، وفي هذا يقول تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۝١﴾². و﴿طَسَمَ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾³. ووصف تعالى القرآن بأنه عظيم: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝٨٧﴾⁴، تم وصفه بأنه مجيد: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ ۝١﴾⁵، وغير ذلك من الصفات التي تدل على عظمة هذا الكتاب وشأنه العظيم. وأبرز وأهم ما يعيننا في مقام بحثنا هذا، صفة القرآن العريية، ومن قوله تعالى في هذا الصدد: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾⁶. وفي هذه الآية دلالة صريحة على تلبس القرآن بالعريية حال النزول، ويشير الله تعالى في مكان آخر إلى الحقيقة ذاتها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾⁷. «وفي الآية إشارة دقيقة إلى أن هذا الجعل أن القرآن كان شيئاً وصار شيئاً آخر خلال التنزيل»⁸. ولا ينبغي لنا أن نفصل القرآن الكريم عن مرسله وموحيه ومنزله، وهو الله تعالى، وهو العلي العظيم والقدوس، الذي أضى على النص القرآني قداسة منقطعة النظير لم تتوفر لنص ديني آخر ولم تتوفر تالياً لأي نص غير ديني أيضاً.

إن مرسل القرآن الكريم الله تعالى، وهو تجسيد لإرادته وما من شك في أن هذا الكتاب

1 - محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، سنة 1306هـ، جزء 1، ص 100.
 2 - قرآن كريم، الحجر، 1.
 3 - قرآن كريم، القصص 1 - 2.
 4 - قرآن كريم، الحجر 87.
 5 - قرآن كريم، ق 1.
 6 - قرآن كريم، يوسف 2.
 7 - قرآن كريم، الزخرف 3.
 8 - حسن جميل جوني، القرآن بين العربية والعريية، بيروت، دار المرئضى، ط1، سنة 2016م، 1437هـ.

شكّل تحدياً منقطع النظير لأهل اللّغة العربيّة وللغة العربيّة في منظومتها العامة بين الناطقين بها، ومن أعظم ما دلّ على قداسة هذا الكتاب تلك النّصوص الظاهرة بسماتها الدقيقة والتي تصف القرآن الكريم وصفاً يدلّ على علوّ شأنه، ورفعة مكانته وقداسته المطلقة، ومن هذه النّصوص نختار واحداً من أبرزها لسيدّ البلاغة العربيّة وصاحب نهج البلاغة علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول:

«ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحُه وسراجاً لا يخبو نوقده وبحراً لا يدرك مقره ومنهاجاً لا يضلّ نهجه وشعاعاً لا يظلم ضوؤه وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاءً لا تخشى أسقامه، وعزّاً ألا تهزم أنصاره، وحقّاً لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان، وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافيّ الإسلام وبنيناه، وأودية الحق وغيظانه، وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيونٌ لا ينضبها الماحون، ومناهل لا يفيضها الواردون، ومناهل لا يضلُّ نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله رياءً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجّ لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منبعها ذروته، وعزّاً لمن تولّاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن انتمّ به، وملجأ لمن حاج به، وحاملاً من حملة، ومطيّة لمن أعمله، وآية لمن توسّم، وجتّة لمن استلّم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى»¹، ويدلّ هذا النّص على مدى عظمة النّص القرآني وقداسته، وما يتميز به عن سواه في الموروث اللّغويّ. وقد شكّل هذا القرآن تحدياً لغويّاً رفيع المستوى للناطقين بالعربيّة، وذلك بنظامه المعجز الذي تميّز به في هندسته السياقية، إذ أن السياق القرآني هو أحد أكبر وجوه الإعجاز القرآني، بل إنّ الإعجاز الأعظم الذي من خلاله تتفرّع سائر الإعجازات البلاغية، والتصويرية، والموسيقية. وفي سياق البحث في قداسة النّص القرآني فإننا نلنقت إلى ما أحاط به الباحثون في النّص القرآني هذا الكتاب من قداسة تأسست على حذرٍ شديد في عملية التعاطي مع تفسير آياته، فقد نهى رسول الله (ص) النّاس عن تفسير القرآن الكريم بالرأي، وقال فيما قال: «من فسّر القرآن بالرأي فقد كفر»². وقد دأب جمع من

1 - علي بن أبي طالب «ع»، نهج البلاغة، بيروت، دار البلوغ، ص 160.

2 - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، دار الرسول الأعظم، جزء 25، ص 82.

المسلمين زمن الرسول الأكرم (ص) وبعده على حفظ القرآن بالكامل ظهرًا عن قلب، وذلك لاعتقادهم القطعي بقداصة هذا النص وبالكرامة العظيمة التي تلحق بحافظ القرآن من جراء حفظه له، هذا إضافة إلى الكثير من المرويات عن النبي (ص) التي تحضّ على حفظه وتعليمه وتعلّمه، إذ هو دستور الحياة ومرشد الناس إلى النور ومخرجهم من الظلمات والضلال وهو ربيع القلوب وبه تطمئن القلوب، وفيه معرفة ما كان وما سيكون¹.

هكذا أحاط العرب المسلمون القرآن الكريم بهالة من القداسة، والاحترام الشديد في طريق التعامل مع هذا الكتاب، وذلك على عدّة مستويات:

أولاً: قراءة القرآن وتجويده ورسمه وتفسيره

حدد العرب طريقة دقيقة لقراءة القرآن وتجويده، وذلك منعاً لأي خطأ قد يرد في تلاوته وفي نيله، وصار تجويد قراءة القرآن فناً قائماً بذاته له قواعده وأصوله، وصار له كبار المقرئين الذين يتفنون بتجويده وترتيبه، كما وصار للتجويد مدارس كبرى في جميع أمصار البلاد العربيّة، وكذلك تفنن العرب في إتقان صناعة ورق الكتاب وتذهيبه وزخرفته، وصار للقرآن الكريم إملاء خاص به يعرف بالرسم العثماني ولا يخرج مصحف في كنايته عن قواعده². ولحقت بالمصحف الشريف جملة من الأحكام الشرعية الفقهية المختصة بطريقة التعامل مع القرآن الكريم ومنها حرمة لمس كتابة القرآن وحروفه لمن لم يكن متوضئاً، وقد استند الفقهاء في ذلك على قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾³. كما حرم فقهاء الدّين نقل آية كريمة بالتلاوة غيباً مع احتمال وجود خطأ في تلاوتها⁴. هذا كله من جهة مادية حسية وأما على مستوى التعاطي مع النصّ القرآني من ناحية التأويل والتفسير، فإن العرب أحاطوا بالبحث القرآني بهالة عظمى من القداسة، وكانوا على أعلى قدرٍ من الحذر والخوف من خوض غمار الكلام في القرآن الكريم والبحث فيه. ولهذا السبب نجد معظم النشاط القرآني في بدايات نشأته كان لغويًا ولم

1 - حسين علي صابر السعيدة، ربيع القلوب، بغداد، دار التراث، 1954، لا ط، لا سنة، ص 73.

2 - محمود كامل الجبوري، تاريخ الخط العربي، بغداد، دار التراث، ص 120.

3- قرآن كريم، الواقعة 79.

4- مباني منهاج الصالحين، السيد أبو القاسم الخوئي، دار المفيد، جزء 2، ص 210.

يتعد حدود النقل عن رسول الله (ص) وأهل بيته عليهم السلام، وكانت معظم التفاسير القرآنية لا تتعدى حدود اللفظ والتقلبات الدلالية «التي تقترب من الصياغة المعجمية»¹. وكان التشدد واضحاً، والحذر بادياً في فهم النص القرآني، وهذا كله نابع من خلفية ارتباط القرآن الكريم بالخالق العظيم، الله جل وعلا، حيث يمثل هذا الكتاب وما فيه إرادة الله تعالى وبالتالي فإن الوقوف على حقيقة ما يريد الله هو أمر صعب مستصعب وليس من السهل الوقوف على حقيقته، لا سيما أن القرآن له ظاهر وباطن، وهو جمال وجوه كما وصفه آل بيت رسول الله (ص)². وما من سبيل لحصر مسألة قداسة القرآن الكريم عند نقطة واحدة، فعدا كل ما يتعلق بمرسل ومنزل القرآن فإن للنص القرآني قداسة خاصة بذاته تتبع من نظامه المعجز الذي لم يستطع أحد في الكون أن يجاريه، أو يحد أسرارهِ، ويستطلع مضامينه، وما ذكرناه في هذا المقام ليس غير مقدمة ميسر مختصرة في خصوصيات النص القرآني، وأسراره، وقداسته وبعد هذا سيجري البحث في انعكاس هذه القداسة على اللغة العربية وآثار هذه القداسة في البحث اللغوي، وفيما يلي ننقل إلى البعد الثاني في مضمار التحوّل الدني في اللغة وهو الحديث:

ثانياً: الحديث

يقصد بالحديث كلّ ما ورد على لسان رسول الله (ص) من حديث غير القرآن الكريم، وهو مقسوم إلى قسمين: النبوي الشريف، والقدسي.

الحديث النبوي الشريف: وهي مجموع ما ورد على لسان رسول الله (ص) وهي من عنده ومن اجتهاده وكلماته وسميت تلك الأحاديث بالأحاديث النبوية الشريفة، وقد عمل المسلمون على طول الزمان في حفظها وتدوينها والتحقق بصحة سندها، كما حرّم فقهاء الدين الكذب على الله وتلاوة القرآن بطريق غير صحيح وبكلمات تنقل المعنى بغير ما نزل به في القرآن الكريم فإن الفقهاء حرّموا أيضاً الكذب على رسول الله (ص)، ومنعوا تحريف حديثه إلا أنه سمحوا بنقل الرواية عن الرسول الأعظم بالمعنى، على أن لا يحدث هذا النقل تحوّلًا في إرادة الرسول أو تحريفًا في المعنى الذي نقل عنه (ص)،

1 - عالم سبط النيلي، النظام القرآني، بيروت، دار المحجة البيضاء، 2008، ص 48.

2 - حسين عابد سليمان، تاريخ القرآن الكريم، الإساء، مكتبة الرسول الأعظم، لا ط، لا سنة، محفوظ رقم 3106، ص 120.

واكتسبت هذه الأحاديث مع الوقت قداسة تأتي في الدرجة الثانية بعد قداسة القرآن الكريم، وقد صنّف له المسلمون والمؤرخون كتباً عديدة، وحققوا فيها وفي سندها وصحتها روايتها، ونشأ بسبب هذه الأحاديث علمٌ مستقلٌّ بذاته هو علم الرجال، الذي يعني في عدالة الرواة وصدقهم وصحة ما رووا عن الرسول الأعظم (ص).

- الحديث القدسيّ: إلى جانب الحديث النبويّ الشريف، نُقل عن رسول الله (ص) جملةٌ من الأحاديث عرفت بالأحاديث القدسيّة، وهي تلك الأحاديث التي نقلها رسول الله (ص) عن الله تعالى بواسطة أمين الوحي جبرائيل عليه السلام وهي ليست من القرآن، وكما اعتنت الدراسات بالحديث النبويّ الشريف وتصنيف كتب له، كذلك قامت الدراسات حول الأحاديث القدسيّة، وتوسّعت العناية بها، وبرواتها، وبمعانيها، ودلالاتها.

لقد هيا القرآن الكريم والحديث النبويّ بشقيّيه الأرضية الخصية لولادة ثقافة متميزة بعد نزول القرآن الكريم، كان لها ميزاتنا الخاصة، ومعاييرها التي تتقدم بها، ولقد كان لهذه النّقافة الأثر البالغ في خلق أجواء جديدة على مستوى إحاطة اللّغة العربيّة بهالة من القداسة، فما هي هذه النّقافة وعلى ماذا تأسست، ونمت، وكيف انتشرت؟

النّقافة الإسلاميّة

حصل تحوّل بالغ وشديد في مسار النّقافة العربيّة بعد نزول القرآن الكريم وانتشار الحديث النبويّ الشريف، ويعتبر القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف المصدر الرئيسيّ للنّقافة الإسلاميّة والمرتكز الأكبر في أسسها، ومع مرور الوقت وانتشار الدّين الحنيف قامت جملة من العلوم كانت في معظمها تدور في فلك القرآن الكريم ومنها:

- معاني ألفاظ القرآن الكريم.

- أسباب نزول الآيات.

- تفسير القرآن الكريم.

- تأويل القرآن الكريم.

- تجويد القرآن الكريم.
- رسم القرآن الكريم.
- دراسات في حركة تاريخ القرآن الكريم ونزوله (مكي - مدني).
- دراسات الموضوعات القرآنية.
- مع تطور الحياة استحدثت الكثير من العلوم التي قامت على أسس قرآنية ومنها:
- المباني الحضارية في القرآن الكريم.
- القرآن والسنة التاريخية وحركة الكون.
- دراسات جغرافية مستندة إلى القرآن الكريم.
- دراسات علمية رياضية فلكية في القرآن الكريم.
- دراسات حسابية وزمنية ورقمية في القرآن الكريم.
- دراسات لغوية ذات سمة متطورة جدًا.
- وقام حول الحديث النبوي الشريف جملة من العلوم منها:
- دراسة الدلالات والمعاني.
- تحقيق الأحاديث.
- علم الرجال.
- التعديل والتجريح.
- علوم الكلام والفلسفة.

وبناءً على ما تقدّم قامت حركة فكرية وثقافية ناشطة واسعة الانتشار تأسست على مناخ معرفي جديد وبأصول جديدة، فانتشرت العلوم في كل الأمصار وصار القرآن والحديث النبوي الشريف مادة للمطارحات الفكرية، وعلوم الكلام، والفلسفة، وقامت نهضة فكرية منقطعة النظير وانتقل العرب من خلالها من طور إلى طور ومن حياة إلى حياة،

وازدهرت حركة الترجمة والتعريب، وتأسست الجامعات وصار للعرب أطروحتهم الفكرية والإسلامية، والفلسفية الخاصة بهم، وتحولت الحياة الاجتماعية من طور البداوة إلى الترف وازدهار العلوم، ونمو النشاط العقلي، حيث أعطي العقل الدور الأبرز الذي أراده الله له في حياة الإنسان. وفي مدة وجيزة بعد نزول القرآن الكريم وفي العصر العباسي على وجه التحديد بلغت الحركة العلمية والفكرية أوجها ومداها الأقصى وازدهرت معظم العلوم ومنها:

- العلوم التَّبْطِيقِيَّة من فيزياء وكيمياء ورياضيات وطبّ وهندسة.
 - علوم الكلام من فلسفة ومنطق وسواها.
 - علوم تفسير القرآن وتأويله والحديث النَّبَوِيّ.
 - الدِّراسات الفقهية المستندة إلى القرآن والسنة.
 - الدِّراسات اللُّغَوِيَّة وعلم المعاجم والألفاظ، والصِّرف والنَّحو والبلاغة وسواها.
- ولقد حظيت الآداب والشعر على وجه التَّحْدِيد تطوُّرات هائلة على مستوى الشَّكْلِ والمضمون وقامت فنون أدبيَّة جديدة على خلفية التَّقافة الإسلاميَّة كفنِّ الخطابة وما إلى ذلك.
- لقد كانت حياة ثقافية متميِّزة، وغنية متعددة الوجوه حيث تداخلت في التَّقافة العربيَّة جملة من العناصر كان أبرزها:

- العناصر الدخيلة، الفارسي، الهندي، اليوناني.
- القرآن والسنة الشريفة.
- الموروثات العربيَّة القديمة.

وكان في جملة هذه التَّقافة المتميِّزة ما تركه أهل النخبة من بيت رسول الله عليهم السلام، ويأتي على رأس هذا التراث كتاب خليفة رسول الله (ص) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام «نهج البلاغة» إذ وصفه رسول الله (ص) بالقول: «كلامك يا علي

فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق»⁽¹⁾، ويعد هذا الكتاب من أعظم الموروثات الثقافية في تراث الأمة بعد القرآن الكريم، هذا بالإضافة إلى ما تركه آل بيت الرسول من أبناء الإمام علي عليه السلام. وقد ترك كل واحد منهم كمًا هائلًا من الأحاديث والخطب التي لا حصر لها ومنها الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين، وهنا تجدر الإشارة إلى تلك الأدعية المشهورة التي أطلقها آل بيت رسول الله وعلى رأسها أدعية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأعظمها: «دعاء كميل» و«دعاء الصباح».

لا يمكن لأحد أن ينكر أن الإسلام بكلّيته تحول إلى ثقافة كبرى على مستوى شبه الجزيرة العربية، وعلى مساحة الانتشار الكبير للدولة الإسلامية. كما ولا يخفى على أحد أن المسلمين مارسوا هذه الثقافة انطلاقًا من روحية الشريعة الإسلامية التي تحضّ على نشر الدعوة الإسلامية وتعليم القرآن الكريم، إذ يقول رسول الله (ص) «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»². وقد حضّ القرآن الكريم على العلم ودعا إلى تحكيم وإجراء العقل في كل مقتضيات الحياة، وفي هذا المقام يقول تعالى: ﴿يَمْعَشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِأُذُنِ اللَّهِ﴾³.

لقد طبع الإسلام الحياة الثقافية للعرب بطابع الإيمان والروحانية والدين، وكان للقرآن الكريم الأثر الأكبر في هذه الثقافة، التي بدورها خلقت مناخًا أدبيًا جديدًا على مستوى اللغة العربية والأدب العربي، وفيما يلي من بحثنا هذا ندخل في عمق الموضوع حول إشكالية القداسة في اللغة العربية والمنشأ الذي تأسست عليه فكرة القداسة، وكيف تحولت الكثير من الأعمال اللغوية والأدبية إلى مستوى القداسة بمعايير عرفية منذ أول التاريخ إلى يومنا هذا.

- مصطلح القداسة

قداسة (اسم)، وقداسة المكان طهارته وجلاله، والقداسة الطهر والبركة وتقديس الله: تعظيمه وتبجيله وتنزيهه عما لا يليق به⁴. وما يفهم من القدّيس، هو كلُّ شخص عاش

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، جزء 23، ص 160.

2 - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، جزء 23، ص 73.

3 - قرآن كريم، الرحمن 33.

4 - ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار النوادر، جزء 10، ص 63.

الفضائل الإلهية من إيمان ورجاء ومحبة، وتأتي كلمة «قدس» في معجم الفيروزآبادي بمعنى التنزيه والترفع عن كل نقص وسوء، والتصقت القداسة كصفة بخيرة البشر من أنبياء ورسل وملائكة وأولياء وأوصياء، كما وعرفت بعض الأماكن بأنها أماكن مقدّسة كمكة المكرمة، والحرم النبوي، والقدس في فلسطين، وكربلاء في العراق وغيرها من الأماكن التي قدّستها الشعوب لسبب أو لآخر. ويمكن فيما يلي رصد جميع أو معظم المعاني المرتبطة بمعنى القداسة:

- البركة والتبرك.
- الترفع عن كل سوء أو نقص أو عيب.
- الطهارة عن كل دنس.
- إسقاط كل ما يليق.
- الرفعة عما هو معتاد.
- المبالغة في قيمة الموصوف.
- التعظيم والتبجيل.
- الخير الكبير.
- الصفات الكريمة.

وفي القرآن الكريم ورد «القدوس» في الآية الكريمة: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣).¹ وهو تعالى المنزه عن كل عيب وشر، ونقص، والمنزه عما لا يليق به. والقدوس صفة لله عز وجل من صفات الذات الإلهية الموجودة مع وجوده جلّ وعلا ولما كان وجوده أزلياً فإن القداسة أزلية متلازمة مع وجوده. ونحن نعتقد بأن جميع إفاضات القداسة على الحياة بعد الإسلام إنما ناجمة عن الله عز وجل وعلا وفائضة من فيوضاته الوجودية، ونورانية صفاته المتألية والمطلقة، وقد انعكست هذه القداسة على

1 - قرآن كريم، الحشر، 23.

لغة العرب لأسباب عديدة ناقشها فيما يلي.

1 - قداسة اللّغة العربيّة في القرآن الكريم

كانت العربيّة موجودة قبل الإسلام وقبل القرآن الكريم، وكان العرب ينطقون بها ويستخدمونها في حياتهم اليومية وفي تواصلهم فيما بينهم، ثم نزل القرآن الكريم على نبي الأمة الرسول الأعظم محمد (ص)، «فما كاد العرب يتلقفونه من رسول الله (ص) حتى أخذتهم الدهشة وسلبت ألبابهم روعة الصنعة»¹. ولقد شكّل القرآن الكريم تحديًا كبيرًا للعرب على مستوى لغتهم رغم أنه كتاب بالعربيّة وألفاظه عربيّة وكانت مما أنسته أذهان العرب. وفي طريق البحث المتأخر طرحت إشكالية كبرى مفادها في السؤال التالي: «هل لأنّ القرآن الكريم كتاب مقدّس وهو باللّغة العربيّة فإنّه يفيض على لغة العرب بصفة القداسة؟» و«هل منحها القرآن الكريم درجة رفيعة بين سائر لغات العالم لأنه نزل بها وتلبسها؟» وهنا يمكن تنفيذ الموضوع من ناحية منطقية دقيقة وبطريق علمي واضح. وبالتالي لا بدّ من أن نضع لغة القرآن الموصوفة في القرآن بأنها عربيّة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾². أمام لغة العرب التي كانت سائدة في زمن الجاهليّة قبل الإسلام، ولقد كانت هذه اللّغة وسيلة التواصل بين الناطقين بها وبها عبّروا عن حاجاتهم، وعن علاقاتهم بالوجود وبالأخر، وكتبوا بواسطتها أشعارهم التي شغلت حيزًا كبيرًا من التراث العربيّ القديم، وتثبت الدراسات النصوص أن هذه اللّغة - العربيّة الفصحى - امتازت بكثير من الصّفات الجمالية والموسيقية، وبالطواعية، والقدرة على التشكل في معانٍ مختلفة، ودليلنا على ذلك ما خلفه العرب من أشعار جميلة ومتقنة في زمن الجاهليّة، ولما نزل القرآن الكريم نزل بالعربيّة والأدلة واضحة، وأعظمها النّص المكتوب بين ايدينا فهو نص متلبّس بالعربيّة من غير أدنى شك. لكن العرب وحسب ما لهم قد التبس عليهم الأمر في فهم الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾³. حيث ظنوا أن هذا القرآن قد نزل بوصفه العربيّ طبق ما هو عليه في لغتهم، في حين كان ينبغي أن يعوا حقيقة الآية على أنها تبشر بنزول القرآن بحسب

1 - حسن جوني، القرآن بين العربية والعربية، ص 73.

2 - قرآن كريم، يوسف 2.

3 - قرآن كريم، الزخرف، 3.

اللّسان العربيّ، أما نظامه فمختلف اختلافاً كبيراً، ولذلك نحن نعتقد بأن القرآن الكريم هو في لغته يمثل العربيّة على ما هو عليه في وجهها الحقيقي، والدليل بسيط في ذلك ويتمثل بالواقع الحقيقي للقرآن من حيث كونه قول الله تعالى وكلام الله وسائر اللّغة قول البشر ولما كان تعالى منزهاً عن سائر من نطق وكتب بالعربيّة فإن العربيّة في صورتها الفضلى وقداستها وعظمتها تتجسّد بالقرآن الكريم من دون أدنى شك¹. لكننا نؤمن من دون أدنى شك بأن القرآن الكريم كتاب مقدّس ولا يأتيه الباطل لا من قريب ولا من بعيد، وإنه منزّه عن أي نقص أو باطل وبالتالي فإن هذه القداسة مؤكّدة ومؤسسة على مبدأ يتعلق بمرسل القرآن الكريم، وعندما نتحدث عن القرآن الكريم فإننا نتحدث عن كتاب كريم عظيم مقدّس بمضامينه وماهيته، وإذا كان هذا الكتاب مقدّساً فنحن لا نشكّ بقداسة آياته على الإطلاق، لكن السؤال الذي يطرح نفسه على بساط البحث هو: «هل أضفى القرآن الكريم قداسةً على الألفاظ وجعلها مقدّسة حتى خارج النّص القرآني؟ وللاجابة على مثل هذا السؤال لا بد من التأمّل في المسألة لفظ الجلالة على سبيل المثال كان موجوداً قبل القرآن الكريم وقد عرفته العرب منذ زمن الجاهليّة، إلا أن الذي لا نشك فيه هو أن هذا القرآن أعطى لفظ الجلالة قداسة مطلقة من غير الممكن أن تنفك عنها لا داخل النّص القرآني ولا خارج النّص القرآني بما تعنيه اللفظة من اسم للخالق عز وجل وعلا، لكن استخدام اللفظ عينه في لحاظ آلهة الجاهليّة لا قيمة له في السياق إن كان المقصود به غير الله جل جلاله، وكذلك الرحمن والقدوس، والعزیز، والجبار، والمتكبر، والمصور، والخالق، والبارئ وغير ذلك. ولقد اخترنا هذه الأسماء نماذج خاصة لنؤكد على أنها اكتسبت قداستها في سياق ما تستخدم فيه من معانٍ وجملٍ ومقاصد. لكن لو خرجت هذه الكلمات من سياقها القرآني ودلالاتها القرآنية والمقاصد الموضوعية لها، ففي قداستها عندئذٍ نظر بالغ، وبعيد عن الحقيقة التي عرفناها من خلال القرآن الكريم، فما بالك بسائر الألفاظ وما شابهه، ففي القرآن الكريم حروف الجر وحروف المعاني والكثير الكثير من ألفاظ العربيّة التي كانت القبائل تستخدمها في تواصلها فيما بينها. وكل هذا يقودنا إلى سؤال حساس ودقيق: «هل ألفاظ العربيّة مقدّسة بذاتها؟ وبالتالي هل اللّغة العربيّة لغة مقدّسة بذاتها؟ أم أن الاستخدام في طريقة ما ومن قبل جهة ما منحها صفة

1 - حسن جوني، القرآن بين العربية والعربية، ص 107.

القداسة؟ وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي النظر إلى القرآن الكريم بموضوعية بالغة وتامة، ففي المقام الأول نحن نعلم أن هذا الكتاب هو وحي من رب العالمين وتكمن قداسته في هذه النقطة أولاً وأخيراً، والتصديق بهذه القداسة إنما نابعة من إيماننا بأن هذا الكتاب من عند الله العزيز الحكيم، والسلام القدوس ومن آمن بالله آمن بكتبه وأنبيائه وسائر رسله، وآمن بأنهم مقدّسون بالمعنى التام، وأنهم منزّهون عن أي خطأ أو نقص أو عيب، وهذا معلوم ومعروف ومدرك بأبسط الأدلة العقلية وهو ضرورة تنزّه أي مرشد وهادٍ عن أي عيب أو نقص وإلا لم يعد بالإمكان تصديق دعوته أو اتباع تعاليمه وما يقول وما يفعل¹، ونعود ونؤكد على أن الدافع إلى تقديس القرآن الكريم هو إيماننا بالله العزيز، وبأنه قدوس وقد عصم كتابه من أي خطأ أو نقص أو عيب، ومن لم يؤمن بالله، لن يؤمن بكتابه من دون أدنى شك في ذلك، وبالتالي لا قداسة لهذا الكتاب لديه، لكن نفي الإيمان عند أحدهم لسبب أو لآخر لا ينفي القداسة عن الكتاب من دون أدنى شك أيضاً، ولهذا السبب فإن الكلام حول قداسة الكتاب مؤسس على خلفية أنه وحي من عند الله، ولا يأتيه النقص أو العيب لا من قريب ولا من بعيد، لكن إيماننا بالكتاب وبقداسته هو إيمان مؤسس على قداسة معانيه ومضامينه بالدرجة الأولى، وبالدرجة الثانية فإن مادة الكتاب حروفاً وكلمات وآيات مقدّسة أيضاً لا تقبل بالمساس بها بالمعنى المادي، ولهذا يعترض المسلمون على أي إساءة إلى هذا الكتاب مادية كانت أو معنوية، كما رفضوا أي إساءة إلى شخص النبي الكريم محمد (ص). وعند هذه النقطة يمكن طرح السؤال التالي: هل سرت القداسة من القرآن الكريم إلى اللّغة العربيّة؟ وتاماً وبالموضوعية ذاتها التي عالجنا بها السؤال السابق نقول: إنه من غير المنطقي أن نقبل بقداسة اللّغة العربيّة لمجرد أن القرآن الكريم هو كتاب تلبس بالعربيّة عندما أوحى الله به لنبيه (ص). والقبول بهذه الفكرة هو أمر افتراضي لا يستند إلى منطق، ولا يركز إلى دليل، وهو لا يعدو كونه رجماً بالغيب. ولو تقبلنا الأمر فإنه ينبغي علينا تقبله كما هو بالنسبة لسائر الألسن العربيّة، وإنا لنعلم أن الله تعالى أنزل عدداً كبيراً من الرسائل على أنبيائه تبعاً في الأرض، وبالتالي ينبغي القول وبناء على قداسة المرسل وقداسة الأنبياء - بأن جميع لغات تلك الكتب - الإنجيل، والتوراة، والزيور، وسواها

1 - ماجد عبد الإله حسني، الأصول الثابتة، دار المرتضى، جزء 2، ص 40.

- هي لغات مقدّسة، وحروفها، وألفاظها كذلك. ولا يمكن في قبال ذلك أن ينكر أحد تلك الخصوصية البالغة للغة القرآن الكريم، وعظمة أدائه ونظامه المتميز، فهو - من دون ادنى شك - كلام الله وقوله، ويمثل إرادته، وفيه ما فيه من أدلة تدل على تمييزه البالغ عن سواه من مادة لغوية، وفي الأصل تحدّى الله تعالى الناس بأن يأتوا بآية من مثله أو بسورة وقال فيما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾¹. وقال تعالى أيضاً: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْحِجْرُ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾². وبناءً على ما تقدّم من مضامين الآيتين الكريمتين، فإننا نفر بأن القداسة تأتت من المرسل المقدّس - القدس - الله ومن كيفية رسم النظام اللغوي الذي نزلت به الآيات وهي مثلثة بالعربيّة. وانطلاقاً من مبدأ الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾³، فالله تعالى قادرٌ على أن ينزل على عبده أيّ كتاب بأي لغة يختارها هو، وبالتالي ستكون لغة مقدّسة بلا ريب في لحاظ التّص ذاته. كل هذا على مستوى القرآن الكريم فماذا عن اللّغة العربيّة وقداستها في لحاظ الحديث النّبويّ الشريف.

2 - اللّغة العربيّة في الحديث النّبويّ الشريف

كان للعربيّة موقعها المتميّز عند العرب الناطقين بها، وقد وصلنا منها تراث شعري كبير يُعتدّ به وبقيمته، ولا نجد ضرورة للكشف عن جماليات العربيّة وطواعيتها، ومدى قابليتها لاستيعاب المعاني الحياتية من حولها، والنبي الأكرم محمد (ص) عربيٌّ ومن أصول عربية وقد أحب العربيّة وأتقنها إتقاناً كبيراً، وهو (ص) أوّل من أطلق عليها اسم «لغة الضاد»⁴، وقال: «أنا أفصح من نطق بالضاد»، كما نقل عن رسول الله (ص) قوله: (أحبّ العربيّة لثلاث: لأني عربيٌّ، والقرآن عربيٌّ، وكلام أهل الجنة عربيٌّ)⁵.

لا ريب في أن النبي الأعظم (ص) كان أفصح من نطق بالعربيّة، وقد أوتي جوامع الكلم والبلاغة والفصاحة، وترك تراثاً لغويّاً كبيراً تأسس عليه الكثير من الأحكام الفقهيّة

1 - قرآن كريم، البقرة 23.

2 - قرآن كريم، البقرة 88-89.

3 - قرآن كريم، البقرة 106.

4 - ذكره الزركشي والسخاوي في المقاصد، حديث 185.

5 - ذكره البيهقي في الشعب ورواه ابن منصور وابن أبي شيبة.

كما شكّل قاعدة لغوية وشاهدًا لغويًا على كثير من القضايا اللغوية، وقد ذكر الكثير من المحققين اللغويين أنّ للحديث الشريف مدخلًا في الاستشهاد وللقواعد اللغوية النحوية، وهذا هو مذهب أبي محمد ابن مالك وابن هشام وغيرهما من أكابر علماء العربية. وأما معاجم اللغة العربية وقواميسها فهي زاخرة بالشواهد من الحديث الشريف، وقد تفرد على الحديث الكثير من القضايا النحوية. ولا يخفى على أحد ذلك الأثر البالغ للحديث النبوي الشريف في إغناء العربية بالمعاني والدلالات والاشتقاقات.

إن ما يستوقفنا في الحديث الذي ذكرناه قول رسول الله (ص) «وكلام أهل الجنة» وعند هذه النقطة تحديدًا توقف القائلون بقداسة اللغة العربية، فهل قول النبي الأعظم (ص) أن لغة أهل الجنة العربية يعني قداسة هذه اللغة، وبموضوعية تامة لا يمكن تحميل الحديث النبوي الشريف فوق طاقته ولا ينبغي لنا ذلك مطلقًا وفي الاعتقاد بالأمر صادرة واضحة وادعاء غير دقيق ولا يمت للحقيقة بصلة، ولو كانت العربية مقدّسة بالمعيار الوجودي لصرّح الرسول الأعظم بهذه الحقيقة لو كانت حقيقة، ورغم هذا فإننا مؤمنون بأنّ ما نصه رسول الله (ص) يحمل مضامين مقدّسة ولا يمكن التشكيك بقداستها من ناحية دلالية ومعنوية لكننا لا نستطيع أن نسري هذه القداسة إلى العربية بطريق من الطرق. ولمجرد أنّ الرسول الأكرم نطق بالعربية وكان أفصح من نطق بها، ولأنه قال بأن العربية كلام أهل الجنة.

يأتي بعد الحديث النبوي الشريف نصوص في العربية لا تقل شأنية عن الحديث النبوي الشريف وتعد في مرتبة أرقى وأعلى من كلام البشر ونقصد بها تلك النصوص والأحاديث الواردة على لسان العترة الطاهرة من آل بيت الرسول الأعظم (ص) والتي تشكّل جزءًا كبيرًا من تراث العربية النفيس، ويأتي في مقدّمها كتاب أمير المؤمنين الذي جمع خطب الإمام علي «ع» والمعروف باسم نهج البلاغة، بالإضافة إلى ما خلفه عترة أهل البيت من تراث عظيم له قيمته الإرشادية واللغوية الكبرى وفيما يلي نعرض لهذه الأهمية التي كان لها الأثر البالغ في دفع البعض إلى التصديق بقداسة اللغة العربية.

3 - نصوص أرقى من الإبداع

زخر تراثنا العربي والإسلامي بنتائج كبيرة فيه من الإبداع ما يجعله متقدماً على رسواه قيمة ودرجة، ومن هذا التراث أيضاً ما فاق الإبداع والمبدعين، في كلام وصفه رسول الله (ص) «بأنه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق»¹، وهناك الكثير من الكلام الذي يصف كتاب نهج البلاغة من قبل أديباء ومفكرين وعظماء في التاريخ، ومن هؤلاء:

أ- أبو الحسن علي بن زيد البيهقي، فريد خراسان المتوفي سنة 565هـ في شرحه نهج البلاغة الذي سماه «معارج نهج البلاغة»، في الصفحة 3، حيث يقول: «هذا الكتاب النفيس مملوء من ألفاظ يتهدب بها المتكلم ويتدرب بها المتعلم فيه من القول أحسنه، ومن المعاني أرقصه، كلام أحلى من نغم القيان، وأبهى من نغم الجنان، كلام مطلعته كهيئة البدر، ومشرعه مورد أهل الفضل، وكلامه كلام يجري مجرى السحر الحلال، ويرتفع درجته عن نعوت الكمال، كأنه اليواقيت في النّظام، أو مواقيت الأعياد والأيام...». وقال قطب الدين الراوندي المتوفي سنة 573هـ في أول شرحه على نهج البلاغة والمسمى «منهاج البراعة» في الجزء الأول الصفحة الرابعة: «وهو كلام عند أهل الفطنة والنظر دون كلام الله ورسوله وفوق كلام البشر، واضحه مناره، مشرقة آثاره». وفي الحقيقة لا يتسع المقام لذكر جزء ولو يسير مما ذكر من قبل أعلام الفكر واللغة في القديم والحديث حول كتاب أمير المؤمنين عليه السلام، وإلى جانب هذا التراث الكبير بقيمته العلمية واللغوية ترك لنا أهل بيت النبي (ص) من أبناء علي عليه السلام تراثاً فكرياً وأدبياً ولغوياً لا يقل قيمةً من الذي خلفه علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد تميزت كلماتهم بالمستوى الرفيع من البلاغة والتعبير الفصيح وسعة الدلالة وشمولية الفكرة.

ومن هذه الأجواء التي ذكرنا حول كلام أمير المؤمنين عليه السلام وأبنائه تولدت فكرة قداسة كلماتهم والتي اثرت في فكرة تقديس العربية. وفي حقيقة الموقف فإن الإمامية أو ما يعرف بالمذهب الجعفري في الإسلام، أي أتباع أمير المؤمنين وأبنائه قالوا بعصمة الإمام علي وأبنائه الذين سماهم رسول الله (ص)، فصارت بذلك كلماتهم وأفعالهم صادرة

1 - راجع شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد، بيروت، دار المفيد، جزء 1، ص 16.

عن معصوم قولهم فتنزل قول رسول الله (ص)، وتجدر الإشارة إلى قول أمير المؤمنين عليه السلام وهو يصف نفسه وأهل بيته في قولٍ شهير يتعلق بفصاحتهم وبلاغتهم فيقول: «ألا إنا أمراء الكلام، منا تنشبت عروقه وعلينا تهدلت غصونه»¹، ويحمل الحديث إشارة من قبل الإمام علي عليه السلام إلى أنه وأهل بيته أمراء الكلام أي أمراء العربية؛ بل إن أصوات هذه اللّغة عائدة لهم هم فمنهم تنشبت عروقه وعليهم تهدلت غصونه فهم شجرة هذه اللّغة وفروعها وأصولها.

إنّ الذي ذكرناه في لحاظ القرآن الكريم يجري على الحديث النبوي الشريف وأحاديث أهل بيته من علي وأبنائه لنقرر أن القداسة في لحاظ المرسل وليس في لحاظ المرسلّة ذاتاً وإن قبلنا - وبالطبع نقبل - بقداسة النصّ القرآني فإننا لم نسرّ تلك القداسة من النصّ القرآني إلى سائر اللّغة العربيّة، وكذلك الحال فإننا إن قبلنا بقداسة مضامين الحديث النبوي الشريف وقداسة أحاديث العترة الطاهرة، فإننا لا نستطيع أيضاً أن نسرّي قداسة نص الحديث النبوي وحديث أهل البيت إلى سائر اللّغة العربيّة، وهذا خلاف أدنى قواعد وأصول المنطق والعقل، وهذا أيضاً ما لم يقل به النبي ولا أهل بيته في حال من الأحوال.

بعد هذا العرض لواقع حال اللّغة في القرآن الكريم، ولواقعه حيال الحديث النبوي الشريف وحديث أهل بيته ينبغي الالتفات إلى نوع آخر من القداسة التي ادعاها البعض من أهل العربية في جزء من التراث اللّغوي في العربية، وهو أشبه ما يكون بدعوى باطلة.

4 - الدرس اللّغوي وبداياته

مارس العرب لغتهم، واستخدموها في التواصل فيما بينهم وكتبوا بواسطتها أشعارهم وأتقنوها إتقاناً بالغاً، إلا أنهم لم يقعدوها ولم يؤسسوا قبل الإسلام لمثل هذا لا بالقليل ولا بالكثير، ولم يعرف العرب قبل الإسلام أي بحث لغوي يذكر، وهم كسواهم من الأمم لم يكن البحث اللّغوي لديهم إلا خدمة للكتب الدينيّة وكتب الشريعة، وذلك من أجل تفسيرها وفهم معانيها، ورغم تأخر الدرس اللّغوي عند العرب إلى القرن الثاني للهجرة، إلا أنّ

1 - علي بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة، دار المفيد، جزء 1، ص 120.

العلماء العرب قد أتقنوا الدرس اللغويّ، فجاءت بحوثهم شبه كاملة وشبه شاملة لكل علوم اللّغة العربيّة من نحو وصرف ومعاجم ودراسة أصوات، وينبغي التنبه إلى حقيقة واضحة ترتبط بنزول القرآن الكريم، وهي أن نزول القرآن الكريم كان الحافز الأول الكامن وراء قيامه الدرس اللغويّ عند العرب، والسبب في ذلك يرجع إلى أن القرآن نزل باللّغة العربيّة بالدرجة الأولى، وأنّ الدرس اللغويّ بات ضرورة ملحّة في الواقع العربيّ الجديد، حيث توقفت جميع الأحكام الفقهيّة، والعقائد، والأحكام، والموضوعات على فهم النّص القرآني وتفسيره، وبمر فهم النّص القرآني عبر بداية اللّغة العربيّة وأحكامها، فبالتالي كان الدرس اللغويّ حاجة ماسة لا بد منها لضبط قواعدها ولحفظ ألفاظها منعا لوقوع التحريف في نص القرآن إملاءً ودلالياً من جهة، ومن جهة أخرى تمهيداً لفهمه ووضع اليد علي الصحيح بالحكم. وقد حضر اللغويّون العرب مصادرهم التي استقوا منها مادتهم وأسسوا عليها قواعدهم في خمسة مصادر:

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - القراءات القرآنية.
- 3 - الحديث النبويّ الشريف.
- 4 - الشّعْر العربيّ - الجاهلي.
- 5 - الشواهد النثرية.

وبعد أن دوّن العرب الحديث النبويّ وألّفوا في الفقه الإسلاميّ والتفسير القرآني اتجه العلماء العرب إلى تسجيل العلوم غير الشرعية كالنحو واللّغة و«إن لم تقصد لذاتها بل خدمة للنص الديني»¹. وكان أول ما انصبت عليه عناية العرب، فقه الألفاظ أو معانيها في تقلبات سياقاتها ولهذا كان أول ما صنّفه العرب من مصنفات كان في شرح غريب ألفاظ القرآن الكريم ومنها كتاب الراغب الأصفهاني في شرح غريب مفردات القرآن².

1 - عبد الستار محمد علي الجابري، أساسيات الدرس اللغوي عند العرب، قم، المقدّمة، مؤسسة أهل البيت، ط1، 1980، ص 138.

2 - أبو القاسم الحسين بن محمد، الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ت 502هـ)، بيروت، دار المعرفة.

وكان ذلك مؤسساً على اعتقاد مبدئي عند العرب أن تفسير القرآن يستند إلى فهم دقيق لألفاظه، ومن ثم وضع العرب أول معجم على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، المعروف بكتاب العين، حيث يبدأ الفراهيدي كتابه بحرف العين، وقد جمع فيه معظم ألفاظ العربية في تاريخه¹. وهكذا جرى النشاط اللغوي العربي للأئمة العربية، وتوالى المؤلفات وراحت تتطور شيئاً فشيئاً حتى ظهرت العديد من المصنفات في اللغة والنحو والبلاغة، وكانت عناية العرب بعد مصنفات الألفاظ منصبة على النحو فكان أول من كتب في النحو، وكان له نشاطٌ نحوي دقيق هو أبو الأسود الدؤلي تلميذ علي بن أبي طالب «ع» الذي قرأ عليه القرآن وكان الدؤلي يحركه ويصححه بين يديه، فكان هذا النشاط أول نشاط نحوي بعد نزول القرآن، وكان في عهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وبعد ذلك أخذ عن الدؤلي من ذلك العلم جماعة آخرون منهم:

- ميمون الأقرن.

- أبو عمرو بن العلاء.

- الخليل بن أحمد الفراهيدي.

- سيبويه.

- الكسائي.

ثم انقسم علماء اللغة والنحو بعد ذلك فريقين، واحدٌ في الكوفة، وآخر في البصرة، حيث كانت البصرة والكوفة منابع الثقافة واللغة العربية وما زال الناس يتداولون ويتناقلون أخبار النحو عن هاتين المدرستين إلى يومنا هذا. ولا نريد هنا أن نستطيل البحث والعرض في حركة تطور الدرس اللغوي منذ بداياته إلى يومنا هذا، إلا أن الحقيقة باتت واضحة بأن الدرس اللغوي في العربية بدأ بعد نزول القرآن الكريم، وقد نشأ على خلفية دينية مؤسسه على القرآن الكريم وعلى الحديث النبوي الشريف، وتستعين بالشواهد الشعرية من الجاهلية. وفيما يلي نعرض لبعض المصنفات والكتب التي وضعها العرب واكتسبت فيما بعد قداسة محددة وبنسب مختلفة، وتجديد الإشارة أيضاً إلى انتشار بعض المصنفات

1 - الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية.

الخاصة بتفسير القرآن الكريم، وكتب وطبقات الرجال والشعراء وغيرهم.

تحولت الكثير من المصنفات اللغوية ودواوين بعض الشعراء إلى نقطة جذب للقراء واكتسبت قداسة مفتعلة غير حقيقية، ونحن إذ نضع بعضاً من هذه المصنفات تحت مجهر النقد فإننا لا نريد التقليل من قيمتها، ولا من قيمة الجهود المبذولة في وضعها أو من قيمتها العلمية ولن نراعي الترتيب التاريخي في ذلك.

أولاً: كتاب الخصائص لابن جني

يعتبر كتاب الخصائص أحد أشهر الكتب التي كتبت في فقه اللغة وفلسفتها، وأسرار العربية ووقائعها، وقد وضع هذا المصنف وذكر في مقدمته «كتاب لم أزل على خارطة الحال، وتقدم الوقت، ملاحظاً له، عاكف الفكر عليه منجذب الرأي والروية إليه-» ويناقد ابن جني في هذا الكتاب بنية اللغة وفقهها، وأصولها، ويبدأ الكتاب بباب في مناقشة إهامية اللغة واصطلاحيتها، وعرض لأصول اللغة من قياس، واستحسان، وعلل وحقيقة ومجاز، وتقدير وتأطير، وسواه، وقد طبع الكتاب كاملاً محققاً على يد محمد علي النجار عام 1955. ونحن لا نريد هنا أن نناقش ابن جني في بعض القضايا والآراء التي لا نعتبرها دقيقة بالمعنى الكامل والتام، إنما المشكلات في من يقدِّس كتاب الخصائص لمجرد أنه كتاب لغوي قديم وآراؤه صحيحة وتامة ومن غير الممكن مناقشتها، وبالطبع عندما كتب ابن جني كتابه لم يدع قداسة لكتابه أو عصمة، وقد ناقش كثيرون من أهل اللغة في العصر الحديث بعض آراء ابن جني التي كانت موضع نقد قاس¹، ومن هذه الآراء النقدية ما هو مصيب جداً. ومن غريب ما نواجهه في بعض المؤلفات اللغوية الحديثة وبعض أطاريح ورسائلهم في الجامعات أنه الطالب يأخذ من هذا المصدر وسواه دون أدنى مناقشة، وذلك خوفاً منه من أن يكون قد تجرأ على علم كبير كابن جني، أو سواه وهذا الأمر ينسحب على الكثير من المؤلفات في اللغة، والتفسير، وسائر العلوم اللغوية.

لقد أحاط جمهور العربية ومتقوفاها والمختصون بها ابن جني بنوع من القداسة وأحاطوه بالكثير من التبجيل والتقدير، وتمنَّع أهل اللغة عن أي دراسة نقدية تضع ابن جني في

1- راجع كتاب النظام القرآني، عالم سبيط النبلي، دار المحجة البيضاء، ط1، سنة 2007، ص 35-40.

ميزان النقد الموضوعي الدقيق، وتعطيه حقّه الحقيقي وتزيل عنه هالة القداسة المزعومة، والتي لم يدع ابن جني بذاته هذه القداسة.

ثانيًا: عبد القاهر الجرجاني

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (400 - 471هـ) نحوي ومتكلم، ولد في جرجان لأسرة فقيرة الحال، وكان ولوعًا بالعلم، شغوفًا به، محبًا للثقافة مقبلًا على اللّغة، وقد قيل فيه أنه معجزة عصره، وفريد دهره، ومؤسس علم البلاغة، وقيل فيه أنه أحدث نقلة نوعية في فهم إعجاز القرآن الكريم حين جاء بنظرية النظم. ومجددًا نوّكّد على عظيم الجهد الذي بذله الجرجاني في محاولة استيعاب بلاغة القرآن الكريم، وما أنجزه في هذا المضمار ليس بالشيء السهل، لكن هل حقيقة لا تشوب مؤلفات عبد القاهر الجرجاني شائبة حتى يمنح هذه العظمة وهذه القداسة المنقطعة النظر؟

لا ننكر أن الأمة كانت مولعة ولعًا شديدًا بكثرة التّأليف، لكن على ضعف النظر والتدقيق فيما ألف وكتب، ولو أمعن النظر في جميع ما صنّف من مؤلفات في اللّغة وسواها لوجدنا الكثير من الوهن والاضطراب في تلك المصنّفات، ومما يؤخذ على عبد القاهر الجرجاني ما يلي:

- عرّف عبد القاهر الجرجاني المجاز تعريفًا تفسيريًا فقال «المجاز مفصل من جاز الشيء يجوزه إذا تعدّاه وإذا عدلّ باللفظ عما يوحيه أصل اللّغة وصف بأنه مجازٌ على معنى أنهم جاوزوا به موضعه الأصلي أو جاز مكانه الذي وضع فيه أولاً»¹. وحسب ما يظهر من هذا الكلام أن المعنى واحدٌ في كلا التعريفين، فسواء كان اللفظ عنده معنىً أصلي واستعمل لغير هذا المعنى للتمثيل أو للتشابه أو للاستعارة أو للكناية فهو مجاز. «ونلاحظ في هذا تناقضًا شديدًا ما بين التعريف وما بين الواقع العملي، إذ لا تجد أحدًا منهم وضع اللفظ (الواحد) معنىً أصليًا بل أن اللفظ عندهم له عمليًا معانٍ متعددة ولكن حينما يبحثون عن (مجازات) يجعلون المعنى اصطلاحًا أصلًا، والأمر الأكثر سوءًا هو أنهم خالفوا التعريف في جميع (المجازات

1 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، بيروت، دار المفيد، ص 365.

المزعومة). فحينما جعلوا المعنى الاصطلاحي هو الأصل قاسوا عليه، فما خالفه صار مجازاً وما طابقه صار هو الحقيقي بينما المعنى الاصطلاحي وفق التعريف هو أول المجازات»¹. ولكي تكون الفكرة التي نطرحها واضحة نقدم بعض النماذج التي توضح فكرة المجاز والإشكال على ما أسس له عبد القاهر الجرجاني.

يقول الزمخشري في كتابه الكشاف حول الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^{١٩} ². «والمعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به حقيقة³، وهذا يعني أن لفظ «محيط» عنده مجاز لأنه لم يستعمل وفق الأصل، وهنا نسأله ما هو الأصل؟ وبالطبع فالأصل عنده هو الإحاطة المكانية ذات الأبعاد المادية أو كما عبر عنه البعض إحاطة السوار بالمعصم⁴، في حين يكتشف أي إنسان لهما كانت معرفته محدودة في اللغة أن الإحاطة في الأصل هي أبعد من هذا بكثير وهي معنى عام يتضمن الاحتواء والسيطرة. في حين أن الإحاطة المادية هي وضع اصطلاحى بسيط وجزء من المعنى الأوسع. ولذلك نسوا قوله تعالى على لسان الهدد مخاطباً النبي سليمان عليه السلام: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَحِجَّتُكَ مِنْ سَبَائِبِكِ يَقِينٍ﴾^{٢٢} ⁵. ناهيك عن عدد كبير من الآيات التي يستعمل بها لفظ محيط أو يحيط.. أو أحيط بالمعنى الإصطلاحي الحقيقي العام أي الإحاطة المعنوية.

مثال آخر في التشبيه والبلاغة:

يشير الجرجاني في لحاظ الآية المباركة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^٥ ⁶. إلى حقيقة رآها هو فقال: «إن التشبيه في الآية لا ينصرف إلى (الحمل) بل القصد ما يوجبه تعدي الحمل إلى الأسفار مع اقتران الجهل بها»⁷ ثم قال: «فإن

-
- 1 - عالم سبب النبلي، النظام القرآني، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط1، سنة 2007، ص 99 - 100.
 - 2 - قرآن كريم، البقرة 19.
 - 3 - محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، تفسير الكشاف، بيروت، دار المرتضى، جزء 1، ص 385.
 - 4 - محمد حسين الصغير، الصورة الفنية في القرآن الكريم، دار الهلال، بغداد، ص 63.
 - 5 - قرآن كريم، النمل 22.
 - 6 - قرآن كريم، الجمعة 5.
 - 7 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، 250.

قلت ففي اليهود شبه من الحمل من حيث هو حمل على أي حال وذلك أنّ الحامل للشيء بقلبه يشبه الحامل للشيء على ظهره، ومن يقال حملة الحديد وحملة العلم، فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فإنّ هذا الشبه لم يقصد هنا وإنما قصد ما يوحيه تعدي الحمل إلى الأسفار مع اقتران الجهل به، ومثل قولك لرجل يحمل في كفه دفاتر علم وهو بليد ولا يفهم: إن كان يحمل كتب العلم فالحمار أيضاً قد يحمل، تريد أن تبطل دعواه أن له في حملة فائدة»¹.

«وبالتالي فقد ظن الجرجاني أن التشبيه بين اليهود والحمار»². وهذا أمرٌ محال لأنّ الله أجلّ وأعزّ وأبعد من أن يعقد مقارنة مباشرة بين الإنسان والحيوان. والشبه في الآية معقود بين «المثل» الأول (حملوا التوراة) ونحن لا ندري ما يكون مثلهم، والمثل الثاني وهو الحمار ونحن لا ندري أيضاً ما يكون، وفي النهاية فإن القرينة بين شيئين لا نعرف ما هما وفي دراسة ورأي الجرجاني في الآية نظر وتأمّل لا يخلو من إشكال، وحقيقة الواقع فإن هذا البحث لا يتسع لإدراج جميع ما يرد على الجرجاني من ملاحظات علمية دقيقة وهي تحتاج إلى كتاب كبير مستقل بذاته؛ لكننا لا نجد مبرراً بالمطلق لتقديس الناس للجرجاني ولكتبه، ولا مبرر لاعتبار آرائه قطعية ولا يشوبها شائبة. ومن الممكن لأي راغب في التزود بمثل هذه الردود المنطقية على إشكالات الجرجاني أن يرجع إلى كتابي عالم سبيط النبلي: «الحل القصدي للغة في مواجهة الاعتباطية» وكتاب «النظام القرآني»، ومهما يكن من حال فإننا لا نستطيع أن ننكر على الرجل جهوده التي بذلها في دراسة اللّغة مهما شابه من وهن.

ثالثاً: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت 502هـ)³

مثل كتاب الراغب الأصفهاني في شرح غريب ألفاظ القرآن الكريم قاعدةً ومنطلقاً لمعظم المفسرين من الأقدمين ومن العصور اللاحقة القريبة، واعتمدوا عليه في فكّ رموز العديد من الآيات في القرآن الكريم لكن المنتبِع والمتصفح في الكتاب يرى بوضوح

1 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، 250.

2 - عالم سبيط النبلي، الحل القصدي للغة في مواجهة الاعتباطية، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط1، سنة 2007، ص 279 - 280.

3 - جميع مؤلفات هذا العالم موجودة في دار المحجة البيضاء، بيروت.

مدى الاضطراب البالغ الذي يعاني منه الكتاب في منهجيته وفيما يقدّمه من تقلبات للمعاني في لحاظ ألفاظها وفيما يلي تعرض لتلك النماذج اللفظية التي وقع فيها الراغب في كتابه ولم يصب فيها شيئاً من الصواب، ولم يراع خلالها أدنى قواعد السياق اللغوي ومنها:

الوضع، وضع:

يشير الراغب الأصفهني في كتابه المفردات في غريب القرآن في متن الصفحة خمسمائة وخمس وعشرين (525)، في شرح مادة «وضع» وتقلباتها فيقول: «قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾¹. فهذا الوضع عبارة عن الخلق والإيجاد، ووضعت المرأة الحمل وضعاً، قال: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾² ﴿٣٦﴾».

نلاحظ فيما قدّمنا من كتاب الرغب في شرحه لمادة وضع في قوله تعالى: والأرض وضعها للأنام، أنه يقول: (فهذا الوضع عبارة عن الإيجاد والخلق) ومستلهماً هذا المعنى من قوله تعالى: (فلما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى) والوضع في سياق الآية إشارة إلى الولادة بسياق قوله (إني وضعتها أنثى) فعندما علمت أنها أنثى وليس ذكرًا، فهذا يعني أنها كانت قد ولدتها ورأتها ونظرت إليها فوجدتها أنثى، ما يدل دلالة قطعية على أن الوضع هو الولادة، وأما الخلق فهو من أفعال الخالق جلّ وعلا ولا سواه يخلق، فكيف يربط بين (والأرض وضعها) و(إني وضعتها) فيقول (والأرض وضعها) بمعنى الإيجاد والخلق، في حين أن الله تعالى خلق الأرض من قبل، ولما يقول تعالى: (وضعها للأنام) فإنه بمعنى كيّفها وجعلها ملائمة للخلقة الإنسانية وضعية هذه الخلقة، وكثرهم المفسرون الذين أخذوا عن الراغب فسقطوا بما سقط.

11 - أعلام مقدّسون

كما في الدرس اللغوي، وفي العديد من المصنفات اللغوية، كذلك حصل في لحاظ عدد كبير من الشعراء العرب الذين قدّست أشعارهم لتفوقهم الشعري ولغتهم الشعرية

1- القرآن الكريم، سورة الرحمن 10.

2- القرآن الكريم، سورة آل عمران 36.

ومن الأمثلة على ذلك:

- أبو الطيّب المتنبي:

لا ينكر أحد على المتنبي شاعريته الفذة، وتجربته الشعريّة التي تضرب عمقاً في تاريخ اللّغة العربيّة، ولا نفكر أنه جزء عظيم من تراث العرب الشعري واللّغوي، حتى أننا نعترف بصراحه بالغة أنه عالم عصره ومنافس شعراء مروا من قبل ومن بعد، وكان ديوانه ولا يزال مرجعاً وشاهداً لغويّاً، من أغنى دواوين العرب، وهو سجلّ ثقافي وحضاري يزخر بالحكمة، والبلاغة، ويعتبر ديوان المتنبي شاهداً حضارياً وثقافياً على عصره، وهو ديوان عمل المتنبي على تنقيحه ومراجعته، كما وعرضه على ابن جنّي في زمانه؛ لكننا لا يمكن أن نسمح لأنفسنا بتقديس المتنبي أو بتقديس شعره، فلا المتنبي مقدّس، ولا ما جاء به مقدّس، ولا ننسى أبداً أن المتنبي كان من طلاب السلطة، والإمارة وظلّ يلح على سيف الدولة في أن يولّيه إمارة؛ لكن سيف الدولة ظل يؤجّله ولا يستجيب له حتى أوقع الوشاة بينه وسيف الدولة، فتركه وقصد كافور الإخشيدي حاكم مصر، الذي استهل علاقته به بقصيدة امتدحه بها يُحدّث من عيون ديوانه، وعندما لم يستجب كافور للمتنبي، ولم يولّه إمارة هجاه ونكّل به في قصيدة متميّزة، هي أيضاً من عيون الشعر العربيّ مطلعها:

عيد بأيّ حال عدت يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد

ولو لم يستطع أن يرشي السجان ويخرج من سجنه لظلّ سجيناً بين يدي كافور إلى أن يموت، هذا من جهة شخصيته، ومن جهة شعره وديوانه لم يخل ديوانه من اضطرابات لغوية وموسيقية، فمن أين نأتي القداسة للأشخاص ولأشعارهم وآثارهم ونعلم ما مدى ما حققه المتنبي من قداسة بسبب ضالة ثقافة الناس وافتقادها لروح النقد والموضوعية في التعاطي مع نتاجات الأمة الفكرية والثقافية والأدبية في وقت لا يمكن لنا أن نغفل عن حق هؤلاء الشعراء والأدباء بحسن التقدير وكبر الاحترام لعظيم ما أنجزوه، وحفظوه من تراث لغوي وفني، إلا أنّ التقدير والاحترام، والتبجيل شيء، ومنح القداسة والتقديس شيء آخر. ولا نريد أن نسترسل في ذكر شعراء وأدباء قدّسهم التاريخ من أمثال المتنبي، كأبي

تمام، والبحتري، وأبي نؤاس، والجاحظ وسواهم كثر من الذي نال تراثهم مرتبة القداسة، والقداسة والمقدس منصرفان عن هكذا مقام.

وفي هذا المقام فإننا نحمل المسؤولية في ذلك لأهل المعرفة والعلم، وأصحاب النظر النافذ في النقد والمعرفة، وما ينبغي القيام به، إعادة النظر بكامل هذا التراث وبشكل كلي، والتدقيق في قراءته ونخص بالذكر تراثنا اللغوي والفكري وجميع كتب تفسير القرآن الكريم إذ في هذا التراث ما فيه من وهن ودس، ومغالطات، وما لا يليق بالمؤلف ولا يليق بالأمّة، وكلّ ما ينقصنا الشجاعة وإسقاط هالة التقديس عن هذا التراث الذي لا زال يعتبر إرثاً ثقافياً، ومعرفياً، وعلمياً، وحافظاً، ومخزوناً لغوياً كبيراً يعتدّ به، ونرى أنّه ليس من سبيل للاستمرار في هذا الإهمال في ترك هذا التراث الكبير مهملاً من ناحية نقدية تصوبه من زمان إلى زمان، وتحفظه من أن يقع فريسة نقاد لا يرحمونه ذات يوم، فيسقطون منه ويسقطونه، لا سيما أجيالنا تتحوّ منحىً عقلياً، ووعياً شديداً، ومن غير الممكن الاستمرار «بأكذوبة المقدّس» على أنّه مقدّس في التاريخ ومن الماضي ولا يمكن المساس به، أو توجيه أدنى ملاحظة له، ويجب أن تطل هذه العملية جميع التراث الفكري والثقافي والديني والعلمي من:

- كتب التفسير المتخصصة بالقرآن الكريم.
- كتب الحديث وسائر العلوم المتعلقة به (علم الرجال).
- كتب اللّغة، صرف، ونحو، وبلاغة، وفقه.
- كتب الأدب والتاريخ.

ولا نعتقد أن الأمر بهذه السهولة؛ بل يحتاج إلى جهد حثيث وكبير، ونشاط جماعي مؤسساتي، وليس على مستوى الأفراد، والأهم من هذا كله الانفتاح العقلي لدى الجميع الذي يمكن أن يُحدث تحوّلاً وتغييراً حقيقياً في ثقافة الأمة حيث لا بدّ من إعادة النظر في كلّ شيء. والأهم من كلّ شيء إعادة النظر بالدرس اللغوي والمصنّفات اللغوية، حيث تأسست على تلك المغالطات اللغوية جميع اضطرابات النّقاة اللغوية من بعدها، والتي طاولت كتب ومصنّفات تفسير القرآن الكريم، «والتي أحدثت خللاً واضحاً على

مستوى فهم النص القرآني وتفسير آياته الكريمة»¹. وما تأكيدنا على المصنفات اللغوية: «إلا من هذا الباب حيث أخذت مباحث الألفاظ حيزاً كبيراً في اللغة وكانت تفرعاتها مشتركة بين علم الكلام من جهة، وأصول الفقه من جهة أخرى، واستعملت على نطاق واسع في التفسير سواءً كان للنص القرآني أو غيره، كشرح الحديث ودراسة متون المرويات ونصوص الصحابة ونصوص وخطب الأئمة عليهم السلام، كشروح نهج البلاغة وغيرها. وقد استعملت على نطاق أضيق وبمصطلحات مختلفة في علم البيان أو البلاغة»².

خلاصة البحث

طرحنا في بحثنا هذا قضية المقدس اللغوي، وقد توخينا الدقة فيما تقصينا، والموضوعية، وفيما يلي نلخص أبرز ما توصل له بحثنا من نتائج:

أولاً: إن إشكالية المقدس اللغوي حقيقة ثابتة وموجودة ولا يمكن إنكارها وقد ذهب إليها الكثيرون ممن اشتغلوا في اللغة.

ثانياً: نشأت فكرة تقديس اللغة العربية من مبعثين رئيسيين، القرآن الكريم والحديث النبوي بشقيه «الشريف والمقدس» بالإضافة إلى نصوص عترة آل بيت رسول الله (ع).

ثالثاً: رغم اعترافنا المؤكد بقداسة القرآن الكريم، ومضامينه، وآياته؛ إلا أننا لا نعتقد بسريان هذه القداسة إلى اللغة العربية ذاتها، واعتبرنا القول بذلك مصادرة، وتبرع، وخارج أطر المنطق العلمي.

رابعاً: ما قرناه بخصوص عدم سريان القداسة من النص القرآني إلى سائر اللغة نؤكد على مستوى الحديث النبوي بشقيه «الشريف والقدسي».

خامساً: إن القداسة والمقدس إنما صادر عن ذات مقدسة، وعظمة النص إنما ناجمة

1 - حسين أغا علي صادقي، اللغة في خدمة الدين، مكتبة قم المقدسة، ترجمة حسين فيصل، ص 87.

2 - عالم سبيط النبلي، الحل القسدي للغة في مواجهة الاعتباطية، ص 5، المقدمة.

من نظم اللّغة.

سادساً: حاولت الأمة أن تضيفي القداسة على سائر الذات العربيّ من مصنفات عديدة في التفسير وعلوم الكلام واللّغة، وقد قدّسنا نماذج دقيقة تدل على عدم إمكانية قبول الفكرة، وما رفضناه في لحاظ النّص الدّينيّ من غير الممكن أن نقبل به في لحاظ غير الدّينيّ.

سابعاً: يوجي البحث بإعادة النظر بالتراث العربيّ كله وخاصة التّأثر اللّغويّ لما يؤثّر في سائر المصنفات الدّينيّة، وتفسير القرآن وما شابه.

ثبت بالمصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1. ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة. بيروت، دار المفيد.
2. ابن جني، الخصائص، تحقيق عبد الحميد هندية، بيروت، دار الكتب العلمية.
3. ابن منظور الإفرقي، لسان العرب، دار النوادر.
4. الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. المفدرات في غريب القرآن (ت 502هـ)، بيروت، دار المعرفة.
5. الجابري، عبد الستار محمد علي. أساسيات الدرس اللغوي عند العرب، قم، مؤسسة أهل البيت، ط1، 1980.
6. الجبوري، محمود كامل. تاريخ الخط العربي، بغداد، دار التراث.
7. الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة، بيروت، دار المفيد.
8. جوني، حسن جميل. القرآن بين العربية والعربية، بيروت، دار المرتضى، ط1، سنة 2016م، 1437هـ.
9. حسني، ماجد عبد الإله. الأصول الثابتة، دار المرتضى.
10. الخوئي، السيد أبو القاسم مباني منهاج الصالحين. دار المفيد.
11. الزبيدي، محمد مرتضى. تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، سنة 1306هـ.
12. الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد. تفسير الكشاف، بيروت، دار المرتضى.
13. سليمان، حسين عابد. تاريخ القرآن الكريم، الإسماء، مكتبة الرسول الأعظم، لا ط، لا سنة، محفوظ رقم 3106.
14. شداد، أيمن خالد. اللغة العربية كائن حي، توافق أم تعارض، مقالة علمية منشورة في مجلة اللغة العربية، العدد 316، سنة 2012، الأردن.
15. صادقي، حسين آغا علي. اللغة في خدمة الدين، مكتبة قم المقدسة، ترجمة حسين فيصل.
16. الصغير، محمد حسين. الصورة الفنية في القرآن الكريم، دار الهلال، بغداد.
17. عبد الإله، محمد صابر. أحادية اللغة العربية، بغداد، دار الشروق، 1975.
18. علي بن أبي طالب «ع»، نهج البلاغة، بيروت، دار البلوغ.
19. علي بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة، دار المفيد.
20. الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (ت 170هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية.
21. المجلسي، محمد باقر. بحار الأنوار، دار الرسول الأعظم.
22. النبلي. عالم سبيط. النظام القرآني. دار المحجة البيضاء، ط1، سنة 2007.
23. النبلي، عالم سبيط. الحل القسدي للغة في مواجهة الاعتباطية، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط1، سنة 2007.

الأبعاد الدلالية للصورة الفنية في الشعر العربي الحديث

The Semantic Dimensions of Artistic Imagery in Modern Arabic Poetry

د. ريماء أحمد غانم¹

Dr. Rima Ahmad Ghanem

تاريخ القبول 2025 /1/21

تاريخ الاستلام 2024 /12/30

ملخص

يتناول هذا البحث موضوعاً أدبياً يدور حول الصورة الفنية التي تظهر في القصيدة الشعرية بأشكال مختلفة، وبدلالات متنوعة. ومن أبرز هذه الدلالات أنّ الصورة الشعرية تهدف إلى إظهار الانفعال العاطفي بشكل يفهم منه أنّ الشاعر يعاني هذا الانفعال المهيمن على كيانه نتيجة انصدامه بواقع المجتمع المتألم بسبب الاعتداءات التي يتعرض لها. وكذلك تتبدى الصورة الفنية التي تنطوي على دلالات الانتفاض والتمرد والرفض نتيجة للمعاناة التي كان يعيشها شعراء الحداثة من جزاء رؤية أمتهم تعاني الويلات والمصائب، إضافة إلى الصورة التي تنطوي على معاني التعاطف الإنساني المنبعث من أعماق الشاعر المتألم لواقع الكادحين والمعدّبين في هذا المجتمع المضطرب والمتوتر بفعل التسلط والهيمنة وإهدار حقوق الإنسان بالعيش الكريم، وعدم تفهم احتياجاته وأحلامه. لذا كانت القصيدة العربية الحديثة بصورها الفنية المتنوعة رسالة لكل المجتمعات التي تبحث عن أمنها وسلامها. وكذلك تناول البحث صورة الحب والغرام التي ميّزت الكثير من قصائد شعراء النهضة بجمالية أسلوبها الإبداعي، وجعلتهم يبوحون بمشاعرهم وأمنياتهم وعواطفهم الجياشة.

الكلمات المفتاحية: أبعاد دلالية - صورة فنية - صورة شعرية - تعاطف إنساني - انفعال

1- أستاذة محاضرة في كلية التربية - الجامعة اللبنانية

Abstract

This research addresses a literary topic focused on the artistic imagery found in poetry in its various forms and meanings. One of the most prominent of these meanings is that the poetic image aims to express emotional upheaval in a way that conveys the poet's experience of a dominant emotional state due to the clash with a society suffering from the assaults it endures. Additionally, the artistic image reveals meanings of revolt, rebellion, and rejection as a result of the suffering experienced by the modernist poets, who witnessed their nation enduring misfortunes and calamities. Furthermore, the image also reflects a sense of human empathy that emanates from the poet's suffering, who deeply feels the plight of the oppressed and the tortured in a society disturbed and tense due to oppression, dominance, and the violation of human rights, including the right to a dignified life, as well as the lack of understanding for their needs and dreams. Therefore, the modern Arabic poem, with its diverse artistic images, serves as a message to all societies seeking peace and security. The research also discusses the image of love and passion, which distinguished many of the poets of the Renaissance, with its aesthetic and creative style, allowing them to express their feelings, wishes, and intense emotions.

Keywords: Semantic dimensions – artistic image – poetic image– human empathy – emotion

مقدمة

يتميز الشعر العربي، منذ نشأته، بحروفه اللغوية المعبرة، وبصوره الفنية التي تحمل في خفاياها الكثير من الدلالات، أكانت دلالات رمزية، أو نفسية، أو اجتماعية، أو انتقافية. وقد أثار الكثير من النقاد العرب هذه الميزة التي طبعت الشعر العربي، قديمه وحديثه، بعدد وفير من الصور التي تحمل المعاني الدالة على موضوعات لها صلة بالإنسان وبانتمائه الاجتماعي. وإذا انتقلنا إلى العصور الأدبية عبر التاريخ، فإننا ننع

على عدد وفير من القصائد التي تميّزت بلغتها الشعريّة المميّزة التي تخفي، بين طيّات سطورها، صوراً فنيّة معبرة. فالصورة الفنيّة تميّز بأبعادها الدلاليّة وتراكيبها اللغويّة، فضلاً عن أشكالها الإيقاعيّة التي تؤدّي فيها النغمة الموسيقيّة دورها الفنّي في إظهار أفكار الشعراء ومشاعرهم.

تكمن أهميّة هذا الموضوع في ما تقدّمه هذه الصّورة في سياق التّعبير الإيقاعيّة من أبعاد دلاليّة تسترّ في كلّ كلمة، وفي كلّ جملة ترد في القصيدة، لأنّ الشّاعر المُبدع لا ينظم قصيدته المميّزة إلاّ لينقل إلى السّامعين صورة عمّا يريد، وعمّا يشعر به، وعمّا يودّ أن يُنقذ به وضعا إنسانياً يعانيه المجتمع البشريّ، وذلك من خلال أدبه وفتنه الإبداعيّ، لأنّ الأدب في نظر الكثيرين هو أداة تواصل وتعبير بين الأديب وبين سامعيه، فهو أداة فاعلة بيده يستعملها بقدراته الفنيّة، ليصوّر الحياة وآلامها، ويبثّ شكواه وآماله، وينشر مبادئه في حبّ الخير للإنسان، وغالباً ما تكون وسائله المعتمّدة في نشر كلماته محصورة في سحر ألفاظه وصوره الفنيّة، وما يمتلكه من طاقات كامنة تشحن القارئ وتثير انفعالاته، وتجذبه إلى أن يعيش لحظات من الاطمئنان والارتياح إلى إبداعية الشّعر وصوره الإبداعية. ولا عجب أن ينتقل الأدب من وسيلة لتسجيل مظاهر الحياة إلى أدب يخترق أعماق النّفس الإنسانيّة، «حيث يتحوّل الأديب الفنّان إلى صوت كلّ امرئ يتمنّى أن يلمس السّعادة ويسعى، في كلّ لحظة، لنيل حياة كريمة»¹.

وبناء على ما سبق، عمدنا في بحثنا هذا إلى إلقاء نظرة على هذه الميزة الدلاليّة واللغويّة التي يتمتّع بها الأدب العربيّ، من خلال اعتمادنا على نخبة من شعراء العصر النهضويّ الحديث، لكي نتلمّس ما قدّمته أشعارهم من دلالات معيّنة عبر صورهم الفنيّة التي شغّت في حنايا قصائدهم المتنوّعة التي انطوت على أفكارهم البناءة، وحملت في خفاياها شعاع الأمل لكلّ مستمع وعاشق للفنّ الأدبيّ. ولن نتوسّع كثيراً في عمليّة اختيار الشعراء بل نكتفي بعدد من النّماذج الشعريّة التي نستقيها من قصائدهم المتنوّعة.

لقد ارتأينا أن نقسّم بحثنا هذا إلى أربعة محاور: المحور الأوّل نتناول فيه صورة الانفعال والتوتّر، والمحور الثّاني صورة الانتفاض والثّمرد والرّفص، والثّالث نتحدّث فيه

1 - محمد الحبيصة، النزعة الإنسانيّة في الشّعر الأردنيّ المعاصر، جامعة مؤتة، 2015، ص 3

عن صورة التّعاطف الإنسانيّ، أمّا المحور الرّابع فحصرناه في إطار الصّورة الغراميّة أو صورة الحبّ والغرام. فكيف تجلّت دلالات هذه الصّور في شعرنا العربيّ الحديث؟

أولاً - صورة الانفعال والتوتّر

تخفي القصيدة الشّعريّة الحديثة دلالات معيّنة، ومن أبرز هذه الدلالات أنّها تعبّر عن الانفعالات والاضطرابات النّفسيّة التي تصيب الشّاعر حينما يكون في مرحلة إعداد القصيدة وتألّف تناغمها الإيقاعيّ وتراكيب كلماتها، فيصبّ حالته المتوتّرة على أجواء هذه الصّورة. فإذا كان منفعلاً أو غاضباً أو منتقداً وضعاً لا يرتاح له، فالصّورة الشّعريّة ستأتي، حتّمًا، حاملة في طيّاتها الكثير من المعاناة والارتباكات التي يكون الشّاعر غارقاً في أجوائها. لهذا نجد الكثير من الألفاظ التي تعبّر عن هذا الانفعال منثورة في حنايا القصيدة بحسب الوضع الانفعاليّ للشّاعر. فالصّورة الشّعريّة ترتبط، غالباً، بالصّوت اللّغويّ المعبّر والمتجانس مع المعنى. فهذا الصّوت ما هو إلاّ أداة التّواصل أو التّعبير عن الأحاسيس، وقد عرّف ابن جنّي اللّغة بأنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم.¹

إذا أمعنا النّظر في بعض القصائد العربيّة الحديثة سنلمس آثاراً متوتّرة وانفعاليّة، وذلك نتيجةً للوضع النّفسيّ الذي يعاينه الشّاعر. فكم من قصيدة تعبّر عن حزن كاتبها، وعن ألمه وعن حبّه الفاشل، وعن ضعفه إزاء مشكلة تعترضه، فيصوّر جام غضبه، وانفعالاته في أدبه، من خلال ألفاظه وكلماته الإيقاعيّة التي تتقلّ الصّورة الفنّيّة محمّلة بخفايا هذا الانفعال. لهذا تعتبر الصّورة الفنّيّة أداة الشّاعر ووسيلته التي يجسّد من خلالها ما يختلج بداخله من مشاعر وانفعالات، وهي الأساس الذي نرتكز عليه لكي نتعرّف إلى جودة الشّاعر وأصالته. فهي قوام الشّعر الذي لا غنى عنه، وجوهر من جواهره الأساسيّة²، كما نجد في قول أدونيس :

1 - ابن جنّي، الخصائص، تحقيق محمّد علي النّجار، دار الكتب المصريّة، 1957، ج 1، ص 33
2 - نسرين مصباح، أنماط من الصّورة الفنّيّة في الشّعر العربيّ الحديث، المجلّة العلميّة لكلّيّة الآداب، جامعة دمياط، القاهرة، 2014، ص 419

يَمحو وجهه يكتشف وجهه

يتقدّم الخطف تلبسك فتنة فجرها الأول

يتقدّم الوقت .. أين المكان الذي تُزمنُ فيه الحياة؟

تتقدّم العنمة أية رجّة أن أوزعك في كريات دمي

وأقول أنتِ المناخ والدورة والكرة

أية زلزلة؟¹

نستشفّ من خلال هذا الشاهد الشعريّ، كيف تسيّر ألفاظ الانفعال بين حنايا الكلمات لتهب الكلام نوعاً من الاهتزاز الذي حرّك أعماق الشاعر، وما يشعر به إزاء الوضع الاجتماعيّ المأزوم الذي يعيشه. فهذا المحو للوجه، ومن ثمّ العودة إلى اكتشافه، والفتنة التي تلبس الحبيبة، والوقت الذي يتقدّم.. كلّها ألفاظ تدلّنا على ارتباك الصّورة واضطراب الشّاعر الذي يظهر انفعاله وتوتره عبر هذه الكلمات أنت لتدلّنا على الصّورة الانفعاليّة التي رسمها حينما واجه مشاكله المتعدّدة. فسؤاله عن المكان وزمن الحياة ينطوي على تضعّض وارتباك، فهو تائه في خضمّ هذه الحياة ولم يعد يدرك حدود المكان، خصوصاً أنّ الوقت يتقدّم ولا يتوقّف، وأنّ العنمة بدأت تهيمن على أجوائه، والارتجاج بدأ يخترق كريات دمه، حتّى أنّ الكلمات (فتنة، رجّة، زلزلة) راحت تُضفي على أجواء هذه الصّورة نوعاً من الانفعال العاطفيّ إزاء ما يتعرّض له الشّاعر من معاناة مع حبيبته، فلا يقبل أن يحدثها بهدوء، وإنّما بنبرة فيها الكثير من المعاني المخفيّة، حين يستعين بأصوات الأحرف اللّغويّة ليصوّر المشهد وكأنّه يعيشه لحظة بلحظة. فكلمة زلزلة تتكوّن من أحرف صوتيّة مثيرة للمشاعر وللأحاسيس، فمجرد أن تدخل أذن السّامعين، يدبّ في أعماقهم خوف وارتعاد، لأنّ الصّوت المنبعث من اتّحاد أحرف هذه الكلمة له دلالات بعيدة، من أبرزها دلالة الارتعاد، وكذلك في استخدامه لكلمة (رجّة) التي لم يتأخّر عن إبراز البعد الدلاليّ لها والذي يمكن حصره بما تحمله كلمة زلزلة. فالرجّة غالباً ما تسبق الزلزلة، في المفهوم الجغرافيّ، وهذا ما أراده شاعرنا لكي يجعلنا نستشعر بما يمرّ به من

1 - أدونيس، الأعمال الشعريّة، جزء 1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1996، ص 89

ألم ولوعة في تقاربه مع هذه الحبيبة التي أثارَت فيه هذه الانفعالات والتوتّرات العاطفيّة غير المستقرّة.

وما نلاحظه في كلام أدونيس، أيضاً، هيمنة الأفعال المضارعة (يمحو، يكتشف، تُلبسك، يتقدّم، تتقدّم، أوزّعك) وهي أفعال لها وزن زمنيّ - أفعال مضارعة - معيّن له دلالة الاستمرار من دون توقّف. فالإحساس بهذا الزمن الحاضر يُضفي على أجواء القصيدة نوعاً من الحركة المستمرة التي لا تتوقّف عند حدّ معيّن، وهذا ما قصده أدونيس حين أراد أن يربط الوقت بحركيّة المكان، ويربط هذين الاثنين بحركيّة الحياة (يتقدّم الوقت أين المكان الذي تُزمنُ فيه الحياة؟)، فالإحساس بالزمن يحدّد موقف الشّاعر من العالم والوجود، حيث يخلع على المكان لوناً معيّنًا من خلال ربطه بحركيّة الزمن، فيصبح الزّمان مرتبطاً بسلوك الشّاعر كقوة محرّكة للفعل الإنسانيّ¹. والنّرسيمة الآتية تكشف عمق توتّره الانفعاليّ:

يمحو وجهه = يكشفُ وجهه ← (تناقض بين المحو والكشف)

الفتنة = تلبسك = فجرها الأول ← (جمال الفجر يُلبس الحبيبة)

يتقدّم الخطف = يتقدّم الوقت = تتقدّم العتمة ← (استمراريّة الحياة)

أية رجّة = أية زلزلة ← (اضطراب وزلزلات)

أنت = المناخ = الدّورة = الكرة

(الحبيبة هي الكون في نظر الشّاعر المتوتّر)

لنسمع الشّاعر أحمد عبد المعطي حجازي يقول :

ثورة، ثورة .. شعبيّ في الشطّ الأبيض تاز

ضربات جناحك يا نسري، في الغرب تاز

آه، لو أنّ جناحك فوق المشرق طار ..

1 - عبد الحميد جيدة، مقدّمة لقصيدة الغزل العربيّة، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان، 1980، ص 29

لو أنّ النّار سرت في باقي الدّار

يا ويلي يا ويلي، يا أحزاني يا قضبان اللّيل

غوري فطلّاعنا فاضت كالسّيل¹

يحاول الشّاعر، من خلال هذه الصّورة التّعبيريّة، أن يصرّو غضبه الانفعاليّ إزاء ما يحدث في الشّطّ الأبيض وفي المغرب، وأن يثير الحماسة في قلوب الّذين يستمعون إليه، وأبرز ما يهّمه أن يصوغ صورته هذه في محتوى انتفاضيّ معبر، مستعملاً ألفاظاً مميّزة بصوتها الإيقاعيّ الّذي تفوح منه روائح الانفعال والغضب، فكلماً استمعنا إلى كلمة ثورة مكرّرة مرّتين نلاحظ أنّ الصّورة تخفي غضباً وانفعالاً، ولا تدعو إلى الهدوء والاتّزان، وكذلك في استماعنا إلى قوله (لو أنّ النّار سرت في باقي الدّار) نكتشف الدّعوة الثّائرة إلى تنفيس الغضب والاحتقان إزاء الغاصبين والمعتدين على أرض وطنه.

وفي نظرة معمّقة إلى الاستخدام اللّغويّ في هذا الشّاهد نلاحظ سيطرة حرف التّمنيّ (لو) على المضمون، وهذا يعني أنّ أسلوب التّمنيّ الّذي لجأ إليه الشّاعر قد يكون يخفي دلالات معيّنة، من أبرزها أن يكون التّمنيّ محصوراً بأمر لم يحدث، والشّاعر يتوق إلى أن يتمّ حصوله كي تتراح أعماقه الثّائرة. فهذا التّفاعل بين كلمة (لو) وبين حرف (أنّ) ألف وحدة تركيبية أفرزت دلالة تواصلية بين الشّاعر وبين أمنيته الّتي لم تتحقّق. فالجملة، في مفهوم اللّغويين، تتركّب من وحدات دالّة، تتفاعل مع بعضها البعض لتشكّل العلاقة المعنوية المتأّتية من الفعلين الماضيين (طار) و(سرت)، وهذا يعني أنّ التّمنيّ لم يحصل في الماضي، وهذا لا يستدعي الحصول بل عدمه، لأنّ عدم الاستدعاء يدلّ على أنّ التّمنيّ لم يقع في الماضي أو قد لا يقع في المستقبل². وإلى جانب ذلك، استخدم الشّاعر حرف النداء (يا) الّذي تكرر أربع مرّات (يا ويلي يا ويلي، يا أحزاني يا قضبان اللّيل)، وذلك ليظهر أهميّة الويل الّذي أصابه وأصاب مجتمعه، وكلمة ويل حدّ ذاتها تحمل دلالة المصيبة الّتي يرتعب منها النّاس بكلّ ألوانهم وأشكالهم. والتّركيز، هنا، كان في حصرية الويل بذاتية الشّاعر، بأن جعل نداءه محصوراً بالمصيبة الّتي

1 - أحمد عبد المعطي حجازي، الدّيون، دار العودة، بيروت، 1973، ص 4

2 - إبراهيم بابو، أصول الدّلالة التركيبية في التّمنيّ والتّرجي، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلميّة، دمشق، 2008، ص 157

ألمت به، وهذا ما أراده بأن تكون العلاقة بين المتكلم والمخاطب واضحة في أن يكون الأمر محصوراً بالمتكلم أي الشاعر حتى لا يقع المخاطب في ألبس في فهم المنطوق، كي يفهم المخاطب رسالة المتكلم الإبلاغية فهماً صحيحاً دون أدنى ارتباك في هذا الفهم¹. وفي مكان آخر، يقول البياتي معبراً عن انفعالاته:

سأدوس بقدمي دعاة الفنّ والمتحذلقين

وعجائز الشعراء والمتسولين

وأحطم الأشعار فوق رؤوسهم...²

يظهر تأثير التوتّر والانفعال بوضوح في شعره، من خلال تشكيل هذه الصورة التعبيرية وطريقة إبداعها، فالشاعر غاضب من الذين يدعون الفنّ، ويتسولونه، ويتحذلقون، فهو يأبى أن يرى هذا الفنّ الجميل يخترقه المتسولون الذين يدعون أنهم عباقرة الشعر. فيستعمل، في كلامه هذا، صوراً صوتية معبرة، تتجلى من خلال المستويات الصرفية، كاستعماله الأسماء المشتقة «المتحذلقين» و«المتسولين»، وهي تعابير لفظية تثير معاني الدهاء والريبة. كما أنّ المستوى الصوتي في عبارة (سأدوس) حمل معاني القوة والشدة، والتي تخترقها مستويات الغضب والانفعال والتوتّر، فالفعل (داس) له دلالة احتقارية وإذلالية، وهي الغاية التي قصدها الشاعر، بحيث يكشف عن مدى انفعاله مما يحدث من خلال هؤلاء المتحذلقين الذين يدعون الفنّ وهم عنه غياب. من هنا يتبين أنّ الشعر لا يحمل فقط صور الفرح والحبور، وإنما يحمل أيضاً صور الاضطراب والقلق المنفعل. فاللغة الشعرية، بحدّ ذاتها، لها مقوماتها وبنيتها التي تجعلها وحدة متماسكة يصعب الفصل بين أركانها كي لا تضع المعاني، وتختلط الأمور على القارئ والسامع، على اعتبار أنّها نظام متكامل، فلا يمكننا النظر إليها مفردة بل من خلال الإطار العام الذي يؤلفه نظام لغة من اللغات³. فاللغات، كما يقول ابن خلدون، كلّها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام

1 - أيمن إبراهيم، أسلوب النداء في العربية، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 2014، ص 349

2 - عبد الوهاب البياتي، الديوان، دار العودة، بيروت، 1979، ص 505

3 - أنطوان صياح، دراسات في اللغة العربية الفصحى وطرائق تعليمها، دار الفكر اللبناني، بيروت،

1995، ص 80

الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، « وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة»¹. وإذا استمعنا للشاعر نزار قبّاني يقول على لسان المرأة :

ماذا؟ أتبصقني؟

والقيء في حلقي يدمرني

وأصابع الغثيان تخنقني

ووريتك المشؤوم في بدني

والعار يسحقني...²

لا شكّ في أنّ التوتّر والانفعال اللذين انتابا الشاعر إزاء واقع المرأة الأليم دفعاه لأن يصوّر، في شعره، ما يتوق إليه في عالم الواقع، وذلك بأن يعبر عن غضبه إزاء ما تعانيه المرأة من الرّجل المتسلّط على كيانها. فهذه الصّور التّعبيرية تحمل في طياتها رفضاً انفعالياً، وتتركّب من ألفاظ لها مكانتها التّصويرية في هذا الكلام. فالألفاظ الآتية : أتبصقني، القيء، الغثيان، المشؤوم، هي ألفاظ تتميز بصوتها المعبر الذي له تأثير في النّفس، ويحمل في أبعاده الدّلالية صورة التّحسّر والتوتّر. فالشاعر قد نجح في تصوير انفعال المرأة وغضبها من الذي يتحكّم في مصير حياتها، فهي، من خلال تصوير الشاعر لمعاناتها، تعبر عن رفضها لاحتقار الرّجل لها، وعن أحاسيسها كامرأة منكوبة تحمل وريث هذا الرّجل المتكّر لوجودها، والمتخلّي عنها، ما حمل الشاعر إلى أن يتوتّر وينفعل من تصرفه، فبيثّ نغمته على لسانها.

لقد استطاع نزار قبّاني، من خلال هذه الصّورة، أن يعبر عن امتلاكه لعبة الانفعال الأنثوي، وذلك عبر استخدامه الإبداعيّ لألفاظ معبرة عن الصّورة الشعريّة، فبين

1 - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، مقدّمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، لا. ت، ص 613.

2 - نزار قبّاني، أحلى قصائدي، منشورات نزار قبّاني، بيروت، 1988، ص 77

(يدمّرني، ويخنقني، ويسحقني) صلة قرابة وتناغم، فالتدمير والخنق والسحق أفعال تحمل في أبعادها الدلالية صورة الموت وما تخفيه من انفعال وتوتر وغضب . ولا غرابة أن يقول نزار : «قصيدي هي لافتة تحمل صوت التمرد، وتحدّد موقفها السياسي بغير موارد، وهي بذلك عمل إنساني يصطبغ بالضجة والنّبات على المبدأ، وعليه فإنني لا أهتم بصورة هذه المظاهر، وكيف تبدو بقدر اهتمامي بجديّة الأثر الذي تتركه، والنتائج التي تحقّقها»¹ .

غالباً ما يكون الانفعال في الصّور الشعريّة مترافقاً مع التّوتر والغضب، وبخاصّة في شعر الانتفاضات الشعبيّة والثّورات، ولكن من ناحية ثانية قد يحمل شعر الغزل الكثير من الصّور المعبّرة عن حالات الغضب والانفعال في حال كانت العلاقة متوتّرة بين الشّاعر وحبّيبته، يقول نزار قبّاني :

أحبك جدّاً وأعرف أنّي أعيش بمنفى وأنت بمنفى

وبيني وبينك ريحٌ وغيمةٌ وبرقٌ ورعدٌ وتلجٌ وناز

وأعرف أنّ الوصول لعينيك وهمّ،

وأعرف أنّ الوصول إليك انتحار

ويسعدني أن أمزق نفسي لأجلك أيتها الغالية،

ولو خيروني، لكرّرت حبك للمرّة الثّانية²

الشّاعر، هنا، يصوّر انفعاله العاطفيّ الذي لم يتفدّ بأصول السيّطرة على هذا الانفعال، بقدر ما اعتمد على المستويات اللّغويّة التي تحمل صور العاطفة المتوتّرة لكي يصوّر ما يعانيه. فالريح والبرق والرّعد والنّار هي أفعال صوتيّة تثير دلالات انفعاليّة وتعبر عن معاناة الشّاعر الذي تتحكّم فيه الحبيبة، ولا يقبل إلا أن يعبر عن عاطفته الغاضبة إزاء تلك المسافة التي تبعده عنها، فيقرّر أن يستعمل الفعل (أمزق نفسي) للدلالة على توتّره العاطفيّ الذي يتحكّم بوضعيتّه كشاعر مغروم بحبيبة لا يستطيع الوصول إليها.

1 - نزار قبّاني، قصّتي مع الشّعر، بيروت، ص. 186

2 - نزار قبّاني، أحلى قصائدي، مرجع سابق، ص 189

فالشعر، إذًا، يقوم على اللغة. وهذه اللغة هي التي تتحكّم في صور الشاعر وأبعاد ما يريده من المعاني. وكلّما كان متوتّرًا كلّما كانت اللغة معبّرة عن ذلك، حتى وإن أراد هو أن يبتعد عن تصوير هذه المعاناة والتستّر عليها، فهي قد تظهر بفعل حالته النفسيّة التي لا يقدر أن يتستّر عليها. فالشعر يجنح، أحيانًا، إلى نسق من الأشياء يخالف ما نرى وما نعرف من أجل الوصول إلى حقائق مستقرّة باقية ومن أجل ارتياد كشف دفائن وأسرار¹. ومن البديهيّ أن نقول إنّ الشاعر لا ينقل لنا العالم الخارجيّ كما هو، إنّما يشكّله من جديد، بأسلوبه الخاصّ، فيهب له معنى هو خلاصة تجربته². فالترسيمة الآتية تكشف عمق الانفعال في صدر شاعرنا:

الريّح	=	لها قوّة تائّرة قد تطيح بالأشياء دون هوادة
الغيم	=	له قوّة التّعتميم والإخفاء وهيمنة الظلام على الانتشاع
البرق	=	له تأثير قويّ على السّمع، ممّا يوّلّد الذّعر والخوف
الرّعد	=	له قوّة مرافقة للبرق وله تأثير مرعب ومُخيف
النّار	=	لها قوّة التّدميم والحرق والاندثار

يقول خليل حاوي معبّرًا عن اضطرابه الانفعاليّ :

عُدْتُ في عينيّ طوفانٌ مِنَ البَرَقِ،

وَمِنْ رَعْدِ الجِبَالِ الشّاهِقَةِ،

عُدْتُ بالنّار التي مِنْ أَجْلِهَا،

عَرَضْتُ صدري عاريًا للصّاعِقَةِ،

جَرَفْتُ ذاكرتي النّارَ وأمسي..

كلُّ أمسي فيكَ يا نَهْرَ الرّمادِ³

1 - مصطفى ناصف، الصّورة الأدبيّة، مكتبة مصر، القاهرة، 1957. ص 15

2 - سيسيل دي لويس، الصّورة الشعريّة، المجلّة المصريّة، القاهرة، عدد 135، 1968

3 - خليل حاوي، الدّيون، دار العودة، بيروت، 1979، ص 34

إنّ التّصوير الإبداعيّ المتجلّي في هذا الشّاهد، يرتكز على الألفاظ والتّعابير التي تشير إلى توتر الشّاعر المضطرب، فكلماته تتطوي على أبعاد دلاليّة معيّنة، وتنسجم فيما بينها بشكل متوازٍ ومترباط. وفي تصويره لهذه الحالة الانفعاليّة نستشفّ مظهرًا من مظاهر حالته المتوتّرة، إذ بدت عاطفته تتوء بالعذاب والقهر، فهو لم يلجأ إلى هذه الكلمات : طوفان، برق، رعد، جبال شاهقة، النّار، الصّاعقة، نهر الرّماد، إلّا ليعبّر عن عمق مأساته وعن الغضب الذي يعتمر صدره إزاء واقع أليم امتلك عليه عواطفه واضطرابه. فكلمة طوفان بتراكيبها الحرفيّة والصّوتيّة تدلنا على عمق الانفعال وقوّة الاضطراب المشتعل في داخله، لأنّ انفعاله الوجدانيّ لم يجد له ما يعينه على سكون النّفس المتوتّرة، وما صورة نهر الرّماد سوى شكل من أشكال الحياة المتوقّفة عند شاطئ الموت، وما صورة الطّوفان بمعانيه اللّغوية سوى تعبير عن الغضب الشّاسع الذي لا يحده حدّ، والذي يجتاز كلّ شيء يقف أمامه، فكيف بالحريّ غضب شاعرنا وانفعاله اللّامحدود إزاء معاناته الداخليّة، فهو لم يلجأ إلى هذه الكلمة والكلمات الأخرى إلّا ليعبّر عن حقيقة واقعه الأليم، فالألم كان متحكّمًا في أعماقه، وذلك جرّاء ما كان يشعر به إزاء ما يحدث لمجتمعه العربيّ من تصدّعات وارتباكات، ما جعله يتأثّر، ويغضب، ويثور، وفي قلبه عاطفة انفعاليّة لا تهدأ، وهذا قدر كلّ شاعر يأبى أن يرى الوطن العربيّ تمرّقه الاضطرابات والإشكالات والأحداث الأليمة. هكذا بدت الصّورة الانفعاليّة، فكيف تبدو الصّورة الانتفاضيّة في شعرنا العربيّ الحديث؟

2- صورة الانتفاض والتّمرد والرّفص

إذا ألقينا نظرة عميقة على الشّعر العربيّ الحديث سنقع حتمًا على صور فنيّة متنوّعة ومعبرة عن حالة الانتفاض والتّمرد، وذلك بسبب ما كان يعيشه شعراء الحداثة في خضم من المشاكل السياسيّة والاجتماعيّة التي كانت سائدة في عصرهم. فالانتفاض في هذه الصّورة الشعريّة ينقل إلينا معاناة الشعراء، ونظرتهم إلى الواقع الأليم. وها هو الشّاعر محمد الفيتوري لا يتوانى عن التّعبير عن رفضه لهذا الواقع من خلال صورته الفنيّة التي تنتقل الوضع مجبولًا بأحاسيس الرّفص والغضب، لنسمعه يقول :

لنتفض جنةً تاريخنا، ولينتصب تمثال أحقادنا

أن لهذا الأسود المنزوي المتوارى عن عيون السنّا

أن له أن يتحدّى الورى، أن له يتحدّى الفنا

فلتحن الشمس لهاماتنا.. ولتخشع الأرض لأصواتنا¹

تحمل هذه الأبيات صورة معبرة عن واقع الشاعر الذي يتالم، في أعماقه، إزاء الأحقاد التي تنتشر في وطنه. فهو يأبى أن تكون هذه الأحقاد مغروزة في نفوس الكثيرين من أبناء بلده، ولا أحد قادر على السيطرة والتحكّم بها. لهذا نراه ينتفض مطالباً أن تشكّل الأحقاد تمثالاً جامداً لا يتأثر بما حوله من آلام وأخطاء وتحكّم في رقاب الشعوب. ويأبى أيضاً أن يبقى المرء متوارياً وساكتاً على ما يحدث، فيرفض ذلك ويقف منادياً بأعلى صوته لكي تحني الشمس، والورى والأرض أمام أصوات الأحرار المطالبين بالحرية والمساواة والعدالة. وما لجوؤه إلى تصوير تطلّعاته من خلال الاستعانة بألفاظ مميزة بأصواتها اللغوية المعبرة سوى دليل على رفضه وعدم قبوله بهذا الواقع المأزوم. فالكلمات الآتية : تنتفض، تمثال الأحقاد والتحدّي، والهامات، تصبّ في مجرى الانتقاد الناقد الذي يلجأ إليه الشاعر للتعبير عن هذه الصورة الفنية التي تشوبها دلالات التوتّر والتمرد والرفض. وفي مكان آخر نستمع إلى الشاعر توفيق زياد يقول :

أحبُّ لو استطعتُ بلحظة

أن أقلبَ الدنيا لكم رأساً على عقب

وأقطعَ دابرَ الطّغيان ..

أحرقَ كلَّ مغتصب..²

تتركز هذه الصورة الفنية في عنصرين أساسيين من عناصر الانتفاض، وهما : الطّغيان، والمغتصب. يرفض الشاعر أن يعيش المواطن تحت نير الطّغيان، لهذا يصوّر رفضه وانتفاضته، من خلال دعوته على قلب الدنيا رأساً على عقب، وعلى قطع دابر

1 - محمد الفيتوري، الديوان، مج 1، دار العودة، بيروت، 1970 ص 65

2 - توفيق زياد، الديوان، دار العودة، بيروت، 2000، ص 99

الطّغیان، وعلى حرق كلّ مغتصب أساء إلى الآخرين.

إنّ نظرة عميقة إلى توازن الأفعال المستخدمة في هذا الشّاهد الشّعريّ تكشف عن مدى الشّعور المنتفض القابع في أعماق الشّاعر، وهذه الأفعال الانتفاضية: أقلب، أقطع، أحرق، لا تتناسب مع الفعل الإيقاعيّ (أحبّ)، والذي بدأ به شاعرنا، والذي خفت ظلّه أمام دخول الأفعال الانتفاضية المذكورة، وهذا التّوازن المهتمّ بينه وبين بقية الأفعال يكشف أيضًا عن عمق الصّراع الأليم الذي يجتاح أعماق الشّاعر المنتفض والمتمرد على واقع مضطرب يؤرّقه ويزعجه. فهذه الأفعال لها فاعل واحد هو الشّاعر الذي يرسم تمرّده وانتفاضه على كلّ طاغية ومغتصب لحقوق الإنسان العربيّ.

وإذا تعمّقنا أكثر في الشّعر العربيّ الحديث سنقع أيضًا على مواقف رفضية وتمردية كانت تؤرّق مخيلة شعراء الحداثة، كما يقول الشّاعر محمد الفيتوري:

إنّي صحوثُ.. صحوثُ من أمسي

وذي فآسي تهدّ قبوره هداً

سأكونُ ناراً.. فالحيأةُ تريدني ناراً

وأرقصُ فوقها رعداً¹

الشّاعر، هنا، قد صحا من أمسه، وهذه الصّحوة لم تكن سهلة، إذ رافقها تمرّد وانتفاض على أوضاع آلمته وهزّت كيانه، فاستلّ الفأس وقرّر تهديم القبور، وأن يتحوّل إلى نار تحرق كلّ شيء أساء إليه وإلى وطنه الجريح. ولا يكتفي بذلك، وإنّما يتمنى أن يصبح رعداً ليرقص فوق هذه الحياة الأليمة. فكلّ كلمة من كلمات هذا الشّاهد تحمل في ثناياها دعوة إلى الانتفاض والتمرّد على أوضاع لم تكن ليرضى بها شاعرنا التّأثر. وإذا جمعنا هذه الكلمات (نار - رعد - فأس - تهدّ) نعي عمق المأساة. فهي ألفاظ لا تتلاءم مع الأمان والسّلام، وهي كلمات ثوروية معبّرة عن معاناة الشّاعر الذي يأبى أن يكون فريسة لحياة لا تتناسبه ولا تتاسب أوضاع وطنه، فقرّر أن يثور، وثورته هذه كانت عبر أدوات لفظية أظهرتها تلك الكلمات المعبّرة عن هذه الصّورة الفنّية الواضحة. فالكلمة

1 - محمد الفيتوري، الدّيون، مرجع سابق، ص 87

الانتفاضية يكون لها تأثير عميق في نفوس المستمعين الذين يواكبون الشاعر المنتفض والرافض للأوضاع الاجتماعية والسياسية التي تنوء تحت ظلها المجتمعات البشرية. وهذا عبد الوهاب البياتي الرافض أيضاً للواقع الأليم الذي يجتاح مجتمعه، فقد حلقت تعابيره اللفظية في أجواء هذه الصورة الفنية التي رسمها لتعبّر عن آرائه، يقول :

لتحترق نوافذ المدينة

ولتأكل الضباع هذه الجيف اللعينة

ولتحكم الضفادع العمياء

وليسد العبيد والإماء

وماسحو أحذية الخليفة السكران

والعور والخصيان¹

هذه الدعوة الى حرق النوافذ وتحكم الضفادع العمياء تتطوي على إحساس انتقامي غاضب يعتمل صدر الشاعر الذي أبي إلا أن يعبر عن هذا الغضب من خلال صورة فنية رائعة، وإن شابتها ألفاظ مردودة اجتماعياً وإنسانياً، وهي صورة تلونت بألفاظ لها أصوات تعبيرية واضحة، كالألفاظ الآتية: الضباع والضفادع العمياء والعور والخصيان، وهي ألفاظ صوتية بارزة تثير في أعماق السامعين توتراً واقتناعاً بأن ما يقوله الشاعر يعبر صراحة عن غضب كل إنسان مأزوم ومضغوط بسبب العذاب الذي يعانيه إزاء أوضاع اجتماعية مضطربة، لا تحقق له الأمان والاطمئنان ولا الاهتمام بضائقته المعيشية. وما عبارة (ماسحو الأحذية) سوى صورة معبرة عن الضعف والهوان والاستجداء. وما لجوء الشاعر إلى مثل هذه التعبيرات إلا ليبرز عمق المأساة وعمق العذاب الذي يعانيه الشعب. لذلك كان الفن اللفظي في القصيدة هو صورة معبرة عن الواقع الاجتماعي في كل أشكاله المريحة والمؤلمة. فالصورة الشعرية كانت في الشعر القديم حسية، أو تزيينية، أو عقلية، أما في الشعر الحديث فقد أصبحت تخضع لتجربة

1 - عبد الوهاب البياتي، الديوان، دار العودة، بيروت، 1979 ص 699

الشاعر، وتلعب دورًا أساسيًا في القصيدة¹.

ومن صور الانتفاض التي كان الشاعر يعبر من خلالها عن غضبه إزاء الأغنياء الذين يتحكمون بالفقراء وبالضعفاء، ما قالته الشاعرة فدوى طوقان :

وأركضُ خلفَ رغيفي وقوتي..

وفوق جبيني الضنى والعرق

وكان لي الفنُّ والشعرُ صوتًا

يجلجلُ في ثورة لا تلين

على الغاصبين حقوق الفقير

على السارقين حتى الكادحين²

صوت الشاعرة، هنا، يعبر عن أصوات الكادحين والفقراء والمعوزين في وجه مغتصبي الحقوق، بحيث بات كلامها يحمل ثورة عامرة على هؤلاء الظالمين الذين يتحكمون بأوضاع العمال الكادحين والذين لا يحصلون على أبسط مقومات الحياة. فكلامها في هذا الشاهد الشعري هو دليل على غضبها وانتفاضتها على كل مغتصب لحقوق الفقراء والمحتاجين. فهي تشعر معهم وتتحمس معاناتهم. فالصورة الفنية التي قدمتها هنا أنت كلوحة معبرة عن رفضها وتمرداها على أولئك الغاصبين. وهذا دليل على أن الشاعر هو صوت المعدبين والمقهورين، وليس صوت الأثرياء المتحكمين بقراب الكادحين. وما استعمالها لأصوات الألفاظ الآتية : الغاصبين، السارقين، الكادحين، سوى دلالة على أن الصوت المتناغم في القصيدة له تأثير نفسي في السامع، بحيث يمكن أن يُثيره إما غضبًا أو حزنًا أو فرحًا. ولا غرو إذا قلنا إن العمل الأدبي هو فنّ قوامه سلسلة من الأصوات التي تنبعث منها المعاني³.

1 - حيدر غيلان، الصورة الشعرية في النقيدين العربي والإنجليزي، دراسة مقارنة لمفاهيمها ومناهج دراستها في العصر الحديث. إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 2004، ص 47

2 - فدوى طوقان، الديوان، دار العودة، بيروت، 1972، ص 284

3 - رينيه ويليك، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، دمشق لا ت. ص 205

أما عن الواقع السياسي العربي، فإن نزار قبّاني يأبى أن يرى الدّول العربيّة تتسى قضية فلسطين، فيثور، وينتفض على هذا الواقع الأليم حين يرى قضية الشعب الفلسطينيّ تائهة في مجاهل التّاريخ، فيقول منتفضاً ومعبّراً عن تعاطفه معهم:

يا وطني الحزين.. حولتني بلحظةٍ

من شاعرٍ يكتبُ شعرَ الحبِّ والحنين

لشاعرٍ يكتبُ بالسّكين¹ ..

إنّ هذا التّناقض بين الحبِّ وبين السّكين ينطوي على دلالة انتقاضيّة ورفضية لما يجري على السّاحة العربيّة. فاستخدام هذا التّناقض بين الكلمتين لم يكن سوى تعبير عن عمق الألم الذي يعانیه شاعرنا إزاء القضية الفلسطينيّة. لقد تحوّل الشّاعر إلى نائر منتفض حين رأى الحزن يهيمن على وطنه، فتحوّل إلى أداة انتقاميّة، لأنّ شعوره الوطنيّ يأبى أن يرى وطنه تسيطر عليه غيوم الحزن، فينتفض مستعملاً الألفاظ المناسبة والمعيرة عن تمرّده وغضبه على واقع وطنه الحزين. فالشّعر لا يمكن أن يكون إلّا رسالة أو وسيلة تعبّر عن آراء الشّاعر وعن أحاسيسه وعن رفضه لكلّ ما يزعجه ويزعج إحساسه الوطنيّ. فالوطن بالنّسبة إليه ليس أداة تُباع وتُشترى أو أداة تمرّقها أيادي العدو وتزرع فيها الحزن والأسى. فالشّعر، عنده، كالوسيلة الإعلاميّة تنقل الأحداث كما هي، وتحمل بين طياتها أحلام الشّعراء وتطلّعاتهم وآراءهم وأحزانهم وأفراحهم وغضبهم. ولا عجب أن يكون نزار قبّاني من أبرز الشّعراء العرب الذين اختاروا درب التّمرد على كلّ شيء في الحياة، وراح ينظر إلى الكتابة على أنّها رسالة ومهمّة نبيلة، يُعري من خلالها الواقع الاجتماعيّ والسياسيّ وكلّ ما يتعلّق بجوانب الحياة. وقد كان دوماً يدعو إلى الثّورة وتغيير المجتمع².

والى جانب هذه الصّور الانتقاضيّة، هناك صور فنيّة أخرى تتطوي على مشاعر إنسانيّة تتحكّم في أعمال شعراء الحداثة، وتكشف عن عمق أحاسيسهم المتعاطفة مع

1 - نزار قبّاني، الأعمال الشعريّة الكاملة، منشورات قبّاني، بيروت، 1989، ص 465

2 - عثمانى الطيّب، شعريّة التّمرد في الشّعر العربيّ الحديث، كليّة الآداب واللّغات، جامعة محمد بو ضياف، الجزائر، 2016، ص 43

الآخرين. فكيف عبّروا عن إنسانيتهم هذه؟

3- صورة التعاطف الإنساني

قد يتميز الشعر العربي الحديث بعدد من الميزات الفنية التي تتراءى في صورته التعبيرية الوصفية، ومن أبرز هذه الميزات ظهور الصور الفنية المعبرة عن تلك النزعة الإنسانية التي تقوم على أساس محبة الآخرين والتعاطف معهم، والدعوة إلى مساعدة الفقراء والمعوزين، والعمل على انتشالهم من المصائب التي قد تواجههم أو قد يقعون في أتونها. ولم يتأخر شعراء الحداثة عن التعبير عما يشعرون به إزاء الواقع الاجتماعي الأليم، فكانوا يشاطرون الإنسان أحزانه وأفراحه، إن لم يكن بالمال، وإنما بقوة الشعر الذي يحمل في طياته الكثير من المعاني المعبرة عن أحاسيسهم وتطلعاتهم نحو مجتمع متطور يقوم على محبة الآخرين، والتعاطف فيما بينهم. يقول الشاعر محمد الماغوط:

إنني أعدُّ مَلْفًا ضَخْمًا

عَنِ الْعَذَابِ الْبَشَرِيِّ لِأَرْفَقَهُ إِلَى اللَّهِ

فَوَرَّ تَوَقُّعِهِ بِشِفَاهِ الْجِيَاعِ

وَأَهْدَابِ الْمُنتَظِرِينَ¹..

يرفض الشاعر أن يرى إنساناً على وجه هذه الأرض يتعذب ويعيش القهر، فهو يرفض أن يشعر بالعذاب البشري يهيمن على المجتمع الإنساني، فيستعين بشعره ليعبر عن انتقاده لهذا الواقع الأليم، ويلجأ إلى إعداد ملفّ ضخم ليرفقه إلى الله الذي يشفع بهؤلاء ويكون عوناً لهم ويبعد عنهم شرور الآخرين. وفي صورته الفنية هذه يستعين بأصوات الألفاظ المعبرة التي تحمل المعاني البعيدة، ومن أبرزها شفاه الجياع وأهداب المنتظرين. فالشفاه في دلالتها البعيدة تنطوي على قضية الإنسان الجائع أو الإنسان المتحّم بالطعام. وكذلك لفظة «أهداب» التي ترتبط بالعيون التي تنتظر إلى واقعها الأليم بحرقة وحسرة. وهذه الصورة الإنسانية المعبرة تُغني القصيدة بصور حسية قابلة للحركة والنمو. فحينما يكون الشعر «جنساً من التصوير يعني هذا قدرته على إثارة صور بصرية في

1- محمد الماغوط، أعمال محمد الماغوط، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1998.

ذهن المتلقي، وهي فكرة تُعدّ المدخل الأول أو المقدّمة الأولى للعلاقة بين التصوير والتقديم الحسي للمعنى»¹. ويبدو أنّ شاعرنا كانت له نظرة تعاطفية إلى أبناء وطنه وإلى فئة اجتماعية معينة، هي فئة الفقراء الجياع الذين ينتظرون لقمة عيشهم بشفاهم وأهدابهم. ولعلّ أبرز ما يدلنا على عمق شعوره الإنساني وتعاطفه مع الآخرين، أنّه يُعدّ ملفاً ضخماً يرفعه إلى الله ويحتوي على الكثير من الأوجاع والعذابات التي يعانيها أولئك الفقراء الجائعين، ويشكو، في الوقت ذاته، من الأغنياء الذين لا يابهون لمعاناة الفقراء والمعوزين. ولهذا لم تعد لدى الشاعر ثقة بالمسؤولين القائمين على الأرض، فتقته بالله هي الأقوى وهي التي جعلته يحضّر الملفّ لربّ الخلق، لأنّه الرّحيم الذي يشفق على الإنسان بصورة عامّة.

لنستمع إلى أدونيس قائلاً :

وَلِي هَذِهِ السَّهْوُلُ الفِسَاحُ

لِي آهَاتُ أُمَّتِي وَأَمَانِيهَا

وَلِي كِبْرِيَاؤُهَا وَالْجِرَاحُ

أَنَا وَرَدُّ فِي هَذِهِ الأَرْضِ نَمَامٌ

وَعِطْرٌ مِنْ أُمَّتِي فَوَاحٌ²

إذا ألقينا نظرة عميقة إلى هذه الكلمات سنكتشف أهميّة هذا التعاطف الإنساني الذي يكتنه الشاعر لأبناء جلدته، فهو يمثّل صوت الأمّة، ويحمل بين ضلوعه معاناتها، ويتوق لتأمين سعادتها. وقد نجح شاعرنا في تصوير نفسه كأنّه نبض الشعب، وهو إحساس مغفّف بإنسانيّة عميقة وبوطنية أعمق، وهذا واجب كلّ شاعر تعصف به مشاكل أمته، وتترسّخ في كيانه عذابات وآلامها، فيرفض أن يبقى بعيداً عن كلّ ذلك، فيلجأ للتعبير عن وقوفه إلى جانب المعذبين، محاولاً أن يخفّف من معاناتهم، ويكون، في آن، مداوياً لجراح الأمّة، وناشراً عطره الفواح بين أرجائها.

1 - جابر عصفور، الصّورة الفنّية في التّراث النّقديّ والبلاغيّ عند العرب، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت، 1992، ص 260

2 - أدونيس، الأعمال الشعريّة، مرجع سابق، ص 30

يرفض شاعرنا أن تكون أمته خاضعة للذلّ والهوان، فهو يسعى بقوته كشاعر أن يحطم جدران الذلّ، ويمحو آثاره المتحكّمة في نفوس شعبه المقهور، لكي يجعل هذا الشعب يستيقظ من كبوة الذلّ ويعود له عنفوانه و كبرياؤه، ويقف كالمارد إزاء أيّ ظلم يحاول أن يذّله أو يحتقره. وما استخدامه للعبارات الآتية : الورد النّمام، والعطر الفوّاح سوى دليل على تعلّقه بأرضه وبوطنه وبشعبه، فالورد ينطوي على دلالات المحبّة والاطمئنان والأمان، والعطر ينطوي على دلالات الارتياح النّفسيّ والتّوسّع في نشر المحبّة بين أفراد المجتمع الإنسانيّ. فهو يوّد، في أعماقه، أن يكون رسول سلام وأمان لكلّ وطنه وشعبه المقهور. فاستخدامه لهذه اللّغة حملت دلالات معيّنة أبرزها (الورد النّمام والعطر الفوّاح) وهي عبارات تكشف عن عمق نزعتة الإنسانيّة، لأنّ لغته هذه عبّرت عمّا يحمله في أعماقه من مشاعر المحبّة إزاء الآخرين. فلغته تتبع من داخله، من مشاعره وأحاسيسه، فالكثيرون يعتبرون أنّ اللّغة ركيزة أساسيّة من ركائز النّفاهم بين البشر، ولهذا يعتبر عدد من النّقاد بأنّ الكاتب يُعرّف بلغته وليس بأفكاره، فإنّ وجدّت الأفكار، فلا يمكن أن تحيا خارج نطاق اللّغة، لأنّها تتولّد منها، وبها تعرّف عن نفسها¹. وفي مكان آخر يقول الشّاعر خليل حاوي :

اخرسي يا بومّة تفرّغ صدري

بومّة التّاريخ منّي ما تُريد ؟

في صناديقي كُنوز لا تبيد

فَرَحِي فِي كُلِّ مَا أَطَعَمْتُ

مِنْ جَوْهَرِ عُمُرِي

فَرَحُ الأيدي التي أعطت وإيمانٌ وذكُرى

إنّ لي جَمراً وحمراً²

تتجلّى في هذه الكلمات معاني التّضحية التي أبرزها الشّاعر من خلال كلّ كلمة نطق

1 -Dorel, Jacques, Nature et histoire chez Albert Camus, Garnier, Paris, 1976, p.147

2 خليل حاوي، الدّيون، دار العودة، بيروت، 1973، ص 58 -

بها. فهو يعترف أنّ في صناديقه الكثير من العطاءات التي قدّمها للأيدي التي امتدّت إليه تطلب المعونة والمساعدة، وهو يعترف بأنّ فرح الأيدي كان فرحه هو في كلّ ما أعطى من جوهر عمره. فتعاطفه الإنسانيّ يتكشّف من خلال ثنايا كلماته، ويظهر في حلّته البهيّبة، لأنّ خليل حاوي كان من الشعراء الذين يرفضون الخضوع للظالمين والمغتصبين لأرض وطنه، لذلك نراه يخبئ في صناديقه الكثير من الكنوز التي لا يمكن أن تندثر، لأنّها كنوز من العطاء والتّضحيات التي قدّمها هو بذاته للإنسانيّة جمعاء.

ما نلاحظه، في هذا الشّاهد، أنّ شاعرنا اعتمد عددًا من الألفاظ التي تشير إلى عمق تأثره بالواقع الإنسانيّ الذي يعيشه أبناء شعبه. فالألفاظ (فرح الأيدي، الرّاد، فرحي، جوهر عمري..) هي ألفاظ تحمل في أبعاد دلالاتها نوعًا من الشّعور العاطفيّ إزاء الآخرين، فلهذا مدّ يد المساعدة لهم، فانزعت في أعماقه نغمات الفرح التي انبتقت من جوهر عمره رافضة بومة التّاريخ التي كانت تؤزّقه، فهو لا يودّ الرّجوع إلى الماضي الشنيع، وإنّما يودّ أن يبقى في الحاضر لكي يشعر بفرح ما أعطاه وما قدّمه من جوهر عمره لكلّ معدّب ومقهور. فهذه الكنوز الموجودة في صناديقه التي لا تبيد هي كنوز العطاء والتّضحيات والذّكريات التي عاشها وكانت بالنّسبة إليه الدّاعم الأساسيّ لحياته المعطاء. ولا نستغرب إذا علمنا أنّ شاعرنا الحاوي قد «حمل همّ القوميّ والأزمة الحضاريّة صليبيًا اعتلاه، وسمرّ يديه طوعًا على خشبته، ومات فدى إيمانه بالدور الطّليعيّ للشّعر، وبالرسالة الحضاريّة التي يحملها، وبالرّؤية المستقبلية التي كرس حياته للتّعبير عنها»¹.

وها هو أدونيس يقول متغنّيًا بانتمائه الإنسانيّ :

أنا جيلٌ في أمّتي، وأنا فردٌ

منّ الجيل، بلّ أنا كلّ جيلٍ

أينما كُنْتُ، كُنْتُ في صدرها أحيًا

وفي روحها الكبير الأصيل²

1 - هذا ما ذكرته ريتا عوض عن خليل حاوي في مقدّمة ديوانه، صفحة 8.

2 - أدونيس، الأعمال الشعريّة، مرجع سابق، ص 29

يفتخر أدونيس بانتمائه إلى أمته، وقد برز ذلك من خلال التناقض بين كلمتين تشكّلتان أساساً لكلامه، وهما (الجيل) و(الفرد)، وهذا دليل على اندماجه في الكلّ، وهو اندماج يدلّنا على تعاطفه الإنسانيّ إزاء جيل أمّته، وإنّ انتماءه كفرد له التأثير الكبير في هذه الأمة جمعاء، لأنّه يحيا في صدرها، وفي روحها. ولا يمكنه أن يتناول في حديثه هذه الأمة إلا ويكون فيها فرداً فاعلاً ومؤثراً في تطلّعاتها نحو الحرّيّة. ومن دونه لا يمكن لهذه الأمة أن يكتب لها النجاة، لأنّ الشّاعر بات يمثّل داخل الأمة فرداً متفاعلاً مع بقية الأفراد ليكون لهم العون والقوّة التي يحتاجونها لمقاومة المغتصبين لأرضهم فهو له تأثير كبير فيهم، من خلال تعاطفه معهم، كأنّه الشّخص القادر على مساعدتهم وإعانتهم في كلّ ما يحتاجونه. والملاحظ أيضاً أنّ الشّاعر يمثّل بنفسه الجيل بالكامل حين يعتبر نفسه أنّه جيل الأمة إلى جانب أنّه فرد منها. وهذا يدلّنا على محاولته الاندماج والدّوبان في الأمة حتى تصبح هي ذاته وهو ذاتها، ممّا يعني أنّ هذا الاندماج ما هو إلا دليل على حبه لهذه الأمة وتعاطفه مع مكوّناتها، فدعا إلى أن يكون هو جيل هذه الأمة تستفيد منه ومن عطاءاته. وشعوره هذا يشكّل مظهرًا من مظاهر الأناييّة والنّرجسيّة، حين يعتبر نفسه جيل الأمة، لا بل كلّ الجيل. ويمكن أن نلاحظ التكرار الذي طغى على بنية الشّاهد، فالتركيز على تكرار كلمة جيل ثلاث مرات دليل على أنّ هذه الكلمة لها تأثيرها الفعّال في نفسيّة الشّاعر وفي عمق مشاعره، وهي تحمل معنى أوسع يحوي الكثير من المعطيات الفكرية. فالجيل هو مرحلة زمنيّة شاملة لمعطيات المكان والزمان، ولنوعيّة الذين يقطعون في هذه المرحلة الزمنيّة، وشاعرنا كان يهّمه أن يتحوّل إلى هذه المرحلة ليصبح عاملاً تاريخياً لأمّته، مجبولاً بتراتها ومثّلوناً بتحركّها الزمنيّ، لأنّ الجيل يشمل عدداً كبيراً من الأفراد الذين يعيشون في مرحلة زمنيّة معيّنة مميّزة بشكلها وبمقوماتها التاريخيّة. فهناك جيل الطّفولة، وجيل الشّباب، وجيل الكهولة. وكلّ جيل له استقلاليتّه، ومنطلقاته الذاتيّة.

وفي مكان آخر يطلّ أنسي الحج محاولاً إظهار نفسه واعظاً لمن يحاول أن يكون متعاطفاً مع الآخرين، لنسمعه يقول :

مَنْ لَا يُنْفِقُ ذَاتَهُ، مَالَهُ، قُوَاهُ،

مَاذَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَضَعَ فِي كَلَامِهِ ..

السَّخَاءُ هُوَ الْخُلُقُ. لَا أَقُولُ الْعَطَاءَ.

الْعَطَاءُ صَغِيرٌ أَمَامَ السَّخَاءِ

أَقُولُ السَّخَاءَ بَلِ الْإِفْرَاطِ ..

لَا هَوَادَةَ فِي وَهْبِ الذَّاتِ¹

لقد توسّل الشّاعر عدداً من الألفاظ ليبرهن عن عمق عاطفته الإنسانيّة، وذلك من خلال استخدامه كلمتين لهما التأثير الدلاليّ في معنى التّعاطف الإنسانيّ وهما (السّخاء والعتاء) وهاتان الكلمتان تدلّان على معنى العطف والحنان والتّعاون، لأنّ العطاء يُقدّم للآخرين كمساعدة لهم في حال كانوا بحاجة إلى شيء ما، والسّخاء هو أقوى دلالة من العطاء لأنه ينتمي إلى الكرم والجود. فالعتاء، كما يقول الشّاعر، هو صغير أمام السّخاء. فالعتاء السّخيّ لا يسأل إلى مَنْ يُعطى، وإنّما هو يتستّر في لباس المساعدة والإعانة وسدّ احتياجات المجتمع الإنسانيّ. وكلّما كان السّخاء كثيفاً كلّما باتت الإنسانيّة مكتفيّة ولا ينقصها أيّ شيء آخر. فالسّخاء، باختصار، لا يكون في الإنفاق الماديّ كما يعتقد البعض، وإنّما في الإفراط بلا هواده في التّضحية بالذّات كما يعبر شاعرنا، وهذا ما نعتبره أسمى العطاء.

ما يلفت نظرنا في كلام أنسي الحج، ذلك التّركيز على قضيّة وهب الذّات، وهو ما يخفي نوعاً من التّضحية بالذّات من أجل الآخرين، وهذا النوع من التّضحية يخفي نزعة إنسانيّة طالما تتمّع بها شعراء الحداثة، لأنّهم كانوا يلاحقون الأحداث الأليمة التي كان يزرع تحتها الشّعب العربيّ. فالإنسان يحاول بشّى الطّرق أن يُظهر قدرته على التّعاطي مع أبناء شعبه، أكان من خلال التّعاون أو من خلال التّضحية بالذّات من أجلهم. لهذا نرى الإنسان يجهل أوان رحيله وأوان مجيئه، ولكنّه ينظر إلى ذاته في محاولة لسبر أغوارها قدر المستطاع، ليجعل من نفسه المحور الأساسيّ الذي تدور عليه

1 - أنسي الحاج، خواتم، منشورات رياض الرّيس، لندن، 1991، ص 96-97

أفعاله وهمومه ومعظم تفكيره¹. ولا شك في أنّ الشّاعر هو إنسان قبل أيّ أمر آخر، يشعر ويحسّ إزاء أيّ أمر يراه مؤثّرًا في كيانه وفي أفكاره وفي أحلامه، ولهذا لا يتوانى عن ملاحقة كلّ الأحداث التي تجري أمام ناظريه، فيتفاعل معها وينسجم مع تغيّراتها، بحسب ما يتوافق مع تطلّعاته ومعتقداته. هذا على صعيد صورة التّعاطف الإنسانيّ، أمّا على صعيد الحبّ والغرام والهيام، فإنّ نظرة شعرائنا تأخذ منحىً مختلفًا. فكيف ظهرت دلالات هذه الصّورة في شعرهم؟

4- صورة الحبّ والغرام

الحبّ في الشّعر له مقوماته وأبعاده الفنّيّة، أكان عبر الألفاظ المستخدمة أو عبر الإيقاع الموسيقيّ، والتّناغم بين الصّور المعبّرة، فما من ديوان شعريّ إلّا وتخلّلت بعض القصائد الغراميّة التي عبّر الشّاعر من خلالها عن حبه لحبيبته، أو صوّر بالكلمة والحرف حالته التّفسيّة وعاطفته المضطربة إزاء الحبيب إذا سادت علاقتهما بعض الفتور أو الاضطرابات. وما من شاعر إلّا وكان موضعًا لانتقاد الحبيبة، أو لمعاتبته على نقصيره في ملاقاتها وفي عدم السّؤال عنها. فالشّعر كان دومًا الرّسالة الأكثر تأثيرًا في أيّ علاقة غراميّة بين الحبيبين، حيث كان الشّاعر يصبّ فيه كلّ ما يعانیه من هجر الحبيب له، أو كان سبيلًا للتّعبير عن حبه الصّادق وإخلاصه للحبيب، حتى وإن كان بعيدًا عنه. يقول الشّاعر معبّرًا عن حبه :

كانَ في وجْهِكَ المُسافرِ، في وجْهِي

نَجْمٌ، وكانَ ليلٌ يَجوسُ

وتلاقتْ يدانا.. تلاقتْ حُطانا

وتلاقتْ رُؤانا.. وهبّطنا، رأينا وَغَبنا

وظَهَرنا وَغَبنا²

تظهر الصّورة الفنّيّة، هنا، من خلال تلك التّعبير التي تقف وراءها مشاعر الحبّ

1 - مفيد قميحة، الاتّجاه الإنسانيّ في الشّعر العربيّ المعاصر، دار الآفاق، 1981، ص 16

2 - أدونيس، الآثار الكاملة، مرجع سابق، ص 295

والانصهار في الحبيب، وهي تعابير تقوم على قوة اللفظة التي تنقل المشهد العاطفي بين الشاعر وحبيبته. فهو يستخدم عددًا من الألفاظ التي تتميز بغمتها الإيقاعية ليعبر عن عمق تعلقه بها، وبخاصة من خلال تكرار الفعل (تلاقت) الذي يشير إلى انصهار اليدين والخطى والرؤى، وكذلك إلى صورة التباعد والتلاقي عبر الكلمات الآتية (هبطنا، غبنا، ظهرنا). والأهم من كل ذلك أنه كان هناك نجم مضيء يلتقي في وجهيهما. وهذا يدلنا على أن الحب الذي يجمعهما هو أسمى من الحب الأرضي بل هو حب سماوي، تنيره النجوم، فيهبط من العلاء ثم يغيب ويعود من سفره ليظهر، فتتلاقى الأيدي، والخطى والرؤى، كما يقول شاعرنا. ويمكن تمثيل الصورة بهذا الشكل

نجم	في وجهي	في وجهك المسافر	
تلاقت	يدانا	خطانا	رؤانا
هبطنا	رأينا	غبنا	ظهرنا

ما يلفت نظرنا، في هذه الألفاظ، تلك الإيقاعية الموسيقية التي اعتمدها الشاعر ليربط إحساسه الغرامي بكل كلمة أوردها في الشاهد الشعري. وهل هناك ما هو أرق وأنعم وألطف من الكلمات المعبرة الآتية : نجم، وجه، هبط، رأى، غاب، ظهر .. وكأن هذه الكلمات باتت تشكل الألوان التي تزين الصورة التي رسمتها يد الشاعر الفنان. وفي مكان آخر يتعنى أحد الشعراء قائلاً:

قَبْلَ أَنْ تَلْقَى الطَّرِيقَ

حُذِينِي عَنِ الطَّرِيقِ

قَبْلَ أَنْ تَدْخُلِي إِلَى هُدُوءِ الْبَيْتِ

النَّقْتِي إِلَى الْجَنُونِ فِي حُبِّي حَتَّى الْجَنُونُ

وَالِى الْمَوْتِ فِي حُبِّي حَتَّى الْمَوْتِ¹

يأبى الشاعر إلا أن يرسم صورته الغرامية هذه من خلال كلمتين مؤثرتين في داخل هذا الشاهد الشعري، وهما: الجنون والموت، ومن خلال كلمتين أساسيتين هما :

1 - الحاج، أنسي، ماذا صنعت بالذهب ماذا فعلت بالوردة، دار الجديد، بيروت، 1994، ص 36

الطريق والبيت. ففي هاتين اللفظتين نستشفّ رغبة الشاعر في أن تتقذه الحبيبة من وحدة الطريق، وتأخذه إلى هدوء البيت حيث يشعر بالحبّ الدافئ وبالصمت والهدوء وراحة النفس. فالصورة الغرامية تتجلى ملامحها، إذًا، من خلال هذا التناقض بين دلالات الألفاظ الرئيسية في هذا الشاهد وهما : الطريق والبيت، ومن ثمّ الجنون والموت، فهو يرفض أن يعيش من دون حبّها، فحبّه لها هو الجنون، وإلا فالموت بالنسبة إليه بات قمة هذا الحبّ الجنوني. وهكذا نلاحظ أنّ الشاعر قد يفعل أحياناً في أحاسيسه الغرامية المتوتّرة، فلا يعود واعياً لما يقول، فيصبح الموت بالنسبة إليه هو أقصى جنون الحبّ. فالموت في الحبّ صورة فنية لا يرسمها عقل الشاعر وإنّما عاطفته المنفعلة هي التي تكون مسؤولة عن رسم هذه الصورة. والشعر لا يمكن أن يكون بعيداً عن الأحاسيس والمشاعر العاطفية، فهو الملجأ الذي يلجأ إليه شعراء الحبّ والغرام، ليصبّوا فيه قوّة حبّهم، وأقصى ما يمتلكونه من أحاسيس ومشاعر إزاء الحبيب. يقول الشاعر أدونيس متغنياً بحبه :

أتخيّل حبيّ : يتنفّس من رئة الشّيء

يأتي إلى الشعر في وردةٍ أو غبارٍ،

يتهامسُ مع كلّ شيء

ويهمسُ للكونِ أحواله

مثلما تفعلُ الرّيحُ والشمسُ

حين تشقّان صدرَ الطّبيعة،

أو تسكبان على دفتر الأرضِ جبرَ النّهار¹

نلاحظ في كلام الشاعر أنّ الصورة الفنية، هنا، ظهرت من خلال العناصر الطبيعيّة التي تنحصر في الألفاظ الإيقاعيّة الآتية : وردة، غبار، كون، ريح، شمس، أرض.. فحبّ الشاعر بات مرتبطاً بالأشياء، ويتنفّس من رئة هذه الأشياء التي تعود للطبيعة، فهو يتهامس مع كلّ شيء، مثلما تفعل الرّيح والشمس. وهنا تكمن قوّة الصورة المعبرة،

1 - أدونيس، أول الجسد آخر البحر، دار الساقي، بيروت، 2011، ص 7

حين يربط إيقاعه النَّفسيَّ بإيقاع الطَّبيعة، وحين تشقَّ الرِّيح والشَّمس صدر الطَّبيعة، يشقُّ الهمس الغراميَّ رئةَ الأشياء، وهكذا ينتفَس الشاعر حبَّه من خلال رئة هذه الأشياء. فالصَّورة الآتية تكشف تلك العلاقة الغرامية بينه وبين الطَّبيعة:

الحبُّ ينتفَس	=	من رئة الأشياء
الحبُّ يتهامس	=	مع كلِّ الأشياء = ويهمس للكون عن حالته الغرامية
الرِّيح والشَّمس	=	تشقَّان = صدر الطَّبيعة
الرِّيح والشَّمس	=	تسكبان = حبر النَّهار = على الأرض

هذه الصَّورة المكوَّنة من هذه العناصر باتت تشكِّل لوحة فنيَّة قوامها : الحبُّ = الأشياء = الرِّيح = الشَّمس = صدر الطَّبيعة = الأرض = حبر النَّهار .. وهذا الحبر هو رمز الكتابة، بحيث باتت الأرض هي الدفتر الَّذي يُسجَل عليها تاريخ الشَّاعر في حبِّه وعلاقته بالأشياء. فالشَّعراء - في معظمهم - غالبًا ما يصوِّرون غرامهم مرتبطًا بالطَّبيعة، وهذا هو مُرتجى كلِّ شعراء الرومانسيَّة الَّذين يرون في الطَّبيعة وجهًا من أوجه الغرام والحبِّ، فيرسمونه بأجمل الصَّور حين يكون موضوعهم محصورًا بصور حبِّهم وهيامهم وعلاقتهم مع الحبيب. يقول نزار قبَّاني معترفًا بحبِّه :

عندما حاولتُ أن أكتب عن حبِّي ..

تعذَّبت كثيرًا .. إنَّني في داخلِ البحر ...

وإحساسي بضغط الماء لا يعرفه غيرُ مَنْ ضاعوا

بأعماق المحيطات دهورا.

ما الَّذي أكتبُ عن حبِّك يا سيِّدتي؟

كلُّ ما تذكره ذاكرتي .. أنَّني استيقظتُ من نومي صباحًا ..

لأرى نفسي أميرًا ..¹

1 - نزار قبَّاني، الأعمال الشعريَّة الكاملة، مرجع سابق، ص 45

يرتبط حبّ الشّاعر، هنا، بصورة الماء، ماء البحر والمحيط، وهذا ما يشير إلى أنّه يودّ أن يرسم صورة عريضة عن هذا الحبّ العميق والشّاسع، كعمق البحر ووسع المحيطات. ويتساءل عمّا سيكتب لها ليعترف بعمق حبّه، ثمّ يُنهي كلامه بأنّه لا يتذكّر إلاّ أنّه استيقظ صباحًا ليرى نفسه أميرًا. وهذا جلّ حلمه، أن يكون أميرًا في الحبّ، له الكلمة والإمرة على الحبيب، وهذا ليس بغريب، فكثيرًا ما يشعر الحبيب أو الذي يتوه في حبّه حتّى الأعماق بأنّه أصبح أميرًا وسيّدًا، فيسير في الطّرقات مختلًا وتعلوه ابتسامة النّصر كونه أصبح أميرًا في الحبّ. فالحبّ، هذا الإحساس اللّامتناهي، له سلطة مخفية على المحبّين، سلطة شبيهة بسلطة الأمراء والقادة والملوك، ولا يمكن لشاعر كنزار قبّاني أن يتنقّس من دون أن يكون الحبّ جزءًا من كيانه، متعلّقًا به، كما تتعلّق الطّفولة بجدران الأمومة.

والأبرز في كلامه أنّه يصرّو نفسه داخل البحر، يشعر بضغط الماء الذي لا يعرفه إلاّ من كان ضائعًا في هذا العمق، وكأنّنا به يحاول أن يبرهن لحبيّته أنّ حبّه عميق كعمق البحر، وأنّه لا يهّمه إذا تاه فيه وضاع، لأنّ المهمّ أن يكون ضياعه محصورًا بحبّه وهيامه بالحبيب. والتّرسّيمة الآتية تكشف شدّة الهيام في قلبه :

الكتابة في الحبّ	←	العذاب الكثير
الإحساس بضغط ماء البحر	←	ضياع مدى الدّهور
الاستيقاظ صباحًا	←	الإحساس في كونه أميرًا

تكشف لنا هذه التّرسّيمة أنّ الشّاعر مأسور بهذا الحبّ الذي يسبّب له العذاب الكبير، ويجعله يضيع في أعماق البحر والمحيط لمدّة زمنيّة تتحدّى الدّهور، فضلًا عن شعوره كأنّه أمير عندما تعود إليه ذاكرته في الصّباح. هل كان يعيش حلمًا أرّقه؟ أم أنّه يعيش أحلام اليقظة في وعيه وإدراكه؟ طبعًا فالشّاعر المغروم قادر أن يرسم لنا صورة فنيّة تتحدّى الأطر العامّة لتصبح صورة مبالغًا فيها، وبخاصّة حين يجعل نفسه شبيهًا بأمير له السلّطة والكلمة. فنزار قبّاني في الحبّ أمير، وشعره تتخلّله الكثير من الصّور المعبرة عن مشاعره ومغامراته في الحبّ والغرام. لنستمع إلى سعيد عقل يقول على لسان حبيّته:

حقاً ضممتني بذراعك؟

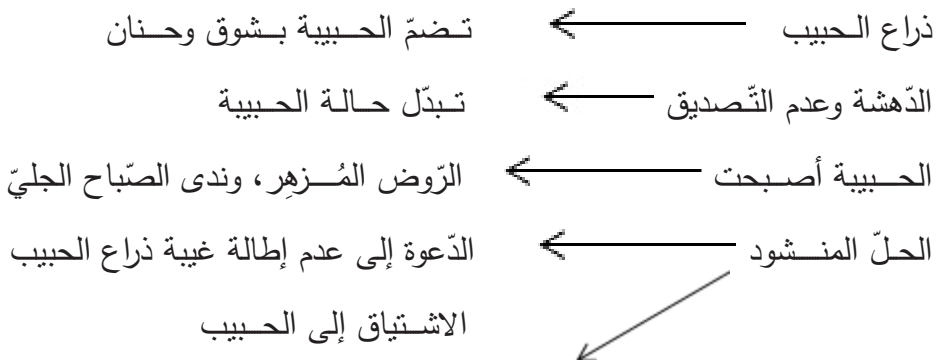
أنا لا أصدق..

بعدها يا حبيبي، صرتُ أنا الرّوض..

والزّهر.. وندى الصّبح..

قلْ لذراعك أن لا تطيلَ غيبه..¹

الحبيبة تعترف بحبّها، وتدعو الحبيب إلى أن لا يطيل الغياب عنها، لأنّها مشتاقة إلى ذراعه الملتقّة حولها. وحبّها له بات أسيراً لأجواء الغرام والهيام، وهي أجواء تجعلها تعشق الطّبيعة، وتصبح كالرّوض والزّهر وندى الصّباح. فالحبّ بالنّسبة إليها هو الطّبيعة بعناصرها الجميلة، وبخاصّة عند إطلالة الفجر حيث يكون النّدى مرشوشاً على الأزهار، والرّوض منتعشاً به وبوروده. لقد حاول الشّاعر، هنا، أن يُظهر لنا أهميّة ارتباط الحبّ بالطّبيعة، فلولاها لا يمكن لهذا الحبّ أن يدوم، لأنّ الأزهار وإطلاقات الصّباح النّديّ هي الّذي ترفد الحبّ بالعاطفة الجياشة، وبالتعلّق بالحبيب، وجعل الحبّ طريقاً للفرح وللأحلام والتمنّيات. ولعلّ ذراع الحبيب باتت هي السّبب المؤثّر في علاقة الحبّ بينهما، لأنّها تدلّ على علاقة التآلف والتعلّق، واشتداد الشّوق إلى الحبيب. فالترسيمة الآتية تكشف هذه العلاقة :



هذه التّرسّيمة تبيّن عمق العلاقة بين الشّاعر وحبيبه التي يتكلّم على لسانها، كما تبيّن الحدث المهمّ، وهو تغيّر الحبيبة وتحولها لتصبح الرّوضة الغنّاء بالزّهر

1 - سعيد عقل، شعره ونثره، مج 5، دار نوبليس، بيروت، 1991، ص 80

وبندی الصّباح. فالحبّ في هذه الصّورة الشّعريّة لا يقف عند حدود المادّة، وإنّما يصبح كالحلم، منسوجاً من الخيال، في التبدّل والتحوّل من أمر ما إلى أمر آخر، كما تحوّلت الحبيبة لتصبح روضاً بحسب قول الشّاعر. فضلاً عن رغبة الحبيبة بالأطول غياب الحبيب فتغيب ذراعه التي تشنّاقها وهي تلقّها بالحنان والحبّ والغرام. فالتركيز، هنا، كان محصوراً برغبة الحبيبة بالأطول غيبة الذّراع التي لعبت دوراً مهمّاً في إطار هذه الصّورة، لأنّ الذّراع عدا كونها دليلاً للقوّة والمساعدة، فهي دليل للعاطفة والحنان ورقّة الهيام متى كان سارحاً في أنفاس الحبيب.

نصل، إذاً إلى ختام هذا البحث حيث تحدّثنا في بعض النّماذج الشّعريّة، عن أهميّة الصّورة الفنّيّة في الشّعْر الحديث وعن أبعاد دلالاتها المتنوّعة، والمأخوذة من سطور الكلمات الشّعريّة التي نظمها الشّاعر ليرسم لنا حدثاً مهمّاً، أكان في ما يخصّ الانتقال والرّفص، أو في ما يخصّ الأوضاع الإنسانيّة أو الحبّ والغرام والانفعال والتوتّر.

الخاتمة

لقد ظهر لنا من خلال هذه النّماذج الشّعريّة المعبّرة عن الصّور الفنّيّة التي امتلأت بها دواوين الشّعْر العربيّ الحديث، أنّ القصيدة العربيّة لم ينظمها الشّاعر إلاّ لتكون وسيلة تعبير وإيصال لأفكاره إلى الآخرين، وليس هذا فحسب، وإنّما ليفجّر من خلالها كلّ ما يعانیه من آلام وأفراح إزاء أحداث كانت تضجّ بها المجتمعات العربيّة في مطلع النّهضة الحديثة بصورة خاصّة. وكان يعبر عن ذلك من خلال ما يرسمه من صور فنّيّة معبّرة، تحمل الكثير من الدلالات. لهذا كان يغلب على أعماله الشّعريّة عدد من الصّور الشّعريّة البارزة، ومنها صورة الانفعال والتوتّر الذي أظهرنا فيها مدى تفاعل الشّاعر مع الواقع انطلاقاً من أحاسيسه وانفعالاته. فكان لا يمكن أن يبقى بعيداً عن ذلك دون أن ينفعل عاطفياً ونفسياً. وكذلك في صورته الانتقاضيّة، حيث كشفنا عن عمق المأساة التي كانت تعترّي المجتمع العربيّ، وكيف أنّ الشّاعر العربيّ الحديث كان يرفض هذا الذلّ أو المهانة التي كانت تصيب أمّته، فيقف مدافعاً عنها برفضه وانتفاضته عبر

كلمات شعرية مؤثرة. أما على صعيد الصورة الإنسانية، فقد كشفنا إلى أي مدى كان الشعر وسيلة للتعبير عن محبة الشاعر لإخوانه، ولكل مجتمع يعاني العذاب والقهر، فكان يشعر مع الكادحين والمعدّبين، ويزرع من خلال كلماته في نفوسهم الإحساس بالصمود والصبر على تغييرات الأوضاع وعلى الآمهم. أما في الصورة الفنية المتعلقة بالحب والغرام، فقد أظهرنا إلى أي مدى كان لموضوع الحب تأثير كبير في حنايا هذه الصورة، وكيف أنّ شعراء الحداثة كانوا لا يتأخرون عن رفد قصائدهم بصور حبهم وهيامهم، ومنهم من إذا تناول موضوعاً اجتماعياً أو سياسياً، نراه يبت في سطره شيئاً من غرامه، ومن تأثره بالحب وتعلقه به إلى حدود لا سقف لها. وإزاء هذه الصور الفنية الأربعة نكون قد وضّحنا في بحثنا هذا أهمية الصورة الشعرية والفنية في الكشف عن معاناة الشاعر وعن تطلّعاته وأحلامه وأمنيّاته ومدى تفاعله مع الواقع الاجتماعي.

المراجع :

- (1) ابراهيم، أيمن (2014)، أسلوب النداء في العربية، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود.
- (2) ابن جني (1957)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية.
- (3) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، مقدّمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، لا. ت.
- (4) أدونيس، الأعمال الشعرية (1996)، جزء 1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق.
- (5) بابو، إبراهيم (2008)، أصول الدلالة التركيبية في التمني والترجي، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، دمشق.
- (6) البياتي، عبد الوهاب (1979)، الديوان، دار العودة، بيروت.
- (7) جيدة، عبد الحميد (1980)، مقدّمة لقصيد الغزل العربية، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان.
- (8) الحاج، أنسي (1991)، خواتم، منشورات رياض الرئيس، لندن.
- (9) الحاج، أنسي (1994)، ماذا صنعت بالذهب ماذا فعلت بالوردة، دار الجديد، بيروت.
- (10) حاوي، خليل (1972)، الديوان، دار العودة، بيروت.
- (11) حجازي، أحمد عبد المعطي (1973)، الديوان، دار العودة، بيروت.
- (12) الحيصة، محمد (2015)، النزعة الإنسانية في الشعر الأردني المعاصر، جامعة مؤتة.
- (13) دي لويس، سيسيل (1968)، الصورة الشعرية، المجلة المصرية، القاهرة، عدد 135.

- 14) زياد، توفيق (2000)، الدّيون، دار العودة، بيروت.
- 15) صيّا، أنطوان (1995)، دراسات في اللّغة العربيّة الفصحى وطرائق تعليمها، دار الفكر اللّبنانيّ، بيروت.
- 16) طوقان، فدوى (1972)، الدّيون، دار العودة، بيروت.
- 17) الطّيب، عثمانى (2016)، شعريّة التمرد في الشّعر العربيّ الحديث، كليّة الآداب واللّغات، جامعة محمد بو ضيف، الجزائر.
- 18) عقل، سعيد (1991)، شعره ونثره، مج 5، دار نوبلس، بيروت.
- 19) غيلان، حيدر (2004)، الصّورة الشعريّة في التّقديين العربيّ والإنجليزيّ، دراسة مقارنة لمفاهيمها ومناهج دراستها في العصر الحديث. إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء.
- 20) الفيتوري، محمد، الدّيون (1970)، مج 1، دار العودة، بيروت.
- 21) قبّاني، نزار (1979)، الأعمال الشعريّة الكاملة، منشورات قبّاني، بيروت.
- 22) قبّاني، نزار (1980)، قصّتي مع الشّعر، بيروت.
- 23) قبّاني، نزار (1988)، أحلى قصائدي، منشورات نزار قبّاني، بيروت.
- 24) قميحة، مفيد (1981)، الاتّجاه الإنسانيّ في الشّعر العربيّ المعاصر، دار الآفاق.
- 25) الماغوط، محمّد (1998)، أعمال محمّد الماغوط، دار المدى للثقافة والنّشر، دمشق.
- 26) مصباح، نسرین (2014)، أنماط من الصّورة الفنّيّة في الشّعر العربيّ الحديث، المجلّة العلميّة لكلّيّة الآداب، جامعة دمياط، القاهرة.
- 27) ناصف، مصطفى (1957)، الصّورة الأدبيّة، مكتبة مصر، القاهرة.
- 28) ويليك، رينيه، نظريّة الأدب، ترجمة محي الدّين صبحي، منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، دمشق، لا ت.
- 29) Dorel, Jacques, Nature et histoire chez Albert Camus, Garnier, Paris, 1976

الخطاب المباشر بين واقع الصورة والحثّ على التّغيير في شعر تميم البرغوثي أنموذجًا

Direct discourse between the reality of the image and the urge for
change.

- Tamim Barghouti as a model-

د.الفاضل الكثيري¹

DR.Fadhel Kathiri

تاريخ القبول 2024 /8/27

تاريخ الاستلام 2024 /8/9

الملخص

تتمحور هذه الدّراسة في إطار الكشف عن تداخل البيانات بين الصّورة المشهديّة في القصيدة وبين مسافات اللّغة الشعريّة المعاصرة في شعر تميم البرغوثي، وفهم البنى اللّغويّة في رسم الواقع الفلسطينيّ والبحث عن التقنيات التّعبيريّة التي رسمت في مجملها معالم القضية الفلسطينية. وقد جاءت هذه الدّراسة التّحليليّة لقصيدة «إذا اعتاد الحكام» من ضمن الدّراسات النّقديّة المعاصرة والمواكبة للأحداث، فتركّز البحث على السّردية اللّغويّة وجماليتها ودلالاتها الرّمزيّة في الجهد المقاوم في هذه القصيدة وفق شقين، وحاد نظريّ والثاني تطبيق يتتبع الصّورة بدلالاتها واللّغة بعمق معانيها وفق أقسام القصيدة الأربعة.

الكلمات المفتاحية: شعريّة النّص - النّص المقاوم - الطّفلة - السّردية الملحميّة - غرّة
-القدس-الشّعب-الفرعون السّمين - الرّمز

1 - الجامعة الإسلاميّة/ وكلية الدّعوة-لبنان - بيروت.

Abstract

This study is centered within the framework of revealing the overlap of data between the scenic image in the poem and the contemporary poetic language courses in Tamim Barghouthi's poetry, understanding the linguistic structures in drawing the Palestinian reality, and searching for the expressive techniques that have drawn the features of the Palestinian issue as a whole. This analytical study of the poem If the Rulers Used came from within contemporary critical studies that keep pace with events. The research focused on the linguistic narrative, its aesthetics, and its symbolic connotations in the resistance effort in this poem according to two parts, a sharp theoretical part and the second an application that traces the image with its significance and the language in the depth of its meanings according to the four sections of the poem.

مقدمة

عبر الأديباء الفلسطينيون عن قضية فلسطين بأساليب شتى، فبيّنوا عدالة هذه القضية وأحقية الشعب في نيل استقلاله، وأظهروا بشاعة الاحتلال في أقصى تجليات إجرامه، وبرز محمود درويش وأحمد مطر وبرز إبراهيم طوقان وفدى طوقان، كما برز مريد البرغوثي ورضوى عاشور في الكتابات الأدبية وبرز ناجي في فنّ الكاريكتور، ف جاء حنظلة عنواناً للنضال الفني بكل جوانبه، ثم جاء تميم البرغوثي فأحدث الشعب الفلسطيني ثورة طوفان الأقصى ساعياً إلى استعادة قضيته والمطالبة بحقوقه المسلوبة ورفع المظلمية التي طالته ومجازر الإبادة التي تعرّض لها، فكان هذا الحدث الشرارة التي أوقدت نار الحماسة وإعادة الأديباء للتأكيد على قضيتهم، وكانت قصائد تميم البرغوثي من جملة هذا الأدب المقاوم.

قصيدة إذا اعتاد الملوك

القصيدة: (إذا اعتاد الملوك) اختزلت معاناة الشعب الفلسطيني، وقدمت العديد من المواضيع التي أظهرت معاناة سكان الأراضي المحتلة، سواء أكانوا في أراض 48

أو الأراضي التي احتلت في سنة 1967¹ «أو ما تعرض له المسجد الأقصى من انتهاكات»². وقد عرّت قصائد تميم البرغوثي جرائم الاحتلال الصهيوني، كما أبرزت خذلان الأنظمة العربية و تواطؤها مع العدو، وكشفت لتناقض الذي يعيشه العالم وأنظمة الغرب في هذا الوقت العصيب الذي تعيشه المنطقة، بعدما سقط القناع في التحالف الغربي الصهيوني على غزة؛ إذ يقول:

إذا اعتاد الملوك على الهوان	فذكرهم ... بأن الموت دان
ومن صدف بقاء المرء حيا	على مر الدقائق والثواني
وجثة طفلة بممر مشفى	لها في العمر سبع أو ثمان
على برد البلاط بلا سرير	ولا تحت أنقاض المباني
أتاها الموت قبل الخوف منه	وكان نحوها يتسابقان
ولو خيرت بينهما كريما	فإنّ الخوف يخسر في الرهان
يقول لك المجرب كل حرب	لها طرفان دوما خائفان
وخوف المرء يدفعه أماما	فيظهر كالشجاعة للعيان
ترى الجيشين من خوف المنايا	عليها يقدمان ويحجمان
بكل حديدة طنت ورننت	وكل مكيدة يتسلحان
فمالك يا بنيّتي لم تخافي	ولم تنقي بسيف أو سنان
ما للجيش جاء بكل درع	مخافة هذه الحدق الحسان
كأنك قلت لي يا بنت شيئا	عزيزا لا يفسر باللسان
عن الدنيا وما فيها وعني	وعن معنى المخافة والأمان

1 - عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1970، ص: 38 وما بعدها.

2 - عبدالله معروف: المدخل إلى دراسة المسجد الأقصى، دار العلم للملايين، بيروت، 2005م. ص: 18.

فديتك أية نزلت حديثا
 قد امتحنوا بها عشرين جيشا
 فنادي المانعين الخبز عنها
 وهنأهم بفرعون سمين
 له لا للبراي النيل يجري
 نحاصر من أخ أو من عدو
 سنغلب والذي جعل المنايا
 بقية كل سيف كثرتنا
 كأن الموت قابلة عجز
 نموت فيكثر الأشراف فينا
 كأن الحرب للأشراف أم
 لذلك ليس تذكر في المرثي
 سنغلب والذي رفع الضحايا
 رماديين كالأنقاض شعنا
 يد ليد تسلّمهم فتبدو
 يد ليدن كمعراج طويل
 يد ليد وتحت القصف فاقراً
 صلاة جماعة في شبر أرض
 تنادي ذلك الجمع المصلي
 فيمعن في تجاهلها فترمي
 نذيرا للبرئ وللمدان
 وجازت وحدها في الامتحان
 ومن سمحوا به بعد الأوان
 كثير الجيش معمور المغاني
 له البستان والثمر الدواني
 سنغلب وحدنا وسيندمان
 بها أنف من الرجل الجبان
 منايانا على مر الزمان
 تزور الحي من أن لأن
 وتختلط التعازي بالتهاني
 مشبهة القساوة بالحنان
 كثيرا وهي تذكر في الأغاني
 من الأنقاد رأسا للجبان
 تحددهم خيوط الأرجوان
 سماء الله تحملها يدان
 إلى باب الكريم المستعان
 هناك ما تشاء من المعاني
 وطائرة تحوم في المكان
 لك الويلات ما لك لا تراني
 قنابلها وتغرق في الدخان

وتقلع عن تشهد من يصلي
نقاتلهم على عطش وجوع
نقاتلهم وظلم أبي أبينا
نقاتلهم كأن اليوم يوم
بأيدينا لهذا الليل صبح
بيان عسكري فاقرأوه
وعن كرم جديد في الأذان
وخذلان الأقباصي والأداني
نعانيه كأننا لا نعاني
أخير ما له في الدهر ثان
وشمس لا تفر من البنان
فقد ختم النبي على بياني¹

ينتمي هذا النص إلى القصيدة الوصفية، وقد نسجه الشاعر تميم البرغوثي على أربعة أقسام، بدأ القسم الأول بأسلوب الشرط غير الجازم (إذا)، ليقدم موعظة حكمية في معادلة لغوية تستند إلى منطق الزمن:

إذا اعتاد الملوك على الهوان فذكرهم ... بأن الموت دان

فأسند الفعل اعتاد إلى الملوك المسند وجاء القيد (على الهوان) وهي من أسفل دركات التّوصيف للوضع السيء الذي يراه، ثم ربط جواب الشرط بحرف الفاء مقرونة بفعل أمر (ذكرهم). والتذكير هنا يحمل معادلة ثابتة (أنّ الموت دان)

من هذا البيت انطلق تميم البرغوثي في ولوج قصيدته، فقدّمها في أربعة أقسام تدرج فيها تصويرًا ورسدًا، فجاء القسم الأول مليئًا بالتصوير المشهديّ قدّم فيها مشهدًا دراميًا حزنيًا (جثة بنت شهيدة) والغريب أنّها أمام المشفى، فأظهر غدر الاحتلال الصهيونيّ من دون أن يذكره، واستقرأ ما في باطن هذه الطفلة:

وجثة طفلة بممر مشفى لها في العمر سبع أو ثمان
على برد البلاط بلا سرير ولا تحت أنقاض المباني

وقدّمها على أن الموت الغادر جاءها صدفة، والفعل هذا يماثل فعل الجبان تسلّل خلصة لارتكاب جريمته حتّى قبل الخوف الذي غالبًا ما يعمّ الأولاد الصغار من هول المعركة، وقد دحض دعاية العدو الصهيونيّ الذي يروج للتّصديّ للإرهاب المزعوم،

1 - تميم البرغوثي: غزّة تنتصر، بيان عسكري، 2024.

والذي يدعي زورا وبهتاننا امتلاكه الأرض الفلسطينية، وقد تجلّى فعله الإجرامي في قتل الأطفال.

وكان نحوها يتسابقان	أتاها الموت قبل الخوف منه
فإنّ الخوف يخسر في الرهان	ولو خيرت بينهما كريما
لها طرفان دوما خائفان	يقول لك المجرب كل حرب
فيظهر كالشجاعة للعيان	وخوف المرء يدفعه أماما
عليها يقدمان ويحجمان	ترى الجيشين من خوف المنايا
وكلّ مكيدة يتسلحان	بكل حديدة طنت ورنّت
ولم تثقي بسيف أو سنان	فمالك يا بنيتي لم تخافي
مخافة هذه الحدق الحسان	ما للجيش جاء بكل درع
عزيزا لا يفسر باللسان	كأنك قلت لي يا بنت شيئا

أبعاد النصّ

يرواح النصّ بين البعد الرّمزي والبعد الملحمي، فالأول تمثّله طفلة صغيرة وهي رمز لكل أطفال غزّة بل هي رمز لغزّة نفسها، إذ أن اللفظة لها دلالة لغوية خاصة فالطفلة ملتنقى البراءة، ولا تعرف الشرّ مطلقاً.

أ - بعد الإجرام

تمثّل في فعل القتل والإبادة وجاءت دلالاته تؤكد صلف العدو واستعماله كل جهات القتل: فالطائرات التي تقصف غطت السماء، والدروع غطت الأرض، والمصائد التي نصبت في البحر لتصيد أطفال القطاع بهذه الآلات القاتلة ليكتمل فعل الإرهاب الصّهيونيّ بحصار المكان (تقصف - درع - حديدة - مكيدة ...). وقد استعملت أدوات الجريمة النّكراء من دون حسابان لشرعة حقوق الإنسان، ولا أي بعد إنسانيّ (الطائرة التي تقصف، القنابل - الجيشان - الموت).

ب- البعد الإنساني

تمثّل البعد الإنسانيّ في تصوير الواقع لأناس عانوا ويلات الجرب العدوانية التي يشنّها الكيان الصّهيونيّ على الإنسان الفلسطينيّ، من دون أن يراعي الأبعاد الإنسانية للشيوخ والنساء والأطفال وحتى دور العبادة بما فيها المسجد الأقصى. فالعدو لا يراعي حرمة الصّلاة، بل يراها تهديدًا له لذلك يحاصرها بآلات القتل:

صلاة جماعة في شبر أرض	وطائرة تحوم في المكان
تنادي ذلك الجمع المصلي	لك الويلات ما لك لا تراني
فيمعن في تجاهلها فترمي	قنابلها وتغرق في الدخان

هكذا تتقدّم صورة القتل حتى لأولئك المصلين دون حرمة أو رادع أو أي ضابط إنسانيّ، ثم يستمر مسلسل الإجرام ليشمل الأطفال، في مشهد الطّولة المقتولة:

وجثة طفلة بممر مشفى	لها في العمر سبع أو ثمان
على برد البلاط بلا سرير	ولا تحت أنقاض المباني
أتاها الموت قبل الخوف منه	وكان نحوها يتسابقان
كأنك قلت لي يا بنت شيئاً	عزيزاً لا يفسر باللسان

هنا يبدو البعد الإنسانيّ مسطحاً عاى الرّغم من مشهد التّوحش الصّهيونيّ فصورة الطّولة القتيلة تعبّر عن ذاتها في اتجاهين؛ الأوّل يدلّ على الجريمة، والثّاني يدلّ على الاستنكار من قبل الضّحية المقتولة. والحقيقة أنّ البعد الإنسانيّ يتمظهر بين الصّورة كواقع ماديّ يبكي الحجر، ودلالة لغويّة في استفهام ومشابهة لالتباس الوعي في التّصريح بفعل الإدانة وضبابيّة في رؤية المجرم و التّعامي عن تصور الجرم.

ج- البعد المأساويّ

تجسّد البعد المأساويّ في العاطفة الإنسانية وما تختزله من الخوف، كما تجسّد في صورة الجثة الهامدة الملقاة على الرّصيف، وكأنّ الشّاعر هنا يركز على مسرح الجريمة،

وهو الطريق في إطار بلورة ما هو معلوم من الإجرام الصّهيونيّ، إذ ليس من التّباس في فعل القتل؛ بل إنّ القاتل متعمد في عدائته غير المسوّغة. وحمل هذا كله معجماً لغويّاً يعكس الأفعال العدائيّة للمحتل الصّهيونيّ الذي يسعى إلى إبادة شعب أعزل: الخوف - الموت - التّدمير - أنقاض المباني - نموت - المنايا - نقتل - الويلات - ترمي القنابل - الطّائرة - القنابل - الدّخان - القصف. وكل هذا يقع على مرّ الدّقائِق والنّوّاني في جريمة لم تعرف الإنسانيّة لها مثيلاً.

وظائف الكلام

تمثّلت وظائف الكلام في ما قدمه الشّاعر من صور مشهديّة، وما ونتج عنه من انفعالات، وجاءت على النّوّالي: الانفعاليّة والإفهاميّة والمرجعيّة وذلك انطلاقاً من التّركيز على ضمير المتكلّم أو المخاطب أو الغائب، وقد اعتمد جاكبسون على هذه الوظائف ووسّعها إلى ستّ جاكبسون¹. وبما أنّ اللّسانيّات علم يشمل جميع الأنساق والبنى اللّغويّة. فإنّه من اللافت القول إنّّه لا بدّ لأيّ رسالة من وظيفة على الأقل، ويصعب إيجاد رسائل تؤدي وظيفة واحدة لا غير. ويأتي تصنيف الوظائف معتمداً على المرسل والمرسل إليه والرّسالة والسّنن والسّيّاق والقناة. وهنا فإنّ البرغوثي قد حاول أن يراعي هذه العناصر، فهو المرسل وصاحب المرسل لذلك توجّب عليه أن يستهدف المرسل إليه بشيء من التّأثير بمشهديّة عالية وصورة مدهشة وسياقات غير معهودة. وهذا ما يتجلّى في:

- الوظيفة الانفعاليّة التّعبيريّة: توخى الشّاعر هذه الوظيفة؛ لأنّ رسالته صرخة إنسان في عمقه جرح ومظلومية. وهنا ترتكز الانفعاليّة (Emotive) عند المرسل بشكل تقريعي مرة، وبشكل وعظي مرة أخرى. إذ تدلّ هذه الوظيفة الكلامية بصفة مباشرة عن موقف المتكلّم حيال ما يتحدّث عنه، وتنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معيّن صادق أو كاذب. يتجلّى باعتماد آليتين: الأولى دلاليّة صرفة كصيغة التّعجب والاستغاثة والندبة، ثانية فيزيولوجيّة تعتمد النّبر والتّخيم والترقيق والجهر والهمس

1 - جاكبسون، رومان: 1978 نظريات ووظائف الكلام، دار الشّرق، بيروت.

وارتفاع الصّوت وانحداره»¹.

-الوظيفة الإفهامية التفسيرية: استعمل الشّاعر في القسم الأول الإيحاء التفسيريّ المتمثّل في الشّرط (مرتين) إذا اعتاد... فذكرهم بأنّ الموت دان، كما استعمل الوصف لتأكيد حال الواقع الفلسطينيّ وتوضيحها للعالم.

ومن صدف بقاء المرء حيا على مر الدقائق والثواني
ولو خيرت بينهما كريما فإنّ الخوف يخسر في الرّهان

كلا البيتين فيه حكمة. وقد تكثّف الجانب الحكمي، وطفا في تلك الصّورة الفنيّة التي تعجّ بالإيحاءات المدهشة التي تصوّر الإنسان الفلسطينيّ مقاتلاً متمسكاً بالحقّ في الأرض والعرض والدين، في حين تأتي صور أخرى لتبرز الصّهيونيّ قاتلاً ماكراً، وتأتي صورة الحاكم العربيّ متأمرّاً خانعاً متصهيناً منساقاً كالمسحور في فلك الأميركيّ الصّهيونيّ.

- الوظيفة الإبلاغية وتتمثّل في فعل الأمر من خلال قوله:

وهنّهم بفرعون سمين كثير الجيش معمور المغاني

والفعل الماضي كونه يدلّ على توصيف الأحداث التي جسّدت البطولة الخارقة واللامتناهية التي تتجاوز الموت نفسه:

ولو خيرت بينهما كريما فإنّ الخوف يخسر في الرهان

ويواصل في القسم الثّاني الحديث عن الفتاة في رمزيتها/غزّة؛ فهي الآية والنّذير والفائزة في الامتحان والمحاصرة والممنوعة من الخبز.

عن الدّنيا وما فيها وعني وعن معنى المخافة والأمان

فديتك أية نزلت حديثا نذيرا للبرئ وللمدان

قد امتحنوا بها عشرين جيشا وجازت وحدها في الامتحان

1 - نعيم عمار: (2022) التّواصل اللساني والشعريّة مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكسون، مجلة المركز التربوي للبحوث والأنماء، بيروت، ص: 64

فنادي المانعين الخبز عنها ومن سمحوا به بعد الآوان

وهنا يتطرق إلى رمز آخر لكتّه ليس ممن ينتصرون للحقّ والعدل، بل هو رمز من رموز الكفر والخذلان وإعانة الظلمة وقهر النَّاس، ليقدمه للسّاكتين والمتخاذلين والصّهائية، فيقول:

وهنّاهم بفرعون سمين كثير الجيش معمور المغاني
له لا للبراي النيل يجوي له البستان والثمر الدواني

وقد استعمل الشّاعر ضمير (ي) المتكّم مجرورا بحرف الجر «عن» (عني) وضمير (ت) في الفعل الماضي (فديتك) لآلية حضورية ذاتية لم يغيب فرصتها. هنا تجلّت ثنائيات متعدّدة فيها قتل وظلم والتّواطؤ وخذلان، ومظلومية شعب حطم أسطورة الصمود وتجاوز فعل القتل والإبادة للكيان الغاصب، وهنا يبرز الشّاعر قسوة الإجراء الصّهيويّ كما يبرز خذلان الإخوة في لحظات التّوحش الصّهيويّ ولتعزيز فكرته هنا المتخاذلين بفرعون سمين بما هذه المفردة من دلالة وإيحاء في المخيال الجمعيّ عند العرب ولدل عليه عند المسلمين.

-الوظيفة المرجعيّة اعتمد الشاعر على المرجعيّات المكانية والزمانية، فالموت مرجعيّة مهمة في تنبيه الغافلين وفرعون له مرجعيّة وظيفية للدلالة على الطغيان والعتو، والأطفال هم مرجعيّة الحاضر في رسم معالم الغد. وقد عبّرت هذه الوظيفة عن العلاقة بين الكلمات كانعكاس للأحداث، كما عبّرت عن الأحداث كأشياء تجاوزت المألوف. فالقصيدة هنا هي رسالة تنطق بلغة تنقلنا إلى أشياء وموجودات تقوم فيها اللّغة مقام الرّمز إلى هذه الأشياء، حيث تكون اللّغة رموزاً معبرة عن أشياء¹.

والمرجعيّة هنا تتمثّل في المكان المشهديّ الرّصيف - المشفى السّماء - البحر الطّرقات، حديث الطّفلة، حديث الجماعة وفعلها الجهادي في المدينة بمعالمها فالشّاعر يتكلم عنها بشكل وصفيّ واضح بوديانها ومعالمها. ويجعل كل معلم رمزاً مقاوماً.

1 - صلاح فضل (2007)، في النقد الأدبي (الطبعة الأولى)، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

ويأتي القسم الثالث من القصيدة ليصوّر لنا صورة الفلسطينيّ المحاصر من إخوانه العرب، والمحارب من قبل العدو الصّهيونيّ. وفي واقع الاستغراق في المأساة الممزوجة، يبرز إصرار الشعب على التّصرّ في معادلة العين والمغرز، والدّم الذي يقاوم السّيف. فقد قدّم الشّاعر أفرقاء متحالّفين (الأخ والعدو) في معادلة محيرة استوت فيها الأضداد فكلاهما يحاصران الفلسطينيّ. وهنا يتوعدهما بالتّصرّ مهما فعلا، وأنّ فعليهما هذا سيجلب لهما النّدامة والخسران.

نحاصر من أخ أو من عدو	سنغلب وحدنا وسيندمان
سنغلب والذي جعل المنايا	بها أنف من الرجل الجبان
بقية كل سيف كثرتنا	منايانا على مر الزمان
كأن الموت قابلة عجوز	تزور الحي من أن لأن
نموت فيكثر الأشراف فينا	وتختلط التعازي بالتهاني
كأن الحرب للأشراف أم	مشبهة القساوة بالحنان
لذلك ليس تذكر في المرثي	كثيرا وهي تذكر في الأغاني
سنغلب والذي رفع الضحايا	من الأنقاذ رأسا للجبان
رماديين كالأنقاض شعنا	تحدهم خيوط الأرجوان

وفي هذا القسم بدا التّكرار حاضرًا في إرادة الفعل المقاوم لإيضاح المشهد البطوليّ المتمثّل في عدم الاستسلام والمقاومة، على الرّغم من بؤس الوضع وقلة الإمكانيات: فكّرر كلمة سنغلب، والفعل فيه إصرار وتحدّ وإيمان بالتّصرّ والغلبة لا لشيء إلاّ لعدالة القضية. وكّرر كلمة تذكر لما لفعل الصّهاينة من إجرام متّصل دأبوا عليه منذ عرفهم التاريخ، ومن وقف معهم من فداحة لا تحمى من ذاكرة الأحرار أبدًا. ثم كرّر كلمة يد لما ترمز إلى تعاقب الأجيال التي تسلّم الرّيات إلى بعضها البعض ولو كان ذلك تحت القصف؛ فهي المساعدة والمرفوعة بالدعاء والظّاهرة من تحت الركام، وكأنّ اليد هنا مشهد الرّمز المتعدّد الدلالات في هذه الأبيات:

يد ليد تسلمهم فتبدو سماء الله تحملها يدان
يد ليدن كمعراج طويل إلى باب الكريم المستعان
يد ليد وتحت القصف فاقراً هناك ما تشاء من المعاني

أمّا من حيث استعمال الأفعال في هذا المقطع فيتكتّف الفعل المضارع دلالة على الحضور المشهديّ الحالي من خلال استعمال (نحاصر سنغلب - تزور - نموت - تحددهم - تذكر - تسلمهم - تحملها - ما تشاء) وهذه الأفعال هي تتعلّق بتقابل الأضداد، فالحصار فعل بغي يستلزم محاصر ومحاصر، والغاية منه الإخضاع والتطويع في أبسط حالاته والإبادة والتّرحيل في تجلّيات جرائمه، ولكن الإيمان بالمغالبة وسنة التّدافع والتمسك بالحقوق جعل الفلسطينيّ مقتنعاً أنّ حياته تكمن في مقاومته، وأنّ هذه المقاومة هي فعل وجود للبقاء والنّبات وصيانة الأرض والمقدسات على الرّغم ممّا يتعرّض له من فعل الإبادة والتّدمير، وقد عدّ هذه الجرائم ولادة للأبطال المقاومين الأشرف الذين يسطرون الملاحم أمام عدوّ عنده من القوّة والعتاد الرّهيب ما لا حصر لها.

نموت فيكثر الأشرف فينا وتختلط التعازي بالتّهاني
كان الحرب للأشرف أم مشبهة القساوة بالحنان

ويصف القسم الأخير من القصيدة: صلاة جماعة في شبر أرض وطائرة تحوم في المكان، تدخل الصلّة كدلالة إشاريّة على الزابطة الجماعيّة الراسخة في الأرض، المتعلّقة بالإيمان. فالصلّة مؤشّر دلاليّ لتجلّيات الواقع في تذكير بالمقدّس في بلاد القبلتين، وهي رمز للإيمان، ورمز للنّقاء والصّفاء ضد الشّيطنة التي يمارسها الصّهائنة والوهم المزعوم الذي بنوا عليه تفكيرهم السّادي المتوحّش الذي لا يحسب النّاس في مقاسهم التّلموديّ سوى خدم ودون درجة منهم.

تتادي ذلك الجمع المصلي لك الويلات ما لك لا تراني
فيمعن في تجاهلها فترمي قنابلها وتغرق في الدخان
وتقلع عن تشهد من يصلي وعن كرم جديد في الأذان

نقاتلهم على عطش وجوع وخذلان الأفاصي والأداني
نقاتلهم وظلم أبي أبينا نعانيه كأننا لا نعاني
نقاتلهم كأن اليوم يوم أخير ما له في الدهر ثان

وتأتي هذه الأبيات لتدلّ أنّ شاعرنا المنتمى إلى هذه الجماعة المقاومة (بأيدنا) سيصنع النصّ وسيكون الصّبح قريباً، وينهي كلامه بجعل قصيدته بياناً عسكرياً يجب أن يقرأه كل شريف وحتى كل عدو:

بأيدنا لهذا الليل صبح وشمس لا تفر من البنان
بيان عسكري فاقروه فقد ختم النبي على بياني¹

وهنا يقدم الشاعر واقعاً جديداً إلى الأدب المقاوم وترسم القصيدة في أرقى تجلياتها من الشعر الموزون ببحره الوافر وبوزنه (مفاعلتن - مفاعلتن - فعولن) مختاراً حرف النون رويّاً لهذه القصيدة، وهو حرف مستقل في المخرج، يتميز بصفات أربع متضادة وهي: الجهر والتوسط والاستفال والانفتاح»، ولها وصفة واحدة من الصفات غير المتضادة وهي مستقلة²، إذا حسبنا الغنة من خاصية النون؛ التي تمتزج بشيء من اللحن الشجيّ والصدى القريب من الأتات العميقة المتتابعة. فالنون بطبيعتها رخيمة، لذلك فإن وقعها في الأذن مؤثر. فالشاعر لا يُنطق النصّ فحسب، بل أنطق الحجر والشجر والبشر وكل ما خلق الله. ولا يرصد الواقع بل يقدمه صامداً عاى الرّغم من أيامه الكلمي.

المميزات الأسلوبية للخطاب

والحقيقة إنّ المميزات الأسلوبية للخطاب ذي الطابع الإفهاميّ تحورت في نقاط متعدّدة أهمها:

أ- التأثير: الحدث اللسانيّ رباط بين الباتّ والمنقبّل يضيف إليه الأوّل بصماته التأثيرية التي تعتمد على معادلة «المفاجأة والتشبع»، إنّ مسألة التأثير التي تأتت في

1 - تميم البرغوثي: بيان عسكري، ص: 48.

2 - ابن الجزري: الجزرية، ص: 6.

شعر البرغوثي كانت من جراء الصّورة الشعريّة السّاخرة أكثر من كونها تصويرياً للجرح الفلسطينيّ النّازف. فالنّقمة على تخاذل الأنظمة العربيّة، وتقديم المقاربات المشهديّة بين سواد تعيشه الأمة وبصيرة يعيشها المقاومون، وهذا لا يترك مجالاً للشكّ في رسم الفارق اللّغويّ بين غرابيب سود كدلالة على البؤس العربيّ وبين رجال الله في الميدان كدلالة على فعل المقاومة.

وهنا يصبح الفعل المقاوم فعلاً حضارياً تحريراً في حين يصبح السّكون جبناً بل هو الخذلان بعينه الذي لا يرتضيه حر. وبين هذا وذاك تنمو اللّغة وفق حقل معجمي مقارن وواضع الحدود بين فريقين؛ واحد متمسك بأرضه، والآخر سمسار يتاجر بتوابيت الشّهداء الذين يقاومون الاحتلال الصّهيونيّ. وقد أثر هذا الواقع في الشّاعر نفسه.

ب- المفاجأة: تعدّ عنصراً مهماً في شعر تميم البرغوثي غير منتظر؛ وهي من الأمور المعقولة العاديّة التي لا تلفت نظر القارئ أو السّامع إلا بدخولها ضمن هذا النّسق الأسلوبيّ المفاجئ المميز ولا تتشكّل المفاجأة إلا إذا توافرت العناصر المتضادة فتنتاغم وتتكامل: أي مبدأ تكامل الأضداد. والمفاجأة نبضات انفعاليّة عالية في عمق الخطاب السّاكن. والواضح أنّ شعريّة تميم التّراثيّة لا تتفصل عن تراث الأجداد المجيد وتاريخنا التّليد.

واللتّناص بارز، وصوره ظاهرة، والحماسة فيه متجليّة كما هو الحال لقصائد أبي الطيب المتنبي وربما رجع هذا لتأثره به؛ لذلك أنتج قصيدة رائعة وقويّة فهو بهذا النّص يستند إلى القرآن الكريم وخاصة قصة فرعون وإخوة يوسف عليه السلام فكان بذلك يقترب بلغته من لغة السّامع بحسه الإنسانيّ ورحابة صدره وثقافته الواسعة العميقة، وشجاعة متناهية سطرها بكل ثقة نصه وقدمه على كل من معه من الشعراء.

ج- التّشبع: وهي عملية تكراريّة كلّما كثرت تنازلت حدة التأثير. تهتّر النّفس للمفاجأة بفضل شحنتها التّأثيريّة العالية كونها غير منتظرة بينما الشّحنات المتكررة بشكل متواتر تحدث تشبّعاً في نفس المستقبل فتضعف استجابته لارتداداتها.

د- الإقناع: ويتمثل في توظيف الحجج المنطقية التي لا تكتسي صيغة الإكراه ولا تُدرج على منهج القمع، وإنما تسلك سبلاً استدلالية تجرّ الغير جرّاً إلى الإقناع.

هـ- الإمتاع: تهدف الرسالة الإمتاعية إلى إدخال النشوة في نفس المستقبل فينطفئ المنطق العقلاني وتحلّ محله نغمة الارتياح الوجداني في محاولات لاسترضاء وجدان المتلقّي وعاطفته.

و- الإثارة: هي حال من استفزاز يحرك في المتلقّي نوازع ردود فعل. لا تجتمع جميع المميزات في خطاب واحد، فالخطاب الشعريّ غير العلميّ والسياسيّ غير التجاريّ، الخ... وعلى الرّغم من اختلاف الرّسائل فهي تركز على المرسل إليه. كما أنّ مؤشّرات الإثارة تكمن في الإبهام وهو «ليس إبهاماً سهل الإزاحة والتبديد. وعلى هذا فالدلالة في هذا الشّعْر ممعنة في الغياب»¹.

أمام ما قدّم البرغوثي من قصائد يبقى شعراً قاصراً على تصوير جانب من واقع أمتنا غير مجبول بالبحث في الهوية الإسلامية التي وجد فيها ابن باديس الأفق الرّحب لنسج مدونته الشعرية في ربط الشّعْب بالإسلام»²

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له	رام المحال من الطلب
يا نشء أنت رجأونا	وبك الصباح قد اقترب
خذ للجياة سلاحها	زخذ الخطوب ولا تهب
أرفع منار العدل والإحسان	وأصدم من الغضب» ³

1 - محمد القعود: الإبهام في شعر الحداثة، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 279، المجلس الوطني للثقافة والآداب و العلوم، الكويت 2011م. ص: 379.

2 - عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ) مؤلفات ابن باديس؛ المحقق. عمار طالبى؛ الناشر. دار ومكتبة الشركة الجزائرية؛ الطبعة الأولى (عام 1388 هـ - 1968 ميلادية)

3 - الحسن بن عجيل: (2018) أشعار ابن باديس، القصائد والمقطوعات والنتف الشعرية، منشورات دار قرطبة، الجزائر، ص: 47.

وإن كانت المقارنة هنا تحتاج إلى الكثير من الجهد لكن تميم البرغوثي مثل بحق لوئاً شعرياً متقدماً في رسم الصورة الشعريّة للأدب المقاوم التّاقّد للواقع، لكنّه لم يستوفه حقّه وتمثيله مقارنة بما قدمه الشعب الفلسطينيّ المجاهد، ويكتمل المشهد بالمقاومة اللّبنانيّة وقوفها التّاريخي في رواية المساندة ووقفه العزّ المتواصل تجاه بوصلة القدس خاصة في هذه القصيدة لتتضح الصّورة بعد عاصفة الغبار التي حدّت من وضوح الصّورة. فمتى تكتمل المشهديّة في التّغريبية الفلسطينيّة وفق المخيال الشعريّ عند ساسة العرب؟

الخاتمة

وفي المحصلة جمع تميم بين الاعتداد ببنية شعره من حيث جزالة اللفظ وأصالته وجودته واللذة والطرب في الإلقاء، وتبيان قضية بلاده فلسطين وتقديم صورة فنية راقية جسدت الأدب المقاوم في عذوبة لفظه وظهرت صيحة مدوية ضد الطغاة والاحتلال الصّهيونيّ، في قصيدة تنقد بنار عاطفته الجياشة وإيقاعه الموسيقيّ الجميل، والحقيقة أن المفاضلة التي تتم بين الشعراء وقصيدهم ليس هين، لما لكلّ منهم من تمايز يصعب الحكم عليه، وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على أنّ هناك شعراء أفذاذاً يعيشون واقع الأمة.

وإذا كان تميم سليل عائلة الأدب والعلم فإنّ بيئته نمت فيه أن يكون محارباً بالأدب يننظم المقاطع الشعريّة ما بين العموديّ والنّقيلة، فجاءت كالعقد الذي يتجانس فيه الحبّ فاننظم أيما انتظام؛ أعطى شكلاً جميلاً غاية في الرّوعة والأناقة والدّقة والجمال، وقد نسج قصيدته بأروع وأجمل خيوط الفنّ، فكان كلامه ما بين اللّحن والغناء منظوماً منسقاً، وازن فيه بين أوّل القصيدة وآخرها فكانت كأنّها جملة أو كلمة واحدة أو كأنّها جسم متكامل، ومثل هذا الشعر غالباً ما يكون مؤثراً في السّامع مستساعاً عنده؛ لأنّه واضح المعالم والصّور للقاصي والدّاني والعادي وغير العادي من القراءة، ومثل شعر تميم لا يمرّ مرّ الكرام وصفحاً سريعاً، بل لا بد للمتلقّي من الوقوف عنده للتّمتع بمذاق التّعبير الفواح، نعم لا بد من التمعّن في أقواله وأشعاره ورصد جميع معانيه. إنّ التّعبير القوي هو ما يميز بين قصيدة وأخرى وشاعر وشاعر لتبقى تلك القشعريرة أو التّأثير الدّاخلية هو المحرّك الذي يرغبه المتلقّي من اللذة والشّعور الجميل الذي يشعر به.

وتبقى الكلمة بندقية في قصيدة التكنة وهو ما يجعل أي الشاعر يتميز بجدارة واستحقاق عن ذلك الآخر في التعبير عن التزامه بقضايا أمته ونهجه المقاوم ليرسم محورها محطاتها الجهادية.

المصادر والمراجع

1. البرغوثي، تميم: ديوان تميم البرغوثي، قصيدة بيان عسكري 2015 م.
2. بن عجيل، الحسن: أشعار ابن باديس، القصائد والمقطوعات والنّف الشعريّة، منشورات دار قرطبة، الجزائر، (2018).
3. ابن الجزري، محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزريّ الدمشقي: الجزرية، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر. 2000م.
4. جاكسون، رومان: نظريات وظائف الكلام، دار الشرق للطباعة والنشر، بيروت. 1978م.
5. فضل، صلاح: في النقد الأدبي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ط:1، 2007م.
6. الصنهاجي، عبد الحميد محمد بن باديس (المتوفى: 1359هـ) مؤلفات ابن باديس؛ المحقق. عمار طالبي؛ الناشر. دار ومكتبة الشركة الجزائرية؛ الطبعة الأولى (عام 1388 هـ - 1968 ميلادية)
7. العبد، محمود بن محمد عبد المنعم بن عبد السلام بن محمد: الروضة الندية شرح متن الجزرية، تحقيق: السادات السيد منصور أحمد، المكتبة الأزهرية للتراث / 2001م.
8. مار نعيم: التّواصل اللساني والشعرية مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكسون، مجلة المركز التربوي للبحوث والأنماء، بيروت. 2022م.
9. القعود، محمد: الإبهام في شعر الحدائث، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 279، المجلس الوطني للثقافة والآداب والعلوم، الكويت 2011م.
10. الكيالي، عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1970. عبدالله
11. معروف، عبدالله: المدخل إلى دراسة المسجد الأقصى، دار العلم للملايين، بيروت، 2005م.

محاولة تداولية في قراءة خطاب الإمام علي (ع) السياسي.

سلطة الخطاب ونظامه في خطبة «الانصراف من حطين» أنموذجاً

Adeliberative attempt to read the political speech of Imam Ali

The authority and order of speech in the «Departure from Hattin»
sermon as an example

د. هيثم قاسم عواركه

Haitham Qasim Awarka

تاريخ القبول 2024 /12/23

تاريخ الاستلام 2024 /12/7

ملخص البحث

يحتلّ الإمام علي (ع) مكانة مرموقة في مجال البلاغة والأدب، فهو أمير من أمراء البلاغة، وخطاباته تشهد على هذا الزخم اللغوي والأدبي الكبير الذي يتركه بعد كل خطاب. إنّ هذه المزايا تسمح للإمام علي (ع) أن يكون مادّة تحليليّة مهمّة، وفيها كمّ لغويّ من المعطيات والاستنتاجات، ولا سيّما إذا كنّا بحاجة إلى إثبات نظريّة خطابيّة- لغويّة ما. من أجل ذلك كان هذا البحث لمقاربة أثر خطبة من خطابات الإمام علي بناء على نظريّة «فوكو» الخطابيّة، وكانت ملاحظة الفرق بين الخطاب السياسيّ النفعيّ والخطاب الإيمانيّ المخلص لله سبحانه وتعالى ومصّلحة الشعب، وهو خطاب الإمام علي (ع).

Abstract

Imam Ali occupies a prominent position in the field of rhetoric and literature, as he is one of the emirs of rhetoric, and his speeches testify to this great linguistic and literary momentum that he leaves after each speech. These advantages allow Imam Ali to be an important analytical material, and it contains a linguistic amount of data and conclusions, especially if we need to prove a rhetorical-linguistic theory. For this reason, this research was

to approach the effect of one of the speeches of Imam Ali based on the rhetorical theory of «Foucault», and the difference between the utilitarian political discourse and the faithful discourse of faith to God Almighty and the interest of the people, which is the speech of Imam Ali.

تمهيد

لا تتفكّ اللّغة عن الواقع السّياسيّ للأُمم والشّعوب، وهذه لازمة حضاريّة سادت منذ أوّل تشكّل لغويّ عرفته البشريّة، فالسياسة مرتبطة بالنّاس وتعبّر عن شؤونهم وأهدافهم وتقف على تحسينهم وتأمين قوانين معيشتهم؛ كي يسود النّظام في المجتمع وتتمأسس المؤسّسات التي تصون هذا النّظام، ولطالما كانت اللّغة اللاعب الأبرز في هذا المجال؛ فكأما ارتقت اللّغة في الخطاب السّياسيّ وجاءت مشفوعة بأسلوب من استدلاليّ من البرهنة، زاد زخم الخطاب السّياسيّ وتأثيره في الثقافة المجتمعيّة التي يخوض فيها.

شهدت نظريّات الخطاب تطوّرًا ملحوظًا مع بروز الحقبة اللّسانيّة في العمل اللّغويّ، وهذا ما أدّى إلى حقول تخصصيّة في المقاربات الخطابيّة، فبتنا نشهد خطاب اللّسانيّات الاجتماعيّة، وكذلك خطاب اللّسانيّات الثقافيّة، ثمّ خطاب الفقه الدّينيّ، أو الأصوليّات اللّغويّة... وعليه فإنّه لا يعد مستغربًا أن تنشأ على الإثر نظريّات تهتمّ بالخطاب السّلطويّ، أو سلطة الخطاب المنطلق من نظامه، فتتشكّل إجراءات وآليّات لدراسة الخطاب السّياسيّ.

ولعلّ «ميشيل فوكو»¹ من أبرز من تصدّى إلى قضيّة السّلطة وعلاقتها بالخطاب، ثمّ بالنّظام اللّغويّ الذي يبنّي على محاولة تمتين الحكم من خلال إجراءاته؛ إلّا أنّ هذا الوضع غالبًا ما يصطدم بردّة فعل عكسيّة- وقائيّة من لدن الناس، إذ إنهم يحاولون تفادي هذا الوضع التّسلطيّ بإجراءات رقابيّة على الخطاب. وهذا ما تقصّدناه في انتخاب عيّنة خطابيّة من عيّنات الإمام علي (ع)، بما يضمن إظهار الميزة الخطابيّة

1 - ميشيل فوكو (بالفرنسيّة: Michel Foucault) (1926 - 1984) فيلسوف فرنسي، يعتبر من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين، تأثر بالنيويين ودرس وحلّل تاريخ الجنون في كتابه «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي»، وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعيّة في السجون. ابتكر مصطلح «أركيولوجيّة المعرفة». أّرخ للجنس أيضًا من «حب الغلمان عند اليونان» وصولاً إلى معالجاته الجدلية المعاصرة كما في «تاريخ الجنسانية».

الحدائثية في طبيعة لغة الإمام علي (ع) إبان وجوده في رئاسة العالم الإسلامي، وتلقّف مدى تطابق ظروف خطابه المتخصّص مع إجراءات الحدائث الخطابية ومعاييرها كما قوننها «فوكو» في نظريته.

بالنّظر إلى طبيعة الموضوع وتشابهه بين أكثر من حقل معرفي، ومحاولة هندسته على أساس إجراءات ومعايير تحليلية تفضي إلى نتائج ملموسة في طبيعة الخطاب السياسي، فمن الممكن للإشكالية أن تتدرج على النسق الآتي:

إشكالية البحث

كيف يتكوّن الخطاب السياسي في لغة الإمام علي (ع)؟ وإلى أيّ مدى يؤدي هذا الخطاب إلى معالم رقابية تحدّ من سلطة الشخص إزاء مصلحة المجتمع؟ وعلى أيّ أساس تتبني سلطة خطاب الإمام علي (ع)؟ أمّن شخصه؟ أم من الخطاب مجرداً من كينونة الإمام (ع) الذاتية؟ وكيف يبني المتلقّي رأيه بين خطاب الإمام علي (ع) وخطاب خصومه في السياسة؟

وتأتي الفرضيات المرصودة للإجابة من خلال التحليل عن هذه الإشكالية كالاتي:

فرضيات البحث

- يتكوّن خطاب الإمام علي (ع) من خلال المجتمع الذي يتواصل معه؛ أي من خلال أعراف الناس وما يعنيه من تاريخهم وحاضرهم ومستقبلهم.
- كان خطاب الإمام علي (ع) ينتمي إلى الناس، إذ إنّه في حوزتهم على نسق الخطاب الموجّه إلى الجمهور، ما يؤدي إلى موازنته ومراقبته؛ لأنّه مرصود من أجل المجتمع.
- يحاول الإمام علي (ع) إسباغ شخصه على خطابه، فيتحدّ مع اللّغة التي يتقدّم بها خطابه، وهذا ما يدعو إلى دراسة خطاب الإمام علي (ع) بمعزل عن شخصيته المتأمنة أصلاً في خطابه.

- يبني المتلقّي رأيه بين خطاب الإمام علي (ع) وخطاب خصومه على أساس نفعيّ، وهذه درجات في المتعلقات الخارجيّة للخطاب، فكلّ متلقّ يتلقّف الخطاب بحسب مرجعيّته وثقافته وأيديولوجيّته ونظرتّه إلى الحياة والسياسة.

والمنهج المرصود للمعالجة التحليليّة في هذا البحث يكون المنهج التداوليّ.

منهج البحث

يتناسب المنهج التداوليّ ودراسة الخطاب البشريّ عمومًا، وذلك لإيمانه بالقيمة التواصلية والمجتمعيّة للغة، وأنّ الخطاب يتحرّك بحيويّة في إطاره التواصليّ مع القاعدة الشعبيّة التي يُرصد من أجلها، وذلك بتحفيز الأفعال اللغويّة للإنجاز التواصليّ. « التّداوليّة من مكونات النظرية السيميائيّة الجوهرية التي تدرس العلاقات بين العلامات ومستخدميها. ويشير فان دايك إلى أنّ التّداوليّة، ينبغي لها أن تخصص للمجال العمليّ أو الإجرائيّ الذي يقوم على قوانين اللّغة وما يكون لها من آثار في إنتاج المنطوقات وتفسيرها، وهي بوجه خاص لا بدّ من أن تسهم في تحليل الشروط التي تجعل المنطوقات مقبولة في موقف بعينه عند متكلمي اللّغة. استمدت التّداوليّة في جوهرها من فلسفة اللّغة، لاسيما نظرية أفعال الكلام، واستمدت من تحليل المخاطبات ومن الاختلافات الثقافيّة في التفاعل اللغوي على الشكل الذي تراه العلوم الاجتماعيّة»¹. على هذه الأنساق التحليليّة يكون الاشتغال التطبيقيّ على خطبة الإمام علي (ع).

وقد وقع تقسيم البحث في شقّين: الأول هامش نظريّ لإيضاح رؤية «فوكو» لسلطة الخطاب السياسيّ. وأمّا الثاني فالتطبيق على خطبة الإمام علي (ع).

أولاً: الهامش النظريّ

تدلّ حركة الخطاب السياسيّ على وضع تشابكيّ معقّد بين أكثر من طرف، فالخطاب متشعب ولا ينحصر في المدونة اللغويّة وحسب؛ بل يتعدّى ذلك إلى اصطلاحات تواصلية غالبًا ما تكون منتمية إلى موضوعات الخطاب وأفكاره والشرائح المعنيّة فيه.

1 - العبد، محمد، كتاب العبارة والإشارة دراسة في نظرية، مكتبة الآداب، الطبعة الثالثة، 2012، ص: 76.

وفي سياق متصل يطلّ مصطلح السياسة، وهو من العلوم المعرفية الواسعة، وحاله كحال الخطاب يرتبط هو الآخر بميادين المجتمع التواصليّ شتى؛ لأنّ السياسة محسوبة على علوم التنظيم البشريّ. يُنشئ الخطاب السياسيّ إذاً لغةً وظيفيةً أي ذات طبيعة وظيفية تشغيلية متخصصة، تلك اللغة التي تُوظّف في السّلطة، أو بناء الأيديولوجيات، أو إنتاج الثقافات، وصولاً إلى معالجة مشكلات المجتمع وشؤونه وهمومه؛ على أساس أنّ المجتمع الإنسانيّ السليم يقوم على حصول المشكلات كي تتدخل السياسة بتخصّصها اللغويّ للوقوف على هذه المشاكل وتفنيدها ومعالجتها، وتعين الحقول اللسانية في هذا الأمر، إذ إنّها حقول معرفية، لعلّ من أبرز مزاياها أنّها فرّقت بين المصطلحات المفاهيمية، كالفرق بين اللغة واللسان مثلاً... وسرعان ما تسلّلت اللسانيّات إلى المعارف الإنسانية، فبدأنا نسمع باللسانيّات الاقتصادية، أو اللسانيّات الثقافية، ثمّ اللسانيّات أو علم الاجتماع اللغويّ، وقد تكون هذه اللسانيّات الاجتماعية مدخلاً صائباً لمقاربة الخطاب السياسيّ.

تثير استعمالية اللغة وطرائق توظيفها في الميادين الحياتية المعيشة مشاكل قديمة؛ ولكنّها تتجدّد على الدوام، ولا سيّما في خضمّ الخطاب السياسيّ، وهذا ما يتبيّن في نقاشات الفلاسفة وعلماء الثقافة والاجتماع السياسيّ. تعود هذه السّجلات إلى عصور قديمة جداً، ولا سيّما في وقت درجت فيه مصطلحات «السّفسطة»، أو فرقة «السّفسطائيون»¹، إذ بدا لدى «أرسطو» و«أفلاطون» وغيرهما تنظير حيال هذا الموضوع، وخصوصاً عند الحاجة إلى ربط اللغة بالواقع أو المنطق لغرض نفعيّ. شهدت هذه السّجلات تطوّراً في دراسات الوعي اللغويّ، أو ارتباط اللغة بالفكر، كما ورد في أبحاث «ديكارت»، ثمّ تطوّرت لتناول ارتباطات اللغة بالمجتمع، ومعالجة إشكالية أيّ أثر تتركه اللغة في البيئة المجتمعية التي تتناولها؛ ولكن لم تشهد هذه التنظيرات اكتمالاً إلا على يد «سابير»² وتنظيراته فيما يخصّ نظام اللغة الاجتماعيّ، أو علم اللغة الاجتماعيّ. وكحصيلة لهذه

1 - السّفسطائي (باليونانية: σοφιστής) صفة نبعت من مصطلح كلمة سفسة، وهم كانوا نوعاً محدداً من المعلمين في اليونان القديمة، في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد. تخصص العديد من السّفسطائيين باستخدام أدوات الفلسفة والبلاغة...

2 - يعتبر عالم اللسانيّات اللغوي الأمريكي إدوارد سابير الذي عاش في الفترة بين (26 كانون الثاني 1884 - 4 شباط 1939) أحد أهم الشخصيات في التطور المبكر لعلم اللغويات.

الجهود، بات الخطاب اللغويّ صفة ممنوحة إلى كلّ حالة تلقّية تشتغل في مجتمعها، أي تصبح ممارسة اجتماعية.

قامت نظرة اللسانيّات بالأصل على تحويل اللّغة خطاباً اجتماعياً؛ والمقصود بالخطاب الاجتماعيّ أن تغدو اللّغة فاعلة بحسب ممارستها في المجتمع: «اللّغة جزء من المجتمع... ويعني ثانياً أنّ اللّغة صيرورة اجتماعية. وثالثاً أنّ اللّغة صيرورة مشروطة اجتماعياً، أي مشروطة بالجوانب غير اللغوية من المجتمع»¹. على هذا النسق انبثقت تنظيرات تحاول ربط الخطاب اللغويّ بميادين حياتية؛ بما يعدو اللّغة لأجل اللّغة، أو الخطاب الأدبيّ المتخصّص؛ بل تنتقل الأمور لمجاورة معالم أخرى: مثل الميدان الاجتماعيّ، أو الثقافيّ، أو الدينيّ، أو السياسيّ... هذه خطابات زاخرة باللّغة الوظيفية المتخصّصة، إذ إنّ طبيعتها اللغوية تحدّد هويّتها وتبيّن خصائصها، والاعتماد في هذا البحث ينصبّ على «ميشيل فوكو» ورؤيته للخطاب وكيفية توظيفه في المجتمع من بوابة السياسة ولغتها التأثيرية، ومقاربة أثر الإمام علي (ع) في ضوء هذه المعايير التقعيدية للخطاب.

لا بأس من مدخّل تاريخيّ - حضاريّ لقضية الخطاب السياسيّ، ولعلّ هذا النوع من الخطابات النفعيّة اللغوية قد انضوى في بداية الأمر إلى مصطلح «الفسفطة»، والفسفطانية نهج انتهجته فرقة من الناس بعد أن تلقّفت سلطة اللّغة والخطاب في التلاعب بالعقول وتغيير النفوس، خصوصاً عند استخدام أساليب اللّغة التّمويهية، من إغراء وتحذير وتجييش وتلغيز، وصولاً إلى خطاب المغالطات اللغوية، إذ يسهل على السفسطائيّ الماهر إيقاع خصمه في المغالطة اللغوية. هذه المفارقات جعلت من اللّغة مسألة إشكالية، إشكاليّتها تقع من حيث خطورتها التي تتبدّى في قوّة الأثر، على أنّ لهذه القوّة أشكالاً مختلفة، فقد تكون من اللّغة ذاتها، أي بحدّ إمكانيات الشخص (المخاطب) ومعارفه أو مهاراته اللغوية، وقد تكون مدفوعة بسلطة لنصّ رديف كالنصّ الدينيّ أو الثقافيّ أو العقائديّ الأيديولوجي، بما يدخل في صميم اعتبارات الناس، في خضمّ هذا الصراع تتسلّل آراء «ميشيل فوكو» حول جدليّة القوّة الخطابية التأثيرية، ولا سيّما لعبة

1 - فيركلو، نورمان، الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية، ترجمة رشاد عبد القادر، في، الكرمل، مجلة فصلية ثقافية، تصدر عن مؤسسة الكرمل الثقافية، العدد 64 صيف 2000 - ص 155.

التناظر السياسي، واللغة المستنمّرة في هذا النوع من الخطاب: «وعلى هذا النحو لا يبقى الخطاب، كما اعتقد الموقف التفسيري، كنزاً مليوناً لا ينفذ... بل إنه سيغدو ثروة متناهية، ومحدودة ومرغوبة ومفيدة لها قوانين ظهورها، وأيضاً شروط تملكها، واستثمارها. ثروة تطرح بالتالي، ما إن تظهر إلى الوجود... مسألة السّطة، ثروة هي بطبيعتها موضوع صراع، صراع سياسي»¹. يولّد هذا الرّأي الذي ينادي بجديّة اللّغة، ووجوديّة الخطاب، كمّاً من التساؤلات التأمليّة؛ لأنّ الأمر يعدو مسألة القول العاديّ، أو فنقل يرفعه إلى مستوى من الجديّة لأنّ: «ثقافتنا تنزع إلى تحويل نسبة متزايدة باستمرار، من أفعالنا الخطابية العادية، إلى أفعال خطابية جادة، وهو يرى في هذه النزعة التعبير عن إرادة في الحقيقة، تستمر في التوطّد والتجذّر وفي فرض نفسها أكثر فأكثر»². على ما يبدو أنّ «فوكو» أقرّ بوجود القوّة الخطابية من خلال توق الإنسان المستمرّ نحو الوجود، وأنّ يضيف بصمته المميّزة على المسائل من حوله، وهذا التّوق هو الذي يجعل لخطاباتها سلطة مستلّة من نظام الخطاب أصلاً. يبيّن فوكو نظريته على أسس معرفيّة- لغويّة ترافق هوامش القوّة السلطويّة، ومن آرائه ما لاحظته حول قيمة الخطاب في رفع ترقية السّطة أو تسفيلها: «ففي الخطاب بالذات، هو ربط السّطة بالمعرفة. نحن هنا إزاء زوجين من المفاهيم لا ينفك أحدهما عن الآخر، كما بينت تحليلات فوكو لكيفية تشكل السّطة في المجتمع الحديث. فعلم الإنسان في مجالات النفس والاجتماع والاناسة، لم تنشأ في عقول صافية يحركها شغف المعرفة لا غير، وإنما هي نشأت واصبحت ممكنة مع تشكل المجتمع الانضباطي والعصر الصناعي: إنتاج معرفة حول البشر، أفراداً وجماعات، لإخضاعهم وتطويعهم. وهكذا لكل سلطة معرفتها، كما لكل حقيقة سياستها»³. على هذا النّحو يمكن إفراد هذه النّقاط الآتية وصولاً إلى تبنّي آليات تسعفنا، في ضوء نظريّة فوكو، على تحليل خطاب الإمام علي(ع).

1 Foucault, Michel : L'archéologie du savoir.- Paris, Ed. Gallimard, 1969.- p. 156.

2 - ورايينوف، دريفوس؛ فوكو، ميشيل : مسيرة فلسفية.- ترجمة جورج ابي صالح،مراجعة، مطاع صفدي،مركز الانماء القومي، (ب-ت).- ص.47.

3 - فوكو،ميشيل، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص: 5.

- لغة السياسة وتشابك موضوعات الخطاب الوظيفي

تحكم السياسة الخطاب بمجالات لغوية متفرعة ومتشعبة وشديدة التعقيد والانتقائية، فالأفكار كثرة، والموضوعات قد تتداخل في أطرها المعرفية، ومعلوم أنّ الخطاب السياسي يؤسس حركة انتقالية بين الحاضر وما سبقه، والواقع وما سيأتي حيال ظروف الناس وواقعهم، فالأجدى بالخطيب السياسي أن يتميز بصفة النقد والمراجعة الإحصائية والشاملة، ثمّ يلحقها ببناء جديد على أعقاب نقده. ومن الممكن حصر هذه الجوانب النقدية في الجدول الآتي:

عزل الخطاب من معيارية تصنيفه في الحقول التخصصية.	تغيير التصنيف المعياري للمسائل المعيشة.	حدّ الخطاب أو مفضياته الجوهرية.
تصنّفت الخطابات بردها إلى تاريخ المنشأ، فأصبح كلّ محفل علمي يرتبط بما يوازيه من حقول المعرفة، ولكن بناء على التاريخ الذي يخصّص كلّ حقول معرفي خطابي على حدة.	قام الخطاب التقليدي على تناقضات من حيث شكليات قضايا المجتمع: كالأصالة والمعاصرة، والتقليد والتجديد، والمعيارية والإبداع...	كان الخطاب منفتحاً، ولا سيما في الحقل التاريخي، وهذا ما كان يسقطه في صراع التأويلات والتأصيلات.
هذا الوضع تعرّض إلى تعديل، واستعريض عن التصنيفات المعيارية بتحليلات تبحث في تكوينات الخطاب وتحليله وتكوّنه؛ أي باحترام تحولاته بحكم حقوله المعرفية المتعلقة.	في رؤية «فوكو» اعتمد مبدأ التحليل والمقاربة عوضاً من المقارنة، وهذا ما يؤدي إلى الإفادة النفعية التي تبني منهجية الخطاب الوظيفية.	بناء على مقترحات «فوكو»، تغدو الأمور أكثر تحديداً ومنهجية، وتبلغ فيه النتائج مجالاً من الاستنتاجات التوافقية.

تؤدّي هذه المنبنيات إلى تغيير جذريّ يصيب الطروحات التحليلية التي كانت تسمّ الخطاب، واحكمه في أطر تحليلية مقيدة، فالخطاب غير المستقلّ لا يحظى باستقلالية؛ لأنّ قوته في استقلاليته، فالأصل في الخطاب السياسي: «أنّه لا يتعامل مع وقائع التاريخ وأحداثه، بعقل سحري غيبي أو لاهوتي متعال، وإنما حاول إرجاع الامور إلى نصابها. ذلك أن ما يوجد في النهاية هو الحاضر. أما الماضي بوتائفه ومخطوطاته

وخطاباته، فهو يشكل جزءًا من بنية الحاضر والواقع الراهن.¹

يدلّ الجانب الأوّل من نظريّة فوكو على نوع من النّقد الذي وجّهه إلى الممارسة الخطابية، من حيث تجهيزها، وكان له في الجانب الثّاني حدّ الممارسة والتحليل، وكيفية تمايز الخطاب السّياسيّ من غيره، ويبدو ملحوظًا في تاريخ الحضارات أنّ الخطابات كانت تأتي على نسق توظيفات رمزيّة للوسم الحضاريّ، فقرن امتازت خطاباته بالصبغة الفلسفيّة، وآخر هيمنت عليه الحالة الطّبيّة، وكذا بالنّسبة إلى الحالة الدّينيّة، ثمّ حالة الدّين السّياسيّ، وهذا ما نحن في صدد مقارنته في بحثنا هذه. على أنّ هذه الخطابات بقيت مرتبطة حكمًا بما يتداخل فيها من أسباب الحضارة الأخرى؛ كدخول الدّين في العلم، مثل الذي حصل في أوروبا إبان الفلسفة الدّينيّة، وكذلك اضطرار الدّين أن يكون مكوّنًا في السّياسة كما حصل في الحضارة الإسلاميّة.

الخطاب السّياسيّ خطاب تنظيميّ، تعتمد الأمم بغرض تحسين شروط الحياة والقطاعات كافّة، ومن هذا المنطلق كان للخطاب السّياسيّ أن يحظى بشرعيتّه، وكان له ان يستمدّ قوّته من استقلاليتّه في منح حياة الناس التنظيم والقانون، ومن هذا القبيل مثلاً يتمكّن الخطاب السّياسيّ من توظيف الدّين ومهامّه بين الناس، بين أمور اقتصاديّة ماليّة، وأخرى اجتماعيّة، ثمّ في الإفتاء، وفي القتال والسّياسة...

مثل هذه الأنماط التحليليّة تفتح المجال أمام الخطاب السّياسيّ لفهم جزئيّات الموضوع، وأفكاره المتشعبّة، والوقوف على أبرز ارتباطاته، إذ تتوظّف هذه الارتباطات لتشي طبيعة الخطاب الدّينيّ، وما أُرْفِق فيه من مهمات؛ أي تلك المنوطة به لإظهارها وإبرازها في المجتمع، تتعيّن أوضاع الخطاب وكيفيّاته في هذا المجال «Positivité des discours» بمعنى أن يغدو الخطاب ذا قيمة تموضعيّة.

هذه الطروحات التي أمّنها «فوكو» في نظرتّه إلى الخطاب قد أسعفت المقام الإجرائيّ للخطاب السّياسيّ، على الأقلّ تمكّن الرجل من إحداث ميزة الفرق، أي إنّه خطاب يُحدّث فرقًا في مجتمعه، وعلى أساس قانون التواصل، لا مجال لحياة اللسان إلى في

1- فوكو، ميشيل، تاريخ الجنسانية: إدارة المعرفة، ترجمة: سلمان حرفوش، دار التنوير، بيروت، ط1، 2017، ص: 16.

السوسيولسانيات «Sociolinguistiques» كتوظيف المصطلح الدينيّ مثلاً في أمرٍ مخصّص كالشأن السياسيّ.

يترصدّ المجتمع للخطاب بناءً على الكلام آنف الذكر، وتتعدّل مفاهيم «السلطة الخطابية»، لتصبح مكوّناً للنظام الخطابيّ برمّته؛ لأنّ الخطاب سيّجّه نحو التوظيف الرقابيّ، وسيصبح مادّة دسمة لسجلات الناس وتوظيفاتها، وتتبنّق إشكاليّة مفادها كفيّة استثمار السلّطة لقوّة الخطاب: أتراها تفيد منه لتطويع الرأي إليها واستمالة الناس للإيمان بمندرجاته؟ أم أنّ الخطاب السياسيّ يشكّل سلطة قائمة بذاتها بمعزل عن أيّ توظيفات نفعيّة أخرى؟ لا جرم في أنّ الأمر يتّجه نحو طبيعة الخطاب ومناسبته، وكذلك ينظر في شخص من يتصدّى للخطاب ومكانته، علاوة على إمكانيّاته اللّغويّة. على هذا الأساس كان التمايز وتعديل النظر إلى مسألة سلطة الخطاب السياسيّ.

- الخطاب والسلّطة بين حدّين: خطاب سياسيّ للناس أم عليهم؟

لطالما شكّل خطاب السياسيّ في نظام اللّغويّ مادّة تثير ريبة الناس ومخاوفها، فالناس تهاب السلّطة، فخطاب السياسة محتشد بملفوظات لغويّة محيرة، قد نُظمت على تصرف عال: «ومن خلال النظر إلى التفرد الوهمي للسلطة، فوكو كان قادراً أيضاً على تصورها موضوعاً ضد نفسها. وقد استطاع أن يفترض وبالتالي أن يدرس إمكانيّة أن السلّطة لا تفترض دائماً شكلاً واحداً فقط وأنه في ظل ذلك، يمكن أن تتعايش مع شكل معين من أشكال السلّطة جنباً إلى جنب مع أشكال أخرى من السلّطة أو حتى أن تتعارض معها. ومثل هذا التعايش والتعارض، بطبيعة الحال، ليست مجرد مغامرات متضاربة، بل هي نوع من الأشياء التي يحتاج المرء إلى تحليلها تجريبياً من أجل فهمها»¹.

للخطاب حيثيّة وفاعليّة داخل المجتمع، فكيف إذا كان خطاباً سياسياً يوظف الحوادث والمجريات، ويحاول تشغيل المجريات ضمن إجراءات لغويّة لصالحه، فتتبنّق معالجم الريح والخسارة، والتحرّر والعبوديّة، والإيمان والكفران، والجهل واليقين، والوفاء والنكث والغدر بالمواثيق، وما تعارفت عليه الأمة في لحظة تاريخيّة. مثل هذه الأمور كانت في بال الإمام علي (ع) إبان تصدّيه لمواضع السياسة في خطابه، خطاب يجمع بين

1 - فوكو، ميشيل، تأويل الذات، ترجمة: الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2011، ص: 201.

الدِّين والبلاغة وزهد السِّياسة، فيميل خطابه للناس، إزاء ميلان خطاب سواه نحو السُّلطة والحكم. إنّ المجتمع هو رقيب الخطاب السِّياسيِّ، ولطالما خوِّفت السُّلطة الناس إذا تمادت ويطشت؛ وفي المقابل أراحهم الخطاب السِّياسيِّ المتّزن الإيمانيِّ.

عندما يعمد خطيب سياسيِّ إلى الإدلاء بملفوظاته، يكون في باله هاجس الناس التي ترغب في الحدّ من مقدّرات السُّلطة عليها، فالخطاب ها هنا يراعي المقامات الموازية لإنتاجه في سلطته، هذه الإجراءات الوظيفيَّة تتدرج على النحو الآتي:

• محيطات الخطاب: اعتبارات خارجيَّة

تكون هذه المحيطات قريبة من ردود فعل الناس حيال الخطاب، مثل: المحظور والمكبوت المحرّم، والفرق بين التّعقل واللاعقل - خطاب البدع، وميزان العدل: بين الحقّ والباطل.

المحظور والمكبوت المحرّم: غالباً ما تتكاثر التابوهات في المجتمعات الشرقيَّة والإسلاميَّة، وهذا طبيعيٌّ بحكم العادات والتقاليد والقيود، وكذلك سلطة النصوص الدنييَّة، كالتمرّد على القرآن الكريم مثلاً وتعاليمه، أو مخالفة إرادة الرسول الأكرم (ص) ... وعليه فإنّ من يتصدّى في خطابه لهكذا موضوعات، لا سكّ أنّه ذو مكانة أو قوّة ليستقطب هذا اللون من اللّغة المحرّمة. وعلى هذا الأساس يكون «الخطاب شكلاً من أشكال المراقبة والضبط، إذ يعملان ببراعة ولا يضربان الموضوع الذي يتم توجيهه كما تفعل السيادة. يعمل مبدأ المراقبة والضبط بمهارة أكثر بل وبرعاية دقيقة حتى، حتى تضمن طاعة الناس»¹.

الفرق بين التّعقل واللاعقل - خطاب البدع: قد تغطي خطابات البدع والافتراءات والتأفيقات على الخطاب السِّياسيِّ، وهذا منطقيٌّ بحكم الرغبة الاستحواديَّة على العباد، فننسج توقّعات، ونؤلّف روايات، وننسبُ أحاديث... قد لا يقبلها العقل، وتحدث موازنة عندئذ لقياس الخطاب التّعقليِّ من الخطاب البدعيِّ.

1 - فوكو، ميشيل، دروس ميشل فوكو، ترجمة: محمد ميلاد، دار توبقال، المغرب، ط1، ص: 1988، ص: 29.

ميزان العدل: بين الحقّ والباطل: عندما يتقاطع عنصران على هدف واحد، تسود معادلة حاجيّة بين الطرفين، إذ يحشد كلّ طرف حجاجه زاعماً أنّ الحقّ معه والباطل سمة الخصم. في هذه المرحلة الخطابيّة تبدو قوّة الحقيقة؛ أي الثابت المتفق عليه في الدين مثلاً، محطّ أنظار الجمهور ومكمن القوّة؛ لأنّ العدل في الحقّ ولكلمته ومناصرتة، وهذا ثابت في تكوين الخطاب وتشكيل سلطته السياسيّة.

• كينونة الخطاب الداخليّة

من المنطقيّ أن تتحدّد إجراءات لمقاربة الخطاب داخليّاً بعد إنضاج إجراءاته الخارجيّة، وهكذا يُستكملّ البنيان النظريّ، وهكذا جعل فوكو إجراءات داخليّة للخطاب، كي تنظر في مضامينه اللغويّة من داخله، وهي: «إجراءات تعمل بالأحرى على شكل مبادئ للتصنيف والتنظيم والتوزيع، كما لو أن الأمر يتعلّق هذه المرة بالتحكّم في بعد آخر من أبعاد الخطاب: بعد الحدث والصدفة»¹. ومن الممكن تحديدها على الشكل الآتي:

مبدأ التناص التعلقيّ: إنّ الحضارات الإنسانيّة تتبني على تراكمات من الثقافات، هذه الثقافات تتشكّل في ملفوظات لغويّة تتوظّف لتتناسل فيما بينها داخل كلّ نصّ جديد. والخطاب السياسيّ يعيد إنتاج التاريخ وقراءته بما يتناسب مع الحالة الحضاريّة التي يريد الحديث عنها، وفي هذا الصدد يُستحضّر الخطاب التأويليّ، على أساس أنّ أصول التعلّق تشكّل معبراً رمزيّاً، ليس بالضرورة أن يكون منطوقاً، على أن يصار إلى التصريح عنه وإيضاح مفاهيمه بعد فترة يسيرة من نضوج الخطاب. مثل هذا التفكير يتيح للخطاب تجلّيه بحسبانه حدثاً.

مُلقي الخطاب/ صاحب سلطة القول: من المعلوم أنّ الخطاب يحتاج إلى منتج، هذا المنتج له شخصيّة وتاريخه؛ بيد أنّ الأولويّة ستنتصبّ نحو طبيعة الخطاب بمعزل عن ملفّقه. وعلى الرغم من ثقل الاسم عند إلقاء الخطاب، إلّا أنّ الواقع يثبت ما للخطاب السياسيّ من إمكانيات قد تُفرغ الشخص من كيانه بحسبان طبيعة لغة الخطاب، وردّة فعل الأطراف الخارجيّة حياله. «اللحظة القوية للفردنة في تاريخ الفكر والمعارف

1 - فوكو، ميشيل، دروس ميشل فوكو، م س، ص: 31.

والآداب، وفي تاريخ الفلسفة وتاريخ العلوم»¹. وهذا ما يُفسّر طغيان بعض الخطابات في تاريخنا الإسلامي على أخرى، وذلك بمعزل عن صاحب القول، والمتأمل في الحالة الخطابية للإمام علي (ع)، يُدرك بعد فترة وجيزة من التحليل غلبة الخصوم على أرض الميدان الواقعي، ليس بالضرورة أن تكون لغة خطاباتهم أرقصن، أو شخصهم أرفع وأرقى؛ لكنهم خاطبوا الخارج بلغة الدنيا وديمومة النعم، وهذا ما يُفسّر قانون اندثار سلطة صاحب القول أحياناً مقابل طبيعة الخطاب اللغوية. من جملة تطورات الحالة الخطابية أنها باتت نفعية اجتماعية، والخطبة التي سنراها في الشقّ التحليلي تثبت بوضوح صحة هذه الفرضية.

هكذا تتقمص اللغة الفرد، وتصبح موجّهة لشخصيته، وليس من العسير على فرد أن ينسب قول إلى (فلان) من الناس بحكم اللغة التي يتلمسها في المدونة التي تُلقى أمامه: «فاللغة هي التي تتكلم وليس المؤلف، أن أكتب معناه أن أبلغ، عن طريق محور أولي شخصي... تلك النقطة التي لا تعمل فيها إلا اللغة، وليس «أنا»². تتجلى ثقافة اللسانيات الخطابية في هذا الكلام، وتتبدى طروحات البنيوية وأخواتها من التنظيرات التي أعانت في إبراز نظريّة جديدة للخطاب.

قضية الخطاب ومعياريّة ارتباطاته: من الإجراءات الكابحة للخطاب السياسي، على الأقل أمام الجهاز الرقابي الخارجي، فالخطاب الذي يُنتج في بيئة ما يحمل معالم هذه البيئة، ويتوافق نسبياً مع وضعها الحضاري، وإن لم يحظّ الخطاب بهذه المزية يفقد وزنه الاجتماعيّ أمام الناس. فلغة الخطاب السياسي «يتعين عليها أن تسجّل نفسها ضمن أفق نظريّ معيّن... وأن تستجيب لمتطلبات معقدة وثقيلة حتى تستطيع أن تنتمي إلى مجموع فرع معرفي ما، يتعين عليها أن تكون -و كما يقول كانغيليم- واقعة (ضمن الحقيقي)، قبل أن يستطيع القول بأنها حقيقية أو خاطئة»³. وهذا أصل وجودي للخطاب.

1 - فوكو، ميشيل : ما المؤلف ؟- ترجمة فريق الترجمة بمجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 6-7، 1980. - ص. 116.

2 - بارت، رولان. : موت المؤلف في درس السميولوجيا.- ترجمة عبد السلام بنعبد العال، تقديم عبد الفتاح كيليطو.- الدار البيضاء، المغرب، دار توفيق للنشر، ط02، 1986.- ص. 82.

3 - Foucault, Michel : L'ordre du discours.- Op.cité.- p. 32.

يبحث الخطاب السياسي عن الحقائق ليضغط فيها على الرأي العام، فهذا المجتمع تَوَاق إلى تلمس الحقائق ثم بناء المعارف، فكيف إذا كانت هذه المعارف دينية؟ أي تنتمي إلى أمر حساس في حالة اللاوعي؟ هذه المسألة تدخل في صميم السلطة الخطابية، كما تحتاج إلى متلقين من أفرع ثقافية - معرفية مختلفة للبت في صوابيتها المعرفية. «الفرع المعرفي مبدأ لمراقبة عملية إنتاج الخطاب، فهو يعين له حدوداً بواسطة لعبة هوية تأخذ شكل بعث دائم للقواعد»¹. المسألة في خطاب الهويات إذاً، وهو من الخطابات المعقدة والدقيقة، وخصوصاً في خطابات الحضارة الإسلامية.

لم ينسَ «فوكو» ملاحظة البعد الإجرائي للخطاب، أي طريقة تنفيذه وإلقائه، ومن هذا المنطلق أثبت إجراءات تشغيلية وظيفية للخطاب نجملها في النقطة الآتية.

• وظيفية الخطاب وإجراءاته التشغيلية

هي اشتغالات تبدو في داخل الخطاب، وكذا فإنها على صلة بمؤلفه، من دون إغفال جوه أو بيئته التي يُلقى فيها؛ ولكن هذا الاعتبار لا يعني استعادة الخطيب لمكانته أو سلطته المطلقة؛ «على الرغم من ادعاءاته بالوجود المطلق للسلطة و الصراع، رفض فوكو النقد الذي يختصر كل شيء بالقوة. في الواقع علاقات السلطة لا يمكن بأي حال أن تشرح جميع الظواهر التاريخية؛ السلطة ليست مبدأً نهائيّ تعليليّ، لأن بقية القوى (من ضمنها القوى الاقتصادية) أسهمت في تشكيل التاريخ أيضاً، وفي بعض الحالات، علاقات السلطة لا تكون حاسمة. والأكثر من ذلك، أنّ القوة ليست كلية النفوذ. بل بالعكس: ناقش فوكو بأنّ توظيف العديد من علاقات السلطة، العديد من أنظمة التحكم، والأشكال العديدة للمراقبة» توضح فقط ماهية القوة الضعيفة. لقد أنكر أيضاً بأنّ الأشكال السائدة للسلطة تحدّد الأفراد بشكل كامل. وبما أنّ مثل هذه القوى تحدد بشكل انتقائي قدرات معينة، تسوقها وتجبرها، بينما تتجاهل البقية، فمن الممكن أن يستمتع الأفراد بهامش أكبر أو أقل من المناورة فيما يتعلق بهم. في الحقيقة لقد قال فوكو أنه كان مصعوقاً بأن يجد بعض الفراء بكتاباتهِ التأكيد على الحتمية التي لا يمكن للفرد الهروب

1 - Ibid. - p. 33.

منها.¹ تُرصد لهذه التوظيفات آليات وإجراءات تأتي على النحو الآتي:

الخطاب المغلق: المؤسسة الخطابية «Sociétés de discours» ليس خافيًا أنّ بعضًا من الخطابات السياسية تكون حساسة، ولا سيّما عند ارتباطها بشأن ديني، هذا الأمر يعزّز من فرص انغلاقيتها؛ أي تصبح مقيدة وممنوعة من التداول المطلق، يختصّ بهذا النوع من الاشتغال الخطابّي ما يدخل في صميم المقاربات القرآنية، ومصادر الأحاديث، وكذا بالنسبة إلى الروايات. وهذا معلم موجود في التطبيق لاحقًا.

الانتماء السياسي والنهج الديني «Doctrines PH,R ,P» يُعنى الخطاب السياسي بتأمين انتشاريته وتفشيّه بين الأوساط، وخصوصًا إذا كان مدفوعًا بالثقل الديني، عندئذ يأتي هذا الخطاب مدعومًا بزخم الحقائق الدينية والمعرفية. تشهد الساحة الخطابية عندئذ نزاعًا بين ما هو حقيقي وهو ينتمي إلى البدع؛ لأنّ هذا النوع من الخطابات يشتغل بغرض تأثيري استقطابي، والهدف استمالة أكبر قدر ممكن من الشرائح للإيمان بجدوى المذهب وطروحاته.

خطابات التنشئة والقبولة: الملكة الخطابية «L'Appropriation Sociale des discours» هي حالة من الأدلجة التي تعتمد بعض الأنظمة إلى تربية الأجيال الصاعدة على نسقها، والخطاب لا يخلو من محاولات الأدلجة بغضّ النظر عن فرعه المعرفي أو موضوعه، يرتبط الخطاب في هذه الحالة بما يتبنّاه النظام، أو تنتهجه السلطة من معطيات ثقافية وأيديولوجية واستراتيجيات تبني الحكم على أساسها. وعليه فإنّ مفهوم الخطاب يُتداول بقدر ما يتوافق مع الاستراتيجية العليا للنظام أو السلطة، وهكذا يتحدّد من حيث القوة أو عدمها. تفضي هذه النظرة الداخلية المُعدّدة إلى قرارات يتصرّف بها الفرد إزاء سطوة الخطاب، وقد حدّدها «فوكو» على النسق الآتي: «اتخاذ قرارات ثلاثة يقاومها فكرنا اليومي، وهي تقابل المجموعات الثلاث من الوظائف التي ذكرتها منذ لحظة: إعادة النظر في إرادتنا للحقيقة، إعادة طابع الحدث للخطاب، وأخيرًا رفع سيادة الدال»². تخلص نظرية «فوكو» إلى مبادئ التحرّر الخطابّي المندرجة على النسق الآتي:

1 - فوكو، نظام الخطاب، م س، ص: 9.
2 - فوكو، نظام الخطاب، م س، ص: 14.

قانون العزل: Renversement / أي تحرّر الخطاب وعزله عن مؤلّفه؛ بمعنى النظر إلى الخطاب كحيزٍ تداوليٍّ بمعزلٍ عن رأي صاحبه الشخصيّ.

قانون التحرّر من ثقل المادّة التاريخيّة: Discontinuité محاولة الوصول إلى أكثر النقاط تقاطعًا بين الواقع والتاريخ، والمستقبل، أي الهامش التداوليّ بصرف النظر عن حتميّة التحجّر في اللحظة التاريخيّة للخطاب السّياسيّ.

قانون حدّ الموضوع/ الهامش التخصّصيّ: Spécificité القصد فيه أن ينادى سياق الخطاب عن دلالات موسّعة قد تُشكّلت المتلقّي، وتدخّله في نزاع التّأويلات المتشعّبة، والاكتفاء بخطاب مخصّص موضوعًا وضمونًا وأفكارًا¹.

نستنتج من كلامنا على نظريّة «فوكو» حول السّلطة الخطابيّة، والخطاب السّياسيّ، أنّ الخطابات غير مُلزّمة بأن تكون تعبيرًا عن رأي السّلطة كأنّها أداة لها وحسب، وليس شرطًا أن تكون منعكسة فيها كالمرآة، هناك تفضلات معرفيّة ذاتيّة تنبني على الحقائق ينبغي ان تسود الدراسة التحليليّة لأيّ خطاب، وهكذا تُعزّل مفاهيم الموافقة والمعارضة المسبّقة، ويحصل الاستماع العلميّ البناء لتحديد وجهات النظر وردود الأفعال تجاه الخطاب. فالخطاب كمّ من المعارف المتناسلة فيما بينها، وثمّة إجراءات تعين في تحديده الوسوميّ. إنّ معايير الجديّة لم تعد تكفي لوحدها من أجل تحديد القيم الخطابيّة، أو أن يكون للخطاب سلطة بموجب جديّته، وأنّ الذي ينقّوه به رجلاً عاقلاً أو ذا مكانة، وما هو بمجنون؛ فالخطاب بداخله وما يحتويه سلطة بالأصل، له لغة وأساليب ودلائل وحجج، على المحلّل أن يراعي المقدرة والقوّة المبتوثة بحدّ هذه الإجراءات للتمييز بين خطاب وآخر. ولعلّ هاتين النقطتين تشكّلان مفضيات أو تخريجات مناسبة للخلوص من نظريّة «فوكو»، والدخول في الحيز التّطبيقيّ:

❖ لا فضل لمؤلّف الخطاب، ولا لمؤسّسة الخطاب، ولا لمناسبة الخطاب؛ بل حتّى ليس من فضل لبناء الخطاب النحويّ، لكنّ العبرة في الممارسة الخطابيّة. هذه الممارسات هي التّس تمنح الخطاب سلطته ونظامه، بحكم الاستنتاج الذي تضيفه بين السبب والنتيجة، علاوة على لحظ الفوارق بين الأداء ونصّ القول اللّغويّ.

1 – Foucault, Michel : L'ordre du discours.- Op.cité.- p 61.

❖ لقد قدّمت نظريّة «فوكو الخطابية معالماً واضحة في كيفية تشكّل سلطة الخطاب ونظامه، فالخطاب الذي يحاول التغيير الفاعل في مجتمعه، والذي يدخل في خضمّ التمزّهبات، ويفضي بالمرء إلى مطاردة الحقيقة، هو النّظام الذي يُشغّل الخطاب إجمالاً. «ولتحرير الخطابات من كل أصناف التّأويلات والتحليلات الشكلية يقترح فوكو جملة من المبادئ، كالخصوصية والقطيعة والخارجية... إلخ، أي أن الخطاب مشروط بالصيرورة الاجتماعية ويشكل جزءاً من المجتمع رغم ما يتميز به من قدرة وإمكانات»¹.

على هذه الأسس يُقدّم الشقّ التّنظيريّ آليات وإجراءات تُيسّر الدخول في الهامش التّطبيقيّ، وفي جوّ من الموازنة المعرفيّة بين نظريّة «فوكو»، وطبيعة خطاب الإمام علي (ع)، ثمّة تقاطعات بين الأمرين، إذ إنّ إجراءات «فوكو» في النظر إلى سلطة الخطاب، والخطاب السّياسيّ، قد يجد لها المتأمل مواضع واضحة في ما هو موجود لدى الإمام علي (ع) وخطابه الوظيفيّ الاشتغاليّ في المجتمع، بما هو أبعد من مفهوم السّلطة وتوظيفها لقوّة الشخص؛ بل لقوّة الخطاب بحكم ما فيه وما يحويه، سواء من لغته أو مضامينه وحججه وأسلبته.

ثانياً: الحيز التّطبيقيّ

وقع الاختيار في هذا الهامش التّحليليّ على خطبة من خطب الإمام علي (ع) السّياسيّة، فهي من الخطب التي أدلى بها إبّان معركة «صفين»² الشهيرة، وقد سمها المحقّقون بعنوان مناسبته؛ أي بالعودة إلى أسباب إلقائها، لتصبح موسومة بـ«خطبة بعد انصرافه من صفين»³، واللافت في الخطبة أنّها تتمحور في محاور ثلاثة، بحسب ما ذكر المحقّقون إبّان وسمهم الخطبة، والمحاور تأتي على النحو الآتي:

1 - الزواوي بغوره، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2000، ص: 45 وصاعداً..

2 - موقعة صفين هي معركة وقعت في منطقة تُعرف حالياً بالحدود السورية العراقية بين جيش الإمام علي بن أبي طالب (ع) وجيش معاوية بن أبي سفيان في شهر صفر سنة 37 هـ؛ بعد موقعة الجمل بسنة تقريباً.

3 - ابن أبي طالب، عليّ، نهج البلاغة، جمع: الشريف الرضي محمد بن الحسين، تحقيق: محمد عبده وصبحي الصالح، دار الكتاب اللبنانيّة، بيروت، ط1، 1966، ص: 27-28.

- حال العرب قبل الإسلام؛ أي في الجاهلية.
- خصال أهل البيت (ع)، وفضائلهم ومكارمهم.
- أوضاع خصوم أهل البيت، وارتدادهم عن تعاليم الدين الحنيف.

وعلى هذا النسق تبدو الخطبة من عناوينها الرئيسية أنها تحمل في طياتها سلطة خطابية معينة، وفيها قضايا سجالية واضحة، وتؤسس إلى نواة خطابية مع مجتمعها على نحو تواصلية، إذ يحصل تقاطع أو تشابك على أمور تُعنى بها الفئات الاجتماعية، بين أنصار الإمام علي (ع) وخصومه. ومن هذا المنطلق يُطبَّق معيار الرقابة، ومبدأ إثارة انتباه الجهات الخارجية، أو عوامل الخطاب الخارجي، علاوة على مبادئ الحق والباطل، أي قانون المعاكسات، ثم أثر ذلك في لغة الخطاب المُقدَّم سياسياً، ولا سيما عند إثارة الأنا والآخر في الخطاب. وهذا نصّ الخطبة كاملاً.

ومن خطبة له بعد انصرافه من صفين: أحمدته استتماماً لنعمته، واستسلاماً لعزته، واستعصاماً من معصيته. وأستعينه فاقه إلى كفايته إنه لا يضلّ من هداه، ولا يئل¹ من عاداه، ولا يفترق من كفاه. فإنه أرجح ما وزن، وأفضل ما خزن. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة ممتحناً لإخلاصها، معتقداً مصاصها²، نتمسك بها أبداً ما أبقانا، ونذخرها لأهاويل ما يلقانا، فإنها عزيمة الإيمان، وفاتحة الإحسان ومرضاة الرحمن، ومدحرة الشيطان. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحةً للشبهات، واحتجاجاً بالبيّنات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلثات³. والناس في فتن انجذم⁴ فيها حبل الدين، وتزعزعت سوارى⁵ اليقين، واختلف النجر⁶، وتشتت الأمر، وضاق المخرج وعمي المصدر. فالهدى خامل والعمى شامل، عُصيَ الرحمن، ونُصِرَ الشيطان، وخُذِلَ الإيمان فانهارت دعائمه، وتنگرت معالمه، ودرست سبله،

1 - لا ينجو

2 - المصاص: خالص كل شيء.

3 - المثلثات: العقوبات.

4 - انقطع.

5 - السواري: جمع سارية، وهي الدعامة يدعم بها السقف.

6 - النجر: الطبع والأصل.

وعفت شركه¹. أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامه، وقام لوائه في فتن داستهم بأخفافها، ووطئتهم بأظلافها، وقامت على سناكبها². فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دار وشر جيران؛ نومهم سهود وكحلهم دموع، بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرم (ومنها؛ يعني آل النبي عليه الصلاة والسلام) موضع سره ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه وكهوف كتبه، وجبال دينه. بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه³.

(ومنها؛ يعني قوما آخرين) زرعوا الفجور، وسقوه الغرور، وحصدوا الثبور، لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدًا، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفئ الغالي⁴، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة. الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونُقِل إلى منتقله.

إنّ مناسبة هذه الخطبة تُسهم إلى حدّ بعيد في إيضاح معالم خطابيّتها، وكذلك في منح الخطاب أسبابه ومندرجاته التي أفضت إليه، وقد أوضح تحقيق الخطبة مناسبتها. وهي خطبة أدلى بها الإمام علي (ع) على شكل تصريحات وبوحيات تداولية وظيفية: والغرض من التصريحات بثّ نتيجة المعركة، فالحال أنّ الحرب قد وضعت أوزارها، وسيمضي كلّ طرف إلى حصنه، ولعلّ هذه النهاية غير المأمولة لمسار المعركة قد أزعجت الإمام (ع)، فكان أن بثّ هذه الخطبة وفيها من المراجعة الاستنتاجية لحالة الأمة عموماً ما فيخا. واللافت أنّ الخطبة نأت عن ذكر تفاصيل المعركة ونتيجة الحرب، حتّى ليظنّ متلقّيها أنّها مجافية واقع الأمور؛ لكنّ اطلاعاً على منبنيات الحالة التلقّظية اللغوية لهذا الخطاب، وبمراقبة آليات السّلطة الخطابية وأدبيات الخطاب السياسيّ بحسبان قيمه الالتزامية، وشرف القضية، بما هو أسمى من حالة الحرب، يميّط اللثام عن أنّ هذه الخطبة تتدرج ضمن إطار نظام الخطاب الحديث الذي لم يفت على الإمام (ع) التزامه

1 - طرائقه.

2 - من حوافر الخيل.

3 - الفرائص: جمع فريصة، وهي اللحمية بين الجنب والكتف ترعد عند الفزع.

4 - الباحث في بواطن الأشياء، والكاشف عن عللها، ولا سيما في مسائل التعلّب الدينيّ.

معاييرًا خطابية توحى بقربه من الناس وأجواء ما هو ميتا- خطابي، أي ما هو خارج الخطاب، كي يسبغه على اشتغالاته اللغوية في ما هو داخل الخطاب. على أن الإمام (ع) انتقل من القاعدة الدينية المحمدية الأصلية السامية، على قاعدة أن هذه الحرب كانت نزاعًا بين الدين المحمديّ الأصيل، وما يخالف هذا الدين من الهرطقات المذمومة، وعليه فإننا أمام خطاب سياسي - سلطويّ ينم عن رغبة تنظيمية للغة الخطاب الهادفة. تتصل الإجراءات التحليلية في هذا الصدد بما أرساه «فوكو» من إجراءات معينة، ونعتمد إلى ثلاثة مراحل في تحليلنا الخطاب، وهي على النسق الآتي:

- مراعاة القاعدة القبلية- أي الجماهيرية.

- تشغيلات الخطاب اللغوية.

- حالة المتلقي البعد خطبية- أي درجة التفاعل وطبيعته.

ننطلق من المرحلة الأولى كونها من المراحل التي تهيء جو الخطاب لاستقطاب الأسماع، أي مرحلة الاستنصات، نقول الاستنصات لأن الزمن الحضاري الذي كان سائدًا في تلك الآونة يحكم على صاحب الخطاب أن يثير انتباههم كي ينصتوا إلى قوله، وهذا من التنويهات الضرورية التي راعاها «فوكو» في نسجه نظام الخطاب. وأمّا عن مسألة مراعاة القاعدة الجماهيرية، أي «القبل- خطبية»، فمن الممكن تمييزها بخطاب المحظور المحرم؛ بما يعني أنه من الحرّم على الناس عدم التفاتهم إلى الخطاب إبان نطقه بها، وهي بمطلع الخطاب موسومة بالتلفّظات الآتية:

أحمده استتمامًا لنعمته، واستسلامًا لعزته، واستعصامًا من معصيته

وأستعيه فاقة إلى كفايته إنه لا يضلّ من هداه، ولا يئل من عاداه، ولا يفترق من كفاه.

مثل هذا الافتتاح الخطابيّ كفيّل بجذب أنظار الناس كي يلتفتوا إلى الخطاب الذي ورد على اسم الله عزّ وجلّ وصفاته، علاوة على ذكر التزامية صاحب الخطاب بالله عزّ وجلّ، أي بالصفات الإلهية الحميدة، وإقراره بالضعف أمام مقام الله عزّ وجلّ. ترافق

هذا الأداء الخطابيّ وفترة وجود الإمام علي (ع) في ولاية أمر المسلمين وقيادتهم، فإنّ معاني النعمة الإلهية، والعزة الربانية الكبرى، تُفضي إلى مسلمة الرضوخ والإقرار من جانب الناس، خصوم الإمام علي (ع) قبل أصحابه، ولو شئنا في التحليل أن نقول إنّ الإمام علي (ع) يراعي نقيضه قبل من يتوافق معه لأصنأ، ولعلّ قانون المحذور ينعكس على الإمام علي (ع)؛ لكنّه ليس بالضرورة أن ينعكس على خصومه. فالإمام (ع) يقرّ بعزة الله الجبار، ويعترف بنعمه عليه ويحمده، وهذا غير متوافر لدى أخصامه.

يُزاد على هذا الإقرار ما يمكن وسمه بالاستعانة الإلهية العليا. لا شك أنّ الإمام علي (ع) كان يطرح إشكالية القوة والكفاية والرأي الصائب أو السديد السليم، وقد قرن الإمام (ع) هذه المسائل مجتمعة في يد الباري عزّ وجلّ، وذلك ليُجرّج على خصومه ويحظر عليهم أن يفكروا بغير العزة الإلهية. وإن كبت هؤلاء الخصوم مسألة اغترارهم بقوتهم وصواب رأيهم بمعزل عن الله سبحانه وتعالى؛ فإنّ عليّاً (ع) قد ردّ الأمور إلى نصابها المستقيم أي إلى الله عزّ وجلّ؛ على الرغم من رغبات الآخرين التي دارت في فلك قوتهم الشخصية وتوظيفهم المفهوم الإلهي القويم لغير أغراضه المرصودة له.

أستعينه/ أهتدي به/ أكتفي به:

لا يكتفون بالله/ ضالّون/ يعادون الله.

مثل هذه التفاصيل يجيد الإمام (ع) توظيفها في مجالات التعريض والتلميح، وقد امتاز اللثام عن رغبات القوم الآخرين، وحاربهم من خلال بلاغة الخطاب الذي فضح كبتهم وحقيقة ما يرغبون، وذلك قبل تسميتهم، بمعنى أنّ الإمام (ع) يؤهّل خطابه وموضوعاته منذ افتتاحه.

يبدو في الخطبة استثماراً لمتعاكسات معنوية بين الإمام (ع) وخصومه، وباطّلاع على الخطبة ومضامينها، يتجلى بوضوح مبدأ المقارنة أو الفرق التعارضية (الالتزام والبدعة)، وبيّن الإمام (ع) منذ البداية التزاميته المطلقة بالله عزّ وجلّ، وألمح إلى استغناء الآخرين - الخصوم عن هذه الالتزامية ولوذهب إلى البدع التي ما عرفها الدين المحمديّ الأصيل يوماً. ويبدو هذا الأمر بوضوح من خلال الملفوظات الآتية:

ونَدَّخَرها لأهاويل ما يلقانا، فإنها عزيمة الإيمان، وفاتحة الإحسان ومرضاة الرحمن، ومدحرة الشيطان.

بعد التصريح بالشهادتين الإسلاميتين المُقَدَّستين، طرأ على الخطاب أسلوب من الإطناب اللغوي، كأنَّ الإمام علي (ع) يودُّ إيضاح معنى هاتين الشهادتين، وهذا ما يفضي بنا إلى تأويل لغوي يقوم على غموض في اصطلاحية الشهادتين عند الناس، ولا سيَّما خصوم الإمام (ع)، فقام بتخريجه اللغوي الإطنابي رغبةً منه في إيضاح معنى الشهادتين ومفصياتهما التداولية على أرض الواقع، فهي مُدَّخَر عند هول الأمور، ومنها يستمدَّ الإمام (ع) وحزبه عزيمتهم، ويسترضون باريهم، ويدحرون الشيطان عن نفوسهم؛ في مقابل أنَّ الخصوم يعاكسون ببدعهم هذه العوامل جميعاً؛ بل على العكس يلودون إلى بدع ما أنزل الله بها من سلطان، ولا عرفها دين الإسلام قبل ذلك:

إزاحةً للشبهات، واحتجاجاً بالبيِّنات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلات.

حشد الإمام علي (ع) كثيراً من ملفوظات البدع، وقد بدا ملحوظاً أنَّه يشتكى من الشبهات، وعدم الرضوخ إلى قانون الآيات وما أفضت به من تحذيرات للناس علَّهم يتَّعظون، وكذا فإنَّهم لا يخافون الله ربَّهم سبحانه وتعالى، على الرغم من أنَّ القرآن الكريم مكتنظٌ بالقصص والعبرات... إزاء هذا الموقف عمد الإمام (ع) إلى جعل الإيقاع منصوباً على الحالية، أي الحال المنسوب، وذلك تأكيداً للصفات وتنبئاً بإياها وإزاحة للشبهات ولخطابات البدع.

بالتوازي مع هذا التعميم الخطابي، تبرز ملفوظات الإجراء أو التصرف؛ أي ما يحاكي التعميم السابق، وذلك بغرض الاستشهاد والدعم بالدليل الحيثي الميداني، أتى هذا الدعم من خلال مناسبة الخطبة في البداية، ثمَّ ما وزنته الناس أمام عينيها، فشرعت تقايسه وتلجأ فيه إلى منابع الفكر والوعي الإسلامي، سواء كان بشخصيات أو بحديث أو بقرآن... هذه الأمور مجتمعة كانت بإقحام بدعة «التحكيم» إبان «رفع المصاحف» في هذه المعركة تحديداً؛ أي ما أدَّى إلى تضييع عوامِّ الناس من المسلمين، فالأمر بدعة لا محالة، ولكنَّ الرأي العام قد انساق إلى شبهة الشكل، الشكل الذي أتى متوازياً مع

القضية؛ أي التحكيم، فموسوم الاحتكام إلى القرآن الكريم، ثم موازاته بشكل المصحف المرفوع، لا شك أنه مدعى للريبة، وقد يؤدّي إلى حرف الناس عن جادة الصواب، وهذا ما حصل، فقد أدّت هذه البدعة إلى حرف كثير من الناس عن مولاة علي (ع)؛ فإمّا أنهم ذهبوا إلى المعسكر الثاني (حلف معاوية)، أو أنهم خرجوا على الإثنتين معاً، وانبتقت فرقة «الخوارج» بعيد المعركة مباشرة. هذه الأمور شبهات وصّفها الإمام علي (ع) بإيقاعات يغلب عليها القهر والحزن على مآلات الأمور، وهذه أبرز الملفوظات التي وردت في الخطاب على النسق الآتي:

والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سوازي اليقين... عُصِي الرحمن،
وُصِرَ الشيطان، وخُذِلَ الإيمان... أطاعوا الشيطان فسلخوا مسالكه، ووردوا مناهله،
بهم سارت أعلامه، وقام لوائه في فتن داستهم بأخفافها.

في هذه الملفوظات غيض من فيض الإجراءات التي كان عهد الإمام علي (ع) يجابهها. وعندما رأينا أنه ثمة إيقاعات حزينة تُسَيِّج الخطاب فقد رجع هذا الأمر إلى طبيعة المعجم المنتقى، وميزانه الصرفي، فعلى أساس زيادة المبنى ليلحق به المعنى زيادة كانت موازين: انفعال/ تفاعل. هذا ميزانان يحملان غلواً، فالناس قد شرعوا يغالون في تطبيق هذه المعطيات. لم يفت هذا الخطاب أن يستثمر قانون الفرضية والنتيجة؛ أي معادلة: (فعل) + (ف حرف عطف او جزاء/ ثم فعل استنتاجي)، مثال: أطاعوا فسلخوا ووردوا... حتّى إنّ فعلاً واحداً من أفعال الشيطان يؤدّي إلى كمّ من النتائج التي لا تُحمد عقباها. زد على ذلك أنّ لموضوع الفتنة حضوراً وثيراً وبارزاً في هذا الخطاب، ولعلّ مسوغ هذا الأمر، أنّ البدع تستجلب الفتن.

أمام هذه الشبهات والبدع كان لا بدّ من خطاب يوحى بالعدل؛ كي يفرق الناس بين الحقّ والباطل، خطاب يأتي لإقرار العدل وإحقاق الحقّ، وإن كره الظالمون وكان منطوق الحقّ قد صعّب على الناس نظراً إلى كمّ الفتن الهائل. ولكنّ عقيدة آل البيت (ع) الممثّلين بالإمام علي (ع) تمضي بتكليف إلهي- محمديّ، وهذا ما يعني الاستمرار واليقين بأنّ آل البيت مع الحقّ، وأنّ الله سيحقّ حقّه ولو بعد حين. على أنّ نظاماً من التلفّظ الاصطفائي الانتخابي قد أباحت به ملفوظات هذا الشقّ، وقد بدا واضحاً أنّ آل

البيت مصطفىون من الله وهم ثقل الرسول (ص)، وهذا ما صرّح به الإمام (ع) بحسبانه حقاً دامغاً، وحقيقة من حقائق العدل التي يقرّ بها المجتمع برمته، وما هذه الملفوظات إلا ردّ على الشبهات التي ضيّعت هذا الميزان، وجعلت بعضاً من شرائح المجتمع الإسلاميّ ينحرفون انحرافهم الأكبر هذا. وهذه أبرز الملفوظات التي نستعينها لإثبات معيار الحقّ وخطاب العدل:

موضع سره ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه وكهوف كتبه، وجبال دينه. بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائضه... هم أساس الدّين، وعماد اليقين، إليهم يفى الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة. الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونُقِل إلى منتقله.

تدلّ هذه المواصفات على ملفوظات ارتباطيّة؛ أي لا ينفكّ ملفوظ عن الارتباط بالآخر، ومن البديهيّ أن تراعي علوم الخطاب سياق القول ومفوضياته، وهذا ما كان موجوداً لدى استعراض الصفات الثابتة لأهل البيت (ع)، والفرق واضح بين آل البيت وخصومهم، ولقد ودّ الإمام علي (ع) أن يبتدع الفرق من خلال اللّغة، فجعل للخصوم المهرطقين الأفعال، للدلالة على ألعيبهم وعدم ثباتهم، وقد منح آل البيت الأسماء الثابتة للدلالة على رسوخهم مع الحقّ. فالعدالة آتية لا محالة، وخلالها سيعود هذا الحقّ الإلهيّ الجليل، حقّ آل البيت وبقينهم، مقابل بدع خصومهم وأكاديبهم.

خلاصة واستنتاجات

إنّ البحث في خطابات الإمام علي (ع) لا تكفيه بضع صفحات، ولكن حاولنا قد المستطاع في هذا البحث الثيام بعملية إدماجية بين الأدب العربيّ الأصيل، وتنظير عربيّ حديث. فكانت هذه المقاربة لأثر من آثار الإمام عليّ (ع) الخطابية مع نظرية «ميشيل فوكو» في الخطاب ومقارنته في إجراءات وآليات محدّدة، على أنّنا قمنا بتطبيق بعض من هذه الإجراءات. أفضى البحث إلى نقاط متنوّعة نجملها في الآتي:

- إنّ ميشيل فوكو رأى في نظريته الخطابية، أنّ للخطاب نظاماً وسلطة، ويمكن ببسر العثور على هذه المعادلة في خضمّ المجتمع، وحينما نتأمّل في خطاب السلطة.

- لقد توافقت آراء «فوكو» وبدت منسجمة مع طبيعة خطاب الإمام علي (ع)، وهذا ما انسحب مرونة على الآليات والإجراءات عند تطبيقها.
- يقيم الإمام علي (ع) في خطابه وزناً لحقّ الناس على حساب حقّه، وهذا ما يتجلّى بوضوح في ملفوظات جعل من نفسه وأهله رهينة بيد الله عزّ وجلّ، فخطابه خطاب ربّانيّ بامتياز، ينشد الحقّ والعدل.
- يسوّق الإمام (ع) نفسه بشكل مستساغ وطيب، ويعود في خطابه وملفوظاته المعجميّة إلى زمن الرسول، وقوانين البعثة النبويّة الشريفة، وما تحمله المدونة القرآنيّة الكريمة من معلومات وأوامر ونواه توضح الحقّ، وبذلك فإنّ قوّة النّظام الخطابيّ لدى الإمام علي (ع) مستلّ من المنهل الذي يستحيل على احد أن الخروج عليه، وبهذا يكون الردّ على خطاب البدعة.

المصادر والمراجع

المراجع العربية والمعربة

القرآن الكريم.

1. ابن أبي طالب، عليّ، نهج البلاغة، جمع: الشريف الرضي محمد بن الحسين، تحقيق: محمد عبده وصبحي الصالح، دار الكتاب اللبنانيّة، بيروت، ط1، 1966.
2. الزواوي بغوره، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2000.
3. العبد، محمد، كتاب العبارة والإشارة دراسة في نظرية، مكتبة الآداب، الطبعة الثالثة، 2012.
4. فوكو، ميشيل، تاريخ الجنسانية: إدارة المعرفة، ترجمة: سلمان حرفوش، دار التنوير، بيروت، ط1، 2017.
5. فوكو، ميشيل، تأويل الذات، ترجمة: الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2011.
6. فوكو، ميشيل، دروس ميشل فوكو، ترجمة: محمد ميلاد، دار توبقال، المغرب، ط1، ص: 1988.
7. فوكو، ميشيل، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر، المغرب، ط1، 2005.
8. فيركلو، نورمان، الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية، ترجمة رشاد عبد القادر، في، الكرمل، مجلة فصلية ثقافية، تصدر عن مؤسسة الكرمل الثقافية، العدد 64 صيف 2000.
9. ورايينوف، دريفوس ؛ فوكو، ميشيل : مسيرة فلسفية.- ترجمة جورج ابي صالح،مراجعة، مطاع صفدي،مركز الانماء القومي، (ب-ت).-

المراجع الأجنبيةّة

1. Foucault, Michel : L'archéologie du savoir.- Paris, Ed. Gallimard, 1969
2. Foucault, Michel : L'ordre du discours.- Op.cité

تأثير الموقع لبلدة الشبانية- قضاء بعدا- في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للسكان

L'impact la situation de la ville de Chbaniyeh – Caza de Baabda –
sur les conditions économiques et sociales de la population

د. إيلي شديد¹

Dr. Elie Chdid

تاريخ القبول 2024 /9/5

تاريخ الاستلام 2024 /8/21

الملخص

أدى الموقع الجغرافي لبلدة الشبانية دوراً سلبياً على التمرکز السكاني في البلدة، إذ أدى إلى غياب الخدمات وفرص العمل، على الرغم من توفر مقومات طبيعية فيها كغابة الشبانية، ومجرى نهر حمانا الذي يمر في جنوب بلدة الشبانية، فضلاً عن وجود العديد من المنازل والساحات والأدراج التراثية فيها، ومن الممكن أن تكون مصدر جذب سياحي، وتسهم في خلق فرص عمل بدل نزوح وهجرة السكان من بلدة الشبانية. يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الأوضاع السكانية والاقتصادية والاجتماعية في بلدة الشبانية، لا سيما في الآونة الأخيرة، وما شهدته البلدة من حركات سكانية داخلية وخارجية، وانعكاساتها على البلدة من جميع النواحي.

الكلمات المفتاحية: الحركات السكانية- تدهور اقتصادي- تنمية مستدامة- سياحة بيئية- بظالة.

Résumé:

La situation géographique de la ville de Chbaniyeh a joué un rôle négatif sur la localisation de la population, car l'absence de services et d'opportunités d'emploi, malgré la présence d'atouts naturels tels que la forêt

1 - د. إيلي شديد- أستاذ مساعد لمادة الجغرافيا في الجامعة اللبنانية - كلية التربية - الفرع الثاني

de Chbaniyeh et le cours de la rivière Hmanna qui traverse le sud de la ville, ainsi que la présence de nombreuses maisons, places et escaliers patrimoniaux pouvant constituer une attraction touristique et créer des opportunités d'emploi, ont conduit à l'exode et à la migration des habitants de Chbaniyeh. Cette recherche vise à mettre en lumière les conditions démographiques, économiques et sociales de la ville de Chbaniyeh, notamment ces dernières années, en abordant les mouvements de population internes et externes, ainsi que leurs répercussions sur la ville sous tous ses aspects.

Mots-clés: Mouvements de population – Déclin économique – Développement durable – Tourisme écologique – Chômag

1- المقدمة

يعدّ توفّر الخدمات على مختلف أنواعها وتوفّر فرص العمل أحد العناصر الرّئيسة للجذب السّكانيّ في منطقة معينة، غير أنّ غياب هذه المقومات في هذا المجال الجغرافي قد يدفع بسكانه للبحث عن مجال آخر للعيش ويؤمّن مستوى معيشي لائق، وهذا ما حدث في بلدة الشّبانيّة، حيث إنّ تدهور الخدمات على جميع أنواعها دفع بالقسم الأكبر من سكانها إلى التّرحل إلى المدن اللّبنانيّة الأخرى أو الهجرة إلى الخارج، حيث بلغ عدد السّكان المقيمين في البلدة 594¹ فردًا في حين أنّ المسجّلين 2413².

2- الإشكاليّة

يتبين من المشاهدات الأولى ومن بعض المقابلات الفردية التي تمّت مع فعاليات البلدة الإداريّة والاقتصاديّة أنّ الشّبانيّة تعاني من مشكلة تنموية شاملة إذ تصيب العناصر الأساسيّة فيها، وهي الاقتصاد والمجتمع والبيئة، وهي على تفاقم مستمر، مما يؤدي إلى إزدياد العوامل المسببة لهذه المشكلة والمتحكمة بها بنويا وديناميا، والتي هي في الأساس عوامل اقتصاديّة، حيث يؤدي غياب فرص العمل وتدهور الأوضاع الاقتصاديّة، إلى إزدياد حركة التّرحل والهجرة يوما بعد يوم. ويصاحب ذلك عدم قيام أبناء المنطقة، سواء

1 - مختار بلدة الشّبانيّة

2 - دائرة نفوس حمانا

على صعيد القطاع الخاص أو القطاع العام أو المجتمع المدني أو السلطات المحليّة، بخطوات تنموية حاسمة تساعد على النهوض بالبلدة.

3- الفرضيات

- تشجيع النّازحين والمهاجرين من أبناء هذه البلدة على العودة إليها عبر خلق مناخ إيجابي يتمثل بإقناعهم بمنافع الاستثمار الاقتصاديّ فيها والعودة إليها لإنعاشها وتطويرها.

- خلق نشاطات متعددة فيها على جميع الصعد الاجتماعيّة والسياحيّة والثقافية بحكم أن ضعف هذه النشاطات أسهم في تفاقم هذه المشكلة، كما ساهم في نزوح شبابها إلى مناطق أخرى طلبًا للترفيه عن النفس وتمضية العطل الأسبوعيّة والسّنويّة.

- جذب الاستثمارات المحليّة والأجنبيّة عن طريق هذه البلدة للقيام بنشاطات وقرارات لمصلحة سكانها المقيمين والنازحين عنها.

4- أسئلة الدّراسة

ما هي المشاكل الاجتماعيّة السّكانيّة التي تعاني منها بلدة الشّبانيّة؟ ما هي النتائج المترتبة عن استمرار انخفاض عدد السّكان في البلدة؟ كيف يمكن معالجة هذه المشاكل للحؤول دون مفاقتها؟

5- الموقع

تبلغ مساحتها¹ 4,85 كلم² وتقع في قضاء بعيدا ضمن محافظة جبل لبنان، وتحديدًا بين خطي طول 35 درجة و 41 دقيقة و 20 ثانية و 35 درجة و 41 دقيقة و 20 ثانية شرق خط غرينتش، وبين دائرتي عرض 33 درجة و 49 دقيقة و 30 ثانية و 33 درجة و 48 دقيقة و 15 ثانية. يحدّها من جهة الشمال بلدتي بمرم والخريبة، وحمانا من جهة الشرق، قبيل وصوفر من جهة الغرب، وقتالة والشميسة من جهة الشمال الغربي². ويمكن الوصول إليها عبر عدة طرق، الأولى عبر طريق عام حمانا، الثاني عبر طريق

1 - نظم المعلومات الجغرافية

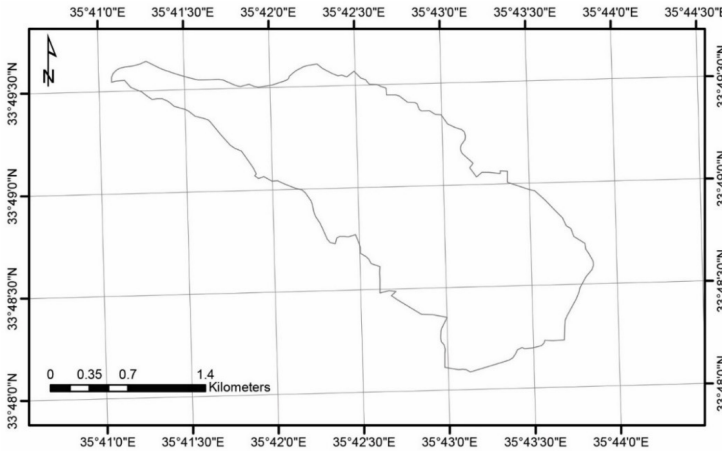
2 - مراجعة الخريطة رقم 1

قبيع، الثالث عبر طريق راس الحرف. وتبعد عن العاصمة بيروت 30 كلم وعن مركز القضاء (بعدا) 21كلم.

6- الموقع

تقسم بلدة الشبانية إلى قسمين: القسم الأول ويتميز بطبيعة أرضه السهلية، وهو يتمركز في القسم الشمالي من البلدة، كما تغطي غابات الصنوبر القسم الأكبر من هذا القسم، وتتمركز معظم المؤسسات التجارية في هذا القسم. ويفصله عن القسم الثاني طريق عام حمانا- الشبانية - قبيع، والقسم الثاني يتميز بطبيعة انحداره الخفيف حيث تصل نسبة الانحدار¹ إلى حوالي 15% في بعض الأحيان، وفي هذا القسم يتمركز القسم الأكبر من السكان حيث بلغت نسبتهم 87% من مجموع السكان القاطنين في البلدة، ويتراوح ارتفاعها بين 640 جنوب القرية و965 في شمالها² ويأخذ هذا القسم طابعا انعزاليا. وقد أدى هذا الموقع الانعزالي نسبيا، وبعده عن الطريق الرئيسية، دورا رئيسا يدفع سكان البلدة للنزوح أو الهجرة منها بحثا عن مصدر عيش في العاصمة وضواحيها.

خريطة (1): بلدة الشبانية³



1 - استنادا الى الخريطة الطبوغرافية

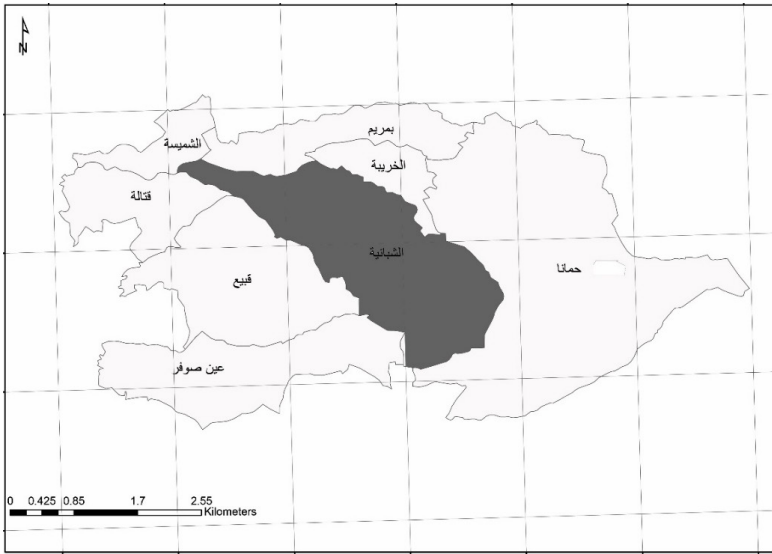
2 - المرجع نفسه

3 - تنفيذ الباحث إستنادا الى نظم المعلومات الجغرافية

خريطة (2): موقع بلدة الشبانية بالنسبة إلى قضاء بعبداء ولبنان¹

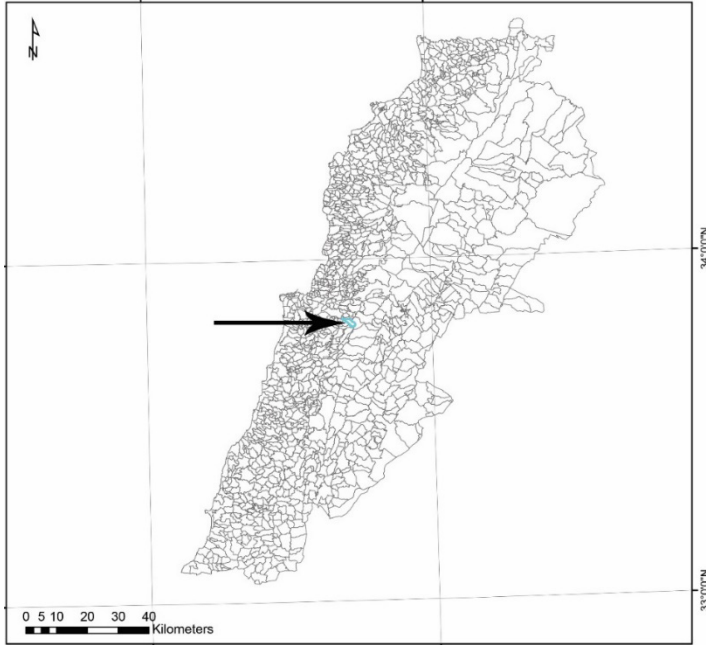


خريطة رقم (3): بلدة الشبانية والقرى المجاورة لها².



- 1 - تنفيذ الباحث إستنادا الى نظم المعلومات الجغرافية
- 2 - تنفيذ الباحث استنادا إلى الدراسة الميدانية

خريطة (4): موقع بلدة الشبانية بالنسبة إلى القرى والبلدات اللبنانية¹



7- المنهج المتبع

أ- المنهج الكمي

يعرف هذا المنهج بأنه يصف الظواهر أو مشكلة ما وصفاً كمياً، ويعبر عنها تعبيراً رقمياً يوضح مقدار هذه الظاهرة أو حجمها ودرجة ارتباطها مع الظواهر المختلفة الأخرى. ويتمثل من خلال الجداول الإحصائية المستندة على الاستمارة الميدانية².

ب- المنهج الخرائطي

يعتمد هذا المنهج على إعداد خرائط تفصيلية للظواهر الاجتماعية والاقتصادية والبيئية، ثم إلى مطابقة هذه الخرائط من أجل اكتشاف العلاقات بين العوامل أو تطور الظواهر مكانياً³.

1 - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية

2 - جورج الفرن - منهجية البحث الجغرافي - مقرر الفصل الرابع - الجامعة اللبنانية 2012 ص 36 .
3 - www.esri.com

ج- المنهج الوصفي التحليلي

ويهدف هذا المنهج إلى وصف المظاهر الجغرافية من خلال الدراسة الميدانية في البلدة وتدوين الملاحظات.

8 - جمع ومعالجة المعطيات الإحصائية

أ - وثائق رسمية وغير رسمية لها صلة بموضوع البحث .

ب- دراسات عن المنطقة

ج - دراسات عن خارج المنطقة قد تفيد الباحث من ناحية النظرية المعتمدة والمنهجية والتقنيات المستخدمة،

بسبب النقص الحاصل في المعطيات الإحصائية، اعتمدت على البحث الميداني، الخرائط المتنوعة، الصور الجوية وغيرها من الأمور، من أجل الحصول على المعلومات الضرورية للدراسة، وقد قمت بالخطوات التالية واعتمدت على تنفيذ الإستمارة إضافة إلى المقابلات، وقد مرّ العمل الميداني بمرحلتين :

- الأولى : تحديد قاعدة المعاينة

- الثانية : المسح الشامل

من أجل تحديد قاعدة المعاينة قمت بمسح شامل ميداني للوحدات المأهولة بشكل دائم، أي لفترة تزيد عن 6 أشهر، وتبين لي بأن عدد هذه الوحدات هو 132 وحدة مشكلةً بالتالي قاعدة المعاينة، وبما أنّ عدد هذه الوحدات صغير لم يتم اختيار أي عينة، بل جرى مسح شامل لهذه الوحدات، باعتبار أن الأسرة هي الوحدة الإحصائية التي ستوجه إليها أسئلة الاستمارة، هذا على الصعيد السكاني، أما على الصعيد الاقتصادي فقد قمت أيضاً بمسح شامل لكافة المؤسسات الاقتصادية المختلفة. أما بالنسبة إلى المقابلات، فقد تمت مع العديد من أبناء البلدة، لتغطية ما لا يمكن جمعه بوسائل أخرى من جهة، وللوقوف على آرائهم ونظرتهم فيما يخص الأعمال التنموية والتوجيهية للبلدة من جهة أخرى .

د - الخرائط

تمّ استخدام مجموعة من الخرائط، أساسها الخريطة الطبوغرافية 1/20000، والتي وضّحت شكل الأرض إضافةً إلى التمرکز العمرانيّ، والتوزع النباتي، وشبكة الطرقات، إضافةً إلى أمور جغرافية أخرى.

هـ - الصّور الجوية

استخدمت الصّور الجوية الموضحة للمعطيات الطّبيعيّة والعمرانيّة والنباتيّة .

و - الزّيارات الميدانيّة

قامت بعدة زيارات ميدانية من أجل الاطلاع على الواقع العمرانيّ والطّبيعيّ للبلدة، وأخذت مجموعة من الصّور الفوتوغرافية من أجل دعم هذا البحث.

9- الخصائص السّكانيّة للبلدة

أ- عدد السّكان

بلغ عدد السّكان المقيمين في الشّبانيّة 594 فرداً، وهؤلاء يتوزّعون بين 318 للنساء وبنسبة %53.5، و276 للذكور وبنسبة %46.5. ومن خلال المقارنة مع عدد السّكان في البلدة عام 2016 كان عددهم آنذاك 876 فرداً، أي تراجع عددهم 282 فرداً¹ بنسبة حوالي %32، يعود التراجع إلى عاملين رئيسيين: الأول هو التّزوح الرّيفيّ نحو البلدات المجاورة بسبب نقص فرص العمل والخدمات الأساسيّة في القرية، مثل الخدمات الصحيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، أما العامل الثّاني فهو هجرة جزء آخر من السّكان إلى الخارج بحثاً عن فرص عمل أفضل وتحسين مستوى المعيشة، أما نسبة الذكور فقد بلغت %86.8² (جدول رقم 1).

1 - إحصاء أجراه اتحاد بلديات المتن الأعلى

2 - استناداً الى الدّراسة الميدانية

جدول(1): التوزع العددي والنسبي للسكان ومعدل الذكورة¹

نسبة الذكورة	المجموع		الذكور		إناث		الفئات العمرية
	%	العدد	%	العدد	%	العدد	
160	2.9	17	3.2	9	2.5	8	0-4
114.3	5.2	31	5.8	16	4.7	15	5-9
92.8	9.1	54	9.4	26	8.8	28	10-14
90.5	6.7	40	6.9	19	6.6	21	15-19
87.5	7.5	45	7.6	21	7.5	24	20-24
92.9	9.1	54	9.4	26	8.8	28	25-29
72.5	11.6	69	10.5	29	12.6	40	30-34
86.8	11.9	71	11.9	33	11.9	38	35-39
83.8	9.6	57	9.4	26	9.7	31	40-44
80	7.5	45	7.2	20	7.8	25	45-49
90.5	6.7	40	6.9	19	6.6	21	50-54
89.5	6.1	36	6.2	17	6	19	55-59
84.6	4.2	24	3.9	11	4	13	60-64
45.4	1.8	11	1.5	4	2.2	7	64+
86.8	100	594	46.5	276	53.5	318	المجموع

ب - توزع السكان حسب الفئات العمرية الكبرى²

يُعدُّ التركيب العمري والتوعي للسكان من العناصر الأساسية في دراسة الديموغرافيا، إذ يعكس الخصائص السكانية للمجتمع من حيث التوزيع بين الذكور والإناث³، ويُحدِّد الفئات العمرية المنتجة التي تتحمّل مسؤولية إعالة باقي السكان. يشكّل التركيب العمري

1 - تنفيذ الباحث استنادا إلى الدراسة الميدانية

2 - المرجع نفسه

3 - ابو عيانة فتحي : التحليل الإحصائي في الجغرافيا البشرية، دار النهضة العربية، بيروت 2000.

والتّوعيّ نتائجًا للعوامل المؤثّرة في النمو السّكاني¹، مثل المواليد، والوفيات، والهجرة التي ترتبط ببعضها البعض بشكل وثيق، حيث يؤدي أيّ تغيير في أحدها إلى تأثير مباشر في البقية. لذلك، تسهم دراسة التّركيب العمريّ في فهم اتجاهات التّمو السّكاني وتحليل تأثير هذه العوامل، إلى جانب ارتباطها بدراسة الحالة المدنية، والنشاط الاقتصاديّ، والتّعليم، وغيرها من المجالات الحيويّة².

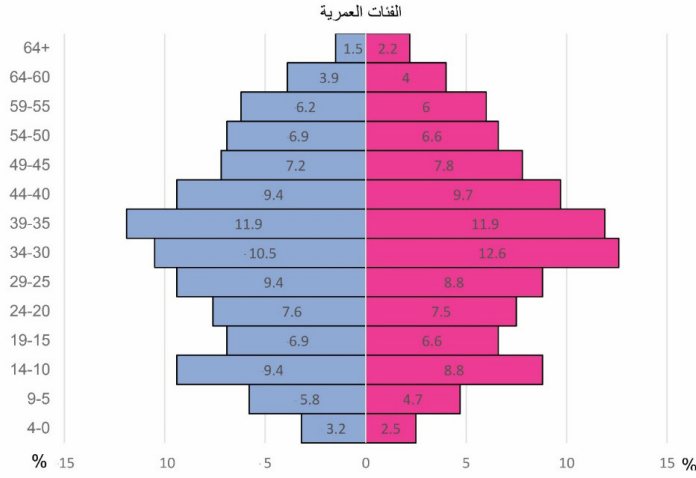
جدول (2): توزيع السّكان حسب الفئات العمريّة الكبرى³

الفئة العمريّة	العدد	النسبة
0-14	102	17.2
15-64	481	81
64+	11	1.8
المجموع	594	100

يتوزّع سكان القرية على ثلاث فئات عمريّة أساسيّة، فتشكّل نسبة الفتيان 17.2% من نسبة السّكان المقيمين حيث تبلغ نسبة الإناث الفتيان 16%، وهي أقلّ من نسبة الذكور التي تبلغ 18.4%، بينما القسم الأكبر من الفئات يشكّله الراشدون 80.9% موزعين بين إناث 81.5% وذكور 76%، وأخيرًا تبلغ نسبة المسنّين 1.8%، وهي النّسبة الأقلّ بين الفئات الثّلاث حيث تشكل نسبة الإناث النّسبة الأكثر، ويعود السّبب إلى تعرّض الذكور لحالات وفاة في هذه الفئة العمريّة أكثر مما هي عليه عند الإناث.

1 - ابو عيانة فتحي: جغرافية السكان، دار النهضة العربيّة، بيروت 2000.
 2 - الإنسان والأرض في الجغرافيا البشريّة والإقتصاديّة - مجموعة مؤلّفين - بيروت 2008.
 3 - تنفيذ الباحث إستنادًا الى الدّراسة الميدانيّة

رسم بياني (1) هرم أعمار بلدة الشبانية¹



هرم أعمار بلدة الشبانية

يتم اعتماد هرم الأعمار كأساس لرسم بنية السكان، حيث يتم تقسيم السكان إلى ثلاث فئات عمرية متجانسة، فنحصل بذلك على جدول الفئات العمرية الذي يجري تمثيله بيانياً لنحصل على هرم الأعمار. تكمن أهمية هرم الأعمار أنه يسمح بتوقع المستقبل السكاني لمنطقة معينة، كما يسمح بالمقارنة بين الإناث والذكور؛ بمعنى آخر يلخص هرم الأعمار التاريخ السكاني لشعب معين². يتميز هرم أعمار هذه القرى بقاعدة متوسطة العرض (فئة الفتيان)، يقابله اتساع في الوسط أي في مرحلة البالغين حيث تسجل أعلى نسبة لها، كما ويظهر في الرسم البياني لهرم الأعمار انحسار ملحوظ في القمة إذ إن عدد المسنين قليل جداً.

ب- الكثافة السكانية

تساهم الكثافة السكانية إلى حد كبير في إعطاء واقع التوزيع السكاني في منطقة معينة

1- تنفيذ الباحث إستنادا الى الدراسة الميدانية

2 - برسا رولان : معجم مصطلحات الديمغرافيا، ترجمة الدكتورة هلا نوفل رزق الله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1990

بالكيلومتر المربع الواحد، ويتأثر هذا النوع بالعوامل الاقتصادية والطبيعية والبشرية، وهذا ما يؤدي إلى اختلاف الكثافة السكانية بين منطقة وأخرى¹. ويمكن الحصول على الكثافة من خلال المعادلة التالية: عدد السكان

المساحة

ومن خلال المعادلة التالية تكون الكثافة السكانية في الشبانية على النحو التالي:

$$2631 \text{ ن/كم}^2 = \frac{594}{4.85} \text{ ن/كم}^2$$

وهذا الرقم يعتبر منخفضاً مقارنة مع النسب المسجلة على مستوى قضاء بعبداء والبالغ 2631 ن/كم² وعلى مستوى لبنان البالغ حوالي 575 ن/كم². ويعود انخفاض هذا الرقم إلى هجرة ونزوح عدد من أبناء البلدة إلى بلدان ومناطق أخرى بحثاً عن مصدر عيش آخر.

ج- حجم الأسرة:

بلغ عدد الأسر المقيمة في بلدة شبانية 132 أسرة أي بمعدل 4,5 في كل أسرة. يشير تراجع عدد أفراد الأسرة في القرية إلى تغيير ملحوظ في العادات والتقاليد المحلية، لا سيما مع انخفاض دور القطاع الزراعي مقارنةً بالسنوات الماضية. في السابق، كانت الأسر تتألف من حوالي عشرة أفراد، حيث كان الأطفال يشكلون جزءاً مهماً من اليد العاملة الزراعية. أما اليوم، فإن معظم الأسر تتكون من أربعة أفراد فقط، وهو ما يعود إلى عدة عوامل رئيسية، أبرزها العامل الاقتصادي وتكاليف العيش وعمل المرأة وعلمها.

د- نسبة الإعالة العمرية الإجمالية

إن نسبة الإعالة هي عدد الأشخاص الذين هم دون 15 سنة وما فوق 64 سنة لكل 100 شخص في سن العمل² (أي الذين تتراوح اعمارهم بين 15-64 سنة)؛ ويمكننا

1 - لبيب علي : جغرافية السكان، الثابت والمتحول، الدار العربية للعلوم، بيروت 2004

2 - أبو عيانة فتحي : جغرافية السكان، مرجع سابق

الحصول على هذا المعدل من خلال المعادلة التالية :

$$235\% = \frac{113 \times 100}{481} = \frac{\text{عدد السكان أقل من 15 سنة} + \text{عدد السكان 65 سنة وأكثر} \times 100}{\text{عدد السكان في المدى العمري (15-64 سنة)}}$$

د-1- نسبة إعالة الفتيان¹

$$21,2\% = \frac{102 \times 100}{481} = \frac{\text{عدد السكان أقل من 15 سنة}}{\text{عدد السكان في المدى العمري (15-64 سنة)}}$$

د-2- نسبة إعالة المسنين²:

$$21,2\% = \frac{102 \times 100}{481} = \frac{\text{عدد السكان أقل من 15 سنة}}{\text{عدد السكان في المدى العمري (15-64 سنة)}}$$

هـ- معدل الولادات

تحسب نسبتهم لكل ألف من عدد السكان وتعرف هذه النسبة بقسمة عدد المواليد في نفس السنة على عدد السكان العام مضروباً بألف³ أي تكون المعادلة على الشكل التالي:

$$\text{معدل الولادات} = \frac{\text{عدد الولادات} \times 1000}{\text{عدد السكان بالعام}}$$

1 - د. سعاد نور الدين : السكان والتنمية مقارنة سوسيوإقتصادية- دار المنهل اللبناني .

2 - المرجع نفسه

3 - فاعور علي : جغرافية التهجير السكاني، دار المؤسسة الجغرافية، بيروت 1993

استناداً إلى المعطيات السكانية التي تم الحصول عليها من المختار في القرية، فإن معدل المواليد الخام في هذه القرية يكون وفق المعادلة التالية: $594 / x1000 = 6.73\%$. انطلاقاً من معدل المواليد الذي حصلنا عليه نلاحظ أن هذه القرية تواجه مشكلة سكانية، إذ تعدّ هذه النسب متدنية جداً إذا ما قورنت مع معدل العام في لبنان البالغ 24.89¹، وما يجب ذكره أنّ هذه الولادات تتأثر بعدد من العوامل أبرزها أنّ المرأة اللبنانية دخلت معترك العمل، وارتفع مستواها الثقافي، بالإضافة إلى الجهود التي بذلتها الجمعيات الأهلية في مجال تنظيم الأسرة، وقد ينعكس تراجع معدل الولادات إلى تقلص في قاعدة هرم الأعمار سنة بعد سنة، فضلاً عن الواقع الاقتصادي الذي تتمتع به الأسرة.

يمكننا الحصول عليه على معدل الوفيات وفق المعادلة التالية :

معدل الوفيات الخام²: عدد الوفيات خلال سنة معينة $1000 \times$

مجموع عدد السكان

ووفقاً للمعادلة التالية يكون معدل الوفيات الخام على النحو التالي :

$$5,05 \text{ بالآلف} = \frac{3 * 1000}{594}$$

و- النمو الطبيعيّ للسكان

هو متوسط المعدل الأساسي النمو السكان خلال فترة معينة³، ومن خلال الدراسة الميدانية تبين لنا أن الفارق بين المواليد والوفيات $6.73 - 5.05 = 1.68\%$ وهي نسبة نمو سكاني منخفض جداً.

1 - الأمم المتحدة: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا - كشوفات البيانات الديموغرافية العدد 8 ص 6 - 1995 .

2 - د. نور الدين، سعاد ك مرجع سابق

10- حركات السّكان

لقد أصبحت ظاهرة الهجرة الدّاخلية أو الخارجية، للعمل أو لأي سبب آخر، من الظواهر الاجتماعيّة العامة في معظم المجتمعات. كما أصبحت في حد ذاتها من المتغيرات الرئيسية بالنسبة لهذه المجتمعات¹. ولم تعد قضية محلية أو وطنية تخص بلداً معيناً، وإنما تشترك فيها الدول العربية والدول النامية، بل و الدول المتقدمة. ومن خلال المعطيات التي تتوّعت بنمو وتفاقم مشكلاتها وعوامل استقرارها، فإن قضية الهجرة تطرح إشكاليات عديدة، منها ما هو على مستوى المجتمعات المصدرة للعمالة، أو على مستوى الدول المستقبلة للمهاجرين، وعلى حدّ سواء أكانت من دولة عربية إلى أخرى، أو من دولة معينة إلى أخرى، لذلك صارت الهجرة قضية لها آثارها وانعكاساتها الإيجابية والسلبية، وعلى مختلف نواحي الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسية والثقافية، وبذلك صارت الهجرة قضية اجتماعية هامة، وقد تفاوتت خصائص تلك الهجرات من حيث نوعيتها وأماكن توجيهها وحجمها حسب الظروف الزمانية.

وتعدّ الهجرة الخارجية أشمل من الهجرة الدّاخلية من حيث الكم والنوع والسبب. ومهما كانت الهجرة الدّاخلية تنحصر في الهجرة من الرّيف إلى المدينة، وفي مقدمتها الهجرة إلى المدينة. فإن الهجرة الدّاخلية في المجتمع اللبناني قد أصبحت بمثابة ديناميّة مهمة تؤثر على التغير في المجتمع، ولها مساهمة عميقة في التغير الاجتماعي داخل شرائح المجتمع حضراً وريفاً. ولذلك فإن ظاهرة الهجرة لم تكن في أي وقت حركة عشوائية أو فوضوية بقدر ما كانت ظاهرة اجتماعية، عبرت بشكل ما عن الواقع الذي أفرزها ودفعها للاستمرار بالشكل والحجم الذي عرفت وتعرف بهما في الوقت الحاضر². أضحت الحركات السّكانية في زمننا الحاضر، وأكثر من أي وقت مضى، المحدد الأساسي لتطور عدد السّكان في بلدان ومناطق عدة من العالم. يخضع تطور عدد السّكان في منطقة معينة لتأثير عوامل أساسية هي: التّزوح والهجرة.

1 - د.علي فاعور: جغرافية التهجير، مرجع سابق

2 - الإنسان والأرض في الجغرافيا البشرية والاقتصادية- مرجع سابق

10-1- التّزوح

التّزوح تمثل عملية انتقال الفرد من الرّيف إلى المدينة أو من ريف إلى آخر أو من مدينة إلى ريف أو من مدينة إلى أخرى، أي بمعنى آخر هي عملية انتقال الفرد من منطقة إلى أخرى داخل البلد الواحد¹. يلعب العامل الاقتصاديّ دوراً رئيسياً في عملية التّزوح فضلاً عن عوامل أخرى كالتّعليم والصحة والترفيه.

1-1- تتمثل أنواع التّزوح بالأشكال التالية

أ- الحركة المكوّبة للسّكان: وهي عملية انتقال يومي من المنزل إلى مكان العمل وبالعكس، وهي ترتبط بدوام العمل، حيث تندفع باتجاه المدينة صباحاً أعداد كبيرة من السّكان للعمل فيها ثم العودة مساءً، مما يسبب ازدحاماً على مداخل العاصمة وفي شوارعها الرئيسية.

ب- الحركة الدورية للسّكان أو الموسمية: وهي عملية انتقال بعض السّكان في فترة معينة من السنة من منطقة إلى أخرى للعمل أو للاصطياف أو السكن المؤقت ومن ثم العودة بعد انتهاء المهمة.

ج- التّزوح القسري: سببه حوادث عنف سياسية أو دينية أو عرقية كما حدث في لبنان أبان الحرب الأهلية اللّبنانيّة، ولا سيما المناطق التي كانت ساحات للمعارك الدامية.

د- التّزوح الدائم: يشمل الذين تركوا البلدة منذ فترة زمنية طويلة، واستقروا في مدن ومناطق أخرى حيث أسسوا هناك معامل لهم، وعملوا على بناء أو شراء منازل يسكنون فيها، وهم لا يرجعون إلى قراهم إلا في المناسبات الدينية الكبيرة والسياسية.

10-2- أسباب التّزوح

أ- الأسباب الاقتصاديّة

إنّ تراجع إنتاجية القطاع الزراعيّ تحديداً، والذي كان يؤمن دخلاً لبعض الأسر في هذه القرى، أدى إلى تحويل الأراضي الزراعيّة إلى أراضي بور تغطيها الأعشاب البرية،

1 - فاعور علي: جغرافية التهجير السكاني، مرجع سابق

كما أدى التراجع في القطاعات الاقتصادية الأخرى في هذه القرى إلى زيادة حركة النزوح اليومي والموسمي إلى العاصمة وضواحيها لتأمين دخل مناسب، حيث توفر المراكز التجارية والتوظيفية والخدماتية.

ب- الأسباب الخدماتية

مع غياب أي نشاط خدماتي في القرية دفع بعدد من السكان إلى الانتقال نحو مناطق تتوفر فيها تلك الخدمات وبمستويات متقدمة، خاصة لجهة التعليم الجامعي والمدرسي والمهني، وتوفر معظم المؤسسات الصحية، وتمركز العديد من مراكز اللهو في العاصمة والضواحي المحيطة بها.

1-2-10- توزيع السكان النازحين حسب مكان الإقامة

بالنسبة إلى توزيع النازحين على المحافظات، نلاحظ من خلال الدراسة الميدانية أن محافظة جبل لبنان تستأثر بالقسم الأكبر من النازحين بحوالي 91% مقابل 6% لمحافظة بيروت و3% للمحافظة الشمال. ومن الملاحظ أن عملية النزوح تنحصر في ثلاث محافظات وهي جبل لبنان والشمال وبيروت. أما بالنسبة إلى التوزيع على الأقسية نلاحظ أن قضاء المتن يستقطب القسم الأكبر من عملية النزوح من هذه القرى.

2-2-10- النزوح الأسري

إن معظم النازحين الدائمين ينتظمون في شكل عائلات أي (هجرة عائلية) حيث أظهرت الدراسة الميدانية نزوح حوالي 60 أسرة، بينما بلغ عدد النازحين إفرادياً حوالي 390 شخصاً أي ما نسبته 65% من مجمل النازحين. ويعود سبب ارتفاع هذه النسبة الغلاء في المعيشة، مما يرفع عمر المتوقع للزواج. أما لجهة توزيع الأسر النازحة حسب عدد أفرادها، فيتبين من خلال الدراسة الميدانية أن الأسر التي يتراوح عدد أفرادها بين أربعة وستة أفراد هي الأسر الغالبة إذ تشكل نسبة 93,56% من إجمالي الأسر النازحة، أما الأسر التي يبلغ عدد أفرادها اثنين وثلاثة أفراد فإن نسبتها تشكل 6,44% من حاصل الأسر النازحة. أما معدل أفراد الأسر النازحة فيمكن الحصول عليه وفق المعادلة التالية:

$$\text{معدل أفراد الأسرة الواحدة}^1 : \text{مجموع أفراد الأسر النازحة} = \frac{240}{4} = 60$$

عدد الأسر النازحة

أما على صعيد توزيع الأسر والأفراد على مناطق النّزوح، فقد شكلت مدن ساحل المتن الشمالي المركز الرئيسي لمعظم النازحين، وذلك لإمكانية توفر فرص العمل بمرود أكبر بما هو عليه في بلدته.

11- الهجرة

بلغ عدد المهاجرين من الشّبانيّة 57 شخصا موزعين بين 41 ذكور و 16 إناث وهؤلاء يتوزعون على الشكل التالي:

جدول (3): توزيع المهاجرون على عدد من دول العالم²

البلد	الجنس	
	ذكور	إناث
الإمارات	15	6
السعودية	7	0
قطر	8	0
بحرين	6	0
الكويت	7	0
برازيل	4	4
كندا	3	3
أستراليا	1	3

12- مقترحات تنمويّة

تعاني القطاعات الاقتصادية في هذه القرية مشاكل مشتركة تعيق عملها وإمكانية تطورها، وهذه المشاكل تتمثل بارتفاع كلفة الإنتاج وما تتضمنه من ارتفاع أجرة اليد

1 - الدّراسة الميدانية
2 - الدّراسة الميدانيّة

العاملة وارتفاع أسعار المواد الأولية، فضلاً عن المنافسة التي تتعرض لها منتجات هذه القرى، إضافة إلى الموقع الجغرافي المنعزل نسبياً عن الطريق الرئيسية مما قد يسبب في المنتجات الزراعيّة من وقت إلى آخر. وبما أن هذه القرى تعدّ فقيرة نوعاً ما، من هنا يبدو ضرورة التعاون بين بعضها البعض للتنشيط قرارها وذلك يتم خلال المقترحات التالية:

1- تنمية القطاع الزراعيّ

إن القسم الأكبر من الزراعات هي للاستهلاك الذاتي أي غير مخصصة للتجارة، أما بالنسبة إلى القسم المخصص للتجارة فيعاني مثل كافة القطاعات الاقتصادية الأخرى من ارتفاع كلفة اليد العاملة (\$25) يومياً فضلاً عن ارتفاع المواد الأولية (الأسمدة الزراعيّة وحرث الأرض) فضلاً عن تذبذب في الإنتاج الزراعيّ من سنة إلى أخرى، ولتنشيط هذه الزراعات يجب العمل على دعمها من خلال قروض ميسرة بفائدة قليلة، وتشجيع العمل التعاوني الزراعيّ، وإدخال زراعات ذات قيمة مضافة، ويحتاج هذا النوع من الزراعة إلى إكتساب مهارات وإلى معرفة الأنواع المطلوبة، وطرق الإنتاج والتوضيب، والعرض بعلاقات تجارية أو ماركات (label) تحمل اسم المنشأ الجغرافي في البلاد.

1-1- التصنيع الغذائيّ والزراعيّ

ويتطلب التصنيع الغذائيّ الاهتمام بشروط التصنيع لجهة جودته ونوعيته، وإقامة علامة تجارية تخضع لتنظيم الإنتاج وتتبع مقاربة جودة شاملة. يمتلك أهالي هذه القرى معارف ومهارات زراعيّة متواضعة يمكن أن تطور وتدعم بتقنيات تخفف الكلفة وتدخل أصنافاً جديدة من الإنتاج. من ناحية أخرى، يمكنها أن تساهم في دراسة وتسويق وتحويل بعض المنتجات المتعثرة التي تتوفر مثل الزيتون والكرمة والحليب أحياناً بشكل سريع وفعال بتصريف الإنتاج، وتالياً بتحسين الأوضاع المعيشية لأهل المنطقة (الزيتون والزيت مع المطيبات والأعشاب البرية، الزبيب، صناعة الكشك والأجبان والألبان).

2-1- الحفاظ على الغابة الصنوبريّة والتنوع البيولوجي (الأحراج والغابات)

يمكننا المحافظة على هذه الغابة من خلال:

- تشجيع إقامة المنازل التي يتم فيها استخدام الحطب، فاستخدام الحطب للتدفئة يخفف نسبة التلوث، ويؤمن بيع الأخشاب الناجمة عن تقليم أغصان الغابة الصنوبرية وبقايا أكواز الصنوبر، مما يرفع عائدات استثمار الغابة الصنوبرية من جهة، ويقلل من إمكانية حصول الحرائق فيها نتيجة بقاء الأغصان.

- صيانة الطرقات الزراعيّة، وشق طرقات إضافية بشرط عدم تعبيدها من أجل عدم تشجيع إقامة أحياء سكنية، وتوعية الناس وتوجيههم إلى سبل الاهتمام بثروة القرى الحرجية ومكوناتها، وذلك قد ينطوي على إقامة المحاضرات والندوات لتعريفهم بدور الطبيعة في تكريس التوازن .

- التخفيف من المضاربات الخارجية والتي قد تؤدي إلى انخفاض في أسعار الصنوبر المحلي، مما يؤدي إلى عزوف عدد من المواطنين عن العمل في هذا القطاع.

ولشجرة الصنوبر أهمية كبرى من الناحية البيئية، فبالإضافة إلى كونها ملجأ للحياة البرية، فهي تعمل على الحد من انجراف التربة، والانزلاقات الأرضية، والانهيابات الصخرية، كما تُساعد على زيادة المياه الجوفية وعلى تلطيف المناخ، والحد من التلوث، فضلاً عن توفير الأوكسجين¹. ومن الناحية الصحيّة، ينصح ذوو أمراض الربو والذين يُعانون مشاكل في التنفّس، بالعيش بين أشجار وأحراج الصنوبر باعتبارها تُنقي الهواء وتوفّر الجو الصحيّ الملائم لهم.

3-1- الاهتمام بالثروة الحيوانية

من خلال الدّراسة الميدانيّة التي أجريناها يتبين لنا أن هناك فجوة بين قسمي الزراعة (الزراعة العضوية والزراعة الطبيعيّة) ويمكن تصويب هذا الخلل من خلال :

أ - من ضمن التّعاونيات التي يتم إنشاؤها لمساعدة القطاع الزراعيّ يمكن إنشاء فرع لمساعدة القطاع الحيوانيّ، وتأمين المساعدات الماليّة لأصحاب المزارع.

ب- العمل على تحديث مزرعة الأبقار الموجودة في هذه القرية، وذلك من خلال مساعدات مالية تقدم من قبل التعاونية، حيث يمكن الاستفادة من حليبها ولحومها و

1 - الإنسان والأرض في الجغرافيا الطبيعيّة- مجموعة مؤلفين- بيروت 2008.

تزويدها بالمعدات والآلات الحديثة.

ج - التوسع في تربية النحل وذلك عن طريق زيادة قفران النحل لأهميتها في توفير دعم إضافي اقتصادي لعدد من الأسر التي تهتم بهذا القطاع (سعر الكيلو الواحد \$25) فضلاً عن أهمية الغذائية للعسل.

2- الصناعات الحرفية

الخطوات الضرورية لتطوير القطاع الصناعي والتي من الممكن أن يقوم تجمع هذه القرى بها هي اعتماد سياسة محلية تركز على ربط الحرفيين بمؤسسات إقراضية، وتشجيع المنشآت التي تتطلب يدًا عاملة نسائية (كشك، لبنة، جبنة، المونة)، وتسهيل عمليات الاستثمار في القطاع الصناعي، وتأمين البنى التحتية الملائمة وبأقل كلفة ممكنة.

3- في الأعمال التجارية والخدماتية

تم تأسيس عدد من المحلات التجارية والخدماتية في هذه القرى لتأمين حاجات السكان، لكن جاء اليوم الذي أصبح من الحاجة إلى تطويرها أكثر فأكثر من خلال إقامة سوق تجاري أسبوعي تعرض فيه البضائع المختلفة والمتنوعة، مما يؤدي إلى توسيع المجال التجاري في البلدة، وإيجاد مداخيل إضافية لعدد من السكان.

4- في القطاع السياحي

4-1- واقع ومقومات القطاع السياحي

يعتبر القطاع السياحي من أهم القطاعات الاقتصادية، شرط أن تكون السياحة مسؤولة وتؤدي دوراً إيجابياً في المحافظة على البيئة وعلى سلامة التراث الثقافي كالمواقع البيئية والتاريخية. بدورها هذه القرى تتمتع بمقومات سياحية هامة، فهي قرية ذات مواقع طبيعية متنوعة ومناظر خلابة تصلح لأن تكون محميات، ووجود أديرة وكنائس قديمة، فضلاً عن حسن الضيافة وكرم أهالي هذه المنطقة والموقع الجغرافي لهذه القرى وقربها من العاصمة. جميع هذه المقومات تؤهل هذه القرى أن تكون ناشطة سياحياً .

- جعل غابة الشبانينة كمنتره طبيعيّ والعمل على تنظيمه في مشروع متكامل يسهم في التنمية المستدامة، ويرتكز على حماية التّراث والإرث الطّبيعيّ والثّقافي وذلك بمشاركة المجتمعات المحليّة وإقامة أبحاث وتجارب مرتبطة مباشرة بطبيعة الأرض والبيئة¹. وهذا المنتره قد يشجع السّياحة البيئيّة والإقامة في المخيمات، حيث تجذب هذه السّياحة زوارًا إلى مواقع بيئيّة وطبيعيّة، كما تستدعي تأهيل الدروب للمشّي، تأمين طرقات خاصة للدراجات، إضافة إلى مخيمات وورش عمل هدفها المساهمة في مشاريع التنمية.

د- تشجيع سياحة الشباب ومحبي المغامرات الذين يرغبون باستكشاف مناطق جبلية وحرّجية وتسلق الجبال وتمضية ليلة أو أكثر في بيوت ضيافة ريفيّة بأسعار مقبولة.



صورة(2): نشاط ترفيهي في الغابة³



صورة(1): مدخل غابة الشبانينة²

2-4- الترويج للمنطقة إعلاميًا

يترافق التطوير السّياحيّ لهذه القرية مع الدّعاية لها. فمحليًا اعتماد خطة إعلاميّة تبرز خصائصها وما تقدمه من إمكانيات سياحيّة متنوّعة. كذلك ينبغي لهذه الخطة أن تتوجه إلى السّياح الأجنبيّ من خلال التوجه إلى وكالات السفر والسّياحة المحليّة والعالميّة والمؤسسات التي تنظم رحلات سياحيّة ريفيّة ودينية.

3-4- إعادة إحياء العادات والتقاليد

يرغب عدد كبير من الجيل الجديد والسّياح بالتعرف على العادات والتقاليد التي كانت

1 - الخطة المبسطة للتنمية المحلية لقرى المتن الأعلى

2 - تصوير الباحث

3 - المصدر نفسه

سائدة قديماً في هذه القرية، فبإمكان السلّطة المحليّة بالتعاون مع أبناء البلدة إعادة إحياء هذه العادات، وذلك من خلال تنظيم عرس قروي من فترة إلى أخرى وما يتضمنه من عادات وتقاليد، فضلاً عن تنظيم مباراة في رفع الجرن ودقّ الجرس، فضلاً عن إقامة حفلات من الزجل الشّعبيّ الذي لا يزال يلقي إقبالاً لدى العديد من أبناء هذه القرى، إضافة إلى معارض تعرض فيها المنتوجات المحليّة.

5- في المواصلات

تفتقر الطّرق إلى تخطيط مدني، كونها تمرّ من داخل البلدة من دون مراعاة شروط السلامة العامة، بحيث تكثّر التّعدّيات على حرم الطّرق العامة ويكثر تضيقها بدل توسيعها. فهي تحتاج إلى صيانات متعددة، وإن كان قد جرى عليها تعبيد جزئيّ متقطع لبعض أقسامها.

6- في مجال التّعليم

يمكن تفعيل هذا القطاع أكثر فأكثر من خلال إعادة تطوير المدرسة الرّسميّة، وذلك لإنعدام الثقة بالمدرسة الرّسميّة وتدعيم وتجهيز المدرسة بمستلزمات ووسائل عمليّة وعلميّة مما قد يحدّ أو يخفف من عملية نزوح التّلامذة، وقد يسهم في تنشيط الحركة الاقتصاديّة في القرى من خلال تأمين وظائف لبعض أبناء هذه القرى.

7- في المجال الصحيّ

لم تحظ بمستشفى لمعالجة المرضى وإجراء الفحوصات، وقد يكون من المفيد في إطار تنمية الواقع الصحيّ على مستوى البلدة والمنطقة أن يعتمد إلى:

- 1 - العمل على تشييد مستوصف أو مركز صحيّ يتعاون على عمله أبناء هذه القرى وعدد من الاختصاصيين فضلاً عن تأمين الدواء بأسعار منخفضة.
- 2 - إقامة النّدوات والمحاضرات الصحيّة التي تعزز الثقافة الصحيّة لدى الأفراد .

8- على الصّعيد العمرانيّ

تعاني حالياً من مشاكل عدة أبرزها صعوبة البناء، وذلك بسبب التصنيف الذي فرضته

الدولة على أراضي هذه القرية، حيث أصبح الفرد بحاجة إلى مساحة تزيد عن 2000 متر² لكي يستطيع بناء منزل ضمن شروط متواضعة، فضلاً عن ارتفاع أسعار الأراضي في هذه القرى (\$200 للمتر الواحد) للأراضي القريبة من الطرقات فيما يتدنى السعر باتجاه الداخل. فيمكن للسلطات المحليّة (البلديات) أن تعمل مع الجهات الفاعلة لإعادة النظر بالتصنيف لهذه الأراضي، مما قد يسمح لأبناء هذه القرى بالبناء في قراهم ويحدّ من عملية التّزوح.

9- في المجال الترفيهي والرياضي

إنّ الرّياضة والتّرفيه حاجة أساسية لدى الفئات الشّابة والأسر. لقد أصبحت تكاليف تلبية هذه الحاجة في العاصمة وبعض المناطق الأخرى مرتفعة، وضمن ميادين تقتصر على ارتياد المقاهي والمطاعم وبعض المنتزهات العامة ودور اللّهُو والنّوادي اللّيلية. أما ممارسة الرّياضة فهي أيضاً محصورة ضمن الأندية الخاصة وبعض الأماكن العامة لأنواع رياضة الرّكض والمشي .

10- على صعيد الغابات والثروة الحرجية

للحفاظ على هذا الغطاء يجب أن تعمل البلدية والجهات المحليّة مع بعضها البعض على تنظيف هذه الغابات بطريقة دورية للتخفيف من إمكانية حدوث حرائق، إضافة إلى تشجير هذه الغابات بطريقة منظمة ومدروسة.

خلاصة

إنّ الاقتراحات المقدمة هي محاولة للتخفيف قدر الإمكان من التّفاوت بين المناطق اللّبنانيّة وتحديدًا بين الرّيف والمدينة والتخفيف من نسبة البطالة، ولكنّها تبقى من دون قيمة ما لم ترافقها نصوص قانونيّة وتشريعيّة على المستوى الوطنيّ. وفي الحقيقة، تبدو إجراءات الحماية التي ينص عليها التشريع الحالي، غير كافية لصون الأملاك العامة والثروة الحرجيّة والغابات والحفاظ على نوعيّة المياه ومجاريها. إنّ جهدًا تشريعيًا مكملًا قد يسمح بتنفيذ هذه الاقتراحات مرتبط بالتّسيق القائم في ما بين المخطط التوجيهي العامة، وتنفيذ هذه الاقتراحات مرتبط بالتّسيق القائم في ما بين المخطط التوجيهي

والسلطات المحليّة.

المراجع

1. الفرن، جورج - منهجية البحث الجغرافي - مقرر الفصل الرابع - الجامعة اللبنانيّة 2012 - ص 36.
2. الإنسان والأرض في الجغرافيا العامة البشرية والاقتصادية - مجموعة مؤلفين.
3. أبو عيانة فتحي : التحليل الإحصائي في الجغرافيا البشرية، دار النهضة العربية، بيروت 2000.
4. أبو عيانة فتحي: جغرافية السّكان، دار النهضة العربية، بيروت 2000.
5. برسا رولان : معجم مصطلحات الديمغرافيا، ترجمة الدكتورة هلا نوفل رزق الله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1990
6. لبيب علي : جغرافية السّكان، الثابت والمتحول، الدار العربية للعلوم، بيروت 2004
7. د. سعاد نور الدين: السّكان والتنمية مقارنة سوسيوتنموية - دار المنهل اللبناني .
8. فاعور علي : جغرافية التهجير السكاني، دار المؤسسة الجغرافية، بيروت 1993
3. 10. الأمم المتحدة: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا - كشوفات البيانات الديموغرافية العدد 8 ص 6 - 1995
4. 11. نظم المعلومات الجغرافية
5. 12. مديرية الشؤون الجغرافية في الجيش اللبناني

Sites électroniques

13. www.esri.com
14. www.unescwa.org

المقابلات:

رئيس بلدية الشّابانيّة

مختار بلدة الشّابانيّة

الاحتجاج والرّفص في المسرح العربيّ

(مسرحيّة «مأساة الحلاج» لصلاح عبد الصّبور انموذجًا)

Protest and Rejection in the Arab theater (The play «The tragedy
of Al-Hallaj» by Salah-Abdel-Sabour as a model)

د. منال شرف الدّين

Dr. Manal Charafeddine

تاريخ القبول 2024 /9/21

تاريخ الاستلام 2024 /9/5

ملخّص البحث

بعد الحرب العالميّة الثّانية وما رافقها من دمار في جميع مرافق الحياة، وتهدّم القيم، والأخلاق، وشعور الإنسان بالإحباط واليأس، ظهر مسرح الغضب بوصفه أحد علامات الاحتجاج¹ والرّفص² السّياسيّ في المسرح العالميّ. وتزايد خلال مرحلة الحرب الباردة التي سادت بين القطبين، وكذلك ظهور كثير من الأنظمة القمعيّة والدّكتاتوريّة في العالم. واستمرّ مسرح الاحتجاج والرّفص في محاولاته للتأثير على مسار الحياة، ورفض القيم والمفاهيم السّائدة، ووضع مرجعية علميّة من خلال إدانته للحرب والسياسات القمعيّة الفاشيّة، وفضح القرار الذي ساد وهيمن على السّياسات الدّوليّة، مثل: حالات الطّوارئ والاستعداد لصنع الحروب، والغزو، وقمع الشعوب، وكلّ أشكال الاحتلال. وقد اتخذ كُتاب المسرح من الخشبة المسرحيّة قاعدة مهمّة لانطلاق فعاليات النّقديّة الرّافضة لكلّ أنواع الاستلاب والقمع، وذلك من خلال كتابة نصوص وتمثيلها، أو من

1 - للوقوف على دلالة المصطلح لغة واصطلاحًا ينظر: أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، كتاب الصّناعتين: الكتابة والشّعر، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط9، سنة 1989، ص 470، وينظر أيضًا: عبدالله عبد الرّحمن بكير، مفهوم جون آردن للغضب والاحتجاج، دار الحرّيّة للطباعة والنّشر، بغداد، 1985، ص 57.

2 - للوقوف على دلالة المصطلح لغة واصطلاحًا: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنّشر، بيروت، 2009، ص 242، وللمزيد ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، الجزء الأوّل، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص 618.

خلال مشاهد مسرحية تمثل الواقع الفاسد، وتقدم ببراعة وذكاء ومضات فكرية تهدف إلى رسم شكل القادة ومسرحة خطتهم وفضحهم، من خلال قوالب مسرحية أعدت بإتقان واستخدام المؤثرات الموسيقية والعسكرية والبيانات، وقد ظهرت في المسرح العربي كثير من النصوص المسرحية التي تدين الواقع الفاسد والحروب، وما خلفته من دمار في كل مجالات الحياة في المجتمع العربي. وقد اخترت هذا البحث لأرى مدى استيعاب الكاتب «صلاح عبد الصبور» لهذا المسرح، وكيف استطاع تطبيقه في نصّه؟

الكلمات المفتاحية: الاحتجاج، الرّفص، المسرح العربي، المسرحية، الكاتب المسرحي.

Abstract

After the Second World War and accompanied by destruction in all the facilities of life, destroying values, morals and human feelings of frustration and despair, the theater of anger emerged as a sign of protest and political rejection in the world stage. The theater of protest and rejection continued in its attempts to influence the course of life, reject prevailing values and concepts, establish scientific reference by condemning the war and repressive fascist policies, and exposing the resolution that prevailed and dominated international policies, to make wars, invasion and suppression of peoples, and all forms of occupation, has taken the book theater of the stage play an important base for the launch of their monetary and rejection of all kinds of oppression and repression, and through the writing of texts and representation, or through the scenes of the play represents the corrupt reality and brilliantly presented intelligence and intellectual flashes aimed at the formation of the leaders and the theater of their plans and expose them, through theatrical molds prepared with the proficiency and use of musical and military effects and data, has appeared in the Arab theater a lot of theatrical play that condemns the corrupt reality and wars and its aftermath of destruction in all areas of life in Arabi society. I chose this research entitled: Protest and Rejection in the Arab theater (The play «The tragedy of Al-Hallaj» by Salah-Abdel-Sabour as a model), to see the extent to which the writer Salah- Abdel Sabour absords this theater, and how he was able to apply it in his theatricalscript.

Keywords: Protest, Rejection, Arabic theater, Drama, Playwright.

مقدمة

لعل أهم ما يشكل القاعدة المعرفية، ويوثق دلالاتها إطار نظري موثق بحسب أبعاده الثقافية، وهي التي تحدّد المساق الذي يعتمده البحث، لذلك افترضنا جملة من المفاهيم التي رأيناها مناسبة لتأصيل الفهم الإجرائي الخاص بقيمة وعينة البحث.

أهمية البحث والحاجة إليه:

تكمن أهمية البحث في:

1. تسليط الضوء على المسرح العربي، وكيف ظهر مفهوم الاحتجاج والرفض في هذا المسرح.

2. تسليط الضوء على أحد كتّاب المسرح العربي الذي رقد الساحة الأدبية بالكثير من النصوص المسرحية.

1. الحاجة إليه: يقدّم للطلبة معلومات عن مسرح الاحتجاج والرفض، وكيف ظهر هذا المسرح.

هدف البحث

يهدف البحث التعرف إلى الاحتجاج والرفض في المسرح العربي، وفي مسرحية «مأساة الحلاج» لصلاح عبد الصبور.

في ما يخصّ المنهج فقد اعتمدتُ المنهج التحليلي، كونه الأكثر قرباً من عملية تحليل النصوص، والأقرب إلى بيان النقاط التي تتفق مع مؤشرات الإطار النظري.

أما الإشكالية فيمكن صياغتها من خلال التساؤل الآتي:

كيف تجلّى مفهوما الاحتجاج والرفض في المسرح العربي وفي مسرحية «مأساة الحلاج» لصلاح عبد الصبور؟

الإطار النظري

المبحث الأول: الاحتجاج والرّفص في النّصوص العالميّة

نتيجة للأوضاع غير المستقرة التي ولدتها الحروب، وما نتج عن ضعفة الأمن وعدم الاستقرار وسوء الحياة، فضلاً عن الويلات والكوارث المأساوية، نتيجة لكلّ ذلك ولد الإنسان الرّفص والمتمرد والثائر على هذه الظروف والسياسات القمعية والديكتاتورية التي تسلّطت على رقاب الشّعوب، وقد اختلفت ردود أفعال الرّفص والتمرد حسب الظروف، والأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية لكلّ مرحلة زمنية، وقد انبثق مسرح الاحتجاج والرّفص كردّة فعل على الظروف الإنسانية المدمرة، ولعلّ هذه الوظيفة ليست صنيعة مسرح الآن، وإنما هي امتداد لعصور مسرحية موهلة في القدم، إلا أنّ ما يميّز هذه الوظيفة هو المظهر الذي تبدو فيه، فهي محكومة بطبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية، وبطبيعة المجتمع نفسه من حيث فاعلية اشتغالها، إذ تختلف المجتمعات في قدرتها على الاحتجاج والرّفص حسب أوضاعها وظروفها، فالمجتمعات مسلوية الإرادة والوعي والثقافة، وطبيعة الحياة السياسية الأخرى لها دورها في الإسهام بشكل كبير في نوع التّحريض الذي يظهر على المسرح، إذ نجد عند بعض الشّعوب سلطة تشجّع المسرح الذي يتسم بالتّحريض ضدها، لغاية منها هي امتصاص نقمة الشّعب عليها من خلال إباحة التّعريض للأزمات اليومية والسياسية لغرض تسويق محتوى المشكلة التّحريضية واحتواء الأزمات، عندها تنتقل المشكلة أو الهمّ الجمعيّ من دائرة التّداول السريّ إلى الكشف المسرحيّ المعلن الذي يُعنى بمغازلة الوعي الشّعبيّ، فيكون تحت مراقبة السلطة وأنظمتها. ومنذ القدم كان المسرح قد عُني بالتواصل مع همّ المتلقي، ولعلّ ذلك نجده واضحاً في ما أظهره أرسطو من مصطلح (التّطهير) في المسرح؛ الذي لا يخلو من تحريض ضمنيّ على التعاطف والانفعال من خلال إثارة عاطفتي الشّفقة والخوف، وأياً كان نوع التّحريض في السّلب أو الإيجاب فإنّه رسالة تسعى إلى المحافظة على سريانها؛ لتحقيق الهدف الذي ترنو إليه. ويدخل التّحريض في ثنائية افتراضية، فكلّ رفض هو احتجاج وكلّ رفض ينطوي على تحريض غايته توجيه سلوك معيّن على الضّدّ منه، فنبذ العنف والحرب هو تحريض واحتجاج، تحريض على السّلام،

واحتجاج على الدمار الذي تلحقه الحروب بالبشرية، وإن رفض الخنوع هو تحريض على الثورة، وهكذا يمكن النظر من خلال هذه الثنائيات إلى جميع العروض المسرحية التي تنطوي على أي شكل من أشكال الرفض على أنها مسرحيات تحريضية أو ذات وظيفة تحريضية، وقد ظهر الاحتجاج والرفض في النصوص المسرحية منذ ظهور المسرح، إذ راح الكاتب المسرحي يتخذ موقف الرفض الذي يجعله في صراع مع القوانين المفروضة عليه، فهو يرفض الآلهة والكنيسة والمجتمع، مؤيداً حقوق الفرد في العيش بحرية، وثائراً ضد الحكومات الفاسدة، والعرف، والقواعد البائدة، ومتمخداً موقف المتمرد، وعاقداً العزم على تحطيم كل الحواجز والمفاهيم والظلم والسلوك الشاذ. فأطلع كتاب المسرح منذ العصور الأولى قبل الميلاد بواجبهم برفض التسلط، والظلم، والاستلاب وقمع الحريات التي يتعرض لها الإنسان على يد الآلهة التي أصبحت قوة للقمع والظلم، فظهرت بعض النصوص التي ترفض سطوة الآلهة وسيطرتها على الحياة العامة، ومن هذه الأعمال مسرحية (أنتيكونا) لسوفوكليس التي تجسد فيها مفهوم الاحتجاج والرفض من خلال شخصية (أنتيكونا) الثائرة والمتمردة، والرافضة للقوانين الاثنية الظالمة، وما تعرض له أباها من ظلم، ومعارضتها للقانون الوضعي الذي فرضته سلطة (كريون) على أخيها الذي أمر بتحقيق جثة (بولينيس) وتركها بالعراب من دون دفن، بعد أن اتهمه بالخيانة، ومهما كانت الأسباب التي دفعت (كريون) إلى اتخاذ قراره ورفض سلطته، فقد رأت هذا القرار مجحفاً بحق أخيها، فأصرت على التحدي والرفض والاحتجاج على قانون (كريون) ودفن أخيها، فأغضب ذلك (كريون) الذي أمر بإعدامها¹. وبذلك مثلت (أنتيكونا) قوة الإرادة والتحدي للسلطة الحاكمة والرفض والاحتجاج على سلوكها وتصرفاتها ودكتاتوريتها. كذلك يمكن أن نلاحظ ذلك الاحتجاج والرفض في مسرحية (ميديا) ليوربيدس فشخصية (ميديا) تمثل الشخصية الرافضة المتمردة والمحتجة على قوانين أثينا وقانون الأبوة وسلطتها وقمعها، فقررت الزواج بمن تحب وتتحدى السلطة الأبوية الجائرة².

1 - سوفوكليس، مسرحية أنتيكونا، ترجمة: علي حافظ، سلسلة من المسرح العالمي، الكويت، 1973.

2 - يوربيدس، مسرحيات يوربيدس، ترجمة: أحمد سلامة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1948.

أما في عصر النهضة فقد انتعشت حرية التفكير، وأصبح الكاتب أكثر قدرة على النقد والتّصريح عن أفكاره بحريّة من دون خوف، وإذا كان أهم خصائص عصر النهضة هو انتعاش حرية التفكير التي تتضمن حرية التّساؤل والبحث، وتدفع إلى إعادة امتحان القيم الموروثة للحياة والموت، وإذا كانت هذه الحرية قد لقيت في كلّ مكان نوعاً من المعارضة الطبيعيّة لها، فإنّها لم تلقَ قطّ في تاريخها مثل تلك المعارضة التي أبدتها محاكم التفتيش الإسبانيّة التي كانت تقمع أيّة حرية للتفكير، إلّا أنّ التّاريخ يخلّد إسبانيا في عصرها الذهبيّ على مستوى الاحتجاج والرفض الذي أظهره بعض كتّاب المسرح في تلك المرحلة، من أمثال (كالدرون) (دي بومارشيه) و(لوب ديفيجا) الذي أظهر قوّة بمواجهة السّلطة والسّخرية منها، والتهكّم عليها والتّحريض ضدها. ففي مسرحية (الخراف) لوب ديفيجا نجد نموذجاً يصرّو ثورة الفلاحين والقرويين في قرية صغيرة ضدّ الحاكم الاستقراطيّ الفاسد، وقتله انتقاماً لشرف إحدى بنات القرية التي اغتصبها ذلك الحاكم. إنّ ذلك الحدث حرض أبناء القرية على أن يوحدوا صفوفهم، وأن يهتفوا عالياً باسم قريتهم، وأن يعترضوا ويحتجّوا على الرّغم من الخوف والقمع. كذلك تعدّ مسرحيّة (حلاق اشبيلية)، ومسرحيّة (زواج فيجارو) للكاتب (دي بومارشيه) من النّصوص التي ظهر فيها الاحتجاج والرفض، إذ هاجم بومارشيه في مسرحيّة (زواج فيجارو) امتيازات النّبلاء، وسيطرتهم على الحياة الاقتصاديّة، ويذكر أنّ هذه المسرحيّة قدّمت عام 1784، وسببت غضباً لدى الجمهور الذي اقتحم أبواب المسرح وحطّم العوائق، وتحوّل بومارشيه إلى قائد شعبيّ وموجه للرأي العام بعد أن امتازت مسرحياته بالجرأة، والصّراحة، والسّخرية اللاذعة¹.

كذلك يظهر نموذج الاحتجاج والرفض في المسرح الألمانيّ من خلال كتابات الكاتب (جيرهاد هاوبتمان) في مسرحيّة (النّساجون)، إذ يتجسّد الغضب والاحتجاج من خلال ثورة (النّساجون) في إحدى قرى سيليزيا، وثورتهم على الظلم والاستغلال بعد أن شعروا أن جلودهم تسلخ وأتاعبهم تّباع رخيصة، وظهورهم تنقّوس وهم لا يجدون لقمة العيش من تعبهم، فنتفاقم النّقمة شيئاً فشيئاً، وتشتدّ فتعصف ثورتهم بأرباب العمل

1 - كارون دي بومارشيه، مسرحيّة حلاق اشبيلية، ترجمة: زكي طليمات، سلسلة المسرح العالميّ 1984، الكويت، 1975

لتحقيق حرّيتهم. أما (برتولد بريخت) فنورته موجّهة ضدّ نفاق المجتمع البرجوازيّ وجشعه وظلمه، إذ تمثّل شخصيّاته المسرحيّة مثلاً للاحتجاج والرّفص والثّورة على الحرب وماخلفتها من دمار، كما في مسرحيّات: «الأم شجاعة»، أو «غاليليو غاليليه»، أو «أوبرا القروش الثلاثة»¹.

وازدادت شدّة الاحتجاج والرّفص بعد الحرب العالميّة الثانيّة، وماخلفته من ويلات على الشّعوب، ومانتج عنها من ضعضة الأمن، وعدم الاستقرار، وسوء الحياة، فضلاً عن الكوارث المأساويّة، إذ ولد نتيجة لكلّ ذلك الإنسان الرافض والمتمرد والثائر. وظهرت حركات جديدة بعد تزايد الوعي الثقافيّ والسياسيّ لدى الشّعوب، وتطوّر المسرح وازدياد أهميّته على السّاحة، ففي أمريكا ظهرت نصوص مسرحيّة اتصلت بتزايد الوعي السياسيّ لدى هذه الشّعوب. ومن أمثلة ذلك نصوص (يوجين أونيل) المسرحيّة، التي تمثّل صرخات احتجاج ضدّ توحش المجتمع الرأسماليّ واستغلاله وقمعه للإنسان، ومثال ذلك: مسرحيّة (القرد كثيف الشّعور) التي تمثّل الصّراع بين طبقة الرأسماليين المسيطرة، التي تمثّلها الفتاة (ميلدرد) ووالدها صاحب مصانع الصّلب من جهة، وبين طبقة العمال الفقيرة الكادحة التي يمثّلها (يانك) ومجموعة الوقادين من جهة أخرى، إذ يمثّل (يانك) شخصيّة الإنسان المتمرد الرافض للسلطة الرأسماليّة وقوانينها وأنظمتها، التي جعلت منه آلة يمكن الاستغناء عنها في أي وقت ورميها في الشّارع². كذلك عبّرت الكاتبة الأمريكيّة (ميكاتيري) عن غضبها واحتجاجها من خلال أعمالها المسرحيّة، ونلاحظ ذلك في مسرحيّة (فيت روك) التي كانت عبارة عن وثائق احتجاج ضدّ الحرب الفيتناميّة وماخلفته من دمار وقتل وتشريد. كذلك كان ظهور مسرح العبث واللامعقول بعد الحرب العالميّة، وهو تجسيد لحال غضب الإنسان ورفضه واحتجاجه على القيم الجديدة التي ظهرت بعد الحرب، فاستخدم كتاب هذا المسرح أسلوب التّهكّم والسّخرية للتعبير عن استيائهم ورفضهم ولاسيّما عندما يحاولون «تفريغ الواقع من إطاره المألوف، والتعبير

1 - روبرت بروستين، المسرح الثوريّ، ترجمة: عبد الحليم البشلاوي، الهيئة المصريّة للتأليف والنشر، القاهرة، 1983، ص 248.

2 - يُراجع، يوجين أونيل، مسرحيّة: الغوريلا، ترجمة: محمد إسماعيل الموفي، ضمن كتاب: من الأعمال المختارة يوجين أونيل-4، ص 133-144

عمّا يدور في هذا الواقع من روابط، وعلاقات غير عادية، وغير متوقعة»¹. وبرزت السّخرية في هذا المسرح بوصفها سلاحاً قوياً في توجيه الازدراء إلى الرّياء، والنّفاق، كذلك برز التّمرد كنوع من الاحتجاج والرّفص في هذا المسرح.

من أشهر كتّاب هذا المسرح (ألبير كامي)، الذي جسّد التّمرد في كثير من نصوصه المسرحيّة، غير أنّ التّمرد عند كامو نوعان: الأوّل تمرد الإنسان على حاله من حيث هو، وهذا ما يسميه بالتّمرد الميتافيزيقيّ، والثّاني تمرد الإنسان على وضعه من حيث هو عبد، وهو ما يسميه بالتّمرد التّاريخيّ، فالنوع الأوّل هو الذي ينبع منه الشّعور بعبث الوجود، وقد يؤدي إلى إنكار القيم جميعاً؛ أي إلى العدميّة المطلقة، أمّا النوع الآخر فهو ما قد يتحوّل إلى ثورات جماعيّة فهو رفض واحتجاج على الواقع الفاسد، وعلى الأنظمة الديكتاتوريّة². وقد جسّد ذلك من خلال أعماله المسرحيّة، كأسطورة سيزيف، «العادلون»، «الغريب»، كذلك حاول كتّاب هذا الأدب أمثال: (صموئيل بيكيت)، و(يوجين يونسكو) أن يعبروا من خلال كتاباتهم عن رفضهم للواقع والثّورة عليه. فقد حاول (بيكيت) أن يطرح من خلال نصوصه المسرحيّة أزمة الإنسان، ووحدته ويأسه من المجتمع الذي يعيش فيه، وهذه النظرة التّشاؤميّة عند (بيكيت) جاءت نتيجة إحساسه بعبثية الحياة وخلوها من أي منطق، وذلك لأن أحداث الحياة «لها الشّكل نفسه المكرر، والزّمان أحداث متتابعة لا معنى لها يندمج كلّ منها بالآخر، بلا وعي حتّى ليصعب تمييزها»³، وهذا ما يمكن ملاحظته في مسرحيتي (في انتظار جودو)، و(نهاية اللّعبة)، إذ يلاحظ فيهما ما تتسم به الحياة من تكرر، ورتابة، وانتظار، وزمن خامل ليس له تأثير، فالشّخصيات الرّئيسة (ستراجون)، و(فلاديمير) في مسرحيّة (في انتظار جودو)، و(هام)⁴، ويتجسّد ذلك في نصوصه المسرحيّة، مثل: (المغنية الصّلعاء)، و(الكراسي)، و(أميديه) الّتي تصوّر عزلة الإنسان، وانقطاع العلاقات بين البشر، كذلك عبر كتّاب

1- جون كروكشانك، ألبيركامي وأدب التّمرد، ترجمة: جلال العشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص 17.

2 - جورج ولورث، مسرح الاحتجاج والتّناقض، ترجمة: عبد المنعم إسماعيل، المركز العربيّ للثقافة والعلوم، بيروت، ص 76.

3 - ينظر: ج.ل.ستيان، الدراما الحديثة بين النّظرية والتّطبيق، ترجمة: محمد جمول، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ص 621.

4- جورج ولورث، مسرح الاحتجاج والتّناقض، مصدر سابق، ص 91.

المسرح التّسجيليّ عن رفضهم واحتجاجهم على الواقع، ومن أشهر كتّاب المسرح التّسجيليّ (بيتر فايس)، إذ جسّد من خلال أعماله رؤيته الخاصّة في هذا المسرح، فيرى (فايس) أنّ المسرحيّة التّسجيليّة معنية بالدرجة الأولى بتوثيق حدث لمادة حقيقية مؤكدة من خلال الرّسائل، والخطب، والإحصائيات، والتّقارير الإخبارية والسّينمائيّة. وعلى الرغم من أن هذه الحقائق هي الأساس المناسب للمسرحيّة الوثائقيّة فإنّه من الأفضل أن تكتب كشكل من الاحتجاج، وتكمن المساهمة الإبداعيّة للكاتب في اختيار وترتيب أفكار المسرحيّة، وكيفية المحافظة على المادة وترتيبها بشكل صالح¹. كما في مسرحيّة (مارا صاد)، التي تتحدّث عن النّوثة الفرنسيّة، وما أصابها من إخفاقات. وقد طبّق من خلالها الكثير من الصّيغ الفنيّة، مثل: أغاني الكورس، والحوار الشّعريّ، ومسرح داخل مسرح، والباننومايم، والرّقص، وتنوّع المشاهد، وعلى شاكلتها جاءت مسرحياته الوثائقيّة الأخرى، مسرحيّة (التّحقيق)، ومسرحيّة (أنشودة أنغولا)، ومسرحيّة (حديث عن فيثنام). ما صور الرّفص والاحتجاج الاجتماعيّ فقد جسّدها (إيسن) في مسرحيّة (بيت الدّمية) التي جسّدت رفض القيم والتّقاليد البالية، وطلب الحرّيّة من خلال شخصيّة (نورا) التي رفضت كلّ المظاهر البالية، فكانت بمثابة صرخة احتجاج فاضحة لكلّ أشكال النّظم، والعلاقات الاجتماعيّة، كذلك تمثّل مسرحيّات (لوركا) نوعاً من التّحريض، والرّفص، والاحتجاج الاجتماعيّ من خلال ماقدّمه من مسرحيّات مثل: (الإسكافية العجيبة) أو مسرحيّة (عرس الدّم) التي أظهر من خلالها نظرة المرأة الإسبانيّة، ومحاولاتها اليانسة لتحديّ الأحوال النّعيّسة، والقيم، والتّقاليد البالية، والتي تجعل منها أثاثاً يُباع ويشتري، ووعاء يحمل هموم الرّجال². فضلاً على ذلك تجسّد مفهوم الغضب والرّفص والاحتجاج في كتابات عدد من الكتّاب المسرح الطّليعيّ الذين رفضوا الواقع والأعمال التقليديّة، فجاءت أعمالهم ترفض الشّكل التقليديّ، فلم تعد المسرحيّة تهتمّ بالبناء المتصاعد المتناسك، ولم يعد للحدث المشوّق والشّخصيّة المرسومة بدقّة تلك الأهميّة، فلقد ثاروا على كلّ هذا، وسخروا منه وتمردوا عليه.

1 - ينظر، د. يسري خميس، مقدّمة مسرحيّة: مارا صاد، تأليف: بيتر فايس، ترجمة: يسري خميس، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنّشر، بيروت، ص 21.

2 - إيسن هنريك، مسرحيّة: بيت الدّمية، ترجمة: سمير عزت نصار، دار النّسر، 1999

كذلك ظهر كتاب في المسرح البريطانيّ الذين عبّروا عن الاحتجاج والرفض للسياسات الديكتاتورية وما تلاقيه الشّعوب من ويلات، ومن أهمّ كتاب هذه المرحلة (جيل جون ازيون) و(روبرت بولت) و(جون أردن) و(أوارج بولد) و(بيتر شيفر)، فكانوا رواد حركة الغضب والاحتجاج، وظهرت هذه الحركة المسرحيّة في منتصف الخمسينات، واتّسمت بنغمة الغضب والسخط وفقدان الوازع¹ لوقد كان هدف مسرح الغضب والاحتجاج هو كسر أسلوب سطوة القرار السياسيّ، وتجنّب البشريّة حدوث حروب أخرى مدمرة، وذلك من خلال تناول الحقائق المغيبة، وكشفها من دون خوف، وقد قاد هذا إلى التحرّر من الوهم والخوف والكتابة بحريّة تامة، وتعدّ مسرحيّة أوزيون (أنظر إلى الخلف بغضب) الانطلاقة الحقيقية لمسرح الغضب والاحتجاج والرفض، فكانت علامة بارزة على استياء الشّباب من أوضاع ما بعد الحرب العالميّة الثّانية، والتمرد عليها ورفض كلّ أسبابها. وقد هاجم (أوزيون) في مسرحيّة (أنظر إلى الوراء بغضب) الكنيسة، واستهزأ بها وبالطبقة الأرستقراطية، والصّحف المنحطة، والنساء المترجلات، والتفرقة العنصريّة، والقنبلة الذرية. كذلك عبّر (هارولد بنتر) في مسرحيّاته عن الرفض والاحتجاج الذي تمثّل في خوف الإنسان وبأسه، وأسلوبه في بلورة الصّراع، وتعرية أعماق النّفس؛ لذا نجد في مسرحيّاته صورًا متنوّعة لمحاكمة الأبناء للأبناء، ومحاكمة الأباء تُعرى من خلالها العلاقات الاجتماعيّة والشخصيّات الإنسانيّة².

ويلاحظ الرفض والاحتجاج في أعمال (جون أردن) كما في مسرحيّة (رقصة العريف مسجرين)، وأيضًا في مسرحيّة الكاتب (أنولد ويسكر) (حساء دجاج بالشعير)، التي ظهرت في العام 1958؛ وهي واحدة من نصوص كثيرة هاجمت الإيديولوجيات والقوانين، ورصدت خيبة الأمل التي تتعرّض لها الجماهير، والسياسات الفاشلة إبّان الحرب الصناعيّة، وخبية الأمل التي ولدتها الحرب في نفوس النّاس، وقد مهد هذا الاتجاه فيما بعد لنصوص مختلفة أخرى، مثل: (القضاء والقدر)، ومسرحيّة (أعياد أول مايو) و(حياة الولد الصّاخب)، ومسرحيّة (قوة الكلب) لباركر و(العيد العنصريّ) لإدجار، إذ

1- صبري حافظ، التّجريب والمسرح، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، 1984، ص45.

2- كريستوفر اينز، المسرح الطليعي، ترجمة: سامح فكري، مركز اللّغات والترجمة في أكاديمية الفنون، القاهرة، 1999، ص442.

هاجمت الحرب الباردة، وتردي القوانين، وفداحة الخسائر البشرية والمادية، التي خلفتها الحرب وتلوث البيئة، وانتشار السلاح المدمر، وقد تميّز مسرح الغضب من خلال تلك النصوص بلغة السخرية والهجاء التي تطلق انتقادات ذكية ولاذعة، كذلك استخدم مسرح الرّفص والاحتجاج في كشف المسكوت عنه في الجانب السياسي من خلال التّوليف المستمد، والفلكلور الشعبي، وإشاعة روح الكوميديا لتقليل الرّتابة والملل، ودقة الحوار في الوصف، والابتعاد عن العبرات الرّنانة الطويلة، كلّ ذلك من خلال حبكة مسرحية متقنة الصّنع لها ذروة قوية تكشف الصّراع وتؤكد¹.

المبحث الثاني: الاحتجاج والرّفص في المسرح العربيّ

أمّا المسرح العربيّ فلم يستطع خطاب التّحريض العربيّ من أن يتخلّص من سطوة السّلطة عليه، سواء كانت هذه السّطوة سطوة مباشرة في التّحدّي والقمع، وأحياناً بالمصادرة لخطاب التّحريض، ومحاولة لتسخيره لصالح السّلطة، وربّما كان ذلك متأثراً من كون معظم السّلطات هي سلطات دكتاتورية ليس لها القدرة على احتواء طبيعة الخطاب وتفهمه، ومن ناحية أخرى عجز الخطاب نفسه على أن يكون فعالاً في عملية التّغيير، كما أنّ خطاب التّحريض يصبح ضعيف الفعاليّة عندما يبيّث إشاعات أو إشارات في مساحة ضيقة من فضاء التّقوي، ذلك لأنّ المساحة تضيق كلّما أصبح المسرح نخبويّاً، فإنّ أي نوع من أنواع التّحريض، سواء كان جمالياً أم أيديولوجياً أم فلسفياً، سيكون غير قادر على إيصال رسالته بفعاليّة وتفعيلها في أي شكل كان، سواء كان تحريضاً صريحاً معلناً، أم كامناً في شفرات ما وراء السّطور، أم في دعوات التّمرد على واقع معين. فالمسرح العربيّ بشكل عام لم ينتج خطاباً تحريضياً بشكل مباشر، وذلك بسبب قمع السّلطات العربيّة للكاتب العربي. لذلك لجأ الكاتب المسرحيّ إلى التّاريخ، إذ بات يقتطع بعض المواقف والأحداث التّاريخية ويسخرها لصالح فكرته المسرحية بعد أن يلبسها ثوب العصر، لينتقاها المشاهد العربيّ كونه جزءاً من تاريخه، فيكون لها تأثير كبير عليه، وفي الوقت نفسه لا تعترض عليها السّلطات لأنها تنتقد مراحل تاريخية ماضية، ولا تقترب من السّلطة الحاكمة، لذلك لم تُعالج هذه النصوص المسرحية ما يتعرض له

1- كريستوفر اينز، المسرح الطبيعي، ترجمة: سامح فكري، ص44.

المواطن العربيّ من قمع واستلاب لحريته والخوف والاضطهاد الذي يمارس ضده، وإنّما راح الكاتب يعالج من خلال هذه الأعمال التّاريخيّة العزّة، والكرامة، ومقاومة الاستعمار، وبناء المجتمع الحرّ الكريم، كما نلاحظ ذلك في مسرحيّات (عسكر وحرامية)، و(الزّير سالم) «للافريد فرج»، و(كيف تركت السيّف) لممدوح عدوان، و(مغامرة رأس المملوك جابر) لسعد الله ونوس، وغيرها من الأعمال المسرحيّة الّتي قدّمت في البلدان العربيّة، لكن مع ظهور الثّورات العربيّة ضدّ الأنظمة الحاكمة، والّتي جاءت بعد مرحلة الاستقلال لتلك الدّول، والّتي أدّت إلى شيوع الكثير من الأفكار الثّوريّة الّتي تطالب بالثورة على الفساد، والظلم الاجتماعيّ، والمساواة والثّقافات الطبقيّ، وأدّى هذا إلى تحوّل كبير في كتابة المسرحيّات التّاريخيّة، إذ بات الكاتب العربيّ يعالج أحداثاً تاريخيّة جديدة تغيّر ما اعتاد كتّاب المسرحيّة التّاريخيّة معالجته في المرحلة الأولى. فبعد أن كانت تطرح فكرة التّصديّ الأجنبيّ ومقاومة الاستعمار، أصبحت المسرحيّات التّاريخيّة تنتقد الظلم والقمع والتّصديّ للسلطة الحاكمة. وبعد أن كان الصّراع التّاريخيّ يجري بين قوّة خارجيّة متعدّية وبين العرب، أصبح الصّراع يجري بين السلّطة العربيّة والشّعب، وبدلاً من اختيار المراحل التّاريخيّة الرّاهية بالانتصارات، اختيرت المراحل المظلمة الحافلة بالظلم والظلم، فمثلاً في المرحلة الأولى كان فتح الأندلس يقابلها في المرحلة الثّانية (غروب الأندلس)، و(أبطال المنصورة) حلّ محلهم (الحسين ثائراً)، و(الحسين شهيداً)، وفتوحات بلاد الشام يقابلها اجتياح بلاد الشام وسقوط بغداد، ومن النّقاط المهمّة في اختيار المادّة التّاريخيّة في هذه المرحلة كان في انتقاء أبطال الحدث التّاريخيّ، فبعد أن كانوا من الطبّقات الارستقراطيّة، أو من القادة المشهورين بانتصاراتهم، صاروا من عامّة النّاس والفقراء والشهداء، فبرزت شخصيّات من أمثال (الحسين بن علي) و(صاحب الرّنج) و(أبو ذر الغفاري) و(أبو خليل القباني) و(رفاعة الطهطاوي) و(الحلاج) (ثورة الرّنج) و(المهراج). وهؤلاء جميعاً عذبوا وقُهِروا على يد أبناء جلدتهم، وذلك لما حملوه من أفكار مغايرة، ورفض واحتجاج ضدّ الأنظمة الحاكمة.

ما أسفر عنه الإطار النظري:

1. ظهر مسرح الغضب بوصفه أحد علامات الاحتجاج والرفض السياسي في المسرح العالمي، وتزايد خلال مرحلة الحرب الباردة التي سادت بين القطبين. كذلك ظهور كثير من الأنظمة القمعية والدكتاتورية في العالم كان علامة بارزة على استياء الشباب من أوضاع ما بعد الحرب العالمية والنمرد عليها ورفضه كل أسبابها.
2. وضع مرجعية علمية له من خلال إدانته للحرب والسياسات القمعية الفاشية، وفضح القرار الذي ساد وهيمن على السياسات الدولية، مثل حالات الطوارئ والاستعدادات لصنع الحروب، والغزو وقمع الشعوب، وكل أشكال الاحتلال.
3. أسهم كتاب المسرح بواجبهم برفض التسلط، والظلم، والاستلاب، وقمع الحريات التي يتعرض لها الإنسان على يد السلطة الحاكمة التي أصبحت قوة للقمع والظلم والاستلاب.
4. استخدم كتاب هذا المسرح أسلوب التهمك والسخرية للتعبير عن استيائهم، ورفضهم للواقع من خلال كتاباتهم المسرحية، وذلك من خلال تفرغ الواقع من إطاره المألوف، والتعبير عما يدور في هذا الواقع من زيف واغتراب، وتحلل الروابط الاجتماعية.
5. برزت السخرية في هذا المسرح بوصفها سلاحاً قوياً ضدّ الرّياء، والتّفاق، كذلك برز النّمرد كنوع من الرّفض والاحتجاج في المجتمع.
6. أصبحت أزمة الإنسان وغريته ويأسه في المجتمع، وعدم الانسجام بين وضع الإنسان ورغباته تهيمن على كتاباتهم.
7. رفضوا الواقع والأعمال التقليدية، وجاءت أعمالهم ترفض الشكل التقليدي، فلم تعد المسرحية تهتمّ بالبناء المتصاعد المتماسك، ولم يعد للحدث المشوق والشخصية المرسومة بدقة تلك الأهمية عندهم.
8. كان هدف مسرح الغضب والاحتجاج هو كسر سطوة القرار السياسي ومحاولة تجنب البشرية حدوث حروب مدمرة، وذلك من خلال معالجة الحقائق المغيبة، وكشفها من

دون خوف، وقد قاد هذا إلى التحرر من الوهم والخوف والكتابة بحرّية تامة.

9. هاجمت نصوصهم المسرحية الأيديولوجيات والقوانين، ورصدت خيبة الأمل التي تتعرض لها الجماهير والسياسات الفاشلة أبان الحرب الصناعيّة، وخبية الأمل التي ولدتها الحرب في نفوس الناس.

10. تميّزت نصوص مسرح الرّفص والاحتجاج بلغة السّخرية والهجاء وإطلاق انتقادات لاذعة وذكية للسلطة وأنظمتها القمعيّة، والكشف عن المسكوت عنه في الجانب السياسيّ من خلال توظيف الفلكلور الشعبيّ، وإشاعة روح الكوميديا والبهجة، وزرع روح الأمل من أجل تقليل الرّتابة، والملل، واستخدام الحوار الدقيق، والوصف، ومحاولة الابتعاد عن العبارات المملة والطويلة.

المبحث الثالث: مسرحيّة مأساة الحلاج تأليف صلاح عبد الصّبور¹

ملخص حكاية المسرحيّة: اختار الكاتب حكاية تاريخيّة، وهي قصّة رجل من أقطاب الصّوفيّة هو (الحسين بن منصور الحلاج) الذي عاش في بغداد في القرن الثالث والرّابع الهجريين، ليجعل من هذه الحكاية فكرة لمسرحيته، تحكي المسرحيّة قصّة الحلاج الذي حاول إيقاظ الفقراء، وتبصيرهم بجهلهم وظلم السّلطات لهم، وقد حاول صديقه (الشّبلي) و(إبراهيم) أن ينصّحاه ويحذراه من متابعة السّلطة له، لكنّ (الحلاج) يصرّ على مواصلة طريقه في تنقيف النّاس، ممّا حدا بالسلطات إلى إلقاء القبض عليه بحجة تحريض النّاس ضدّ السّلطان، والكفر بالذات الإلهيّة، ويقدم إلى المحاكمة، ويحاكم من قبل قضاة، وهم من أعوان السّلطة، ويتهم بالزندقة والإلحاد، وبعد محاكمة صوريّة يحكم عليه بالإعدام شنقاً، ويعدم في إحدى ساحات بغداد على جذع شجرة.²

تحليل المسرحيّة:

استلهم (صلاح عبد الصّبور) حكاية الحلاج التّاريخيّة، فجعلها ثيمة لنصّه المسرحي، ليتجاوز من خلالها حدود الزّمان والمكان، وليعبّر عن روح العصر ومشاكله المعاصرة، وما تثار فيه من مشكلات سياسيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة، وفكريّة، وليدين

1 - يُراجع صلاح عبد الصّبور، مسرحيّة: مأساة الحلاج، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ص122-6

2 - صلاح عبد الصّبور، مأساة مسرحية الحلاج، ص28.

بها الأنظمة العربيّة القمعيّة، التي تحارب المفكرين والمتقنين المعارضين للسلطة، وتتهمهم بثتى النّهم من أجل قهرهم واستلابهم، وجعل المتقف أمام خيارين: إمّا أن يدجن للسير في ركاب السلّطة، وإمّا أن يُصَفّى من قبل أجهزتها القمعيّة.

يتكوّن النّصّ من جزأين، وعنون الكاتب كلّ جزء بعنوان، فجعل الجزء الأوّل (الكلمة)، والجزء الثّاني (الموت)، ليعطي إحاء بأنّ نهاية الكلمة الشّريفة المقاتلة هو القتل على يد السلّطات، وقد ظهر مفهوم الاستلاب في هذا النّصّ بأنواع مختلفة منها الاستلاب السّياسيّ، والثّقافيّ، والدينيّ، والنّفسيّ، حيث سلّط الكاتب الضّوء على شخصيّة الحلاج، التي هي الشّخصيّة الرّئيسة في النّصّ الرافضة للسلّطة لحاكمة، والتي ترمز لكلّ المفكرين والمتقنين، وكلّ الطبّقات الواعية، التي تحاول السلّطات سلب حرّيّتها، وإرادتها، وفكرها الحرّ، وإسكاتها من أجل أن تظلّ أقلامها تصدح في مدح السّلطان وأعوانه، لذا تتابع السلّطة الحلاج، وما يقوم به من اتصال مع الفقراء، بعد أن شعرت بأنّ وجوده هو خطر عليها، فتحاول اعتقاله، ممّا جعل صديقة (إبراهيم بن فاتك) يحذّره من السلّطة التي تحاول القبض عليه بتهمة تحريض النّاس على السّلطان.

«إبراهيم : كنت أزرور اليوم القاضي ابن سريج ونبأني أنّ ولاة الأمر يظنون بك السّوء.

الحلاج: بي يا إبراهيم؟

إبراهيم: ويقولون هذا رجل يلغو في أمر الحكام، ويؤلب أحقاد العامة، ورجائي أن أنبيك رجاءه بالحيفة والكتمان»¹.

لقد حاول (الحلاج) إصلاح المجتمع، وتغييره باستخدام الكلمة وجعلها نوراً يضيء الطّريق إلى الخلاص، ولكن هذا يثير حفيظة السلّطة، مما جعل الشّرطة تقوم باستدراج (الحلاج) حتّى أوقعته في تهمة الرّندقة، واقتادته إلى السّجن، الذي حاول أن يجعل منه الكاتب رمزاً للظلام، والقهر، والتعفن، والحرب النّفسيّة، وسوط السّجان، بل أداة القهر والتّعذيب وإسكات الأصوات المعارضة.

1 - صلاح عبد الصّبور، مسرحيّة مأساة الحلاج، ص67.

ويلاحظ في هذا النصّ السّجّان المدجج بكلّ أسلحة التعذيب، وهو يحاول إسكات صوت الحلاج وقهره، ممّا يفصح سادية الجلاد، ووحشيته، وهمجيته التي تمظهرت في الرّغبة في جعل الآخرين يعانون، أو أن يراهم يعانون جسمياً وذهنياً، وفي داخل السّجن تحاول السّلطة ممارسة سياسة التّئيس ضد(الحلاج) بقصد السّيطرة عليه، ومحاولة إخضاعه لرغباتها، وحجب الحقائق عنه، وإبراز حقيقة واحدة هي أنّ القوّة التي تفرض سطوتها عليه قوة قدرية، ليس له قدرة على التّخلص منها أو استبدالها، بل عليه الخضوع لإرادتها وسطوتها، لذا تستلب حرّيته وإرادته في داخل السّجن، ويعيش حالة من الاستلاب النّفسيّ والجسديّ من خلال المعاملة القاسية التي تتحوّل أحياناً إلى الجلد بالسوط من أجل إخضاعه بالقوّة، لكنّ الحلاج هو من ينتصر على سوط الجلاد، فالكلمة دائماً تبقى أمّا الجلادون فهم زائلون.

«الحارس: (يضربه بالسوط والحلاج هادئ مبتسم، يلمّ ثوبه، ويزداد الشّرطي عنفاً، وتتلاحق ضرباته)، ثم (يهتف بالحلاج) لم لا تصرخ؟

الحلاج: هل يصرخ يا ولدي جسد ميت؟

الحارس: اصرخ .. اجعلني اسكت عن ضريك.

الحلاج: ستملّ وتسكت يا ولدي .

الحارس: اصرخ.. لن أسكت حتّى تصرخ .

الحلاج: عفوًا يا ولدي، صوتي لا يسعفني»¹.

أمّا في الفصل الثّاني فيلاحظ كيف يصوّر الكاتب المحاكمة الصّورية التي جرت (للحلاج) من قبل قضاة هم من زبانية السّلطة، وذلك بعد أن فشلت كلّ أساليب السّلطة القمعية في إطفاء جذوة الحماس والتّحديّ عند الرّجل، فتجري معه التّحقيقات المعبرة عن خوف الحاكم من المحكوم، أكثر من خوف المحكوم من الحاكم لفساد أجهزة الدّولة التي تتوافق بعضها بعضاً، وتتعامل بالجهل والغرور، فالشرطة خدام السّلطان، والمحكمة أيضاً ألعوبة في يده، والقضاة لا يحكمون إلا بما يرضي السّلطان الذي يصدر أحكامه

1- صلاح عبد الصّبور، مسرحية مأساة الحلاج، ص 88-87.

قبل المحاكمة، وما على القاضي إلا أن يقرأ الحكم على المتهم، وهذا يعطي صورة واضحة للحال التي وصل إليها العدل في ظلّ الأنظمة القمعيّة العربيّة التي تهزأ بالعدل وبأرواح النّاس، وبذلك يكون المواطن العربيّ مداناً من دون تهمة دائماً، وينفذ به الإعدام من دون ذنب ما دام هو معارض وله صوت ينتقد السّلطة. لذا يلاحظ كيف تجري (للحلاج) محاكمة صوريّة من قبل قضاة يصدرّون أحكامهم من دون محاكمة، مادام السّلطان من اتّهم الحلاج بالعصيان، فالأحكام تكون جاهزة قبل المحاكمة.

« ابن سريج: أفلا يعني وصفك للحلاج بالمفسد، وعدو الله قبل النّظر المتروى في مسألته، إنّه قد صدر الحكم ولا جدوى عندئذٍ أن يعقد مجلسنا.

أبو عمر: هذا رجل دفع السّلطان به في أيدينا موسوماً بالعصيان، وعلينا أن نتخير للمعصية جزاء عدلاً (...). ما نصنعه أن نجدل مشنقة من أحكام الشّرع، والسّياف يشدّ الحبل»¹

يحاول القاضي أن يؤول كلام (الحلاج) من أجل لف حبل المشنقة حول رقبتّه، وجعل الحكم الصّادر بحقه وكأنّه صدر فعلاً بناء على تهم اعترف بها المتّهم، وبذلك يسعى الكاتب أن يعطي صورة عن كيفية توجيه التّهم للمواطن العربيّ البريء في دهاليز السّجون من قبل أعوان السّلطان، وكيف تستلب إرادته ورأيه.

«أبو عمر: معنى هذا أن الدّولة تشقى في ظلّ خلافة مولانا، ويقول إنّ الفقر يعرّيد في الطّرقات.. معنى هذا أن الأُمَّ لا تجد الأقوات.. ولتسأل عندئذٍ من سلب الأقوات.. وتؤدي هذي الألفاظ بالفقراء إلى نبذ الطّاعة ولزوم الفتنة»²

وتستمر مؤامرة السّلطة على الحلاج، إذ يلاحظ كيف يحاول الكاتب تعرية السّلطة، ويبين مدى ظلّمها لكلّ من يعارض سياستها، ومحاولتها تسقيطه سياسياً ودينياً واجتماعياً، وذلك عندما يصدر السّلطان أمراً بإعفاء (الحلاج) من تهمة التّأمر على السّلطة، أما تهمة الكفر والإلحاد فإنّ السّلطة لا يمكن أن تتنازل عنها حسب قرار السّلطان، لأنّها تمسّ الذات الإلهيّة، والغرض من ذلك تشويه صورة الحلاج بين أبناء الشّعب، وعندما

1- صلاح عبد الصّبور، مسرحيّة مأساة الحلاج، ص113.

2 - صلاح عبد الصّبور، مسرحيّة مأساة الحلاج، ص116-115.

يعدم (الحلاج) لا يكون مناضلاً ضدّ الدّولة فيتحوّل إلى بطل، بل يعدم لأنّه كافر وملحد، وتجاوز على الذات الإلهية حتّى تنبذه العامّة.

« أبو عمر: هبنا أغفلنا حقّ السلطان، ما نصنع في حقّ الله (...) فالوالي قد يعفو عن يجرم في حقّه، لكن لا يعفو عن يجرم في حقّ الله.

ابن سريج: بل هذا مكر وخداع، فلقد أحكمتم حبل الموت، لكن خفتم أن تحيا ذكراه، فأردتم أن تمحوها، بل خفتم سخط العامّة ممن أسمع أصواتهم من هذا المجلس، فأردتم أن تعطوه لهم مسفوك الدّم، مسفوك السمعة والاسم»¹.

لقد كان عذاب (الحلاج) رمزاً لعذاب المفكرين في معظم المجتمعات العربيّة الحديثة، وحيرتهم بين السيّف والكلمة، وقد اختار الكلمة سلاحاً له، ليقاثل من خلالها السلطنة، وهي من تنير طريق الفقراء، لذا عندما يطالب (السّجين الثاني) من (الحلاج) برفع السيّف ليقاثل به السلطنة الظّالمة يرفض ذلك، ويرى أنّ الكلمة أشدّ قوّة وتأثيراً على الشعب، لذا حاولت السلطات إطفاء كلماته وإسكات صوته وفكره، وفرض أفكارها وثقافتها عليه، وبذلك استلبته السلطنة ثقافياً وفكرياً من أجل إرهاب وإسكات الأصوات الحرّة التي تطالب بالإصلاح، والمساواة، والحرية، وشراء أصوات النّاس بالترهيب والترغيب، واستلاب شعبه بأكمله وكنم صوته، وحرّيته، وإرادته، وهذه إدانة لكلّ الأنظمة العربيّة أحادية الفكر والثّقافة، والتي تحاول تدجين المثقفين العرب على وفق أهوائها ومصالحها.

«السّجين الثاني: كي تحمل سيفك من أجل الناس.

الحلاج: مثلي لا يحمل سيفاً.

السّجين الثاني: هل تخشى حمل السيّف؟

الحلاج: لا أخشى حمل السيّف، ولكنّي أخشى أن أمشي به، فالسيّف إذا حملت مقبضه كفّ عمياء أصبح موتاً أعمى»².

1 - صلاح عبد الصّبور، مسرحيّة مأساة الحلاج، ص78.

2 - صلاح عبد الصّبور، مسرحيّة مأساة الحلاج، ص10.

كذلك يلاحظ كيف يصوّر الكاتب الشّعب المستلب الذي يتحوّل إلى كتلة ليس لها أي رأي، بل يلتزم الصّمت، ويسكت على الظلم والقهر والتّعذيب ولا يحرك ساكنًا حتّى في أشدّ الحالات بطشًا، وذلك بعد أن استخدمت معه السّلطة أسلوب التّرهيب والتّرهيب، كأسلوب فعّال في مصادرة الحريّات، فتحوّل الشّعب إلى قطيع خانع تقوده كيفما تشاء وحسب أهوائها، بل جعلته أداة لقتل الحلاج، يلاحظ هذا في المشهد الأوّل من الفصل الأوّل، فالشعب يظلّ صامتًا، ويأخذ موقف المتفرّج عندما يُعدم الحلاج، ويُعلق على جذع شجرة في إحدى الميادين العامة، ولم يجد الشّعب ومواليه سوى نذب حظّم العاثر، وتوجيه النّهم إلى أنفسهم باشتراكهم في قتله بدل الثّورة على السّلطات.

«المجموعة : صفونا.. صفًا.. صفًا.. الأجهر صوتًا، والأطول.. وضعوه في الصّفّ الأوّل.. ذو الصّوت الخافت والمتوانى.. وضعوه في الصّفّ الثاني.. أعطوا كلاً منا دينارًا من ذهب قانٍ برآقًا.. لم تلمسه كف من قبل.. قالوا: صيحوا.. زنديق كافر.. صحنًا.. زنديق كافر.. قالوا: صيحوا فليقتل إنّنا نحمل دمه في رقبتنا.. فليقتل إنّنا نحمل دمه في رقبتنا.. قالوا: امضوا فمضينا»¹.

ويحاول الكاتب من خلال الحوار بين القاضي (أبو عمر) و(الحلاج) فضح أساليب السّلطة لتجويد النّاس من أجل أن يبقى الشّعب يسير في فلك السّلطة، وهذه إدانة للأنظمة العربيّة الفاسدة التي تستعبد شعوبها وتجوعهم تحت مقولة (جوع كلبك يتبعك).

«الحلاج: لا يفسد أمر العامة إلا السّلطان الفاسد يستعبدهم ويجوعهم.

القاضي أبو عمر: هل تبغي أن يرتفع الفقر عن النّاس.

الحلاج: الفقر؟ ليس الفقر هو الجوع إلى المأكّل إلى الكسوة، الفقر هو القهر، الفقر هو استخدام الفقر لإذلال الرّوح، الفقر هو استخدام الفقر لقتل الحبّ، وزرع البغضاء».

وكان (الحلاج) بكلماته الصّوت الوحيد الذي أدان الواقع المشوّه في مجتمع يحكمه الفرد الأوحد الذي يمسك مقاليد الأمور، وبطانة واسعة تستلب النّاس باسم السلطان، وأفراد الشّعب مستلبون ومبعدون بفعل الخوف، والنّصفيّة الجسديّة، والتّعذيب. وقد ظلّ

1 - صلاح عبد الصّبور، مسرحيّة مأساة الحلاج، ص112.

الشَّعب خانعًا مستنلَبًا، ليس أمامه خيار سوى الابتعاد عن السُّلطة وعدم المساس بها، وأصبح وعَاط السُّلطين يزرعون الخوف والرَّعب في قلوب النَّاس من السُّلطة، لذا يحذر الواعظ النَّاس من الكلام عن السُّلطة أو أعوانها، حتَّى يحافظوا على أرواحهم.

«الواعظ: الأيام غريبة، والعاقِل من يتحرَّر في كلماته.. لا يعرض بالسوء لنظام، أو شخص، أو وضع، أو قانون، أو قاض، أو وال، أو محتسب، أو حاكم»¹.

كذلك يكشف الحوار بين الحلاج وبين صديقه (إبراهيم) عن بطش السُّلطة، واستسلام النَّاس لها، ويصبحون كأنَّهم أموات ليس لهم رأي يسمع أو اعتراض، بل كأنَّهم أموات قبل أن يموتوا، لقد قتلت فيهم السُّلطة كلَّ ما هو حيّ، وزرعت في قلوبهم كلَّ ما هو مخيف، وهذا يمثِّل استسلام شعب، وانقياده، وسلب حرِّيته، وخضوعه إلى السُّلطة وأزلامها .

«إبراهيم : يا مولاي في عصر ملثات قاس.. وضنين.. لن يصنع ربِّي خارقة أو معجزة كي ينقذ جيلًا منهاكًا.. قد ماتوا قبل الموت.

الحلاج : كم أخطأت الفهم لا أطلب من ربِّي أن يصنع معجزة، بل أن يعطيني جلدًا كي أدرك أصحابي عنده»².

النَّتائج

1. ظهر الرِّفْض والاحتجاج في عينة البحث وذلك من خلال شخصيَّة (الحلاج) التي ترفض الواقع وتتمرد عليه.

2. استطاع «صلاح عبد الصَّبور» من خلال استخدامه شخصيَّات شعبيَّة أتعبتها السُّلطات، أن يظهر رفضه وإدانتته للواقع المعاش، ورفض كلِّ أشكال الظلم والاستبداد.

3. استخدم الكاتب أسماء لشخصيَّاته تتناقض مع حقيقة هذه الشَّخصيَّات، وذلك ليظهر كيف كانت هذه الشَّخصيَّات، وكيف أصبحت بسبب ظلم السُّلطات التي تغيَّر كلِّ

1 - صلاح عبد الصَّبور، مسرحيَّة مأساة الحلاج، ص112.

2 - صلاح عبد الصَّبور، مسرحيَّة مأساة الحلاج، ص53.

شيء حتى الإنسان.

4. استخدم الكاتب لغة شعريّة ليعبر من خلالها عن رفضه واحتجابه على السّلطة الحاكمة، ولتوعية الشّعب دينياً وثقافياً واجتماعياً.
5. لجأ الكاتب إلى لغة التّهجم والازدراء والسّخرية، واستخدم انتقادات لاذعة وذكية للتعبير عن حالتي الغضب والاحتجاج على الأنظمة العربيّة القمعيّة.
6. حاول الكاتب الكشف عن المسكوت عنه في الجانب السياسيّ من خلال استخدام بعض الأمثال الشّعبيّة.
7. استخدم الكاتب لغة بسيطة مفهومة من قبل الجميع، ودقة في الحوار والوصف، وحاول الابتعاد عن العبارات الرّنانة الطويلة.

أما ما يتعلّق بكتاب المسرح العربيّ فقد:

1. استطاعوا رفض الحروب والاحتجاج عليها من خلال بعض نصوصهم المسرحية.
2. استخدموا لغة التّهجم والازدراء والنّكته للتعبير عن المسكوت عنه خوفاً من السّلطات الحاكمة.
3. استخدموا الفلكلور والأغاني الشّعبيّة والأمثال في بعض كتاباتهم للتعبير عن رفضهم للواقع .
4. استخدموا شخصيات شعبيّة فقيرة للتعبير عما تتركه الحرب من دمار في المجتمع.
5. جعلوا من أبطال بعض نصوصهم المسرحيّة يحملون رمزاً شعبيّاً، وفكراً سياسياً حرّاً ينادي بالعدالة الاجتماعيّة، والثّمرد على كل ما هو ظالم والثّورة عليه.

المصادر والمراجع

1. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 2009.
2. اينز (كريستوفر)، المسرح الطبيعي، ترجمة: سامح فكري، مركز اللغات والترجمة في أكاديمية الفنون، القاهرة، 1999.
3. بكير عبدالله عبد الرحمن، مفهوم جون آردن للغضب والاحتجاج، دار الحرّية للطباعة والنشر، بغداد، 1985.
4. حافظ صبري، التّجريب والمسرح، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، 1984.
5. ستیان (ج.ل)، الدراما الحديثة بين النظرية والتطبيق، ترجمة: محمد جمول، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، 1992.
6. صليبا جميل، المعجم الفلسفيّ، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، 1982.
7. العسكري أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط9، 1989.
8. كروكشانك جون، البيركامي وأدب التّمرد، ترجمة: جلال العشري، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، 1986.
9. ولورث جورج، مسرح الاحتجاج والتناقض، ترجمة: عبد المنعم إسماعيل، المركز العربيّ للثقافة والعلوم، بيروت.

المسرحيات

1. إبسن هنريك، مسرحية: بيت الدّمية، ترجمة: سمير عزت نصار، دار النّسر، 1999.
2. أونيل يوجين، مسرحية: الغوريلا، ترجمة: محمد إسماعيل موافي ضمن كتاب: من الأعمال المختارة يوجين اونيل-4.
3. بيكيت (صموئيل)، مسرحية: في انتظار جودو، ترجمة: بول شاوول ضمن كتاب: من المسرح العالمي، العدد 271-270، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1993.
4. خميس يسري، مقدمة مسرحية: مارا صاد، تأليف: بيتر فايس، ترجمة: يسري خميس، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنّشر، بيروت.
5. دي بومارشيه كارون، مسرحية حلاق إشبيلية، ترجمة: زكي طليمات، سلسلة المسرح العالمي، الكويت، 1975.
6. سوفوكليس، مسرحيّة انتيكونا، ترجمة: علي حافظ، سلسلة من المسرح العالمي، الكويت، 1973.
7. عبد الصبور صلاح، مسرحيّة: مأساة الحلاج، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1996.
8. يوربيدس، مسرحية ميديا، ضمن كتاب: مسرحيات يوربيدس، ترجمة: احمد سلامة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1984.

مسرحية الدولار للكاتب ديفيد بنسكي (تقديم وترجمة)

The Dollar Play by David Pinsky (Presentation and translation)

د. صالح مهدي حميد الشكري

Dr.Saleh Mahdi Hamid Al-Shukri

تاريخ القبول 2024/8/25

تاريخ الاستلام 2024 /8/1

توطئة

ديفيد بنسكي كاتب مسرحي وروائي من أصول روسية، وُلد في عام 1872 وتوفي في العام 1959، وتنتقل بين العواصم موسكو وفيينا ووارسو ونيويورك. تُعد مسرحية الفصل الواحد هذه من بين الأعمال «الدرامية الأيديولوجية»، فهي تنتمي إلى (مسرح الأفكار)، ما دامت تُعبر عن مفاهيم العاطفة والاحتجاج. ناهيك عن حجم المغالاة التي يُظهرها الناقد رولاند لويس، فهو يصف الدراما- ومنها هذا العمل -بأنها «تجسيد لتفسير الحياة» لذلك فالمسرحية «هي القائد والدليل، كما كانت كلمات الشعراء القدامى والأنبياء.» من الواضح أيضا أنّ الكثير من النقاد والدارسين قد عرضوا عن إيلاء هذه المسرحية أهمية مميزة، بسبب الاهتمام بأعماله المسرحية والروائية الأخرى. نحسب أن بنسكي قد أفلح بمسرحه حادثة ذات مفارقة درامية. يتحدث الكاتب نفسه عن ظروف كتابة هذه المسرحية عام 1913 فيقول أنّه كتبها عندما كان يعاني من ضائقة اقتصادية، وسعى الى التخفيف من آثارها الموجهة عن طريق الضحك من القلب عليها، للتيل من ذلك «الدولار الأعظم!» والسخرية منه كما فعل ذلك في أعمال درامية.

نزع أن (الدولار) مسرحية «رمزية» على اعتبار أنّها استعارة مجازية (Allegorical)؛ فالدولار يُعد رمزا (للسلطة)، فعند انتقاله بين (الممثل الكوميدي) و(الرجل الشرير)، تنتقل معه السلطة وقوة التحكم والقرار بمصير الآخرين من أعضاء الفرقة الذين لا يتوانون عن

التعبير عن تجبلهم لتلك السلطة. في مشهد سجود (الممثل التراجيدي) أمام الدولار، يتحدث عما يعنيه الدولار لهم جميعاً. يقول (الممثل التراجيدي): «أيها الدولار المقدس، آه، يا حاكم الوجود الأعظم؛ نسجد أمامك على ركبتنا في التراب ونبعث إليك بصلواتنا القلبية المهيبية. أيدينا مكتوفة، وقلوبنا تناضل صوبك، وأرواحنا تحنو إليك. آه، يا ملك الملوك الأعظم، أنت الذي يجمع المنفصلين عن بعضهم معاً، وأنت الذي تفرق القريبين عن بعضهم، وأنت الذي -»

إزاء الوظيفة المجازية ذات المفارقة للدولار، يستطيع المتلقي أن يكتشف قيمة رمزية ودلالية للويسكي أيضاً. لا ريب أن الكاتب يدلّل أنّ (صاحب السلطة) يستجد بالشراب لإبعاد اهتمام الجميع عما يحيط بهم من مصاعب، وبالتالي تُتاح له الفرصة للانفراد ب(السلطة) وجني ما يروم من أرباح ومنافع. ناهيك عن اختلاف أدواتها وسبلها، تمارس السلطة عمليات (التخدير) لتتمكّن من الاستحواذ على كلّ شيء. فعلى الرغم من أنّ أعضاء الفرقة لا يحتسون شراب الويسكي حقاً وإنما يشمون رائحته فقط، إلا أنهم تناسوا جميعاً موضوعه (الدولار) والأزمة المحيطة بقدرهم. يشير بنسكي في (التوجيهات المسرحية) إلى انشغال أفراد الفرقة بالشراب وتناسيهم حقيقة أنهم عالقون دون طعام ينتظرون الوصول إلى «فندق لم يُنشأ بعد»، فيبدأ الجميع بالتعبير عن النشوة: «الرجل العجوز يضحك، ويفرك يديه. تنهض المرأة العجوز دون مبالاة وتتقدّم دون اكتراث صوب القارورة. البطلة والفتاة السانجة تمسكان ببعضهما وتتدفعان بخطوات (باليه) بإيقاع (الفالز) يقترب الجميع من الممثل الكوميدي وراقبهم ممدودة بتلهّف، ويشمون بداخل القارورة التي يمسك بها الممثل الكوميدي بكلتا يديه بقوة»، حتى يصحو الجميع على خطاب الرجل الشّرير: «إنني مفوّض الدولار الأعظم المطلق، لذلك فأنا الحاكم الأعظم، لذلك فأنا الحاكم الأعظم نفسه. على ركبكم، أمامي!»

لا ريب أنّ الكاتب المسرحي قد أدرك، بشكل مبكر، أيديولوجيا تأثير «الثورة الصناعية» على مستقبل البشرية، والتحوّلات المادية الحاكمة لتصرفات كلّ من السلطنة الحاكم والمحكوم. من الجلي أنّ الدولار، رمزاً، هو سبب الشّرور البشرية، ناهيك عن تأثيره على التبدّل المؤلم الذي يطال السلوكيات البشرية؛ فمن أجل المال السلطنة يتخاصم

أعضاء الفرقة أبناء الشعب الواحد ويتقاتلون متنازلين عن جميع القيم النبيلة التي تحفظ كرامة الانسان وقيمه: لا تتردد الفتاة الساذجة والمرأة العجوز والبطلة عن فعل أي شيء، كما هو الحال مع أعضاء الفرقة الآخرين. لعل السؤال الذي تجيب عنه المسرحية هو أن الإنسان، أمام فقدته لقوته وماله وسبل عيشه، لن يتردد عن التنازل عن قيمه البشرية. هنا، إذًا، يكمن النقد الأيديولوجي للمادية، فالعمل، على حد زعمنا، استشراف لما آل إليه استشراء القيم المادية على حساب القيم الإنسانية البشرية.

يثير المشهد الختامي تساؤلاً مستقبلياً، وهو أن النزوع نحو الحصول على السلطة يتناسل؛ فالغريب باستعماله السلاح يؤشر تنامي وسائل الوصول الى السلطة.

الشخص

الممثل الكوميدي

الرجل الشرير

الممثل التراجيدي

الرجل العجوز

البطلة

الفتاة الساذجة

المرأة العجوز

الرجل الغريب

(مفترق طرق على حافة غابة. يمتد أحد الطرق من اليسار الى اليمين؛ يتقاطع الآخر مع الأول بشكل مائل، ويختفي داخل الغابة. يُحدّ العشب جانب الطريق. على اليمين هناك علامة دلالة؛ وعليها تمّ تثبيت لوحين تشيران إلى الاتجاه والمسافة.)

(مساء أحد أيام الصيف. تدخل فرقة تمثيلية جوالّة عالقّة من اليسار. يبدو الممثلون مرهقين وريثاث الثياب. يدخل الممثل الكوميديّ أولاً وهو يحمل حقيبة سفر في كلّ يد، يتبعه الرّجل الشّرير وهو ينقل من فوق ساعديه زمتين كبيرتين جدّاً، تمّ لهما بأغطية فراش. وخلفه في الحال يظهر الممثل التّراجيديّ والممثل الذي يؤدّي دور الرّجل العجوز وهما يحملان سويّة جذعا كبيرا وثقيلاً.)

الممثل الكوميديّ: (يخطو صوب علامة الدّلالة، وهو يقرأ الاتّجاهات على اللّوحات ويقدم الشّرح لزملائه الممثلين الذين يقتربون منه.) ذاك الطّريق (يؤشّر نحو اليمين ويهزّ بالحقيبة - للإشارة الى الاتّجاه) طوله ثلاثين ميلا. هذا الطّريق (يؤشّر صوب اليسار) طوله خمسة وأربعون - وذلك الطّريق بطول ستّة وثلاثين. والآن، اختاروا بأنفسكم المدينة التي لن تصلوها هذا اليوم أبدا. أقرب طريق لنا هو العودة الى حيث كنّا، وحيث كانت تلاحقنا أغلب صيحات القطط الرّائعة التي توجت دوما نجاحاتنا الهستيرية.

الرّجل الشّرير: (يشعر بالإعياء) من يُعيني على مسح عرقي؟ له طريقة مزعجة ليجري الى داخل فمي.

الممثل الكوميديّ: شغلّ عقلك، ودع عندها ماء عرقك أكثر نفعا ليسقي التّربة.
الرّجل الشّرير: أوه!

(يخفض ساعديه ويُسقط الرّزمتين أرضا، ويلقي بعدها بنفسه جالسا فوق إحدهما وهو يمسح العرق، ويحركّ يده بإعياء على وجهه. يقترب الممثل التّراجيديّ والرّجل العجوز من العلامة ويقرآن الإشارات.)

الممثل التّراجيديّ: (بصوت مسرحيّ) لا أمل! ليس هناك أيّ أمل!
(يُسقط نهاية الجذع من جهته أرضاً.)

الرّجل العجوز: (يُسقط نهاية الجذع من طرفه.) أممممم. توقّف آخر.

(يجلس الممثل التّراجيديّ على الجذع بوضع بطوليّ-تراجيديّ، وركبته تبتعدان كثيرا عن بعضهما، ومرفقه الأيمن فوق ركبته اليمنى، ويده اليسرى على ساقه الأيسر، ورأسه

ينحني قليلا نحو اليمين. يضع الممثل الكوميديّ الحقيبتين أرضًا ويقَلب سيكارةً. يجلس الرجل العجوز فوق الجذع، ورأسه غارقٌ على صدره.)

الرجل الشَّرير: ثلاثون ميلا لأقرب مدينة! ثلاثون ميلا!

الممثل الكوميديّ: يا لها من فضيحة أن ينقل الناس مدنهم بعيدًا عنّا بهذا القدر.

الرجل الشَّرير: سوف لن نحظى بمدينة حتى بعد الغد.

الممثل الكوميديّ: مرحى! تلك ضربة حظّ لك! وهناك بعدُ يوم بعد الغد لنا!

الرجل الشَّرير: وما زالت النساء العجائز يزخفن خلفنا!

الرجل العجوز: يطالبن بحقّ التّصويت وهنّ لا يستطعن حتى السّير.

الممثل الكوميديّ: سوف لن نمنحنّ حقّ التّصويت؛ تمّ حسم هذا الموضوع.

يسقط حقّ التّصويت للمرأة!

الرجل الشَّرير: يبدو أنّ حتى الشيطان نفسه لا يستطيع التّيل منك! لا يتعب

لسانك، ولا حتى قدمك. إنّك تثير أعصابي. هيّا اجلس واغلق فمك لحظة.

الممثل الكوميديّ: أنا؟ ها - ها - ها! سأعود هناك حيث أجد سيّدة قلبي.

سألّتها وآتي بها الى هنا على ذراعي.

(يبصق في يديه، ويشمّر عن ذراعيه، ويخطو بسرعة خارجا من اليسار.)

الرجل الشَّرير: مهرّج!

الرجل العجوز: كيف يمكنه الضّحك وعمل مقالبه حتى في هذا الوقت؟ لم يبق

في أرواحنا أدنى ذرّة، ومخزون طعامنا يتناقص دوما وأحذيتنا تبلى.

الممثل التّراجيديّ: (غاضبا) توقّف! لا وقت لتصفية حسابات! فأعداد ذنوبنا

هائلة وحكاية محننا أكثر هولا حتى. يا أبانا المقدّس! قواريرنا فارغة؛ وسأتلّى عمّا بقي

من نعال حدائي! (يستعرض حذاءه البالي) من أجل رائحة الويسكي فقط.

(تسمّع ضحكات امرأة من جهة اليسار. يدخل الممثل الكوميديّ حاملا على

ساعديه البطلة التي تحيط بيديها حول عنقه وتمسك بحقيبة مستطيلة بيديها الاثنتين من خلف ظهره.)

الممثل الكوميدي: (يترك حمولته تسقط أرضاً فوق العشب) اجلسي يا حبيبتي، وارتاحي. لن نسير أبعد هذا اليوم. قدامك، قدامك الرقيقتان لابدّ أنّهما تؤلمانك. كمّ أنا حزين لذلك! في أول فرصة، سأشتري لك سيارة.

البطلة: وفي الوقت ذاته، ربّما ستحملني أكثر.

الممثل الكوميدي: يسمعك وحش الأحمال ويطيع.

(تدخل الفتاة الساذجة والممثلة التي تلعب دور المرأة العجوز ويحمل كلّ منهما حقيبة مستطيلة صغيرة الحجم.)

الفتاة الساذجة: (مرهقة وعابسة) آه! ما حملني أحد.

(تجلس على العشب على يمين البطلة.)

الرجل الشّرير: معنا حمار واحد فقط.

(يمدّ بجسده عند قدمي البطلة فوق العشب ويقلّد نهيق الحمار. تجلس المرأة العجوز فوق العشب على يسار البطلة.)

المرأة العجوز: وهل علينا أن نقضي الليل هنا؟

الرجل العجوز: كلاً، سنتوقّف عند (فندق لم يُنشأ بعد).

الممثل الكوميدي: ألا يعجبك مقام ليلتنا؟ (يتحوّل نحو المرأة العجوز). انظري، فالسرير واسع وعريض، وخال من الحشرات. تشعّرين فقط بالعشب العالي. لم يسعك يوماً التّوم على سرير بهذه الرّقّة، وستكون لك أغطية مطرّزة بالقمر والنّجوم، وهي أغطية لم تمتلكها أبداً عروس ملكيّة.

المرأة العجوز: أنت تضحك، وأنا أشعر بأنّي أبكي.

الممثل الكوميدي: تبكين؟ يجب أن تخجلي من الشّمس التي تتفضّل عليك

بغروبها الرَّاعِ. انظري، وكوني مُلهمة!

الرَّجُلُ الشَّرِيرُ: أجل، انظري وتلاشي!

الممثلة الكوميديَّة: انظري، واصرخي بانتشاء!

الرَّجُلُ العجوز: انظري، وتفجّري غضبا!

(تبدأ الفتاة الساذجة بالنَّحيب؛ الممثلة التراجيديَّة يضحك بصوت عالٍ).

الممثلة الكوميديَّة: (يحوّل نظره صوب الفتاة الساذجة) ماذا، أتبكين؟ ألا تخجلي

من نفسك؟

الفتاة الساذجة: أنا حزينة.

المرأة العجوز: (تستثشق) لا أستطيع تحمّل المزيد.

البطلة: توقّفي! وإلا سأبدأ بالصّراخ أيضا.

(يقفز الممثلة الكوميديَّة على ركبتيه ويحدّق بسرعة بامرأة بعد أخرى).

الرَّجُلُ الشَّرِيرُ: ها ها ها! ادخل عليهن البهجة، أيّها المهرّج!

الممثلة الكوميديَّة: (يقفز عاليا على نحو مفاجئ دون مساعدة يديه.) أيّها

السيدات والسادة، لقد وجدتها! (بصوت غنائيّ قياسيّ) سيّداتي وسادتي، لقد وجدتها!

البطلة: ماذا وجدت؟

الممثلة الكوميديَّة: البهجة.

الرَّجُلُ الشَّرِيرُ: اذهب، وادفن نفسك بالتراب، أيّها المهرّج.

الممثلة التراجيديَّة: (كما في السابق) هوو - هوو - هوو!

الرَّجُلُ العجوز: أو-و-و-وف!

(تبكي النساء كلّهنّ بأعلى صوت).

الممثلة الكوميديَّة: لديّ - قنينة من الويسكي!

(هياج جماعيّ. تتوقّف النساء عن البكاء وتتنظر نحو الممثل الكوميديّ باستغراب: يعدّل الممثل التراجيديّ من نفسه ويلقي نظرة استغراب على الممثل الكوميديّ؛ يقفز الرجل العجوز وهو يفرك يديه عاليًا على قدميه؛ ينظر الرّجل الشّرير بريبة نحو الممثل الكوميديّ.)

الممثل التراجيديّ: قنينة من الويسكي؟

الرّجل العجوز: هو - هو - هو - قنينة من الويسكي.

الرّجل الشّرير: أممم - قنينة من الويسكي.

الممثل الكوميديّ: أتراهن! قنينة من الويسكي، مخفيّة ومحفوظة لمثل هذه اللّحظات،

لحظات الكآبة الذكوريّة والدّموع الأنثويّة. (يُخرج القارورة من جيبه على الورك. تتغيّر جميع التّعابير على الوجوه من الأمل إلى الخيبة.)

الرّجل الشّرير: وتسمّي ذلك قنينة، انا اسمّيها قارورة.

الممثل التراجيديّ: (منفجرا) كشتبان!

الرّجل العجوز: قطّارة!

المرأة العجوز: لنا نحن السّبعة! أوه!

الممثل الكوميديّ: (يحمل القارورة لتتألأ بنور الشّمس،) لكنّه الويسكي، يا أبنائي. (يفتح سدّادة القارورة ويشمّ بداخلها.) هذا ويسكي لكم. سيمتّع مالك الحانة الذي خطفتها منه عن تناول الخمر بسبب اليأس وحده.

(يقف الممثل التراجيديّ بنتأقل، ويتقدّم ببطء نحو القارورة. الرّجل العجوز يضحك، ويفرك يديه. تنهض المرأة العجوز دون مبالاة وتتقدّم دون اكتراث صوب القارورة. البطلة والفتاة السّاذجة تمسكان ببعضهما وتندفعان بخطوات (باليه) بإيقاع (الفالز) يقترّب الجميع من الممثل الكوميديّ وراقبهم ممدودة بتلّهف، ويشمّون بداخل القارورة التي يمسك بها الممثل الكوميديّ بكلتا يديه بقوّة.)

الممثل التراجيديّ: هوو! هوو! هوو! جميل!

الرجل العجوز: هه! هه! هه! كمية صغيرة، لكنها نوعية ممتازة!

الرجل الشّرير: يبدو أنّه ويسكي من النوع الجيدّ.

البطلة: (ترقص وتغني) يا صاحبي الكوميديّ؛ رأسه في المكان المناسب، لكن

لم تخطف قنينة أكبر؟

الممثل الكوميديّ: آه يا حبيبتي. كان عليّ أن آخذ بعين الاعتبار كلاً من نوعية

الويسكي وحجم جيبتي.

الرجل العجوز: آه، لو كان فقط المزيد منه للقيام برقصة!

الفتاة الساذجة: آه، أشعر بالحزن ثانية.

الممثل الكوميديّ: ابتهجوا، سيكون هناك ما يكفيننا. جميعاً، ابتهجوا: هلموا هنا،

ووشموا ثانية.

(يقوم الجميع بالشّم، وتظهر علامات الفرح من جديد. يمسك الجميع يدا بيد،

يرقصون ويغنون في الوقت الذي يعملون دائرة. الممثل الكوميديّ بصقّ).

الممثل الكوميديّ: حسناً! إذا أنتم فرحون بهذا القدر بمجرد شمّ رائحة الشّراب،

فكيف لا تشعرون بمثل هذا بعد احتسائه. انتظروا. سأنضمّ إليكم.

(يخفي قارورة الويسكي في جيبه.) سأريكم جولة جديدة من الرّقص سنقوم بها

في عرضنا القادم من مسرحيّة (هاملت) توعيةً لجمهورنا الموقر. (يركل برجله جزمتي

الرجل الشّرير بعيداً عن الطّريق.) المكان سالك؛ والآن إلى الرّقصة والمسرحيّة. نظّموا

دائرة، لكن بالنسبة لك أيها الرجل الشّرير، ابق خارج الدائرة. عليك أن تحاول الانضمام

إلينا ونحن نرقص، ونحن لن نسمح لك بذلك دون أن تتناغم خطواتك مع خطواتنا.

أفهمت؟ فالآن إذا!

(يتمّ تنظيم دائرة وفق التسلسل الآتي: الممثل الكوميديّ، فالبطلة، فالممثل

التراجيديّ، فالمرأة العجوز، فالرجل العجوز، فالفتاة الساذجة.)

الممثل الكوميديّ: (واقفاً)

أكون أو لا أكون، تلك هي المسألة.

تلك هي المسألة. تلك هي المسألة.

من سيدخل

عليه أن يتسلّق من فوقنا،

وإذا لا يمكنه ذلك من فوق

فعليه أن يظلّ تحتنا.

الجميع: ترالّلا، ترالّلا،

من فوقنا، تحتنا،

ترالّلا، ترالّلا،

من فوقنا، تحتنا

والآن نحن فرحون: سعداء نحن.

الممثل الكوميديّ: أكون أو لا أكون، تلك هي المسألة.

تلك هي المسألة. تلك هي المسألة.

لتضمن النّجاح في الحياة،

ادفع بمرفقك لتشقّ طريقك

زاحم الشّخص التّالي بمنكبك،

وإلا فهو سيزاحمك.

الجميع: ترالّلا، ترالّلا،

من فوقنا، تحتنا،

ترالّلا، ترالّلا،

من فوقنا، تحتنا

والآن نحن فرحون: سعداء نحن.

(عند الكلمة الأخيرة من اللّزمة، يتوقّف الجميع كما لو أنّه قد وقف على رؤوسهم الطّير؛ وقفوا متصلّبين وعيونهم تتّجه نحو بقعة واحدة داخل الدّائرة. ينحني الرّجل الشّرير فوق سواعد الممثّل الكوميديّ والبطلة. تقترب الدّائرة تدريجيّاً من بعضها حتّى تقترب الرّؤوس من التّماس مع بعضها تقريبا. يحاول الجميع تحرير أيديهم، لكنّ كلّ واحدٍ منهم يمسك بالآخر، ويهمس الأشخاص السّبعة جميعا بذهول كبير.)

الجميع: الدّولار!

(تنقلّص الدّائرة من جديد، ويتصاعد الصّراع لتحرير أيديهم ليصبح أكثر ضراوة. يحاول الرّجل الشّرير أن يتسلّق فوق أيديهم؛ ومن ثمّ من تحتها ليكون داخل الدّائرة، ويمدّ يده بعيدا صوب الدّولار، لكنّه يُوقّف غرائزيّاً بفعل الاثنيّين اللّذين يحاول المرور بينهما، حتى عندما لا يمكن رؤيته، بل يتمّ الشّعور به فقط. من جديد، ينحني الجميع رؤوسهم باتجاه الدّولار، وهم ضائعون بالكامل في تأمّلاتهم به، وهم يتهايمسون ومنتشون.)

الجميع: الدّولار!

(في الوقت الذي ينفصل أحدهم عن الآخر من جديد، ينظر الجميع الى بعضهم بنشوة، وفي الوقت عينه يحاولون تحرير أيديهم؛ وثانية يلقّم الاستغراب بانتشاء.)

الجميع: دولار!

(يصبح الصّراع لتحرير الأيدي بعدها أكثر ضراوة، فأكثر. يتمّ الإمساك باليد التي تتحرّر صدفة من قبل اليد التي كانت تمسك بالدّولار.)

الفتاة السّاذجة: (بألم) آه، يديّ، يديّ! اتركوا يديّ!

المرأة العجوز: إذا لم تتركوا يديّ، سأعضّكم. (تحاول أن تعضّ يدي الممثّل التّراجيديّ والرّجل العجوز في الوقت الذي يحولان دونها.)

الرّجل العجوز: محاولاً تحرير يديه من قبضتي البطلة والمرأة العجوز. (اتركوني وشأنني. بقوة بيديّ.

البطلة: (تخاطب الممثل الكوميديّ) لكن؛ ألا تترك يديّ.

الممثل الكوميديّ: أظنّ أنّ يديك هما اللّتان تمسكان بيدي بقوة.

البطلة: لمّ كان عليّ أن أمسك بك؟ إذا ما استحوذت على الدّولار، فما هو لك، هو لي، كما تعلم.

الممثل الكوميديّ: إذا، اتركي يديّ وسأحصل عليه.

البطلة: كلا. أفضل أن أحصل عليه بنفسني.

الممثل الكوميديّ: توقّعتُ منك شيئاً من هذا القبيل.

البطلة: (غاضبة) اترك يديّ. هذا كلّ ما في الأمر.

الممثل الكوميديّ: ها! ها! ها! يا لها من نكتة عظيمة. (بنبرة أمر) اهدئي. (يصبحا هادئين) علينا أن نتأمل الدّولار باحترام قدسيّ. (باضطراب) أقول الزمي الهدوء! - فالدّولار سيوزّع بيننا وأمامنا؛ دولار حقيقيّ في وسط دائرتنا، وكلّ ما بداخلنا يدفعنا نحوه، يدفعنا دون مقاومة. التزمي الهدوء! تذكّري أنّك أمام الحاكم، أمام الأعظم. اجثي على ركبتك أمامه وصلّي. وأنت على ركبتك. (يجثو على ركبتيه ويسحب البطلة والفتاة السّاذجة معه).

الرّجل العجوز: (يسقط على ركبتيه ويسحب المرأة العجوز معه.) هه! هه! هه!

الممثل التّراجيدي: هوو، هوو، هوو. مهرّج!

الممثل الكوميديّ: (مخاطباً الممثل التراجيديّ) أنت لست أهلاً للقناع الجادّ الذي تضعه، فأنت لا تحترم الإرادة الإلهية الحقيقية. على ركبتك، وإلاّ فأنتك لن تحصل على أيّ ويسكي.

(يهوي الممثل التراجيديّ على ركبتيه) آه، أيها الدّولار المقدّس، آه، يا حاكم الوجود
الأعظم؛ نسجد أمامك على ركبنا في التراب ونبعث إليك بصلواتنا القلبيّة المهيبة. أيدينا
مكتوفة، وقلوبنا تتاضل صوبك، وأرواحنا تحنو إليك. آه، يا ملك الملوك الأعظم، أنت
الذي يجمع المنفصلين عن بعضهم معاً، وأنت الذي تفرّق القريبين عن بعضهم، وأنت
الذي -

[يقف الرّجل الشّرير خارجاً ويقوم بقفزة كاملة، فيبعد الفتاة الساذجة، ويمسك
بالدّولار. يتحرّر الجميع عن بعضهم ويسقطون فوقه، وهم يصرخون ويتصايحون،
ويتدافعون، ويتقاتلون. أخيراً، يتمكن الرّجل الشّرير من تحرير نفسه، ويمسك بالدّولار
بقبضة يده اليمنى. يلحق به الآخرون بقبضات مُحكمة وعيون حادّة وأفواه مزيدة، وهم
يصرخون.]

الجميع: اترك الدّولار، اترك الدّولار!

الرّجل الشّرير: (بغضب جامح) كلاً، كلاً. (خلال تلك اللّحظة، تنظر الجهات
المتنازعة إلى إحداها الأخرى بكراهية. بهدوء، لكن بحقد.) علاوة على ذلك، لمن يُفترض
أن أسلمه؟ لك - لك - لك؟

الممثل الكوميديّ: ها! ها! ها! ها! إنه على حقّ. فالدّولار هو حقّ له. هو
يمتلكه، لهذا فهو له. ها! ها! ها! أنا رغبتُ أن أزحف على ركبتيّ نحو الدّولار،
واتلقفه بأسناني. ها ها ها! لكنه تحرّك قبلي نحوه. ها! ها! ها!

البطلة: (تهمس بغضب) ذلك لأتّك لم تحرّر يدّي.

الممثل الكوميديّ: ها! ها! ها! ها!

الممثل التراجيديّ: (يهزّ قبضته بوجه الرّجل الشّرير) بحقّ الجنّة والنّار، أشعر
أني سأسحقك!

(يخطو جانبا نحو الجذع ويجلس وهي على هيئته السّابقة. الفتاة الساذجة وهي
مستلقية على العشب، تبدأ بالبكاء.)

الممثل الكوميديّ: ها - ها - ها. والآن سوف نحسّي الشراب، وأول من يفعل ذلك هو الرّجل الشّرير.

(يتمّ قبول عرضه بوجوم؛ على كلّ حال، تتوقّف الفتاة السّاذجة عن البكاء؛ يقف الرّجل العجوز والمرأة العجوز الى جانب الرّجل الشّرير وهما ينظران الى الدّولار في يده كما لو أنّهما ينتظران اللّحظة المناسبة لخطفه منه. أخيراً تقوم المرأة العجوز بعمل علامة احتقار ويستدر كلاهما بعيداً عن الرّجل الشّرير. بعد أن شعر بالأمان، يسوّي الأخير سطح الدّولار، وتظهر على وجهه التّعابير الجادّة. يُقدّم الممثل الكوميديّ له قدحا صغيرا من الويسكي.)

الممثل الكوميدي: اشرب أيّها المحفوظ.

(يغلق الرّجل الشّرير قبضته على الدّولار، ويتسلّم قدح الويسكي بوقار وبسرعة. يحتسي المحتويات ويعيد القدح؛ بعدها يبدأ بتسوية سطح الدّولار ويقبله من جديد، وهو لم يزل ضاحكا. يُمرّر قدح الويسكي من شخص الى آخر بين المجموعة الذين يحتسون الشراب بكآبة. يُخفق الويسكي بإحداث النّشوة. بعد شرب الويسكي، تبدأ الفتاة السّاذجة بالنّشيج ثانية. البطلة، وهي آخر من تناول القدح، ترمي به فارغا نحو الممثل الكوميديّ.)

الممثل الكوميديّ: رمية جيدة. الآن سأشرب كلّ ما بقي في القنينة.

(يأتي بالقارورة قرب شفّته ويشرب. تحاول البطلة إسقاطها بعيدا عنه، لكنّه يتجنّب ذلك بمهارة. يواصل الرّجل الشّرير تسوية سطح الدّولار وتقبيله.)

الرّجل الشّرير: ها - ها - ها . . . (يغني ويرقص)

من يحاول الدّخول

عليه أن يقفز من فوقنا.

هوو! هوو! هوو! أيّها الدّولار المبجل! يا حاكم العالم الأعظم! أنت يا ملك الملوك!
ها! ها! ها! لا تظنّوا أنّي إن حصلتُ على الدّولار، وأنتم لم تحصلوا عليه، بأنّي

أنتقاسم بجزء من جلالته؟ يعني ذلك أنني الآن جزء من جلالته. ذلك يعني أنني مُفَوَّض
الدُّولار الأعظم المطلق، لذلك فأنا الحاكم الأعظم، لذلك فأنا الحاكم الأعظم نفسه. على
ركبكم أمامي! . . . ها! ها! ها!

الممثل الكوميديّ: (بعد رمي القارورة الفارغة بعيداً، يتمدّد على العشب.) زُيِّرَتْ
حسناً، أيّها الأسد، لكنك نسيت، نسيت أن تخفي أذني الحمار.

الرَّجُل الشَّرِير: إنّه وعي الفرد بالسلطة. ها! ها! ها! ها! أنا أعرف، وأنت تعرف
بأنني عندما أمتلك المال، فأنا أمتلك القرار. تذكرُوا، لا أحد بينكم يمتلك سنتاً واحداً
باسمه. لقد نَصِبَ الويسكي. (يحمل القارورة عالياً ويتفحّصها.)

الممثل الكوميديّ: أنجزتُ عملي جيداً. شربته حتّى الثمالة.

الرَّجُل الشَّرِير: أجل. حتّى الثمالة، وهذا المساء ستحصل على الخبز والنقانق؛
كمية صغيرة جداً أيضاً، لأنّ الغد هو يوم آخر (الفتاة الساذجة تبكي بشكل متكرّر)،
فلا يمكننا الوصول الى مدينة، حتّى يوم بعد الغد. لا يعني ذلك أنّكم تحصلون على أيّ
شيء تأكلونه هناك أيضاً، لكنني أنا - أنا - أنا. ها! ها! ها! ها! آه، أيّها الدُّولار
المقدّس، الدُّولار الأعظم. (بوجهة) مَنْ يطع أوامري، سوف لن يكون دون طعان.

الممثل الكوميديّ: (بعينين واسعتين ومفتوحتين) ماذا؟

(تنهض الفتاة الساذجة وترمي بنفسها على صدر الرَّجُل الشَّرِير)

الفتاة الساذجة: آه، يا حبيبي العزيز.

الرَّجُل الشَّرِير: سلطتي قد أعلنت عن نفسها تَوّاً.

البطلة: (تدفع الفتاة الساذجة بعيداً) اتركه وشأنه؛ أنت! فهو قد طلب عشقي
زمناً طويلاً، والآن سيجده.

الممثل الكوميديّ: ماذا؟ أنت؟!!

البطلة: (تخاطب الكوميديّ) أكرهك أيّها الخائن. (تخاطب الرَّجُل الشَّرِير) كنت
أعشق العبقريّ دوماً. أنت الآن الأكثر حكمة بين الحكماء. وأنا أعبدك.

الممثل الكوميديّ: (شبه واقف على ركبتيه) توقفي. أنا أحتج. (يرمي بنفسه فوق العشب) «آه، أيتها الخيانة، فاسمك المرأة.»

المرأة العجوز: (تقترب من الرجل الشّرير من الخلف وتحتضنه) جد لي مكاناً صغيراً على صدرك. أنا أمثل المرأة العجوز، لكنك تعرف أنني لست عجوزاً.

الرجل الشّرير: الآن، أنا أمتلك السلطة كلّها، والحبّ كلّه.

الممثل الكوميديّ: لا تسمّه حباً. سمّه ذلاً وخنوعاً.

الرجل الشّرير: (يحزّر نفسه من النسوة) والآن لديّ شيء أكثر أهميّة للقيام به يا توابعي - أقصدكم جميعاً - لقد قرّرتُ ألاّ نبقي اللّيلة هنا. سواصل المسير أكثر.

النسوة: كيف ذلك؟

الرجل الشّرير: نواصل السّير إلى الأمام هذه اللّيلة.

الممثل الكوميديّ: قد قرّرت هكذا؟

الرجل الشّرير: قرّرتُ هكذا، وهذا وحده سيكون كافياً لكم، لكنّه، بناءً على عادة قديمة، سأشرح لكم

لِمَ قد قرّرتُ ذلك.

الممثل الكوميديّ: احتفظ بالشرح لنفسك، ومن الأفضل ألاّ تقطع تأملاتي بمنظر غروب الشّمس.

الرجل الشّرير: سأضعك على القائمة السّوداء! سيكون ليس من مصلحتك الكلام ضدّي. الآن إذاً. دونما شرح، سنذهب - وفي الحال. (لا يتحرّك أحد.) حسناً إذاً. أذهب بمفردي.

النسوة: كلاً. كلاً.

الرجل الشّرير: ماذا تقصدن؟

الفتاة السّاذجة: أنا أذهب معك.

البطلة: وأنا.

المرأة العجوز: وأنا.

الرجل الشرير: طاعتكم لي تشرفني كثيرا جداً.

الرجل العجوز: (وهو يجلس دون اكرثا على الجذع) ما الشيطان الذي يحتك على الذهاب؟

الرجل الشرير: رغبت أن أشرح ذلك لكم، لكن لا مزيد الآن. لست مدينا لكم بالشرح. لقد قررت - أنا أرغب بالذهاب، وهذا كافٍ.

الممثل الكوميدي: يمثل مسرحيته الكوميديّة بشكل رائع. هل ساورك الشك أبداً أن هناك الكثير من الفطنة في رأس الخس، خس-ه رأ -

الممثل الكوميدي: ها - ها - ها - ها، ولأني مدى ستحافظ على هذا؟

الرجل الشرير: نبدأ حالا، لكنّه عليّ أن أدفع ثمن طعامكم؛ وأنا لا أحمل أيّ متاع. ستقاسمون حمل رزمتي بينكم، وبالطبع أولئك الذين على القائمة السوداء سيحملون الأمتعة الأكثر ثقلاً. هل سمعتموني؟ والآن، تحركوا إلى الأمام. أنا ذاهب الآن. سواصل المسير لأقرب مدينة، وهي على مسافة ثلاثين ميلاً والآن، إذًا، انطلقوا.

الممثل الكوميدي: سفرة سعيدة!

النسوة: (يمارسن معه الحب) آه، يا حبيبنا.

الرجل الشرير: وبمعيتي جلالة الدولار ووجبات طعامكم يوم غد.

النسوة: نحن قادمات. قادمات نحن.

الرجل العجوز: وأنا معكنّ.

الممثل التراجيدي: (يخاطب الرجل الشرير) أنت شخص حقير ونذل.

الرجل الشرير: أنا لست من مجموعتكم. أنا السيّد ومانح الخبز.

(يسير نحو اليمين. تأتي النسوة بحقائبهنّ ويتبعنه.)

الرَّجُلُ العَجُوزُ: (يخاطب الممثلة التراجيديّ) انهض واحمل الجذع. سنسوِّي الحساب معه في وقت آخر؛ فهو مَنْ يملك الدّولار.

الرَّجُلُ الشَّرِيْرُ: (يخاطب الممثلة التراجيديّ) في البدء، ضع إحدى حزمتيّ على ظهرك.

الممثلة التراجيديّ: (غاضبا) إحدى حزمتيك على ظهري؟
الرَّجُلُ الشَّرِيْرُ: آه، يهمني حملها. تستطيع أن تضعها فوق رأسك أو بين أسنانك.

الرَّجُلُ العَجُوزُ: سنضع الحزمة على الجذع.
الممثلة الكوميديّ: (يجلس) انظر هنا؛ هل أنت تمزح أم أنك جادّ؟

الرَّجُلُ الشَّرِيْرُ: (باحترار) أنا لا أمزح.

الممثلة الكوميديّ: إذا فأنت جادّ.

الرَّجُلُ الشَّرِيْرُ: لن أقدم شرحا.

الممثلة الكوميديّ: هل تعتقد ذلك حقا لأنك تمتلك الدّولار -

الرَّجُلُ الشَّرِيْرُ: الدّولار المقدّس، الدّولار الأعظم، ملك الملوك.

الممثلة الكوميديّ: (مواصلًا) إنّه بسبب ذلك فأنت السيّد -

الرَّجُلُ الشَّرِيْرُ: ومانح الخبز والمُعطي.

الممثلة الكوميديّ: وإنّه يجب علينا -

الرَّجُلُ الشَّرِيْرُ: أن تفعلوا ما أمركم به.

الممثلة الكوميديّ: إذا! فأنت جادّ.

الرَّجُلُ الشَّرِيْرُ: الآن فقط قد صحت؛ أحمل الأمتعة واتبعني.

الممثلة الكوميديّ: (واقفا) إذا، فأنا أعلن النّوْرَة!

الرَّجُلُ الشَّرِيرُ: ماذا؟ ثورة؟

الممثل الكوميدي: دموية إذا ما اضطرت.

الممثل التراجيدي: (يُسْقِطُ نهايةَ الجذع من جهته أرضاً، ويتقدّم متخذاً وضعاً قتاليّاً من الرَّجُلِ الشَّرِيرِ) سأكون الأول الذي يهدر دمك، أيّها الحقير.

الرَّجُلُ الشَّرِيرُ: إذا كان الوضع هكذا، فليس لدي شيء أقوله لك. أولئك الذين يرغبون بصحبتى هيّا إلى الأمام.

الممثل الكوميدي: (يقف بطريق الرَّجُلِ الشَّرِيرِ) كلاً، لن تذهب حتّى تتنازل عن الدولار.

الرَّجُلُ الشَّرِيرُ: ها! ها! ها! ها، هذا مضحك!

الممثل الكوميدي: هاتِ الدولار من فضلك، وإلا -

الرجل الشرير: هوو! هوو! هوو!

الممثل الكوميدي: إذا، دعِ الدّم يُسْفِكْ هنا. (يُشَمِّرُ عن ساعديه)

الممثل التراجيدي: (يخلع سترته) آه، الدّم! الدّم!

الرَّجُلُ العجوز: (يُسْقِطُ نهايةَ الجذع من جهته أرضاً) لن أكون بعيداً عن المعركة.

النّسوة: (يضعن حقائبهنّ أرضاً) ولا نحن. ولا نحن.

الرَّجُلُ الشَّرِيرُ: (يصرخ) لمن سأتنازل عن الدولار؟ لك، لك، لك، لك.

الممثل الكوميدي: هذا الحوار لا يفيد أبداً. يجب أن تتنازل عن الدولار لنا جميعاً. في أوّل فرصة، سنقوم بتصرفه وتقسيمه بيننا على أجزاء متساوية.

النّسوة: إلى السّلاح! إلى السّلاح! اقسّموه، اقسّموه!

الممثل الكوميدي: (مخاطباً الرَّجُلِ الشَّرِيرِ) وأنا سأكون رجلاً طيباً حتى أنني سأمنحك حصّة.

الممثل التراجيديّ: وأنا أفضل أن أعطيه جلدة قويّة.
الممثل الكوميديّ: سأكون كما قلت. تنازل عن الدولار.
البطلة: (ترمي بنفسها على صدر الممثل الكوميديّ) حبيبي الممثل الكوميديّ!
الممثل الكوميديّ حبيبي!

الفتاة الساذجة: (تخاطب الرجل الشرير) سيئت منك. تنازل عن الدولار.
الممثل الكوميديّ: (يدفع البطلة جانبا) من الأفضل لك التّحتي جانبا وإلا
ستتالين الكلمة التي أوجّهها للسيد ومانح الخبز.

(إلى الرجل الشرير) هيا، هات الدولار!

الممثل التراجيديّ: تنازل عن الدولار له، ألا تسمع؟

الجميع: الدولار! الدولار!

الرجل الشرير: سأمرّقه إربا إربا.

الممثل الكوميديّ: إدا، سنقلع ما تبقى من شعر قليل فوق رأسك. هات الدولار

بسرعة!

(يحيط الجميع بالرجل الشرير. تقوم النسوة بسحب شعره، ويمسك الممثل
التراجيديّ به من الياقة ويهزه بقوة. يقوم الرجل العجوز بصفعه على أمّ رأسه الأصلع،
ويصارعه الممثل الكوميديّ، وأخيرا يمسك بالدولار.)

الممثل الكوميديّ: (يرفع الدولار عاليا) لقد حصلت عليه.

(ترقص النسوة ويغنين.)

الرجل الشرير: قطع طرق! لصوص!

الممثل التراجيديّ: الزم الصمت وإلا سأغلق فمك. (يعود الى الجذع ويتخذ
موقفه البطوليّ.)

الممثل الكوميديّ: (يضع الدّولار داخل جيبه) ذلك ما أسميه ثورة بيضاء ناجحة، باستثناء قتالٍ بسيطٍ وتسارعٍ في ضربات القلب فيما يخصّ السيّد السّابق، ومانح الخبز - اسمعوا، شخص ما يأتي، وربّما يمكنه أن يُصرّف لنا الدّولار، وعندها يمكننا أن نتقاسمه بيننا.

الرّجل العجوز: أنا أستغرب كيف يمكننا تصريفه إلى أجزاء متساوية. (يبدأ العدّ مع الفتاة السّاذجة والمرأة العجوز.)

البطلة: (صاغية بهدوء الى الممثل الكوميديّ) هل أنت غاضب منّي؟ أنا كنت فقط أعب عليه حتّى أتمكن من إقناعه لأخذ الدّولار منه.

الممثل الكوميديّ: والآن تريدان أن تضحكي منّي للاستحواذ على حصّتي من الدّولار.

الرّجل العجوز: من المحال تقسيم الدّولار إلى أجزاء متساوية. إنّه مستحيل على الإطلاق. لو كان ثمانية وتسعون سنتا، أو مئة وخمس سنتات و-

(يدخل الرّجل الغريب من اليمين. يشعر بوجود المجموعة، يحييها ويواصل طريقه يسارا. يطلب الممثل الكوميديّ منه التوقّف.)

الممثل الكوميديّ: أستمحك عذرا سيّدي. هل نجد لديك صرفا لدولار إلى سنتات أو قروش أو نيكلات. (بُريه الدّولار. يخطو الرّجل العجوز والنّسوة إلى الأمام.)

الرّجل الغريب: (يشعر بالانزعاج قليلا. يبدأ القيام بأمر ما، ويقوم بحركة سريعة ليصل الى جيب مسدّسه. ينظر الى الممثل الكوميديّ والآخرين ويقول ببطء): تصريف الدّولار؟ (يتحرّك خارج الدّائرة يسارا. أظنّ أن لديّ هذا.)

النّسوة: هي الحرب!

الرّجل الغريب: (يستدر لدرجة ألا يكون أحد خلفه، ويسحب مسدّسه.) ارفعوا أيديكم!

الممثل الكوميديّ: (بصوت ذي نبرة رقيقة) سيّدي العزيز. نحن جميعا مجموعة

سلمية.

(يأخذ الرجل الغريب الدولار من الممثل الكوميديّ، ويسير إلى الورا يسارا
والمسدّس ما يزال مصوّبا نحو المجموعة.)

الرجل الغريب: ليلة سعيدة جميعا!

(يخنتفي، ويبقى الممثلون صامتين خوفا، وأيديهم مرفوعة، وأفواههم مفتوحة، وهم
ينظرون الى الفراغ.)

الممثل الكوميديّ: (ينفجر أخيرا بضحكة صاخبة) ها! ها! ها! ها! ها!

(ستارة)

المراة والحبّ في شعر جورج شكّور

La femme et l'amour dans la poésie de Georges Chaccour

ريما منصور داغر¹

Rima Mansour Dagher

تاريخ القبول 2024 /12/18

تاريخ الاستلام 2024 /12/1

الملخص

تتاول هذا البحث موضوع المراة والحبّ في شعر جورج شكّور استندت فيه الباحثة إلى المنهج الموضوعاتي الذي يقوم على تقصي أهمّ محاور الدراسة في منهجية نقدية، ووصفية وتحليلية.

هدفَ هذا البحث إلى معرفة نظرة الشاعر الحديث - أنموذج شعر جورج شكّور - إلى المراة والحبّ وكيفية التعبير عنهما في الشعر. من هي المراة التي تغزل بها الشاعر؟ ما هي رؤيته إلى القيم في موضوع الحبّ وهل يمكن التمييز لديه بين الترفع والشهوة؟ وأي نوع من الجمال ألهم الشاعر ودفعه إلى الكتابة عنه؟ الروحي أم الجسدي؟ هل أخلص حبيبة واحدة أم تعددت حبيباته؟

كما هدفت الدراسة إلى تبيان النزعة الجمالية في شعر شكّور من خلال المفردات والرموز وكثافة الصور، ومعرفة إن كان قد تخطى في خياله الواقع المعيش أم أنه في غزله بالمراة عبر عن حال الكثيرين من المحبين...

وخلصت الدراسة إلى أن شعر شكّور هو قصة حياة واقعية يجمع فيها خياله أحياناً إلى المبالغة في الصور، وقد تدرجت من الحبّ الجسدي وتعدّد الحبيبات، إلى الإخلاص لحبيبة واحدة وقصة الحبّ التي جمعت بزوج دوللي، إلى الحب المتسامي والمترفع المحاكي للروح. كل هذا بأسلوب تراوح بين الكلاسيكية في اعتماد الأوزان الشعرية

1 - ريم منصور داغر. حائزة على شهادة دراسات عليا في اللغة العربية وآدابها من الجامعة اللبنانية. طالبة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف في بيروت.

والحدائثة في هندسة التفاعيل والنسق الطبّاعي، كما أنّ قصائده تضمّنت مظاهر من الرّومنسيّة الحالمة، والواقعيّة، والرّمزيّة والبرناسيّة.

الكلمات المفتاحيّة: الحبّ- الغزل- الجمال المادّي - الحبيبة- التّسامي - الحميميّة- اللّذة أو الشّهوة- الإخلاص- تعدّد الحبيبات- المنهج الموضوعاتيّ.

Résumé

Cette étude aborde le sujet de la femme et de l'amour dans la poésie de Georges Chaccour. La chercheuse s'est basée sur une méthodologie thématique qui consiste à explorer les principaux axes de l'étude suivant une approche critique, descriptive et analytique.

Cette dernière cherche à examiner la vision du poète moderne –comme exemple la poésie de Georges Chaccour – concernant la femme et l'amour, ainsi que la manière dont ces thèmes sont exprimés dans les poèmes. Qui est la femme que le poète a courtisée dans ses vers ? Quelle est sa perception des valeurs liées à l'amour et peut-on distinguer chez lui entre l'élévation spirituelle et le désir charnel ? Quelle nature de beauté a inspiré le poète et l'a poussé à écrire sur ce sujet ? La beauté spirituelle ou physique ? A-t-il été fidèle à une seule bien-aimée ou a-t-il aimé plusieurs femmes ?

Cette étude vise de même à montrer la tendance esthétique dans la poésie de Chaccour à travers le vocabulaire, les symboles et la richesse de ses images ainsi que s'il a surpassé la réalité vécue dans son fantasme ou bien, en courtisant lui-même la femme, il a exprimé l'état de plusieurs amoureux...

L'étude a conclu que la poésie de Chaccour reflète une histoire de vie réaliste, où son imagination tend parfois à l'exagération, qui a commencé par un amour physique et par la multiplicité de femmes pour finir à être fidèle à une seule bien-aimée dont l'histoire d'amour entre lui et son épouse, Dolly, pour atteindre enfin l'amour sublime celui qui évoque l'esprit. Tout cela a été écrit suivant un style qui a varié entre le classicisme dans l'utilisation des rythmes poétiques et la modernité

dans la structure des vers et du schéma typographique. De ce fait, ses poèmes incorporent des éléments de romantisme rêveur, de réalisme, de symbolisme et de Parnassianisme.

Mots-clés :L'amour –La sublimation – Le Donjuanisme –L'intimité – La beauté Physique –La Bien– Aimée –Le Plaisir ou La Passion –La Fidélité –Le Pluralisme– Approche Thématique.

مقدمة

الشعرُ كلماتٌ مَسْبُوكَةٌ في قوالبٍ متعدّدة الأشكالٍ ومتنوّعةِ المواضيع، ينقلُ الإنسان إلى فضاءٍ من نور، يُشبعُ في العقل والقلب؛ فكَمَ مِنْ شاعرٍ مرَّ في تراثنا الأدبيِّ عبْرَ التَّاريخ، فطبعَ بِصماتِهِ على صفحاتِ الأدب، وكَمَ من شاعرٍ مرَّ شِعْرُهُ كَحَبَّاتِ الرَّمالِ المُبعثرة.

من هذا المنطلق، كان اختيار دراسة شعر جورج شكور، بعد قراءة دواوينه ولحظ النزعة الجمالية في شعره وعزله المنتقل بين الترفع والشهوة؛ فكان عنوان الدراسة: الحب في شعر «جورج شكور»، في دواوينه: «وحدها القمر»، و«زهرة الجماليا»، و«مِرْآة ميرا»، و«ذهب العزل».

تتطلب دراسة شعر الحب في أدب جورج شكور طرح إشكاليات، منها: ما رؤية شكور إلى القيم؟ وإلى أي مدى تحققت في موضوع الحب؟ وهل طرح موضوع الحب بعيداً من اللذة؟ وإلى أي مدى يمكن التمييز في شعره بين الترفع والشهوة؟

تقودنا هذه الإشكاليات المطروحة إلى فرضيات نذكر منها، أنه قد يكون ارتباط اللذة ببعديها الحسي والجسدي، طريقاً للوصول إلى اللذة الروحية، أو طريقاً لإرضاء حالة نفسية في إثبات الذات، وقد يكون الترفع أو التعفف لديه، راجعاً إلى التأثر بالدين المسيحي الذي ينتمي إليه، أو إلى التربية المحافظة بشكل عام؛ ولمعرفة ذلك تعتمد هذه الدراسة على المنهج الموضوعاتي أو المنهج التيماتي «Thématique» الذي يقوم على تقصي أهم المحاور الغالبة على موضوعاتها في منهجية نقدية، ووصفية، وتحليلية؛ كما ينظر هذا المنهج إلى العمل الأدبي كموضوع تجربة أكثر منه معرفة لبعض القوائد المتبعة، وأن هذه التجربة ذات جوهر روحي.

والقراءة «الموضوعية تَنطَلِقُ من تقابُلٍ أساسيٍّ في تعاملِها مع النصِّ، وهو التقابُلُ بينَ المعنى الواضح الذي يُقدِّمه النصُّ بشكلٍ مُباشرٍ، والمعنى الضمني الذي هو صدَى للمعنى الأول»¹؛ وللدخولِ في موضوع الدراسة لا بدَّ من تعريف الحبِّ.

تعريف الحبِّ

الحُبُّ في اللُّغة هو الودادُ والمحبَّةُ، وهو تَقْيِضُ البُغْضِ²، وهو في المفهوم أَسْمٌ لِصَفَاءِ المَوَدَّةِ، وَغَلِيَانِ القَلْبِ وَثَوْرَانِهِ عِنْدَ الشَّوْقِ إِلَى لِقَاءِ المَحْبُوبِ؛ وعلى الرَّغمِ من كَثْرَةِ التَّعْرِيفَاتِ المَقْتَرَحَةِ للحُبِّ، فالعلم به قائمٌ على التَّجْرِبَةِ الحَيَّةِ، والمُعَانَاةِ، والوِجْدَانِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ المَبَاشِرَةِ³، وقد قال الإمامُ أَبُو حَزْمٍ⁴ في هَذَا المَعْنَى عَنِ الحُبِّ: «رَقَّتْ مَعَانِيهِ لِحَلَالِهَا عَنِ أَنْ تُوصَفَ، فَلَا تُدْرِكُ حَقِيقَتَهَا إِلَّا بِالمُعَانَاةِ». ويقول أيضاً في ماهِيَّةِ الحُبِّ: «إِنَّهُ اتِّصَالٌ بَيْنَ أَجْزَاءِ النُّفُوسِ المَفْسُومَةِ فِي هَذِهِ الخَلِيقَةِ من أصلِ عِنصرِها الرَّفِيعِ»⁵؛ وَكثُرَ كَلَامُ الحُبِّ فِي الشَّعْرِ فَهَلْ مِنْ عِلَاقَةِ بَيْنِ الحُبِّ وَالعَزْلِ فِي قِصَائِدِ الشَّعْرَاءِ؟

بين الحبِّ والعزْلِ

الحُبُّ عَزِيزُ العَزْلِ؛ لِأَنَّ الحُبَّ شَعُورٌ لَا إِرَادِيٌّ، يَنْبُتُ فِي القَلْبِ ثُبُوتًا عَفَوِيًّا، لَا يُدْرِكُ الْإِنْسَانُ كُنْهَهُ أَوْ مَصْدَرَهُ، يَبْدَأُ عَفَوِيًّا مَعَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَدِلُ بِنَبْدَلِ الظُّرُوفِ، فَيَجْعَلُ مِنْهُ بَعْضُهُمْ نَزْعَةً مَادِّيَّةً، إِلَّا أَنَّهُ يَبْقَى عِنْدَ آخَرِينَ قِيَمَةً مِثَالِيَّةً مَفْرُونَةً بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّضْحِيَةِ وَالتَّقَانِي؛ أَمَّا العَزْلُ فَهُوَ كَلَامٌ فِي الحُبِّ، يَتَعَمَّدُهُ الشَّاعِرُ، عَنِ قِصْدٍ، حِينَ يَتَحَرَّكُ فِي دَاخِلِهِ شَعُورٌ مَا، لَدَى رُؤْيَتِهِ الجَمَالِ، وَعِنْدَ إِعْجَابِهِ بِصِفَةِ فِي الشَّخْصِ المَمْدُوحِ؛ وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ العَزْلُ صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا، لِحَبِيبٍ حَقِيقِيٍّ أَوْ خِيَالِيٍّ.

1 - حسن عبد الكريم. المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق. مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 3، بيروت، 2006 م، ص 173.

2 - ابن منظور. لسان العرب. دار صادر، لا ط، بيروت، لات، ج 1، ص 289.

3 - الموسوعة الفلسفية العربية. معهد الإنماء العربي، ط 1، لات، مج 1، ص 350.

4 - هو علي بن أحمد (994-1064) شاعر وفيلسوف ومؤرخ ومنتكلم أندلسي، وُلِدَ فِي قرطبة. اعتزل السِّيَاسَةَ وانصرف إلى التَّالِيفِ. له «طُوق الحَمَامَةِ» أثر شهير في الأدب وأدق ما كتب العرب في دراسة الحبِّ، تأثَّرَ بِهِ أفلاطون. (مص المعلومات: المنجد في اللُّغة والأعلام، دار المشرق، ط 38، بيروت، 2000، ص 6).

5 - تحق حسن كامل الصيِّرفي. طوق الحمامة، لا ط، القاهرة، المكتبة التَّجَارِيَّة الكُبْرَى، 1384/1964، ص 5.

فَشِعْرُ الْحَبِّ مِنْ أَجْمَلِ الشَّعْرِ فِي الْعَالَمِ وَأَحَبِّهِ إِلَى النَّفْسِ؛ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمُحِبُّ شَاعِرًا يَرَى فِي الْحَبِّ نُسْعًا يُحْيِي قَلْبَهُ، وَرُزْقًا يُبْحِرُ فِيهِ إِلَى اللَّامْحُدُودِ، إِلَى عَالَمٍ مِنَ الْجَمَالِ وَالسَّحْرِ، يَنْتَشِي فِيهِ وَيَسْكُرُ؛ وَجُورِجُ شَكُورٍ هُوَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ، مِمَّنْ اسْتَهْوَاهُمْ جَمَالُ الْمَرْأَةِ، فَهَلْ كَتَبَ لَهَا مِنْ خَلْجَاتِ قَلْبِهِ مَا رَقَّ مِنَ الشَّعْرِ، أَمْ كَانَ غَزَلُهُ يَخْرُجُ فَقَطْ مِنَ اللِّسَانِ؟ يَقُولُ فِي دِيْوَانِهِ «مَرْأَةٌ مِيرَا»:

لَا أَكْتُبُ الشَّعْرَ إِلَّا حِينَ يُوجِعُنِي وَهَجُ الْجَمَالِ، وَإِنْ شَيْءٌ بِي أَشْتَعَلَا¹

(بحر البسيط)

وَلَكِنْ، أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الْجَمَالِ أَلْهَمَ الشَّاعِرَ وَدَفَعَهُ إِلَى الْكِتَابَةِ عَنْهُ؟ الرُّوحِيُّ أَمْ الْجَسَدِيُّ؟ أَهُوَ الْإِخْلَاصُ لِحَبِيبَةٍ وَاحِدَةٍ أَمْ تَعَدَّدَتِ الْحَبِيبَاتُ لَدَيْهِ؟ وَهَلْ تَرَافَقَ الْحَبُّ عِنْدَهُ مَعَ الْغَزْلِ، فَعَرَفَا مَعًا عَلَى أُوْتَارِ قَلْبٍ شَفِيفٍ، أَمْ أَنَّهُ مُجَرَّدُ كَلِمَاتٍ مُرَافِقَةٍ لِحَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ، أَوْجَعَهَا الْجَمَالَ، فَحَطَّتِ الرَّحَالَ، وَأَنْتَهَتْ؟

أولاً: الجمال المادّي أو الجسديّ

الحبيبة ينظر شكور هي الأرض والسماء، الحضور والقرب والتواصل، وفنون القامة، وسمو الروح، وجمالها، وجمال الدنيا حين يضمها، وحُبها هو الأُمْنِيَّة؛ لذلك يقول في قصيدة هي نوع من الموشح بعنوان «وَتُمْطِرُ وَرْدًا...»:

أَنَا الْحَبُّ عِنْدِي غَمَامَةٌ	وَتُمْطِرُ وَرْدًا
وَقَلْبٌ يَرُوي غَرَامَهُ	بِنَيْلٍ وَرَغْدًا
يَرِفُ رَفِيفَ الْيَمَامَةِ	إِذَا هَلَّ وَعَدًا
ضَمَمْتُ الْوُجُودَ بِقَامَتِهِ	أَشْتَأَقُ بَعْدًا
أَنَا تَاجُ حُبِّي شَهَامَتُهُ	مَدَارِجُ مَجْدًا ²

(مجزوء المتقارب بتصرف في هندسة التفاعيل)

1 - جورج شكور، مرآة ميرا، ط1، دار الأختل الصغير، 2004، ص 110.
2 - جورج شكور، زهرة الجمال. دار الأختل الصغير. ط 3، 2004، ص 87.

الحُبُّ بالنَّسبة إلى الشَّاعر أَشْبَهُ بِغَيْمَةٍ سِحْرِيَّةٍ؛ لَكِنَّ مَاءَهَا نُثَارٌ وَرَدٌ، وَقَلْبُهُ لَا يَرْتَوِي إِلَّا
بِالنُّبْلِ وَالْفَرَحِ؛ فَالْحُبُّ لَيْسَ مُجَرَّدَ شَهْوَةٍ جَسَدِيَّةٍ وَحَسْبُ، تَبْتَدِلُ الْحَبِيبَةَ وَتُرْخِصُ الْحَبَّ،
بَلْ هُوَ أَكْتِفَاءٌ نَفْسِيٌّ، وَرُقِيٌّ رُوحِيٌّ؛ فَغَزَلُهُ رُومَنَسِيٌّ، ظَهَرَ فِي الْحَقْلِ الْمَعْجَمِيِّ لِلطَّبِيعَةِ:
(غمامة، تُمْطِرُ وَرَدًا، يَرْوِي، يَرِفُّ رَفِيفَ الْيَمَامَةِ)، كَمَا بَرَزَ الْحَقْلُ الْمَعْجَمِيُّ لِلشَّهَامَةِ
فِي الْحَبِّ: (نُبْلٌ، رَعْدٌ، وَعَدٌ، تَاجٌ حُبِّي شَهَامَةٌ، مَدَارِجُ مَجْدٍ)، كَمَا يُصَوِّرُ الشَّاعر قَلْبَهُ
العَاشِقِ، فِي أَرْتَعَاشِهِ، كَرَفِيفِ الْيَمَامَةِ الْوَدِيعَةِ إِذَا لَاحَ لَهُ مِنْ جَانِبِ الْحَبِيبَةِ وَعَدُّ بِلِقَاءِ.

وَفِي تَمَثُّلِ هَذَا الْأَرْتَعَاشِ يَنْفَتِنُ شُكُورٌ فِي هِنْدَسَةِ تَفَاعِيلِ بَحْرِ الْمُتَقَارِبِ، فَيَبْدَأُ الشَّطْرُ
الْأَوَّلُ مِنْ أَيْبَاتِهِ بِثَلَاثَةِ تَفَاعِيلِ (فُعُولُنْ)، وَيَضَعُ مِنْهُ تَفْعِيلَتَيْنِ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي، مَعَ
قَوَافٍ مُخْتَلِفَةٍ (فَعُولٌ، فَعُولٌ)؛ وَيَلْتَرِمُ ذَلِكَ فِي الْأَيْبَاتِ كُلِّهَا، وَتَبَيَّنَ أَنَّ الشَّاعر عَلَى الرَّغْمِ
مِنْ تَمَسُّكِهِ بِأَصُولِيَّةِ اللَّغَةِ وَالْعَرُوضِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُجَدِّدًا فِي الْمَضْمُونِ وَفِي الْأَسْلُوبِ
أَحْيَانًا؛ وَلَا تَقْتَصِرُ الْهِنْدَسَةُ فِي قَصِيدَتِهِ عَلَى التَّفَاعِيلِ إِنَّمَا تَتَعَدَّاهَا إِلَى تَشَابِيهِ فِي
الْمَفْرَدَاتِ (غمامة، تَمْطِرُ، يَرْوِي)، فَيُشَبِّهُ حُبَّهُ بِغَمَامَةِ مَاطِرَةٍ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تُمْطِرُ مَاءً، بَلْ
تُمْطِرُ وَرْدًا، يَفْرَشُ بِهِ دَرَبَ الْحَبِيبَةِ، وَغَرَامُهُ لَيْسَ مَبْتَدَلًا، وَلَا يُسِفُّ فِي الْكَلَامِ، بَلْ هُوَ
حُبٌّ شَهْمٌ وَنَبِيلٌ؛ كَمَا نَلَاظُ السُّكُونَ فِي نِهَائَةِ الشَّطْرَيْنِ مِنَ الْأَيْبَاتِ، كَأَنَّهُ يَتَنَاعَمُ مَعَ
السَّكِينَةِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي أَعْمَاقِهِ؛ فَهُوَ فِي الشُّطُورِ الْأُولَى يُطْلِقُ الْأَلْفَ، يَلِيهَا حَرْفُ الْمِيمِ، ثُمَّ
الْهَاءَ السَّاكِنَةَ (غمامة، غرامه، اليمامة، يقامه، شهامة)، أَمَّا فِي الشُّطُورِ الثَّانِيَةِ فَيَحْتَنِمُ
القَوَافِي بِسَاكِنَيْنِ بَعْدَ حَرْفٍ مُتَحَرِّكٍ وَبِرُوحِيٍّ الدَّالِّ (وَرْدٌ، رَعْدٌ، وَعَدٌ، بَعْدٌ، مَجْدٌ)، كَأَنَّنا
نَشَاهِدُ تَخْطِيطًا لِقَلْبِهِ سَنَبِيئُهُ فِي التَّرْسِيمَةِ الثَّالِيَةِ:



ثانياً: الحب واللذة الحسية

تَمَادَى الشَّاعِرُ شُكُورَ فِي عَدَدٍ مِنْ قِصَائِدِهِ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى التَّجْرِبةِ الْجَسَدِيَّةِ، وَفِي رَسْمِ مُعَانَاتِهِ فِي لَوْحَاتٍ وَإِقِيعِيَّةٍ، تَنْقَلِنَا إِلَى أَجْوَاءِ التَّجْرِبةِ، وَمَا أَحَدَّثَتْهُ مِنْ لُطَى وَأُنْجِرَافٍ فِي الْمَلْدَاتِ؛ فَصَهَرَ جَوَارِحَهُ، وَجَوَارِحَ حَبِيبَتِهِ عَلَى لَهَبِ الْمَشَاعِرِ، فَذَابَتْ فِي أَلْحَانِ التَّمَاهِي، وَأَرْتَسَمَتْ صُورٌ خِيَالِيَّةٌ، تَوَازَنَتْ أَبْعَادُهَا الْجَمَالِيَّةُ فِي أَكْوَانِ الْحُبِّ.

ومن هذه الصُّورِ الَّتِي أَلْهَبَتْ مَشَاعِرَهُ، مَا تَضَمَّنَتْهُ قِصِيدَةُ «إفريقيا» الَّتِي تُعَدُّ مِنَ الْقِصَائِدِ الْقَلَائِلِ الَّتِي صَوَّرَ فِيهَا الشَّاعِرُ الرِّغْبَةَ الْجَسَدِيَّةَ الْجَامِحَةَ؛ يَقُولُ:

غَلَبَ السَّوَادُ، وَغَارَتِ الشَّمْسُ

الليْلِ، مَهَلَّ خُطَاكَ لَا تَقْسُ

أَتُجِبُّنِي قَالَتْ؟ وَهَلْ عَلِمَتْ

أَنِّي لِإِدَافِقِ خَمْرِهَا كَأْسُ

فِي مَجْدِكَ الْمُنْهَارِ مِلءَ يَدِي

إِفْرِيقِيَا السَّوْدَاءُ وَالْفُرْسُ¹

(بحر الكامل)

لَقَدْ اخْتَفَتْ مَعَالِمُ الْمَكَانِ، وَغَارَتِ الشَّمْسُ، وَحَلَّ اللَّيْلُ، فَلَمْ يَعْذِ الشَّاعِرُ يَرَى سِوَى السَّوَادِ، خُصُوصًا أَنَّ الْفَتَاةَ إِفْرِيقِيَّةً، وَلَشِدَّةَ أَحْتِرَاقِهِ بِنَارِ هَوَاهَا، يَطْلُبُ مِنَ اللَّيْلِ أَلَّا يَفْسُوقَ عَلَيْهِ، وَيَنْتَهِي سَرِيعًا، بَلْ أَنْ يَتَمَهَّلَ فِي خُطَاهُ، لِيَتَمَلَّى مِنْ ثِمَارِ الْحُبِّ؛ فَعِبَارَةٌ «غَارَتِ الشَّمْسُ»، إِشَارَةٌ إِلَى شَقَرَاءِ، أَمَّا إِفْرِيقِيَا فَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى حَسَنَاءِ سَوْدَاءِ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَسْتَدِلَّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حُسْنَ «إِفْرِيقِيَا» السَّوْدَاءِ هَذِهِ، مَحَا حُسْنَ كُلِّ فَتَاةٍ حَتَّى الشَّفَرَاوَاتِ مِنْهُنَّ؛ وَعِنْدَمَا سَأَلَتْهُ الْفَتَاةُ إِنْ كَانَ يُحِبُّهَا، أَجَابَهَا بِثِقَّةٍ وَسُؤَالٍ، أَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَنَّ الْكَأْسَ الَّذِي سِيحْتَوِي خَمْرَ حُبِّهَا، وَأَنْ مَجْدَ إِفْرِيقِيَا السَّوْدَاءِ، وَمَجْدَ الْفُرْسِ كُلَّهُ أَنْهَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ؟ وَتَتَدَقَّقُ

1- جورج شكور. وحدها القمر، دار الأخطل الصغير، ط 4، 2004 م، ص 122.

الصُّورُ الحِسيَّةُ الجميلةُ في رَواعٍ من خياله المُبدِع؛ فيقول:

شَلَّالُ نارٍ، دِيمةٌ هَدَلْتُ

سُكْرُ العُيُونِ، تَرائبٌ مُلْسُ

أَهاتُ أَزْهارٍ مُراهِقَةٍ

فِي غابَةِ عَدْرَاءَ تَنْدَسُ

يا لَيْلَ عَدْنِ، يَوْمَ لا قَمْرٌ

عَيْرَ السَّوَادِ، وَيَوْمَ لا أَمْسٌ¹

(بحر الكامل في إحدى صوره)

أَسْتَعَارَ عِبارةَ «شَلَّالُ نارٍ» لِلْمَشاعِرِ الْمُتَنهَبَةِ، وَالذِيمةَ أَيِ السَّحابةِ الممطِرةِ لِلتَّعْرِقِ المَحْرورِ، ثُمَّ صَوَّرَ سُكْرَ العُيُونِ، وَأَعلى صَدْرِها المائِسَ؛ لِيَدُلَّ على المَشْهَدِ المُكْتَمَلِ لِلشَّهْوَةِ الجَسَدِيَّةِ، وَقَدْ خالَطَها صَوْتُ الآهاتِ لِمُراهِقَةٍ جامِحَةِ العاطِفَةِ، فَكانتِ هِي الأَزْهارَ الَّتِي أُنْدَسَتْ فِي غابَةِ عَدْرَاءَ، وَيُشَبِّهُ شَكُورَ تلكَ اللَّيْلَةِ بِلَيْلَةٍ مِنْ جَنَّةِ عَدْنِ، حَيْثُ أَحْتَفَى القَمْرُ، وَنَسِيَ الأَمْسَ، وَلَمْ يَبْقَ ماثِلاً أَمامَهُ سِوَى الحاضِرِ والسَّوَادِ. وَيُكْمِلُ:

وَتناوَحَتْ سَمراءُ، حاليَّةً

عُمُرُ الوُرودِ السُّودِ نَقْطُ نَدَى

بِكُرِّ الرِّياحِ، وَسالَتِ النَّفْسُ

هَيْهاتَ يَرشُفُ عَيْرَهُ العَرَسُ²

1 - جورج شكور. وحدها القمر، ص 122-123.

2 - م. ن. وحدها القمر، ص 123.

وَبَرَى بَرَاةَ الشَّاعِرِ فِي تَصْوِيرِ الشَّهْوَةِ الْجِنْسِيَّةِ، فَشَبَّهَ السَّمْرَاءَ بِرِيحٍ تَأْتِي مِنَ النَّوَاحِي
الْأَرْبَعِ؛ فَتَكُونُ مِنْهَا أَلْفٌ نَسْمَةٌ، وَتَأْتِي عِبَارَةً «سَالَتِ النَّفْسُ» لثُعْبُرٍ عَنِ ذُرْوَةِ الْإِرَادَةِ
فِي الْأَنْغِمَاسِ فِي الْمُتَعَةِ الْجَسَدِيَّةِ، فَالْوُرُودُ السُّودُ كَمَا يَقُولُ الشَّاعِرُ، لَا تَعِيشُ إِلَّا عَلَى
نُقْطِ النَّدى، أَيِّ مَاءِ الْحُبِّ.

تَعِبَ الشَّرَاعُ مُشَرَّدًا بَدَدًا
يَا زَوْرَقِي الْوَسْنَانَ هَلْ نَرَسُو؟
وَلَمَحْتُ فِي عَيْنِي مُعَلَّلَتِي
طَيْفَ الْهِنَاءِ وَالْغَوَى هَمْسُ
فَمَشَقَّتُهَا، كَالسَّيْفِ مُشْتَهَرًا
عَفْوَ الرِّمَاحِ، وَرَغْرَدَ الْعُرْسِ¹

(بحر الكامل في إحدى صوره)

يَتَصَوَّرُ الشَّاعِرُ نَفْسَهُ كَالشَّرَاعِ الَّذِي أَنْعَبَهُ النَّشْرُدُ، وَالسَّمْرَاءَ كَالزُّورِقِ النَّاعِسِ، وَقَدْ
شَخَّصَهُ؛ لَكِي يَسْأَلُهُ إِنْ كَانَ الْوَقْتُ قَدْ حَانَ لِيَرَسُو، وَلَكِنَّهُ فَهَمَ مِنْ مَلَامِحِ عَيْنَيْهَا، أَنَّهَا
فِي هِنَاءٍ وَنَشْوَةٍ، وَمَا زَالَتْ تَطْلُبُ الْغَوَى، فَاسْتَجَابَ لِطَلْبِهَا مُشَبَّهًا رُجُولَتَهُ بِالسَّيْفِ، الَّذِي
يُحَارِبُ فِي تِلَاحِمِ الْمَعَارِكِ، مُعْتَذِرًا مِنَ الرِّمَاحِ؛ فَعِنْدَهَا أَكْتَمَلَتِ النَّشْوَةُ، فَشَبَّهَهَا بِرَغْرَدَةِ
الْعُرْسِ؛ ثُمَّ يُعَلِّلُ أَنْغِمَاسَهُ فِي الشَّهْوَةِ، قَائِلًا:

يَا مَرْمَرِي اللَّيْلِي، طِيبَتْ وَقَدْ،
ضَمَّتْكَ مِنِّي أَنْمَلُ شُرْسُ
الْحَمْرُ خَمْرُكَ، نَارَةٌ وَبَدَتْ
خَلْفَ الزُّجَاجِ، فَكَيْفَ لَا أَحْسُو²!

(بحر الكامل في إحدى صوره)

1 - جورج شكور . وحدها القمر، ص 123-124

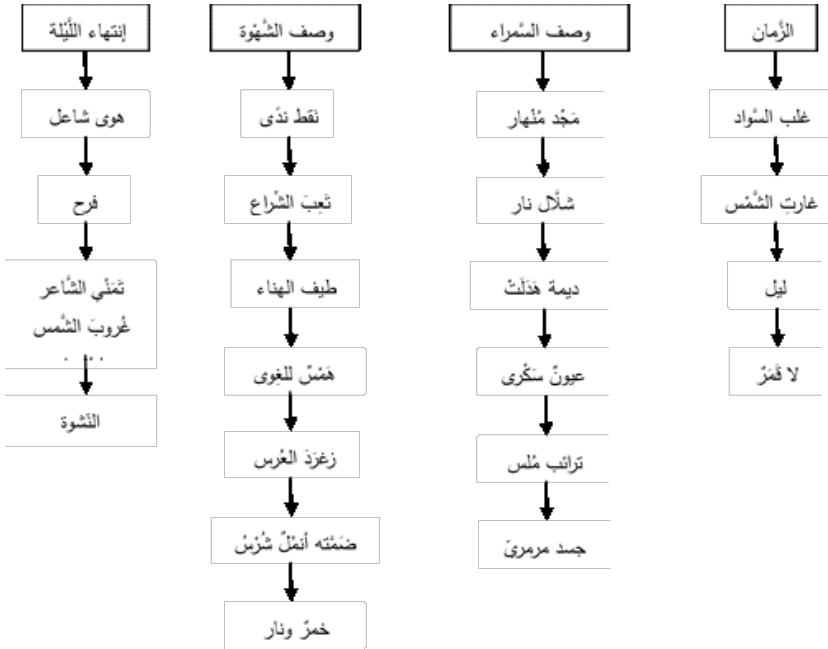
2 - م.ن. ص 124

في عبارة «يا مَرْمَرِي اللَّيْلِي»، إشارة إلى جَسَدِ السَّمْرَاءِ الَّذِي كَالْمَرْمَرِ، وَيُخَاطَبُهُ، مُطِيبًا إِيَّاهُ، بَعْدَ أَنْ ضَمَّتْهُ أَنْامِلُهُ بِشِرَاسَةٍ، حِينَ رَأَاهُ خَلْفَ الرُّجَاجِ، وَقَدْ بَدَأَ كَالْحَمْرِ نَشْوَةً، وَكَالنَّارِ شَعْلَةً، وَبَعْدَ هَذَا، كَيْفَ لَا يَشْرَبُ مِنْ حَمْرِهَا وَلَا يَحْسُو مِنْ كَاسِهَا؟ وَيُنْهِِي الشَّاعِرُ قَصِيدَتَهُ بِبَيْتٍ شِعْرِيٍّ يُعْلِنُ فِيهِ مُرَادَهُ:

يَا لَيْلَتِي، أَهْوَاكِ شَاعِلَةً،
يَا لَيْلَتِي، وَتَعْرِبِ الشَّمْسُ...¹

(بحر الكامل في إحدى صوره)

يُخَاطَبُ لَيْلَتَهُ الَّتِي أَلْهَبَتْ مِشَاعِرَهُ، مُعْلِنًا حُبَّهُ لَهَا، مُنْمِنًا تَكَرَّرَ التَّجْرِيَةِ، وَغُرُوبِ الشَّمْسِ مَرَّةً أُخْرَى، وَقَدْ كَرَّرَ نِدَاءَ «يَا لَيْلَتِي» مَرَّتَيْنِ لِتَأْكِيدِ كَلَامِهِ؛ أَمَّا تَرْسِيمَةُ الشَّهْوَةِ التَّصَاوُغِيَّةِ فَتَبْدُو كَالتَّالِي:



1 - م. ن. ص 124.

ثالثًا: حبّ الجمال وتعدّد الحبيبات

في دواوين شكور، نجدُ تعدّد حبيبات، كما عند الشاعر عمر بن أبي ربيعة¹؛ ففي ديوان «زهرة الجمال» مثلاً، تغزّل بأمرأة أسمها هيام، وأطلقَ عليها تسميةً دلّالٍ «هيم»، قائلاً:

بالحبِّ تُختصرُ الدنيا وتروثُها والحبُّ، يا هيمُ، أغناني وأغناك² ...

(بحر البسيط)

الحبُّ يختصرُ الدنيا وتروثُها بالنسبة إلى الشاعر، وهو يُعني الحبيبتين، والعمُر هو هذه اللحظات الجميلة التي يعيشها مع حبيبته، التي لو لم تكن في حياته، لكان زهداً في عمره، ويصِفُ في آخر القصيدة طيبَ اللقاء، وقُرب ضمّ صدرَيْهما من شدّة الحبِّ، حتّى أنّه لم يعدُ من مجالٍ لِسلكِ رفيع، ليَمُرَّ بيْنهما؛ ولكنَّ الشاعر، لا يُصرِّح بأسم حبيبته، أحياناً، وذلك إمّا خوفاً عليها من ألسنة الناس، أو لاحتفاظه بالسرِّ وحدّه من غير مشاركة أحدٍ فيه؛ فيقول في قصيدة «الهُوى اختصراً» التي تُعدُّ من أجمل قصائد ديوان «زهرة الجمال»:

حَبَّأتُ سرِّكَ في بَيْتٍ وقافيةٍ ما كُنْتُ أحسبُ شعري يَنشُرُ الخبرا

يا زهرةَ اللَّيْلِ، يا أطيابَ ناسِمَةٍ نَسِيتُ بَعْدَكَ، طِيبَ اللَّيْلِ والقَمَرِ³

(بحر البسيط)

ظنَّ شكور أنّه سيخبئ سرَّ حبيبته في شعره، ولكنّه لم يكن يعلم أنّ شعره يكتشف أسرارَهُ، فنرى الطباق بين حَبَّأتُ ≠ ينشُرُ، ثمَّ يُناجي حبيبته بالرموز: إنّها زهرة اللَّيْلِ، التي تؤنس وحدته، والنسمة المطيِّبة التي أنستهُ طيبَ اللَّيْلِ والقمر؛ فنجدُ تناغماً في موسيقى الألفاظ (ناسمة، نسيئتُ)، (أطياب، طيب)، وهو تناغمٌ مع النفس في الحالة الشعريّة.

1 - عمر بن أبي ربيعة: (644-712)، شاعر من سرة القرشيين. رفيق الأسلوب، لطيف العواطف. تاب وتزهد في آخر حياته. له ديوان. (مص المعلومات: المنجد في اللغة والأعلام، ص 4).

2 - جورج شكور. زهرة الجمال، ص 101.

3 - جورج شكور. زهرة الجمال، ص 91.

ويقول لِسَيِّدَةٍ سَمَّاهَا «مَيْسَاءَ الشَّامِ»:

أنا شاعرٌ يحيا لِلْفَتَّةِ حُلْوَةً كالشمسِ يَخْتَصِرُ المَدَى بِثَوَانِ
بَعْضُ الحِسانِ وُجودُهُنَّ تَفَرَّدُ والكَوْنُ لا يَحِلُّو بِغَيْرِ حِسانِ
أُحِقُّ لي، والشَّعرُ يبتكرُ الرُّوى أَلَا أَصوغُكَ حِلْيَةً لِبَيانِي؟¹

(بحر الكامل)

في هذه الأبيات، يُعرِّفُ الشَّاعرُ عن نفسه، بأنَّه شاعرٌ تُعِشُهُ لَفْتَةٌ حُلْوَةٌ وتُحْيِيهِ، وهو شبيهٌ بالشمسِ، يلتقطُ الجَمالَ بِثَوَانٍ، ويَضَعُ حِكْمَةً مفاذها، أن وُجودَ بَعْضِ الحَسَناءاتِ مُفَرَّدٌ لا شَبِيهَ لَهُنَّ، وأنَّ الكونَ لا يَحِلُّو بِغَيْرِهِنَّ؛ لذلك، قرَّرَ أن يَكْتُبَ الشَّعرَ لِمَنْ أَوْحَتْ إليه بِجمالِها ويَجْعَلُها الحِلْيَةَ التي سَتُرِينِ بَيانَهُ؛ فلا يَهْتَمُّ لِكلامِ اللَّائِمِينَ الَّذِينَ يقولون عنه إِنَّهُ شاعرٌ وَيَعْبُدُ أَمْرَةً، فَمَا دامَ سَعِيدًا، ولا يُخْطِئُ في تَصْرِفاتِهِ، فلن يُغَيِّرَ طَريقَهُ؛ لأنَّ حَبِيبَتَهُ نارٌ تُشْعَلُهُ بِحُبِّها، أَمَّا قُلُوبُ الحاسِدِينَ فَهِيَ مُطْفَأَةٌ:

يُقَالُ إِنِّي شاعرٌ وَأَعْبُدُ أَمْرَةً

ما هَمَّ؟

أنتِ النَّارُ، يا حَبِيبَتِي، وَهَمُّ قُلُوبٍ مُطْفَأَةٌ²

(مجزوء الرجز مع تصرف في توزيع التفاعيل)

تُلاحظُ هُنَا الحَدَاثَةَ في الشَّعرِ، المُنْطَلِقَةَ من جُذورِ الأَصالةِ، وَقَدْ أَعْتَمَدَ الشَّاعرُ تَفْعِيلَةَ «مستفعلن»، وَنَوَّعَ في هُنْدَسَةِ القَصِيدَةِ كَمَا في قَوافِيها.

ويكتبُ قَصِيدَةً «لِهِنْدُ»، وَهِيَ من نِوعِ المَوْشَحِ الحُرِّ، فَيَتَخَيَّلُ نَفْسَهُ طائِراً، وَحَبِيبَتَهُ على جَنَاحِ اللَّيْلِ؛ لِيُنَيِّرَ الأَحلامَ في أَجفانِ الحِسانِ اللِّواتي يَهْوِينِ الشَّاعرَ:

1 - م. ن. زهرة الجمالبا، ص 154.

2 - جورج شكور. وحدها القمر، ص 35.

طِرْ بِنَا، يَا لَيْلُ، فِي أَرْجُوحةٍ
 طِرْ جَنَاحًا مُسْتَهَامًا بِجَنَاحِ
 مُخْمَلِي الرِّيشِ مِمْرَاحِ الهَوَى
 وَأَسْرُقِ الأَطْيَافَ مِنْ هُدْبِ المِلاخِ
 وَأَنْفِجِ الأَسْحَارَ وَرَدُّ
 عِنْدَمَا أَشْدُو لِهِنْدُ
 فِتْنَةُ الغَيْدِ المِلاخِ
 طِرْ جَنَاحًا مُسْتَهَامًا بِجَنَاحِ¹

(بحر الرَّمَل بتصرف في توزيع التفاعيل)

يبرزُ في القصيدة: الحقل المُعْجَمِيُّ لِلطَّيْرَانِ: (طر - أرجوحة - جناحًا - جناح -
 الرِّيش)، والحقل المُعْجَمِيُّ لِأَحْلَامِ: (مُسْتَهَامًا - مُخْمَلِي - مِمْرَاح - الهَوَى - الأَطْيَاف
 - الأَسْحَار - فِتْنَةُ)، وهذا الطَّيْرَانُ مع الحبيبة هُوَ الَّذِي يُثِيرُ أَحْلَامَ الحِسانِ؛ أَمَّا دِيوانُ
 «مِرَاة مِيرَا» فقد سَمَّاهُ الشَّاعِرُ على أَسْمِ حُلُوةٍ، تُدْعَى «مِيرَا»، وكتب القصيدة الأولى
 من الدِّيوانِ لَهَا:

أَجْمَلُ الأَجْمَلِ مِيرَا	تَوَجَّتُ قَلْبِي أَمِيرَا
أَنَا مِنْ أَجْلِ رُؤَاها	أَزْرَعُ الوَرْدَ سَطُورًا ...
يَا لَهَا فَرْحَةَ عُمُرٍ	أَلْهَمْتَنِي أَنْ أَطِيرَا! ²

(مجزوء الرَّمَل)

1 - جورج شكور . مرآة ميرا . ص 13 .
 2 - جورج شكور . مرآة ميرا . ص 13 .

يُغْلِنُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَنَّ «مِيرًا»، هِيَ أَجْمَلُ الْجَمِيلَاتِ اللَّوَاتِي أَحَبَّهُنَّ؛ وَلِأَنَّهَا غَامَرَتْ لِثُرَيْبِي غُرُورَهُ، وَأَدْخَلَتْ الْفَرْحَ إِلَى قَلْبِهِ، عَدَّتْ حُبَّهُ الْكَبِيرَ، وَفَرِحَتْ عُمَرِهِ، أَلْهَمَتْهُ، فَكَتَبَ لَهَا شِعْرًا أَصْبَحَ مِرَاءً لَهَا، زَرَعَهُ سَطُورًا كَالْوَرْدِ، وَأَحْسَّ بَأَنَّ لَهُ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا.

نَتَبَّيْنُ فِي شِعْرِ شُكُورِ الْغَزَلِيِّ، تَعَدُّدًا لِلْحَبِيبَاتِ، فَوَرَدَتْ أَسْمَاءُ مُتَعَدِّدَةً كَمَا: نُؤْتُو، نَدَى، سُوْسُو، هُنْدُ، نُوَالِ وَغَيْرِهِنَّ... فَظَهَرَ التَّنَاقُضُ وَاضِحًا بَيْنَ إِعْلَانِهِ الْإِخْلَاصَ لِحَبِيبَةٍ وَاحِدَةٍ، وَبَيِّنَ ذِكْرَهُ لِأَسْمَاءٍ كَثِيرَاتٍ. وَلَكِنْ، أَلَيْسَتْ الْمِرَاءُ هِيَ الْحَافِرُ الَّذِي يُلْهِمُ الشَّاعِرَ كِتَابَةَ الشُّعْرِ؟

رابعًا: الحب الحميمي

الشَّاعِرُ طَائِرٌ يَتَقَلُّ مِنْ غُصْنٍ إِلَى غُصْنٍ، وَلَكِنَّهُ فِي آخِرِ نَهَارِهِ، يَعُودُ إِلَى عُشِّهِ الْهَادِي حَيْثُ الْأَطْمِنَانُ وَالسَّكِينَةُ؛ وَجُورِجُ شُكُورِ أَحَبَّ الْجَمَالَ، وَوَلَّاحِقَهُ أَيْنَمَا وَجِدَ، إِلَّا أَنَّ حُبَّ فِتَاةٍ كَانَتْ تَلْمِيزَةً فِي صَفِّهِ، خَفَقَ لَهَا قَلْبُهُ، وَأَزْعَشَ كِيَانَهُ، وَالَّتِي أَصْبَحَتْ فِيمَا بَعْدَ زَوْجَتِهِ.

فَالْحُبُّ الْبَرِيءُ بَدَأَ حِينَ كَانَ جُورِجُ شُكُورِ يُعَلِّمُ فِي إِحْدَى الْمَدَارِسِ اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَتْ بَيْنَ تَلْمِيزَاتِهِ، فِتَاةٌ جَمِيلَةٌ فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهَا، أَسْمُهَا دَوْلِي، أَعْجَبَتْ الشَّاعِرَ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ يَكْتُمُ فِي قَلْبِهِ هَذَا الْإِعْجَابَ؛ ثُمَّ عَادَ شُكُورُ فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ ذَاتِهَا الَّتِي عَلَّمَ فِيهَا التَّلْمِيزَةَ، وَلَكِنَّهَا هِيَ لَمْ تَعُدْ، لِظُرُوفٍ خَاصَّةٍ بِهَا، بَلْ أَنْتَقَلَّتْ إِلَى مَدْرَسَةٍ أُخْرَى، وَقَوَّرَ عَوْدَتِهِ، فَوَجِيََّ بِغِيَابِهَا الْمُؤَلِّمَ، فَكَتَبَ لَهَا قَصِيدَةَ «رُجْعِي»:

رَجَعْتُ، وَلَوْلَاكَ لَمْ أَرْجِعْ
وَكَفَيْ تَشُدُّ عَلَى أَضْلُعِي

أَيَا سَكْرَةَ الزَّهْرِ إِنِّي فَرَّاشٌ
وَ أَحْيَا عَلَى الْأَرْجِ الْمُتَمَعِّعِ¹

(بحر المتقارب)

بهذا النغم الحزين يُخاطبُ الشاعر حبيبته التي لم تكن، ويُصارحُها به هامِسًا، ليبيِّن أنَّه يُضمِرُ لها حبًّا صافيًّا: «وكفِّي تشدُّ على أضلعي»؛ ليقولَ أنَّه مُمسِكٌ قلبه بيده؛ لأنَّه مُرتابٌ من أمرِ عودتها إلى المدرسة، ومن أنَّه لن يلقاها من جديد.

وبعدَ المطلع الرقيق المَهْمُوس، يترَفِّقُ جدولُ عواطفه، فينتقلُ من كلامِ خبريِّ سرديِّ، إلى كلامِ إنشائيِّ ندائيِّ؛ ليُعِلِّنَ لها عن إعجابِه بها، فهي لا تُسكِرُه، وحدَه، بل تُسكِرُ زهرَ الطبيعة، ويُبوحُ لها بأنَّه كالفرشاتِ التي تحيا على العطر. فحاسةُ الشمِّ عنده تكمنُ في حاسةِ البصرِ، ويعودُ إلى السردِ، مُعلِّنًا ما في ذاته من أسرار، مُتذكِّرًا صورًا عن الحبيبة، لا تزالُ مرسومةً في خياله وفؤاده؛ فيقول:

رَجَعْتُ أَفَاتِنُهَا¹⁴ طِفْلَةً بِيَالِ النَّجِيمَاتِ لِمَ تَطْلُعُ
أَعْصُ وَأَبْكِي، وَتَبْكِي الدُّرُوبُ وَأَشْتَاتُ حُلْمٍ عَلَى أَدْمَعِي
تَشْدُ فُوَادِي بِأَرْجُوحَةٍ عَلَى الْخَصْرِ، إِمَّا مَشَتْ يَنْبَعُ²

(بحر المتقارب)

لقد عادَ ليُشاركها الإعجابَ والأستمالَةَ، مُبتكرًا فعلَ «أفاتنُها»؛ وهي حبيبةٌ مُميَّزة، لم تحلمِ النَّجِيمَاتُ بِمِثْلِهَا، وقد صَعَّرَ الشاعرُ النَّجِيمَاتِ تحبُّبًا بها، مُستعيرًا للنَّجِيمَاتِ، بالآ، كالْبَشَرِ، ويَصِفُ حاله في الألمِ الذي أنتابه، فالعَصَّةُ تملأُ قلبه وفمه، فيبكي، وتشاركه الدُّرُوبُ البكاءَ، ويتخيَّلُ حُلْمًا مُشْتَتَّ الصُّورِ، يتناثرُ في دموعه؛ وفي القصيدةِ أُفُقُ صُورِيٍّ أَنْطِبَاعِيٍّ، يواكبُ الأفُقَ العاطفيَّ، ويتمثَّلان في التَّرْسِيمةِ التَّالِيَةِ:

1 - أفاتنُها: لا وجود لهذا الفعل في المعجم و قد ابتكره الشاعر كلفظة تقنية.
2 - م. ن. وحدها القمر، ص 77.

الأفق العاطفي للشاعر	↔	أفق الصور الأنطباعية
رَجَعْتُ أَفَاتِنَا طِفْلَةً	↔	بِالْأَنْجِمَاتِ لَمْ تَطَّلِعْ
أَغْصُنْ وَأَبْكِي	↔	تَبْكِي الدُّرُوبَ
تَشْدُ فُوَادِي بَارِجُوحَةٍ عَلَى الْخَصْرِ	↔	إِنَّمَا مَشَتْ يَتْبَعُ

هُذَانِ النَّيَّارَانِ الْأَفْقِيَانِ يَفْعَلَانِ فِعْلَهُمَا فِي الْقَارِي، وَيُنْقَلَانِي إِلَى جَوِّ الشَّاعِرِ؛ ثُمَّ يَرْتَفِعُ النَّيَّارُ الْوِجْدَانِي التَّامُّلِي، وَالْحَنِينُ اللَّاهِبُ إِلَى أَمْسٍ عَبْرَ، وَلَا تَزَالُ ذِكْرِيَّاتُهُ الْمَتَّصِرَةَ تُخَالِجُ مُخَيَّلَتَهُ، فَيَهْتَفُ مُتَحَسِّرًا:

رَجَعْتُ، لِأَوَاهُ كَيْفَ رَجَعْتُ وَأَنْتِ - فَدَيْتُكِ - لَمْ تَرْجِعِي؟
أَنَا بَعْضُ عُمْرِي هُنَيْهَةَ شِعْرٍ وَنَشْوَةٌ خَمْرٍ، وَأَنْتِ مَعِي¹

(بحر المتقارب)

هكذا، غالبًا ما تكون خاتمة القصيدة عند شكور، كخاتمة السمفونية الموسيقية، حيث هي الذروة التي تحتشد فيها أسمى المشاعر والصور، ويتخيّل الشاعر كيف كان ظلُّ رُوحِهِ يُعَانِقُ ظِلَّ رُوحِ الحبيبة، وَيَسْمُ عِطْرَهَا النَّادِرَ، وَهْنِيهَاتِ لَهْوَهَا الَّتِي تُثِيرُ فِيهِ مَلَكَةَ الشَّعْرِ، فَيُبْدِعُ مِنْ خِلَالِهَا، وَيَتَصَوَّرُ كَيْفَ كَانَ يَسْبُحُ فِي بُحَيْرَاتِ عَيْنَيْهَا، وَيُسَافِرُ فِي الْخِيَالِ فِي زَوْرَقِ أَلْحَاطِهَا الْعَمِيقَةِ الْمَعَانِي، وَلَكِنَّهُ فِي النِّهَايَةِ يَتَحَسَّرُ، وَيَتَأَوَّهُ لِعَدَمِ عَوْدَتِهَا، وَيُلْخِصُ الْقَصِيدَةَ كُلَّهَا بِبَيْتِ الْخَاتِمَةِ حَيْثُ يُوجِزُ عُمُرَهُ، بِأَنَّهُ هُنَيْهَةُ شِعْرٍ، وَنَشْوَةٌ خَمْرٍ، وَأَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحَبِيبَةُ، تَحْدِيدًا، مَعَهُ.

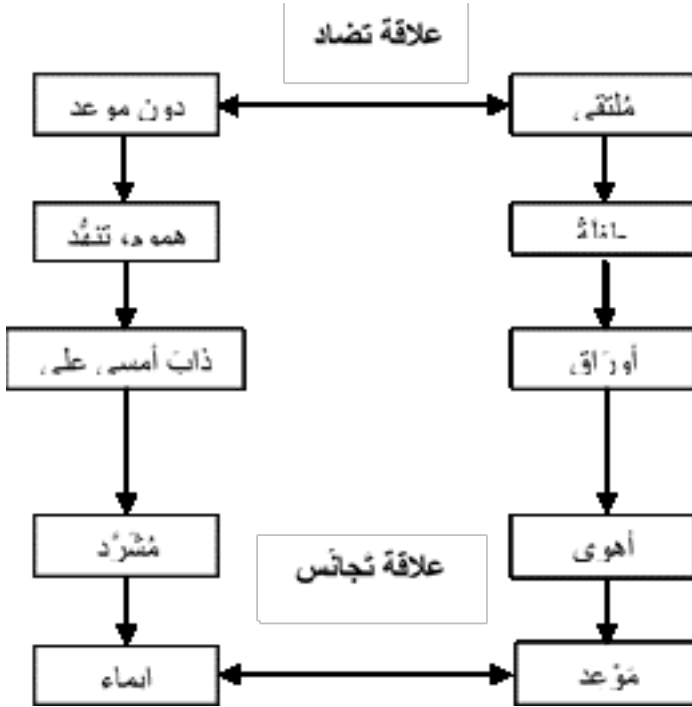
وفي قصيدة أخرى، ألّفها الشاعر حبيبته، صدفةً، دون موعِدٍ، فأورقَ العُمُرَ حِينَ لَامَسَتْ كَفَّهَا يَدُهُ:

1 - جورج شكور. وحدها القمر، ص 79.

مُلْتَقَى دُونَ مَوْعِدٍ يَا هُمُومِي تَنْهَدِي...
 طِفْلَةُ الْأَمْسِ، هَاهُنَا؟ دَرْبُهَا دَرْبُ مَعْهَدِي
 أَوْزَقَ الْعُمُرِ عِنْدَمَا لَامَسْتُ كَفَّهَا يَدِي¹

(مجزوء الخفيف)

هُوَ يُنَادِيهَا بِطِفْلَةِ الْأَمْسِ، وَقَدْ أَلْتَقَاهَا عَلَى دَرْبِ مَعْهَدِهِ، فَأَذَابَتْ أَصَابِعُهَا الشَّاعِرَ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ مُتَشَرِّدًا فِي غِيَابِهَا، وَلِقَاؤُهُ إِيَّاهَا هُوَ إِجَادٌ لِنَفْسِهِ؛ وَهُنَا، يَتطَابَقُ الْمُسْتَوِيَانِ التَّصْوِيرِيُّ الْمَوْضُوعَاتِي، وَالْعَاطِفِيُّ الْحِسِّيُّ.



هكذا عَبَرَ مِحْوَرُ التَّضَادِّ، فِي الْمُرَبَّعَاتِ السِّمَانِيَّةِ تَدْرِيجِيًّا، حَتَّى وَصَلَ فِي النِّهَايَةِ إِلَى عِلَاقَةِ التَّجَانُّسِ وَكَانَ الْوَعْدُ بِلِقَاءٍ مَعَ مَوْعِدٍ.

1 - جورج شكور. وحدها القمر، ص 93.

وشِعْرُ شُكُورٍ يُخْبِرُ قِصَّةَ حَيَاتِهِ، وَهَذِهِ الْقِصَائِدُ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَجَارِبَهُ هِيَ وَقَعٌ مُعَاشٌ وَلَيْسَتْ قِصَصًا خَيَالِيَّةً، وَكُلَّمَا كَانَتْ حَقِيقِيَّةً أَثَّرَتْ فِي الْقَارِئِ، وَجَعَلَتْهُ يَعِيشُ حَالَاتِ الشَّاعِرِ فِي أَلَمِهِ، وَفَرْحِهِ، وَفِي سُرُودِهِ وَوَعْيِهِ، وَفِي مَغَامِرَاتِهِ الَّتِي مَا كَانَتْ تَنْتَهِي مُغَامَرَةً مِنْهَا حَتَّى تَبْدَأَ قِصَّةً أَجْمَلُ.

وَحُبُّ شُكُورٍ لِحَبِيبَتِهِ دُولِي، يُذَكِّرُنَا بِأَيَّامِ الْحُبِّ الْبَرِيِّءِ، الْجَمِيلِ، حِينَ كَانَ اللَّقَاءُ صَعْبًا بِسَبَبِ النِّقَالِيدِ الصَّارِمَةِ الَّتِي كَانَتْ تُطَبَّقُ عَلَى الْفَتَاةِ؛ لِذَا، كَانَ الْحَبِيبَانِ يَتَرَسَّلَانِ، عَبْرَ مُوقَدٍ، حَتَّى لَا يُبَيِّرَا الشُّكُوكَ فِي قِصَّةِ حُبِّهِمَا؛ فَيَكْتُبُ الشَّاعِرُ قِصِيدَةً بِعُنْوَانِ «بَرِيدُهَا»:

عَصَتْ زُهُورُ، وَأَرْتَمَتْ حَسَدًا	هَذَا بَرِيدُ حَبِيبَتِي وَرَدَا - غَرْدَا
عَامٌ مَضَى، وَ مَضِيئْتُ أَنْتَظِرُ	لَا الشَّعْرُ يَشْفِينِي، وَلَا السَّهْرُ
هَذَا بَرِيدُ عُهُودِنَا الْأَوَّلِ	كَلِمَاتُهُ قَطْفٌ مِنَ الْقَبْلِ
وَفَوَاصِلُ صِيغَتِ عَلَى عَجَلٍ	هَذَا سَفِيرُ الْحُبِّ وَالْعَزْلِ - وَقَدَا ¹

(بحر الكامل بِنَصْرُفٍ وَتَنْوِيعٍ فِي الْقَوَافِي)

يُشِيرُ شُكُورٌ إِلَى اللَّوَاتِي يَحْسِدُنَ حَبِيبَتَهُ، وَيَعَزَّنَ مِنْ رِسَالَتِهَا؛ وَفِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، يُعَزِّزُ الْقَافِيَةَ بِقَافِيَةٍ ثَانِيَةٍ، عَلَى طَرِيقَةِ بَعْضِ الْمَوْشَحَاتِ (وَرَدَا - غَرْدَا)، وَيَتَأَلَّمُ، بَعْدَ أَنْ أَفْتَرَقَا لِمُدَّةٍ عَامٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَشْفِيهِ مِنْ هَذَا الْأَلَمِ لَا الشَّعْرُ وَلَا السَّهْرُ؛ وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ وَرَدَ بَرِيدُ حَبِيبَتِهِ، وَهُوَ سَفِيرُ الْحُبِّ وَقَدَّ إِلَيْهِ، فَأَزْهَرَتْ كَلِمَاتُ الْبَرِيدِ، وَتَخَيَّلَ نَفْسَهُ يَقْطِفُ قُبُلَاتِ الْحَبِيبَةِ مِنْ بَيْنِ كَلِمَاتِهِ.

وَبَعْدَ قِصَائِدِ كَتَبَهَا الشَّاعِرُ، مُتَعَزِّلاً بِعَيْنِي حَبِيبَتِهِ، وَحُسْنِ جَمَالِهَا، وَعَدَهَا بِأَنَّهُ سِيَأْتِي لِحُطْبَتِهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، فَكَتَبَ لَهَا قِصِيدَةً فِي الْمُنَاسِبَةِ بِعُنْوَانِ «لَيْلُ الْأَحَدِ»، وَأَدَاعَاهَا لَهَا قَبْلَ مَجِيئِهِ، مِنَ الْإِدَاعَةِ اللَّبْنَانِيَّةِ، وَذَلِكَ لِيزِيدَ مِنْ تَعَلُّقِهَا بِهِ، وَشَغَفِهِ بِهَا:

1 - جورج شكور. وحدها القمر، ص 80-81.

يا رَعْدَ لَيْلِ الْأَحَدِ أَجْمِلْ بِهِ مِنْ مَوْعِدِ
جَمَعْتُ فِيهِ عُمْرِي أَمْسِي وَيَوْمِي وَعَدِي¹

(مجزوء الرجز)

الكلام رشيقٌ يرُقُّصُ رُقْصًا فَرِحًا، كما قلبُ حبيبته؛ وتَسألُ دوللي أختها «مَنْى» عمًا ستَلْبَسُ؛ لِيُعْجَبَ الحبيبُ بها؛ هل تلبسُ اللونَ الأخضرَ رَمَزَ الربيعِ الجميلِ؟ وفي هذا الحوار الذي يتضمَّن الاستفهام والحيرة في اتِّخاذ القرار، تَقْرُبُ القصيدةُ من القصَّة، وتشوِّقُ القارئَ لمتابعتها لمعرفة نهايتها؛ فيقول:

غداً؟ غداً أُمْنِيَّتِي؟
أختاهُ ماذا أرتدي
ليومِي المَعْرَدِ؟
أختارُ لونَ الأَخْضَرِ
وهَجَ الشَّبابِ النَّيِّرِ؟

(مجزوء الرجز)

فيجيبها حبيبها الشاعر، في القصيدة نفسها، قائلاً:

وبعدُ، يا حبيبتي
إن رَفَزَقَ الأهلُ مَعًا
وهَلَّلُوا وَعَرَّدُوا،
ما نَجْمَةٌ، أَقْطِفُهَا
لِمَنْ أَفِي وَأَعْبُدُ
لِحُلُوتِي الَّتِي بِهَا

1 - م.ن. وحدها القمر، ص 83.

سِيَحْلُمُ الزُّمْرُدُ¹

(مجزوء الرجز)

إنَّهَا قَصِيدَةٌ حَدِيثَةٌ، نَظَمَهَا الشَّاعِرُ عَلَى وَزْنِ مَجْزُوءِ الرَّجَزِ، مَعَ تَتْوِيعٍ فِي الْقَوَافِي، يَتَنَاسَبُ مَعَ الْحَالَةِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي عَاشَهَا، فِيهَا فَرَحٌ بِالْحُطْبَةِ، وَلِسَانٌ حَالٍ كُلِّ فَتَاةٍ تَنْتَظِرُ فَتَى أَحْلَامِهَا؛ وَيُلَاحِظُ الْحَقْلَ الْمُعْجَمِيَّ الْمُرتَبِطَ بِالْفَرَحِ (رَغْدٌ - أَجْمَلٌ - أَمْنِيَّتِي - وَهَجُ الشَّبَابِ النَّيِّرِ - مُحَلُولِيًّا - أَحْبَبْتُهُ - حُلْمٌ - الْأَعْيُدُ - حَبِيبَتِي - زَفَرَقَ الْأَهْلُ - هَلَّلُوا - زَعَرَدُوا - نَجْمَةٌ أَقْطِفُهَا - حَلَوْتِي سِيَحْلُمُ الزُّمْرُدُ)، كَمَا يَظْهَرُ الْحِوَارُ بَيْنَ الْحَبِيبِينَ فِيهِ وَعَدٌّ وَمُسْتَقْبَلٌ؛ وَتَنْجَلِيٌّ دَوْلِيٌّ فِي قَصِيدَةِ جُورْجِ شَكُورٍ، مِثَالِ الزَّوْجَةِ الْوَفِيَّةِ، وَالْمُتَنَبِّهَةِ لِسَعَادَةِ أَهْلِ بَيْتِهَا وَرَوْحِهَا، وَهَذَا مَا يَزِيدُهُ تَعَلُّقًا بِهَا وَأَحْتِرَامًا لَهَا؛ يَقُولُ:

لِي زَوْجَةٌ، أَبَدًا، كَالْأَمِّ تَحْرُسُنِي لَيْلًا، نَهَارًا، وَيَحْلُو عِنْدَهَا الْحَرَسُ
تَنَامُ قَبْلِي، وَإِنَّمَا أَهْمِسُ أَنْتَبَهْتُ كَأَنَّمَا سَاهِرٌ فِي قَلْبِهَا جَرَسُ²

(بحر البسيط)

فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، حَشَدَ لظُرُوفِ الزَّمَانِ (أَبَدًا، لَيْلًا، نَهَارًا)، مَا يَعْنِي أَنَّ الزَّوْجَةَ هِيَ الْحَارِسَةُ لِزَوْجِهَا فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ؛ وَلَدَى الشَّاعِرِ مَلءُ النُّقَّةِ بِحُبِّ زَوْجَتِهِ لَهُ، وَبِأَنَّهَا صَاحِبَةٌ عَقْلٌ كَبِيرٌ، وَمُنْفَتِحٌ، وَهِيَ تَتَذَوَّقُ شَعْرَهُ، وَلَوْ شَدَا بِهِ لِغَيْرِهَا؛ لِأَنَّهُ بِحَاجَةٍ لِأَنْ يَطِيرَ فِي الْفَضَاءِ الرَّحْبِ بِحُرِّيَّةٍ، حَتَّى يَجُودَ بِأَحْلَى الْكَلَامِ، كَمَا الزَّهْرَةُ تَجُودُ بِنَفْحِ عَيْبِرِهَا:

وَتُحِبُّ شَعْرِي لَوْ شَدَوْتُ لِغَيْرِهَا
وَتَقُولُ: إِنَّكَ فِي الْحَيَاةِ كَطَيْرِهَا
وَكَزَهْرَةٍ جَادَتْ بِنَفْحِ عَيْبِرِهَا
وَهَوَاكَ لِي سَيَظِلُّ أَمْكَنَ مِنْ مَكِينِ!³

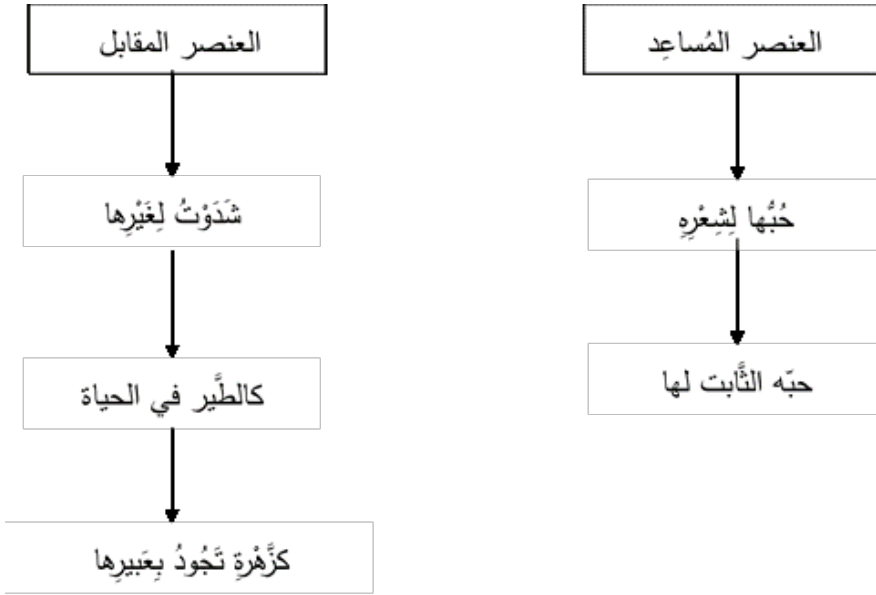
(بحر الكامل المشطور)

1 - جورج شكور. وحدها القمر، ص 85.

2 - جورج شكور. زهرة الجمال، ص 68.

3 - جورج شكور. ذهب الغزل، دار الأختل الصغير، ط 1، 2012، ص 91.

ولكن ألا تتظاهر دوللي بَعْدَم الغيرة من حبيبات الشاعر؟ أم أنها رَضِيَتْ بالأمر الواقع، وهي تَعْلَمُ أَنَّ مُغامراته عابرة، وأنها يُحِبُّها، وسيَعُودُ إلى بَيْنَهُمَا الدَّافِئِ الهنيء؟ ومن خلال هذه الأبيات تبدو الترسيمة التالية:



خامسًا: الحُبُّ المُتسامي

في شعر شكور جمال رُؤْيُويٍّ، يسكنُهُ الخيال، والإدراكُ المُطلُّ على آفاق بعيدة، يُرْضِي الرُّوحَ والشَّعْرَ والجَمَالَ الأَنْثُويَّ؛ فالشَّاعِرُ يَسْكُرُ مِنَ النَّظْرَةِ النَّاعِسَةِ، وَمِنْ ضِحْكَةِ النَّعْرِ، وَمِنْ شَعْرِ حَبِيبَتِهِ المُوْجِي، تَعْنَى فَرَحًا بِتِلْكَ الَّتِي أَلْهَمَتْهُ الشَّعْرَ، صَافِيًا صَفَاءَ نَفْسِهَا السَّامِيَةِ فَقَالَ فِيهَا:

أَحْبُكِ أَلْوَانًا مِنَ الحُبِّ جَمَّةً لِأَنَّكَ كُلُّ الحُبِّ جُمِعَ فِي فَرْدٍ!

وَأَنْتِ الَّتِي أَلْهَمْتِنِي الشَّعْرَ صَافِيًا وَأَنْتِ الَّتِي تُعْلِينِ مَجْدِي مِنْ بَعْدِي¹

(بحر الطَّوِيل)

1 - م.ن. ذهب الغزل، ص 65.

يُحِبُّ الشَّاعِرُ حَبِيبَتَهُ، كُلَّ أَنْوَاعِ الْحُبِّ الَّذِي يُجْمَعُ فِي فَرْدٍ، وَلِلتَّأَكِيدِ عَلَى حَبِّهَا، كَرَّرَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (أَحَبِّكَ - الْحَبِّ - كُلَّ الْحَبِّ)، كَمَا يَبْدُو الْحَقْلَ الْمَعْجَمِيَّ لِلسَّمَوِّ فِي الْحَبِّ: (أَحَبِّكَ أَلْوَانًا مِنَ الْحَبِّ - لِأَنَّكَ كُلَّ الْحَبِّ جُمِعَ فِي فَرْدٍ - أَنْتِ الَّتِي أَلْهَمْتِنِي - الشَّعْرَ صَافِيًا - أَنْتِ الَّتِي تُعْلِينِ مَجْدِي مِنْ بَعْدِي)؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى السَّمَوِّ فِي الْمَشَاعِرِ، وَتَأْتِيرُ الْحَبِيبَةُ الْمَوْحِي لِلشَّعْرِ الصَّافِي، فَقَدْ أَلْهَمَتْهُ شِعْرًا صَافِيًا؛ لِذَلِكَ، حَمَلَهَا مَسْئُولِيَّةَ إِعْلَاءِ مَجْدِ شِعْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ.

وَتَطَالِعْنَا قَصِيدَةَ عُنْوَانِهَا «وَيْهَا وَحَدَّهَا»، وَيَنْمُ هَذَا الْعُنْوَانُ عَنْ تَقَرُّدِ الْحَبِيبَةِ بِالسَّمَوِّ؛ لِأَنَّ مُلْهَمَتَهَا هِيَ حَبِيبَةُ رُوحِ الشَّاعِرِ، وَقَدْ طَلِبَ مِنْهُ وَصَفَهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ شَيْبَهَا يُعَادِلُ جَمَالَهَا، وَهَلْ تُحِيطُ الْمَادَّةُ بِمَا هُوَ رُوحٌ؛ لِذَلِكَ، يُنْشِدُهَا شِعْرًا، كَأَنَّهُ الصَّلَاةَ، حَيْثُ يَقُولُ:

قِيلَ: صِفْهَا، فَقُلْتُ: هَذَا مُحَالٌ	مَا سَمَا مِثْلَهَا هَوَى وَمِثَالٌ
حُلْوَةٌ؟ لَا هِيَ الْحَلَاوَةُ، وَالْحُسْنُ	شَفِيفَ الرُّوَى، كَمَا شَفَّ آلٌ
طَيِّفُهَا طَاهِرٌ، وَمَعْبَدٌ قُدْسٌ	فِي سَمَا الْبَالِ، بَيْنُهَا يَخْتَالُ
زَيْنَتُهُ بِأَحْنِهَا صَلَوَاتٌ	وَشُمُوعٌ دَمُوعُهُنَّ ظِلَالٌ ¹ ...

(بحر الخفيف)

يُفَاجِئُ رَدُّ الشَّاعِرِ عَلَى أَسْتَفْهَامِهِ «حُلْوَةٌ»؟ نَفْيًا بِ «لَا»؛ لِإِعْوَادِ مُوضِحًا بِقَوْلِهِ: (هِيَ الْحَلَاوَةُ) مَخْصَصًا الْمُلْهَمَةَ بِأَلِ التَّعْرِيفِ، وَيَعُودُ إِلَى أَمْتِدَاحِ الْحُسْنِ الشَّقَافِ كَالسَّرَابِ، وَالدَّائِمِ الْإِيحَاءِ، وَيُبَالِغُ الشَّاعِرُ حِينَ يَرْفَعُهَا إِلَى مَصَفِّ الْقَدَاسَةِ، وَيَجْعَلُ بَيْتَهَا مَعْبَدًا مَقْدَسًا، يَعِيشُ فِي ذُرْوَةِ بَالِهِ وَخَيَالِهِ.

وَلَا يَفْتَقِرُ وَصْفُهُ عَلَى جِسْمِ الْحَبِيبَةِ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ رَوْنِقِهِ وَشَفَافِيَّتِهِ، إِنَّمَا تَهْمُهُ أَخْلَاقُهَا وَشِيَأَتُهَا، وَيَبْدُو ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْحَقْلِ الْمَعْجَمِيِّ الْمُنْتَشِرِ فِي الْقَصِيدَةِ كُلِّهَا: (شَهْمَةٌ - عَقَّةُ الْفُؤَادِ - كُبَارٌ - طَلَقَةُ الْفِكْرِ - وَالْخِصَالُ خِصَالٌ - عَزِيزَةُ النَّفْسِ - مُنَاهَا الْمَعَالِي - طَبَعُهَا سَمْحٌ - عَبْقَرِيَّةُ النَّهْيِ - لِمَاحَةُ الْفِكْرِ - نَكَوْهَا مُشْتَعِلٌ لِمَاحٍ - كَرِيمَةُ الْكَفِّ - كَرِيمَةُ النَّفْسِ - حَنَانُهَا عَلَى الْأَنَامِ - عَطْفُهَا مَرِيْمِيٌّ سَامٍ - تَمَاهَى الْكَمَالِ بِهَا وَحَدَّهَا).

1 - جورج شكور. ذهب الغزل، ص 9.

لم يَعُدَّ الشَّعْرَ مُجَرَّدَ صَنْعَةٍ أَوْ طَبْعٍ، بَلِ اُنْسَلَكَ نِهَائِيًّا فِي سِلْكِ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ أَخْذَا مِنْ الرَّسْمِ، وَالنَّحْتِ وَالْعِمَارَةِ، وَالْمَوْسِيقَى وَالرَّقْصِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تُغْنِيهِ؛ وَلِذَلِكَ، أَصْبَحَ الشَّعْرُ، اللَّغَةَ الْأَرْقَى وَالْأَسْمَى، مَا جَعَلْنَا نُوَكِّدُ أَنَّهُ: عَلَى مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لُغَةَ الْآلِهَةِ أَنْ يُجِيدَ لُغَةَ النَّاسِ أَوْلَا؛ وَحُبُّ الشَّاعِرِ لَمْ يَعُدَّ حُبًّا عَادِيًّا، بَلِ إِنَّ عَاطِفَتَهُ تَصَاعَدَتْ سَامِيَةً؛ لِتُعَانِقَ سُمُوَ الْحَبِيبَةِ الْمُلهِمَةِ، وَتَبْلُغَ حَدَّ الْعِبَادَةِ، فَيَقُولُ:

حُبٌّ؟ تُعْبُدُ حَسَنَاءً وَمُلهِمَةً فَإِنْ جُنِبْتُ بِهَا، قَدْ بَاتَ لِي عُدْرِي¹

(بحر البسيط)

وَدُرُوءُ الْحَبِّ أَنْ يَتَمَثَّلَ الشَّاعِرُ حَبِيبَتَهُ جَامِعَةً الْأُمْنِيَّاتِ، وَالكَوْنَ بِهَا مُخْتَصِرًا؛ فَيَهْتَفُ لَهَا:

آه، يَا حُلُوءَ، أَلْوَانَ الْمُنَى جُمِعْتَ فَيْكَ، وَخَلْتِ الْكَوْنَ كُلَّهُ²

(بحر الرَّمَل)

وَأَكْتَمَلَتْ صُورَةَ الْحَبِيبَةِ، تَصَاعُدِيًّا:

حُلُوءَ ← فِيهَا أَلْوَانَ الْمُنَى ← هِيَ الْكَوْنَ كُلَّهُ.

تَتَلَمَّسُ نَوْعَ الْحَبِّ الْمُتَسَامِي عِنْدَ شُكُورٍ، مِنْ خِلَالِ مُتَابَعَتِنَا لِلْمُفْرَدَاتِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ قِصَائِدِهِ، وَفِيهَا صَلَاةٌ فِي الْحَبِّ، وَتَعْبُدُ لِرُوحَانِيَّاتٍ، وَخُصُوصًا فِي دِيْوَانِهِ الْأَخِيرِ: «ذَهَبُ الْغَزْلِ»، كَمَا فِي قِصِيدَةِ «كَلِمَةٌ مِنْهَا»، حِينَ يَقُولُ عَنِ حَبَّيْمَا:

حُبُّنَا اسْتِنَاءٌ حُبٌّ فِي سَمَا رُوحِي حَلًّا

فَهُوَ لِي مَعْبُدٌ قُدْسٍ وَ لَهُ شِعْرِي يُصَلِّي³

(مجزوء الرَّمَل)

1 - م.ن. ص 13.

2 - م.ن. ص 15.

3 - جورج شكور. ذهب الغزل، ص 23.

إِنَّهُ حُبُّ أَسْتِنَائِي، حَلَّ فِي رُوحِ الشَّاعِرِ، وَقَدْ أَسْتَعَارَ لِهَذِهِ الرُّوحِ السَّمَاءَ زِيَادَةً فِي التَّقَشُّفِ، كَمَا تَحَوَّلَ شِعْرُهُ إِلَى صَلَاةٍ، وَالْحُبُّ إِلَى مَعْبَدٍ مُقَدَّسٍ، وَالشَّعْرُ الْغَزَلِيُّ لَمْ يَعْذُ لَهُ وُجُودٌ أَمَامَ شِعْرِ الصَّلَاةِ وَالتَّصَوُّفِ؛ وَهَذَا يَذَكِّرُنَا بِقَوْلِ الْحَلَّاجِ الشَّاعِرِ الصُّوفِيِّ:

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي النَّفْسِ جَارِحَةً إِلَّا وَذِكْرِكَ فِيهَا نَيْلٌ مَا فِيهَا
وَلَا تَنْفَسْتُ إِلَّا كُنْتُ لِي نَفْسِي تَجْرِي بِكَ الرُّوحُ مِنِّي فِي مَجَارِيهَا¹

(بحر البسيط)

وَبَعْدَ هَذِهِ الصَّلَاةِ، وَهَذَا التَّعَبُّدِ فِي الشَّعْرِ الْمَهْمُوسِ الْمُصَفَّى، نَطَّالِعُنَا قَصِيدَةٌ بِعَنْوَانِ: «وَلْيَكُنْ قَلْبِي قُرْبَانًا»، وَالْقُرْبَانُ يُقَدَّمُ عَلَى الْمَذْبَحِ أَثْنَاءَ الصَّلَاةِ عِنْدَ الْمَسِيحِيِّينَ، يَقُولُ شَكُّورٌ فِيهَا:

لِكَ يَا فَرِحَةَ عُمْرِي، وَهُنَيْهَاتِي الْفَرِيدَةَ
صَلَوَاتٌ مِنْ سَمَاءِ النَّفْسِ، مِنْ دُنْيَا بَعِيدَةَ
وَتَسَابِيحَ لِحُسْنٍ، وَلِأَعْيَادٍ سَعِيدَةَ
وَلْيَكُنْ قَلْبِي قُرْبَانًا لِأَمَالٍ جَدِيدَةَ²

(مجزوء الرَّمَل)

تَبَرَّزُ الْحَبِيبَةُ هُنَا فَرِحًا لِحَيَاةِ الشَّاعِرِ، كَأَنَّهَا لَقِيَتْهُ عُمُرٌ وَهَبَةٌ سَمَاوِيَّةٌ؛ لِذَلِكَ، تَحَلُّو هُنَيْهَاتُ عُمْرِهِ مَعَهَا، وَيُصَلِّي لَهَا صَلَاةً سَامِيَّةً، وَ يُسَبِّحُ دَوْمًا لِحُسْنِهَا الْبَهْجِ كَالْأَعْيَادِ، وَيَمْنَحُهَا قَلْبَهُ قُرْبَانًا مُقَدَّسًا عَلَى مَذْبَحِ الْحُبِّ؛ وَفِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى، يَتَمَاهَى الشَّاعِرُ وَالْحَبِيبَةُ شَأْنَ الشُّعْرَاءِ الصُّوفِيِّينَ: وَتُصْبِحُ هِيَ كُلَّ شَيْءٍ فِي عُمْرِهِ:

1 - طه عبد الباقي سرور. الحلاج شهيد التصوف الإسلامي. المكتبة العلمية، القاهرة، 1961، ط1، ص 82.

2 - م.س. ذهب الغزل، ص 27.

كلُّ شَيْءٍ هِيَ فِي عُمري الَّذي بهِواها طابَ عُمْرًا، وِغلا
 مِثْلَ رِفِّ الرُّوحِ كَمَ تَسْكُنُ بي فِتراني مالِكًا كُلَّ المَلا!
 وَهِيَ كالنُّورِ بِعَيْتِي هَمَي وَمَلاكٌ بِفُؤادي نَزَلًا
 إن تَمَاهيُنَا، فَقَدْ حُقَّ لَنَا وَبِها شِعْري سَمًا وَأَشْتَعَلَا
 هِيَ مِن دُنْيايَ أَبْهَى هِبَةٍ سَجَدَ الشَّعْرُ لَها، وَأَبْتَهَلَا!¹

(بحر الرَّمَل)

ومن أسباب هذا التَّمَاهي، أَنَّ عُمْرَهُ أَصْبَحَ أَجْمَلًا، وَأَعْلَى بِوُجودِها، والحبيبة شَفَّافَةٌ كالنُّورِ، وَهُوَ مِثْلُها شَفَّافٌ، فَتَخْتَرِقُ كالنُّورِ عَيْنَيْه، وَتَسْكُنُ مَلاكًا فِي فُؤادِها؛ وَبِسببِ هَذا التَّسامي، يَسْمُو شِعْرُ الشَّاعِرِ، وَيَتِمُّ التَّماهي بَيْنَ الحَبِيبِينِ بِحرارةٍ وَأَشْتعالِ، وَيَخْتِمُ قَصيدَتَهُ بِرَفْعِ الحَبِيبَةِ إِلى مَسْتوى العِبادَةِ، فَيَسْجُدُ الشَّعْرُ لَها وَيَفْرَحُ.

والشَّاعِرُ شَكورٌ يَخْشى مُرورَ الزَّمَنِ قَبْلَ أَن يُحَقِّقَ أَحلامَهُ، كَما باقِيَ الشُّعراءِ بِوَجْهِ عامٍّ، وَالقَوْلُ يَبقى مُقَصَّرًا عَمَّا يَجولُ فِي نَفسِهِ مِن حُبِّ لِالحَبِيبَةِ المُلهِمَةِ؛ فَذلِكَ، هُوَ فِي سِياقِ مَعَ الزَّمَنِ الَّذي يَجْري، وَلا يَتوقَّفُ؛ فيقول:

إِنِّي أُسابقُ فِي حُبِّي لَها الزَّمانَا ذاتٌ لِذاتِي، وَباتتْ بي كَأَنَّ أَنا...
 حُلْمٌ تَجَسَّدَ فِي عَيْنِي مَسْكِنُهُ وَفِي فُؤادي هَوَى يَحُلُو، وَطِيبَ هَنا²

(بحر البسيط)

هُوَ يَتَمَاهَى مَعَ الحَبِيبَةِ فِي ذاتِ واحِدَةٍ، فَلِلْحُبِّ هُنَا نَكةُ الألوهِيةِ والسُّمُوِّ، وَقَدْ زارَ الكَنيسةَ ذاتِ يَوْمٍ، عَلَّها تَشْفِيهِ مِن أَشْواقِهِ، وَمِن لَهْفَتِهِ لَها، وَأَعْتَرَفَ سِرًّا لِربِّه بِأَنَّ حُبَّها دِينُهُ، وَفِي هَذا تَخَطَّى شَكورُ الأعرافِ الدِّينِيَّةَ، حينَ جَعَلَ الحَبَّ دِينَهُ:

1 - جورج شكور. ذهب الغزل، ص 50.

2 - م.ن. ص 115.

رُزْتُ الكَنِيْسَةَ عَلَّهَا تَشْفِينِي مِنْ لَهْفَتِي الْحَرَى وَلَفْحِ حَيْنِي
وَهَمَسْتُ سِرًّا، وَأَعْتَرَفْتُ، مُنَاجِيًّا رَبَّ السَّمَاءِ، بِأَنَّ حُبَّكَ دِينِي¹

(بحر الكامل)

وكتب شكور إلى الخلوة التي قبلت خده قُبلة طاهرة، إثر عملية جراحية، أُجريت له في عينه، فأحس بطهرها وتبليها، واصفاً إياها بأسمى المعاني:

قُبلة رَقَّتْ على خَدِّي كَمَا قَبَلْتُ « مَرْيَمَ » فِي الْمَهْدِ « يَسُوعُ »
هِيَ مِنْ طَهْرٍ، وَمِنْ شَعْرِ، وَمِنْ رَقْرَقَاتِ الضَّوِّ فِي ذُوبِ الشُّمُوعِ²

(بحر الرَّمَل)

الشاعر المأخوذ بسحر الحبيبة يبتهل لها، ويصلي، كأنه رأى وجه مريم فيها، وقبلتها طاهرة كقُبلة مريم لأبنها يسوع، وقد شَبَّهَ نفسه، وهو ملقى في السرير بيسوع في المهد، وقد تلقى القُبلة على خده بطهر، وشبَّهها بالشعر، وبرققات الضوء حين تذوب الشموع. إذاً، ينتشر الحقل المعجمي الخاص بالصلاة: رُزْتُ الكنيسة، رب السماء، ديني، أَعْتَرَفْتُ، مُنَاجِيًّا، مَرْيَمَ، يَسُوعَ، ذُوبِ الشُّمُوعِ... وهذا خير دليل على سمو شكور في هذا الحب، ورفعِهِ إلى مستوى سماوي.

خُلاصة

في غزل شكور قصه الحب الكبري؛ فشعرُ الحب لديه تُرْجَمَانُ القلوب، وقصائده الغزلية مسيرة حياة، وشعره عامرٌ بالإلهام و كثافة الصور، وهو دائم السعي والتطلع صوبَ الجمال؛ فهو يعلن، تارةً أنه يُحب المرأة ويسمو في حبها، ويترفع عن الرغبات الجسدية، كما عند الصوفيين، ثم يعلن عن لذة شبقية وشهوة جسدية ورغبة جانحة، تارةً أخرى.

يقدس شكور الحب، ويحشد مفردات تدل على إيمانه المسيحي وتأثره به، ويرغب في اللذة الجسدية، فيذكر مفردات ورموزاً تدل عليها؛ أمّا حبه لزوجته دوللي، فكان الأسمى

1 - م.ن. ص 78.

2 - م.ن. ص 58.

والأثقي، إذ كانت تلميذته قبل أن تكون زوجته وأُم أبنائه، وهي ملاكُة الحارس؛ لذا، كَتَبَ لها القصائد، وزرَعها باقاتِ عطرٍ في دواوينه الغزليَّة، في كُلِّ مرحلة من حياتِه.

في مُعظَمِ قصائده نُزوعٌ إلى عالم الطَّبيعة، مصدر الوحي والحسن الدَّافئ للاختلاء بالحبَّية في أجواء رومنسيَّة، حيثُ يصنَعُ لها أرجوحةً من الزَّهر، ويسهَرُ معها تحت ضوء القمر، إضافةً إلى الرُّومنتيقيَّة، يَظْهَرُ تأثُرُ الشَّاعر بالواقعيَّة التي يُوَطِّرها في زمانٍ ومكانٍ؛ لتتبلَّورَ فيهما؛ فقَصائدهُ مبنيةٌ على واقعٍ مُعاش، يرسمُها على أجنحةٍ من خياله الدَّفاق، فترتسمُ لوحاتٍ مُعبَّرة، ويسافرُ تارةً في بحرٍ من الأحلام، بعيدًا من العالم الأَرْضِي حوله، ويُوغِلُ في السَّفَر، من غيرِ رغبةٍ في الرُّجوعِ إلى الواقع، فيحشدُ الصُّورَ في كُثافةٍ جماليَّة، تُعبِّرُ عن سَكَرته الشَّعريَّة الحالمة، فيها من الفنون الجميلة (الرَّسم والنَّحت والرَّقص والموسيقى...) ما يجعلنا نتبيَّن مظاهر الرِّمزيَّة والبرناسيَّة في شعرِه.

المصادر والمراجع

1. ابن منظور. لسان العرب. دار صادر. بيروت، لا ت، لا ط.
2. الصَّيرفي، حسن كامل. تحق طوق الحمامة. القاهرة، المكتبة النَّجاريَّة الكُبرى، 1384/1964، لا ط.
3. المنجد في اللُّغة والأعلام. دار المشرق، بيروت، 1986. ط 38.
4. عبد الكريم، حسن. المنهج الموضوعاتي، نظريَّة وتطبيق. مجد، المؤسسة الجامعيَّة للدراسات والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 2006، ط 3.
5. خوري، أنطوان. الموسوعة الفلسفيَّة العربيَّة. معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، 1988، ط 1.
6. سرور، طه عبد الباقي. الحلاج شهيد التصوُّف الاسلامي. المكتبة العلميَّة القاهرة، 1961، ط 1.
7. شكَّور، جورج. وحدها القمر. دار الأخطل الصَّغير، بيروت 2004، ط 4.
8. شكَّور، جورج. زهرة الجمال. دار الأخطل الصَّغير، بيروت 2004، ط 3.
9. شكَّور، جورج. مرآة ميرا. دار الأخطل الصَّغير، بيروت، 2004، ط 1.
10. شكَّور، جورج. ذهب الغزل. دار الأخطل الصَّغير، بيروت، 2012، ط 1.

مفاهيم الأدب ونظرياته في شعرية النص عند العرب

Literary concepts and theories in the poetics of the text among Arabs

عامر علي خريوش¹

Amer Ali khreiwich

تاريخ القبول 2024 /12/19

تاريخ الاستلام 2024 /11/28

ملخص

لا شك أن لفظة «أدب» قد وردت في بعض كتب التراث العربي، والحديث الشريف، وكتاب نهج البلاغة، ومن ثم أخذ هذا المفهوم يتطور مع ظهور الإسلام، وشمل المحامد، والمسلك الحسن، والثقافة والتعليم. لكنّه، وبشكل عام، فإنّ مفهوم «الأدب» لا يزال في أذهان الناس غامضاً ملتوياً، لم تبرز حدوده الواضحة التي تميّزه عن غيره من الفنون والعلوم.

وقد تبين من خلال هذا البحث، أنّ سبب ذلك يعود إلى احتمال وروده في ما ضاع من نصوص جاهلية، وهي كثيرة، والاختلاف حول مصدره اللغوي، وعلاقته بالموثّرات الفنية والنفسية من جهة، والموثرات الخارجية المحيطة به من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية العرب، المفاهيم والنظريات الأدبية

Abstract

There is no doubt that the term «Adab» has appeared in some Arabic heritage books, the Hadith, and the book Nahj al-Balagha. Subsequently, this concept began to evolve with the emergence of Islam, encompassing virtues, good conduct, culture, and education. However, in general, the concept of «Adab» remains ambiguous and convoluted in people's minds,

1 - طالب في المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم اللغة العربية وأدبها.

its clear boundaries distinguishing it from other arts and sciences have not yet emerged.

It has been found through this research that the reason for this ambiguity may be due to its occurrence in lost pre-Islamic texts, which are numerous, the disagreement over its linguistic source, and its relation to artistic and psychological influences on one hand, and the surrounding external influences on the other hand.

Keywords: Arabs, Literary Concepts and Theories.

المقدمة

يهدف البحث إلى استعراض بعض النظريات الأدبية التي راجت عند العرب، من خلال رصد الحركة التطورية لمفهوم الأدب لدى العرب، وإثبات أهمية تلك النظريات القديمة التي أسست للأدب، ووضعت له أصوله وقواعده، وكذلك النظريات الحديثة التي تحاول التأسيس لمفهوم أدبي جديد.

أما مادة البحث، فقد شملت دراسة مفهوم الأدب عند العرب، تاريخاً واصطلاحاً وتطوراً، ونظرية الأدب في التراث العربي من حيث تعريف الشعر، ومصدره، وعلاقته بالفلسفة، والمنظوم والمنثور، ووظيفة الشعر، وتناولنا مفاهيم حديثة، وأخيراً علاقة الشعر بالنثر إن من حيث الشعر وأهميته، وإن من حيث الإيقاع، والنثر قسيم الشعر.

أولاً: مفهوم الأدب عند العرب

كثيرون هم الذين أدلوا بدلوهم في تحديد الأدب عند العرب، لكنهم اختلفوا في المفهوم والمنهج، وعنهم قال طه حسين: «فلا تكاد ترى باحثاً محدثاً عن الأدب العربي إلا عني بكلمة «الأدب» ومعانيها المختلفة... حتى إذا فرغ من هذا عني بتحديد المعنى الذي ينبغي أن نفهمه الآن من هذا اللفظ، وهو في هذا التحديد يتكلف؛ فإن كان من أنصار القديم سجع وزاوج، وأسرف في السجع والزواج، وإن كان من أنصار الجديد تحذق وتكلف، ووضع لك جملاً غريبة كأنه يحدّد أصلاً من أصول الفلسفة العليا، أو

كأنه يستنزل وحياً من السماء»¹.

فما هو الأدب عند العرب «مفهوماً» و«مصطلحاً»؟ «تاريخاً» و«دلالة»؟

أ. المصطلح تاريخياً

يعتقد طه حسين أن مصطلح «أدب» لم يكن معروفاً في العصر الجاهلي، أو عصر صدر الإسلام، ويرى أن الروايات والأحاديث التي وردت في هذا المجال ضعيفة وغير مؤكدة². وأن هذا المصطلح لم يُعرف إلا في العصر الأموي حيث كانت كلمة «أدب» شائعة مستفيضة³. «ولعلَّ معظم النقاد والدارسين العرب، بعد طه حسين، قد تأثروا به، فزعموا الزعم نفسه، وعمّموا تلك المقولة دون أن يُصدروا على ما يبدو، في آرائهم عن بحث وتنقيب في كلِّ ما وصل إلينا من نصوص»⁴.

وإذا عُدنا إلى آراء طه حسين، فإننا نرى أن عدم معرفته نصوصاً جاهلية وردت فيها لفظة «أدب»، لا يعني بالضرورة عدم اشتغالها على هذه اللفظة، خصوصاً وأن هذه اللفظة «أدب» وردت في بعض كتب التراث العربي⁵ والحديث الشريف، وكتاب نهج البلاغة الذي نُسب إلى الإمام عليّ بن أبي طالب، كقوله: «لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب».

«ولعلنا من باب توحيّ الدقة والحذر، نقول بأنه لا يمكن لهذه اللفظة أن تأتي من فراغ، لذا نترك الباب مفتوحاً أمام احتمال ورودها في ما ضاع من نصوص جاهلية، وهي كثيرة»⁶.

ب. المصطلح: لغة ودلالة

أما المصدر اللغوي لهذا المصطلح، فهو أمرٌ متنازعٌ عليه هو الآخر، ففي حين يرى البعض أن كلمة «أدب» كانت تعني «الدعوة إلى اللواتم، يرى آخرون، وعلى رأسهم

1 - حسين، طه، في الأدب الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط12، لات، ص 22.

2 - م.ن، ص 23.

3 - م.ن، ص 24.

4 - حمزة، مريم، الأدب بين الشرق والغرب مفاهيم وأنواع، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان، ط 1، 1424 هـ 2004، ص 57.

5 - القالي، أبو علي، كتاب الأمالي، تقديم محمّد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، مصر، ج 2، لاط، لات، ص 104.

6 - حمزة، مريم، الأدب بين الشرق والغرب، م.س، ص 58.

«تألفوا» أن أصلها «دأب» وجمعت على أداب ومع الزمن أصبحت «الأداب»¹.

وبالعودة إلى لسان العرب، نجد أن من معاني الأدب ليس فقط الدعوة إلى الطعام وإنما الدعوة إلى المحامد والفضائل. وأما بالنسبة إلى الرأي الثاني، فهو احتمال واجتهاد شخصي، لا يمكن قبوله أو رده. مرجحين «الدأب» هنا بمعنى الكد والتعب أو بمعنى «الاجتهاد»، كما ورد في لسان العرب².

ج. تطوّر مفهوم الأدب

تطوّر المفهوم مع ظهور الإسلام، وشمل المحامد والمسلك الحسن، والثقافة والتعليم وهذا ما تشير إليه الكثير من الروايات والأحاديث، كالحديث النبوي: أدبني ربي فأحسن تأديبي³. ويعمّم البعض معنى التثقيف والتعليم على كلمة أدب خلال عصر صدر الإسلام، مستنداً إلى جملة من أقوال الصحابة والخلفاء، منها قول ابن مسعود: «إنّ هذا القرآن مأدبة الله في الأرض، فتعلّموا من مأدبته، وإن كان هذا القول لا يؤدّي تماماً معنى التثقيف والتعليم⁴ الذي رمى إليه».

وإذا كان هناك إجماع على شيوع كلمة «أدب» في العصر الأموي، فإن ذلك يعني أنّ هذا المصطلح كان معروفاً من قبل وإن كُنّا لا نستطيع تحديد زمن ظهوره، ولا الجزم بدلالاته الأولى.

وقد استعمل المصطلح أيام بني أمية «اسماً» «أدب»، و«فعلًا» «أدب»، وغلب على استعماله «اسم الفاعل» «مؤدّب» وذلك لوجود مؤدّبين، كان الخلفاء وبعض الخاصة يولكون إليهم تأديب أبنائهم.

وهؤلاء المؤدّبون تفتّنوا في أساليب البيان والمعاني، وعُرفوا «بأصحاب البيان»، فيما أُطلق على أولئك الذين عنوا بتعليم اللغة وقواعد الصّرف والنحو «أصحاب العلوم».

ويبدو أن مصطلح «الأدب» راح بعد ذلك يتخذ منحى تكسبياً يُعناش منه. ويُقال إنّ أول من أطلق عليه تسمية حرفة كان الخليل بن أحمد (ت 175 هـ) حين قال: «حرفة

1 - حسين، طه، في الأدب الجاهلي، م.س، ص 23.

2 - حمزة، مريم، م.س، ص 59.

3 - م.ن، ص 60.

4 - ابن منظور، جمال الدين محمد، لسان العرب، م1، دار صادر، بيروت، لاط، لات، ص 206-207.

الأدب آفة الأدباء».

وهكذا تطوّرت دلالة مصطلح «الأدب» حتى شملت علوم اللّغة والبيان وكلّ أسلوب مُستحسن، فعُرف أدب الإسلام، وأدب الملوك، وأدب المجالسة وغيرها.

وفي العصر العباسيّ أُلحقت علوم اللّغة بالأدب، واتّسع مفهومه ليشمل المعنى التّعليمي التّثقيفي، إضافة إلى المعنى الخُلقي التّهذيبي.

وفي القرن الثالث الهجريّ استقلّت علوم اللّغة عن الأدب، واقتصر مصطلح «الأدب» على المأثور من الكلام شعراً ونثراً.

وقد استمرّ هذا المصطلح في التّنامي عندما برزت الكتابات النّقدية «كالبيان والتّبيين» للجاحظ، و«طبقات الشعراء» لابن سلام، و«الشعر والشّعراء» لابن قتيبة، و«الكامل للمبرّد»، و«أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجاني، وسوى ذلك من كتابات.

ولكنّ علوم النّقد والبلاغة خرجت هي الأخرى من دائرة الأدب ليعود إلى الضيق بعد السّعة، مُقتصرًا على مأثور الكلام الفنّي شعراً ونثراً¹.

ثانياً: نظرية الأدب في التّراث العربيّ

بالعودة إلى الكتب التراثيّة يتبيّن لنا أنّ جهوداً قد بُذلت بهدف تأصيل الكثير من المفاهيم النظريّة في الأدب، وإنّ لم تستطع هذه الجهود أن تُنتج نظريّات متكاملة، وجلّ ما نجده هو ملاحظات وأقوال وآراء نظريّة هنا وهناك، وغالبيّتها يتمحور حول أنواع الأدب وأشكاله، أو حول علاقة الأدب بالمؤثّرات الخارجيّة المحيطة به².

ولعلّ الجاحظ كان أوّل من وضع البنية الأساسيّة في مدمك النّقد الأدبيّ، كأرائه المتعلّقة بالعوامل المؤثّرة في الشعر، وفي اللفظ والمعنى والتي قاربت مستوى النظريّة المستقلّة.

وفي القرن الرّابع الهجريّ، حاول العرب تأصيل المفاهيم العامّة للشعر، مُستخدمين في

1 - حمزة، مريم، الأدب بين الشرق والغرب، م.س، ص 63-59.

2 - م.ن، ص 63.

هذا السبيل منهجاً نقدياً واضحاً. من هذه المفاهيم¹:

أ. تعريف الشعر

يبدو أن تعريف الشعر قد تباين بين النقاد الذين كانت ثقافتهم عربية خالصة، وبين أولئك الذين تأثروا بالثقافة اليونانية، ويكتاب «الشعر» لأرسطو. بحيث أنه لو طلبنا تعريفاً للشعر، قبل أن يكون قولاً مؤلفاً مما يحاكي الأمر².

وقد ذهب الفارابي أبعد من ذلك عندما قال بمحاكاة المحاكاة»، متأثراً بأفلاطون، ثم إن الشعر لدى الفارابي صناعة تشبه الرسم. ويبدو أن الفارابي استوعب نظرية المحاكاة إلا أنه لم يستطع توظيفها كما يجب³.

أما قدامة بن جعفر (337هـ) فقد ألح في تعريفه للشعر على أمرين:

الأول يتعلّق بتوفّر العناصر اللازمة، وهي المعنى والوزن والقافية، وعرف الشعر بأنه: «قولٌ موزونٌ مقفًى يدلُّ على معنى»⁴.

أما الأمر الثاني فيقوم على الصناعة والذوق الذي يقدر على مدى جودة الشعر أو رداءته.

أما ابن سينا، فالشعر عنده «كلام مخيّل مؤلف من أقوال موزونة متساوية وعند العرب مقفاة»⁵.

وأبو العلاء المعري في مفهومه للشعر يعتمد الذوق حكماً ومقياساً لجودة الشعر أو لرداءته، مستعملاً مصطلح «الحس» تارة، ومصطلح «الغريزة» تارة أخرى، حيث يقول: «الشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص به الحس»⁶.

وابن طباطبا (322هـ) يعرف الشعر بقوله: «الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور

1 - م.ن، ص 65-63.

2 - عباس، إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، الأردن، 1993، ص 205-204.

3 - م.ن، ص 207.

4 - بن جعفر، قدامة، نقد الشعر، تحقيق محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ص 64.

5 - طاليس، أرسطو، فن الشعر، ترجمة وتحقيق عبد الرّحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ط 3، 1973، ص 161.

6 - المعري، أبو العلاء، رسالة الغفران، تحقيق وشرح عائشة عبد الرّحمن طه، دار المعارف بمصر، 1969، ص 251.

الذي يستعمله النَّاس في مخاطباتهم بما خصَّ به النَّظْم الذي إنَّ عدل عن جهته مجَّته الأسماع وفسد على الذَّوق، ونظَّمه معلوم محدود، ضمن صحَّ طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشَّعر بالعروض التي هي ميزانه، ومَن اضطرب عليه الذَّوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحدق به»¹.

أما حازم القرطاجني (684-608) قد أفاد من كلِّ السَّابقين له في هذا المضمار، وأعطى عدة تعريفات للشَّعر، ومن أهمها قوله: الشَّعر كلام موزون مقفَى، من شأنه أن يحبب إلى النَّفس ما قصد تحبيبه إليها ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك طلبه أو الهرب منه، بما يتضمَّن من حُسن تخييل له، ومحاكاة مستقلَّة بنفسها أو متصوِّرة بحسن هيئة تأليف الكلام وقوَّة صدقه»².

لابن رشيقي (440هـ) في الشَّعر تعريف طريف، حيث يشبَّه البيت الشَّعري بالبيت من الأبنية: «قراره الطَّبع، وسمكه الرِّواية، ودعائمه العلم، وبابه الدَّربة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيتٍ غير مسكون»³.

ولعلَّ ابن الأثير (637هـ) قد انفرد باعتماد «النَّاس» مقياساً لجودة الشَّعر أو رداءته، «فإذا شئت أن تعلم مكانة شاعر (أو كاتب) فانظر إلى رأي النَّاس فيه»⁴ وهذا ما اصطلح عليه حديثاً بـ«المتلقي».

ب. مصدر الشَّعر

اعتقد العرب كغيرهم من الأمم أنَّ الشَّعر وحي وإلهام، وأنَّ هناك قوَّة خارقة خفية تُلهم الشعراء.

ولقد اعتقد العرب في جاهليَّتهم أنَّ وراء كلِّ شاعر شيطاناً يُلهمه الشَّعر. ويبدو أن هذا المعتقد استمرَّ بعد ظهور الإسلام، كما جاء في «رسالة الغفران» للمعرِّي في القرن الخامس الهجري.

1 - ابن طباطبَاء، محمَّد بن أحمد العلوي، عيار الشَّعار، تحقيق الحاجري وسلام، القاهرة، لاط، 1956، ص 15.

2 - القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء، لام، لاط، لات، ص 71-62.

3 - العمدة، ابن رشيقي، في محاسن الشَّعر وآدابه ونقده، ج 1، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط 4، 1972، ص 78.

4 - عباس، إحسان، تاريخ النِّقد، م.س، ص 607.

إلا أنّ هذا المعتقد أخذ ينحسر شيئاً فشيئاً، حيث أصبح تعليل ظاهرة الشّعر يقوم على أسس علميّة منطقيّة، حيث تُردُّ إلى أسبابها الطبيعيّة. فمنهم من يعيدها إلى الفِطْرَة، كما أنّ العامل الوراثي لا تتكرّر أهميّته، فضلاً عن أنّ الشّعر صناعة يتدرّب عليها الشّاعر النَّاشئ.

وهكذا سنحت فكرة الوحي والإلهام، وساد الاقتناع بأنّ لغة العرب شاعريّة في أساسها، لما تتمتع به من أساليب الكناية، والاستعارة والغنى في المترادفات¹...

ج. الفلسفة والشّعر

عالج النّقاد العرب علاقة الشّعر بالفلسفة، وتداخل الشّعر معها، ولا سيما في القرن الرَّابِع الهجريّ وما تلاه، وتأثّر الشّعراء آنذاك بالفلسفة اليونانيّة، ما أدّى إلى غزو الأفكار الفلسفيّة ميدان الشّعر والأدب. وقد أثار ذلك حفيظة بعض النّقاد الذين حملوا بشدّة على هذا النهج الذي انتهجه بعض الشّعراء أمثال أبي تَمّام والمنتبّي وأبي العلاء المعرّي الذي عُرف «بفيلسوف الشّعراء»، ولقد كتب الكثير حول هذه المسألة، فوضعها البعض تحت باب السّرقات الشّعريّة، حين راحوا يقارنون بين ما جاء في بعض الشّعر العربيّ، وما جاء في فلسفة اليونان وخصوصاً فلسفة أفلاطون وأرسطو².

د. المنظوم والمنثور

اتّخذت هذه المسألة حيّزاً واسعاً في النّقْد الأدبيّ عند العرب، ولعلّ السبب في هذا يعود إلى شعور بالغبن أحسّ به أصحاب النثر، إزاء ما أصابه الشّعراء من شهرة وحظوة بين الشّعر والنثر. ومن النّقاد الذين قاموا بهذا، ابن طيغور وأبو حيّان التّوحّيدي (380هـ) الذي فاضل بين هذين الشّكلين الأدبيين، تبعاً لمدى تأثيرهما في النّفس ومدى ما يبعثانه من الطّرب³.

فأبو إسحاق الصّابّي (384 هـ) يقول: فأفخر الترسُّل ما وضح معناه.. وأفخر الشّعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه لك⁴...

1 - حمزة، مريم، الأدب بين الشّرق والغرب، م.س، ص 70 - 71 - 72.

2 - م.ن، ص 72-73.

3 - م.ن، ص 73.

4 - ابن الأثير، المثل السّائرة، ج4، لات، ص7.

أما أبو فاضل الحاتمي فقد رفع «المنظوم» عن منزلة «المنثور» لمزاياه المتأتية من التزام الوزن والقافية¹. والمرزوقي (421 هـ) فضّل النثر على الشعر، لجملة من الأسباب، لعل أهمها أن القرآن المعجز جاء نثرًا وليس شعرًا. وأن العرب في جاهليتهم فضّلوا الخطابة وهي النثر.

أما ابن رشيقي (440 هـ)، آثر الشعر على النثر، معللاً نزول القرآن نثرًا، وهو ليس بشعر، ولا خطبة ولا ترسل².

أما بالنسبة إلى مسألة الخطابة، فقد وازن النقاد العرب في نظريتهم الأدبية بينها وبين الشعر، وكأنها الوجه الآخر للأدب، دونما اعتبار إلى كونها لونها من ألوان النثر³.

فالمبرد (286 هـ) خلط بل ساوى بين الخطابة والترسل والشعر. أما الفارابي (339 هـ) فقد فرّق بين الشعر والخطابة من حيث المحاكاة التي يقوم عليها الشعر دون الخطابة، ويرى أن الخطبة صادقة والقول الشعري تخييل وكذب⁴.

أما حازم القرطاجني (608-684 هـ) فقد استخدم المصطلحات «الأقويل الإقناعية» و«الأقويل التخيلية»، ورأى أن الأقويل الصادقة تقع في الشعر لكنها لا يصح أن تقع في الخطابة لأن الإقناع بعيد عن التصديق، فهو مبني على الظن الغالب، والظن منافٍ لليقين⁵.

هـ. وظيفة الشعر

هذه المسألة شغلت حيّرًا مهمًا لدى أفلاطون، الذي رأى في الشعر سحرًا وإمتاعًا من جهة، وإفسادًا للأخلاق وإضعافًا للنفس من جهة أخرى. فيما رأى فيه أرسطو مطهرًا للعواطف والأحاسيس والانفعالات المكبوتة الزائدة في دواخلنا⁶.

أما النقاد العرب فقد كانت لهم مواقف متباينة من هذا الأمر، فإبن وكيع مثلاً، في معرض تعليقه على الشعر، المحدث خصوصًا، يرى أن الشعر لا ينهض بوظيفة ثقافية،

1 - عباس، إحسان، تاريخ النقد، م.س، ص 321.

2 - العمدة، ابن رشيقي، ج 1، م.س، ص 5.

3 - المبرد، الكامل في الأدب، ج 1، لاط، لات، ص 17.

4 - عباس، إحسان، تاريخ النقد، م.س، ص 210.

5 - القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء، م.س، ص 62-71.

6 - حمزة، مريم، الأدب بين الشرق والغرب، م.س، ص 76.

ولا يقدّم فائدة علميّة، وإنّما وظيفته تقتصر على العذوبة الفنّية الأسلوبية وعلى المتعة الطربية النفسية. وقد عني بعض النقاد العرب بالجانب الطربي من الشعر كابن دحية الكلبي (633هـ)، وابن سعيد (685هـ) الذي ذهب أبعد من الطرب لدرجة أنّ المتنوّق قد يصل لحدّ الرقص. وهذا ما فعله شعراء الأندلس، بدايةً بابن حزم وانتهاءً بابن بسّام، وكذلك فعل قدامة بن جعفر (337هـ) من قبل حين دافع عن هذا التوجّه في إطار تبنيّه لمبدأ «الغلو» في الشعر¹، هذا وقد أخذت مسألة الصدق والكذب في الشعر حيّزاً مهمّاً من جهود العرب النقديّة، لكنّ ابن طباطبا تمسّك بمبدأ الصدق بمعناه الحقيقيّ الماديّ، وكأنّه لم يعايش عصر الشعراء المحدثين الذين انفتحوا على كلّ حضارة وعلى كلّ جديد.

مفهوم الصدق لدى ابن طباطبا هو صدق الذات، وصدق المعاني، وصدق التجربة والمعاناة، وصدق التجربة الإنسانية عامّة، وهو صدق أخلاقيّ يتمثّل في المديح والهجاء، وصدق تاريخيّ يتمثّل في نقل خبر أو حكاية، وصدق تصويريّ يتمثّل في صدق الصورة والتشبيه. وهذا يعطي شعراً جميلاً معتدلاً مؤثراً، ترتاح إليه النفس ويقبله الفهم.

أمّا عبد القاهر الجرجاني، فيعالج هذه المسألة معالجة مختلفة ويعطيها مفهوماً متطوراً ينمّ عن فهم وعمق ونضج. ذلك أنّ الصدق والكذب في الشعر ليسا برأيه، صدقاً وكذباً حسب المفهوم الأخلاقيّ عند النّاس العاديين. أمّا ابن خلدون فإنّه يعيد هذا المفهوم إلى التعميم بعد التخصيص، بل يتجاوزها إلى ما يتّصل بهما من لغةٍ ونحوٍ وأخبارٍ وأيامٍ وأنسابٍ وما شاكلها. وأخذ عليه خلطه بين «الأدب» و«التأدّب» و«العلم» و«الفن» وغير ذلك. ويقوم معيار الأدب عند ابن خلدون على معايير معيّنة، كالبينة والظروف المحيطة، والصدق والبعد عن التكلّف، متأثراً بالجاحظ الذي اعتبر اللفظ هو الأصل في النّظم والنثر².

1 - م.ن، ص 76 - 77.

2 - م.ن، ص 78 - 81.

ثالثاً: مفاهيم حديثة

ظلّ مفهوم الأدب يدور في فلك ابن خلدون حتّى بدايات التّهضة، حيث نجد آراء غالبية النقاد لا تخرج عن هذا المجال، وهو ما نلاحظه مثلاً في كتاب روجي الخالديّ تاريخ علم الأدب، حيث يكرّر تقريباً آراء ابن خلدون ومصطلحاته، بل وطريقة التعبير أيضاً¹.

ويرى محمّد مندور أنّ المفهوم التقليديّ للأدب عند العرب لم يتبلور قطّ في تجديد فلسفيّ لهذا اللفظ، حتّى إذا ابتدأت نهضتنا المعاصرة... استقرّ الرأى على تعريفٍ سطحيّ ضيق يقول: إنّ الأدب هو الشّعْر والنثر الفنيّ أي نثر الخطب والرسائل والمقامات والأمثال السائرة، ثم الأخذ من كلّ شيء بطرف... وهذا تعريف لا يحدّد للأدب أصولاً ولا أهدافاً. ولذا تتالت على الأدب تعريفات متنوّعة، تحدّد مصادره وأصوله وأهدافه ووظائفه، منها ما يرى أنّ الأدب «صياغة فنيّة لتجربة بشريّة» أو «لتجربة شعوريّة»، وقد شاع هذا التعريف لفظاً ومدلولاً عند دعاة التّجديد من أدباء التّهضة، فعنه يصدر المازني والعقاد عند نقدهما لشوقي وحافظ... كما نجد مدلوله الواضح في كتاب «الغربال» لميخائيل نعيمة.

بيد أنّ تلك التّجربة اتّخذت مفاهيم متفاوتة لدى أدبائنا تتراوح بين الذاتية والموضوعيّة، حتى رأينا «شاعراً كبيراً كخليل مطران لا يمنعه هذا الفهم الجديد لمعنى الأدب من أن ينحو في شعره منحى موضوعياً، منكرًا تجاربه الشخصيّة أو يسوقها في تضاعيف تجارب الغير من القدماء أو المعاصرين». ومن الأدباء من يوسّع إطار تجربته لتشمل تجارب تاريخيّة وأسطوريّة وفلسفيّة، وهذا ما راح الكتاب يسعون إليه تشبّهًا منهم بالآداب الغربيّة الرّاقية.

بيد أنّ هذه التّجربة اتّخذت لدى بعض الأدباء والشّعراء مدلولاً ضيقاً، حين اعتبروا أنّه ينبغي للشاعر أن يصدر عن تجربة شخصيّة، وإلا كان شعره كاذباً. وبذلك حدّدوا مقولة الصدق والكذب في الأدب، مفسّرين الصدق بأنّه «ما كان صادراً عن تجربة شخصيّة ومعاناة حقيقيّة وفسّروا الكذب بالتصنّع المفتعل». حتّى أصبحت صفة الصدق والكذب لدى البعض، شرطاً من شروط الأدب العالميّ الذي قوامه «معنى صادق في لفظ

1- م.ن، ص 82.

جميل، وعاطفة مشبوبة في بيان بليغ، ورأي صحيح يزيّنه الخيال الرفيع»¹.

وقد شاع مفهوم جديد للأدب في العالم العربيّ، بل هو قديم متجدّد، عبّر عنه بمصطلح «المرأة»، حيث يشبّه الأدب بالمرأة. ويُعتبر أفلاطون أوّل من استخدم هذا المصطلح. ويبدو أنّ مجموعة من الأدباء قالوا بهذا المفهوم في العالم العربيّ إبان عصر النهضة، لعلّ أوّلهم عائشة التيموريّة في كتابها «مرآة التأمل في الأمور»، والمويحلي في قصّته «مرآة العالم» وفي «المرأة»، ومحمّد روجي الخالديّ في كتابه «مرآة النفوس» وطه حسين في «مرآة الإسلام»².

إضافة إلى البُعد الطّبيعي والاجتماعي لمرآة الأدب، تحدّث البعض عن البُعد الأخلاقيّ حين فهموا الأدب على أنّه انعكاس للأخلاق، فنَجيب حدّاد يقول: «الشّعْر مرآة الأخلاق وتاريخ ما كانت عليه الأمم»³.

إنّ العمل الأدبيّ كما يراه طه حسين هو تصوير وتمثيل وانعكاسُ الأصل ثابت، قد يكون فرداً أو مجتمعاً، وقد يكون داخلياً أو خارجياً، وهذا العمل هو كالمرأة، لكنها مرآة تختلف عن مرايا الآخرين، لأنّها تقوم على الاتّصال تارة، وعلى الانفصال تارة أخرى، ففي الأولى تعكس لنا صلة ذلك الأدب بالخارج وبالمجتمع والآخر؛ وفي الثانية تنفصل عن الجماعة وعن الخارج لتعكس لنا ذات الأديب الفرديّة فقط⁴.

وهكذا فإذا كان الأدباء الكلاسيكيّون العرب قد فهموا الأدب على أنّه مرآة تعكس الخارج، بما في ذلك المجتمع والعادات والتقاليد والأخلاق، فإنّ أدباء الاتّجاه التعبيريّ الرومانسيّ، فهموا هذا الأدب على أنّه انعكاس العالم الدّاخِل، وما ينطوي عليه من أحاسيس ومشاعر وانفعالات، من فرح وحزن⁵.

إلا أنّ مفهومهم للأدب الذي بقي محصوراً ضمن دائرة «المنظوم والمنثور»، فرّق في هذا بين الأدب الإبداعيّ والدراسة الأدبيّة فقالوا بوجود أدبين: الأدب الإنشائيّ وهو

1 - مندور، محمد، الأدب ومذاهبه، دار النهضة، القاهرة، مصر، لاط، لات، ص 7-18.

2 - حمزة، مريم، الأدب بين الشرق والغرب، م.س، ص 84.

3 - عصفور، جابر، مقال بعنوان الأدب، مجلة الفكر العربيّ، عدد 26، بيروت - لبنان، آذار 1982، ص 146-155.

4 - م.ن، ص 146-155.

5 - م.ن، ص 157.

«الأدب حقاً» لأنّه مرآة لنفس صاحبه ولعصره وبيئته؛ وهناك تاريخ الأدب الذي هو أدب وصفيّ يتناول الأدب الإنشائيّ بالتحليل والتفسير والتاريخ بطريقة تجمع بين العلم والدّوق¹. كما أنهم نظروا إلى الأدب من زاوية مختلفة وعلى ضوء مناهج متعدّدة، كالمناهج السياسيّة الذي يدرس الأدب على أساس التقلّبات السياسيّة التي طرأت عليه وتركت أثرها فيه، والوقائع تشهد بعدم صحّة ربط الأدب دائماً بعجلة السياسة. كالمناهج العلميّة الذي شاع في فرنسا إبّان القرن التّاسع عشر على مجموعة من النقاد ومؤرّخي الآداب، وفي مقدّمهم «هيبوليت تين» و«سانت بوف» و«برونتيير» وغيرهم. لكنهم «لم يوقفوا دائماً لأنّ تاريخ الأدب لا يستطيع.. أن يكون موضوعياً» صرفاً... ولأنّ العلم شيء والأدب شيء آخر، ولأنّ العلم يجرمه الدّوق ويضطرّه إلى أن يكون عقيماً². وهناك من دعا إلى الوصل بين الأدب الخاصّ وبين الأدب بمعناه العام. إنّ هذه التعريفات المتعدّدة المختلفة، تُظهر صعوبة الاتّفاق على مفهوم موحدّ واضح للأدب عند العرب، وهذا أمر طبيعيّ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الأمم.

وهكذا فإنّ مفهوم الأدب لا يزال في أذهان النّاس غامضاً ملتويّاً، لم تبرز حدوده الواضحة التي تميّزه عن غيره من الفنون والعلوم. لذا يرى البعض ضرورة الاتّفاق على معنى الأدب وأصول الشّعْر قبل أن نمضي في الإنتاج الفنيّ، ونُمنع في النهضة الأدبيّة³.

واليوم عدنا مرّة أخرى إلى تعريف قديم متجدّد، حيث لا نعني بالأدب سوى المأثور من الكلام شعراً ونثراً، دون أن نقطع الصّلة بينه وبين العلوم الإنسانيّة الأخرى، كعلوم اللّغة والتّاريخ والفلسفة وعلم النّفس وسواها⁴.

رابعاً: بين الشّعْر والنثر

درج النقاد والدارسون القدماء والمعاصرون على النّظر إلى النثر على أنّه «اللاشعر» أو على أنّه «قسيم الشّعْر».

1 - حمزة، مريم، الأدب بين الشّرق والغرب، م س، ص 86.

2 - حسين، طه، في الأدب الجاهلي، م.س، ص 51-43.

3 - الفيصل، محمد روجي، في النّقد والأدب: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1984، ص 89.

4 - حمزة، مريم، الأدب بين الشّرق والغرب، م.س، ص 89.

أ. الشَّعر وأهميته

ومع ذلك فإنَّ اهتمام النقاد بالشَّعر يفوق بكثير اهتمامهم بالنثر، لما له من هالة عظيمة لدى الشُّعوب، فالنثراتيل القديمة وكل ما كان يلقي في المحافل إنّما كان في غالبية شِعراً. أمّا القليل الذي كان سجعا فلم يكن من نفحه الشَّعر.

أما المنظرون والنقاد العرب، فقد تمحور تنظيرهم الأدبيّ حول الشَّعر بشكل خاص. وما قالوه في النثر، كان جدّ يسير. فلم هذه الهالة تعطى للشَّعر؟ إذا كان الشَّعر فناً، فهو إذن، واحد من الفنون التي تتميز عن سائر النشّاطات الإنسانيّة، باعتبارها أرقى أنواع العلاقات الجماليّة والإبداعية في واقعنا. كما أنه يتميّز عن سائر الفنون بتميّز أداته التي هي اللّغة، ولأنها أداة العلاقات الإنسانيّة برمّتها، وعلة قيام المجتمعات وتفاهم الأقبام، لأنّها تختزن سياقاً تاريخياً اجتماعياً يرقى إلى بداية التكوين الإنسانيّ.

وأهم ما في القصيدة فنيتها أو ما بات يطلق عليه النقاد «شعريّته» و«شعريّة القصيدة أو فنيتها في بُنيته لا وظيفتها» كما يقول أدونيس الذي حدّد شروطاً لهذه الشعريّة، منها الجودة وترتيب معاني الكلم كما تحدّدها «نظريّة النظم» للجرجاني، ومنها الغموض بدل الوضوح، والإبداع المتجاوز للعادي والمشارك الموروث¹.

ولهذه الشعريّة الآن تعريفات كثيرة، منها ما يراه جان كوهين، من أنّ «الشعريّة علم موضوعه الشَّعر»، ومنها ما يراه تودوروف، الذي يجعل من الشعريّة «بحثاً مستمراً عن كيفية تشكّل المعنى في الظواهر الأدبيّة» وهدفها «دراسة الأدبيّة» واكتشاف الأنساق الكامنة التي توجه القارئ في العمليّة التي يتفهّم أدبيّة هذه النصوص». أمّا «جنيت» فإنّه يدخل في نطاق الشعريّة: مجموع الخصائص العامّة، من بينها أصناف الخطابات وصيغ التعبير والأجناس الأدبيّة» و«الشعريّة» لدى كمال أبو ذيب هي «اكتناه العلاقات التي تتنامى بين مكونات النصّ على الأصعدة الدلاليّة والتركيبيّة والصوتيّة والإيقاعيّة». وهو يرى أنّه «لا يكون ثمة كبير جدوى في تحديد الشعريّة على أساس الظاهرة المفردة كالوزن أو القافية أو الإيقاع الداخليّ أو الصوورة أو الرؤيا أو الانفعال أو الموقف الفكريّ أو العقائديّ»².

1 - أدونيس، علي أحمد سعيد، زمن الشَّعر، دار العودة، بيروت، ط 2، 1978، ص 276-284.
2 - مجاهد، عبد الكريم، شعريّة الغموض، بيروت، لاط، لات، ص 23-34.

وهكذا يتّضح أنّ وضع تعريف جامع مانع للشّعر، ليس بالأمر اليسير، وربما أولى العرب أكثر من غيرهم، اهتمامًا بالشّعر، فحظي عندهم بمنزلة عظيمة.. ولما كانت للشّعر كلّ تلك الهالة أقبل النّقاد: أدباء وفلاسفة وعلماء، على دراسته وتحديد ماهيّته، فإذا هو موهبة وخطرة، واكتساب وصنعة، ووزن وإيقاع وتقنية¹.

ب. الإيقاع

لقد استأثرت مسألة الإيقاع في الشّعر باهتمام النّقاد والدّارسين لدى جميع الأمم، وعلى مدى العصور، حيث عدّوا ذلك من العوامل المميّزة للشّعر عن النثر.

وقد أجمع النّقاد على أنّ الإيقاع عنصر أساسي في الشّعر، فلا يعدّ شعراً ما ليس موزوناً أو مقفّى، حتى ولو تشابهت الأساليب بين الكلام المنثور والكلام المنظوم.

وقد رأى النّقاد العرب أنّ الوزن يساعد على تأكيد وحدة البيت الشعري واستقلاليتّه، ممّا يؤدّي إلى استقلاليّة دلاليّة، وخصوصاً في الأبيات الحكميّة وما شابهها.

كما أنّ لهذا الوزن الإيقاعي وظائف أخرى، عدا عن كونه يسهّل حفظ الشّعر ويحقّق ديمومته، ويتمثّل ذلك في التنغيم الغنائي الذي يبعثه الشّعر، وربما كان هذا هو السّبب في ميل الجمهور إلى تلقّي الشّعر عن طريق الإلقاء والإنشاد، ولهذا كان القدماء يعلّقون أهميّة على حُسن الإنشاد، فيميّزون بين الجيد والرّديء منه.

ويغالي البعض في إبراز أهميّة الإيقاع الصّوتي في الشّعر، بحيث يعيد إليه وحده، دون المعنى، كلّ ما يحدث للنّفس. وهذا هو رأي بعض الفلاسفة النّقاد أمثال ابن رشد وابن سينا. ولهذا، ربّما، تقتضي بعض الأشعار لين الصّوت أو شدّته، خفضه أو رفعه تفخيمه أو تنغيمه بما يلائم المعنى، ومن هنا كانت قصائد تصلح للغناء دون غيرها من الشّعر².

ويرى النّقاد العرب أنّ الإيقاع هو إحدى الخصائص العامّة التي يتميّز بها الأدب، شعره ونثره، وكذلك سجعه الذي يرى فيه هؤلاء «نظماً للكلام» وأساساً لتشكّل اللّغة الأدبيّة نفسها.

1 - حمزة، مريم، الأدب بين الشّرق والغرب، م.س، ص 94-93.
2 - يحيوي، رشيد، شعريّة النّوع الأدبي، القاهرة، 1984، ص 134-136.

ويرى البعض بأن الأنواع النثرية أيضاً، تتميز بالإيقاع، بحيث «يعوّض إيقاع الوزن والقافية ... بمكونات إيقاعية أخرى كالسجع والازدواج والتكرار» لأنّ افتقار النثر إلى مثل هذه الإيقاعات يقربه من الكلام العادي غير الأدبي.

وذهب آخرون أبعد من ذلك ونفوا عن النثر أية فضيلة من الفضائل التي تتأثى للشعر بفضل الإيقاع¹.

وقد بقي هذا المفهوم سائداً حتى القرن الثامن الهجري، حيث نرى ابن خلدون لا يحدد كثيراً عنه². ثم استمرّ العنصر الإيقاعيّ هذا يقف حدّاً فاصلاً بين ما هو شعر وما هو نثر، بل حكماً يحدّد شعريّة نص، ونثريّة آخر حتى بدايات القرن العشرين. حيث نجد أنّ العقاد مثلاً، رغم أنّه أحد أركان «جماعة الديوان» التي نادى بالتجديد والتخلّي عن النهج التقليديّ للقصيدة العربيّة، يحيل إلى النثر كل ما ليس موزوناً أو مقفّياً. وناهض الشعر الحرّ معتبراً إياه شكلاً من أشكال النثر الفنيّ مهما انطوى عليه من خيال أو وجدان³.

إلا أنّ هاجس الوزن والقافية، راح يخفّ وقفاً، مع تبدّل مفهوم الشعر في العصر الحديث، في العالمين العربيّ والغربيّ، لأنّ معيار الشعريّة قد تبدّل ليقوم على الاختراع والإبداع، وليس الوزن والإيقاع⁴.

ونذكر من أوائل الذين نادوا بالتخلّي عن القوافي والأوزان في عصر نهضتنا، أمين الريحاني الذي أشاد «بملتون» و«شكسبير» اللذين «أطلقا الشعر من قيود القافية»⁵.

لقد أصبح أهل الشعر ينظرون إلى الشعر على أنّه ذلك الشعور المشبوب المعبر عن التجربة⁶. فالشعر هو الشعور، سواء أثار الشاعر هذا الشعور في تجربة ذاتية محضة كشف فيها عن جانب من جوانب النفس، أو نفذ فيها إلى مسائل في الحياة والكون، شرط أن تتوافر له قوّة التصوير والإيحاء والإبداع⁷.

1 - م.ن، ص 79.

2 - عتيق، عبد العزيز، في النقد الأدبي، م.س، ص 165.

3 - حمزة، مريم، م.س، ص 98.

4 - م.ن، ص 98.

5 - جبر، جميل، الريحاني، أمين، الإنسان والكااتب، لاط، لات، ص 192-193.

6 - هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، ط 1، 1982، ص 380.

7 - حمزة، مريم، م.س، ص 99.

ج. النثر قسيم الشعر

النثر في اللغة هو من «نثر الشيء وينثره نثرًا ونثارًا رماه متفرقًا»¹. فالنثر هو الوجه الآخر للشعر أو هو «قسيم الشعر» يسير بمحاذاته، وإن كان النقّاد القدامى يرجّحون أسبقية النثر على الشعر، ولذلك جعلوا «النثر هو المعيار الذي لا تتحدّد شعريّة الشعر إلا بما يخالفه، وجعلوا الشعر في المقابل معيارًا يقود لإبراز أدبيّة النثر لقيمه الخلافيّة»².

ورغم ذلك، فهم يميّزون بين الشعر والنثر على أساس أنّ الأول يمثّل الوجدان والثّاني يمثّل الفكر، وهذا هو المفهوم الشائع في النّقد الحديث، والذي كان قد عبّر عنه نقّادنا القدامى حين اعتبروا أنّ الأدب الفنيّ لا يكون إلا شعراً، أما النثر فيدخل ضمن إطار الأدب الفكريّ، لذا قالوا بفنّيّة الشعر وفكريّة النثر، معارضين الشعر بالنثر في كل شيء جاعلينها نقيضين، وقالوا بشفويّة الشعر وكتابيّة النثر، وقدموا الأول على الثّاني لتأخّر الكتابة عن المشافهة. والشعر يعمل على إثارة الشّعور والأحاسيس، بينما الأعمال النثريّة تهدف إلى إثارة الفكر، أما موقف الشاعِر فتجمعيّ تخيليّ، بينما موقف النّاثِر تحليليّ. ثمّ إنّ لغة الشعر هي لغة العاطفة، أمّا لغة النثر فهي لغة العقل، وغاية النثر نقل أفكار الكاتب وإيضاح القصد، لذا يعتمد الأسلوب التقريريّ التوضيحيّ.

وميّز النّقّاد أيضًا بين النثر الفنيّ والنثر العاديّ الذي يستعمل لغة الحياة اليوميّة³. ومهما يكن، فإنّ اختلاف لغة الشعر عن لغة النثر، أمرٌ متفق عليه منذ القديم. أمّا اليوم فإنّ اختلاف اللّغة بين هذين بات هو الأساس الذي يقوم عليه مفهوم الشعر الحدائّي. ويعتبر أصحاب الحدائّة أنّ لغة شعرهم ينبغي أن تكون بعيدة عن المألوف، وذات دلالات مختلفة عن دلالاتها المعجميّة المعروفة⁴. إلا أنّ كل ما سقناه من أوجه اختلاف بين الشعر والنثر لا يعني تناقضًا بينهما، بقدر ما هي مسألة تفاوت هذه الفنيّة، شكلاً ومضموناً، فالشعر والنثر قالبان أدبيان، والمسألة الجماليّة ليست مسألة شعر أو نثر بقدر ما هي «مسألة الرؤيا الفنيّة المجسّدة بأسلوب تشكيليّ إيحائيّ يجلو رؤية المحتوى وفنّيّة المضمون. وبقدر ما تتكاثف هذه الفنيّة شكلاً ومحتوى في عمل أدبيّ، يقرب العمل

1 - ابن منظور، لسان العرب، م.س، ص 191.

2 - يحيى، رشيد، شعريّة النوع، م.س، ص 11-12.

3 - م.س.ن، ص 12.

4 - عتيق، عبد العزيز، النّقد الأدبيّ الحديث، م.س، ص 167-168.

من دائرة الفنون الجميلة.. وبمقدار ما تتضاءل أنوارها وتخبو... يبتعد الأثر الأدبي عن محور الفنّ الجميل»¹.

ومن هنا يرى البعض أنّ خلق النثر من الوزن والقافية، لا يحطّ من شأنه ومن فنّيته. بيد أننا لا نستطيع أن ننكر على الشعر تلك الميزة التي يميّز بها، وهي ميزة الوزن والقافية والنغم والإيقاع، فموسيقى الشعر ممثّلة بأوزانه وقوافيه تضيء على الكلمات حياة جديدة، تصل إلى قلوبنا لمجرّد سماعها، ممّا يثير فينا الرّغبة في إنشاده أو الاستماع إليه. وربّما يقال بأنّ الشعر الجيّد يُفاس بالرّعشة التي يمكن أن يثيرها في عمودنا الفقري أو بما يُعرف «بالهزة الكيانية» للشعر².

ممّا لا شكّ فيه أنّ الجانب الصّوتي عامل مهمّ في البناء العام الذي يظهر بأشكال عديدة كالوزن والسّجع والقافية والإيقاع وغير ذلك. وعلى هذا الأساس الشكليّ الإيقاعيّ أضاف بعضهم شكلاً أدبيّاً ثالثاً بعد الشعر والنثر، هو السّجع، الذي عدّوه شكلاً من أشكال الأدب مختلفاً عن الشعر والنثر³.

وإذا كان شعراء الحداثة الشعريّة يشعرون بوطأة الأوزان الشعريّة التقليديّة، ويقولون بإمكانية التحرّر منها، لأنّها تحدّ من إمكانية الإبداع، ولأنّه بإمكان الشعر الفنّي أن يستقي من منابع الموسيقى الداخليّة التي تشيع في القصيدة النثرية، تقوم على الصّورة والرّمز والإيحاء، فهناك من يرى أنّ أوزان الشعر العربيّ هي «أنغام فلكلورية شعبية في أساسها الأبعد.. وهي مرتبطة عضويّاً باللّغة التي جاءت فيها». وأنّ الوزن الشعريّ أصيل في أدب هذه اللّغة، ولا يزول إلا في الحالات الثوريّة النادرة وفي فترات التّغيير الجذري الحاسم. ثمّ إنّ العيب ليس عيب الأسلاف الذين صبوا شعرهم في ستة عشر وزناً. ولكنّ العيب عيب من أتى بعدهم فقدّسوا هذه الأوزان وفرضوها على أذواق النّاس، وأبو أن يقولوا الشعر إلا وفقاً لها، دون تعديل أو تبديل أو تطوير⁴. وبالتالي فإنّه ينبغي أن ندع هذا الشعر يتطوّر ويتغيّر بشكل طبيعيّ وفقاً لتطوّر الظروف والعقول والأذواق. وإذا حدث ذلك، فلا ينبغي لنا أن ندين الأساليب القديمة... وهذا ما تحدّث عنه بعض

1 - عاصي، ميشال، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، ط 23، 1980، ص 85-84.

2 - حمزة، مريم، الأدب بين الشرق والغرب، م.س، ص 103.

3 - يحيى، رشيد، شعريّة النّوع، م.س، ص 17.

4 - عتيق، عبد العزيز، في النّقد الأدبيّ الحديث، م.س، ص 172.

النقاد الروس «ورومان جاكبسون» واللغوي الفرنسي «أنطوان مليت» وغيرهم. واستناداً إلى ما قدّمه هؤلاء، يقوم بعض علماء الوزن الموسيقيّ اليوم، بالتفريق بين الشعر الخطابيّ والشعر الغنائيّ معتمدين على العلوم اللسانية والدلالية في دراسة الوزن والصوت على أنّهما عنصران أساسيان في أيّ عمل فنيّ¹.

خلاصة واستنتاج

يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

1. اختلاف النقاد والدارسين حول مفهوم الأدب لغة واصطلاحاً.
2. تطوّر مفهوم الأدب عند العرب بعد ظهور الإسلام، وتحديداً في العصر الأمويّ.
3. استخدام العرب مناهج نقدية واضحة في أثناء محاولاتهم تأصيل المفاهيم العامّة للشعر.
4. إنّ مفهوم الأدب لا يزال في أذهان الناس غامضاً ملتويّاً، لم تبرز حدوده الواضحة التي تميّزه عن غيره من الفنون والعلوم.
5. درج النقاد والدارسون القدماء والمعاصرون على النظر إلى النثر على أنّه «اللاشعر» أو على أنّه «قسيم الشعر».

المصادر والمراجع

1. ابن منظور، جمال الدين محمد، لسان العرب، م 1 وم 5، دار صادر، بيروت، لاط، لات.
2. القالي، أبو علي، كتاب الأمالي، تقديم محمد عبد الجواد الأصمعي، دار كتب المصرية، مصر، لاط لات.
3. عباس، إحسان، تاريخ النقد الأدبيّ عند العرب، دار الشروق، الأردن، 1993.
4. المعري، أبو العلاء، رسالة الغفران، تحقيق وشرح عائشة عبد الرّحمن طه، دار المعارف بمصر، 1969.
5. ابن طباطبا، محمّد بن أحمد العلويّ، عيار الشعر، تحقيق الحاجري وسلام، القاهرة، 1956.

1 - حمزة، مريم، الأدب بين الشرق والغرب، م.س، ص 105.

6. طاليس، أرسطو، فن الشعر، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1973.
7. الحسن، ابن رشيق أبو علي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، جزءان، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط، 1972.
8. ابن الأثير، المثل السائرة، ج 4، لاط، لات.
9. أونيس، علي أحمد سعيد، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط 2، 1978.
1. المبرّد، الكامل في الأدب، ج1، لاط، لات.
2. عصفور، جابر، مقال بعنوان: الأدب، مجلة الفكر العربي، عدد 26 آذار 1982، بيروت، لبنان.
3. جبر، جميل، الريحاني، أمين، الإنسان والكاتب، لاط لات.
4. حمزة، مريم، الأدب بين الشرق والغرب مفاهيم وأنواع، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط 1، 1424 هجري - 2004 ميلادي.
5. القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء، لام، لاط، لات.
6. حسين، طه، في الأدب الجاهليّ، دار المعارف، مصر، ط 12، لات.
7. يحيى، رشيد، شعريّة النّوع الأدبيّ، لاط لات.
8. مجاهد، عبد الكريم، شعريّة الغموض، بيروت، لات.
9. عتيق، عبد العزيز، في النّقد الأدبيّ الحديث، دار النّهضة العربيّة، بيروت، لاط، لات.
10. بن جعفر، قدامة، نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لات.
11. الفيصل، محمد روجي، في النّقد والأدب، منشورات اتحاد الكتّاب العربيّ، 1984.
12. هلال، محمد غنيمي، النّقد الأدبيّ الحديث، دار العودة، بيروت، ط 1، 1982.
13. مندور، محمد، الأدب ومذاهبه، دار النّهضة القاهرة، مصر، لاط، لات.
14. عاصي، ميشال، الفنّ والأدب، مؤسّسة نوفل، بيروت، ط3، 1980.

حركات التحرر الكوردية في سوريا 1914-1980

Kurdish liberation movements in Syria 1914-1980

أحمد عبد القادر عثمان

Ahmed Abdel Qader Othman

أ.د محمد علي القوزي مشرفاً رئيساً أ.د محمد مراد مشرفاً مشاركاً

تاريخ القبول 2024 /8/18

تاريخ الاستلام 2024 /8/2

ملخص

الكرد في سوريا يتركزون بشكل رئيسي في المناطق الواقعة على الحدود بين سوريا وتركيا. تشمل المناطق الرئيسية الجزيرة العليا، ومنطقة دجلة، ومدينة القامشلي في منطقة الخابور، بالإضافة إلى محافظة الحسكة. كما توجد في محافظة حلب جبال الكرد (جبل الأكراد)، مع كون عفرين مركزاً رئيسياً للسكان الكرد. يتواجد الكرد أيضاً في المدن السورية الكبرى مثل دمشق، حيث يقيمون في حي محدد يسمى الصالحية، الذي يضم أكثر من ثلاثين ألف نسمة (لورين، م. ج، 1979، ص. 51).

تاريخياً، لم تشهد سوريا وحدة سياسية وكانت، على مدى قرون، تحت الحكم العثماني جزئياً أو كلياً، متأثرة بقوى مختلفة. كانت مناطق مثل الجزيرة، كوباني، وعفرين لا تعد جزءاً من بلاد الشام (سوريا الكبرى) وفقاً للجغرافيين العرب والمسلمين. بدلاً من ذلك، كانت جزءاً من ما بين النهرين العليا لكنها ضُمت إلى سوريا بعد اتفاقية سايكس بيكو.

ووفقاً لقاسمלו، فإن مساحة كردستان سوريا تقدر بحوالي 18,300 كيلومتر مربع. ومع ذلك، لا تشكل كردستان سوريا وحدة إقليمية متماسكة حيث أنها مفصولة بمناطق ذات أغلبية عربية. ومع ذلك، فإنها تعدّ امتداداً لكردستان العراق وتركيا.

الكلمات المفتاحية: الكرد- سوريا- التقسيم الإداري- الوحدة السياسية- الاستقلال

Abstract

The Kurds In Syria are primarily concentrated in areas along the border between Syria and Turkey. Key regions include the Upper Jazira, the Tigris region, and the city of Qamishli in the Khabur District, as well as Al-Hasakah Governorate. Additionally, in Aleppo Governorate, there is the Kurdish Mountains (Jabal al-Akrad), with Afrin serving as a major center for the Kurdish population. Kurds are also present in major Syrian cities such as Damascus, where they inhabit a specific neighborhood called Al-Salhiyah, which is home to more than thirty thousand residents (Laurin, M.C., 1979, p. 51).

Historically, Syria did not experience political unity and was, for centuries, partially or entirely under Ottoman rule, influenced by various powers. Regions such as the Jazira, Kobani, and Afrin were not considered part of Bilad al-Sham (Greater Syria) according to Arab and Muslim geographers. Instead, they were part of Upper Mesopotamia but were annexed to Syria following the Sykes-Picot Agreement.

According to Qasimlou, the area of Syrian Kurdistan is approximately 18,300 km². However, Syrian Kurdistan does not form a cohesive regional unit as It is separated by Arab-majority areas. Nonetheless, it serves as an extension of Iraqi and Turkish Kurdistan.

مقدمة

الأكراد في سوريا بشكل أساسي في المناطق المحاذية للشريط الحدودي في سوريا وتركيا وأهمها منطقة الجزيرة العليا وإقليم دجلة ومدنية القامشلي في لواء الخابور، وولاية الحسكة. كما هم موجودون في ولاية حلب توجد جبال الاكراد، وتعد آفرين Afrin مركزاً للأكراد هناك، إنهم موجودون في المدن السوريّة الكبرى مثل دمشق، فهناك حي خاص بهم هو حي الصالحية والذي يحوي أكثر من ثلاثين ألفاً من السكان

Laurin,MC.,1979,p.51

ولم تشهد سوريا وحدة سياسية بل كانت ملحقة جزئياً او كلياً بالدولة العثمانية طوال قرون ومحكومة بهذا النفوذ أو ذلك كما أن الجزيرة وكوباني وعفرين لم تكن جزءاً من بلاد الشام وفق قول الجغرافيين العرب والمسلمين بل كانت جزءاً من بلاد ما بين نهريّن العليا، لكن تم ضمها لسوريا بعد سايكس بيكو، وبحسب قاسملو فإن مساحة كردستان سوريا تحدد بـ 18300 كم² -كوردستان سوريا- لا تشكل وحدة إقليمية متماسكة بل تفصل عن بعضها البعض مناطق عربية، لكنّها تشكل امتداداً لكوردستان العراقية والتركيّة.

أولاً: التقسيم الإداري للمناطق الكرديّة في سوريا

1- محافظة الجزيرة

يوثق الرحالة التركي أوليا جلبي الذي مرّ بالجزيرة عام 1655 متوجّهاً نحو قلعة الشّاه سنجار أنّ الجزيرة، كانت مسكونة بالكرد ومن العشائر التّالية أشدي = أشتي، الشّقاقي = الشّكاكي .

كما أورد ستيفن همسلي لونكريك إحصائيّة فرنسيّة تعود إلى عام 1937 تظهر أن سكّان الجزيرة كانوا يتوزّعون على الشّكل التّالي:

82 ألف كرديّ (%51 من السّكّان)

42 ألف عربيّ (%26 من السّكّان)

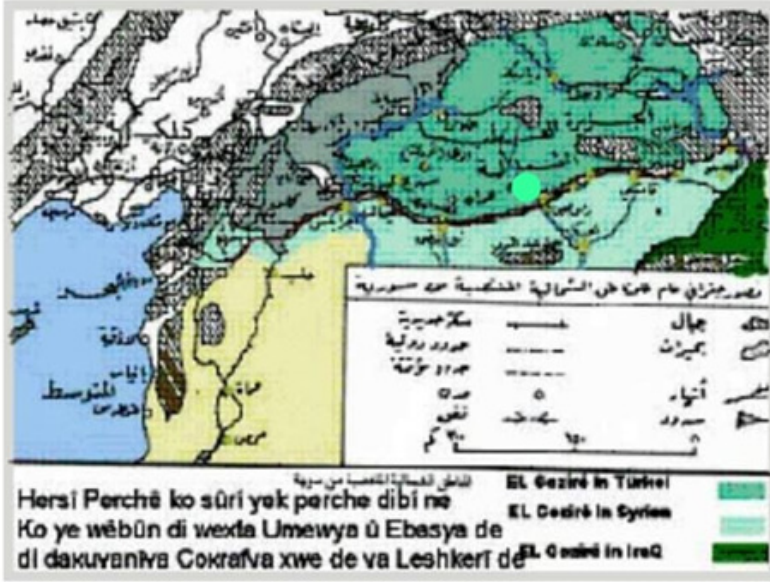
31 ألف مسيحيّ (%19.4 من السّكّان، سريان وأرمن... الخ)

2 ألف أيزيديّ (وهم كرد أصلاً)

1 ألف يهوديّ

1 ألف شركسيّ

ومما لا بدّ من ذكره هنا أن منطقة الجزيرة لم تكن يوماً جزءاً من بلاد الشّام الطّبيعيّة، كما تؤكّد تلك الرّسالة السّريّة التي أرسلها ميليران، رئيس الوزراء الفرنسيّ في 6 آب/أغسطس 1920 إلى الجنرال غورو .



خريطة 1: مصور جغرافي عن المناطق الكردية في شمال سوريا
(حصاف ا.، 2017، صفحة 655)

ومما جاء فيها «أنّ النظام الذي يستجيب بصورة أفضل لمصالح سوريا ومصالحنا أيضاً هو سلسلة دور مستقلة جمهورية الشكل تتناسب مع تنوع الأعراف والديانات والحضارات وتتحد في فيدرالية تحت السلطة العليا للمفوض السامي، ممثل الدولة المنتدبة، مستبعدة، من ذلك، الأراضي الكردية في الجزيرة، معللاً ذلك بأن لا تربطها أية رابطة قومية في سوريا، (شرفاني، 2018، صفحة 56). بل كانت الجزيرة تحديداً تشكل تاريخياً جزءاً من المملكة الكردية (الجزيري، 2017، ص 364).

أ- إنّ الجزيرة في مجملها تتألف من عدّة مناطق أهمها:

1-منطقة الحسكة: وتشكّل القسم الغربيّ من الجزيرة، وتتألف من سهول فسيحة تمتدّ من الحدود التركيّة شمالاً إلى ما وراء جبال عبد العزيز جنوباً، وإلى سنجار شرقاً، ويدخل في دائرتها جانب كبير من السهول الواسعة التي تمتدّ بين الحسكة ودير الزور، ويجري فيها نهر الخابور من الشمال الغربيّ إلى الجنوب الشرقيّ، ومركز هذه المنطقة هو مدينة الحسكة التي يعود تاريخ بنائها إلى مطلع سنة 1900، عندما بنت مخفراً

على هضبة كائنة في المنطقة، وبدأ السكّان بالتوافد إليها من سنة 1912م. ومنذ ذلك التاريخ بدأت معالم مدينة الحسكة تظهر للوجود، (عبد الرحمن، 1954، ص.16)، وتتبع المدينة ثلاث نواح هي: ناحية سري كانيه وتبعد (80) كلم شمالاً عن الحسكة وعن ناحية الدرياسية ب (60) كلم، وتمتاز البلدة بوفرة مياهها العذبة والكبريتية، لذا يطلق عليها أحياناً لقب (زهرة الجزيرة)، وناحية تلّ قمر على الخابور الأوسط، وناحية الشّوادي في حوض الخابور الأسفل.

2-منطقة القامشلي : تقع بين الحدود التّركية شمالاً ومنطقة ديريك شرقاً (المالكية حالياً). وتتألف من سهول واسعة تحاذيها سلسلة جبال في تركيا، وتقابلها من الجهة الأخرى مدينة نصيبين. ومركز المنطقة هو مدينة القامشلي، وتعدّ هذه المدينة من أجمل مدن الجزيرة، (جريدة التّقدمي، 1994، وهي الجريدة النّاطقة (سريّة) للحزب الديمقراطيّ التّقدميّ الكرديّ في سوريا)، ويعود تاريخ إنشائها إلى سنة 1923 عندما شرع أحد وجهاء الكرد، وهو السيّد عبد القادر علي بك في إنشاء أوّل بناية في جنوب مدينة نصيبين شرقيّ نهر جقق في الموقع المعروف اليوم بحارة (قُدور بك)، ومطحنة مائية إلى الجنوب منها. ثمّ بدأ الكرد يبنون مساكنهم حولها، والذي شجّعهم أكثر على السكّن في المنطقة، قيام الفرنسيين في 20 آب 1926 ببناء التّكنات العسكريّة والمكاتب الإداريّة فيها وهو ما دفعهم إلى القيام بتخطيط أوليّ للمدينة.

تتبع مدينة القامشلي ناحيتان هما عامودا والدرياسية، الأولى تقع إلى الغرب من القامشلي على الحدود السّوريّة- التّركية، ويحدّها غرباً الدرياسية على بعد (26) كم، وهي من أقدم مدن الجزيرة، وتشكّل أكبر ناحية فيها، وتتبعها (172) قرية ومزرعة.

وتطوّرت بعد تثبيت الحدود السّوريّة- التّركية، وأخذت شيئاً فشيئاً مكانة مدينة (دارا) الكرديّة التي تقابلها من الجانب التّركي. وفي سنة 1911 فتحت فيها مدرسة إعداديّة لتعليم أولاد العشائر بإدارة أحد وجهاء مدينة ماردين، وكانت الدّراسة فيها باللّغتين التّركية والكرديّة معاً. (رش، مخطوط بحوزة مؤلّفه، ص.30).

أمّا ناحية الدرياسية: فتقع إلى الغرب من عامودا وتتألف من أراضي سهليّة خصبة، وكان مركز النّاحية أوّل ما أستحدث في قرية قرمانية في حزيران 1929م برئاسة أحد أغوات الكرد في المنطقة. وفي سنة 1932 تم نقل مركز النّاحية إلى محطة قطار في

الدّراسيّة الواقعة على طريق سكة قطار - حلب - نصيبين (للمزيد من التفاصيل انظر يامين، ابراهيم، الدّراسيّة ماضيا وحاضرا، 2009، دار ماردين الرّها للنشر، حلب)

3-منطقة ديريك: قضاء يقع شرقيّ مدينة القامشلي بنحو (116) كلم، وكان هذا القضاء مركزه أوّل مرّة في بلدة عين ديوار سنة 1931، وعين ديوار بلدة تقع على الهضبة الغربيّة المشرفة على نهر دجلة، وأطلقت عليها عدّة تسميات: من أشهرها تسمية (منقار البطة) لأنّ تلك البقعة من الأراضي تشبه منقار البطة بشكل واضح (البحري، 1967 ص. 78).

أما ديريك، فهي منطقة مشهورة بتربتها الزراعيّة الخصبة، نشأت أوّل مرّة على طريق القامشلي - عين ديوار، وبعد أن كانت تابعة إدارياً للأخيرة، أصبحت أكثر حيويّة ونشاطاً بسبب قرب الثكنات العسكريّة الفرنسيّة منها، وسمّيت بقضاء دجلة. (زازا، 2001، ص. 57).

وتتكون منطقة ديريك من قسمين، جبليّ في الشّمال والسّهول المعروفة بمنطقة تلّ كوجر في الجنوب، وهي سهول تمتدّ في جنوب جبل قرّة جوغ حتّى الحدود العراقيّة. ويتوزّع الكرد في منطقة سنجار في قسمها الغربيّ، حيث تنتشر المئات من القرى الكرديّة في المنطقة. (داوود، ص. 373).

وتعدّ المنطقة شمالي الرّقة جسراً بين الجزيرة، وكوباني (عين العرب) الكرديّتين، وتتبع القرى الكرديّة هناك إدارياً منطقة كرى كور، (تلّ أبيض بعد تعريب اسمها)، التي أسّسها الكرد والأرمن في العشرينيّات من القرن الماضي. وكانت عشيرة (البرازي) تسيطر عليها تاريخياً.

وتقع إلى الغرب من منطقة الجزيرة بقية المناطق الكرديّة الواقعة في الشّمال الغربيّ من سوريا، وهي مجملها أيضاً تتألف من منطقتين مهمّتين هما:

2- **منطقة كوباني:** يعود الوجود الكرديّ في هذه المنطقة، وبالتحديد على الشاطئ الشماليّ للفرات إلى عصور موغلة في القدم، وليس أدلّ على ذلك من تمكّن عشيرة كردية هي عشيرة (البرازي) من السيطرة على تلك المنطقة ولعدة عهود، من خلال تشكيلها لتحالف ضمّ عدة عشائر كردية سمّي بالتحالف البرازي. والمستشرق الروسيّ (ب. ليرخ) يذكر تلك المنطقة خلال القرن التاسع عشر، على أنّها منطقة كردية خالصة. (ليرخ، 1994، ص.71).

3- **منطقة كورد داغ:** تقع في أقصى الشمال الغربيّ من سوريا تحدّها غرباً وشمالاً الحدود التركيّة، وهي منطقة جبلية استمدّت اسمها من الشعب الكرديّ الذي سكنها وجسّد فيها وجوده منذ القدم، (Nazden 1980, p.212)، وصفها أحمد وصفي زكريّا خلال الثلاثينيات من القرن الماضي بما يلي (قضاء كورد داغ قضاء واسع من أعمال ولاية حلب، قام مقام ناحية الجومة التي كانت فيما مضى من أنحاء قضاء كليس. وهذا القضاء ملآن بالجبال والهضاب المكسوة بالغابات المختلفة الأشجار، وبكروم الزيتون، والمشهور بجودته، وأهلها من أقحاح الكرد وبعضهم من اليزيدية. (زكريا، 1934، ص.77)، ولهذه المنطقة خصوصية واضحة دون غيرها من المناطق الكردية في سوريا، كونها تشكّل المنطقة الجبلية الوحيدة التي يعيش فيها كرد سوريا بكثافة. (وانلي، 1968، ص.5). وتمّ تشكيل قضاء كورد داغ من قبل الفرنسيين حينما أصدرت السلطات الفرنسية القرار ذي الرّم (33) في أيلول 1922 والذي كان قد أوصى بالدرجة الأساس بتشكيل دولة حلب. وبناءً على القرار المذكور، تمّ استحداث قضاء كورد داغ، وألحقت به أربع نواح هي: راجو، وبلبل، والحمام، وقاطمة. (رونودو، 2000، ص.101).

ويذكر علي صالح ميراني أنه لا يقتصر سكن الكرد على المناطق الكردية المذكورة آنفًا، حيث يقول: إن الكرد في سوريا، مثل بقية الكرد في أجزاء أخرى من كردستان، يسكنون مناطق أخرى خارج كردستان، ووجودهم هناك يعود لأسباب تاريخية، وأحياناً كان نزوحهم إليها لأسباب سياسية واقتصادية. ومن تلك المناطق الحيّ الكرديّ بدمشق، وهو اسم أطلق على المنطقة الممتدة بين سهلي برزة والقابون شرقاً، ومنطقة أبي جرش غرباً وجبل قاسيون شمالاً، وشريط من البساتين جنوباً. ومن المعروف أن معظم سكّان

الحيّ الكرديّ هم من الكرد حتّى يومنا هذا. جاءت الموجة الأولى منهم من الجنود الأيوبيّين الذين قد عسكروا مع أسرهم خارج سور مدينة دمشق. أما الموجات اللاحقة ف جاءت بعد انتهاء الحكم الأيوبيّ، حيث زاد تعلق هؤلاء بمسكنهم الجديد (ميراني، 2002، ص.33)

وكانت آخر الموجات الكرديّة المهاجرة للحيّ المذكور أنفأ هي تلك التي تمّت في بداية الرّبع الثّاني من القرن العشرين، عندما أصبحت موئلاً للمهاجرين الكرد الآتين من كردستان - تركيا وبعض مناطق الجزيرة. فقسم منهم جاؤوا للخلاص من الظلم التّركيّ الذي لحق بالكرد في كردستان الشّماليّة، خاصة بعد فشل الانتفاضات المسلّحة هناك (زكريا، 1934، ص.322). وقسم آخر هرباً من عوائل الفقر والعوز الذي كان يضرب بأطنابه في الجزيرة حينذاك (ملا، 1998، ص.13).

وبرز العديد من العائلات الكرديّة هناك، ومنهم آل شمدين آغا، الذي كان واحداً من أكثر زعماء الألوية شبه العسكريّة سطوة بدمشق، وآل اليوسف الذين كانوا نشيطين في التّجارة، وآل العابد، وبرز منهم هه لو آغا الذي تسلّم متصرفيّة عدد من الألوية في ولاية دمشق.

4- محافظة حلب

يسكن الكرد مدينة حلب منذ مئات السنين، ومن أحيائها ذات الأغليبيّة الكرديّة (الشيخ مقصود، والأشرفيّة، والعززيّة والأحياء الشّماليّة الشّرفيّة) ويزيد التّجمع الكرديّ في مدينة حلب عن 300/ ألف نسمة. أما ريفها الشّماليّ والشّماليّ الشّرقيّ والشّماليّ الغربيّ المسمّى بالشّهباء (من دون كوباني وعفرين طبعاً)، فكان ذا غالبيّة كرديّة، بدليل (امتلاك الكرد لقيود الملكيّة، والتي تعود إلى العهد العثمانيّ، بعكس التّركمان، (جيرري، 2017، ص. 378)، إلا أنّ الدّولة العثمانيّة، ولأسباب سياسيّة عقب الانتفاضات الكرديّة، قامت بترحيل الكورد، واستقدام مجموعات تركمانيّة وقبائل عربيّة. (العنزة مثلاً).

5- محافظة الرّقة

عيّن الباب العالي تيمور الملليّ، زعيم القبيلة الملليّة حاكماً على الرّقة، وكانت حتى نهاية العهد العثمانيّ تتبع إمارة إبراهيم باشا الملليّ حفيد تيمور، وبعد ترسيم الحدود

بين تركيا وسوريا بقي القسم الأكبر من القبيلة داخل الحدود السّوريّة. ومازال الكثير من أعيان الرّقة يُفرون بأنهم ينتمون إلى هذه القبيلة. وإلى جانبها كانت قبيلة رشوانا الكرديّة قبل القرن 18 م، يعيش الكرد في شريطها الشّماليّ المتاخم لتركيا، ناهيك عن الكرد الّذين يسكنون مدينة الرّقة ذاتها (ونحو 50 ألف نسمة في الرّقة، ونحو 10 آلاف نسمة في الطّبة. (جريري، 2017، ص. 378).

تلّ أبيض: كرى سبي: تتبع إدارياً محافظة الرّقة وهي مركز منطقة مساحتها نحو 5 آلاف كم². ألحقت بالرّقة في إطار سياسة التّعريب، وهي صلة الوصل بين الجزيرة وكوباني، وتعود سندات تملكها إلى عائلة إبراهيم باشا المليلي. (اليوسف، 2017، ص. 45).

سكّانها خليط من الكرد والعرب، أكثر من 50% عرب ونسبة الكرد بين 30% و40% فضلاً عن أقلّيّتين صغيرتين جدّاً من التّركمان والأرمن. (علي، 2015، ص. 70).

ومن المفيد القول هنا -أيضاً- أنه يوجد العديد من القرى الكرديّة في مناطق قضاء منبج وجرابلس، وفي منطقة حوض نهر العاصي (زكي، 1930، ص. 411)، ومنطقة حارم، والعمق، والباب، (زكريا، 1934، ص. 226). وهناك منطقة أخرى مأهولة بالكرد تسمّى جبل الكرد، وهي تقع في منطقة الغاب القريبة من السّاحل السّوريّ، ويقدر عدد القرى الكرديّة هناك بحوالي ثمانين قرية. (زكريا، 1934، ص. 58).

ثانياً: الحركة السّياسيّة الكرديّة بعد الاستقلال

بمغادرة آخر جندي فرنسيّ الأراضي السّوريّة في السّابع عشر من نيسان/أبريل عام 1946، رفع شكري القوّتلي رئيس الجمهوريّة علم الاستقلال على دار الحكومة، وأعلن أنّه لن يرفع بعد اليوم إلا علم الوحدة العربيّة، من دون إعطاء أي منزلة لحقوق الشّعب الكرديّ، ومن دون إعطاء أي اهتمام بمطالبه بوصفه شريكاً في مقاومة الاستعمار الفرنسيّ حتّى نالت سورية استقلالها.

بدأت النزعة القوميّة العربيّة بعد الاستقلال تظهر بوضوح في أغلب النّيّارات والأحزاب السّياسيّة العربيّة الأمر الذي دفع المكوّن العربيّ إلى تمجيد الشّعارات وترديدتها مثلاً «الأرض بتتكلّم عربي»، «نفط العرب للعرب» دون الشّعور بالذّنب حيال المكونات

الأخرى والتي منعت عنها ثقافتها ولغتها، وفرضت عليها الثقافة العربيّة بهدف اقتلاعها من الجذور. (الجميل، 24 آذار 2007، مدخل لفهم الأقليات في الشرق الأوسط، على الموقع الإلكتروني : (www. Sayyaaljamil.com)

ومازاد الأمر سوءاً أن الحكومات المتعاقبة سارت على نفس النهج واحتكرت السلطة والثروة بيد الجنرالات العسكريين والتجار وباشرت بإغلاق كافة الجمعيات والنوادي والمطبوعات الكرديّة التي كانت تصدر بفترة الانتداب الفرنسيّ (رسول، 2007، ص 10) وذلك بموجب قرار أصدره صبري العسليّ وزير الدّاخليّة في حكومة سعد الله الجابريّ التي كانت أوّل حكومة في عهد الاستقلال في 26 نيسان أبريل عام 1946.

وفي ظلّ الانقلابات العسكريّة سارت الأوضاع من سيّء إلى أسوأ حيث هدّد حسني الزعيم بتسليم قدارة خويبون إلى تركيا، وحظر الشيشكلي المطبوعات الكرديّة رسمياً، وازدادت المضايقات على القوميّين الكرد، وأساليب التّعريب بعد اتّجاه الشيشكلي نحو الحكم المركزيّ الصّارم ودعوته إلى فكرة القوميّة العربيّة، ووحدها - وعدّ سورية قاعدة للتحرر العربيّ، وفي هذا السّياق أصدرت السّلطات تعليماتها بمراقبة القوميّين الكرد ورصد نشاطاتهم السّياسيّ (حصاف، 2017، صفحة 4). ويذكر أحد الضبّاط من الاستخبارات السّوريّة بهذا الصّدّد أن الشيشكلي نفسه قد كلفه بالذهاب إلى القامشلي من أجل تقوية مركز الشّعبة الثّانية التي تحمل الدّائرة الأمنيّة المكلفة بمراقبة الكرد في الجزيرة، ويذكر الضبّاط بأنّه نجح في مهمته تلك واستطاع الحدّ من نشاط القوميّين (مراد، 2013، ص 49-93)

كذلك كان الحزب الشّيعيّ يشترك مع كل التّنظيمات والأحزاب السّياسيّة في التمرّك حول نفسه وفي رؤيته العمديّة للمسألة الكرديّة وحسب تصوّر خالد بكداش. أنّه على الكرد أن ينسوا ذاتهم وينخرطوا في الحزب الشّيعيّ ويناضلوا من أجل وحدة وعظمة الأمة العربيّة.

وفي ظلّ هذا الاغتراب الوطني لم يكن أمام الكرد خيار سوى اللّجوء مثل بقية الأحزاب إلى تأسيس حزب كرديّ يهدف إلى صون خصوصيّتهم وهويّتهم القوميّة والنّضال من أجل تحريرهم القوميّ ضمن إطار الدّولة السّوريّة.

1- أكراد سوريا والانقلابات العسكريّة:

تدهور نظام الحكم في سوريا قبيل فترة الانقلابات العسكريّة وخاصة بعد الهزيمة التي تلقّتها القوات العربيّة في 1948 في حرب فلسطين حيث كان الوضع الداخليّ ينذر بانفجار قريب لم يكن السوريّون يستبعدونه نظراً لسيطرة مصالح طبقة سياسيّة فقدت ثقة السوريّين.

فالرئيس شكري القوّلي (1891-1967) كان أشبه بحاكم مطلق، وكان مسيطراً على نحو كبير على البرلمان السوريّ الذي كان خاضعاً له ومؤيداً لجميع سياساته.

أما الأحزاب فكانت متناحرة تحوّلت مع الوقت إلى كتل للصراع بين رؤسائها للحصول على المصالح الشخصيّة (سيد، 2007، صفحة 16)

كان الجيش السوريّ من أشدّ الفئات تضامياً من الأوضاع وخاصة بعد هزيمة فلسطين، وبعد أن عمّت المظاهرات والاضطرابات كافة أنحاء البلاد ملقية اللوم في الهزيمة على الجيش ممّا أدى صراعات فيما بعد بين المؤسّستين العسكريّة والسياسيّة وصلت إلى ذروتها في نهاية عام 1948 وبداية عام 1949، حيث تبادل السياسيّون والعسكريّون الاتهامات بشأن هزيمة 1948 متهمًا كلّ طرف منها الطرف الآخر بأنه هو المسبّب لها (بزي، 1966، صفحة 237).

أ- حسني الزعيم وانقلابه العسكريّ 30 مارس 1949

يعتبر انقلاب حسني الزعيم (1889-1949) في 30 آذار/مارس 1949 أول انقلابات العسكريّة التي شهدتها سورية في تاريخها الحديث، وبداية لسلسلة من الانقلابات التي تدخّل فيها العسكريّون في أمور السياسة والحكم في العالم العربيّ في حقبة ما بعد الحرب العالميّة الثّانية.

وممّا لا شكّ فيه أنّ انقلاب الزعيم جاء نتيجة لأوضاع سورية الداخليّة والأحداث في المحيط الإقليميّ والدوليّ المتمثّلة كما ذكرنا بحرب فلسطين وإعلان قيام دولة إسرائيل، والصراع الدوليّ في بداية ما يسمى بالحرب الباردة.

حيث كانت الأسباب الداخليّة تتمثّل في الاضطرابات التي عمّت سوريا، إثر قرار التّقسيم، والتي أخذت تدعو للنّورة والجهاد المقدّس لإنقاذ فلسطين.

(بابيل، 1987، ص296-287)،

كما ألقى الجيش مسؤولية هزيمة الجيوش العربية في حرب 1948 على المدنيين الذين تولوا قيادة الجيش وتسببوا بألم ومرارة في النفوس أكثر مما أوجده الاستعمار نفسه، كذلك أدى التضييق على الحريات الشخصية، الى انفجار المظاهرات السورية التي قمعتها الحكومة بالرصاص والغاز المسيل للدموع. سقط فيها قتلى وجرحى من الطرفين واشتدت المظاهرات لثلاثة أيام عام 1948م حتى صار الأمن يقتل الناس عمداً، مما زاد من النقمة والسخط، وكان القوّتي قد استعان بالجيش لإعادة الأمن ومراقبة الصحف، فأمسك الزعيم بزمام الأمن وأعلنت الأحكام العرفية خلافاً للدستور، فكانت بداية تدخل الجيش في السياسة وشعور الزعيم بضعف الحكومة (العظم، 1973، ص 389-379).

وبتدخل الجيش لفرض الأمن والنظام، اقتنع الضباط في سوريا بقدرتهم على حكم سوريا حيث ذاقوا طعم السلطة قبل أن يتسلم الجيش السلطة بانقلاب حسني الزعيم، الذي كان يرى أنّ الجيش لم يكن مسؤولاً عن الهزيمة العسكرية أمام اليهود وأنّ السبب الرئيسي في الهزيمة هو ضعف الحكومة السورية وفساد رجال السياسة وإهمالهم لتدريب الجيش وتسليحه، فقام بانقلابه في الساعة الثانية بعد منتصف ليل 30 آذار امارس 1949 م. وتحرك الجيش بقيادته وأحاط بدمشق واحتلّ الأبنية الرئيسية والأماكن الاستراتيجية ووضعت النظام وعدم يقظته لم يجد الزعيم عناءً في الاستيلاء على الحكم، ولم ترق نقطة دم واحدة بالانقلاب الذي حظي بتأييد وترحيب معظم شرائح المجتمع السوري، فانطلقت المظاهرات المؤيدة في معظم المدن السورية.

كما قبض على الرئيس القوّتي ورئيس الوزراء خالد العظم والنائب فيصل العسلي وعدد من المسؤولين السوريين «(صقال، 1952، صفحة 34).

حلّ الزعيم المجلس النيابي وتمّ إلغاء الدستور وأجبر القوّتي ورئيس الوزراء خالد العظم على الاستقالة وأعلن نفسه حاكماً عسكرياً على البلاد، حيث جمع في يده سلطات غير محدّدة وهكذا تدخل الجيش بالسياسة والسلطة وسارت سوريا بعدها وفق أهواء الانقلابيين.

ومن أهم خصائص الانقلابات العسكرية السوريّة عموماً وانقلاب الزعيم خصوصاً إنها لم تكن تهدف للمصلحة العامّة أو تحقيق مطالب الشعب بالإصلاح بقدر ما كانت تهدف لتحقيق الأطماع الشخصيّة.

والجدير بالذكر أنّ الانقلاب الأول والسلسلة المتسارعة من الانقلابات العسكريّة جلبت ضباطاً من الجيش ذوي أصول كرديّة، إلى حدّ ما، إلى السّلطة الذين اعتمدوا بدورهم على ضباط من الخلفيّة الأثنيّة كاعتماد حسني الزعيم على الشراكس في حمايته الشخصيّة ولم يكن من المستغرب أنّ بعض القوميّين العرب رأوا ذلك التصرّف من المخلفات البغيضة لمشاركة الكرد في القوّات الخاصّة، والبعض الآخر أدان النظام العسكريّ في سوريا.

ب- انقلاب سامي الحناوي 14 آب 1949

عيّن حسني الزعيم عديله نذير فنصه سكرتيراً له، وكلفه بالتفاوض مع الرّؤساء حيث أرسل لفرنسا لهذا الغرض. أثار هذا الأمر إشاعة حول نيّة الزعيم حلّ الجيش والاعتماد على فرق أجنبيّة، كذلك تسبّب تهميش الزعيم لزملائه بالانقلاب وعدم إشراكهم بالسّلطة بتخليه عنهم (الكوراني، 2000، ص 213-227-212).

تراجعت شعبيّة الزعيم بسبب حكمه التسلّطيّ والدكتاتوريّ وتسليمهم لأنطوان سعادة رئيس الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ للحكومة اللبنايّة التي أعدمته، كذلك قيامه بتسريح آلاف الموظّفين المحسوبين على عهد القوّتلي وتضييقه على الحزبيّات من خلال حلّ الأحزاب، الأمر الذي أثار نقمة الشعب ضدّه (فنصة، نذير، 1983، ص 78).

يضاف إلى أسباب الانقلاب على الزعيم اعتماده على القوّة للحفاظ على سلطته، وعدم اعتماده على حزب سياسيّ لدعم نظام حكمه ولإبعاده لأصدقائه الضبّاط. كل هذه الأسباب الداخليّة هيأت المناخ للإطاحة بحكمه.

أمّا الأسباب الخارجيّة، والتي استغلّها سامي الحناوي للانقلاب، فهي تقرب الزعيم من فرنسا ورغبته بالتفاوض مع إسرائيل وبحسب مقال جاء في جريدة السياسة الصّادرة في 1949\7\7 جاء فيه «أنّ الزعيم اهتمّ بالسياسة الخارجيّة على حساب السياسة الداخليّة وصار وحيداً بلا انصار من الدّاخل، حتى وقف القوميّون والمناصرون للعراق ضدّ

تقاربه مع فرنسا وصدّ تهديته مع إسرائيل، لم يكن السّياسيّون السّابقون والبورجوازيّون راضين عن إصلاحات الرّعيم الدّاخلية، كما تعرّض الجيش لحمات تطهير، ففقد الرّعيم الدّعم الدّاخلية والخارجية بسبب سياسته تجاه الدّول العربيّة والأجنبيّة، وقضى على المؤيدين للاتّحاد مع العراق والأردن، لكلّ هذا، تمّت تصفية حسني الرّعيم ورئيس وزرائه (جريدة السياسة، عدد 5841، 1949\7\7).

قام الحنّاوي بانقلابه على حسني الرّعيم رئيس الجمهوريّة وكان رئيس الوزراء حسني البرازي فسلمّ رئاسة الوزراء إلى هاشم الأتاسي الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهوريّة.

أجرى الحنّاوي انتخابات برلمانية نزيهة، ووضع دستوراً مؤقتاً وحول نظام الحكم إلى نظام برلمانيّ دستوريّ وشكّل حكومة تتكوّن من 12 وزيراً منهم عسكرياً واحداً متقاعدًا.

سعى الحنّاوي إلى التقارب مع العراق، وهو الأمر الذي أغضب الحوراني حيث عارض بعض ضباط الجيش الوحدة مع العراق لأنّها ستفقدهم مناصبهم وامتيازاتهم وسلطتهم العسكريّة، فانقسم الجيش إلى معسكرين الأوّل بقيادة أديب الشيشكلي والثّاني بقيادة الحنّاوي، ويبدو أنّ مشروع الاتّحاد مع العراق هو أهمّ أسباب الانقلاب وخاصّة دمج الجيشين.

عزل الحنّاوي بعض الموظفين وأحال آخرين على التقاعد وأصدر عدّة مراسيم كلّها يوم الانقلاب نفسه وهو ما أوجد استياء لدى الشّعب السّوريّ. (خالد العظم، 1973، ص 211).

يضاف إلى ذلك عودة الشيشكلي إلى الحكم بعد تسريحه وتسلمه قيادة اللّواء الأوّل الذي يحوي على كتيبة مدرّعات.

أمّا الأسباب الخارجيّة لقيام الشيشكلي بالانقلاب فهي استخدام كلّ من فرنسا التي تعد سوريا منطقة لنفوذها، ومصر والسّعودية اللّتين وجدتا في الوحدة العراقيّة السّوريّة قوّة لمنافسيهم الهاشميين، لنفوذها لدى الجيش لمنع قيام هذه الوحدة، بالإضافة إلى معارضة كلّ من أميركا وإسرائيل لأيّ وحدة عربيّة.

ج- انقلاب أديب الشيشكلي 1949\12\9

وقع الانقلاب الثالث الذي قاده الشيشكلي في يوم 1949\12\9، حيث كان رئيس الحكومة هو هاشم الأتاسي الذي عزل عن منصبه وسلّم خالد العظم رئاسة الحكومة وألغى الدستور لكن استمرّ البرلمان السابق.

كان الشيشكلي مصمّمًا، رغم أصله الكرديّ، على خلق دولة عربيّة مسلمة متجانسة، الأمر الذي أقلق الكرد والآشوريين والأرمن خاصة بعد سلسلة من المراسيم التي أصدرها والتي نصّت على أن تحمل الفنادق والمقاهي ودور السينما أسماء عربيّة خالصة، وأن تكون اللّغة العربيّة هي اللّغة الوحيدة التي تستعمل في اللّقاءات العامّة والمهرجانات والاحتفالات وأن يحتلّ المسلمون مقاعد مساوية لمقاعد غير المسلمين في كافة المنظّمات التابعة للأقليات.

استمرّت الحكومة المدنيّة لمدى عامين رغم سيطرة الجيش على الحكومات السورّيّة، في هذه الفترة ألغى دستور الحنّاوي، ووضع دستور، مؤقّت للبلاد عام 1950، وعزل سلطة مجلس النّواب على حساب رئيس الجمهورية كما تدخل الجيش في السّياسة من خلف الكواليس ضمن خمسة وزراء مقابل 12 وزيرًا في عهد نظام الحنّاوي، كان نظام الحكم برلمانيّ شكليّ فقط (عايش، 2012، ص 70).

أوجد الشيشكلي حركة التّحرر وهي أوّل توجّه للعمل بنظام الحزب الواحد، ولم يستطع الحصول على تأييد شعبيّ واسع واستمرّ الشيشكلي يتخوّف من تأمر الضّبّاط عليه، بينما اعتبر السّياسيون أنّ الشيشكلي مغتصب للسلّطة، فعمت سوريا موجه من السّخط واعتبروا أنّ الشيشكلي وزمرته أزهبوا الشّعب السورّي واعتقلوا المئات، كما عانت الطبّقة الوسطى من الضّرائب فتصاعدت المعارضة ضدّ الشيشكلي. (بشّور، 2003، ص234-237)



أديب الشيشكلي 11 نونبر 1953 - 25 نيسان 1954

وثيقة: 1: أديب الشيشكلي

(حشاف، 2017، صفحة 655)

في العام 1954 تمّت الإطاحة بحكم أديب الشيشكلي وألغى الانقلاب الجديد دستور الشيشكلي وسنّ دستوراً دائماً بدلاً منه، وحلّ مجلس النواب وأجرى انتخابات برلمانية، ولم يعد الجيش يتدخل بالسياسة بالعلن وبدأت حملة بطيئة ومركزة ضدّ الكرد، بتطهير القوّات المسلّحة من الضبّاط الأكراد ذوي المناصب العالية أو المتوسطة. لم تحدث الحملة بين ليلة وضحاها بينما استمر تنفيذها وقتاً طويلاً، وبدأت في هذه الفترة مصادرة أشرطة الموسيقى والمنشورات الكرديّة وإتلافها وسجن أصحابها.

في النصف الثّاني من الخمسينات وبعد تنامي الشّعور القوميّ العربيّ المتولّد من فكرة القوّة من خلال قيام الوحدة بين سوريا ومصر، لم يبق أمام الأقليات غير العربيّة أيّ فسحة ضمن الترتيب السياسيّ وفي حادثة يبدو أنّ الحقد القوميّ وراءها، قضى 250 طفلاً من مدارس عامودا نحبهم في حريق متعمد لسينما عامودا (ماكدول، 2004، صفحة 701).

لم تفسح القوميّة العربيّة مجالاً كبيراً أمام الهوية الكرديّة الأمر الذي دفع المتتوربين الأكراد إلى الانجذاب إلى الأيديولوجيات السياسيّة المناهية بالديمقراطيّة والتي أخضعت

المشاعر الأثنوقوميّة لنضال طبقيّ.

الرؤساء الأكراد الذين حكموا الجمهورية السورية الحديثة:



- 1 - محمد علي بيك القايد : حكم من (1932 إلى 1936).
- 2 - حسني الزعيم : حكم من (20 مارس 1949 . 14 أغسطس 1949).
- 3 - فوزي السلو : حكم من (1951 وحتى استلام الشيشكلي السلطة عمليا في 1953).
- 4 - أدب الشيشكلي : حكم من (24 فبراير 1954).

د. محمد الصويركي الكري

وثيقة: 2: الرؤساء الأكراد الذين حكموا جمهورية سوريا الحديثة

خاتمة

يعود تاريخ المسألة الكوردية في سورية الحديثة الى بدايات تشكيل الكيان السياسيّ باسم دولة سورية، وهي واحدة من المسائل التي لم تتمكّن الانظمة المتعاقبة من معالجتها، حيث يشكّل الكورد جزءاً أساسياً من النسيج السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ السوريّ، الأمر الذي لم تتقبله هذه الحكومات، وقد وجد الوعي القوميّ الكورديّ تعبيره الرّسميّ الأول بتسليم عريضة إلى المجلس التأسيسيّ السوريّ في حزيران/ وطالبه باستعمال اللّغة الكوردية في المناطق الكورديّ الثلاث [الجزيرة، كوباني، عفرين] وأيضاً تعيين وزراء حكومة أكراد في هذه المناطق الثلاث.

في نهاية عشرينيات القرن الماضي ظهرت الحركة القومية الكوردية في شكل جمعيات ونواد ثقافية واجتماعية ورياضية، وأكملت حركة خوبيون بلورة الفكر القوميّ الكورديّ

السياسي والثقافي.

الجدير بالذكر هنا المستوى الثقافي، إذ كان هناك تقسيم واضح بين الكورد في المناطق الحضرية والكورد في الحياة الريفية، حيث اندمج أكراد دمشق وحلب وحماه في الثقافة الحضرية العربية، وتبوأوا مناصب إدارية وعسكرية عالية، وكانوا سوريين أكثر من السوريين أنفسهم، ولم يقدموا شيئاً يذكر لبني جلدتهم، وهذه الحقيقة تؤكد أن أكراد سورية كانوا على درجة عالية من العلم والمعرفة والشهادات العليا، ما مكّنهم من تبوء المناصب العالية، والجدير بالذكر هنا أن هذا الأمر تغير بعدما وصل البعث إلى الحكم حيث لم يسمح بعدها لأي عنصر كوردي من الدخول في المؤسسات العسكرية والإدارية والقيادية، وعدّ الكورد مواطنين من الدرجة الثالثة.

أما أكراد الريف فكانوا أكثر ولاء لانتمائهم الكوردي القومي والقبلي والديني، وكانوا مشبعين بالحس القومي الكوردي الذي دفعهم إلى الوقوف مع القضايا الفكرية والسياسية واللغوية لأمتهم الكوردية. لم تتوقف الحكومة السورية من توجيه تهمة الانفصال للأكراد وأحزابهم على الرغم من الأحزاب الكوردية لم تكن تطالب بنشوء كيان مستقل، بل كان معظمهم يطالب بالاعتراف الدستوري بالوجود الكوردي كثاني أكبر قومية في البلاد وضمان حقوقهم الثقافية والسياسية.

لائحة المصادر والمراجع

كتب

11. الشرفاني، برهان نجم الدين. (2018). كوردستان خلال الانتداب الفرنسي، 1921-1946. سوريا: دار الزمان.
12. البحري، صالح. (1967). التاريخ الاجتماعي والسياسي للشرق الأوسط. بيروت: دار الفكر العربي.
13. بزبي، أحمد. (1966). التاريخ الحديث للمنطقة العربية. بيروت: دار النهضة العربية.
14. فنصة، بشير. (1996). النكبات والمغامرات: تاريخ ما أهمله التاريخ من أسرار الانقلابات العسكرية السورية. (1949-1958) دمشق: دار يعرب للدراسات والنشر والتوزيع.
15. فنصة، نذير. (1983). أيام حسني الزعيم: 137 يوماً هزت سوريا. بيروت: دار الأفق الجديدة.
16. زكي، محمد كرد علي. (1930). التاريخ السياسي للأكراد. دمشق: مطبعة الترقى.
17. زكريا، جورج. (1934). الأقليات في الشرق الأوسط. بيروت: دار العلوم.

18. سيد، عبد الرزاق. (2007). السياسة الخارجية للدول العربية. بيروت: دار الفكر المعاصر.
19. صفال، أحمد. (1952). دراسات في العلاقات الدولية. بيروت: دار الثقافة.
20. علي، عبد الرحمن. (1954). نشأة المجتمع الكوردي وتطوره. دمشق: دار النشر العربي.
21. الكوراني، أسعد. (2000). ذكريات وخواطر مما رأيت وسمعت وفصلت. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.
22. مراد، علي. (2013). الاقتصاد السياسي للشرق الأوسط. بيروت: دار النشر العربي.
23. ملا، إبراهيم. (1998). تحليل اقتصادي واجتماعي للأكراد. أربيل: دار النشر الأكاديمي.
24. ميراني، صلاح الدين. (2002). الأقليات في العراق: دراسة اجتماعية وتاريخية. بغداد: مركز الدراسات الكردية.
25. حصاف، إسماعيل. (2017). تاريخ كردستان سوريا المعاصر. أربيل: مطبعة جامعة صلاح الدين.
- 26. مقالات ومجلات**
27. أصلان، مصطفى. (1998). بقايا البيئة: التكوينات الاجتماعية التقليدية في ثلاث مدن كوردية: كاهتا، نورشين، قامشلي. ترجمة نوميذ روزباني، مراجعة عبد الفتاح علي بوتاني. مجلة دهوك، العدد 4.
28. عمر، رسول. (2007). الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية، العدد الثاني، آب/أغسطس.
- 29. رسائل جامعية**
30. سعيد، محمد. (2012). الانقلابات العسكرية في سوريا 1949-1969 [رسالة ماجستير]. جامعة اليرموك، دار الكتاب الثقافي.
- 31. مخطوطات وأبحاث غير منشورة**
32. رش. مخطوط بحوزة مؤلفه.
- 33. جرائد ومواقع إلكترونية**
34. جريدة التقدمي. (1994). الجريدة السرية للحزب الديمقراطي التقدمي الكوردي في سوريا.
35. جريدة السياسة. (1949، 7 يوليو). العدد 5841.
36. الجميل، صياح. (2007). مدخل لفهم الأقليات في الشرق الأوسط. متاح عبر الموقع الإلكتروني: www.sayyaaljamil.com.

المراجع الأجنبية

1. Syria: annual review for 1948, January 31, 1949, British national archives, Kew, London (Hereafter cited as ARO), FO 371\75527.

إطّالة تاريخيّة على أحوال الشّيعّة ونشأة مؤسّساتهم التّعليميّة

Ahistorical overview of the conditions of the Shiites and the emergence

of their educational institutions

بلال شمس

Bilal Shams

أ.د. خالد الكردي. مشرفاً رئيساً أ.د. محمد علي القوزي مشرفاً مشاركاً

تاريخ القبول 2024 /8/18

تاريخ الاستلام 2024 /8/1

ملخص الدّراسة

تناولت هذه الدّراسة تاريخ التّعليم الشّيعي في لبنان، مركّزة على تطوّر المؤسّسات التّعليميّة عند الطّائفة الشّيعيّة منذ نشأتها وحتى مطلع القرن العشرين. وأظهرت الدّراسة أن المدارس الدّينيّة، أو ما يعرف بـ«الحوزات»، لعبت دوراً محورياً في نشر العلوم الدّينيّة واللغة العربيّة بين الشّيعيّة. كما استعرضت الدّراسة تأثير التّحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة على التّعليم ومؤسّساته لدى الشّيعيّة، وكيف تمكّنت الطّائفة من الحفاظ على هويّتها وتعاليمها رغم التّحدّيات التي واجهتها. تناولت الدّراسة أيضاً دور الهجرة إلى العراق وإيران في تعزيز الرّوابط العلميّة ونشر المعرفة بين الشّيعيّة في لبنان والعالم الإسلاميّ. الكلمات المفتاحيّة: الحوزات، المدارس الدّينيّة، الهوية الدّينيّة، التّحوّلات السياسيّة، جبل عامل.

Abstract

This study explored the history of Shia education in Lebanon, focusing on the development of educational institutions within the Shia community from their inception to the early 20th century. The study revealed that religious schools, known as «hawzas,» played a pivotal role in spreading religious sciences and the Arabic language among Shias. The research also examined the impact of political and social transformations on Shia

education and how the community managed to preserve its identity and teachings despite numerous challenges. Furthermore, the study highlighted the role of migration to Iraq and Iran in strengthening scientific ties and spreading knowledge among Shias in Lebanon and the wider Islamic world.

Keywords:

Hawzas, Religious schools, Religious identity, Political transformations, Jabal Amel.

المقدمة

شهدت الطائفة الشيعية في لبنان تطوراً ملحوظاً في مؤسساتها التعليمية منذ نشأتها وحتى مطلع القرن العشرين. لعبت المدارس الدينية (الحوزات) دوراً محورياً في نشر العلوم والمعارف، وكانت مصدراً رئيسياً لتعليم العلوم الدينية واللغة العربية. ورغم التحديات السياسية والاقتصادية التي واجهتها، تمكنت الطائفة الشيعية من الحفاظ على هويتها وتعاليمها من خلال نظام تعليمي مستقل ومتميز. خلال العهد العثماني وما بعده، استمرت هذه المؤسسات في التطور والتأقلم مع الظروف المحيطة، مع التركيز على تنمية المجتمع الشيعي في لبنان. كيف أثرت التحولات السياسية والاجتماعية على التعليم ومؤسساته عند الشيعة في

لبنان عبر التاريخ؟

أهداف الدراسة

- تحليل التحولات السياسية والاجتماعية للشيعة في لبنان منذ العصور الوسطى وحتى العصر الحديث.
- دراسة تأثير هذه التحولات في التعليم ومؤسساته لدى الشيعة في لبنان عبر المراحل التاريخية المختلفة.
- تقييم دور المدارس الدينية (الحوزات) في نشر العلوم والمعارف وتعزيز الهوية الدينية لدى الشيعة.
- فهم التحديات التي واجهتها المؤسسات التعليمية الشيعية وكيفية التغلب عليها والاستمرار في تطوير التعليم.

أهمية الدراسة

- الإسهام في فهم أعمق لتاريخ التّعليم عند الشّيعيّة في لبنان وتطوره في ظل التّحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة.
- تسليط الضوء على الدور البارز للمدارس الدّينيّة (الحوزات) في تعزيز الهويّة الشّيعيّة والحفاظ على التعاليم الدّينيّة.
- تقديم معلومات دقيقة ومفصلة للباحثين والمختصين في مجال الدّراسات الإسلاميّة والتّاريخيّة حول دور التّعليم في الحفاظ على الهوية المذهبيّة والثّقافيّة.

منهجية الدراسة

المنهج التّاريخي: تحليل تاريخي للحقبات الزمنية المختلفة التي مرت بها الطائفة الشّيعيّة في لبنان منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث. والمنهج الوصفي: وصف وتحليل أوضاع التّعليم ومؤسساته لدى الشّيعيّة في لبنان عبر المراحل التّاريخيّة المختلفة.

أولاً: التّعريف بالشّيعيّة

أ. تعريف الشّيعيّة

الشّيعيّة هم الفرقة الإسلاميّة التي تميزت عن غيرها من الفرق الإسلاميّة الأخرى في أنها تمسكت بالنص على إمامة الإمام علي (ع) وأبنائه كخلفاء للنبي محمد (ص)، وأئمة الدّين. وهم يعتقدون بإمامة الأئمة الاثني عشر هم معصومون عن الكبائر والصغائر كالنّبي محمد (ص)، أولهم الإمام علي بن أبي طالب (ع) وآخرهم الإمام محمد بن الحسن (ع) الغائب عن الأنظار (حسب اعتقادهم) منذ ما يزيد عن ألف سنة وهو لا يزال حيّاً، وسيظهر في آخر الزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. والفارق الوحيد بين الإمام المعصوم (ع) والنّبي (ص) هو في كون الأخير يتلقى الوحي من الله، في حين أن الإمام لا يُوحى إليه، «وإنما يتلقى الأحكام منه (أي من النّبي) مع تسديد إلهي. فان النّبي مبلّغ عن الله، والإمام مبلّغ عن النّبي، والإمامة متسلسلة في اثني عشر كل سابق ينصّ على اللاحق،

ويشترطون أن يكون معصوماً كالنبي عن الخطأ والخطيئة وإلا زالت الثقة به»¹.

كما «يعتقدون أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرّسالة، ويؤيّد بالمعجزة... فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان عليه النبي أن يقوم بها»².

كلمة الشيعة أطلقت على «الذين شايعوا أمير المؤمنين علي (ع)، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً، وإن الإمامة لا تخرج من ولده»³.

وكلمة شيعة «من المشايعة وهي المطاوعة والمتابعة. وقد اخْتُص هذا اللفظ بمن تولى علياً وبنيه عليهم السلام، وأقرّ بإمامتهم، حتى صار (أي اللفظ) ينصرف إليهم إذا أُطلق عند الاستعمال من دون قرينة وإمارة»⁴.

إن ما يميز الشيعة عن غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى إيمانهم واعتقادهم بأصل ومبدأ الإمامة باعتبارها ركناً أساسياً من أركان الإسلام، وقد أحدثت هذه القضية (أي الإمامة ومعها الخلافة) اختلافاً وتبايناً بين الفرق الإسلامية وقسمها إلى قسمين رئيسيين، فالسنة يرون أن النبي (ص) ترك مسألة خلافته شورى بين المسلمين من دون نص أو وصية، بينما يرى الشيعة أن النبي (ص) قد نص وأكد. كما ورد أنفاً. على إمامة وولاية الإمام علي بن أبي طالب (ع) في أكثر من مقام.

ركزت أغلب المؤلفات والكتب التي تناولت التاريخ السياسي والاجتماعي والعلمي عند الشيعة في لبنان، على شيعة جنوب لبنان دون سواهم من مناطق الشيعة الأخرى، ربما لأن أكثرية الشيعة كانت تسكن هناك. وهذا ربما يكون عائداً لشهرة ونبوغ علمائهم ولعددتهم الكبير، ولأهمية آثارهم الفكرية والعلمية والدينية التي خدمت المذهب الشيعي على مر التاريخ، وهذا ما سنلحظه في سياق البحث.

لذلك يعد جبل عامل رمزاً للتشيع والشيعة في منطقة بلاد الشام عموماً، فهو يختزل

1 - محمد حسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط4، 1982، ص 58 . 59.

2 - محمد حسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، المصدر السابق، ص 58 .

3 - الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص 131، عن هاشم عثمان، تاريخ الشيعة في ساحل بلاد الشام الشمالي، مؤسسة الأعلمي للطبوعات، بيروت، ط1، 1994، ص 17 .

4 - محمد حسين المظفر، تاريخ الشيعة، دار الزهراء، بيروت، ط 1/ 1985، ص 13 .

تاريخهم، ويختزن معظم همومهم وتطلعاتهم. وفي زمن سابق كان مركزاً هاماً من مراكز التعليم الديني عند الشيعة. «يؤمه الطلاب من كل فوج وصوب. ولم ينقطع فيه مدد العلم ولا خبا نوره، إلا في حقب قصيرة كانت تعقب الحروب والفتن، التي يرافقها التدمير والخراب، وإقفال المدارس وتعطيل معاهد التدريس. وكانت هذه المدارس أشبه بالكليات منها بالمدارس العادية»¹.

ب التعليم والمؤسسات التعليمية عند الشيعة تاريخياً

كيف بدأت مسيرة إنشاء المدارس ومؤسسات التعليم عند الشيعة في عصورهم الأولى، وكيف كانت أوضاعهم السياسية والاجتماعية خلالها؟

هذا ما سنتعرض له في هذا الفصل، ونظراً للعلاقة الوثيقة التي ربطت بين شيعة لبنان والعراق وإيران، وهجرة اللبنانيين الشيعة إلى الحوزات والمدارس الدينية هناك، سنتطرق هنا لظروف إنشاء هذه الحوزات التي درس وتخرج منها طلاب العلوم الدينية اللبنانيون، ليعودوا بعد فترة إلى بلادهم، وليؤسسوا بعد عودتهم حوزات مشابهة لها. فكيف كانت ظروف وأهداف نشأة هذه الحوزات وما هي أبرزها؟

منذ العصور الإسلامية الأولى سعى الشيعة إلى تأسيس مؤسسات التعليم الخاصة بهم، التي تهدف إلى تعليم أحاديث وعلوم الرسول (ص) وأهل بيته المعصومين (ع)، فهم وجدوا أن الكتابات كمؤسسات تعليم أولي لدى المسلمين لا تتناسب مع رؤيتهم وعقيدتهم ولا تتوافر فيها المواصفات المطلوبة لتربية وتعليم أبنائهم، لأن هذه الكتابات لا تعلم فضائل الإمام علي (ع) إنما تعلم فضائل غيره كعثمان بن عفان ومعاوية، لهذا نصح الأئمة أتباعهم بتجنب هذه الأمكنة التي تغفل ذكر فضائل أهل البيت (ع)².

وكان تدريس علوم وفضائل أهل البيت (ع) يشكل خطراً بالنسبة إلى بعض الحكام المسلمين، لأنه يشكك بشرعية سلطتهم. كما أنه لا يعترف من ناحية ثانية بالمذاهب الإسلامية الأخرى. وهذا ما يفسر أن أهل السنة لم يكونوا ينظرون غالباً بعين الرضا إلى علوم أهل البيت (ع) وتدرسيها، وكانوا يهتمون الفقهاء الشيعة بأنهم يُعلمون ما يسمونه بـ البدع. «ولم ينفرد السلطان بمضايقة الشيعة، بل إن طائفة من علماء أهل السنة أسهمت في تأييد إجراءات السلطان في

1 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 231 . 232 .

2 - راجع عبد الله فياض، تاريخ التربية عند الإمامية، المصدر السابق، ص 65 .

هذا الصدد والإسهام فيها ... وكان رد الفعل من جانب الأئمة والإمامية وأسلافهم معاً أن لجأوا إلى التستر وعدم البوح في الغالب بعلومهم أمام من يخالفهم في العقيدة وأمام من له صلة بالسلطان»¹، وأنشأوا مؤسساتهم الخاصة والمستقلة حيث كان يجري التدريس في مراد الأئمة والمساجد والكتاتيب والمنازل.

عمل كل من الأيوبيين والمماليك والعثمانيين على إنشاء المدارس في مصر والعراق لمحاصرة المذهب الشيعي. «وكان من الطبيعي أن يجد الطلاب الشيعة صعوبة في الانخراط بهذه المدارس، لعزوف علماء السنة عن تعليم علوم أهل البيت(ع). لذا كانت الحوزات العلمية ضرورة تربوية وفكرية من أجل الحفاظ على التراث الشيعي العلمي والفقهي، ومن أجل إمداد أبنائه بالمقومات الفكرية والدينية، الكفيلة لاستمراريتهم في مواجهة المدارس الفقهية الرسمية لدى السنة، والتي كانت ترعاها السلطات الموجودة آنذاك»².

الضغوط التي مورست على الشيعة دفعتهم إلى التستر وإخفاء عقائدهم، ولجأوا إلى مقامات وأضرحة الأئمة(ع) وأقاموا فيها حلقات تدريس، لأن هذه المقامات تتصف بالقدسية، ولم يكن من السهولة الاعتداء عليهم داخلها، وإن كانت قد تعرضت في بعض المراحل لأعمال تخريب وهدم. يأتي مقام الإمام علي(ع) في النجف الأشرف في العراق كواحد من أوائل المقامات التي اتخذها الشيعة كأماكن للتعليم والتدريس، إضافة إلى مرقد المعصومة (أخت الإمام علي الرضا(ع)) في مدينة قم الإيرانية.

كانت هذه المراد تجذب إليها المعلمين والطلاب، ويستأنس الشيعة بالسكن والتدريس بقربها، إضافة إلى كونها تضم مساجد، كل هذا ساعد على تحولها إلى مراكز للعلم والتعليم، وأضحى أمكنة لإقامة وسكن العلماء، فأقاموا حلقات التدريس فيها، ثم تحولت مع الوقت إلى مدارس مستقلة قائمة بذاتها.

ويعد عهد الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق(عليهما السلام) من أكثر عهود أئمة الشيعة التي انتشرت فيها علومهم وعقيدتهم وأفكارهم وآراءهم، حيث كان عصرهما مؤاتياً من الناحيتين السياسية والثقافية لتأسيس وإطلاق قواعد المذهب الشيعي. ففي عصر الإمام الصادق(ع) انتقلت السلطة من الأمويين إلى العباسيين، وفيه تراجعت الرقابة على الشيعة عموماً، الأمر

1 - عبد الله فياض، تاريخ التربية عند الإمامية، المصدر السابق، ص 55

2 - انتصار خشيش، الحوزات العلمية في جبل عامل، جباع وجزين، رسالة دبلوم غير منشورة، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، 1987، ص 40

الذي أتاح لهم التحرك لنشر علومهم. فانتشرت خلاله معظم العلوم الإسلامية من فقه وحديث، كما ظهر خلاله أيضًا علم الكلام. استغل الإمام الصادق (ع) هذه الفرصة المتاحة لتركيـز مبادئ المذهب، وللدفاع عنه أمام الفرق والتيارات الأخرى المخالفة. ومن المسلم به عند المسلمين بمختلف مذاهبهم، أن كبار أئمة المذاهب الإسلامية درس عند الإمام الصادق (ع)، كأبي حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي، ومالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي، وغيرهما الكثير من العلماء والفقهاء، وحتى في الميادين العلمية كالطب والفلك والحساب وغير ذلك.... حتى ورد في بعض المصادر التاريخية أن ما يقرب من تسعمائة محدثٍ وفقهه وعالم ومجتهد كان يحضر دروس الإمام الصادق (ع) في المدينة.

بلغ النشاط التعليمي للشيعة ذروته في القرن الرابع للهجرة والنصف الأول من القرن الخامس، ولعل انشغال الخلفاء العباسيين وعلماء أهل السنة في المشكلات التي ظهرت مع ظهور المعتزلة، وضعف الخلفاء العباسيين في أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع للهجرة، كانا من العوامل المساعدة على تسهيل مهمة نشر المذهب الشيعي وتعاليمه. كما أن قيام الدولة البويهية في العراق وإيران التي تبنّت المذهب الشيعي، سهل الحركة، فعمل علماء الشيعة كالشيخ الصدوق والمفيد والشريفين الرضي والمرتضي والشيخ الطوسي (الملقب بـ شيخ الطائفة) على تحقيق هذه المهمة، واستغلوا الحرية التي أتاحها ووفرها العهد البويهي للشيعة أحسن استغلال¹.

ج . ظروف إنشاء المدارس الدينية (الحوزات)

أطلق الشيعة على المدرسة التي تعنى بدراسة العلوم الدينية عامة وعلم الفقه وأصوله خاصة تسمية «حوزة». فصارت كلمة المدرسة أو الحوزة تستعملان كأنهما واحدة. «كلمة الحوزة مشتقة من فعل حاز، وحاز الشيء حيازة واحتيازًا، إذا ضمه وجمعه، أو إذا حصل عليه... فالحوزة إذًا بمفهومها اللغوي العام هي المكان المحدد... وأصبح مصطلحًا للمدارس الدينية»². وتعني الحوزة العلمية كمصطلح، مركز التعليم الديني الذي يتم فيه التدريس على شكل حلقات³.

- 1 - راجع عبد الله فياض، تاريخ التربية عند الإمامية، مصدر سابق، ص 150 . 151 .
- 2 - الحوزة العلمية في فكر الإمام الخامنئي، سلسلة بحوث تخصصية، معهد الرسول الكرم العالي للشريعة والدراسات الإسلامية، بيروت، الطبعة 1، 2002، ص 18 .
- 3 - راجع عبد الهادي الفضلي، تجربتي مع التعليم الحوزوي، مجلة الجامعة الإسلامية، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، لندن، العدد الأول، 1994، ص 194 .

ظهرت المدرسة عند الشيعة بمعناها المعروف في القرن الخامس الهجري في مدينة النجف في العراق على يدي الشيخ الطوسي، وهو أحد أبرز علماء الشيعة الملقب بـ «شيخ الطائفة». شكّلت الحوزة كمدرسة دينية عند الشيعة بديلاً عن المدارس الدينية الإسلامية الأخرى التي كانت تُقام برعاية السلطات التي تتبع مذاهب أهل السنة، وتُخصّص لها الأموال والأوقاف والأراضي، وكافة التسهيلات. ويأتي اهتمام الشيعة بإنشاء مدارسهم الدينية الخاصة منذ ذلك الوقت كجزء من مسعى لـ «الإبقاء على نشاط فكري وفقهي شيعي، يواجه محاولات الإقصاء والتهميش»¹. لذلك كان لابد للشيعة من إيجاد بديل عن هذه المدارس، يكون بمثابة مرحلة متقدمة عن التعليم السائد في الكتاتيب، وحلقات العلم في المساجد للصغار.

تمتعت الحوزة عند الشيعة منذ نشأتها باستقلاليتها، فهي منذ وُجدت كانت منفصلة إدارياً وتنظيمياً ومالياً عن إرادة السلطات والحكام و نفوذهم. فتمويلها يكون غالباً من خلال الحقوق الشرعية كالخمس والزكاة والصدقات والندورات والكفارات وغيرها. أما إدارتها فهي من صلاحيات مرجع التقليد عند الشيعة الذي هو رأس الهرم فيها، ويشرف على إدارتها وتنظيمها بمعاونة مجموعة من طلابه.

د - مراحل الدراسة في المدارس الدينية (الحوزات)

تتوزع الدراسة في معظم الحوزات الشيعية على وجه العموم، على ثلاث مراحل أساسية، لا تزال معتمدة حتى اليوم، ولم يطرأ عليها أي تعديل، وهي:

أ. مرحلة المقدمات: في هذه المرحلة الأولى، تُدرّس العلوم التي تعتبر مقدمة للتخصص في الفقه، وهي تتضمن دراسة الفقه، والنحو، والصرف، وعلوم البلاغة، والمنطق، والفلسفة، وعلم الكلام.

ب. مرحلة السطوح: يُدرّس فيها علم أصول الفقه بمستوى من العرض والاستدلال، إضافة إلى علم الفقه، ومن ينتهي منها يطلق عليه لقب «حجة الإسلام والمسلمين»

ج. مرحلة البحث الخارج: سُميت هذه المرحلة بهذا الاسم، لأنّ الدرس يكون فيها دون الاعتماد على كتاب معين (أي خارج الكتاب). بل اعتماداً على طريقة المحاضرة فقط.

1 - حسن نظام فضل الله/ التربية والتعليم عند الشيعة في جبل عامل، رسالة ماجستير في التربية غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1999، ص 39 .

في هذه المرحلة يتم تدريس أصول الفقه والفقه أيضاً، ولكن على مستوى الاستدلال فقط¹. والطلاب الذين يتجاوزون هذه المرحلة (وهم عادة قليلو العدد) ينالون إجازة علمية من أستاذهم (الذي يكون عادة من مراجع التقليد عند الشيعة) هي بمثابة شهادة تخرج من الحوزة تخوّل الواحد منهم أن يفتي في الأمور الشرعية والفقهية، وأن يعمل برأيه الخاص في هذا المجال. حيث يكون قد بلغ مرتبة الاجتهاد ويطلق عليه لقب «مجتهد أو فقيه أو آية الله»، وهي مرتبة علمية تُطلق على من بلغ مرحلة من العلم والتعلم أصبح قادراً معها على استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الأصلية، وهي عند الشيعة القرآن الكريم، وسنة النبي (ص) والأئمة (ع). بينما المرجع الذي يقلده عامة الناس يطلق عليه لقب «آية الله العظمى».

هـ . أشهر المدارس الدينية

أسس الشيعة في العراق وإيران عدداً من المدارس أو الحوزات، نشير إلى أبرزها وهي:

1 . مدرسة (حوزة) النجف

كانت حوزة النجف ولمدة تصل إلى تسعة قرون ونصف تقريباً أي حتى السبعينيات من القرن العشرين تعتبر أعرق الحوزات والمعاهد الدينية عند الشيعة ومركزاً للمرجعية ومصنفاً للفقه والفتاوى. فهي تقع قرب مقام الإمام علي (ع) وخرّجت عشرات الألوف من العلماء². ولكن قيام نظام صدام حسين البائد في العراق، أدى إلى إفراغ هذه الحوزة من المراجع والعلماء وطلبة العلوم الدينية، بعد أن قضى على عدد كبير منهم، ووضع البعض الآخر تحت الإقامة الجبرية، وأجبر آخرين على الهجرة والرحيل. فانتشروا في مختلف دول العالم، وكان لإيران وحوزة قم فيها النصيب الأوفر منهم، لا سيما بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وسيطرة الشيعة على الحكم فيها.

هذه العوامل مجتمعة أدت إلى تعاظم دور حوزة قم، وأن تلعب دوراً مشابهاً للدور السابق لحوزة النجف على صعيد الدراسة، فتحوّلت إلى مركز للمرجعية الدينية عند الشيعة، خصوصاً قبل رحيل الإمام الخميني (ع³).

وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ نشأة مدرسة النجف، لكن معظم علماء ومؤرخي الشيعة يرى أنها تأسست على يد الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت460هـ). ومنهم

1 - راجع انتصار خشيش، الحوزات العلمية في جبل عامل، مصدر سابق، ص195 . 196 .

2 - راجع زهير هوارى، جريدة السفير اللبنانية، 14 . 8 . 2003 .

من يرجعها إلى الشيخ المفيد (أستاذ الشيخ الطوسي، توفي عام 431هـ)¹.

لكن الثابت أنّ الشيخ الطوسي هاجر من بغداد إلى النجف، إثر اعتداءات وفتنة طائفية أثارها المغول بعد دخولهم العراق واستيلائهم على بغداد (سنة 1258م) كان لها انعكاسات سيئة على أوضاع الشيعة، مآدى إلى اضطراب أوضاع الدراسة في حوزة النجف²، فتعرض منزل الشيخ الطوسي للتخريب، وأحرقت مكتبته. منذ ذلك الوقت شهدت النجف مراحل عدة كانت تزدهر فيها حيناً وتراجع في أحيان أخرى، وبكل الأحوال لسنا هنا في معرض يتيح لنا التعرض لهذه المراحل والظروف والملابسات بالتفصيل.

إضافة إلى مدرسة النجف في العراق، أسس الشيعة مدارس أخرى عديدة، شبيهة بمدرسة النجف إلى حد بعيد لناحية مراحل الدراسة وطريقة التدريس. سنتعرض باختصار لمدرسة قم في إيران التي هي الأخرى صرحاً علمياً كبيراً ولها شهرتها أيضاً.

2. المدرسة الدينيّة في مدينة قم

شكّل الضغط الشديد الذي كان يلاقه فقهاء الشيعة وعلماؤهم وطلبة العلوم الدينيّة من قبل العباسيين في العراق، سبباً رئيسياً لانتقال معظم علماء وطلاب هذه المدرسة من العراق إلى إيران. وقد تأسست في الربع الأول من القرن الرابع للهجرة حتى النصف الأول من القرن الخامس³. وقد وجد علماء الشيعة في بلدة قم مكاناً آمناً يطمنون فيه على حياتهم من القتل والتشرد. حيث وردت روايات عن بعض أئمة الشيعة، تشير إلى أن مدينة قم وساكنيها سيكونان مستقبلاً بمأمن من البلايا⁴. «إلا أنّ هذه الحوزة عرفت فترات أوج وركود، ثم تجددت ونهضت بفضل مساعي الشيخ عبد الكريم الحائري (1276. 1355 هـ) الذي اعتنى بالحوزة وطلابها عناية فائقة»⁵. وبرز في هذه المدرسة فقهاء ومحدثين كبار ولامعين، مثل الشيخ يعقوب الكليني، المتوفى 329هـ، صاحب كتاب «الكافي» الذي يُعد أول محاولة من نوعها

- 1 - راجع انتصار خشيش، الحوزات العلمية في جبل عامل، مصدر سابق، ص 49 .
- 2 - راجع نقولا زيادة، مقال حول المدرسة اللبنانية نشر في كتاب «أبعاد القومية اللبنانية»، جامعة الروح القدس، بيروت 1970، ص 67 .
- 3 - راجع محمد بن جمال الدين مكي العاملي، اللعة دمشقية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1403هـ، ص 26 .
- 4 - راجع محمد بن جمال الدين مكي العاملي، اللعة دمشقية، المصدر السابق، ص 42 . 43 .
- 5 - الحوزة العلمية في فكر الإمام الخامنئي، سلسلة بحوث تخصصية، معهد الرسول الكرم العالي للشريعة والدراسات الإسلامية، بيروت، الطبعة 1، 2002، ص 22 .

لجمع الحديث، وتبويبه، وتنظيم أبواب الفقه والأصول. كما يُعد أحد الكتب الأربعة المعتمدة لدى الشيعة في مجال الحديث، وهي: «من لا يحضره الفقيه»، «التهذيب»، «الاستبصار»¹.

3. مدرسة بغداد

ظهرت مدرسة بغداد بعد النصف الأول من القرن الخامس للهجرة واستمرت حتى احتلال بغداد وسقوطها بيد المغول²، ويعود الفضل في نشأة هذه المدرسة إلى مدرسة قم في إيران، فبعد أن تكاملت مدرسة قم، استفادت مدرسة بغداد منها، وظهرت ملامح الاستقلال عليها، وتبلورت أصولها وقواعدها³. ومن أشهر علمائها أيضاً الشيخ الطوسي، الذي كان يحضر درسه ثلاثمائة مجتهد تقريباً. ومن علمائها أيضاً أستاذه الشيخ المفيد⁴.

تكمن أهمية هذه المدارس الدينية أو الحوزات باعتبارها تشكل المنبع الأصيل للعلوم الإسلامية عند الشيعة، وستكون برامجها ومناهجها وطريقة تنظيمها وأساليب تدريسها وآلية منح الدرجات العلمية فيها، القاعدة والأساس والمعول عليه لدى الحوزات التي ستنشأ في مناطق شيعية أخرى من العالم ومنها لبنان أيضاً.

ثانياً: التعليم عند الشيعة في لبنان في العهد العثماني

بعد العرض التاريخي للأوضاع السياسية والاجتماعية للشيعة في لبنان، سنتعرف في هذا الفصل على التعليم والمؤسسات التعليمية خلال عهد العثمانيين.

أ. أبرز أمكنة التعليم

أقام شيعة لبنان عدة مؤسسات كالمدارس والكتاتيب وبيوت العلماء، ونظموا عملية التعليم عندهم وفق أشكال متنوعة، سنتوقف عند هذه الكتاتيب وبيوت العلماء أولاً، ثم نأتي للحديث عن أبرز المدارس والحوزات العلمية.

1. الكتاتيب

لم تحظ الكتاتيب بالاهتمام الكافي من قبل المؤرخين، لأنها تعتبر بمثابة محطة أولية في التعليم لا تختلف عما يتعلمه سائر المسلمين، فهي «لا تمثل حالة خاصة بالشيعة أو بجبل

- 1 - محمد بن جمال الدين مكي العاملي، اللعة الدمشقية، المصدر السابق، ص 46 .
- 2 - راجع محمد بن جمال الدين مكي العاملي، اللعة الدمشقية، المصدر السابق، ص 26 .
- 3 - راجع انتصار خشيش، الحوزات العلمية في جبل عامل، مصدر سابق، ص 61 .
- 4 - راجع انتصار خشيش، الحوزات العلمية في جبل عامل، مصدر سابق، ص 52 .

عامل. إذ ليس هناك خلاف في مناهج الكتاتيب الشيعية مع مناهج المذاهب الأخرى من المسلمين. فالتعليم في الكتاب مختص بالقراءة والكتابة، ومنها قراءة القرآن الكريم وحفظه وكتابة آياته. وكذلك الأمر بالنسبة للغة العربية التي يتعلمها الصبي المسلم، وهي واحدة لا يشكل الاختلاف فيها اختلافاً دينياً أو مذهبياً. أما ما تفرق فيه المذاهب الإسلامية في التعليم فهو ما يتصل بالعقائد والتاريخ والتفسير والفقه، وهذا ما لا يتعلمه الولد في الكتاب، باستثناء ما يرد من ذكر فضائل رموز المسلمين، فيهتم الشيعة بالنبي (ص) والأئمة (ع)¹. ولكن رغم ذلك فإن الشيعة في لبنان أنشأوا كتاتيب خاصة بهم، وابتعدوا عن الكتاتيب العامة التي تمولها وتنشئها السلطات القائمة².

تم إنشاء الكتاتيب لتعليم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة وأوليات المعرفة العمومية، إضافة إلى حفظ بعض السور من القرآن الكريم. وكان شكل الكتاب «في غالب الأحيان عبارة عن غرفة صغيرة في المسجد أو في بيت المعلم، حيث يتربع الطلاب على الحصير أو على جلود المواشي. وتمتد فترة الدراسة من ثلاث إلى أربع سنوات، يُعلن بعدها تخرج الطالب وختمه للقرآن»³. وكانت البساطة طابعاً مميزاً للكتاب فهو «يتألف عادة من غرفة وفسحة دار. وإنشاء الكتاب لا يتطلب سوى الشيخ أو الشیخة على الأغلب، زادهما حفظ القرآن الكريم والمأم بالخط. وتبدأ الدراسة في سن الخامسة أو بعدها، ورفيق الطالب فيها لوح للكتابة وجزء من القرآن الكريم. يفتح التلقين بالتهجئة وينتهي بالقراءة السريعة»⁴.

ومن التقاليد التي كانت شائعة يومها أن يُقدم الصبي لشيخه مكافأة إذا حفظ بعض السور القرآنية، «ثم يختم الطالب بحفلة بهيجة يشترك فيها الشيخ والزملاء الطلاب، يرافقه من دار الكتاب إلى منزل والديه وسط الأناشيد الدينية»⁵.

ومن المشهور أنّ نمط التعليم في الكتاتيب كان معتمداً حتى نهاية العهد العثماني، ولم يبدأ تنظيمه فعلياً إلا بموجب نظام المعارف الذي صدر عام 1869م، ورغم ذلك فإنّ الكتاتيب لم تندثر حتى فترة متأخرة نسبياً عن هذا التاريخ⁶.

- 1 - حسن فضل الله، التربية والتعليم عند الشيعة في جبل عامل، مصدر سابق، ص 35 .
- 2 - راجع حسن فضل الله، التربية والتعليم عند الشيعة في جبل عامل، مصدر سابق، ص 36 .
- 3 - طلال عتريسي، البعثات اليسوعية ومهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان/ مصدر سابق، ص 52.
- 4 - حسن نصر الله، تاريخ بعلبك، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط1، 1984، الجزء الثاني، ص 714 .
- 5 - حسن نصر الله، تاريخ بعلبك، المصدر السابق، ص 714 .
- 6 - راجع طلال عتريسي، البعثات اليسوعية، مصدر سابق، ص 52 .

وكان للكتاب أهمية بارزة في هذه المرحلة، فهو «لعب الدور الرئيس في محو الأمية يوم غابت المدارس النظامية، واستمر وجوده حتى منتصف القرن العشرين. والكتاتيب كافتحت في العهد التركي حيث غلب الجهل وتراجعت المدرسة النورية لأسباب سياسية ومذهبية وغدت المعارف تقتبس من مصدر واحد هو الكتاب»¹.

ليس ثمة معلومات حول أعداد هذه الكتاتيب وانتشارها، أو بالأحرى لم أعثر خلال البحث على معلومات تشير إلى أعداد هذه الكتاتيب وإلى كيفية انتشارها وتوزعها على القرى والمدن والأرياف. وفي هذا الإطار يقول السيد محسن الأمين في كتابه (خطط جبل عامل) إنه «أنشئت في جبل عامل مدارس عصرية وكتاتيب، بعضها أهلية وبعضها على نفقة الحكومة»². لكن السيد الأمين يكتفي بهذا النص فقط كما ورد، ولا يشير إلى عدد هذه المدارس والكتاتيب. وإن كانت معظم القرى التي قطنها المسلمون في لبنان قد عرفت الكتاب كما هو شائع، كما هي حال ما كان يطلق عليه اسم «مدرسة تحت السنديانة» في القرى المسيحية. وكان في كل قرية أو عدة قرى صغيرة متجاورة كتاب، حيث يقوم أحد كبار السن فيها بتعليم الأولاد في غرفة أو غرفتين، يعمل الأهالي على ترتيبها وتجهيزها بما تيسر من مستلزمات بسيطة. يكون للمعلم مطلق الصلاحية في أمور تعليمهم وتربيتهم، فهو يقوم بأدوار متعددة، ويختزل أدوار الهيئتين التعليمية والإدارية في أيامنا. وله وحده صلاحية وضع النظام المناسب وتنفيذه، وهو المدير والناظر والأستاذ والأمر الناهي. وثمة من اشتهر بهذا النوع من التعليم³.

2 . بيوت المعلمين والعلماء

عرف الشيعة إلى جانب التعليم في الكتاتيب نوعاً آخر من التعليم كان يجري في بيوت المعلمين ومنازل العلماء، حيث يُخصص المعلم في منزله إحدى الغرف ويتخذها مجلساً للدرس والتدريس، يكون مخصصاً في الغالب للطلاب في مرحلة تعليمية متقدمة عن مرحلة الكتاب.

وجرت العادة على أنه عندما يلعب أو يبرز اسم معلم ما، فإنه سرعان ما يجتمع حوله عدد من الطلبة، يقصدونه لتلقي أنواع محددة من العلم كالفقه واللغة وما شابه ذلك. وأحياناً يتحول

1 - حسن نصر الله، تاريخ بعلبك، المصدر السابق/ ص 714 .

2 - محسن الأمين، خطط جبل عامل، مصدر سابق، ص 186 .

3 - راجع حسن نصر الله، تاريخ بعلبك، مصدر سابق، ص 714 . 715 .

المنزل إلى مدرسة تقدم دورة كاملة من العلوم، ويكون ارتباطها بالمعلم مباشرةً وتبعاً لقدرته على الاستمرار في إلقاء الدروس على طلبته.

وقد استدعت الدراسة في بيوت العلماء تخصيص أماكن محددة للدرس، «إذ كان إنشاء البيت يراعي وجود قاعة فسيحة، يستقبل فيها العالم زواره، ويلقي فيها درسه على طلابه، المحليين أو الوافدين من الخارج. وعدد الطلاب ينقص أو يزيد حسب شخصية الأستاذ وشهرته العلمية وإمكانياته المادية، إذ كان العالم يصرف على طلابه أمور معاشهم، مما يتوفر لديه من أموال الخمس والتبرعات والهبات، وكان أول من يبتدئ بالدراسة في المنزل أبناء العلماء أنفسهم»¹.

ويعود اعتماد الشيعة على هذا الشكل من التعليم بالدرجة الأولى إلى الأوضاع السياسيّة والظروف المتوترة التي كانت تحيط بهم وبحركتهم. «والغالب أن العوامل السياسيّة كانت تمنع من الدراسة بالصورة الظاهرة، فكان الأبناء يتلقون عن الآباء تحت طي الخفاء»². إضافة إلى العوامل السياسيّة، فإن العامل الاقتصادي كان له دوره أيضاً، إذ لم يكن بمقدور الشيعة في تلك العصور إقامة مدارس مستقلة وخاصة بهم. فكان الولد يتلقى تعليمه على يدي والده، أو أخيه الذي يكبره سناً أو أحد أقاربه، وغالباً ما كان طلاب آخرون يلتحقون بهذا الدرس في مرحلة لاحقة.

وعندما تتوفر مجموعة من الطلاب ويتلقون العلم على يدي أحد المعلمين، فإنهم وعند انتهاء مرحلة معينة يتعلمون خلالها بعض المعارف والعلوم الدنيوية الأولية، ينتقلون إلى مرحلة جديدة، فإما أن يستمروا مع المعلم نفسه، أو يتولى أمر تدريسهم معلم آخر.

تجدر الإشارة إلى أن هذه الطريقة في التدريس ترتبط ارتباطاً مباشراً بشخصية المعلم، إذ يعد هو المنهج، فيدرّس طلابه ما يراه مناسباً لهم ويكون متلائماً مع إمكانياته من جهة وقدرات طلابه من جهة أخرى³. وليس ثمة معلومات وافية عن هذا النمط من التعليم في لبنان، لجهة عدد المعلمين وأسمائهم.

1 - حسن فضل الله، التربية والتعليم عند الشيعة في جبل عامل، مصدر سابق، ص 36 .

2 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 234 .

3 - راجع حسن فضل الله، التربية والتعليم عند الشيعة في جبل عامل، مصدر سابق، ص 37 .

ب . النهضة العلمية عند الشيعة في لبنان وارتباطها بالهجرة إلى العراق وإيران

رغم كل ما مرّ على أبناء الطائفة الشيعية في لبنان من ظروف قاسية، فقد شهد الشيعة في هذه المنطقة ولفترات تاريخية طويلة إلى حد ما، نهضة علمية بارزة.

ارتبطت انطلاقاً هذه النهضة العلمية ارتباطاً مباشراً بحركة الهجرة التي قام بها رعييل من طلاب العلوم الدينية باتجاه العراق وإيران لتلقي العلم، وإليهم يعود الفضل في حصول تلك النهضة بعد عودتهم وتحصيلهم للعلوم الدينية. ومن المفيد أن نشير بلمحة سريعة إلى حركة الهجرة هذه، وآثارها العلمية وانعكاساتها على صعيد العلم والمعرفة، بين شيعة لبنان والعراق وإيران. فكيف ولماذا وفي أي ظروف تمت هذه الهجرة؟

أدت هجرة بعض الطلبة اللبنانيين نحو العراق وإيران لطلب العلم إلى بناء جسر صلة مع المدارس والحوزات والمراكز العلمية الشيعية هناك. هذه الهجرة مثّلت مقدمة ضرورية، ونقطة نوعية كان لها أثر مهم في تاريخ الشيعة اللبنانيين على أكثر من مستوى. إذ لولا هؤلاء العلماء واتصالهم بالمراكز العلمية في العراق، لما كان من الممكن أن تحصل نهضة علمية شيعية في ذلك الوقت.

فقد هاجر عدد كبير من أبناء جبل عامل إلى العراق طلباً للعلم، بسبب ظروف التتكيل والاضطهاد الذي طال علماءه، لأسباب سياسية ومذهبية، بلغ عددهم نحو سبعين عالماً في فترة واحدة¹. كما هاجر علماء آخرون إلى إيران ولهم يعود الفضل في تشييع إيران وفي تأسيس حوزة أصفهان.

حصلت هذه الهجرة إلى إيران بحثاً عن الطمأنينة وهرباً من الاضطهاد من جهة، وإلى العراق طلباً للمعرفة من يبايعها من جهة أخرى. تكتفت الهجرة إلى إيران بعد أن تبنّى الشاه إسماعيل الصفوي المذهب الشيعي، واعتمده مذهباً رسمياً للدولة، فوجد أنه لا بد له من توفير عدد من علماء المذهب يُعلّمون الناس مبادئه وأحكامه. وكان وجود العلماء نادراً في تلك الفترة هناك، لذلك استقدم الصفويون عدداً من كبار العلماء الشيعة من لبنان والعراق.

من أشهر هؤلاء الشيخ علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي (المعروف بالمحقق الكركي نسبة إلى بلدة الكرك البقاعية توفي عام 1535م) الذي فوض إليه (الشاه الصفوي

1 - راجع محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 137 .

طهماسب) منصب شيخ الإسلام في الدولة الصفوية، وهو منصب يوازي منصب المفتي في هذا العصر. وترأس مجلس العلماء فيها، وأسس الحوزة العلمية في أصفهان، وترك أكثر من أربعين كتاباً¹.

ومن العلماء اللبنانيين المشهورين الذين انتقلوا إلى إيران وعاشوا فيها، الشيخ بهاء الدين العاملي، المشهور باسم الشيخ البهائي (1546 . 1622) وتولى أيضاً مشيخة الإسلام في عهد الشاه عباس في أصفهان، وكان فيلسوفاً وفتياً ورياضياً ومهندساً. ترك في إيران عدداً من المنجزات العلمية المذهلة من خلال استخدام الطاقة الحرارية²، ومن العلماء أيضاً الشيخ محمد بن الحسن الملقب بـ «الحر العاملي» صاحب كتاب «أمل الآمل في علماء جبل عامل» (توفي 1104هـ/ 1692م)، والشيخ حسين بن عبد الصمد (والد الشيخ البهائي توفي سنة 1576م).

والسؤال المطروح هو متى بدأت هذه الهجرة؟

حول بدايات الهجرة، يقال إن إسماعيل بن الحسين العودي الجزيني (توفي في العام 1184م)، هو أول رجل خرج من جبل عامل طلباً للعلم في العراق³. وبعد ما يزيد على القرن ونصف، انتقل طومان بن أحمد المناري (نسبة إلى قرية المنارة التي تقع اليوم في فلسطين المحتلة توفي في العام 1327م)، إلى إيران فدرس في الحلة، وكان أول فقيه عاملي ينال رتبة الاجتهاد، ويفتح حركة التدريس في جبل عامل⁴. وكان الشهيد الأول (محمد بن مكي الجزيني 1333 . 1384م)، الذي يُعد أبرز علماء جبل عامل، قد توجه أيضاً إلى العراق لطلب العلم، وتنتقل بين الحلة وبغداد ودمشق ومكة والمدينة، وتردد على العلماء والفقهاء من المذاهب المختلفة. وحاز على إجازات من كبار الفقهاء في ذلك العصر، وعاد إلى قريته جزين، ليبدأ نشاطاً فكرياً امتد إلى خارج بلدته، التي أنشأ فيها أول مدرسة علمية سنة 1370هـ، إثر غزو المغول لبغداد، وتخريب مدارسها وحرق مكنتاتها⁵. «ولم تأت نهاية القرن

1 - يوسف مروة، دور علماء جبل عامل في بناء الفكر الفقهي والفلسفي والعلمي المعاصر، مجلة نور الإسلام، بيروت، العددان 49 . 50، 1994، ص 20 .

2 - يوسف مروة، دور علماء جبل عامل في بناء الفكر الفقهي والفلسفي والعلمي المعاصر، المصدر السابق، ص 20 . 21 .

3 - راجع جعفر المهاجر، ستة فقهاء أبطال، مصدر سابق، ص 31 .

4 - راجع جعفر المهاجر، ستة فقهاء أبطال، مصدر سابق، ص 232 .

5 - راجع حسن فضل الله، التربية والتعليم عند الشيعة في جبل عامل، مصدر سابق، ص 23 .

الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، حتى كانت جزين قد غدت أول مركز علمي في جبل عامل، وذلك على يد ابنها الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني (ت 786هـ/ 1384م) أول فقيه عاملي كبير، إليه يعود الفضل في تأسيس الحركة العلمية المستقلة في وطنه»¹.

ج . دوافع إنشاء المدارس الدينيّة تاريخياً في لبنان

سعى الشيعة في لبنان وغيره من الأقطار كما رأينا إلى إنشاء مدارسهم الخاصة التي تُعدّ تنمة لما يتعلّمه الصغار في الكتاتيب، وحلقة وصل مع التّعليم العالي الذي تؤمّنه الحوزات ومراكز التّعليم المتخصصة في العراق وإيران.

أما بالنسبة للأسباب التي حدثت بعلماء الشيعة في لبنان في عهدي المماليك والعثمانيين، ودفعتهم إلى تأسيس مدارسهم الخاصة، فيمكن الوقوف على بعض هذه الأسباب ومنها:

1 . عودة عدد من العلماء والمجتهدين ممن تلقوا العلم في الحوزات في إيران والعراق، وبالتالي فقد أصبح بإمكانهم تأسيس مدارس صغيرة في مناطقهم بعد عودتهم إليها، تكون شبيهة بالحوزة الأم التي تلقوا علومهم فيها.

2 . حرص الشيعة في جبل عامل على تأسيس مدارس خاصة بهم، خشية تأثر أبنائهم بأفكار وعقائد المذاهب الأخرى في المدارس المنسجمة مع السلطات القائمة التي يختلفون معها عقائدياً وفقهياً من الناحية المذهبية.

3 . بعض التحوّلات السياسيّة التي ألمت بالعالم الإسلامي، فعلى سبيل المثال فإن حوزة جزين التي أسسها الشهيد الأول . والتي تعتبر أول مدرسة شيعية أنشئت في جبل عامل (حوالي القرن الرابع عشر ميلادي)، ترافق إنشاؤها مع غزو المغول للعالم الإسلامي، وأصبح من الصعوبة بمكان تلقي العلم في حوزة النجف التي تعرضت للخراب والضعف، فكان لا بد من التعويض بمدارس تكون خارج سيطرة الغزاة المغول. «وذلك وضع عبئاً ثقيلاً على معاهد العلم في جبل عامل. وقد نهضت هذه المدارس بالعبء وكانت على قدر المسؤولية. ففي أواخر القرن الرابع عشر نجد الشهيد الأول محمد بن مكي، بعد عودته من العراق، يجعل من جزين مركزاً لمدرسة عالية للفقهاء الإمامية»².

1 - جعفر المهاجر، سنة فقهاء أبطال، مصدر سابق، ص 233 .

2 - نقولا زيادة، المدرسة اللبنانية، كتاب «أبعاد القومية اللبنانية»، مصدر سابق، ص 67 .

4. بعض الأوضاع والظروف السياسيّة والاقتصاديّة والمعيشية، التي كانت تحول دون سفر بعض طلبة العلوم إلى إيران أو العراق، نظرًا لما في الهجرة من غربة عن الأهل، ومشقة ووحشة، مع وجود رغبة عارمة لدى هؤلاء الطلبة لتلقي العلم¹.

هذه أبرز الدوافع والأسباب التي مهدت لإنشاء الحوزات والمدارس الدينيّة لدى الشيعة في لبنان.

لدى دخول العثمانيين إلى بلاد الشام كان الركود العلمي يسيطر فيها، ومع العثمانيين استمر هذا الركود، إلا أن جبل عامل شكل حالة استثنائية، حيث كانت تنتشر فيه المدارس التي تخرّج منها العديد من العلماء والفقهاء. ففي الوقت الذي كان فيه الانحطاط السياسي والاجتماعي يخيمان على معظم أرجاء العالم الإسلامي. بعد انحسار النشاط العلمي والفكري نتيجة الغزوات المتتالية التي عرضت لها البلاد الإسلامية. كان جبل عامل في ذلك الوقت يُمثّل واحة علمية خصبة للفكر والعلم، ويشهد نهضة علمية.

د. أشهر المدارس الدينيّة

يعد القرن الرابع عشر هجري، وتحديدًا سنة 1369م لحظة البداية في إنشاء المدارس الدينيّة عند الشيعة في لبنان. ويعود الفضل بذلك إلى الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني، الذي كان أول من افتتح مدرسة دينية في جبل عامل في الرابع عشر ميلادي، هي مدرسة جزين المشهورة في تاريخ الشيعة. ومن خلال انطلاقة هذه الحوزة بدأت أولى علامات النهضة العلمية والفكرية عند الشيعة في هذه المنطقة. حيث «يكاد يُجمع كل من تناول النهضة الفكرية في جبل عامل على أن الشهيد الأول هو المؤسس الفعلي للنهضة الفكرية»². فله يعود الفضل في تأسيس أول وأشهر مدرسة في لبنان، هي مدرسة جزين التي سنتوقف عندها نظرًا لأهميتها وأهمية مؤسسها ولدورها الريادي في هذا المقام.

1. مدرسة جزين

تأسست هذه المدرسة سنة 1369م في بلدة جزين الجنوبية، وهي تعتبر أول مدرسة تعليمية شيعية أنشئت في جبل عامل، «حيث انتظم فيها التدريس بالمعنى المعروف، أنشأها العلامة

1 - راجع انتصار خشيش، الحوزات العلمية في جبل عامل، مصدر سابق، ص 87 .
2 - علي درويش، جبل عامل: الحياة السياسيّة والثقافية بين 1516 . 1697/ دار الهادي/ طبعة 1/ بيروت 1993/ ص 126 .

السعيد شمس الدين محمد بن مكي الجزيني العاملي، المعروف بالشهيد الأول (عاش بين 1320 1382م) وهو من أشهر علماء الإمامية على الإطلاق وأوفرهم علماً¹. فقد تخرج من مدرسة جزين عدد من العلماء والفقهاء، ونشروا العلم، وأنشأوا المدارس في مختلف مناطق جبل عامل². وكانت تمثل في ذلك الوقت «طلیعة النشاط الثقافي والسياسي الشيعي في جبل عامل»³. وأصبحت محطة ومقصداً للطلاب والعلماء والمفكرين، وهي ارتبطت بشخصية مؤسسها، وأخذت دورها وأهميتها من موقعه وطاقته العلمية النادرة. أما بالنسبة لسيرة الشهيد ودراسته فهو ولد ونشأ في جزين، وأخذ دروسه الأولى عن أبيه، ثم ارتحل إلى الحلة في العراق وتلمذ على يد العلامة الحلي، ولما عاد إلى وطنه أسس مدرسة جزين. ونالت هذه المدرسة شهرة واسعة في جبل عامل وخارجه، واستمرت في عطائها قرابة أربعة قرون إلى حين إخراج الشيعة من جزين في العام 1757م، إثر الحروب التي دارت بينهم وبين سكان الشوف من الدروز «حيث استقدم هؤلاء فلاحين من المسيحيين إلى جزين، وتم إجلاء الشيعة منها»⁴.

نال الشهيد الثاني شهرة علمية واجتماعية لفتت نظر المؤيدين والمعادين له على السواء، وخصوصاً الحاسدين منهم، وعلى رأسهم «ابن جماعة» (قاضي القضاة في الشام في ذلك الوقت)، الذي أفتى بهدر دم الشهيد، فسيق إلى حاكم دمشق «بيدمر»، (في عهد برفوق أول الأمراء المماليك الذين حكموا من سنة 784 حتى 922 هـ) فأمر باعتقاله لمدة سنة، وألصقت إليه تهمة الرفض وسب الصحابة، وهو ما نفاه في مجلس المحاكمة السورية التي أجريت له، فأعدم، وصلب وأحرقت جثته⁵.

وأطلق عليه لقب الشهيد الأول، لأنه أول عالم قتل في سبيل الدين والعلم في جبل عامل، وتجدر الإشارة إلى أنه كان أول من أطلق نظرية ولاية الفقيه بين طلابه، ولكن الظروف لم تساعده على إطلاقها بصورة واضحة، هذه النظرية هي نفسها التي استند إليها الإمام الخميني (قده) في قيام نظام الجمهورية الإسلامية في إيران، بعد أن عمل على بلورتها وتأصيلها من الناحية الشرعية الإسلامية.

- 1 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 234 .
- 2 - راجع محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 235 .
- 3 - محمد بن جمال الدين مكي العاملي، اللمعة الدمشقية، مصدر سابق، ص 15 .
- 4 - علي درويش، جبل عامل: الحياة السياسية والثقافية بين 1516 . 1697، مصدر سابق، ص 128 .
- 5 - راجع محمد بن جمال الدين مكي العاملي، اللمعة الدمشقية، مصدر سابق، ص 145 . 146 .

وتكفي الإشارة إلى أن كتاب «اللمعة الدمشقية» للشهيد الأول . الذي يعد من أبرز المؤلفات الفقهية لدى الشيعة . قام الشهيد بتأليفه خلال فترة سبعة أيام فقط، أثناء اعتقاله في سجن القلعة في دمشق، كما يرى بعض المؤرخين ومنهم محمد جابر آل صفا في كتابه تاريخ جبل عامل¹. لكن بالمقابل فالشيخ محمد مهدي الآصفي . الذي وضع لكتاب اللمعة مقدمة غنية بمعطياتها وطويلة بعدد صفحاتها 194 صفحة . لا يتبنى الرأي القائل بأن الشهيد قام بتأليف كتاب اللمعة في السجن، إنما قام بذلك في بيته حيث كان «يعيش في بيته مراقباً من قبل السلطة، ولذلك كان يتكتم في الكتابة»².

هذا الكتاب وضعه الشهيد على شكل رسالة إلى حاكم خراسان «علي بن المؤيد» الذي وجه إليه دعوة للإقامة عنده، فاعتذر عن تلبية الدعوة، واستعاض عنها بتصنيف هذا الكتاب وإرساله إليه، وهو عبارة عن رسالة فقهية جمع فيها الشهيد بصورة ملخصة مختلف أبواب الفقه وموارد الابتلاء في ذلك العصر . ولهذا الكتاب مكانة رفيعة بين الكتب الفقهية الشيعية، ولا يزال من الكتب الدراسية الأساسية المعتمدة في معظم الحوزات العلمية عند الشيعة حتى اليوم³.

إضافة إلى مدرسة أو حوزة جزين أنشأ الشيعة عدداً آخر من المدارس، لا تختلف عن مدرسة جزين لناحية مراحل وطريقة التدريس وأيام العطل وغيرها من تقاليد الدراسة الأخرى، أبرز هذه المدارس هي:

2 . مدرسة ميس الجبل

سُميت بهذا الاسم نسبة إلى بلدة ميس الجبل الواقعة في جنوب لبنان . بلغت هذه المدرسة درجة كبيرة من الأهمية . فهي وإن لم تكن بأهمية مدرسة جزين، إلا أنها تعتبر في المرتبة الثانية بعدها مباشرة . هذه المدرسة أسسها سنة 1526م الشيخ علي بن عبد العالي الميسي (1475 . 1535) المعروف والمشهور باسم المحقق الثاني أو المحقق الكركي، نسبةً إلى بلدة الكرك في البقاع التي انتقل إليها وأقام فيها مدة من الزمن، «وكانت مدرسته مثابة طلاب العلوم من أنحاء جبل عامل عموماً، ورحلة فضلاء الشيعة من العراق وإيران وشيعة سوريا.

1 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 235 .

2 - محمد بن جمال الدين مكي العاملي، اللمعة الدمشقية، مصدر سابق، ص 102 .

3 - محمد بن جمال الدين مكي العاملي، اللمعة الدمشقية، مصدر سابق، ص 101 و ص 176 .

وقد بلغ عدد طلابها في ذلك العصر أربعمئة طالب¹. وكان الشهيد الثاني (زين الدين الجبعي) ممن تلقى علومه في هذه المدرسة. واستمرت بعد وفاة الشيخ الميسي ربحاً من الزمن، حيث تخرج منها عدد كبير من علماء الشيعة المشهورين أبرزهم الشيخ الحر العاملي والشيخ لطف الله الميسي الذي مات ودفن في أصفهان وله مسجد باسمه لا يزال قائماً حتى اليوم وهو مشهور ببنائه الرائع².

3 . المدرسة النورية في بعلبك

وهي مدرسة نالت شهرة واسعة، تولى الشهيد الثاني زين الدين الجبعي (1505 . 1559م) التدريس فيها بأمر من السلطان العثماني، ودرّس فيها الفقه على المذاهب الإسلامية الخمسة³، وهي أصبحت بعد أن توجه إليها سنة 935هـ «مركزاً علمياً كبيراً يقصده الناس من الأتحاء المختلفة، ويأتيه العلماء من القريب والبعيد، وكان الشهيد مُشجعاً كبيراً لهذه الحركة العلمية التي حدثت في بعلبك»⁴. وجذبت إليها العلماء والطلاب.

وهنا ينبغي التوقف قليلاً لنتعرف أكثر على سيرة الشهيد الثاني، نظراً لدوره البارز في حركة العلم والتّعليم عند الشيعة، فقد ألف من الكتب «ما يزيد على ستين كتاباً ورسالة أشهرها كتاب «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» في مجلدين»⁵ (وهو شرح لكتاب اللمعة الذي وضعه الشهيد الأول وقد مرّ ذكره).

ومن الكتب التي وضعها أيضاً كتاب «منية المرید في آداب المفيد والمستفيد» وهو من أبرز المؤلفات التوجيهية والإرشادية في ميدان التربية والتّعليم الإسلامي. تناول فيه فضل العلم والمتعلمين، وآداب المعلم والمتعلم، وآداب مجلس الدرس والمعلم والمتعلم. وتضمن أيضاً آداب المفتي والمستفتي، وشروط المناظرة وآدابها، وآداب الكتابة ومسائل تربوية أخرى مهمة.

1 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 236 . 237 .
 2 - نقولا زيادة، المدرسة اللبنانية، كتاب «أبعاد القومية اللبنانية»، مصدر سابق، ص 68 .
 3 - راجع محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 237 . 238 .
 4 - محمد بن جمال الدين مكي العاملي، اللمعة الدمشقية، مصدر سابق، ص 137 .
 5 - يوسف مروة/ دور علماء جبل عامل في بناء الفكر الفقهي والفلسفي والعلمي المعاصر/مصدر سابق/ ص 21.

وهو كان قد ارتحل في مقتبل عمره من بلدته جباع، إلى بلدة ميس بهدف التعلم والدراسة على يد المحقق الميسي لمدة ثماني سنوات، ثم انتقل معه إلى بلدة الكرك البقاعية أيضًا، وتزوج ابنته بعد أن لمس منه نبوغًا وذكاءً لافتًا. وقام برحلات بين موطنه وبعلبك والشام والحجاز ومصر والأستانة¹ للاحتكاك بالعلماء وإقامة صلات معهم. وسعى لتوضيح عقائد وآراء الشيعة بهدوء وروية، وبعيدًا عن الضوضاء. واستطاع أن يحصل من الأستانة عاصمة الخلافة العثمانية، على إذن بالتدريس في المدرسة النورية في بعلبك. هذه الرحلات سهلت عليه الإلمام بفقهاء المذاهب الإسلامية، وأصبح يتمتع بثقافة إسلامية واسعة.

أما استشهاداه، فجاء بعد أن بلغ من الشهرة ما أوغل صدر حاسديه من أصحاب النظرة المذهبية الضيقة، وخصوصًا بعد أن أسس مدرسة في بلدته جباع، فتخوفت السلطة منه ومن المكانة الرفيعة التي وصل إليها، «فوشاه الحاسدون إلى الوزير الأعظم (رستم باشا) مسندين إليه تهمة نشر التشيع في الأصقاع الشامية للانقلاب على الدولة العثمانية، فأرسل الوزير في طلبه»².

وكان قاضي صيدا «معروف الشامي» قد استاء من الشهيد لأنه لم يستأنذنه في الذهاب إلى الأستانة. ولم يحصل على إذن بالتدريس في مدرسة بعلبك كما درجت العادة في هذا المجال. فأرسل في طلبه، وكتب إلى السلطان العثماني بأنه رجل مبدع خارج عن المذاهب الأربعة. فأرسل السلطان أحد رجاله لاصطحاب الشهيد، حتى يجمع بينه وبين علماء البلاد لبياحثوه، ويتثبتوا مما يشاع عنه، فيحكم حينها عليه. فلحق الرجل بالشهيد إلى مكة، وطلب منه القدوم إلى الأستانة، ولكن رجلاً آخر حذر الرسول من مغبة أن يصل الشهيد حيًّا إلى السلطان، فأقدم الرسول على قتله³. وبذلك انتهت حياة الشهيد الثاني.

4 . مدرسة شقرا

أسسها العلامة السيد أبو الحسن موسى بن حيدر الحسيني (المتوفى سنة 1780 م) في أواخر القرن الثاني عشر هجري، وكانت من أهم مدارس جبل عامل حيث بنى فيها السيد «ما يزيد على أربعين حجرة، وحفر في وسط دارها بئرًا يكفي ماؤه طلبتها،... ووقف لها

1 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 237 . 238 .

2 - محمد بن جمال الدين مكي العاملي، اللعة الدمشقية، مصدر سابق، ص 190 .

3 - راجع محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 194 .

أرضًا، وزيتونًا.... وهي أول مدرسة لها أوقاف في جبل عامل»¹. «وكان المعدل الوسطي لطلابها ثلاثمئة طالب يحضر درس رئيسها منهم نحو مائتي طالب، هم في الوقت نفسه أساتذة لمن دونهم من التلاميذ»².

5 . مدرسة الكوثرية

وهي قرية في جبل عامل أسس فيها الشيخ حسن قببسي (توفي سنة 1843 م) بإيعاز من علماء الشيعة في النجف الأشرف «أول مدرسة علمية في العهد العثماني، تُدرس فيها العلوم العربية والدينية وآداب العربية. وكان الناس في ظمًا لارتشاف مناهل العلم بعد تلك الصدمة التي دهمت البلاد. فتهافت عليها الطلاب من كل حدب وصوب، وحفلت بالمشغلين والمدرسين»³. ودامت هذه المدرسة حتى سنة 1258هـ، حيث توفي مؤسسها في هذه السنة، فانتهت المدرسة بوفاته، وانتقلت حركة التدريس إلى مدرسة جبع⁴.

6 . مدرسة جبع

نسبة إلى بلدة جباع في جبل عامل، كان قد أسسها الشهيد الثاني بعد مدرسة جزين من الناحية الزمنية. لكن اللافت للنظر أن المعطيات التاريخية لا تتحدث عن هذه المدرسة خلال زمن الشهيد الثاني، إنما تتحدث عنها في المرحلة الثانية، أي بعد أن أعيد تجديدها من قبل الشيخ عبد الله نعمة (ت 1885) الذي تعلم في مدرسة الكوثرية، ثم انتقل إلى حوزة النجف، وبعدها إلى إيران، ولما بلغ مرتبة الاجتهاد عاد إلى بلده وافتتح مدرسة فيها. فانتهت إليها معظم طلاب مدرسة الكوثرية، وتخرج على يديه عدد من كبار العلماء. واستمرت هذه المدرسة أربعين عامًا، وأحدثت حركة علمية واسعة النطاق. ثم تراجع دورها، وأقل نجمها بعد وفاة مؤسسها سنة 1303هـ/ 1885م، فانتهت حركة التدريس إلى بلدة حنويه، حيث اشتهرت فيها مدرسة حملت اسمها⁵.

1 - محسن الأمين، خطط جبل عامل، مصدر سابق، ص 183.

2 - حسن الأمين، جبل عامل: السيف والقلم، دار الأمير، الطبعة 1، 2003، بيروت، ص 366 .

3 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 241 .

4 - راجع محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 242 .

5 - راجع محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق، ص 242 . 244 .

الخلاصة

شهدت الطائفة الشيعية في لبنان تطوراً ملحوظاً في مؤسساتها التعليمية منذ نشأتها وحتى مطلع القرن العشرين. لعبت المدارس الدينية (الحوزات) دوراً محورياً في نشر العلوم والمعارف، وكانت مصدراً رئيسياً لتعليم العلوم الدينية واللغة العربية. على الرغم من التحديات السياسية والاقتصادية التي واجهتها، تمكنت الطائفة الشيعية من الحفاظ على هويتها وتعاليمها من خلال نظام تعليمي مستقل ومتميز.

لقد تأثرت مسيرة التعليم الشيعي بالتحوّلات السياسية والاجتماعية، حيث أُجبرت الطائفة الشيعية على التكيف مع الظروف المحيطة بها. استمرت هذه المؤسسات في التطور والتأقلم مع الزمن، مع التركيز على تنمية المجتمع الشيعي في لبنان. لعبت المدارس الدينية دوراً مهماً في نشر العلوم وتعزيز الهوية الدينية. تأسست هذه المدارس في مناطق متعددة مثل جبل عامل والنجف وقم، وكانت مراكز هامة للعلماء والطلاب.

هاجر العديد من الطلاب الشيعة من لبنان إلى العراق وإيران لتلقي العلوم الدينية، وعادوا ليؤسسوا مدارس دينية مماثلة في وطنهم. هذا التبادل العلمي ساعد على نشر المعرفة والعلوم الدينية وتعزيز الروابط بين الشيعة في لبنان والعالم الإسلامي.

وشهد العهد العثماني تطوراً في المؤسسات التعليمية عند الشيعة في لبنان، مع إنشاء الكليات وبيوت العلماء والمدارس. كانت هذه المؤسسات تعكس الاستقلال التعليمي والثقافي للطائفة الشيعية، وساهمت في بناء مجتمع علمي متكامل.

وقد واجهت الطائفة الشيعية العديد من التحديات، بما في ذلك الضغوط السياسية والاقتصادية. رغم ذلك، تمكنت من التكيف مع هذه التحديات والحفاظ على نظامها التعليمي المستقل. استخدمت الحوزات الدينية وسائل متعددة للتغلب على العقبات، بما في ذلك التستر وتعليم العلوم في البيوت والمرقد المقدسة.

لقدت سلّطت هذه الدراسة الضوء على الدور البارز للمدارس الدينية في تعزيز الهوية الشيعية والحفاظ على التعاليم الدينية. كما تساهم في فهم أعمق لتاريخ التعليم عند الشيعة في لبنان وتطوره، مع تقديم معلومات دقيقة ومفصلة للباحثين والمختصين في مجال الدراسات الإسلامية والتاريخية حول دور التعليم في الحفاظ على الهوية المذهبية والثقافية.

لائحة بالمصادر

1. آل كاشف الغطاء، محمد حسين. (1982). أصل الشيعة وأصولها (الطبعة 4). مؤسسة الأعلمي، بيروت.
2. الشهرستاني. (1994). الملل والنحل (الطبعة 1). مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
3. المظفر، محمد حسين. (1985). تاريخ الشيعة (الطبعة 1). دار الزهراء، بيروت.
4. آل صفا، محمد جابر. تاريخ جبل عامل. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
5. فياض، عبد الله. تاريخ التربية عند الإمامية. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
6. خشيش، انتصار. (1987). الحوزات العلمية في جبل عامل، جباع وجزين. رسالة دبلوم غير منشورة، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية.
7. الحوزة العلمية في فكر الإمام الخامنئي. (2002). سلسلة بحوث تخصصية، معهد الرسول الكرم العالي للشريعة والدراسات الإسلامية، بيروت.
8. الفضلي، عبد الهادي. (1994). تجربتي مع التعليم الحوزوي. مجلة الجامعة الإسلامية، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، لندن.
9. فضل الله، حسن نظام. (1999). التربية والتعليم عند الشيعة في جبل عامل. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت.
10. هوارى، زهير. (2003). جريدة السفير اللبنانية، 14 أغسطس.
11. زيادة، نقولا. (1970). أبعاد القومية اللبنانية. جامعة الروح القدس، بيروت.
12. العاملي، محمد بن جمال الدين مكي. (1403هـ). اللمعة دمشقية (الطبعة 2). دار إحياء التراث العربي، بيروت.
13. عتريسي، طلال. البعثات اليسوعية ومهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان. جامعة القديس يوسف، بيروت.
14. نصر الله، حسن. (1984). تاريخ بعلبك (الجزء الثاني). مؤسسة الوفاء، بيروت.
15. الأمين، محسن. خطط جبل عامل. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
16. الأمين، حسن. (2003). جبل عامل: السيف والقلم. دار الأمير، بيروت.
17. درويش، علي. (1993). جبل عامل: الحياة السياسية والثقافية بين 1516 . 1697 (الطبعة 1). دار الهادي، بيروت.
18. مروة، يوسف. (1994). دور علماء جبل عامل في بناء الفكر الفقهي والفلسفي والعلمي المعاصر. مجلة نور الإسلام، بيروت.
19. المهاجر، جعفر. ستة فقهاء أبطال. دار الأضواء، بيروت.

إدارة الدولة اللبنانية رقمياً باعتماد تقنية بلوك تشين

The Lebanese state administration digitally adopts blockchain technology

أيلا القويق

Ayla Quwaiq

تاريخ القبول 2024/ 9/20

تاريخ الاستلام 2024 /9 /2

ملخص

تناول هذا البحث دور وتأثير تقنية بلوك تشين في تطوير نظام وأداء الدولة إدارياً، للوصول إلى حكومة رقمية، في محاولة للتعرف على مدى الترابط بين أداء الإدارات والمؤسسات العامة والتطور التكنولوجي، وذلك بعرض واقع الإدارات العامة في لبنان، ثم شرح ماهية تقنية بلوك تشين، يلي بعد ذلك التطرق لأهمية التحول الرقمي وبعض نماذج تطبيق التقنية في بعض الدول واستخدامها في مجالات الحفاظ على السجلات المختلفة: العقارات، حماية الملكية الفكرية، التصويت (الانتخابات)، وغيرها.

خرج البحث بعدد من النتائج؛ أبرزها:

1. باتت التكنولوجيا هي المستقبل، ويجب تسخير إمكاناتها لصالح إدارة المجتمعات والاقتصادات.
2. أصبح التحول الرقمي في الحكومة ضرورة ملحة لمواكبة التطور العالمي الحديث باعتماد التقنيات الرقمية بكافة المجالات، ولا سيما الإدارة والأعمال.
3. ساهمت التقنية الحديثة (بلوك تشين) برفع كفاءة وفعالية أداء نشاط المؤسسات التي استخدمتها.
4. ضرورة إحداث مسارات وأنظمة تتوافق مع استخدام تقنية بلوك تشين في نشاط الإدارات والمؤسسات العامة، لتصبح أكثر أماناً وثقة وشفافية، والسرعة في إنجاز

الأعمال، بالإضافة إلى تخفيض التكاليف على الدولة والمواطن.

الكلمات المفتاحية: إدارات الدولة اللبنانية - تقنية بلوك تشين - تطوير أداء المؤسسات - التحوّل الرقميّ.

Abstract

This thesis dealt with the role and impact of Blockchain technology in developing the system and the administrative performance of the state to reach a digital government, in an attempt to identify the extent of the interrelationship between the performance of public administrations and institutions and technological development, then presenting the reality of public administrations in Lebanon, by explaining what Blockchain technology, and follows after That dealt with the importance of digital transformation and some models of applying technology in some countries and using it in the fields of maintaining various records: medical, real estate, intellectual property protection, voting (elections), and others. The research came out with a number of results. Most notably:

1. Technology has become the future, its best potential for the benefit of managing societies and economies.
2. Digital transformation in the government has become an urgent necessity to keep pace with the modern global development by adopting digital technologies in all fields, especially management and business.
3. Modern technology (Blockchain) has contributed to raising the efficiency and effectiveness of the performance of the activities of the institutions that I used it.
4. The need to create paths and systems compatible with the use of Blockchain technology in the activity of public administrations and institutions, in order to become more secure, reliable, transparent and speedy in the completion of business, in addition to reducing costs for the state and the citizen.

Keywords: Lebanese state administrations, Blockchain technology, Performance development Enterprises – Digital Transformation

المقدّمة

يعدّ لبنان جمهوريّة ديمقراطيّة برلمانيّة؛ تقوم على مبدأ الفصل بين السّلطات وتوازنها، ويتكوّن نظامها من السّلطة التشريعيّة، والتنفيذيّة، والقضائيّة.

بعد اتفاق الطائف، الذي أرسى تسوية سياسية، لإنهاء النزاع في لبنان، ونصّ على تقاسم إدارة مؤسسات الدولة بين الأطراف السياسية، بدأت بعض الإدارات تواجه مشكلات بعد سنوات من تطبيقه، إضافة إلى أزمات اقتصادية تحت عنوان الفساد الإداري، فلم يعد المواطن وأطراف الخدمة يشعرون بالثقة في التعامل مع تلك الإدارات والمؤسسات، والأنظمة المعتمدة في تدفق الإجراءات، والزوتين الإداري المعقد، وطول دورة الحياة لإنجاز المعاملات، كل هذه الأمور تزيد الهدر، وتضعف الإنتاجية، وتُظهر الهشاشة في الأداء.

وللحدّ من بعض أوجه الفساد والتفدّم وتحسين جودة الخدمات العامّة والمراقبة والتدقيق لمجريات العمل الإداري والمالي والأعمال، تمّ إدخال التكنولوجيا والأنظمة المعلوماتية على الإجراءات البيروقراطية في الإدارات اللبنانية، غير أنّه، وللأسف، لم تُوظف بالشكل الصحيح، إذ اقتصر الأمر على نقل البيانات من الورق إلى المكنة دون تحقيق تطوّر فعليّ، كما أنّ المركزية التي تتحكّم في خوادم البيانات (الدّاتا) لا تزال تمتلك السّلطة المطلقة في التعديل، والحذف، والإضافة وفق ما تشاء⁽¹⁾. إذاً فما هو البديل؟

فلا بدّ من السّعي للتطوّر الإداري مقترناً بالتقدّم التكنولوجي؛ لأنّه هو المستقبل، ويجب تسخير إمكاناته لصالح المجتمعات والاقتصادات، مع اعتماد التكنولوجيا المناسبة في المكان المناسب، لمواجهة المشكلات التي ذكرت، وتماشياً مع التطوّر الحاصل، في أغلب دول العالم، عملاً بالمثل القائل: «من لا يتقدّم يتقادم».

وبما أنّ الأنترنت أصبح ضرورة في كلّ زمان ومكان، استدعت الحاجة لتطوير جيل جديد للتكنولوجيا، أطلق عليه الجيل الرابع من الحكومة الإلكترونية المتحوّلة نحو التقنيّات الرقمية، ويتمحور حول المواطن، ويستخدم الأنظمة المعرفية والتحليلية المحوسبة المتقدّمة، والمتمثلة اليوم بتقنيّة سلسلة الكتل (بلوك تشين)، التي ستغيّر، وتطوّر أساليب تصميم المؤسسات وطرق عملها، وتستخدم للتخزين، والتحقّق من صحّة وترخيص التّعاملات الرقمية عبر الإنترنت، بدرجة أمان عالية، ودرجة تشفير قد يكون من المستحيل كسرها في ظلّ التقنيّات المتوفرة اليوم، ونستطيع نقل ملكيّة الأصول مهما كان نوعها، ذات القيمة عبر الإنترنت بسرعة هائلة بين الأفراد، من دون تدخّل من أحد،

1- غ. أ. طيارة، مسار الشفافية يبدأ بالرقمنة، مركز كير-كارنيغي للشرق الأوسط، بيروت، شباط 2022، أخذت بتاريخ 8 حزيران 2022، من الموقع الإلكتروني: <https://www.diwan.org.mec-carnegie.org>

وبوجود أقلّ بكثير من التّعقيدات في تدفّق الإجراءات الإداريّة.

تظهر أهميّة بلوك تشين في أنّها تساعد في اكتشاف أيّ خلل في المعاملات، كما تمنح الثقة في أكثر الأوقات افتقارًا لها، في باقي أوساط المعاملات، والأهمّ أنّ قوّة النّظام تتمركز في درجة التّشفير، وليس في المركزيّة⁽¹⁾.

لذا، سنصف خلال هذا البحث نظام الإدارة والأعمال في المؤسّسات العامّة وإدارة الدّولة، وكيف يمكن تطويره بالاقتران مع تقنيّة بلوك تشين، تمهيدًا للوصول إلى حكومة رقميّة محوكة.

أولاً: أهميّة البحث

تكمن في تناوله تقنيّة بلوك تشين وعلاقتها في تطوير وتفعيل مجال الإدارة والأعمال، بالإضافة إلى تأثيرها المتنامي في واقع ومستقبل المجتمع والسياسة والثّقافة، وتحويلها لاعتماد تقنيّات رقميّة؛ ممّا سيُسكّل محاولة في تقديم نموذج وثقافة للباحثين، حول دمج واقتران التّطوّر الرّقميّ بالإدارة بأسلوب مبسّط، وتبيان الثّغرات في العمل الإداريّ، والتي يعود لها السّبب في بعض نقاط الفشل، وكيفية سدّ هذه الثّغرات عبر تقنيّة بلوك تشين.

ثانياً: أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى:

1. وصف وتحليل الحالة الإداريّة والأنظمة المعتمدة في المؤسّسات والإدارات العامّة؛ للتعرف ومعالجة مشكلات ومعوّقات التّقدّم.
2. رصد محاولات التّطوّر الإداريّ بالاقتران مع التّقدّم التّكنولوجيّ باستخدام تقنيّة بلوك تشين.
3. اقتراحات نقاط تحسين مستقبل المؤسّسات والإدارات العامّة، في ظلّ التّطوّر التّقنيّ الرّقميّ، وخطوات التّحوّل الرّقميّ لبعض المؤسّسات والإدارات، كنموذج عبر البلوك تشين.

4. تبيان مدى تفعيل العمل الخدماتيّ للمؤسّسات، باعتماد تقنيّة بلوك تشين، للتحسين

1- كاتي، موليان، تقنية سلسلة الكتل بلوك تشين والنمو المستدام، أخذت بتاريخ 3 اذار 2022، من موقع الأمم المتحدة الإلكتروني: <https://www.un.org/ar>.

في جودة العمل، وجعله أكثر فعالية وإنتاجية وأقل هدراً، مما يسهم في تطوير النمو الاقتصادي.

ثالثاً: منهجية البحث

سأنتبع المنهج الوصفي التحليلي، من خلال دراسة وتبيان أثر التقنية الرقمية (بلوك تشين)، على عمل وأداء إدارات الدولة اللبنانية؛ وذلك من خلال: وصف واقع وحال الإدارات، وتبيان الثغرات التي تقف سداً في تطورها وتقدمها، وشرح التغيرات والتحسينات التي ستحصل لو أدخلنا التقنية الرقمية في عملها وإدارتها.

أولاً: الدولة اللبنانية إدارياً

1- اللامركزية في لبنان

إن الهيكلية الإدارية في لبنان هي وريثة النظام العثماني ونظام الانتداب الفرنسي، وكلاهما شديد المركزية، ومن الأسباب الرئيسة لعدم تطورها وركودها في لبنان هو استمرار الخلط بين اللامركزية الإدارية والمركزية السياسية.

وتبرز أهمية اللامركزية في صنع القرار السريع وتنفيذه، وتخفيف إدارة المستوى الأعلى، وتسهيل عملية النمو، وتعزيز المبادرة والإبداع، وتحسين العمل الجماعي؛ لذا، فإن اللامركزية الإدارية تؤدي دوراً أساسياً في عملية التنمية على المستوى المحلي بإعطائه الصلاحيات اللازمة والإمكانيات الضرورية، البشرية والمالية، لتنظيم شؤون المحلة وتوفير الخدمات، وتطوير أوضاعها العمرانية والاجتماعية والثقافية⁽¹⁾.

وقد تكون اللامركزية أحد حلول بعض المشاكل الإدارية من خلال تعزيز الشفافية في العمل الإداري والخدمات للدولة، والمساهمة في تفعيل المشاركة الديمقراطية للمواطن، مما يرسخ الطمأنينة والمصادقية تجاه من اختارهم لإدارة مرفق وطنه، غير أن من أبرز عوائق تطبيقها كونها عملية شاقة وطويلة، فهي تحتاج إلى أجهزة واسعة من الموظفين في كل منطقة ومحافظة، وإن أفضل التنظيمات الإدارية وأرقاها قد تفشل في ظلّ مناخات عدم الثقة والارتياب وغياب روح التضامن الوطني، كما هو الحال في لبنان⁽²⁾.

1 - خالد قباني، اللامركزية ومسألة تطبيقها في لبنان، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1981، ص 44
2 - شادي، نشاب، دراسة حول أهمية اللامركزية الإدارية في لبنان، بيروت، دن، دم، دط، 2009

2- النظام الإلكتروني في الإدارات العامة

في لبنان عام 1996، استحضرت التكنولوجيا والمعلوماتية (الحواسيب) إليه، وسُخّرت في أنشطة وخدمات وإجراءات القطاع العام، وصولاً إلى إنشاء دوائر ومكاتب مناهة بكلّ تفاصيل المعلوماتية، وربطها بجميع الدوائر والأقسام⁽¹⁾، وذلك باستخدام المكننة والفاكس والحاسيب؛ لتسجيل وتخزين المعلومات وتنظيمها وتصنيفها، والاتصال السريع لتبادل البيانات والمعلومات، ما بين المكاتب والأقسام داخل المؤسسة الواحدة، وما بينها وبين الفروع اللامركزية والمؤسسات الأخرى، عبر شبكات الإنترنت، ولا ننسى التّواصل عبر البريد الإلكتروني، وإصدار الفواتير المطبوعة، وأخيراً وليس آخراً، إصدار البطاقات الممغنطة للهوية الشخصية، وبطاقات التأمين، وبطاقات الاعتماد المصرفية، لكن من دون الاستغناء عن التوثيق والأرشفة عبر مستندات ورقية.

3- الفساد في الإدارات العامة في لبنان

أجرت منظمة «الشفافية الدولية» استطلاعاً للرأي عام 2019، تبين فيه وضع لبنان الإداري، وظهرت النتائج في لبنان، كما يلي (انظر الشكل رقم 1):

1 - الجمهورية اللبنانية، رئاسة مجلس الوزراء، التفتيش المركزي، مرسوم رقم 8889 المادة الأولى تاريخ 1996-6-5 أخذت بتاريخ 2022-7-24 من الموقع الإلكتروني <https://www.cib.gov.lb>

مقياس الفساد العالمي الشرق الأوسط وشمال إفريقيا 2019



لبنان



معدلات الرشوة والوساطة*

* استنادا إلى الأشخاص الذين تلقوا هذه الخدمات من المصالح الحكومية خلال الـ 12 شهرا الماضية

الرشوة	الوساطة
العامل العام	41%
المحاسب الحكومية	40%
الهيئات العامة والهيئات المحلية	45%
خدمات إسناد بطلبات الترقية	45%
الموظف العامة	51%
الشرطة	42%
الجنسية	48%

الفساد حسب المؤسسات*

* نسبة الذين يرون أن معظم الأشخاص الذين يتعاملون في هذه المؤسسات أو جميعهم متورطون في الفساد

المؤسسة	نسبة الذين يرون أن معظم الأشخاص الذين يتعاملون في هذه المؤسسات أو جميعهم متورطون في الفساد
الرئيس/رئيس الوزراء	-
أمانة البرلمان	64%
الموظفون الحكوميون	68%
الموظفون الحكوميون على المستوى المحلي	46%
الشرطة	44%
القضاء والموظفون القضائيون	53%
الزعماء الدينيين	46%
المنظمات غير الحكومية	47%
مفوضو الأعمال	53%
الممرضين	54%

هل تغيرت مستويات الفساد خلال الأشهر الـ 12 الماضية؟

ارتفعت	68%
انخفضت	10%
بقيت على حالها	21%
لا يعرف	0%

هل يمكن أن يكون للأشخاص العاديين تأثير على مكافحة الفساد؟

نعم	39%
لا	48%
لم يقل لا أو نعم	11%
لا يعرف/رأيي الجنبه	2%

هل تقيم أداء الحكومة في مجال مكافحة الفساد على أنه جيد أم ضعيف؟

جيد	13%
ضعيف	87%
لا يعرف	1%

شكل رقم 1: مقياس الفساد في لبنان 2019⁽¹⁾

4- إستراتيجية الدولة للإصلاح والتطوير

4-1 الإصلاح الإداري ما قبل الحكومة الإلكترونية

إنّ أهمّ محاولات الإصلاح والتطوير الإداري في لبنان قبل العمل بالحكومة الإلكترونية، انطلقت منذ عام 1952 لغاية عام 1993، وتكمن في إصدار وتشريع قوانين تنظيمية للإدارة والموظفين، وإنشاء مجلس الخدمة المدنية، واستحداث وزارة الدولة للإصلاح الإداري⁽²⁾.

1 - روبرتو، مارتينز، وآخرون، آراء المواطنين وتجاربهم مع الفساد: مقياس الفساد العالمي، الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، منظمة الشفافية الدولية، 2019.
2 - أميرة أبو مراد، مقررات مجمع بعدا تحت المجهر، مؤسسة نوفل للطباعة والنشر، بيروت 1973، ص 37.

4-2 الإصلاح الإداري بعد الحكومة الإلكترونية

منذ العام 1993، تولّت وزارة الدولة لشؤون التنمية الإدارية مسؤولية إصلاح وتطوير القطاع العام، فوضعت استراتيجيات متعدّدة لتحقيق هذا الهدف⁽¹⁾، وذلك من عام 1994 حتى عام 2019، وكان من أبرزها:

جدول 1: إستراتيجيات وزارة الدولة لشؤون التنمية الإدارية في لبنان

التاريخ	موضوع الخطة
1994	دراسة تقييم الأداء الوظيفي.
1997	الخطة المرحليّة للإصلاح الإداري.
2002	إستراتيجية الحكومة الإلكترونيّة.
2009	إستراتيجية وخطة عمل تنفيذ مشروع التطوير الإداري في الجمهورية اللبنانيّة.
2012	- مشروع التنمية الإدارية للحكومة اللبنانيّة، وبناء قدرات التخطيط الإستراتيجي في الإدارات العامّة. - اقتراح خطة تنفيذية لبرنامج الحكومة الإلكترونيّة. - مشروع قانون المعاملات الإلكترونيّة والبيانات ذات الطابع الشخصي.
2014	إنجاز عملية إعادة هيكلة وإصلاح ورقمنة لـ 600 من سجلات الأحوال الشخصية.
2018-2019	- رسم مسار لكافة الإجراءات في أربع وزارات: الصّحة، الصّناعة، الشّؤون الاجتماعيّة، السياحة. - تطوير إستراتيجية وطنية جديدة للتحوّل الرقميّ.

5- الحكومة الإلكترونية

يعتمد مبدأ الحكومة الإلكترونيّة على الرّبط بين المؤسسات من جهة، وبين المؤسسات والمواطن من جهة أخرى، وذلك من خلال توفير إمكانيّة تداول المعلومات وإجراء المعاملات ومتابعتها عن بُعد، عبر مراكز نفاذ، تستخدم التّقنيّات الحديثة للحوسيب، ونظم الاتّصالات والشبكات.

1- إستراتيجيات، مكتب وزير الدولة لشؤون التنمية الإدارية، لبنان، 2020، أخذت بتاريخ 2022-8-15 من الموقع الإلكترونيّ: <http://www.lb.gov.osmar>.

5-1 إيجابيات الحكومة الإلكترونية

هناك العديد من الإيجابيات التي تقدّمها الحكومة الإلكترونية، ومنها رفع جودة وكفاءة وتقديم الخدمات الحكوميّة، وتخفيض كلفة تقديمها، وتخفيف العبء الإداري على المواطنين وقطاع الأعمال، وتخفيض زمن تنفيذ الإجراءات، وزيادة مشاركة المواطنين في آلية اتّخاذ القرار، والارتقاء بالشفافيّة؛ ويبين جدول رقم 2 التّغييرات الإيجابيّة لإجراءات العمل الحكوميّة، بفضل استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتّصالات.

جدول 2: التّغييرات النّاجمة عن استخدام الخدمات الإلكترونيّة

من	إلى
إجراءات حكوميّة ورقية	إجراءات حكوميّة إلكترونيّة
إجراءات معزولة في كلّ جهة حكوميّة	إجراءات مترابطة تقدّم كخدمات
نقاط اتّصال حكوميّة متعدّدة، والعديد من المراجعات الشّخصيّة للمكاتب الحكوميّة	نقطة اتّصال حكوميّة وحيدة مع منفذ إلكترونيّ، وهو ما يجعل المراجعات الشّخصيّة للمكاتب الحكوميّة أمرًا غير ضروريّ.
إدارة مصادر المعلومات على مستوى كلّ جهة حكوميّة، ممّا يؤدّي إلى تكرار المعلومات والأنظمة في الجهات الحكوميّة المختلفة	إدارة حكوميّة موحّدة لمصادر المعلومات باستخدام معايير موحّدة.

5-2 سلبيات الحكومة الإلكترونية

إنّ أبرز التّحدّيات التي تواجه الحكومة الإلكترونيّة -في يومنا هذا- هو الاختراق غير القانونيّ للبيانات (Hacker)، إذ يتسبّب بخروج كلّ الأنظمة المعلوماتيّة من الخدمة، والتّحكّم بالمعلومات من قبل مستخدمين من خارج الهيكلية الإداريّة، ما يؤدّي إلى توقّف معاملات المواطنين، لا سيّما أنّ النّظام المعلوماتيّ في الدّولة اللّبنانيّة مفتوح دون أيّ رقابة.

5-3 بعض أسباب فشل تحقيق أهداف الحكومة الإلكترونيّة في لبنان

- 1- مركزيّة النّظام الحاليّ، إذ توجد كافّة الدّوائر الرّسميّة في العاصمة بيروت.
- 2- الإبقاء على الفساد من رشوة وواسطة وغيرها، في عمليّة الإجراءات الإداريّة،

وإتمام المعاملات والصّفقات وغير ذلك، من دون أيّ مساعلة أو عقاب.

3- قلة الثقة لدى المواطن في نزاهة خدمات الإدارات العامّة.

4- عدم تطبيق قانون التّوقيع والدّفْع الإلكترونيين.

لذا، ومع محاولات وإستراتيجيّات وزارة الدّولة لشؤون التّنمية الإداريّة، وآخرها التّحوّل الرّقمي في إجراءات وعمليات الإدارات العامّة، وفشل الحكومة الإلكترونيّة بتحقيق الأهداف في أماكن متعدّدة، بات موضوع تنمية وإصلاح الإدارة اللّبنانيّة ضرورة وليس خيارًا، وذلك في خضمّ التّحوّلات التّكنولوجيّة في بعض دول العالم المتطوّرة إلى التّقنيّات الرّقميّة، ما يستوجب اعتماد هذه التّقنيّات، وأبرزها «سلسلة الكتل (بلوك تشين)».

ثانيًا: تقنيّة بلوك تشين (Blockchain)

1 - ما مفهوم بلوك تشين؟

1-1 تعريف بلوك تشين

تقنيّة سلسلة الكتل (البلوك تشين) هي إحدى أحدث التّقنيّات الرّقميّة، فهي بمثابة دفتر الأستاذ الرّقميّ الذي يتمّ فيه تسجيل المعاملات. والفكرة منها أنّه من خلال الشفافيّة الجذرية، فإنّ تقنيّة سلسلة الكتل (البلوك تشين) التي يتمّ إنشاؤها من خلال أجزاء هائلة من الجمهور الذي يتمكّن من المشاركة في الشبّكة، تخلق «الثقة»؛ لأنّه من شبه المستحيل تسجيل الإدخالات الشّائنة، أو تغيير المعاملات التي تمّت معالجتها بالفعل.

1-2 مبادئ البلوك تشين

هناك ثلاثة مبادئ تقنيّة تجتمع فيما بينها؛ لتشكّل تقنيّة بلوك تشين، وإنّ هذه المبادئ ليست جديدة، ولكن تمّ تطبيقها واستعمالها بشكل جديد⁽¹⁾؛ وتلك التّقنيّات هي:

أ- التّشفير باستخدام المفاتيح الخاصّة (Private Keys): تستخدم هذه التقنيّة لجعل التّبادل آمنًا، كما أنّها تجعله غير مركز؛ حيث تعدّ الشبّكة سلسلة من الحواسيب التي عليها الموافقة على عمليّة التّبادل قبل تصديقها وتسجيلها، وأنّه عند إجراء أيّ عمليّة تبادل لمليّة ما، أو تحويل أموال فإنّه يظهر تشفيرًا، يتألّف من

1 - سمير، الشاعر، المذكورة، تقنيّة بلوك تشين، بيروت، 2021، ص 1

أرقام وأحرف عشوائية وكثيرة، عددها 20، بناءً على تحاليل خوارزمية.
 ب- الشبكات (Network): إنّ الشبّكة هي عبارة عن مجموعة من الأجهزة، أو الأنظمة المتّصلة ببعضها بعضاً، وتتيح لها مشاركة الموارد فيما بينها.
 هناك ثلاث أنواعٍ مختلفة من الشبّكات على نطاقٍ واسع، (انظر الشّكل رقم 2) وهي:



شكل رقم 2: شبكة التواصل اللامركزية عبر بلوك تشين (الند بالنند)⁽¹⁾

ج- دفتر الحسابات المشترك (Shared ledger): هو بمثابة دفتر يومية شخصي لكلّ مستخدم، يسجّل فيه حساباته المشتركة مع المتعاملين معه، والذين يمتلك كلّ منهم دورهم دفترًا مشابهًا، فأيّ تعديل بالحسابات في أيّ سجّل يظهر عند الجميع بنفس اللحظة، وبشكل فوريّ على شكل رمز مشفّر، حول قيمة معيّنة لرمز مشفّر آخر، وهذا يخلق النّقة والأمان⁽²⁾.

2- كيف تعمل بلوك تشين تقنيًا؟

يوجد، في الشبّكة العنكبوتية عبر المتاجر بكافة الحواسب والهواتف الذّكية، تطبيقات تسمح باستخدام تقنية بلوك تشين، ومنها: Blockchain –Binance– Ethernium

1 - Balazs, Bado. اللامركزية من منظور متعدد التخصصات، 17 حزيران 2021، أخذت بتاريخ 3 شباط 2022، من الموقع الإلكتروني: <https://www.jordanopensource.org/blog>
 2 - Ray,Shaan (20-2-2018), «The Difference Between Blockchain & Distributed(1) - Ledger Technology»، ترجمة موقع المعرفة الإلكتروني، أخذت بتاريخ 6 شباط 2022، من الموقع الإلكتروني: <https://org.marefa.m.www//:https>

ولكي نكون جزءًا من حلقة بلوك تشين (Node)⁽¹⁾، أي: نستخدم هذه التّقنيّة في إتمام معاملات شخصيّة، كانت أو تتعلّق بالأعمال والمؤسّسات العامّة، يجب أن يتوفّر لدينا ما يلي:

- اتّصال النّظام بشبكة البلوك تشين: أي أن يكون لدينا جهاز حاسوب، أو هاتف ذكيّ، يتضمّن نظامًا وتطبيق البلوك تشين (application).

- أن نكون متّصلين بالإنترنت: أي الشبكة العنكبوتية التي سيّتلّص ويعمل عبرها الجيل الثالث من الويب (Web 3,0).

- إنشاء حساب على التطبيق: كأنشاء محفظة لحفظ البيتكوين مثلاً.

- تحميل البلوكات والبيانات الموجودة المتضمنة للعمليّة التي أجريت في التّطبيق.

- تخزين البلوكات على الجهاز: أي تخزين نسخة من البلوكات على الجهاز المستخدم، ما يجعل البلوك تشين أكثر ثقة؛ لأنّه متواجد كنسخة عند جميع المستخدمين، ولا يستطيع أحد التّلاعب به، إذ يتحقّق عليه حينئذٍ تغيير البيانات عند كل المستخدمين، وهذا شبه مستحيل.

- المتابعة والاستماع للعمليات، وذلك للتأكيد عليها وعلى صحّتها؛ لكي يكون جزءًا من حلقة التّقة.

- إنشاء كتل جديدة: لكي ننشئ كتلة تتضمّن بيانات ومعاملات متّصلة بالكتل الأخرى عبر سلاسل، سنعرض ذلك بالاستناد إلى بعض الأشكال والصّور عن كيفيّة وضع بصمة رقميّة له (Hash)⁽²⁾، أي: التّشفير لعدم التّلاعب، وطريقة عمل البلوك، ومما يكوّن، وكيفيّة التّحكّم به وتفصيله، ثمّ سنبينّ كيفيّة إضافة البلوك على السلسلة لتشكيل البلوك تشين، وسنحدّث أخيراً عن العقد الذكيّ، ودوره المهمّ في إجراء الاتفاقيّات والمعاملات.

1 - **Node**: أي عقد البلوك تشين، وهي المسؤولة عن التصرف كنقطة اتصال قد تقوم بوظائف مختلفة، كاعتبار أي كمبيوتر أو جهاز يتصل بواجهة البيتكوين مثلاً بمثابة عقدة، بمعنى أنها تتواصل بطريقة ما مع بعضها البعض

2 - البصمة الرقمية Hash: عند إجراء أي عملية تمر بمعالجة رياضية، وينتج عنها مجموعة من الأحرف والرموز، وعند اختلاط حرف واحد من البيانات تختلف الرموز، ولا يمكن لأي بلوكين -أي كتلتين مختلفين- أن ينتجوا نفس البصمة، وأهم البصمات الرقمية SHA256 المستخدمة في عمليات البيتكوين.

3- الدواعي في استخدام البلوك تشين في الإدارة

إن أسلوب الإدارة التقليدي يعتمد على المركزية في معظم الأحيان، وعلى حتمية وجود طرف ثالث في أي تعامل، لترخيص معاملة، أو ضمان حدوثها، مثلاً:

- البنوك: هي من يتحكّم في قطاع تحويل الأموال، لقاء رسوم محدّدة، فالبنك مثلاً في هذه الحالة هو من يقوم بدور الطرف الثالث في المعاملة لضمان حدوثها وانتقال الأموال من المرسل إلى المرسل إليه.

- دائرة السجل العقاري: وهي تمثّل أساس التعامل ونقل الملكيات، لأيّ عقار في أيّ دولة، بحيث تؤدي دور الطرف الثالث لقاء رسوم محدّدة، وتقوم بإصدار الملكيات، وعقود الإيجار، وضمان سلامة التعامل.

فضلاً عن ذلك، فإنّ المعاملات التقليدية المتصفّة بالمركزية مهما كان نوعها، تشترك في كونها:

- تحتاج إلى الوقت لتتمّ بشكل كامل (تفقد السرعة).

- تكلفه رسوم مالية باهظة في مجمل التّعاملات.

- قابلة للاختراق والتّلاعب.

- قابلة للسمسة غير القانونية والرشوة والفساد.

- تواجد البيروقراطية المعقّدة في مكانٍ ما فيها.

- محدودية المشاركة.

- تحتاج إلى مهارات معيّنة وقوانين وأنظمة تحكم دور الطرف الثالث.

- التّعاملات فيها معرّضة للخطأ بشكل كبير.

لذا، صُمّمت البلوك تشين للتخلّص من كل هذه التحدّيات والعيوب، وأضحت حاجة ماسّة للأسباب التالية⁽¹⁾:

المرونة: غالباً ما تتكرّر بنية البلوك تشين، فتبقى السلسلة تعمل من قبل معظم العُقد،

1- سالم، العلي، تقنية بلوك تشين، مزاياه، أنواعه، كيفية عمله، 2022، أخذت بتاريخ 12 آذار 2022، من موقع فهرس الإلكتروني: <https://www.faharas.net>

في حالة حدوث هجوم كبير على النظام.

تقليل الوقت: تسمح البلوك تشين بتسوية أسرع للصفقات، فهي لا تحتاج إلى عملية طويلة من التَّحَقُّق والتَّسوية والتَّخْلِيس؛ لأنَّ نسخة واحدة من البيانات المتَّفَق عليها ستكون متوفِّرة لجميع الأطراف.

الموثوقيَّة: تقوم البلوك تشين بالتَّصديق على هويَّات الأطراف المعنيَّة والتَّحَقُّق منها، ممَّا يُوَدِّي إلى إزالة السَّجَّلات المزدوجة وخفض الأسعار وتسريع المعاملات.

المعاملات غير قابلة للتَّغيير: من خلال تسجيل المعاملات بترتيب زمنيّ، فإنَّ البلوك تشين لا تقبل تغيير جميع العمليَّات، ممَّا يعني أنَّه عند إضافة أي كتلة جديدة إلى السلسلة لا يمكن إزالتها أو تعديلها.

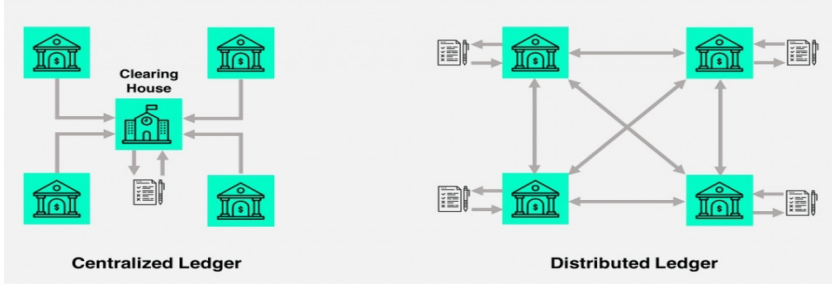
منع الاحتيال: تمنع مفاهيم المعلومات المشتركة والإجماع الخسائر المحتملة، بسبب الاحتيال أو الاختلاس.

الأمان: تُهاجم قاعدة البيانات التقليدية بإسقاط هدف معين، لكن بفضل تقنية السجل الموزَّع أو دفتر الأستاذ الموزَّع (Distributed Ledger) (انظر الشكل رقم 3) يحمل كل طرف نسخة من السلسلة الأصلية.

الشَّفافيَّة: إنَّ التَّغييرات على النُّوع العامِّ في البلوك تشين القابل لأطِّلاع الجميع يوفِّر شفافيَّة أكبر.

التَّعاون: يسمح للأطراف بالتَّعامل مباشرةً مع بعضهم بعضاً، من دون الحاجة إلى التَّوسُّط مع أطراف ثالثة.

اللامركزيَّة: هناك قواعد معياريَّة في كِيفيَّة تبادل كلِّ عقدة لمعلومات البلوك تشين، وتضمن هذه الطَّريقة التَّحَقُّق من صحَّة جميع المعاملات، وإضافة جميع المعاملات الصَّالحة واحدة تلو الأخرى.



السجل الموزع Distributed Ledger

شكل رقم 3: السجل الموزع Distributed Ledger

المصدر: <https://www.cryptoarable.com/2020/05/10-distributed-ledger>

4- نموذج إستونيا

تقع جمهورية إستونيا في منطقة بحر البلطيق بشمال أوروبا وعاصمتها تالين، ومنذ عام 1997 تسعى لتقدّم مخططاً؛ لكيفية بناء مجتمع رقمي، لمواجهة تحديات التكنولوجيا، بما في ذلك جمع البيانات والذكاء الاصطناعي والتّهديدات السيبرانية، فقد اجتذبت هذه الدّولة البلطيقية التي يبلغ عدد سكانها 3.1 مليون نسمة انتباه قادة العالم والأكاديميين وأصحاب رؤوس الأموال، وذلك بفضل مجتمعها الرقميّ عالي التّقنية، فأرقام إستونيا تتحدّث عن نفسها، حيث ينتهي دفع الضّرائب عبر الإنترنت في أقلّ من 5 دقائق، ويتوافر 99% من الخدمات العامة في إستونيا، على شبكة الإنترنت، على مدار 24 ساعة في اليوم، والنّظام مبنيّ على مبدأ المرّة الواحدة (once only principle)، أي: لا يتطلّب إعادة إدخال البيانات مراراً في كلّ عملية⁽¹⁾، ويصوّت ما يقرب من ثلث المواطنين عبر الإنترنت؛ لذا، تُعدّ إستونيا أوّل دولة رقميّة في العالم.

ثالثاً: اعتماد البلوك تشين في إدارات الدّولة اللّبنانية

لماكبة التّطوّر التّكنولوجيّ والمعلوماتيّ السّريع الذي يكتسح العالم بكافّة مجالات الحياة، ووضع خطط وإستراتيجيات للتّحوّل الرقميّ ومحاربة الفساد من قبل وزارة الدولة لشؤون التنمية الإدارية، نجد أنّ الإدارات والمؤسسات العامة في لبنان ما زالت تتخبّط

1 - سعاد، الإسحاقي، القيادة والتنافسية، إستونيا مجتمع رقمي، 2018، عنوان الرابط على تويتر: pic.twitter.com/KCizOn4vpT

بالفساد، وعدم الثقة بين الدولة والمواطن، والتعقيد في تدفق الإجراءات وتقديم الخدمة، إذ لا طريق واضحة ومعبّدة بعد، لتحقيق وتنفيذ إستراتيجيات التحوّل رقمياً، فكيف يمكن أن تكون بلوك تشين هي نموذج للتحوّل الرقميّ في الإدارات العامّة في لبنان؟

1- التحوّل الرقميّ

1-1 ما التحوّل الرقميّ؟

التحوّل الرقميّ هو استخدام التكنولوجيات، بتحويل لا تغيير، نموذج أعمال وعمليات وخدمات المؤسسة، من الكلاسيكيّ إلى الرقميّ بصورة أسهل، وأكثر فعالية واستفادة، والتحويل سوف يتمّ سواء بالخطط الإستراتيجية أم بالخدمات أم التفكير، وتبقى التكنولوجيا وسيلة وليست الهدف.

2-1 دوافع التحوّل الرقميّ

إنّ من أهمّ الدوافع لاعتماد التقنيات الرقمية في الأجهزة الحكومية هو حتّ المواطنين، ليكونوا شركاء في الإجراءات والعمليات الإدارية، كون الهدف يتمحور حول رضاهم، خاصّة أنّنا أصبحنا جيلاً، يتقبّل ويسهم كثيراً في التكنولوجيا الرقمية وعصر الاتصالات والسرعة، لكن يوجد أيضاً دوافع أخرى للتحوّل الرقميّ في الأعمال⁽¹⁾، وهي تظهر في:

أ- التكنولوجيا: الذكاء الاصطناعي، إنترنت الأشياء، التعلّم الآلي، مكننة الإجراءات الداخليّة، كلّ ذلك يسهّل ويخفّف تكلفة إجراء الأعمال، ويضيف مميّزات تنافسيّة وتفاضليّة على المنافسين.

ب- المواطنون: ليس مقبولاً أن تبقى إدارة عامّة مدة 20 سنة أو أكثر، تعمل بنفس الإجراءات وطريقة إيصال الخدمات، ويبقى المواطن رهين هذه الإدارة .

ج- المنافسة: تسعى الشركات المنافسة في السوق إلى جذب أكبر حصّة ممكنة؛ لذا، فإنّ عدم تطوير الخدمات والمنتجات وإدخال التكنولوجيا في أيّ شركة، قد يؤدي مع مرور الوقت إلى ظهور شركات جديدة تحلّ محلّها، ممّا قد يخرجها من السوق، كما حدث مع شركة نوكيا للهواتف المحمولة، على سبيل المثال، فقد خرجت من المنافسة

1 - ما المقصود بالتحوّل الرقميّ، 2021، أخذت بتاريخ 10 أيلول 2022، من موقع شركة أمازون الإلكتروني <https://ar.com.amazon.aws.www/>

لعدم مواكبتها التطور التكنولوجي وطلب السوق (الجيل الرقمي)، وشركة كوداك لإنتاج آلات التصوير التي خرجت من السوق بعد انتشار آلات التصوير الرقمي الحديثة.

د- **الأزمات العالمية:** التي حصلت ونقلت العالم إلى اتجاه آخر مغاير للحياة البشرية المعتمدة، فأجريت تعديلات كبرى في إستراتيجيات الحكومات بالقطاعات كافة، وهي أزمة انتشار فايروس كورونا (COVID-19)⁽¹⁾ في العالم، 2022. ففي لبنان، أصيب بالفايروس 1,103,711 شخص، وحصد 10,451 حالة وفاة حتى تاريخ 19 حزيران 2022⁽²⁾، كما أقرت كل الأسواق والشركات والمؤسسات الحكومية والمطاعم والفنادق والجامعات، وأعلنت حالات الطوارئ الصحية والأمنية، وأجبر الناس على التباعد فيما بينهم، ووضع الكمامة، والتعقيم المستمر للأمكنة ومحتوياتها، وذلك على مدى سنتين ونصف⁽³⁾، ما أدى إلى اللجوء للتواصل عبر شبكات الاتصال لاستمرار ديمومة الأعمال، فلجأت المؤسسات التعليمية إلى التعليم عن بعد عبر تطبيقات إلكترونية ورقمية وشبكات التواصل الاجتماعي، وأصبحت التحويلات المالية تجري عبر منصات رقمية، ما جعل الحكومات تفكر جدياً بالتحضير لمواجهة أزمة كورونا عبر إستراتيجية تبقي الأعمال مستمرة بالتواصل عن بعد (online). ومما لا شك فيه، فإن التقنيات الرقمية -وأهمها البلوك تشين- سوف تدفع بالحكومات والشركات العالمية إلى وضع إستراتيجية، للاستمرار في تقديم خدماتها عبر نموذج عمل رقمي.

1 - كورونا أو كوفيد-19: هو فايروس واسع وسريع الانتشار والانتقال، يصيب الإنسان ويعرض جهازه التنفسي للتلوث أو خطر الموت، ظهر في أواخر عام 2019 في الصين، ثم انتشر في أنحاء العالم بسرعة فائقة، وما زال ينتشر حتى اليوم، لكن بسرعة محدودة جداً، خاصة بعد اكتشاف لقاح خاص به.

2 - موقع وزارة الصحة العامة في لبنان، أخذت بتاريخ 19 حزيران 2022 من الموقع الإلكتروني: www.lb.gov.moph

3 - قرار المجلس الأعلى للدفاع رقم 1432، الإقفال لمواجهة ارتفاع إصابات الكورونا، بيروت، -12 2020-11 أخذت بتاريخ 15 حزيران 2022 من موقع وزارة الداخلية والبلديات: <http://www.interior.lb.gov>

2- فروقات التحوّل إلكترونيًا ورقميًا

جدول 3: الفرق بين الحكومة الإلكترونية والحكومة الرقمية

الحكومة الإلكترونية	الحكومة الرقمية (الذكية)
نقل معظم الأعمال والخدمات الحكومية إلى الفضاء الإلكتروني.	وضع الخدمات الحكومية بالقرب من المواطن، أي في هاتفه الجوال.
تقديم الخدمات عبر بوابات الإنترنت واستلام الرسوم المالية إلكترونيًا.	توظيف الذكاء الاصطناعي والواقع الافتراضي في تطوير العمل الحكومي.
تعتمد على الإدارة الإلكترونية في مكنة العمل داخل الإدارات.	الاستفادة من إنترنت الأشياء (IOT) وشبكات التواصل الاجتماعي.

3- مراحل التحوّل الرقمي للمؤسسات

بناءً على دراسة أجرتها مجلة هارفرد بزنس ريفيو، فإنّ التحوّل الرقمي للمؤسسات والشركات يمرّ بستّ مراحل رئيسة⁽¹⁾ هي:

1- العمل كالمعتاد: أي أن يكون العمل على الوضع الزّاهن، فتستمرّ الشركة أو المؤسسة في العمل بالطريقة التي اعتادوا عليها دائمًا، دون رؤى حول منظور عملائهم أو رغباتهم.

2- الوضع الحاضر والنشاط: في هذه المرحلة، تكون المؤسسة قد أدركت الحاجة إلى التحوّل، وربما تقوم بتجربة تكنولوجيات مختلفة للمضيّ قدمًا في الطريق، لكن جهودها غير منمّطة، وأقسامها المتعدّدة تتعامل مع المشكلة بعدد لا يحصى من الطرق المتنوّعة. لذا، ينبغي على المؤسسة إيجاد طريقة للانتقال من الفوضى إلى نهج أكثر تنظيمًا.

3- إضفاء الطابع الرسمي: بمجرد أن ينتقل النشاط التجاريّ إلى المرحلة الرّسميّة، تبدأ المؤسسة في رؤية التّجريب المعتمد للتكنولوجيات الجديدة مع أصحاب الرّؤى الرئيسيين ووكلاء التّغيير داخل المؤسسة، الذين يسعون للحصول على موافقة التّنفذين. وفي هذه المرحلة، من المرجّح أن تواجه المؤسسات حواجز الطّرق التي

1- المفاهيم الإدارية، 2021، أخذت بتاريخ 17 حزيران 2022 من الموقع الإلكتروني: <https://www.com.hbarabic>

وضعتها ثقافة المؤسسة، ما يحتم إجراء تغييرات على هذه الثقافة لتكون ناجحة، وهذا يتطلب وضع إستراتيجية لخلق ثقافة التحوّل الرقميّ في الإدارة، ولدى الموظفين والمواطنين والعملاء.

4- الإستراتيجية: ما إن تصل الأعمال إلى إستراتيجية، سيكون بالإمكان حينها اجتياز حواجز الطريق لثقافة العمل الراسخة والمشاركة التّفيدية، وكذلك التّحرك نحو إنشاء خارطة طريق إستراتيجية، لتدرك عندها المجموعة والإدارات الفردية القوة في التعاون الرقمي، وتّجّه نحو الاستثمارات في التكنولوجيات التي ستحوّل الأعمال إلى رقمية.

6- الابتكار وقابلية التكيف: تكون المؤسسة التي وصلت إلى هذه المرحلة قد حقّقت تحوّلًا رقميًا حقيقيًا، ووضعت نفسها على سكة مواصلة اتّباع مسارات تكنولوجيا جديدة، والتكيّف مع عالم الأعمال المتغيّر باستمرار وسهولة⁽¹⁾.

4- نموذج رقمنة السّجل العقاريّ باعتماد بلوك تشين

تُعدّ المديرية العامة للشؤون العقارية إدارة رسمية تابعة لوزارة المالية، مركزها الرئيس في بيروت، ويتفرّع منه مراكز تابعة في المحافظات، تتولّى كلّ ما يختصّ ويتعلّق بإجراءات نقل وتسجيل ملكية العقارات من أراضي ومبانٍ، بناءً على نظام يحدّد حقوق ومبادئ الملكية، ويرعاها وينظّمها، وذلك بقرار 3339 تاريخ 11-12-1930. ويتألّف السّجلّ العقاريّ من مجموعة الوثائق التي يمكن من خلالها معرفة وضع العقار المادّي والقانوني، ويبدأ مفعوله منذ اختتام أعمال التّحديد والتّحرير وإيداع محاضر العقارات في أمانة السّجلّ العقاريّ. وفي عام 1998، بدأت الدولة اللّبنانية بتحديث ومكننة نظام السّجلّ العقاريّ، وذلك بإدخال النّظام المعلوماتي على إجراءات تسجيل وإصدار السّنّدات والشّهادات والإفادات، فبدأ التنفيذ أوّلًا بأمانة بيروت في أيار 2001⁽²⁾.

1 - ما المقصود بالتحوّل الرقمي؟، ما المراحل المختلفة للتحوّل الرقمي؟، أخذت بتاريخ 9 تشرين الثاني 2022، من الموقع الإلكتروني لشركة أمازون: <https://digi-is-what/ar/com.amazon.aws/transformation-tal>

2 - المديرية العامة للشؤون العقارية، لمحة تاريخية: نظام السّجلّ العقاريّ في لبنان، أخذت بتاريخ 22 حزيران 2022 من الموقع الإلكتروني: <https://lb.gov.lrc.www/>

4-1 كيفة العمل قبل وبعد اعتماد تقنية بلوك تشين

إن رحلة المواطن لإتمام أي معاملة نقل وتسجيل ملكية عقارية، قبل وبعد اعتماد تقنية بلوك تشين، فعليه أن يقوم بما يلي (انظر الجدول رقم 4):

جدول 4: العمل بإدارة السجل العقاري قبل وبعد بلوك تشين

المرحلة	قبل بلوك تشين	بعد بلوك تشين
		(يجب إعادة تنظيم وهيكلية الدوائر العقارية)
تأمين المستندات الثبوتية: وذلك قبل الحضور إلى أمانة السجل العقاري، فيطلب تأمين سندات ووثائق تختلف وفقاً لنوعية المعاملة (1)	حكم حصر إرث صالح للتنفيذ وصادر عن المحكمة المذهبية أو المدنية.	تخزين كافة المعلومات في البلوكات بعد التدقيق في صحتها من قبل المجلس المشرف والمخول حماية خصوصية المواطنين.
	مذكرة ترخيص صادرة عن الدائرة المالية المختصة تتضمن رقم العقار.	إنشاء بلوك خاص بالدائرة العقارية، ومفتاح خاص بكل المواطنين أصحاب العلاقة.
	سند تملك أو شهادة قيد.	اعتماد العمل بالعقد الذكي لتسهيل أو تحقيق أو تنفيذ عمليات البيع والشراء بشكل رقمي دون طرف ثالث.
	عقد ينظم أصولاً لدى رئيس المكتب المعاون في أمانة السجل العقاري.	
	وصية منظمة أصولاً لدى المرجع الصالح تعطي الصيغة التنفيذية.	
	مذكرة ترخيص صادرة عن الدائرة المالية المختصة.	
	تسديد رسوم عند إتمام أي ورقة ثبوتية من بدل تسجيل وطوابع مالية وغيرها.	

<p>بعد الاتفاق بين البائع والشاري عبر العقد الذكي، يدخل البائع إلى حسابه عبر بلوك تشين، وينشئ بلوك يتضمن معلومات عن العقار، ثم ينقل ملكيته إلى الشاري مقابل مبلغ من المال محدد يرسله المشتري للبائع.</p>	<p>تُقدّم المستندات كاملة إلى رئيس المكتب العقاري المعاون المبيّن في سند التملك.</p>	<p>الإجراءات</p>
<p>عند تأكيد عملية البيع والشراء، يضاف البلوك على السلسلة ويأخذ بصمة رقمية.</p>	<p>يتم أصولاً تنظيم عقد لدى رئيس المكتب المعاون في أمانة السجل العقاري، أو لدى الكاتب بالعدل، وذلك لقاء رسم طابع مالي محدد القيمة، ويسمى «العقد الموجّه».</p>	
	<p>يسدّد المكلف الرسوم المقطوعة من رسم عقد، ورسم قيد، ورسم سند، ورسم بلدي.</p>	
	<p>تُعد أمانة السجل العقاري سند التملك، وتسلمه إلى صاحب العلاقة خلال مهلة تحددها.</p>	
	<p>استيفاء رسم مالي عند استبدال أي سند قديم بسند جديد.</p>	

2-4 الأسباب والمعالجة التي حققتها تقنية البلوك تشين

4-2-1 الدواعي والأسباب

- التزوير في المستندات، خاصة بعد الحرب الأهلية في لبنان، فقد هاجر الكثير من المواطنين تاركين أملاكهم من منازل وأراضٍ، ما جعل المفسدين يسطون بطريقة احتيالية أو بالقوة، ويتواطؤ مع معنيين في الدوائر العقارية، لنقل ملكية العقارات إلى غير أصحابها الحقيقيين، إضافة إلى بيعها. وفي 11 أيار 2020، كشفت صحيفة

«لبيانون دبيبايت» عبر موقعها الإلكتروني عن فضيحة أبطالها شركة الـ «ABC» ومعقّب معاملات وكاتب عدل وأكثر من موظفة في السجل العقاري في بيروت، في أثناء محاولتهم بيع عقار في منطقة الضبية تصل قيمته إلى 3 ملايين دولار باستخدام أوراق مزوّرة⁽¹⁾.

- الرّشوة والفساد الإداري: إنّ إجراءات حصر الإرث، ونقل ملكيّة عقار، وإفادة نفي ملكيّة وغيرها من المعاملات، تستوجب قضاء أيام في الدوائر العقارية لإجرائها، وذلك بسبب تواطؤ من الموظفين والسّماسرة، وهذا أمر معروف يتداوله المواطنون في أحاديثهم اليومية، حتى كاد أن يكون «عرفاً» إرفاق المواطن معاملة بأوراق نقدية قبل أن يتعرّض للعرقلة الإداريّة، فهو يشعر كأنّه داخل إلى «مغارة علي بابا» عند طرقه أبواب الدوائر الرّسميّة⁽²⁾.

وعلى سبيل المثال، فإنّ 65% من عقارات محافظة الجنوب غير ممسوحة، والأراضي غير المسجّلة في السجّل العقاري تُنبت بالعلم والخبر الصّادر عن مختار البلدة وعضوین اختياريين، وهذا النوع من الأراضي يفتح باب التّمليك أمام واضعي اليد، ضمن شروط مرور الزّمن والاستمرار والهدوء والعلانية، أي من دون معارضة أحد⁽³⁾.

4-2-2- المعالجات والإصلاحات التي حققتها البلوك تشين

- الشفافية في الأمور الماليّة: يكون الجميع على اطلاع بالتكاليف المعتمدة؛ لإتمام أي معاملة دون تدخّل السّمسار ورشوة الموظّف.

- جمع الوثائق والسجّلات والمستندات بالشبكة والتّخلّص من الأوراق: يحدث هذا بطريقة موثوقة وآمنة وغير مركزيّة، ممّا يحدّ من التّزوير، وذلك بتسجيل كلّ العمليّات التي تمّت على العقار من بيع وشراء.

- الحدّ من الفساد: يصبح التّعامل مع الجهاز، لا مع الموظّف الذي يُعدّ المفتاح

1 - الـ ABC حاول بيع عقار بأوراق مزوّرة والسجل العقاري متورّط، 2020، أخذت بتاريخ 24 حزيران 2022 من موقع لبيانون دبيبايت الإلكتروني: www.lebanondebate.com.

2 - إلهام، برجس، مقال بعنوان: «دونمات» أحمد... ضاعت في «مغارة» الدوائر العقارية، 6 كانون الاول 2014، أخذت بتاريخ 24 حزيران 2022 من موقع جريدة المدن الإلكتروني: www.almodon.com.

3 - سوزان، هاشم، مقال في جريدة الأخبار بعنوان: 65% من عقارات الجنوب المحرّر غير ممسوحة، 2007، أخذت بتاريخ 25 حزيران 2022 من الموقع الإلكتروني: www.akhbar-al.com.

لتحريك الفساد.

- إدارة الداتا: حيث يتم تناقل الداتا وإدارتها بين الدوائر العقارية والمواطن.
- السرعة واختصار المسافات: إذ تخفّض من التكلفة، وتُرضي المواطن، وتُعزّز ثقته بالدائرة العقارية وإدارتها.
- تنظيم عملية الشراء والبيع، عبر العقد الذكي رقمياً، دون طرف ثالث وتكاليف أخرى.

الخاتمة

وبالطريقة نفسها التي كانت بها تقنية الثورة الصناعية استجابة للتغيرات في المجتمع خلال تلك المرحلة، كذلك تُعدّ تقنية سلسلة الكتل «البلوك تشين» استجابة للتغيرات المستمرة في عصرنا.

إنّ بعض الصحف المكتوبة توقفت عن إصدار أعدادها على شكل جريدة أو مجلة ورقية، وتحولت إلى النّشر عبر مواقع إلكترونية، وذلك بسبب ما تقدّمه الهواتف الذكية والإنترنت من خدمات تقنية، تجعلنا نتصفح جميع أخبار العالم، ونشارك بالمناسبات والأعمال بنفس الوقت، ومن دون تكلفة كبيرة وبشكل أسرع.

قد يكون الإرث الرئيس لتقنية سلسلة الكتل «البلوك تشين» هو في إظهارها لحلول جديدة تماماً للمشاكل القديمة، وذلك عندما يتم تسليم طاقة الحوسبة إلى جزء كبير من السكّان، بدلاً من الاحتفاظ بها في الشركات والإدارات العامة فقط.

لذا، يجب على السلطات في لبنان أن تخطو خطوة جريئة، لتعيد الأولوية السّباقة بين دول الشرق أوسطية لكلّ ما هو جديد، ممّا يضيف طابعاً راقياً ومتطوراً وعادلاً وجاذباً لكبرى شركات العالم بكافة المجالات للاستثمار؛ أولم يحن الوقت بعد ليصبح المواطن اللبناني فخوراً بوطنه النموذجي في مواكبة التطورات الحديثة، وأداء الحكومة في التحسين الدائم والمرن، ويعيد ثقته بالمؤسسات العامة التي وُجدت لخدمته، فيتغنّى باعتماده تقنية البلوك تشين التي ستضيف المنافسة والريحية والعدالة والتنظيم للقطاع العام؟

نعم، لقد أصبح التحوّل الرقمي ضرورة لإدارة الدولة اللبنانية، وذلك من خلال اعتماد تقنية البلوك تشين.

1- النتائج

يمكن الاستنتاج من هذا البحث المتواضع، كونه يقدّم إضافة معرفية من خلال تسليط الضوء على معلومات حديثة، مدعّمة بتجارب واقعية، إلى جانب طرح مقترحات، بل وتصور لاعتماد تقنية البلوك تشين في بعض القطاعات؛ أنّ

- التنظيم الإداري في لبنان تنظيمًا هشًا وفسادًا بتواطؤ اليد البشرية وبعض السلطات.
- المركزية في الإدارة والقرار هي إحدى أهمّ المشاكل الإدارية في لبنان، والحلّ هو التحوّل إلى اللامركزية باعتماد الرقمنة.

- أداء الحكومة والخطط الاستثمارية والإنتاجية يفترض أن يتمحور حول رضى المواطن.

- التحوّل الرقمي أصبح ضرورة ملحة للاستمرارية وعدم الانهيار.

- تقنية بلوك تشين قادرة على حلّ الكثير من المشاكل في العديد من القطاعات، وذلك بناءً على تجارب دول عربية وأجنبية ناجحة.

- بلوك تشين ستسهم في رفع كفاءة وفعالية أداء المؤسسات العامة أو ربّما أكثريتها.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع والكتب العربية

1 - ديراني، إميل، شنيبي، إنطوان، وآخرون، دليل المواطن إلى أصول وإجراءات إنجاز معاملات رسم الانتقال، لبنان، مطبعة دبّوس، ط 3، 2010.

2 - رويرتو، مارتينز، وآخرون، آراء المواطنين وتجاربهم مع الفساد: مقياس الفساد العالمي، الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، منظمة الشفافية الدولية، 2019.

3 - قباني، خالد، اللامركزية ومسألة تطبيقها في لبنان، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1981.

4 - المذكّرة، سمير الشاعر، تقنية بلوك تشين، بيروت، 2021.

5 - نشاب، شادي، دراسة حول أهميّة اللامركزية الإدارية في لبنان، بيروت، دن، دم، دط، 2009.

2 - قائمة المؤتمرات

1 - أبو مراد، أميرة، مقررات مجتبع بعدا تحت المجر، مؤسسه نوفل للطباعة والنشر، بيروت 1973.

3 - ثالثاً: القوانين

1 - الجمهورية اللبنانية، رئاسة مجلس الوزراء، التفتيش المركزي، مرسوم رقم 8889، المادة الأولى تاريخ 1996-6-5، أخذت بتاريخ 2022-7-24، من الموقع الإلكتروني: <https://www.cib.gov.lb>

2 - قرار المجلس الأعلى للدفاع رقم 1432، الإقفال لمواجهة ارتفاع إصابات الكورونا، بيروت، 2020-11-12، أخذت بتاريخ 15 حزيران 2022، من موقع وزارة الداخلية والبلديات. <http://www.interior.gov.lb>

4 - رابعاً: الكتب الأجنبية المترجمة:

20. Ray, Shaan (2018), «The Difference Between Blockchain & Distributed Ledger Technology», ترجمة موقع المعرفة الإلكتروني، أخذت بتاريخ 6 شباط 2022 من الموقع الإلكتروني <https://www.m.marefa.org>، ترجمة الأستاذ عبد الله الحسن محمد السفر.

5 - خامساً: المواقع الإلكترونية

1 - ال ABC حاول بيع عقار بأوراق مزورة والسجل التجاري متورط، 2020، أخذت بتاريخ 24 حزيران 2022، من موقع ليانون ديبايت الإلكتروني: www.lebanondebate.com.

2 - إستراتيجيات، مكتب وزير الدولة لشؤون التنمية الإدارية، لبنان، 2020، أخذت بتاريخ 15-2022، من الموقع الإلكتروني: <http://www.osmar.gov.lb>.

3 - الإسحاق، سعاد، القيادة والتنافسية، إستونيا مجتبع رقمي، 2018، عنوان الرابط على تويتر: pic.twitter.com/KClzOn4vpT

4 - إلهام، برجس، مقال بعنوان: «دونمات» أحمد... ضاعت في «مغارة» الدوائر العقارية، 6 كانون الأول 2014، أخذت بتاريخ 24 حزيران 2022، من موقع جريدة المدن الإلكتروني: www.almodon.com.

5 - جمهورية إستونيا، 1 أغسطس 2021، أخذت بتاريخ 2022-6-1، من الموقع الإلكتروني: www.albayan.ae

6 - سالم العلي، تقنية بلوك تشين تعرف على مزاياه وأنواعه، 11 آذار 2022، أخذت بتاريخ 16 حزيران 2022، من الموقع الإلكتروني «الفهرس»: <https://www.faharas.net>

7 - كاتي، موليان، تقنية سلسلة الكتل بلوك تشين والنمو المستدام، أخذت بتاريخ 3 آذار 2022، من موقع الأمم المتحدة الإلكتروني: <https://www.un.org/ar>.

8 - ما المقصود بالتحول الرقمي؟ ما المراحل المختلفة للتحول الرقمي؟ أخذت بتاريخ 9 تشرين الثاني 2022، من الموقع الإلكتروني لشركة أمازون: <https://aws.amazon.com/ar/>

- 9 - المديرية العامة للشؤون العقارية، لمحة تاريخية: نظام السجل العقاري في لبنان، أخذت بتاريخ 22 حزيران 2022، من الموقع الإلكتروني: <https://www.lrc.gov.lb>.
- 10 - المفاهيم الإدارية، 2021، أخذت بتاريخ 17 حزيران 2022، من الموقع الإلكتروني: <https://www.hbarabic.com>
- 11 - موقع وزارة الصحة العامة في لبنان، أخذت بتاريخ 19 حزيران 2022، من الموقع الإلكتروني: www.moph.gov.lb
- 12 - هاشم، سوزان، مقال في جريدة الأخبار بعنوان: 65% من عقارات الجنوب المحرر غير ممسوحة، 2007، أخذت بتاريخ 25 حزيران 2022، من الموقع الإلكتروني: www.al-akhbar.com.
- 13 - Balazs, Bado اللامركزية من منظور متعدد التخصصات، 17 حزيران 2021، أخذت بتاريخ 3 شباط 2022، من الموقع الإلكتروني: <https://www.jordanopensource.org/> blog

الرئيس فؤاد شهاب بين التمديد واللا تمديد

President Fouad Chehab between extension and non-extension

إيلي جورج البردويل

Elie George Bardawil

تاريخ القبول 2025 / 1/8

تاريخ الاستلام 2024 / 12/20

الملخص

لقد جاء في خطاب القسم الذي ألقاه الرئيس فؤاد شهاب في بداية عهده: «إن المساواة بين اللبنانيين، والاخلاص والصراحة في علاقاتنا مع البلاد العربية الشقيقة، والكرامة والصدقة في جميع علاقاتنا الأجنبية، هي أسس جديدة لتوفير حياة هانئة لوطننا لبنان». وبذلك يكون الرئيس شهاب قد عمل وعلم هذه الأسس السلمية لبناء دولة المواطنة والمساواة. والسؤال المطروح، ماذا لو وافق الرئيس شهاب على طلب أغلبية النواب بالتجديد له لولاية رئاسية ثانية؟ خاصة وأنه الرئيس الوحيد الذي لم يطلب التجديد لنفسه، بل الغالبية النيابية والشعبية كرسته رئيساً وقائداً قل نظيره. هذا ما حاولنا تخيله في هذا المقال، من رسم أحداث من نسج الخيال، وبالاستناد إلى إعادة ترتيب الأحداث السياسية، وتخييل وقوع حوادث أخرى بالارتكاز على بعض الأمور السياسية والاقتصادية التي شهدتها عهد الرئيس شهاب، وصولاً إلى الحرب المشؤومة في العام 1975.

Abstract

In the oath of office speech delivered by President Fouad Chehab at the beginning of his term, he said: «Equality among the Lebanese, sincerity and transparency in our relations with our Arab brother countries, and dignity and friendship in all our foreign relations, are the new foundations for ensuring a prosperous life for our country, Lebanon.» Thus, President Chehab established and taught these peaceful principles for building a state based on citizenship and equality. The question raised is: What if

President Chehab had agreed to the majority of MPs' request for a second presidential term? Especially since he was the only president who did not seek re-election for himself, but was instead made president and leader by the parliamentary and popular majority, a distinction rarely seen. This is what we have tried to imagine in this article, by envisioning events from the realm of fiction, based on reordering political events, and imagining other incidents, grounded in certain political and economic factors that characterized President Chehab's term, ultimately leading to the tragic war of 1975.

مقدّمة

أعلنت فرنسا في العام 1926 قيام الجمهورية اللبنانيّة التزاماً منها ببنود صك الانتداب، كما كانت قد أعلنت سابقاً، وتحديداً في الأوّل من أيلول العام 1920 تاريخ إعلان دولة لبنان الكبير، أي بعد شهرين فقط من توقيع اتفاق سان ريمو في إيطاليا، وأقل من شهر على خروج الملك فيصل وحكومته العربيّة من مدينة دمشق⁽¹⁾. ومنذ ذلك التاريخ تبوأ منصب الرئاسة العديد من السّياسيين، بداية مع شارل دبّاس اللّبنانيّ الأرثوذكسي، وصولاً إلى الميثاق الوطنيّ والاتفاق على تكريس هذا الموقع للطائفة المارونية، فكان بشارة الخوري أول رئيس بعد الاستقلال، والذي استمرّ من العام 1943 وحتى العام 1952 بعد تمديد ولايته لثلاث سنوات إضافيّة، منتهياً بأزمة دستوريّة أدت إلى تقديمه استقالته في 18 أيلول 1952، بعد أن قام بتكليف حكومة انتقاليّة برئاسة فؤاد شهاب⁽²⁾. وبعد هذه الأزمة وصل إلى الحكم كميل شمعون بعد منافسة حادّة مع حميد فرنجيّة، واستمرّ عهده من العام 1952 حتى العام 1958 منتهياً بثورة حصلت في 9 أيار 1958، كان من أبرز نتائجها إنزال الجيش الأميركي قوات المارينز في 15 تموز 1958 بموجب طلب من شمعون نفسه⁽³⁾، وانتهاء العهد من دون التمديد للرئيس شمعون لثلاث سنوات إضافيّة.

1- د. الصليبي، كمال: «بيت بمنازل كثيرة»، هاشين انطوان، بيروت، الطبعة السادسة، 2018، صفحة 44.

2- الخوند، مسعود: «موسوعة الحرب اللبنانية»، شركة يونيفرسال، بيروت، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، 2006، صفحة 152.

3 - تيموفيف، إيغور: «كمال جنبلاط، الرجل والأسطورة»، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى، 2008، صفحة 274.

في 31 تموز 1958 تمّ انتخاب اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية اللبنانية، في ولاية استمرت حتى العام 1964، وبذلك يكون الزعيم فؤاد شهاب قد أدى عدة أدوار أساسية قبل وصوله إلى الرئاسة، أبرزها المشاركة في المفاوضات مع الانتداب الفرنسي لتسلم الوحدات العسكرية في العام 1945، ولاحقاً تعيينه من قبل الحكومة اللبنانية أول قائد للجيش اللبناني في 1 آب 1945. ومع أزمة الرئيس بشارة الخوري، استلم فؤاد شهاب موقع رئاسة الحكومة بالتكليف، حيث استمر بمهمته لمدة سنة أيام بمهمة محددة وهي تأمين انتقال سليم وطبيعي للسلطة عبر انتخاب رئيس للجمهورية اللبنانية، ليعود بعد ذلك إلى مكتبه في وزارة الدفاع كقائد للجيش الوطني⁽¹⁾.

وقد حرص الرئيس فؤاد الشهاب خلال هذه الفترة على مواقفه المحايدة في الأزمات السياسية الداخلية، مبدياً مخاوفه من أن يصبح الكرسيّ الرئاسيّ هاجساً عند قائد الجيش أو أي من الضباط الكبار، فخاطب رئيس الأركان توفيق سلام، خلال الأزمة التي أنهت عهد الرئيس بشارة الخوري، قائلاً: «إذا فتحنا باباً أصبح مزارباً، أي أنّ كل الناس، وكل الضباط، يريدون عندئذ أن يملأوا من هذا الباب، لا أريد هذه السابقة». إلا أنه وللمرة الثانية، في ظل الأزمة الوطنية الخطيرة التي ضربت البلاد في العام 1958، دعي فؤاد الشهاب مرة أخرى من مكتبه في وزارة الدفاع، وهو الذي نجح بالمحافظة على حياد الجيش اللبنانيّ مرّة جديدة خلال أحداث هذه الأزمة، دعي إلى استلام الحكم عبر انتخابه رئيساً للجمهورية، لمنع الفوضى وإحلال السلام، دون أن يعني ذلك انتقال الحكم إلى العسكر، المسألة التي ألقنها فؤاد شهاب بفصله الكامل ما بين الموقع السياسيّ والموقع العسكريّ.

التّمدد للرئيس فؤاد شهاب

منذ كانون الثاني 1964 بدأ الرئيس فؤاد شهاب يشير إلى رغبته بالاستجابة لطلب الضباط الأقرب إليه بتجديد ولايته في الحكم لست سنوات جديدة بعد تعديل الدستور، الذي سيكون سهلاً نظراً للرغبة التي أيدها عددٌ كبيرٌ من النواب، بلغ حوالي التسعة وسبعين نائباً أيضاً أبدوا رغبتهم بالتّجديد لولاية جديدة للرئيس شهاب، وهذا ما حصل خلال جلسة 18 آب 1964، بالرغم من معارضة البطريرك الماروني بولس المعوشي،

1 - ناصيف، نقولاً: «جمهورية فؤاد شهاب»، دار النهار، بيروت، الطبعة الثانية، 1972، صفحة 141.

الذي نجح في إقناع الرئيس الأميركي جون كيندي بمخاطر تكرار أزمة 1952⁽¹⁾، وبالرغم من معارضة أقطاب الموارنة لذلك بالتمديد، حيث عمل كل من بيار الجميل وكميل شمعون وريمون إده وغسان التويني على منع التجديد للرئيس لولاية ثانية، كما انضم إليهم الرئيس صائب سلام، فشنت النّهار حملة على تدخّلات المكتب الثّاني وتدخّلاته في الانتخابات لمصلحة مرشحي «النهج»، وصولاً إلى اتهام الرئيس شهاب بأنّه ذهب في عروبوته وناصريته أكثر من اللزوم⁽²⁾.

العلاقة مع الرئيس جمال عبد الناصر

في بداية عهده الجديد حرص الرئيس فؤاد شهاب على استمرار العلاقة المميزة مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وقد اسفر استمرار هذه العلاقة عن التأكيد على أهمية استمرار المفاعيل السياسيّة للقاء الخيمة الذي عقد في 9 شباط 1959، بالرغم من أنّ هذا اللقاء كان الوحيد بينهما فكان الأوّل والأخير، إلا أنّ الاتصالات التنسيقية لم تنقطع بين الرئيسين طوال ولاية الرئيس فؤاد شهاب عبر الهاتف أو عبر موفدين شخصيين⁽³⁾، على أن تستمرّ أيضاً في الولاية الرئاسيّة الممدّدة. وبالتالي استمر التنسيق الأمني والسياسي والإعلامي بين البلدين، واستمرت مساعي الرئيس جمال عبد الناصر بالمساعدة للسيطرة على الجهات والعناصر المسلحة المسلمة في لبنان، من بينها منظمة التحرير الفلسطينيّة وعدد كبير من الفصائل الفلسطينيّة، وخاصة العناصر والمجموعات التي دخلت لبنان خلال أحداث العام 1958، مما سيسهم في تمديد فترة الاستقرار التي ينعم بها لبنان، بالرغم من التوترات الحادة التي كانت تمر بها وتعصف بالبلدان العربيّة عامة والمجاورة خاصة، إضافة إلى استمرار الدعم العربيّ والدوليّ لاستكمال البرامج الإصلاحية والإنمائية التي وضعها وبدأ بتنفيذها الرئيس خلال ولايته الأولى، ويطمح إلى إكمالها في الولاية الجديدة.

كان الرئيس شهاب يؤمن باستقلال لبنان ككيان نهائي، وبانتمائه إلى القومية العربيّة، حيث شكّلت العروبة رابطة أساسية جمعت لبنان بمحيطه الجغرافي، وجعلته منخرطاً

- 1- الخوند، مسعود: «موسوعة الحرب اللبنانية»، شركة يونيفيرسال، بيروت، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، 2006، صفحة 86.
- 2 - الخوند، مسعود: «موسوعة الحرب اللبنانية»، شركة يونيفيرسال، بيروت، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، 2006، صفحة 85.
- 3 - ناصيف، نقولا: «جمهورية فؤاد شهاب»، دار النهار، بيروت، الطبعة الثّانية، 1972، صفحة 333.

في القضايا العربيّة الأساسيّة العديدة وعلى رأسها القضية الفلسطينيّة⁽¹⁾. ممّا ساعد في الولاية السابقة، وسيساعد في الولاية الممدّدة للبنان بتأمين مظلة حماية من التدخّلات الأجنبيّة في ظلّ الأحداث المتسارعة والمدمرة في المنطقة. فمصر ستستمر باعترافها ودعمها لاستقلال لبنان وسيادته، كما تستمر بدعم التّعاون الثّنائي بين البلدين، وبين سائر البلدان العربيّة. وعلى لبنان في هذه المرحلة الاستمرار بالتنسيق الدبلوماسي مع بعض الدّول العربيّة وعلى رأسها مصر، في محاولة للوصول إلى تنسيق المواقف من القضايا العربيّة والدولية، وبالمقابل تستمر مصر بتأمين الغطاء الإسلاميّ الداخليّ والخارجي للحكم عبر العلاقات التي كانت تربطها بالفعاليات الإسلاميّة داخليّاً، والدول العربيّة خارجيّاً، خاصة وأنّ الناصرية كانت في هذه المرحلة عنصراً مؤثّراً في الرأى العام الإسلاميّ والعربيّ، كما كانت شخصية الرئيس جمال عبد الناصر عنصر جذب للأفكار والحركات الثوريّة العربيّة. وسوف يستعمل الرئيس هذه الشبّكة من العلاقات العربيّة للضّغط على المشاركين في مؤتمر الاسكندرية في العام 1964، من أجل حماية لبنان وعدم الرّضوخ للشروط المصرية السّوريّة لجعل لبنان واحداً من دول المواجهة، بعد أن تمكّن لسنتين عديدة من تجنب هذا الخيار باعتماد مبدأ الحياد⁽²⁾.

العلاقة مع الفلسطينيّين

مع نكبة العام 1948 بدأت أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيّين بالهروب من الإجمام الصّهيونيّ الممارس على كافة الأراضي الفلسطينيّة، عبر العديد من المجازر المرتكبة بحقّ السكان الفلسطينيّين، أبرزها مجزرة دير ياسين. فقد شمل هذا النزوح كافة المناطق الآمنة المحيطة بالحدود الفلسطينيّة، على أمل العودة القريبة إلى أرضهم وقراهم، ومن هذه الدول مصر والأردن وسوريا وأيضاً لبنان. ومع تقدّم الوقت بدأ الفلسطينيّ يدرك أن موضوع العودة سيكون صعباً وطويلاً، فبدأ الانتشار في لبنان يشمل المخيمات التي انتقلت من القرى الحدودية إلى المدن الأساسيّة والمناطق الداخليّة في لبنان، وصولاً إلى طرابلس وبيعلبك وبيروت وغيرها من المناطق اللّبنانيّة، كما وبدأت مع الوقت تظهر التنظيمات الفلسطينيّة المسلحة لقيادة الثورة والحرب ضد الكيان الإسرائيليّ المحتل. وقد

1- حرب، مروان: «الشهائية حدود التحديث السياسي في لبنان»، دار سائر المشرق، جديدة المتن، الطبعة الأولى، 2012، صفحة 69.

2 - الخوند، مسعود: «موسوعة الحرب اللبناية»، شركة يونيفيرسال، بيروت، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، 2006، صفحة 97.

بدأت هذه التنظيمات بمواجهات وإشكالات مع الدول المضيفة في المرحلة الأولى، قبل تطور هذه العلاقات نحو حرب كما في الأردن، أو نحو ضبط قاس للحركة العسكرية كما في سوريا. أما بالنسبة إلى لبنان فقد بقيت هذه التنظيمات المسلحة تعمل تحت إيقاع مضبوط من الدولة اللبنانية، لم يتجاوز حدود اللقاءات السياسيّة والتدريبات البدائية في المرحلة الأولى، وخاصة خلال ولاية الرئيس فؤاد شهاب الأولى⁽¹⁾، لتتحول ابتداء من العام 1964 إلى عمليات عسكرية محدودة.

أعطى الرئيس فؤاد شهاب أوامره إلى القيادات العسكريّة والسياسيّة بضبط الحدود عبر ضبط ازدياد العمليات العسكريّة الفلسطينيّة من الجنوب اللبناني، والتي كان يقوم بها غالباً فلسطينيون مقيمون داخل سوريا، ومتسلّلون عبر الحدود البرية المشتركة بين لبنان وسوريا، وخاصة منطقة دير العشاير اللبنانيّة، وذلك بسبب الرفض السوريّ الضمني لاستمرار العلاقة التنسيقية بين لبنان ومصر، وقد كان لهذه العمليات رد انتقاميّ تدميريّ تردّ به إسرائيل على القرى والمدن اللبنانيّة.

ومع هزيمة حزيران 1967، أصبحت منظمة التحرير الفلسطينيّة هي الممثل الرسمي والوحيد لمعظم أبناء الشعب الفلسطينيّ، فاستطاعت في فترة بسيطة أن تصبح هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطينيّ، والممثل الخارجي لتحقيق مطالب هذا الشعب، فاكتملت المنظمة بعداً جماهيرياً هائلاً داخل المجتمعات اللبنانيّة، ومنها بطبيعة الحال المجتمع اللبناني. هذا الدعم الجماهيري اللبنانيّ أمّن للمقاومة الفلسطينيّة القاعدة الشعبية لتخطي حدود العلاقة الروتينية بينها وبين الدولة اللبنانيّة، فتوسع إطار منطقة العمليات الفلسطينيّة على حساب المناطق الخاضعة للجيش اللبناني⁽²⁾. وسرعان ما أثار هذا الانتشار بعد حرب العام 1967 مخاوف المسيحيين في لبنان على أكثر من صعيد، ممّا أدى إلى قيام الحلف الثلاثي لاحقاً بين الزعماء شمعون والجميل وإده.

إلا أنّ وجود الرئيس شهاب على رأس الدولة لولاية ثانية سيحول دون تطور الأمور نحو الأسوأ مستعملاً علاقاته الدولية والعربيّة، ومع النظام الناصريّ في مصر بشكل

1- سعد، انطوان: «مسؤولية فؤاد الشهاب عن اتفاق القاهرة»، دار سائر المشرق، جديدة المتن، الطبعة الثّانية، 2019، صفحة 19.

2- قصير، سمير: «حرب لبنان من الشقاق الوطني الى النزاع الإقليمي»، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، صفحة 71.

أكثر تحديداً، للضغط أولاً على الأردن لعدم نقل المسلحين الفلسطينيين إلى لبنان بعد أيلول الأسود من العام 1970، والذي قد يؤدي إلى قلب التوازنات الديمغرافية داخل الدولة اللبنانية، ويؤدي أيضاً إلى زيادة الاحتكاك مع الجيش اللبناني، كما أنه سوف يسهم لاحقاً في زيادة الشرخ الطائفي حول موضوع انطلاق العمليات الفدائية الفلسطينية من داخل الأراضي اللبنانية، والذي بدأت تباشيره تظهر من خلال النقاشات الحادة داخل المجلس النيابي، وعلى المنابر الإعلامية حول تأييد أو رفض هذه العمليات.

ومع ضبط حركة المقاومة الفلسطينية عسكرياً، دون التخلي عن دعمها بكافة السبل الممكنة، من أجل تحقيق حق العودة لكل فلسطيني إلى أرضه وبلاده، إضافة إلى استمرار تقديم الدعم الشعبي والمادي والتقني للجيش اللبناني وسائر القوى الأمنية، من أجل ضبط سيطرتها أكثر على الأرض، قد تصل إلى خفض مستوى العمليات الفدائية، وبالتالي الحد من أثارها المدمرة من قبل الرد الانتقامي الإسرائيلي، والحد من الانقسام الداخلي الكبير الذي يتطور ويؤدي إلى انقسام خطير وخاصة حول موضوع الجيش، مما قد يدفعنا إلى الاستعانة بمؤتمرات أجنبية ودولية لحل هذه الأزمة، ومنها مؤتمر القاهرة الذي كرس لاحقاً الاعتراف بالمنظمات الفلسطينية كوحدات مستقلة داخل حدود الدولة اللبنانية، وأطلق حرية العمل الفدائي، وحرية تسليح الفصائل الفلسطينية، والذي سيؤدي لاحقاً إلى حرب أهلية لبنانية، وبالتالي سوف يكون اللقاء مع ياسر عرفات في العام 1968 علنياً وليس بغفلة عن رئيس الجمهورية الذي قد يكون موجوداً⁽¹⁾.

ومع ضبط، أو أقله قيام تنسيق بين الجيش اللبناني والفصائل الفلسطينية، بعدما أصبح لبنان هو فضاء الحرية الوحيد المتاح للمقاومة الفلسطينية، بعد إغلاق جبهات الأردن وسوريا ومصر أمام العمليات الفدائية⁽²⁾. وبذلك يكون لبنان قد استطاع منع أو تأخير، بالحد الأدنى، الصدامات بين الجيش اللبناني والفصائل الفلسطينية، ولاحقاً دخول أحزاب اليمين اللبناني في الصراع، ليتحوّل إلى حرب أهلية عاشها لبنان منذ العام 1975 حتى العام 1990.

1 - سعد، انطوان: «مسؤولية فؤاد الشهاب عن اتفاق القاهرة»، دار سائر المشرق، جديدة المتن، الطبعة الثانية، 2019، صفحة 80.

2 - قصير، سمير: «حرب لبنان من الشقاق الوطني الى النزاع الإقليمي»، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، صفحة 74.

العلاقة مع السوريين

شهدت الولاية الأولى للرئيس شهاب العديد من الانقلابات في سوريا أبرزها انقلاب حزب البعث، وإقفال الحدود مع لبنان لدواع أمنية، بذريعة إيواء لبنان العديد من المعارضين لنظام الحكم الجديد في سوريا، وقد عبّر النظام السوريّ من خلال هذه الذريعة عن رفضه الضمني للعلاقات المميزة بين لبنان ومصر، ورفض لبنان اتهامه بحياكة المؤامرات على سوريا، أو وجود مخيمات تدريب مصرية على أراضيه بهدف ضرب الاستقرار في سوريا عبر أعمال عسكرية تخريبية⁽¹⁾. ومع وصول الرئيس شهاب إلى ولاية رئاسية ثانية، سوف يستكمل سياسة الحد الأدنى من التنسّق مع نظام دمشق عبر رفع مستوى الاجتماعات المتبادلة، والتي قد تصل إلى مستوى الرؤساء، وذلك حرصاً منه على أمن لبنان السياسي والاقتصادي المعرّض دائماً للاهتزاز القوي بيد الجار الذي يملك أكبر مساحة من الحدود المشتركة مع لبنان. وبذلك قد يكون لبنان تقادى مسألة الدعم السوريّ للنشاطات الفلسطينية العسكرية من داخل الأراضي اللبنانيّة، وحاول الوصول إلى تفاهم حول تسهيل عملية انتقال المسلحين الفلسطينيين من الأردن إلى لبنان، وكذلك منع خلق تنظيمات فلسطينية مسلّحة هدفها منع الوحدة بين مختلف الفصائل الفلسطينية، والسيطرة على قرار بعض هذه الفصائل، واستخدامها لتحقيق غايات خاصة بالنظام السوريّ، من خلال خلق توترات أمنية داخلية أو خارجية مع العدو الإسرائيليّ. الأمر الذي قد يؤدي مستقبلاً إلى تقادي أو تأخير، بالحد الأدنى، أحداث العام 1967 وتوقيع اتفاق القاهرة لاحقاً، والذي كان سبباً من الأسباب الأساسية لاندلاع الحرب اللبنانيّة في العام 1975.

مسألة الأمن الداخليّ

لا يسعنا التكلّم عن عهد فؤاد شهاب دون التعرّض لمسألة المكتب الثنائي. فمنذ بداية تأسيس الجيش اللبنانيّ كان من المفروض أن يكون من ضمن أجهزته الخاصة جهازاً للاستخبارات العسكريّة وجمع المعلومات ومكافحة التجسس. وفي الأول من تشرين الأول من العام 1958 كلّف القائد فؤاد شهاب النقيب إميل البستاني باستحداث هذا الجهاز غير الموجود أصلاً، فكان مقر عملهم في وزارة الدفاع الوطنيّ، وكان مصدر تسمية

1- ناصيف، نقولاً: «جمهورية فؤاد شهاب»، دار النهار، بيروت، الطبعة الثانية، 1972، صفحة 366.

«المكتب الثّاني» فرنسيًا منذ تأسيس هذا الجهاز داخل قيادة أركان الجيش الفرنسي⁽¹⁾. لقد تطوّر عمل هذا الجهاز مع مرور الوقت، فأدّى دورًا مهمًّا وأساسيًّا في عهد فؤاد شهاب حتى ارتبط اسم المكتب الثّاني بالنهج الشّهابي. كما أدّى هذا الجهاز دورًا مهمًّا خلال وبعد عملية الانقلاب التي نفذها الحزب السّوري القومي الاجتماعيّ في 30 كانون الثّاني 1961، كما تدخل في العمل السّياسي والانتخابيّ فكان تدخله واضحًا لنصرة لوائح ضدّ لوائح أخرى كما حدث في انتخابات العام 1960⁽²⁾ وما تلاها من انتخابات العام 1964، ليصبح هذا الجهاز لاحقًا هو من أسلحة العهد الأساسية، خاصة بعد أن ادرك الرّئيس الفوضى الطائفية التي وقع فيها لبنان بعد أحداث العام 1958⁽³⁾.

الآن وبعد التّجديد للرئيس فؤاد شهاب سوف يستكمل هذا الجهاز تأدية دوره العسكريّ والمخابراتيّ داخليًّا وخارجيًّا، وسوف يستكمل متابعة عملية كشف شبكات التّجسس لصالح العدو الإسرائيليّ، كما حدث في العام 1963 مع كشف شبكة للعملاء بقيادة السيدة شولا شاهين⁽⁴⁾. كما سوف يتابع ضباط هذا الجهاز التنسيق، ولو بالحد الأدنى، مع المكتب الثّاني السّوريّ بعد وصول حزب البعث إلى السّلطة في سوريا، حرصًا على حماية المؤسسات المدنيّة والعسكريّة في لبنان من أيّ تدخل خارجي. كما أنّ المكتب الثّاني سوف يتابع موضوع التعاطي بالملف الفلسطينيّ، بعد تبني منظمة التحرير الفلسطينيّة مبدأ الكفاح المسلح، نظرًا لما لهذا الملف من حساسية، من ناحية ضبط السلاح والمسلحين المنتشرين داخل المخيمات في المرحلة الأولى، والمتسلّلين من سوريا والمنتشرين على معظم الأراضي اللّبنانيّة في المرحلة الثّانية، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنه وحتى العام 1967 كان الوضع الفلسطينيّ تحت سيطرة مكتب الشّعبة الثّانية، إلا أنه وابتداء من العام 1968، اعتمد المكتب سياسة رشوة الرأى العام الإسلاميّ من خلال استرضاء ياسر عرفات، وزيادة التعاون مع المنظمات الفلسطينيّة من أجل ضمان أصوات النّواب المسلمين لاحقًا، وتحديدًا خلال انتخابات العام 1970⁽⁵⁾.

- 1- ناصيف، نقولا: «المكتب الثّاني حاكم في الظل»، دون دار نشر، الطبعة الرابعة 2015، صفحة 11.
- 2- ناصيف، نقولا: «المكتب الثّاني حاكم في الظل»، دون دار نشر، الطبعة الرابعة 2015، صفحة 80.
- 3- ناصيف، نقولا: «جمهورية فؤاد شهاب»، دار النهار، بيروت، الطبعة الثّانية، 1972، صفحة 366.
- 4 - اللواء الخطيب، سامي: «في عين الحدث»، دار العربي للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى، 2008، صفحة 96.
- 5 - سعد، انطوان: «مسؤولية فؤاد الشّهاب عن اتفاق القاهرة»، دار سائر المشرق، جديدة المتن، الطبعة الثّانية، 2019، صفحة 57.

ولا بدّ من أن يكون العمل في المرحلة المقبلة على التخفيف من الأثر السلبي الذي تركه المكتب الثّاني في ذاكرة المواطنين، أولاً من خلال العمل على إشراك كافة القطاعات العسكريّة، وثانياً من خلال إنهاء ارتباط هذا الجهاز بشخص الرّئيس شهاب، وجعله مرتبطاً حسب التراتبية المعتمدة داخل مؤسسة الجيش، وإذا كان لا بدّ من هذا الجهاز من ضمن فريق عمل الرّئيس، فليكن الجهاز مرتبطاً بموقع رئاسة الجمهوريّة، بغض النظر عن الشخص الذي يتبوأ هذا المركز. كما ولا بدّ في المرحلة الجديدة المقبلة إلى تصحيح العلاقة مع التنظيمات الفلسطينيّة، وإعادة فرض هيبة الدولة وسلطتها على هذه التنظيمات، وعودته لممارسة مهامّه الأمنيّة مبتعداً عن العمل السياسيّ ومجالاته، وبذلك قد يستطيع أن ينفّذ بعض الأزمات المستقبلية التي قد تؤدي إلى نشوب معارك محليّة داخلياً خوفاً من تطورها إلى ما لا تحمد عقباه.

تطوير المفهوم السياسيّ

منذ خطاب القسم في الولاية الرئاسيّة الأولى، حدّد الرّئيس شهاب نظرته إلى الإصلاح في النظام اللّبنانيّ ببعديه السياسيّ والإداري، وعملية بناء الدولة تتطلّب أن يتحمّل كلّ لبناني نصيباً معيّنًا من الجهد والأعباء، وبالتالي يجب أن تكون عملية قيام الدولة مسألة متكاملة بين المواطن والدولة⁽¹⁾. لذلك سوف يكمل الرّئيس في الولاية الثّانية عملية الإصلاحات السياسيّة والاجتماعيّة والإنمائيّة والاقتصاديّة، فيستكمل أولاً مشاريع الإصلاح البنوي الذي بدأ في المرحلة الأولى، بهدف طمأنة المواطن والشعب بتطبيق مبدأ المساواة أمام القانون والإنماء المتوازن، فيجب في المرحلة القادمة استكمال العمل بتطوير القوانين الانتخابيّة التي تسمح بوصول ممثلين حقيقيين للشعب اللّبنانيّ، والحد من تأثير المال الانتخابيّ والإقطاع السياسيّ الذي كان الرّئيس شهاب لا يخفي غضبه ورفضه لهذا الإقطاع «آكل الجبنة»، بالرغم من اضطراره للتعامل مع هذا الإقطاع في عدد كبير من المجالات، إلا أنّه كان يعتبر هذا الإقطاع غير مناسب لتحقيق التغيير السياسيّ والإصلاحي، مع تأكيد الرّئيس على أهمية الإصلاح الإداري الذي سوف يبقى مندون نتيجة من دون الإصلاح السياسيّ. كما أنّه سوف يستكمل في هذه المرحلة عملية رفع الغبن عن أي من مكونات الشعب اللّبنانيّ، من خلال تنفيذ صيغة المناصفة

1 - ناصيف، نقولاً: «جمهورية فؤاد شهاب»، دار النهار، بيروت، الطبعة الثّانية، 1972، صفحة 411.

في الوظائف العامة والمستقاة من الواقع اللبناني⁽¹⁾، وذلك من أجل إقامة توازن حقيقي في الإدارات العامة، الأمر الذي يخلق شعوراً من الرضا والمشاركة بين المواطنين، فلا تضطرّ بعض الفئات في المستقبل إلى الاعتماد على الخارج أو على المنظمات الفلسطينية، لتحصيل حقوقها وتحقيق مشاركة أكبر في الحكم. ويجب في المرحلة الجديدة استمرار اعتماد سياسة خارجية ضمن قواعد محدّدة تتلخّص في التضامن مع العرب عندما تكون مواقفهم موحّدة، والحياد فيما بينهم عندما يفترون، الأمر الذي سيؤكد عروبة لبنان وإخلاصه للقضايا الوطنيّة العربيّة، على رأسها القضية الفلسطينية، مما سيسمح للبنان باستمرار علاقاته المميزة مع الدول العربيّة، والتي سيتمكّن من خلالها من التخفيف أو الحؤول دون تدخل هذه الدول لاحقاً بالشأن الداخلي اللبناني، فينجح لبنان بأن يكون عنصراً كاملاً في السياسة الإقليمية، مع ضمان استمرار استقلاليته المحدودة ضمن حدوده الجغرافية الصغيرة، فلا ينتهج لبنان أي سياسة معادية وخاصة لجارته سوريا.

بعثة إيرفد

لا يمكن التكلّم عن عهد الرّئيس شهاب دون ذكر بعثة إيرفد ودراساتها لواقع المجتمع اللبناني، فقد اعتنق الرّئيس شهاب الفلسفة الاقتصاديّة للأب لويس لوبريه، مدير معهد البحوث والتدريب على الإنماء (إيرفد) (I.R.F.E.D)، والتي كانت تدعو إلى اقتصاد ذي وجه إنساني⁽²⁾، يعمل على التنمية المستدامة، وإعادة توزيع الثروات للحؤول دون ازدياد الهوة بين طبقات المجتمع، خاصة المجتمع اللبناني المتشرذم اقتصادياً، مما يساهم بالقضاء على الاضطرابات والتوترات التي تسببها اللامساواة الاجتماعيّة. خاصة وأن المجتمع اللبناني يعاني من علاقات متوترة ومتناقضة بين النظام السياسيّ والمجتمع المدني. فطلب الرّئيس شهاب من الأب لوبريه إجراء دراسة دقيقة لمختلف الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة في لبنان، فانهت بعثة إيرفد دراستها وقدمت تقريرها الأوّل في العام 1961، والذي كشف عن تفاوت عنيف في مستوى التنمية بين العاصمة بيروت وسائر المناطق المختلفة، وكذلك تفاوت كبير في توزيع الدخل، وتهميش كبير للقطاع

1 - حرب، مروان: «الشهابية حدود التحديث السياسي في لبنان»، دار سائر المشرق، جديدة المتن، الطبعة الأولى، 2012، صفحة 68.

2 - حرب، مروان: «الشهابية حدود التحديث السياسي في لبنان»، دار سائر المشرق، جديدة المتن، الطبعة الأولى، 2012، صفحة 56.

الزراعي والصناعي لصالح قطاع الخدمات.

وفي عهد الرئيس شهاب سوف يتمّ تمديد العمل بالخطة الخماسية التي وضعها الرئيس في بداية عهده الأول، والتي ركزت على تنمية الأرياف لدفع الناس للتشبث بأراضيهم وعدم النزوح إلى المدن، لمنع انتشار الضواحي والأحزمة السكانية غير المقبولة إنسانياً. وسوف يتمّ استكمال الخطوات التي بدأت في العام 1961، من ناحية زيادة الحد الأدنى لأجور العمال والموظفين من ستين ليرة لبنانية إلى مئة وعشرين ليرة للمرة الأولى منذ الاستقلال⁽¹⁾. كما سيحاول العهد الجديد زيادة تشجيع النشاطات الزراعية والصناعية الصغيرة عند زيادة التقديمات المالية والاجتماعية للطبقة المتوسطة والفقيرة، مما يسهم في زيادة ترسيخ أبناء الأرياف بأراضيهم وتخفيف نزوحهم الداخلي. كما يؤدي على المدى المتوسط إلى التخفيف من حدة النظام الرأسمالي، الذي ينتج تناقضاته بنفسه من جهة، ويعتمد بشكل أساسي على رأس المال الأجنبي من جهة ثانية⁽²⁾. وفي المرحلة القادمة سوف يتمّ متابعة الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي الذي تمّ إنشاؤه في العام 1963، بهدف تأمين الخدمات الصحية والاجتماعية لأبناء الطبقات الشعبية والمحافظة على حقوقها، وإدخال بعض التعديلات على نظامه لاحقاً لجعله يتلاءم أكثر مع متطلبات المرحلة المقبلة. وكذلك متابعة شؤون مصلحة الإنعاش الاجتماعي المستحدثة، وتخصيص المناطق النائية بنسبة كبيرة من الخدمات التي تقدمها هذه الوزارة، بعد رفع موازنتها لتغطية أكبر نسبة ممكنة من السكان. كذلك استمرار عملية تشجيع المواطنين المقتردين على إنشاء مؤسسات محلية تؤمّن الاهتمام بشؤون الرعاية الاجتماعية والتربوية كي يكون المواطن شريكاً في عملية البناء، وعدم اقتصار خطط البناء والتنمية على السلطة فقط⁽³⁾. كما أن الرئيس في عهده الجديد سوف يستكمل رسم الخرائط الجغرافية للمناطق اللبنانية كافة، بعد أن كانت الخرائط الوحيدة المتوفرة موجودة لدى الجيش اللبناني ولا تغطي كلّ طرقات لبنان، بل فقط الطرقات العسكرية، تمهيداً لإنهاء مشاريع وصل الريف بالمدينة عبر شبكة طرقات ريفية جديدة⁽⁴⁾.

- 1 - ناصيف، نقولا: «جمهورية فؤاد شهاب»، دار النهار، بيروت، الطبعة الثانية، 1972، صفحة 403.
- 2 - الخازن، فريد: «تفكك أوصال الدولة في لبنان 1967-1976»، دار النهار، بيروت، الطبعة الثانية، 2002، صفحة 334.
- 3 - ناصيف، نقولا: «جمهورية فؤاد شهاب»، دار النهار، بيروت، الطبعة الثانية، 1972، صفحة 405.
- 4 - ناصيف، نقولا: «جمهورية فؤاد شهاب»، دار النهار، بيروت، الطبعة الثانية، 1972، صفحة 407.

خاتمة

وأخيراً لم يمرّ في التّاريخ اللبنانيّ الحديث شخصية تتوّأت أكثر وأعلى المناصب السّياسيّة والعسكريّة، إثارة للجدل كشخصية الرّئيس فؤاد شهاب. فقد كان أول رئيس يحاول مدّ نفوذ ولايته إلى مختلف المناطق اللبنانيّة، ويعمل بشكل جيّد طوال فترة ولايته على تحقيق العدالة في التنمية الاجتماعيّة لمختلف المناطق والسكان في الدولة اللبنانيّة. وحاول طوال فترة حكمه التنسيق بين مواقفه من رجال السياسة، وبين الحاجة إليهم كواقع على الأرض.

عدّه الكثيرون الصّادق الصّدوق، وعملوا من أجل رفع اسم الحركة السّياسيّة التي عرفت بالشّهائيّة تيمناً بالرّئيس شهاب، على أن تكون مدرسة في السّياسة تعمل على تقدم وتطوير النظام السّياسيّ في لبنان. في الوقت نفسه اصطدم بالاقطاع السّياسيّ الذي حاول التقليل من إنجازات الرّئيس، والانقضاض على رموز حكمه بعد نهاية عهده، من أجل تشويه صورته تمهيداً للقضاء عليه، وكي لا تكون فترة حكم الرّئيس علامة فارقة في تاريخ الاقطاع والزبائنية السّياسيّة في لبنان. وقد أخذ عليه خصومه فكرة محاولته حصر جميع السلطات بشخصه، واتهامه باعتماد نظرية القائد الرمز، كما فعل جمال عبد الناصر في مصر، ولم يجد هؤلاء الخصوم سوى المنابر الطائفية لمهاجمة النهج الشّهائيّ، خاصة بعد خسارة مصر حرب الأيام الستة في العام 1967. فكان الحلف الثلاثي الماروني مدعوماً من البطريرك الماروني بولس المعوشي، والذي انضم إليهم لاحقاً الرّئيس المنتخب شارل حلو، الذي كان عهده عبارة عن صولات وجولات من التّعاون والمواجهة مع جماعة المكتب الثّاني والشّهائيّة، يحاول بشتى الطرق تشويه صورة إنجازات هذا العهد تمهيداً للانقضاض عليها لاحقاً، من خلال القوانين والتحالفات الانتخابيّة اللاحقة التي أسهمت بعودة الإقطاعيّة السّياسيّة إلى المجلس النيابيّ بانقلاب أبيض على الفكر الشّهائيّ الذي لم يستطع، أو بالأحرى لم يرد إنشاء حزب سياسيّ يحمل مبادئ هذه المدرسة السّياسيّة وينافس باقي الأحزاب الموجودة في لبنان.

وفي النّهاية لا يسعنا سوى إعادة ما كتبه الأستاذ غسان تويني في جريدة النّهار في عددها الصادر بتاريخ 4 حزيران 1964، «إنّ دور فؤاد شهاب، بل رسالة فؤاد شهاب لم تنته، ولن تنتهي في 23 أيلول 1964، مثله من الرّجال، إذا وضع التّاريخ يده عليهم

أحياء، قبض عليهم، جندهم إلى لا تقاعد، وحملهم مسؤولية بعد المسؤولية، مسؤولية
متبادية تتبعهم كما تتبع الرجل أفعاله والنيّات أعمالها».

المراجع

1. اتيوفيف، ايغور: «كمال جنبلاط، الرجل والأسطورة»، دار النّهار بيروت، الطّبعة الأولى 2008.
2. حرب، مروان: «الشّهائبة حدود التحديث السّياسي في لبنان»، دار سائر المشرق جديدة المتن، الطّبعة الأولى 2012.
3. الخازن، د. فريد: «تفكك أوصال الدولة في لبنان 1967 - 1976»، دار النّهار بيروت، الطّبعة الثّانية 2002.
4. الخطيب، اللّواء سامي: «في عين الحدث»، الدار العربيّ للعلوم بيروت، الطّبعة الأولى 2008.
5. خوند، مسعود: «موسوعة الحرب اللّبنانية»، شركة يونيفيرسال بيروت، الطّبعة الأولى 2006.
6. سعد، انطوان: «مسؤولية فؤاد شهاب عن اتفاق القاهرة»، دار سائر المشرق جديدة المتن، الطّبعة الثّانية 2019.
7. الصليبي، د. كمال: «بيت بمنازل كثيرة»، هاشيت انطوان بيروت، الطّبعة السادسة 2018.
8. قصير، د. سمير: «حرب لبنان، من الشقاق الوطنيّ إلى النزاع الاقليمي»، دار النّهار بيروت، طبعة أولى 2007.
9. ناصيف، نقولا: «المكتب الثّاني حاكم الظل»، دون دار نشر، الطّبعة الرابعة 2015.
10. ناصيف، نقولا: «جمهورية فؤاد شهاب»، دار النّهار بيروت، الطّبعة الأولى 2008.

الطَّلَاق التَّعَسُّفِيّ (تعريفه - أسبابه - معاييرهِ وصوره في الشَّرِيعَةِ الإسلاميَّة)

**Arbitraay divoece (definition, causes, standards and forms
in Islamic law**

منى حديفة

Mona Hdayfe

تاريخ القبول 2024 /12/5

تاريخ الاستلام 2024 /11/15

ملخص

جعلت الشَّرِيعَةُ الإسلاميَّة الطَّلَاق بيد الرَّوِّج كحقٍّ أصيلٍ له، إلا أنَّ هذا الحقَّ ليس مطلقاً، إذ يمارسه الرَّجُل وفق ضوابط شرعية ووفق ما تدعو إليه الحاجة، وأهمها ألا يكون مضرّاً بالرَّوِّجة، فبذلك لا يكون الرَّوِّج متعسِّفاً في استعمال حقه. أما إذا كان الطَّلَاق دون مبرر شرعي أو قانوني مقبول، عدَّ الرَّوِّج متعسِّفاً في استعمال هذا الحق. ويهدف هذا البحث إلى بيان مفهوم الطَّلَاق التَّعَسُّفِيّ ومعاييرهِ وأسبابهِ، وذكا أبرز صورهِ.

الكلمات المفتاحية: الشَّرِيعَةُ الإسلاميَّة - الطَّلَاق - التَّعَسُّف

Abstract:

Islamic law has placed divorce in the hands of the husband as his inherent right, but this right is not absolute, as the man exercises it according to legal controls and according to what the need calls for, the most important of which is that it should not be harmful to the wife, so the husband is not abusive in using his right. However, if the divorce was without an acceptable legal or legal justification, the husband is considered to be abusive in using this right. This research aims to explain the concept of arbitrary divorce, its criteria and causes, and mention its most prominent forms. Keywords: Islamic law- divorce - abuse.

مقدمة

خلق الله سبحانه وتعالى الانسان، وجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، وأودع في كل منهما من الغريزة يجعله ينجذب للآخر، ليتم له التزاوج ويحصل له التنازل وبقاء النوع الإنساني.

فشرع الله للإنسان الزواج، وعني بعقد الزواج عناية خاصة، وأسبغ عليه من القدسيّة ما جعله فريداً من بين سائر العقود والتّصرفات، فعُدّ نعمة من أعظم النعم وسنة من سنن المرسلين. لذلك شرّع الله له من الأحكام ما يحفظ ديمومته واستمراره، فأقامه على المودة والرّحمة والسّكينة والتّعاون مع الآخر، قال تعالى في كتابه الكريم ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾¹.

ولكن قد تخرج الحياة الزوجيّة عن الإطار الذي رسم لها شرعاً، وقد يتعدّر استمرارها بين الزوجين إلا بتحمل ضرراً يفوق ضرر انهائها، لذلك فقد شرّع الله لذلك مخرجاً وهو الطّلاق.

والطّلاق شرّع للضرورة، خاصة إن كان استمرار الحياة الزوجيّة على الحالة التي هي عليه متعدّراً، والواجب ألا يستخدم إلا بقدره، وفق ما شرع له، فلا يجوز استعمال هذا الحق من قبل الزوج تعسّفاً من دون حاجة دافعة أو سبب مشروع، أو من دون رضی الزّوجة وعلمها، فاستعماله بهذه الطّريقة فيه تعسّف ومناقضة لمقصد الشّارع من تشريعه. ومن ذلك كأن يطلق الرّجل زوجه لباعث غير مشروع، كطلاق المريض في مرض الموت بقصد حرمان زوجه من الميراث، هنا يكون الرّزوج قد خالف مقصد الشّارع، وكانت معاملة من استعمل حقّه في غير ما شرّع له أن يؤاخذ بنقيض قصده، ويمنع من الوصول إلى الهدف الذي يريد الوصول إليه.

وقد تعرّض العلماء للكثير من الأحكام المتعلّقة بالطّلاق والحقوق المترتبة عليه، ببيان الحكم الشرعيّ لهذه الحقوق والآثار المترتبة عليه على استعمالها بشكل متعسّف، وعلى ذلك سارت قوانين الأحوال الشّخصيّة المستمدة من الشّريعة الإسلاميّة، فوضعت ضوابط لاستخدام هذا الحق، وحددت إجراءات تتبّع في حال ظهر تعسّف في استعماله.

1- سورة الروم: الآية 21.

أولاً: تعريف الطلاق

أ- تعريف الطلاق لغة

الطلاق مصدر الفعل الثلاثي المجرد «طلق»، والطلاق: تخلية السبيل. والطلاق من الإبل: ناقة تُرسل في الحي ترعى حيث شاءت ولا تعقل - أي لا تربط بقيد - وأطلقت الناقة أي حلت عقالها فأرسلتها¹.

والطلاق: الأسير يطلق عنه إصاره، فيُخلى سبيله.

ورجل طليق اليدين: سمح العطاء، وطلاق اللسان: ذو طلاقة. ورجل مطليق ومطلق: كثير الطلاق للنساء²، وطلاق المرأة يكون بحلّ عقدة النكاح³.

ومن خلال استعراض أقوال الأئمة يتبين أن معنى الطلاق في اللغة هو التخلية والإرسال وحلّ القيد ورفعها.

ب- تعريف الطلاق اصطلاحاً

لقد عرّف الفقهاء الطلاق بتعاريف متقاربة تتفق فيما بينها على المعنى المقصود شرعاً، وتختلف إلى حدٍ ما في الصياغة. وسنعرض لتعريف الفقهاء للطلاق في المذاهب الأربعة.

-الحنفية: «رفع قيد النكاح الثابت شرعاً في المال أو المال بلفظ مخصوص»⁴.

-المالكية: «إزالة عصمة الزوجة بصريح لفظ أو كناية ظاهرة أو بلفظ ما مع نية»⁵.

-الشافعية: «حلّ عقدة النكاح بلفظ الطلاق ونحوه»⁶.

1- الفيروز، أبادي مجد الدين، القاموس المحيط، بيروت، دار احياء التراث العربي، 1417هـ/ 1997م، ص1200.

2- صاحب أبو القاسم إسماعيل بن عياد الطالقاني (ت 1205هـ) المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، بيروت، عالم الكتب، 1414هـ/.

3 - مرتضى الزبيدي، محمد بن عبد الرزاق الحسيني، (ت1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، إنجلترا 1390هـ، 26/93.

4 - الزيلعي، فخر الدين عثمان بن علي الحنفي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، تحقيق الشيخ أحمد عزو عناية، بيروت، جار الكتب العلمية، حاشية ابن عابدين، 3/226، 3472.

5 - أحمد الدرير، الشرح الكبير، مصر، دار احياء الكتب العربية، 2472.

6- أحمد الخطيب الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهج، بيروت، دار الفكر، د.ت، ج3، ص79.

-الحنبلة: « حلّ قيد النكاح »¹.

نلاحظ أن تعاريف الفقهاء الأربعة اختلفت وتقاربت فيما بينها، إلا أنه يمكن الجمع بينها في أنّ الطلاق يقتضي إزالة عقدة النكاح التي تثبت بين الزوجين بالعقد الصحيح. كما نلاحظ من تعريفات الفقهاء في المذاهب الأربعة أنّها جميعها تدلّ على المقصود، ولكن أشملها لمعنى الطلاق هو تعريف الحنفية وذلك لما اشتمل عليه من قيود، فكان جامعاً وشاملاً ومفصلاً.

ثانياً: مشروعية الطلاق

الطلاق مشروع بالكتاب والسنة والاجماع والمعقول والقياس. قال تعالى في كتابه الكريم ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يُجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُخَافَاَ الْأَيْقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ الْأَيْقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا فِيمَا أَفْدَتَ بِهِ تِلْكَ حَدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهُمَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حَدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾².

وقال تعالى ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَّعَاءً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾³.

أما مشروعية الطلاق في السنة النبوية الشريفة فهناك أحاديث كثيرة، كقوله عليه أفضل الصلاة والسلام: « ما أحلّ الله شيئاً أبغض من الطلاق»، وهذا دليل على مشروعية الطلاق بشكل عام. وقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والعنقاق.

وعن مالك عن يحيى بن سعيد عن رجل من الأنصار أن امرأته سألته الطلاق فقال لها: إذا حضتي فأذنيني، فلما حاضت آذنته فقال: إذا طهرتي فأذنيني، فلما طهرت آذنته فطلقها⁴.

وقد وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام حول مشروعية الطلاق

- 1 - ابن قدامة، موفق الدين محمد عبد الله أحمد بن محمد، المغني على الشرح الكبير، القاهرة، دار الحديث، ط 21، ج 3، 10/92.
- 2 - سورة البقرة: الآية 229.
- 3 - سورة البقرة: الآية 236.
- 4 - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الحظيري السيوطي الشافعي، تنوير الحوالك شرح على موطأ الإمام مالك، ضبطته وصححه وخرج أحاديثه الشيخ طه عبد الرؤوف سعد والأستاذ سعد حسين محمد القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2003م، ص 516.

منها ما روي عن عمر بن الخطاب أن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أنه طلق حفصة ثم راجعها¹.

أما دليل مشروعيته في الإجماع: فقد أجمع علماء الأمة من العهد الأول من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم على مشروعية الطلاق، وأنه يجوز للرجل أن يطلق زوجته، وقد ثبت أن المغيرة بن شعبة طلق زوجاته الأربع، وكذا عبد الرحمن بن عوف طلق زوجته تماضر، ولم ينكر أحد هذه الإباحة إلا إذا كانت من دون عذر².

وأما دليل مشروعية الطلاق في المعقول فهو عندما شرع الإسلام الزواج لحكمة عظيمة أهمها السكن لتستقر به الحياة، وتحلّ المودة والرحمة، ذلك أن الطلاق شرع لمصالح متعددة، فإذا ما يذهب هذه المصالح أو يفسدها كاستحكام الخلاف بين الزوجين، وتعدّ العشرة وانعدام الرحمة بينهما، وحلّ البغض والنفور بينهما بشكل يستحيل معه العيش تحت سقف واحد، كان لا بدّ من علاج لتلك المشاكل، وكان الطلاق هو الحل والمخرج³.

أما دليل مشروعية الطلاق في القياس فقد دلّ القياس على الطلاق، لأنّ العشرة إذا فسدت بين الزوجين ولم يكن بالاستطاعة دوامها، يكون بقاء الزوجة التي لا تطاق معاشرتها تفويت للهدف وللغاية المنشودة من الزواج. من هنا شرع الطلاق في الإسلام كنعمة يتخلّص بها الزوجان المتنافران والمتباغضان من قيد تلك الرابطة، فيلتمس كلاهما من هو خير له وأحسن معاملة وأكرم عشرة، لقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَفْرَقَا يُعْنِ اللَّهُ كَلَامًا مِنْ سَعْتِهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ۝١٣٠ ﴾⁴.

ثالثاً - الحكمة من مشروعية الطلاق

ابتدأ الله سبحانه وتعالى وجود البشرية بذكر وأنثى لغرض عمارة الأرض والاستخلاف فيها، وشرع لهذه الغاية النكاح وجعله ميثاقاً غليظاً بين الزوجين، وذلك لاشتماله على

1- الحاكم، محمد عبد الله النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق مصطفیٰ عبد القادر عطا، بیروت، 1411هـ، دار الکتب العلمیة، کتاب الطلاق، 2/214.

2 - محمد محیی الدین عبد الحمید، الأحوال الشخصیة فی الشریعة الإسلامیة، بیروت، 1428هـ/ 2007م، ص3.

3 - أحمد دیب، قواعد الطلاق وضوابط الفراق، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزیع، 2013م، ص22.

4 - سورة النساء: الآية 130.

مصالح وفوائد عظيمة تعود على الزوجين كاستقرارهما في الحياة، وعلى المجتمع
لعمارتها، فبالزواج تنتظم مصالح العباد الدنيوية والدنيوية.

لذلك فإن الله تبارك وتعالى جعل الزواج سكنًا للزوجين ومبعث ألفة ومحبة ومودة، فكل
من الزوجين تستقر حالته النفسية إلى زوجه ويغمر كل منهما الآخر بالحب والاحترام.
من ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا
وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١ ﴾.

لكن في بعض الأحيان قد لا يؤدي الزواج إلى هذه الأغراض، فلا يكون سكنًا
لصاحبيه، ولا يعود بالفائدة على المجتمع وعليهما، وقد تختلف نظرة كل منهما إلى
الحياة، وقد ينقلب ما كان بينهما من ودٍ وحب إلى بغضاء وحقد ويصل الشقاق إلى حد
يستحيل معه الصلح، وتصبح الحياة الزوجية جحيماً لا يطاق.

وكما في كل نواحي الحياة جاء الإسلام لإصلاح حال هذه الأسرة، وحلّ مشاكلها،
فوضع الكثير من التدابير الوقائية والعلاجية، لكي تستمر العلاقة بين الزوجين وتأصيل
معني الخير فيها.

لذلك شرع الله سبحانه وتعالى الطلاق علاجاً وحلاً لتلك الحالات التي يكون فيها
الفراق أحسن وأفضل، لأن البقاء على هذه الحالة يشتمل على مفاصد عدة، فيكون
الطلاق دافعاً لهذه المفاصد دون حرج لأحد الزوجين.

وبذلك تتجلى لنا عظمة الدين الإسلامي بحيث وضع الحلول لكل المشكلات التي
تواجه الأسرة في أي زمان ومكان حتى يعمر الكون وتستمر الحياة بشكل منظم ودقيق.

رابعاً - أ - مفهوم الطلاق التّعسفي

أولاً: تعريف التّعسف

أ- تعريف التّعسف لغة: التّعسف في اللغة مأخوذ من عسف، وعسف الركاب عن
الطريق أي يخبطه على غير هداية، وعسف فلانة: أي غضبها نفسها². وعسف عن

1- سورة الروم: الآية 21.

2- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود، أساس البلاغة، بيروت، 1988م، دار الكتب العلمية، ط1،
ج1، ص652.

الطريق معناه مال وعدل عنها¹.

وعسف عن الأمر: فعله بغير روية ولا تدبر، وعسف فلاناً: أخذه بالعنف والقوة وظلمه².

نلاحظ أن جميع التعريفات والعبارات التي ترد بها كلمة تعسف تدور حول الظلم والغضب، وهذه المعاني في جوهرها لها دلالة على المقصود من التّعسف في الاصطلاح، ذلك أن التّعسف لا يعدو أن يكون جوراً وظلماً وعدواناً.

ب-تعريف التّعسف اصطلاحاً: لم يرد على لسان الفقهاء كلمة «إساءة» أو «تعسف» في استعمال الحق، وإنما هو تعبير وفد إلينا من فقهاء القانون المحدثين في الغرب. ولكن درج فقهاء القانون في جمهورية مصر العربية وفي الجمهورية السورية على استعمال كلمة «تعسف»، أما في لبنان فآثروا استعمال كلمة «إساءة»³.

وسنعرض لتعريف التّعسف لدى الفقهاء المعاصرين: فقد عرفه عبد الواحد كرم بأنه «استعمال شخص لحق ينشأ عنه ضرر بالغير»⁴.

أما الشيخ أحمد أبو زهرة فقد عرف التّعسف بأنه «استعمال الحق بشكل يؤدي إلى الإضرار بالغير، إما لتجاوز حق الاستعمال المباح عادةً، أو لإلحاق ضرر بالغير أكبر من منفعة صاحب الحق»⁵.

وعرفه الدريني بأنه «مناقضة قصد الشارع في تصرف مأذون فيه شرعاً بحسب الأصل»⁶. ويقصد بقوله مناقضة قصد الشارع أي مضادة قصد الشارع، وهذه المضادة لا تخلو إما أن تكون مقصودة، بأن يقصد المكلف في العمل المأذون فيه هدم قصد الشارع عيناً، بأن يستعمل الحق لمجرد قصد الإضرار، أو أن يتذرع بمظاهر الجواز

1- الفيروز أبادي، مجد الدين، القاموس المحيط، مصر، دار إحياء التراث العربي، 1417هـ/ 1997م، ص120.

2 - شوقي ضيف، المعجم الوسيط، مصر، مكتبة الشروق الدولية، 2004م، ص600.

3 - فتحي الدريني، نظرية التعسف في استعمال الحق في الفقه الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط2، ص44.

4 - عبد الواحد كرم، معجم مصطلحات الشريعة والقانون، بيروت، مكتبة النهضة، 1407هـ، ص142.

5 - محمد أبو زهرة، التعسف في استعمال الحق، القاهرة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، 1963م، ص91.

6 - فتحي الدريني، مرجع سابق، ص84.

إلى تحليل ما حرّم الله، أو إسقاط ما أوجبه عليه.

ويقصد من قوله في تصرّف، أي تصرّف يكون إما بالقول كالعقود وما ينشأ عنها من حقوق والتزامات كالبيع والوصية، وإما بالفعل كاستعمال الترخيص والإباحة.

أما قصده مأذون فيه شرعاً بحسب الأصل: أي يخرج الأفعال المشروعة لذاتها لأن اتيانها يعدّ اعتداء لا تعسف، وهذا القيد الذي يحدد مجال تطبيق نظرية التّعسف.

هذا ومن الفقهاء المعاصرين من أطلق على هذا اللفظ « المضار » على التّعسف، ولكن يفضل استعمال كلمة تعسف لدقتها في تأدية المعنى المراد والمقصود.

من خلال ما تقدم عن تعريفات الطّلاق والتّعسف نستنتج أنه يمكن تعريف الطّلاق التّعسفي بأنه كل طلاق يكون بسبب غير شرعي ولغير حاجة يكون قد ناقض مقصد الشّارع من مشروعيته، وبذلك يكون الرّوج متعسفاً في استعمال حقه، ولكي يكون الطّلاق تعسفياً يجب توافر شرطين أساسيين هما:

- أن يكون مناقضاً لحكمة أو مشروعية، أو مؤدياً إلى مآل ممنوع شرعاً.

- ألا يكون الطّلاق بناءً على طلب الرّوجة أو برضاها لأن هذا من الأسباب المعقولة¹.

ويمكن تعريف الطّلاق التّعسفي أيضاً بأنه « مناقضة قصد الشّارع في رفع قيد النكاح حالاً أو مآلاً بلفظ مخصوص »².

ب- حكم الطّلاق التّعسفي بين الحظر والإباحة

قبل التّطرق إلى حكم الطّلاق التّعسفي، لا بد أن نعرض بصفة موجزة إلى بيان الأصل في حكم الطّلاق بين الحظر والإباحة، فقد اختلف فيه الفقهاء إلى مذهبين:

-الموجزين بالطّلاق:

واستدلوا على ذلك بما يلي:

أ- قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً³

1 - جميل فخري محمد جانم، متعة الطلاق وعلاقتها بالتعويض عن الطلاق التعسفي في الفقه والقانون، الأردن، 2009م، دار حامد للنشر والتوزيع، ط1، ص196.

2- جميل فخري محمد جانم، التدابير الشرعية للحد من الطلاق التعسفي في الفقه والقانون، الأردن، دار حامد للطباعة والنشر والتوزيع، 2009م، ص21.

وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٣﴾¹. ووجه الدلالة أن نفي الجناح يعني نفي الاثم والحرَج وهذا ينافي الحظر فكان مباحًا.

ب- ما روي أن النبي عليه الصلاة والسلام طلق حفصة ثم راجعها، والظاهر أن النبي طلقها من غير ريب، لأن الله سبحانه وتعالى أمره أن يراجعها لأنها صوامة قوامة. وقد نوقشت أدلة القائلين بالإباحة بأن الآية الأولى إنما تدل على نفي الجناح في تطبيق حدث قبل الدخول لا في كل طلاق.

وأما ما ورد في طلاق النبي لحفصة فالحديث ضعيف، وعلى فرض صحته فإنه ينبغي أن يحمل على حاجة أو سبب، لا سيما أنه لم يرو في الخبر أن النبي عليه الصلاة والسلام طلقها من غير حاجة أو سبب، فوجب حمله على الحاجة تنزيهاً لفعل النبي عن العبث². وقال السرخسي: « وإيقاع الطلاق مباح وإن كان مبغضاً في الأصل عند عامة العلماء »³.

-الأصل في الطلاق الحظر:

ذهب جمهور من الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة إلى القول بأن الأصل في الطلاق الحظر لا الإباحة، وأنه لا يباح إلا لضرورة أو حاجة ملحة، واستدلوا على ذلك بما يلي:

أ- قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ حَنَفَظْتُمْ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيِّتُ خَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَاصْرَبُوهُمْ فَإِنِ اطَّعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً ﴿٣٤﴾⁴. تدل هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى عدَّ الطلاق من غير مبرر بغياً وعدواناً وفيه ظلم للزوجة فكان محظوراً.

ب- ما روي عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال « ما أحلَّ الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق ». يدل الحديث أن المراد بالحلال ما قابل الحرام، وهذا الفعل الجائز

1- سورة البقرة: الآية 236.

2- محمد علي السرطاوي، شرح قانون الأحوال الشخصية، عمان، دار الفكر، 1428هـ/ 2007م، ط2، ص184-185.

3- جميل فخري محمد جانم، مرجع سابق، ص184.

4- سورة النساء: الآية 34.

أي المباح والمندوب والمكروه لا يتناول الحديث بقريظة إضافة البغض إليه، والمباح والمندوب لا يوصفان بأن الله يبغضهم، فإن البغض يتنافى مع الطلب على سبيل الاستحسان، أو الطلب على سبيل التخيير بين الفعل والترك، على وجه المساواة بينهما، وعليه فيكون المعنى أبغض المكروهات على الله الطلاق.

وجاء في روضة الطالبين « أما المكروه فهو الطلاق عند سلامة الحال». و عند الشافعية أن الأصل في الطلاق الحظر، وقال ابن عابدين: أما الطلاق فإن الأصل فيه الحظر، بمعنى أنه محظور إلا بعارض يبيحه وهو معنى قولهم الأصل فيه الحظر، أما الإباحة فهي للحاجة إلى الخلاص.

خامساً: معايير التعسف في الطلاق

انطلاقاً من مفهوم التعسف الذي يعني إساءة استعمال الحق، بحيث يؤدي إلى الحاق الضرر بالغير، أو بتعبير أدق « مناقضة قصد الشارع في تصرف مأذون فيه بحسب الأصل»¹، نستطيع القول إن حصول التعسف يقتضي تحقيق أحد المعيارين التاليين:

-المعيار الأول: المعيار الشخصي أو الذاتي

وأساسه النظر في البواعث أو الدوافع النفسية المحركة لإرادة صاحب الحق لاستعمال حقه. ويقسم هذا المعيار إلى قسمين:

أ-تمحض قصد الاضرار: يعد الشخص مسيئاً لاستعمال حقه إذا كان قصده الوحيد من ذلك هو الاضرار بالغير، بحيث لا يصحبه قصد إلى شيء آخر كالقصد إلى تحقيق منفعة معينة، ولو كانت ضئيلة، فعندئذ لا ينطبق عليه هذا المعيار وإنما يندرج تحت المعيار المادي.

وقد حرم الشارع الاضرار بالغير، بما جاء في الكتاب العزيز بالرجعة في الطلاق، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَنْجِدُوا آيَةَ اللَّهِ هُرُؤًا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ بِهِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

1 - فتحي الدريني، نظرية التعسف في استعمال الحق، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1401هـ/ 1981م، ص 45.

عَلَيْمٌ ﴿٣١﴾¹

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار». وهذا الحديث يتناول الاضرار بشكل عام، بكل صورته، فإيقاع الضرر مذموم كيفما كان. والمقصود من هذا المعيار منع العقد من الاضرار لا منع وقوعه فحسب، فالمرفوض توجيه الغرض إلى الاضرار وتمحض القصد لذلك.

ب- استعمال الحق في غير الغرض الذي شرّع من أجله: يقول الشاطبي: «قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع، والدليل على ذلك أن الشريعة موضوعة لصالح العباد على الاطلاق والعموم، والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله وألا يقصد خلاف ما قصده الشارع»².

ويقول أيضاً «كل من ابتغى من تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعلمه في المناقضة باطل». من هنا كان استعمال الحق مرتبطاً بالغاية التي شرّع من أجله.

ونذكر مثلاً الولاية على النفس والمال حيث شرعت الولاية على النفس والمال لرعاية مصلحة المولى عليه وتحقيق الخير له وصلاح أمره في نفسه وماله، فإذا استعمل الولي هذا الحق في غير هذا القصد، كان متعسفاً.

ومثال ذلك الولاية على الصغيرة في الزواج، فإذا زوّجها بأقل من مهر المثل أو دون رضاها كان متعسفاً.

-المعيار الثاني: المعيار المادي أو الموضوعي: وينطوي هذا المعيار على الضوابط التالية:

أ-الضرر الفاحش: هذا المعيار قرره الفقه الإسلامي لتنسيق المصالح الفردية المتعارضة لا سيما العلاقات الجوارية، ولا شك أن تنظيمها وتنسيقها فيها رعاية للمصالح العام³.

1- سورة البقرة: الآية 231.

2- الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي المالكي، (790هـ)، الوافقات في أصول الفقه، تحقيق عبد الله، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ج4، 2/331.

3- الدريني، النظريات الفقهية، مرجع سابق، ص 137.

والضرر الفاحش هو كل ضرر يعطل الاستفادة من الملك، بحيث ترتفع عن صاحبه صفة الملكية، مع ما تحويه الكلمة من منافع وامتيازات¹.

أما الضرر المألوف، فلا بد من تحمله والتسامح فيه، إذ لو قيل بمنعه، لأدى ذلك إلى تعطيل في استعمال حقوق الملكية كافة، وذلك يخالف النصوص الواردة في ولاية التصرف في الملك، كما أنه مخالفة للإجماع والمعقول، لعدم استقامة إمكانية استعمال حق الملكية كما يريد.

ب- اختلال التوازن بين المصالح المتعارضة: ويُقصد به مراعاة التوازن بين المصالح المختلفة بحيث لا يطغى جانب على آخر، وذلك أن المصالح قد تشوبها مفسد تُلحق بالآخرين، والفرد في تصرفه ليس مطلقاً من القيود، بل تبقى مصلحة الجماعة التي يحيا معها ملاحظة في تصرفه أوفي حقه.

وينطوي هذا المعيار على ضابطين عامين أولهما اختلال التوازن بين مصلحتين خاصتين، وثانيهما اختلال التوازن بين مصلحة عامة ومصلحة خاصة. فإذا تعارضت المصالح الفردية ونشأ عن استعمال الحق إضرار بالغير، فإن كانت مصلحة الغير هي الراجحة، فإنه يمنع من استعمال حقه، وإذا استعمله كان متعسفاً، وذلك استناداً للقاعدة الفقهية «الضرر الأشد يُزال بالضرر الأخف»². أما إذا كانت مصلحة صاحب الحق هي الراجحة فتكون أولى بالتقديم للقاعدة السابقة. وأما إذا تساوت المصلحتان أو تساوت المصلحة لصاحب الحق مع المصرة على الآخر، فإنه تُقدم مصلحة صاحب الحق حتى يكون لحقه ثمرة أو نتيجة. إلا أن من العلماء من يرى أن صاحب الحق يُعد متعسفاً إذا استعمل حقه في هذه الحالة بناءً على قاعدة «درء المفساد أولى من جلب المصالح»³. أما إذا تعاضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة، فتقدم مصلحة الجماعة، عملاً بالقاعدة الفقهية «يتحمل الضرر الخاص لدرء الضرر العام»⁴.

وخلاصة القول ان الأصل العام الذي يعد معياراً عاماً للتعسف، هو استعمال الحق

1- القدومي.

2- البركتي، محمد عميم الاحسان المجددي، قواعد الفقه، كراتشي، 1407هـ، ص98.

3- المصدر نفسه، ص81.

4- الزرقا، أحمد بن الشيخ محمد، شرح القواعد الفقهية، صححه وعلق عليه مصطفى أحمد زرقا 1971. دمشق، دار القلم، 1409هـ، ص234.

في غير ما شرع له، أي المناقضة بين قصد الفاعل وقصد الشارع .

سادساً- صور الطلاق التّعسفي

إنّ التّعسف في استعمال الحق قد يكون له صور عديدة، ولكن هناك ثلاث صور بارزة للطلاق التّعسفي لذلك سنطرق لهذه الصور على سبيل المثال لا الحصر كالاتي:

1- الطلاق لسبب غير معقول:

لم يرد في كتب الفقهاء القدامى والمعاصرين وقوانين الأحوال الشخصية تعريفاً للطلاق دون سبب، إلا أنه يمكن تعريفه بأنه « مناقضة قصد الشارع في رفع قيد النكاح في الحال أو المآل». أي أن يقوم الرجل بتطليق زوجته لغير سبب مشروع، ودون حاجة داعية. لأن الأصل في الطلاق الحظر والمنع، وأولى أن يكون لداع يدعو الزوج لإيقاع الطلاق أو سوء سلوك أو تعذر الحياة مع الزوجة. أما الفقهاء المحدثون فاختلّفوا في اعتبار التّعسف في الطلاق دون سبب على رأيين:

-الرأي الأول: ذهب أصحاب هذا الرأي إلى القول بأن من طلق زوجته بغير حاجة أو سبب مشروع لا يعتبر متعسفاً في استعمال حق الطلاق وذلك بناء على أن الأصل الإباحة وأنه حق للزوج وله حرية التصرف، مع القول بأنه يكره الطلاق إذا كان من غير حاجة أو سبب مشروع.

-الرأي الثاني: يرى أصحاب هذا الرأي أنه من طلق زوجته من غير حاجة أو مبرر شرعي فقد تعسف في استعمال حق الطلاق لأنه بذلك أضر بالزوجة وأهلها وأولادها، كما أنه ناقض قصد الشارع في مشروعية الطلاق.

فالطلاق وإن كان حقاً للزوج يوقعه ويستعمله بإرادته المنفردة، إلا أن استعماله ليس مطلقاً، وإنما هو مقيد إذا تحققت الحاجة له، فإذا أوقع الزوج الطلاق بغير سبب معقول، يكون قد أساء استعمال حقه ويلزم بتعويض الضرر الناتج عنه سواء كان هذا الضرر مادياً أو معنوياً، كما لو كانت المطلقة تمارس عملاً معيناً وتكتسب منه قبل زواجها، وتركته بسبب الزواج، أو أدبياً كما لو كانت ظروف الطلاق تشين بسمعة المطلقة وتثير

الظنون حولها¹.

علمًا أنه لمعرفة حقيقة السبب إذا كان معقول أو غير معقول فيها اختلاف في التفسيرات، وهذا الاختلاف يكمن سببه في اختلاف الأعراف والتقاليد الاجتماعية من بلد إلى آخر وحتى ضمن البلد الواحد من منطقة إلى أخرى، ومن زمان إلى آخر، ومن شخص إلى آخر، حيث يختلف مفهوم التّعسف في إيقاع الطّلاق بحسب العادات والاعراف والتقاليد..

2- طلاق المريض مرض الموت

مرض الموت هو المرض الذي يخشى فيه الموت. وقد اختلف في إماراته، فقيل انه المرض الذي يُلزم المريض الفراش، ولا يقدر على الصلاة قائمًا، ولا يستطيع المشي إلا بمعين، بمعنى آخر هو المرض الذي يعقبه الموت في أكثر الأحيان كمرض السرطان، ولا بد من تحقق العجز وغلبة الهلاك واتصال الموت به. وللقاضي سلطة في أن يقدر مقدار انطباقه على حال المريض الذي تعرض تصرفاته عليه².

والطّلاق في مرض الموت هي صورة مبنية على نظرية التّعسف في استعمال الحق، فإذا طلق الزوج زوجته وهو مريض مرضًا انتهى به الى الموت، وكانت المرأة لا تزال في عدتها من طلاقه فإنها ترث منه ولو كان الطّلاق بائنًا، لأنه أراد ابطال حقها في الميراث ما دامت العدة قائمة لبقاء آثار الرّوجية، وإذا قام الدليل على أنه لم يرد من طلاقها حرمانها من الإرث، فترث منه ما دامت في العدة من الطّلاق الرجعي، ولا ترث من الطّلاق البائن³.

ولا بد من الرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية في حالة طلاق المريض مرض الموت حيث يرى بأن الرّوجة ترث زوجها لو طلقها في مرض الموت.

1 - أحمد الغندور، الطلاق في الشريعة الإسلامية والقانون بحث مقارن، مصر، دار المعارف، 1967م، ط1، ص78.

2 - بلحاح، العربي، الوجيز في شرح قانون الأسرة، الزواج ولطلاق، الجزائر، ديوان المطبوعات الخارجية، 2004م، ص213..

3 - محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص319.

3- الصورة الثالثة:

إذا طلبت الزوجة المطلقة الرجوع إلى بيت الزوجية بأن تنازلت عن حقها في التعويض وتشبثت بالعودة إلى الحياة الزوجية، وتمادى الزوج في تمسكه بطلب الطلاق فإنه يعد متعسفاً في استعمال حقه في نظر القضاء، ومن ثم فإنه يكون للزوج إيقاع الطلاق مع إلزامه بالتعويض عن الضرر الذي ألحق بالمرأة.

الخاتمة

أظهر البحث أن الدين الإسلامي عدّ الزواج عقدًا مقدسًا بين الزوجين وعُني به عناية خاصة. وأعطى الرجل الحق في إيقاع الطلاق طبقاً لما له من قوامة ورعاية على الأسرة، وهذا الحق شأنه شأن سائر الحقوق مقيد بقيود الشرع وضوابطه، فمتى انحرف المكلف عن هذه القيود، وجعل استعماله لذلك الحق وسيلة لتحقيق مصالح غير مشروعة عدّ ذلك مناقضاً للحكمة من مشروعيته وهو ما يعبر عنه بالطلاق التّعسفي. وأظهر البحث بيان مفهوم التّعسف وأوصافه وحكم التّعسف. وبيان معنى الطلاق التّعسفي والأسباب الداعية إليه.

لائحة المصادر والمرجع

- 1- الفيروز، أبادي مجد الدين، القاموس المحيط، بيروت، دار احياء التراث العربي، 1417هـ/1997م.
- 2- صاحب أبو القاسم إسماعيل بن عياد الطالقاني (ت 1205هـ) المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، بيروت، عالم الكتب، 1414هـ/.
- 3- مرتضى الزبيدي، محمد بن عبد الرزاق الحسيني، (ت 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، إنجلترا 1390هـ، 26/93.
- 4- الزيلعي، فخر الدين عثمان بن علي الحنفي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، تحقيق الشيخ أحمد عزو عناية، بيروت، جار الكتب العلمية، حاشية ابن عابدين، 3/226م، 3472.
- 5- أحمد الخطيب الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهج، بيروت، دار الفكر، د.ت، ج3.
- 6- ابن قدامة، موفق الدين محمد عبد الله أحمد بن محمد، المغني على الشرح الكبير، القاهرة، دار الحديث، ط21، ج3، 10/92.

- 7- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الحظيري السيوطي الشافعي، تنوير الحوالك شرح على موطأ الإمام مالك، ضبطته وصححه وخرج أحاديثه الشيخ طه عبد الرؤوف سعد والأستاذ سعد حسين محمد القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2003م.
- 8- الحاكم، محمد عبد الله النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق مصطفی عبد القادر عطا، بیروت، 1411هـ، دار الکتب العلمیة، کتاب الطلاق، 2/214.
- 9- أحمد ديب، قواعد الطلاق وضوابط الفراق، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2013م.
- 10 - محمد محيي الدين عبد الحميد، الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية، بيروت، 1428هـ/ 2007م.
- 11- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود، أساس البلاغة، بيروت، 1988م، دار الکتب العلمیة، ط1، ج1.
- 12- الفيروز آبادي، مجد الدين، القاموس المحيط، مصر، دار إحياء التراث العربي، 1417هـ/ 1997م.
- 13- شوقي ضيف، المعجم الوسيط، مصر، مكتبة الشروق الدولية، 2004م، ص600.
- 14- فتحي الدريني، نظرية التّعسف في استعمال الحق في الفقه الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط2.
- 15- عبد الواحد كرم، معجم مصطلحات الشريعة والقانون، بيروت، مكتبة النهضة، 1407هـ،
- 16- محمد أبو زهرة، التّعسف في استعمال الحق، القاهرة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، 1963م.
- 17- جميل فخري محمد جانم، متعة الطلاق وعلاقتها بالتعويض عن الطلاق التّعسفي في الفقه والقانون، الأردن، 2009م، دار حامد للنشر والتوزيع، ط1.
- 18- محمد علي السرطاوي، شرح قانون الأحوال الشخصية، عمان، دار الفكر، 1428هـ/ 2007م،
- 19- الزرقا، أحمد بن الشيخ محمد، شرح القواعد الفقهية، صححه وعلق عليه مصطفى أحمد زرقا 1977. دمشق، دار القلم، 1409هـ.
- 20- أحمد الغندور، الطلاق في الشريعة الإسلامية والقانون بحث مقارن، مصر، دار المعارف، 1967م.
- 21- بلحاح، العربي، الوجيز في شرح قانون الأسرة، الزواج وطلاق، الجزائر، ديوان المطبوعات الخارجية، 2004.

مرثيةُ دربٍ لم يمّت
عمر شبلي 2024

وهاتِ جرحك واجعله على جسدي
إنَّ الجراحَ بنفسِ الدربِ تُحْتَمَلُ
كان العنادُ لنا زاداً بمُحنتنا
والزادُ يغلو إذا لم يشبعِ الرجلُ
كم عاندتُنا أمانينا، وكم سُرقَتِ
وكم حملناه جرحاً ليس يُنْسَمِلُ
نمشي على دربنا والشوكُ أهديةً
لا الشوكُ يفنى ولا أقدامنا تَصِلَ
ورغمَ ما فيه قلنا سوف نعبُرُه
فالدربُ يخذلُ مَنْ في رجلِهِ خَلَلُ
كُنّا على الدربِ لا نخشى وعورتهُ
وكان فيه لمرأى صبرنا خَجَلُ
والآن أمشي وحيداً في جنازته
يَدُنُّني النعشُ أين الدربُ تَكْتَمِلُ
ويُحْتُ بالصمتِ، كان الصمتُ لي لغةً
وأفصحُ الصمتِ ما لم تحوهِ الجُمَلُ
وقد تبوحُ جراحُ في جنازها
وقد يكلمنا من نعشه البطلُ

ما للقصيدِ تبكي في جنازته
كأنما نالَ من أوزانها التَّكَلُّ
وقفتُ قدّامَ موتي والحياةُ معي
تقولُ لي لا تمت، فالرّدةُ الأجلُ

ترجم القصيدة إلى الإنكليزية الدكتور منير قاسم كندا

Elegy for a Path That Never Died Omar Shibli, 2024

Bring me your wound and lay it upon my body,
For wounds borne on the same path are easier to endure.

Stubbornness was our sustenance in hardship,
And sustenance becomes dearer when a man is never full.

How often our dreams defied us, how often they were stolen,
How often we carried them as wounds that never heal.

We walked our path with thorns for shoes,
Yet neither the thorns perished nor did our feet reach their goal.

Despite it all, we said we would cross,
For the path betrays only those with faltering steps.

We feared not its rough terrain,
And even the path itself blushed at the sight of our patience.

Now, I walk alone in its funeral,
The coffin guiding me to where the path comes to an end.

I spoke through silence, for silence was my language,
And the most eloquent silence is the one no words can contain.

Sometimes, wounds speak at their own funerals,
And sometimes, a hero addresses us from his own casket.

Why does the poem weep at its burial,
As if grief has broken the weight of its meter?

I stood before my own death, yet life stood with me,
Telling me: Do not die, for true apostasy is surrendering to fate.

Differentiated Instructions in Online ESL Classrooms: Perceptions and Challenges

التعليم المتميز للغة الإنجليزية كلغة ثانية في الفصول الدراسية الافتراضية:
التصورات والتحديات

Dr. Mohamed Hasan Al Kassem

د. محمد حسن القاسم

Assistant Professor, English Language Education

تاريخ القبول 2024 /9/30

تاريخ الاستلام 2024 /9 /12

Abstract

The researcher's aim in this qualitative study is to investigate the case of differentiated instruction cogency in ESL online learning environment widely emerged after the Corona Virus pandemic, where university instructors' online differentiated instructional strategies were examined along with the challenges those instructors encountered throughout their online classroom enactment. In this research, qualitative design is employed where participant instructors were interviewed, and their reflections were employed as data collection tools. Participants were ten ESL adult instructors from three universities in Tyre district- Lebanon. Braun and Clarke's (2015) thematic analysis is applied in this study where findings reflected many challenges in differentiated instruction in online learning such as learners' lack of motivation, time and efforts consuming, resources shortage, and creating stressful situations for both learners and instructors.

Key Words:

Individualized learning: refers to an educational approach that adapts instruction to the unique needs, interests, and abilities of each learner.

Personalized learning: is an educational approach that aims to customize learning experiences for each student based on their individual needs, interests, strengths, and learning styles.

Adaptive learning: is an educational approach that utilizes technology to tailor instruction and learning experiences to the individual needs and abilities of each learner.

Student engagement: concerns about the degree of attention, interest, participation, and enthusiasm that students demonstrate in their learning activities and academic pursuits.

Learning preferences: discuss the various ways in which individuals prefer to acquire, process, and retain information.

Instructional Strategies: are methods instructors practice to aid learners become independent, strategic learners. These strategies become learning strategies when learners independently choose the proper ones and employ them efficiently to accomplish tasks or meet goals.

الملخص

الهدف من هذه الدراسة النوعية للباحث هو التحقيق في حالة فعالية التعليم التفاضلي في بيئة تعلم اللغة الإنجليزية عبر الإنترنت بعد جائحة فيروس كورونا، حيث تم فحص استراتيجيات التعليم التفاضلي عبر الإنترنت لمحاضري الجامعة بالإضافة إلى التحديات التي واجهوها خلال تنفيذهم للفصول الدراسية عبر الإنترنت. استخدم التصميم النوعي

في هذا البحث حيث تمت مقابلة المحاضرين المشاركين واستخدام تفكيرهم كأدوات لجمع البيانات. كان عدد المشاركين عشرة محاضرين للبالغين في تعليم اللغة الإنجليزية من ثلاث جامعات في منطقة صور - لبنان. طُبِقَ التحليل الموضوعي لبراون وكلارك (2015) في هذه الدراسة حيث عكست النتائج العديد من التّحدّيات في التّعليم النّقاضيّ في التّعلّم عبر الإنترنت مثل نقص الدّافعية للمتعلّمين واستهلاك الوقت والجهد ونقص الموارد وخلق حالات مؤلمة لكل من المتعلّمين والمحاضرين.


الكلمات المفتاحية: التّعلّم الفرديّ/ التّعلّم المخصّص/ التّعلّم التّكفيّ/ مشاركة الطّلاب/
تفضيلات التّعلّم/ طرائق التّدريس

I. Introduction

The Corona Virus pandemic outbreak in late 2019 has altered the entire world socially, economically, and culturally. Education has not been excluded from the pandemic's list of fatalities. As a result, education all over the world has witnessed remarkable changes in classroom practices. Thus, the methods through which learners got instruction have been entirely shifted. This truism conforms with what Dudley and Osváth (2016) mentioned earlier on how learners' traits and needs differ remarkably in relation to cultural, ethnic, linguistic, academic, socioeconomic and cognitive backgrounds. Hence, online education would impressively be a challenge to instructors, learners, as well as parents and curricula designers. This unprecedented and swift shift into online learning has imposed some pressure on instructors regarding planning efficient instructions that meet learners' novel needs. Prior to the pandemic's outbreak, many researchers recommended relying on differentiated instruction to meet the various learners' needs and individual differences in

face-to-face learning. However, it is still not sure that instructors can rely on the same practices and strategies while being involved in online instruction. The extent to which instructors go all out to rely on differentiated instruction in online lessons delivery is a hard mission to investigate. According to Tomlinson and Imbeau (2010), this should be based on some diverse sets of norms such as learners' willingness to learn, interests, learning styles, needs, experiences, life circumstances, and the learning quality. Other issues should be taken into consideration such as learners' varying needs that would need specific platforms and/or online tools to deal with the requirements of online learning. With this existing scenario of the new trend of online learning, more principles must be added to this list of norms.

Thus, it is worth saying that instigating differentiated instruction is indispensable for instructors who seek to assist learners of diverse skill levels learn. Yet, in online classrooms practices, instructors have been confronted with many challenges. Accordingly, this study came to examine several ESL instructors' practices of differentiated instructions in online classes as well as inspecting the challenges those instructors encountered while employing differentiated instruction in their online classrooms. There is justification in literature that this research is desirable to recognize Lebanese ESL instructors' insights and the assistance they want to meet any challenges they face while being involved in online instruction. The recognition of the assistance types of instructors' need could necessarily lead curricula designers think



of some professional development and up-to-date methods of instruction that could further enhance instructors' efficient usage of differentiated instruction in online lessons' delivery.

II. Literature Review


Differentiating Instruction

Rose, Meyer, & Hitchcock, (2005) defined differentiation within a context calling it as a «universal design for learning and standardizing principles of learning using multiple representations to cater for learners regardless of ability or disability». To Rose, Meyer, & Hitchcock, (2005) instruction varies with the variety of learner's types and abilities. For instance, interactive technologies as digital whiteboards, blending videos, and interactive games can foster tactile and kinesthetic delivery and adapt different learning strategies to promote autistic learners' academic growth. According to Tomlinson (2017), differentiating instruction is defined as an approach to re-determine classroom instruction. Tomlinson (2017) mentions that with differentiating instruction teachers become able to deliver information to learners through multiple entry points. They can investigate and explore current and innovative concepts; and reach outcomes as an expression of originality. In a differentiated classroom, she clarifies that instructors intend to show three curricular elements: content, process, and product. This clarifies that differentiation is not individualized learning where specific lesson plans are prepared for each learner in the same classroom in "every subject or unit". Tomlinson (2017) states that significant learning would

come from the instructor's work with the entire class excluding no one. She related differentiation to the instructor's aptitude "to lead rather than the necessity to rely on classroom management using rules to motivate students to learn". Tomlinson (2017) explained that a proficient instructor can motivate learners by working on individual learner's interests, "creating a culture of inquiry-based learning using self-directed learning principles". She claims that efficient "educational leadership is a measure of collaborative learning where individual and whole group activities result in a mind-set leading to a measured learning growth». According to Tomlinson (2017, the inference of this «mind-set» of differentiation has reshaped the mode of curriculum design and delivery. She adds that instructional variability paves the way for a collaborative learning environment which gives learners the chance to share their skills and information; on the one hand, and to recognize their weaknesses and shape capability to attain «learning growth», on the other hand. This view is applauded by Hattie (2018) who indicates that the way instructors mind learning and their role as professionals has a significant impact on learners' accomplishments.

Differentiated Instruction Approaches

Tomlinson (2017) discloses that instructors could practice classroom differentiated instruction through certain approaches that have origins in four central learner traits which lead to efficient differentiation of instruction: "readiness, engagement, learning profile, and flexible grouping". However, Schunk and



Zimmerman (2008) spoke about the approach of differentiating classroom instruction through learning motivations


Differentiating Instruction through Readiness

Learners' readiness is related to the match between a learner's skills, knowledge and understanding with the provided classroom task. Tomlinson (2017) defines learner's readiness as the present closeness to definite knowledge, understanding, and skills. According to Tomlinson (2017), for achieving a satisfactory connection between a learner's readiness and a definite task, the task should be a little beyond what the learner can achieve. On the other hand, Cooper (2010) reveals that although the learning objective does not alter according to learner readiness, "the degree of difficulty and the degree of complexity should be in harmony with the existing situation of the learner". For a proper designation of differentiated instruction, Tomlinson (2017) suggests that this should be "similar to using the equalizer buttons on a stereo or CD player" (p. 46). In this respect, Tomlinson (2017) suggests diverse aspects to make sure that the learners have the suitable level of challenge. Thus, she stresses that to respond to learner readiness, instructors can change materials, tasks and products in a classroom from such as changing "foundational to transformational, concrete to abstract, simple to complex, single facet to multiple facets, small leap to great leap, more structured to more open, less independence to greater independence, slow to quick". (p. 47). As for measuring learners' readiness, Strickland (2007)

explains that this should be accomplished through conducting an assessment before starting a unit of a study. These pre-assessment results are expected to help instructors to plan flexibly.

Differentiating Instruction through Learners' Engagement

It is well recognized to all instructors that any classroom does not function properly without engaging learners in the learning process, and this does not take place without creating an engaging environment. In this regard, Christenson, Reschly and Wylie (2012) explain that learners' engagement is a crucial constituent of the learning process. Tomlinson (2001) illustrates that engagement is an indispensable issue in the teaching and learning process. This enables instructors to create an operative learning environment; hence, leading to empower learners to stay on task and promote their learning aptitudes. Educators recommend that instructors should take engagement into consideration when preparing for a differentiated instruction classroom. Learners' engagement works best through two promoters, as Tomlinson (2017) illustrates. These two promoters are learner's interest and learner's choice. Yet, in any functioning classroom, it is easy to identify that not all learners have the same interests, which leads to instructors adopting differentiated instruction. On the other hand, Tomlinson (2017) proposes certain strategies to embrace learners' interest in any classroom that adopts differentiated instruction. Tomlinson (2017) indicates that instructors can involve adults or peers with



prior knowledge to function as supporters in an area of shared interest. Instructors can also provide learners with several opportunities to explore a topic or expression of learning. Tomlinson (2017) adds that instructors can offer learners a wide range of materials and technologies. They can provide learners also with a choice of tasks and products, including student designed options. Also, they can inspire exploration or application of key concepts and principles in learners' interest areas.

Differentiating Instruction through Learning Profile

Learning profile is an approach through which learners feel that they learn the best. An efficient classroom should aim to deliver a good learning experience for all learners; hence, instructors who differentiate their instruction through learning profiles think about assisting learners explore the best approach of learning for themselves. Tomlinson (2017) spoke about certain aspects that an instructor should consider when working with differentiating instruction through learning profile. These aspects might include group orientation as independent/ self-orientation, group/peer orientation, adult orientation, or a combination. Another aspect might be the classroom environment as quiet/noise, warm/cool, still/mobile, flexible/fixed, busy/spare, etc. Tomlinson (2017) illustrates the cognitive style as another aspect. This might include creative, conforming, essence/facts, whole-to-part/, part-to-whole, expressive/, controlled, nonlinear/linear, inductive/deductive, etc. Intelligence preference is another

aspect that an instructor should consider when working with differentiating instruction through learning profile. This might include, according to Tomlinson (2017), analytic, practical, creative, verbal/ linguistic, logical/mathematical, spatial/visual, bodily/ kinesthetic, etc.

Differentiating Instruction through Flexible Grouping

Creating classwork homogenous groups lies in the core of the differentiated instruction approach. It is not a dissimilar class strategy; it is one of the focal principles of differentiated instruction. Conklin, Sorrel & Van Dixhorn, (2012) believe that instructors consider some significant issues when involving learners in flexible grouping such as “gender, chemistry between students, social maturity, academic readiness and special needs”. Conklin et.al. (2012), on the other hand, indicate that adopting the flexible grouping approach is to create class work groups whose participants change regularly to diminish undesirable feelings, stigma and feelings of shame. Brulles & Brown (2018) show that the approach of flexible grouping assists learners and motivates instructors to regularly observe their students’ challenge level. Yet, Tomlinson (2017) reveals that in classrooms with flexible grouping learners can be part of several groups or can work independently. Tomlinson (2017) indicates that these groups can be skills-based or interest-based and be both heterogeneous and homogenous at readiness level. In this regard, each participant may choose the groups he/she wants to work in, or instructors may assign them to each.




Differentiating through Learning Motivations

In a study conducted in 1996 and entitled Approach and Avoidance Achievement Goals and Intrinsic Motivation, Elliot and Harackiewicz (1996) illustrated that learners could be differentiated either through “approach–performance” or “avoidance–performance”. Learners that are performance orientated will try to outperform other learners with the purpose of demonstrating proficiency and preeminence. On the other hand, learners identified as “avoidance–performers” may set themselves the objective to avoid failure by appearing incompetent. However, Schunk and Zimmerman (2008) claim that motivation could take place through enabling learners to “recognize poor self–regulation, model how to set effective learning goals and implement supportive learning strategies”. In a different context, Pachler (2010) shows that motivation in a differentiated instruction classroom could be enhanced through employing digital devices. For instance, Pachler (2010) illustrates that a “mobile device can be shared, peer critiqued and co–constructed, as evidence of developing critical thinking skills”. Similarly, Firipis, Chandrasekaran, and Joordens (2017) argue that learners can differentiate learning through using mobile devices to “test” and “clarify” course concepts. Firipis, Chandrasekaran, and Joordens (2017) show that in many cases, learners try to find alternative methods to process and understand difficult content or to overcome a perceived barrier to their learning. Firipis, Chandrasekaran, and Joordens (2017)

recommend that curriculum designers should differentiate curricula by inspiring learners to improve critical thinking skills by researching for additional resources. For instance, “referenced readings, supportive technical knowledge and facilitate opportunities for sharing of knowledge self-sourced independently from online Internet sources using a mobile device”.


III. Review of the Most Recent Research Studies

Previously conducted research studies on differentiated instruction primarily concentrated on instructors’ insights and levels of efficiency concerning the hypothetical and applied sides of differentiated instruction. However, there are research papers with an emphasis on learners’ improvements and perceptions. This current research reviewed some of these for the purpose of attaining a comprehensive perception of the fundamental inferences in the field of differentiated instruction. To start with, Howard and Tracey Ernst conducted a case study in 2005 where they planned a differentiated instruction classroom environment for an undergraduate course. The study intended to demonstrate the differentiated classroom traits and unveil learners and instructor perceptions of differentiated instruction implementation. The study participants were 35 undergraduate political science class. After the implementation of differentiated instruction methods throughout the course term, participants were asked to evaluate the efficiency of the implemented strategies. Findings of this case study reflected that participants




responded positively to the use of differentiated instruction. They showed an advanced level of learning and reflected their concern and satisfaction with the course. Findings also showed that instructors reacted positively to the differentiated instruction course, despite reporting worries about the time needed to differentiate instruction and whether the method of differentiation was fair for every participant. In a different context, Powers (2008) conducted a study to explore the impacts of the differentiated instruction approach on learners' motivation and achievement. Research participants were 20 high achieving Grade 7 Arlington, U.S. students (10 females and 10 males). The study lasted for two months only where participants were given the chance to study independently relying on the Powers Plan which is a research-based and field-tested method of independent study that demonstrates differentiated instruction. Powers (2008) relied on participants' reflections, questionnaires, and interviews as tools for data collection. The study findings showed that the participants' motivation and achievement improved due to the implementation of the differentiated instruction approach. Another study was conducted by Chamberlin and Powers (2010) in which the impact of differentiated instruction on mathematics understanding was assessed. It was a concurrent mixed method study with the quasi-experimental pre-test post-test design. The researchers used interviews as a tool to collect data for the purpose of analyzing participants' work and perceptions. Findings indicated that the experimental group participants who received

differentiated instruction had a better understanding in the provided mathematics course than their counterparts of the control group. In 2011, Martinez conducted action research that explored the effects of a “systematic, explicit and differentiated phonics instruction” on EFL learners’ literacy skills. The research’s primary concentration was on reading comprehension, spelling, and appropriate use of verbs in written sentences. Throughout the research, phonics instruction was provided with differentiation of time, instruction sequence, and vocabulary based on participants’ needs. Findings indicated that differentiation and explicit phonics instruction had positive impacts on EFL learners’ reading comprehension and literacy skills. Chien (2012), on the other hand, conducted action research through which differentiated instruction approaches as tiered tasks, learner’s choices and numerous assessment types were applied in elementary EFL classes in Taiwan. This research’s findings proved that the implementation of differentiated instruction approaches of tiered tasks, learner’s choices and numerous assessment types improved participants’ motivation and their sense of learning and autonomy. Similarly, Alavinia and Sadeghi (2013) conducted an experimental research study to examine the impact of differentiated instruction through learning styles on learners’ English language proficiency levels. Participants of the study were 60 undergraduate freshmen students divided into two groups of 30. Throughout the study that lasted for one semester, all participants were provided with the VAK Learning Styles Self-Assessment Questionnaire




developed by Chislett and Chapman (2005). All participants studied the assigned English language course using the same book. Yet, the control group participants studied the course book by means of a traditional approach. As for the experimental group participants, they received differentiated instruction which was based on the results of the VAK test done before conducting the study. Findings revealed that there was no significant difference between the treatment and the control groups as a result of implementing differentiated instruction. In 2014, Dosch and Zidon conducted a research study that aimed to examine the efficacy of implementing differentiated instruction in information literacy classes. The study was implemented in higher education to recognize whether quantitative improvements were prominent in a differentiated classroom in comparison to a classroom that did not adopt the differentiated instruction approach. Findings showed that that participant who received differentiated instruction significantly outpaced their counterparts of the non-differentiated instruction class. Findings also showed that participants of the differentiated instruction class perceived the differentiated instruction approach positively. Later on, in 2017, Chen and Chen conducted quasi-experimental research in which they implemented the differentiated instruction approach in a college mathematics class. The research participants were 60 calculus college students, where 30 participants represented the experimental group and 30 represented the control group. Throughout the study, the control group participants received classroom instructions via the teacher-centered approach. Yet,

the experimental group participants received differentiated instruction. After conducting the post test, Chen and Chen (2017) indicated that the result indicated that there was a significant difference in calculus achievement between experimental and control groups. The experimental group participants had the chance to achieve the calculus course objectives better than their counterparts of the control group. Later, Alhasmi and Elyas (2018) piloted an experimental study with the aim of examining the impacts of providing differentiated instruction in a grammar course delivered to class. Participants were first year female students studying EFL. The experiment involved a treatment group and a control group. Throughout the intervention period, the control group participants received grammar instructions in a traditional way. Yet, the experimental group received the same grammar course but with differentiated instruction based on the participants' cognitive profile. The researchers relied on the pre- test and posttest to collect quantitative data, and interviews with students to collect qualitative data. The pre-test and post-test results reflected that there was a significant difference between the pre-test and the post-test of the experimental group. However, the control group results showed no remarkable difference. Qualitative data results indicated that participants held a positive attitude towards the implemented instruction, an increase in participants' motivation, appropriateness of access, and learners' autonomy. Later, Danzi, Reul and Smith (2018) conducted action research to investigate the impact of the differentiated instruction approach



on promoting learners' motivation and decrease classroom boredom and frustration. In this action research that lasted for a period of 12 weeks, the researchers chose 21 third graders, 23 fifth graders, and 28 eighth graders as the research participants. The research tools were tiered assignments, authentic assessment types, and free-time activities which were modified in accordance with the participants' needs and interests. The researchers employed also questionnaires for participants and parents with an observation checklist. Data collected from the participants' questionnaire revealed that they showed a positive perception of the implemented differentiated instructions. A more recent study was conducted by Vargas-Parra, et.al (2018). Vargas-Parra, et.al (2018) piloted action research with a qualitative design through which they attempted to investigate the impacts of online learning differentiated instruction on ESL learners. Participants of this action research were 29 private school students. The research relied on journals as a qualitative tool to collect data. The journals were later analyzed through the use of content analysis and triangulation techniques, using Atlas.ti software. Research findings stated that differentiated instruction adopted in online learning had a positive impact on students' learning process. The differentiated instruction approach met the participants' needs and promoted their motivations. Therefore, Vargas-Parra, et.al (2018) recommended implementing differentiated instruction in EFL online classrooms because this approach can "constitute a valuable pedagogical alternative for the benefit of students".

Recently, Maria & Maria (2019) explained that meeting learners' diverse needs, primarily those who come from different cultural and social backgrounds, mandates variations in the contemporary educational curricula through the implementation of innovative classroom methods and applications, such as differentiated instruction. In their study, Maria and Maria (2019) investigated 16 studies that contributed to the differentiated instruction approach in higher education, specifically during the last ten years. The research findings showed that adopting the differentiated instruction approach contributes to "mobilizing preservice teachers, improving their performance and developing positive attitudes and beliefs of trainees and educators in higher education". As far as online learning (virtual) is concerned, there is very little research on the use of differentiation in fully online classrooms despite the huge growth in learners' enrollments in online courses at various levels. In a very recent research study, Beck, D., Beasley, J. (2021) asked online instructors from two different types of schools to discuss their online differentiation practices and compared these differentiated approaches with instructors across these schools. In this research, 92 instructors focused in 19 groups were involved. Collected qualitative data were investigated based on Tomlinson's classroom differentiated instruction framework. The research findings showed that most instructors comments about differentiation definitions, assessments, curriculum, grouping and strategies "fell in the novice category". Thus, less experienced online classroom instructors might face difficulties in developing skills while




implementing differentiated instruction approaches in virtual classrooms. In a different research study, Jørgensen & Brogaard (2021) showed that college instructors often have learners that belong to diverse educational levels. Thus, such instructors are continuously challenged with the ‘one size fits all’ classroom approach. In the study they conducted, Jørgensen & Brogaard (2021) attempted to investigate whether and how differentiated instruction, primarily learners’ readiness, can be implemented to measure and respond to academic diversity, demonstrated by two different cases; a methods lecture series and a peer-evaluation seminar. In the study each case presented specific tools, tasks and approaches stimulated by differentiated instruction which might be simulated or employed for stimulation in alike contexts. The research results involved better accomplishment of the proposed learning outcomes, instruction that is perceived to be significant by learners and instructors, and a more comprehensive classroom environment. Also, the two cases validated the effectiveness of differentiated instruction in higher education, defying the predominant notion that differentiated instruction is not well valid in a college context.

To sum up, the conducted research studies in the last two decades have investigated the implementation of differentiated instruction in various contexts and many of these revealed promising findings in this respect such as those conducted Alavinia & Sadeghi, 2013; Alhasmi & Elyas, 2018; Chamberlin & Powers, 2010; Chen & Chen, 2017; Dosch & Zidon, 2014; Maria

and Maria 2019; Jørgensen & Brogaard 2021 which specifically focus on differentiation in higher education. Also, there are only very few (Beck, D., Beasley, J. 2021 and Jørgensen & Brogaard 2021) that investigated the effectiveness of differentiated instruction in online learning regarding higher education. This current study is intended to fill in the gap through investigating the implementation of differentiated instruction in online higher education classes and the challenges encountered throughout the learning process.

III. Methodology

Due to the Corona Virus pandemic measures and the frequent lock down periods, most learners around the world were obliged to study virtually from homes. This has mandated instructors to adopt innovative instructional approaches at that time and hence after. It becomes interesting to any researcher's mind to inspect how learners with diverse aptitudes function in such virtual classes and if instructors are equipped with the basic approaches to meet the up-to-date needs of learners. This qualitative research was conducted to meet this contemporary aspiration with the objective of surveying ESL instructors' insights and practices concerning the application of differentiated instruction in online classrooms. It also aimed to examine the challenges higher education instructors encountered while instigating online differentiated instruction. This research adopts a qualitative research design and implements semi-structured interviews to collect data. The researcher's justification for



the choice of the qualitative design is due to the assistance it could encounter in examining the issue and developing an understanding of the circumstances, perceptions, and reflections of the research participants.

A. Research Context

This qualitative research was conducted in three private universities in Lebanon where English is communicated as a first foreign language of instruction in most majors. Each of the three universities adopts an international English language course designed primarily for learners studying English as a second language based on a validated placement test that determines each learner's proficiency level.

B. Research Instruments

Adopting the qualitative design, this research relied on the semi-structured interview approach where the interviewer did not strictly follow a formalized list of questions. Instead, he asked more open-ended questions. The interviewer used the English course requirements to generate questions and conversation starters to enhance mutual communication. The semi-structured interviews with participants were headed by observations, informal and unstructured interviews to let the researcher have a profound understanding of the whole issue for the purpose of preparing the appropriate and significant semi-structured research questions. For an appropriate choice of participants, the researcher used purposive sampling as a non-probability sampling procedure where the researcher depended on on his


preference to choose variables for the sample population. Each interview took place around 45 minutes. The questions were open-ended and about the participants' teaching experience, outlooks on employing differentiated instruction, online lessons amidst the pandemic, and how their approaches and class performances affected learners' aptitudes throughout the learning process.

C. Research Participants

Participants of this study were ten university instructors who teach English as a foreign language for students in their first year where English is provided as a foundation course. The participants' age ranges from 29 to 41. Each of the designated participants had at least seven years of experience in the domain of teaching EFL and previously carried out differentiated instruction approaches in lessons delivery for at least two years. The participants were males and females. Gender was not regarded as a variable in this research.

D. Research Analysis and Discussion

This qualitative research is primarily constructed on semi-structured interviews as a cornerstone for data collection. The interviews' questions focused on the participant instructors' experience in implementing the differentiated instruction approach in their English face-to-face and online classrooms. All participant instructors experienced differentiated instruction methods in their classrooms because of continuously having learners of diverse proficiency level and various learning




styles in the same classroom. Because all participants have passed throughout this experience, the interviews' questions reflected participants' previous recognition and practice of the differentiated classroom instructions approach.

Participants' recognition of the differentiated instruction approach


The interviews questions showed that the participant instructors had a thorough understanding of the differentiated instruction approach. They recognized its concept, purpose, strategies, and challenges. They had an awareness of its necessity in any classroom to meet the needs of learners and to reach everyone in the learning classroom. According to Prast et.al. 2018, differentiated instruction perception is mandatory for any instructor who likes to include this strategy in his/her lesson plan. Otherwise, differentiated instruction tasks will be hard to accomplish. Pham (2012) referred this to regarding differentiated instruction as a blend of both theoretical perception and practical application. In this respect, all participants were aware that in the application of the different instruction tasks learners should be provided with a variety of classroom tasks to enable them to achieve the assigned learning objectives. One of the respondents (ZS) showed that, before she started with her class at the start of the semester, she identified the learners' competency levels and needs. ZS conducted a diagnostic test for this purpose based on which she decided to provide her students with more intensive writing through various procedures such as modeling, mapping, and clustering. From this exemplification, ZS revealed

that awareness of differentiated instruction gave her the chance to identify learners' needs. Similarly, instructor BE indicated that his awareness of differentiated instruction enabled him to work more properly with his students who belonged to diverse proficiency levels and dealt with each according to his/her needs. LM asserted that differentiated instruction takes place when an instructor makes classroom arrangements through grouping learners based on their likes, dislikes, and levels assigning for each group the suitable tasks and missions. Respondents' views showed the reciprocal relationship between implementing different instructional tasks and learners' diversity. In responding to the question on differentiated instruction conception, HJ linked it to instructors' implementation of a diverse package of tasks. She exemplified through talking about her reading classroom. She mentioned that some of her students "needed to practice skimming tasks and context clues in order to be able to comprehend any printed text". It was so clear that having differentiated classroom approaches was so essential to perceive the notion of differentiated instruction. For instance, Tomlinson (2014) showed that differentiated instruction can be applied by using a diversity of instructional schemes through varying content, process and product which match learners' "readiness, interests and learning profiles". Correspondingly, Turner, Solis and Kincade (2017) emphasized that instructors should consider learners' individual differences if they are interested in implementing the proper instructional plans. Thus, from the respondents' views, it can be assumed that the



differentiated instruction notion provided is suitable in terms of the significance of applying different instructional methods to meet learners' needs. In the light of participants' recognition of the differentiated instruction approach, the responses of the interviewed instructors made it clear that differentiated instruction is a key factor in addressing learners' diversity. This agrees with Tomlinson (2001) who stressed that instructors who implemented differentiated instruction must take into account learners' levels, needs and interests. Tomlinson (2015) also showed that it is all about the procedure an instructor employs to encounter the needs of dissimilar learners thus all learners within the same classroom can receive information efficiently, irrespective of their diverse abilities and motives. Learners learn better if these differences are taken into consideration, as Tomlinson (2014) asserted. Although Tomlinson (2017) indicated that instructors intend to show three curricular elements: content input (what students learn), process (how students go about making sense of ideas and information) and product or output (how students demonstrate what they have learnt), the research results showed that all participant instructors centered their perception of differentiated instruction primarily on content and process. Not a single respondent emphasized the product. In analysis, this indicated instructors' narrow awareness of the differentiated instruction concept. This might lead to the assumption that differentiated instruction is challenging to be comprehended.


Participants' implementation of the differentiated instruction approach Participants' responses to the interviews questions reflected their experience in the implementation of this method in their English classrooms. The majority of respondents reflected that they implemented this method in various content and according to various procedures based on their learners' needs and proficiency levels. Similarly, they confirmed using this approach throughout the online classroom's sessions during the pandemic lockout periods as well as during face-to-face classrooms before. In this respect, instructor (HM) stated that it was so beneficial to identify learners' needs and levels before designing any instructional plan. This was very helpful in the implementation of the differentiated instruction strategies, HM added. Similarly, HH pointed out that it assisted him make a better comprehension of many learners, and it enabled him to reach almost all of them. Also, SN reflected that "checking for learners' context understanding in an undifferentiated instruction classroom is hard to be determined". However, SN added, with differentiated instruction "it is a little bit easy to get if the same learners got their lesson well or not, primarily in classes with big numbers". Participants' responses reflected their perception of the significance of implementing differentiated instruction strategies which allowed them to meet all learners' needs. This result agrees with Tomlinson's (2005) outlook that instructors are progressively mindful that they should provide instruction differently to respond to the emergent "population of diverse students".



Challenges participants encountered with the differentiated instruction approach

With the online implementation of differentiated instruction, the instructors confessed encountering diverse challenges (other than the technical problems). One respondent (HK) indicated that learners were under the pressure of the “new classroom environment” which created stress and uneasiness for many of the learners. To specify, RH reflected negatively to online differentiated instruction due to the absence of previous training and learners’ lack of motivation. She indicated that it was time consuming and there were many interruptions during the online sessions. In the same way, HK confessed that he had a limited experience with online teaching in general and differentiated instruction during online sessions in particular. He complained that many students did not take part in the designated tasks, and he had no awareness about keeping them in. This pushed him to return to the traditional class mode on many occasions. HM reflected on a challenge related to time. He indicated that the entire idea of online learning was new to learners, and differentiating instruction made it more challenging. What learners were able to accomplish during face-to-face instruction consumed double the extra time and efforts online. On the other hand, MS showed a skeptical attitude towards online differentiated tasks. She indicated that what took place during the online session (other than the technical and connection issues) did not meet her expectations. Many learners in her

class worked in an unusual manner, their reactions showed low motivation. She referred the reason to the little experience in being in an online lesson and to the absence of eye contact and proximity. In one of the interviews with LM, she spoke about learners' online attendance as a big challenge to her. ZS spoke about the same challenge and indicated that she used to plan for the online class based on the differentiated instruction approach. But when it came to session time, many did not attend. HJ, BE, and HK discussed how much effort they exerted in planning, preparing tasks and resources, and deciding on lesson procedures. They said that all these were effort and time-consuming. SN, RH, MS, and LM shared the same issue. They reflected on the difficulty of planning and organizing the work for classes with big numbers. They complained, wondering how they could meet the needs of all those learners in one classroom and within a limited class session. Other participants as HJ, BE, ZS, HM, and HH criticized online differentiated instruction methods for being stressful and efforts consuming. For instance, HM and ZS spoke about the too much effort they exerted in materials preparation and distribution of tasks. BE said that "usually the online session's duration was two hours. It took me more than five to seven hours to prepare for each session. Honestly this consumed me." Similarly, HJ and HH indicated that having a big number of students in the online session (about 35) demanded much effort and that was stressful due to difficulty to have control. HH spoke about the availability of the English course limited instructional resources. For




instance, HH showed that the course e-book was unavailable, and the assigned activities were centered around face-to-face work. Seven respondents (HK, HM, RH, LM, BE, ZS, and MS) reported the same issue indicating that finding the necessary course materials was another challenge for them. They said that the materials provided by universities where they worked were not sufficient. The available resources did not meet the learners' needs. RH said "there was a shortage of resources. The book I had was suitable to work inside the classroom in face-to-face lessons, but not for online sessions." LM had the same problem and added "It was so hard for me to find an electronic copy of the book. I scanned some lessons from the book and made the PDF copies to help my students." When it came to learners' motivation, four respondents (RH, SN, HM, and MS) pointed to the learners' negative attitudes. RH and MS indicated that many learners held a positive attitude towards the differentiated instructions during the online classroom such as working in pairs set in different digital rooms. However, SN and HM showed that some learners had a negative attitude. Many were hesitant about participation and taking part in the sessions. They "muted" themselves almost all the time and rejected to show up in most cases mainly after recognizing that all meeting sessions were "recorded".

In reference to the above illustrated challenges and based on the interviews with instructors, it could be noticed that instructors were aware of these challenges even during face-to-face

instruction. Therefore, it should be noted that such challenges must be dealt with appropriately through providing the proper strategies to confirm the application of differentiated instruction in classrooms. These challenges agreed with Lunsford (2017) and Merawi (2018) who showed that the differentiated instruction approach in online learning were often met with several challenges. Merawi (2018), specifically, referred instructors' negative attitude of differentiated instruction in online learning to the diverse challenges that encountered it such as time and efforts consuming, lack of course materials, demotivation of learners, etc.

IV. Conclusions

To sum things up, this qualitative research was conducted to investigate instructors' insight regarding the utilization of the differentiated instruction method in online learning. As far as the instructors' insight is concerned, it has been considered as a noteworthy issue prompting instructors' performance. This goes in parallel with many previously conducted studies that explored instructors' perception which have verified that there is a substantial association between instructors' rational, principles and outlooks connected with the performance and activities (Rosidah & Nurahimah, 2020). Although ample research has been conducted on instructors' insight of differentiated instruction and its implementation in classroom activities (Nicolae, 2013; Chin-Wen, 2015; Merawi, 2018; Tamirat & Xiaoduan, 2020)., little has been done on utilizing it in online



classroom work. Formerly, some educators held the concept that learners could achieve classroom instructions based on a variation of methods regardless of the change in context. In qualitative research conducted in 2018, Charles and Luard explained that differentiated instruction utilization is established when instructors recognize that differentiated instruction is indispensable in classrooms that constitute learners of various proficiency levels. Also, Mariyam et al. (2019) applauded this conception and explained that that optimistic attitude toward differentiated instruction could boost embracing diverse differentiated instruction implementations in classroom work. This suggests that adopting an affirmative insight of differentiated instruction is effective in enhancing the implementation of the differentiated instruction method in any learning environment. These previous reviews do not agree with the current situation of online learning, as this study has concluded due to the availability of diverse challenges that left their impacts on the participants' insights. Participants' reflections during the interviews made it obvious that online differentiated instructions were not positively received. Participants responses clearly reflected having an incomplete recognition of the differentiated instruction concept, mainly when implemented online. Eventually, instructors should have an obvious and precise recognition of the differentiated instruction concept if they propose to utilize it whether in face-to-face or online instruction. Even though most respondents to the interviews' questions agreed on the significance of this approach in online instruction, they confessed that it demands much more


practice to decrease time and efforts consumption. Yet, many of them revealed that with the differentiated instruction methods they were able to meet learners' needs and levels regardless of the many challenges they encountered. Results could have been better if the sample had been more representative. The research was conducted in a limited area and encompassed only ten ESL participants from three universities in Tyre district–South Lebanon. Thus, the research findings were primarily based merely on the perceptions of this limited group. For further research, therefore, the research recommends increasing the number of participant instructors, involve learners, university staff, and parents. It is also recommended to utilize other research instruments such as questionnaires and observations to achieve more validated results.

References

Alavinia, P., & Sadeghi, T. (2013). The impact of differentiated task-based instruction via heeding learning styles on EFL learners' feasible proficiency gains. *3L: Language, Linguistics and Literature*.

AlHashmi, B., & Elyas, T. (2018). Investigating the effect of differentiated instruction in light of the Ehrman & Leaver construct on grammar learning. *Arab World English Journal (AWEJ)*, 9(3), 145–162. <https://dx.doi.org/10.24093/awej/vol9no3.10>

Beck, D., & Beasley, J. (2021). Identifying the differentiation



practices of virtual school teachers. *Educational Information Technology*, 26 (6), 2191–2205. <https://doi.org/10.1007/s10639-020-10332-y>

Braun, V., Clarke, V., & Terry, G. (2015). Thematic Analysis. In P. Rohleder & A. C. Lyons (Eds.), *Qualitative Research in Clinical and Health Psychology* (pp. 95–113). Houndmills, Basingstoke, Hampshire, UK: Palgrave Macmillan.

Chamberlin, M., & Powers, R. (2010). The promise of differentiated instruction for enhancing the mathematical understandings of college students. *Teaching Mathematics and its Applications: An International Journal of the IMA*, 29 (3), 113–139. <https://doi.org/10.1093/teamat/hrq006>

Chien, C.W. (2012). Differentiated instruction in an elementary school EFL classroom. *TESOL Journal*, 3(2), 280–289. <https://doi.org/10.1002/tesj.18>

Christenson, S., Reschly, A., & Wylie, C. (Eds.). (2012). *Handbook of Research on Student Engagement*. New York: Springer.

Cooper, J. M. (2010). *Classroom Teaching Skills: Instructor's Edition*. Belmont, CA: Brookes & Cole.

Dosch, M., & Zidon, M. (2014). The course fit us: Differentiated instruction in the college classroom. *International Journal of Teaching and Learning in Higher Education*, 26(3), 343–357. <http://www.isetl.org/ijtlhe/>

Dudley, E., & Osváth, E. (2016). *Mixed-Ability Teaching*.

Oxford: Oxford University Press.

Prast, E. J., Van de Weijer–Bergsma, E., Kroesbergen, E. H., & Van Luit, J. E. H. (2018). Differentiated instruction in primary mathematics: Effects of teacher professional development on student achievement. *Learning and Instruction*, 54, 22–34.

Elliot, A., & Harackiewicz, J. (1996). Approach and avoidance achievement goals and intrinsic motivation: A mediational analysis. *Journal of Personality and Social Psychology*, 70(3), 461–475.


Firipis, A., Chandrasekaran, S., & Joordens, M. (2017). Engineering Curriculum Design – Understanding motivational variables and their influence on self-directed learners when using 1:1 mobile devices. *International Journal of Instructional Engineering Research*, 5(09), 8–31.

Pham, H. L. (2012). Differentiated instruction and the need to integrate teaching and practice. *Journal of College Teaching & Learning*, 9(1), 13–20.

Hattie, J., & Zierer, K. (2018). *Ten Mindframes for Visible Learning – Teaching for Success*. Routledge.

Lunsford, K. J. (2017). *Challenges to Implementing Differentiated Instruction in Middle School Classrooms with Mixed Skill Levels* (PhD Thesis). Walden University. Retrieved from <https://scholarworks.waldenu.edu/dissertations>.

Mariyam Shareefa, et al. (2019). Teachers' perceptions on differentiated instruction: Do experience, qualification and



challenges matter? *International Journal of Learning, Teaching and Educational Research*, 18(8), 214–226. <https://doi.org/10.26803/ijlter.18.8.13>.

Martinez Martinez, A. M. (2011). Explicit and differentiated phonics instruction as a tool to improve literacy skills for children learning English as a foreign language. *Gist Education and Learning Research Journal*, 5, 25–49.

Matias Thuen Jørgensen & Lena Brogaard (2021). Using differentiated teaching to address academic diversity in higher education. *Berghahn Journal*, 12(2). <https://doi.org/10.3167/latiss.2021.140206>

Mohd Hasrul, K., Hazita, A., & Zahidi, A. M. (2015). Differentiation practices among the English teachers at PERMATApintar National Gifted and Talented Center. *Asian Social Science*, 11(9), 346–351.

O'Meara, J. (2010). *Beyond Differentiated Instruction. Thousand Oaks, CA: Corwin.

Ozer, S. (2016). The effects of thinking–style–based differentiated instruction on achievement, attitude, and retention (Doctoral thesis). Necmettin Erbakan University, Konya, Turkey. Retrieved from https://tez.yok.gov.tr/UlusalTezMerkezi/TezGoster?key=cbOXH84ZayrLjc0tl-QXKpPmu-LhNtQhDZ5bseS9Dx9U6nYQGfr1piGr_yiGwDTt

Pachler, N. (2010). The socio–cultural ecological approach to mobile learning: An overview. In B. Bachmair (Ed.),

Medienbildung in neuen Kulturräumen (pp. 153–167). Berlin, Germany: Springer–Verlag.

Powers, E. A. (2008). The use of independent study as a viable differentiation technique for gifted learners in the regular classroom. *Gifted Child Today*, 31(3), 57–65. Retrieved from <https://files.eric.ed.gov/fulltext/EJ803367.pdf>

Rose, D. H., Meyer, A., & Hitchcock, C. (2005). *The Universally Designed Classroom: Accessible Curriculum and Digital Technologies*. Cambridge, MA: Harvard Education Press.

Rosidah Ramli, & Nurahimah Mohd. Yusoff. (2020). Self-efficacy and differentiated instruction: A study among Malaysian school teachers. *Universal Journal of Educational Research*, 8(4), 1252–1260. <https://doi.org/10.13189/ujer.2020.080416>.


Schunk, D., & Zimmerman, B. (2008). *Motivation and Self-Regulated Learning: Theory, Research and Applications*. Taylor and Francis Group LLC.

Shenton, A. K. (2004). Strategies for ensuring trustworthiness in qualitative research projects. *Educational Information*, 22, 63–75.

Strickland, C. (2007). *Tools for High-Quality Differentiated Instruction*. Alexandria, VA: ASCD.

Tomlinson, C. (2017). *How to Differentiate Instruction in Academically Diverse* Athens Journal of Education.

Vargas–Parra, M. A., Rodríguez–Orejuela, J. A., & Herrera–Mosquera, L. (2018). Promotion of differentiated instruction



through a virtual learning environment. *Folios*, (47), 165–177. Retrieved October 01, 2021, from http://www.scielo.org.co/scielo.php?script=sci_arttext&pid=S012348702018000100165&lng=en&tlng=en.

Turner, W. D., Solis, O. J., & Winifred, D. H. (2014). NUTP wants less paperwork, more time with students. Retrieved from <http://www.themalaymailonline.com/malaysia/article/nutp-wants-less-paperwork-more-time-with-students>.

Le destin exceptionnel du monde dans Le Labyrinthe des égarés d'Amin Maalouf

القدر الاستثنائي للعالم - رواية متاهة الضائعين لأمين معروف نموذجًا

DR Marie L. Manassa

د. ماري هنري منسى

تاريخ القبول 2024 /12/20

تاريخ الاستلام 2024 /12/8

Résumé

Expliquer l'évolution de l'arène internationale, saisir avec mesure et justesse la réalité mouvante et complexe de l'Orient et de l'Occident est une entreprise téméraire. A la difficulté de recenser dans une grille cohérente les données politiques, économiques, culturelles en œuvre dans la marche des événements, se mêle intimement l'obstacle permanent de l'hégémonie américaine et son intervention dans les affaires d'un monde menacé d'impuissance, de désordre et de déstabilisation. C'est au prix d'une contre-hégémonie, d'une contestation sur la domination que certains états peuvent espérer sentir leur poids dans la construction et la garantie de l'ordre mondial, et préserver leur identité face à l'américanisation croissante de la planète. Le moment est donc venu, et largement venu, d'imaginer les architectures nécessaires à l'achèvement de ce qu'il est convenu d'appeler la construction américaine.

Mots clés

Orient, Occident, Hégémonie américaine, Domination, Contre-hégémonie.

الملخص

إن تفسير التّطوّر الذي تشهده السّاحة الدّوليّة وفهم الواقع المتغير والمعقد في الشّرق والغرب بالتّفصيل وبدقّة يعدّ مهمّة جريئة. فالإلى جانب صعوبة احصاء المعطيات السّياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة ضمن إطار متماسك لتدارك تطور الأحداث، يبرز العائق المستمر المتمثّل في الهيمنة الأمريكيّة وتدخّلها في شؤون عالم مهّدّد بالعجز والفوضى وزعزعة الاستقرار. فقط من خلال حركة مضادة للهيمنة ومن خلال الاعتراض على السّيطرة يمكن أن تتأمّل بعض الدّول أن تشعر بقيمتها في إعادة البناء وضمان النّظام العالميّ، والحفاظ على هويتها في مواجهة الأمركة المتزايدة حول العالم. لقد حان الوقت، بل حان لأقصى حد، لوضع الهياكل الضّرورية لتحقيق ما تم التّوافق على ان تُسمى بالبناء الأمريكيّ.

الكلمات المفتاحيّة: الشّرق، الغرب، الهيمنة الأمريكيّة، السّيطرة، مواجهة الهيمنة

J'ai toujours cru que ce continent était un lieu exceptionnel dont le destin était exceptionnel. Je crois que notre destin est d'être le phare d'espérance de l'humanité toute entière.


Ronald Reagan

(Reagan cité par Allman, 1986, p.141)

Entre l'Orient et l'Occident existe, depuis l'Antiquité, une relation d'attraction-répulsion à tous les niveaux. C'est cette proximité ainsi que la fluctuation à travers les âges des frontières culturelles et politiques vis-à-vis de l'Orient

qui expliquent l'ambivalence de la relation et l'intensité des préjugés et des passions. «L'intérêt de l'Europe, puis de l'Amérique pour l'Orient était certes d'ordre politique, comme le montrent certains faits historiques évidents, mais que la culture a créé cet intérêt ; c'est son action dynamique, jointe à de brutales raisons politiques, économiques et militaires, qui a fait de l'Orient cet objet varié et complexe.» (Saïd, 1980, p.24) Cet amalgame a gouverné depuis le début de ce siècle : les rapports de forces, de pouvoir et de domination entre l'Orient et l'Occident, l'hégémonie américaine sans partage, les passions politiques soulevées de part et d'autre par la décolonisation, la permanence du sous-développement et de l'humiliation en dépit de la richesse pétrolière, l'énormité des enjeux économiques et géopolitiques : tels sont les éléments de base qui permettent aux amalgames de contribuer à intensifier les situations conflictuelles et à aggraver l'instabilité de l'équilibre du monde.

La perception de cette réalité mouvante et complexe sera donc l'objectif de cet article. Nous nous sommes référés à l'ouvrage d'Amin Maalouf intitulé Le Labyrinthe des égarés. C'est un livre d'interprétation du vécu social et culturel- des pays de l'Occident, de l'Asie orientale, à savoir le Japon, la Chine, la Corée, ainsi que les pays qui appartiennent à la ligue des Etats arabes, tels le Liban, la Palestine, l'Égypte, l'Irak- replacé dans une perspective politique que nous cherchons à saisir, expliquer et interpréter. Nous ne nous étonnerons pas



de constater que dans ce livre monumental et passionnant publié en 2023, chez Grasset et Fasquelle, l'Histoire tient une large place. Maalouf ne prétend guère ignorer ses leçons. Il est précieux de relire ainsi ces mots significatifs : « Tel est le grand enseignement que nous prodigue l'Histoire, et il y a là peut-être, par-delà les tragédies d'hier et d'aujourd'hui, l'ébauche d'une solution. » (Maalouf, 2023, p.14) Ce n'est pas pour autant un livre d'histoire. Maalouf avoue.

Je me suis penché, dans cet essai, sur quatre grands pays dont les parcours singuliers ont contribué à construire le monde tel que nous le connaissons en ce siècle. Chacun d'eux s'est battu contre tous les autres, et aussi contre les vieilles puissances coloniales. Ils ont rêvé d'hégémonie, ils ont tous connu des victoires et des moments d'ivresse, avant de se brûler les doigts. Ils ont longtemps cherché à se détruire les uns les autres, et ils n'ont toujours pas surmonté leurs méfiances, leurs peurs et leurs ressentiments. S'ils décidaient demain de suivre leurs pires instincts, comme il leur est arrivé quelquefois de le faire au cours des cent dernières années, les conséquences en seraient dévastatrices. (Maalouf, 2023, pp423-424)

De même, cette œuvre propose, sous une forme accessible, la vision d'un monde qui soit autre que celle de l'irrationalité omniprésente à travers laquelle il se présente trop souvent. C'est une vision où cesseraient de dominer les puissances occidentales, pourrait aussi avec le temps devenir la réalité,

si lointaine soit-elle, d'un Orient réconcilié avec l'Occident et avec lui-même, et d'un Occident réconcilié avec lui-même et avec l'Orient. Seules ces réconciliations permettront à l'humanité d'entrer «enfin dans l'âge adulte, et dont les différentes composantes éprouveraient l'envie de donner et de recevoir, d'influencer les autres et de s'en laisser influencer, sans humilier personne ni se laisser humilier». (Maalouf, 2023, p.436) Ce mécanisme, défini par Maalouf comme une logique « de solidarité planétaire» (Maalouf, 2023, p.436) se révèle en tant que tel comme le seul moyen de «sortir parfaitement de ce labyrinthe». (Maalouf, 2023, p.436).

Comme point de départ, nous soulèverons tout un ensemble de questions qui se posent à bon droit quand nous parlons de «l'appétit géographique» (Saïd, 1980, p.247) de l'Occident et sa mission de régénérer l'Orient, comme l'enseigne Thomas Paine, l'un des pères fondateurs de générations de pionniers venus des quatre coins de la terre. De l'autorité européenne au monopole américain : nous ferons quelques pas dans le processus de ce que Raymond Williams appelle «l'esprit spontané de domination». (Williams, 1958, p.376) Cette autorité sur l'Orient sera en grande partie le sujet de notre article. Cette force supérieure de l'occident passe des mains des européens couverts de ruine à celles des américains. Certes, il est question ici de «déclassement» (Maalouf, 2023, p.12) des puissances du vieux continent par rapport au rang qu'elles tenaient dans le monde au temps des grands empires coloniaux. Maalouf écrit


de manière très suggestive :

Une bonne partie de leur prépondérance perdue a été «récupérée» par cette autre puissance occidentale que sont les Etats-Unis d'Amérique. La grande nation d'outre-Atlantique s'est hissée à la première place il y a plus de cent ans ; c'est elle qui s'est chargée de barrer la route à tous les ennemis de son camp ; et à l'heure où j'écris ces lignes, elle conserve sa primauté- par sa puissance militaire, par ses capacités scientifiques et industrielles, comme par son influence politique, culturelle et médiatique dans l'ensemble de la planète. (Maalouf, 2023, p.12)

Pour reprendre le titre d'un article prophétique de René Dabernat dans Le Monde du 27 octobre 1965, il n'y a plus qu'un supergrand (Dabernat cité par Fontaine, 1991, p.264). Si nous nous référons à ce nouvel ordre mondial, «le monde de l'immédiat après-guerre froide n'est pas multipolaire. Il est unipolaire. Le centre de la politique mondiale est la superpuissance incontestée, les Etats-Unis assistés [attended by] par leurs alliés occidentaux». (Krauthammer, 1990-1991) Du coup, l'Amérique devient le temple même de la prospérité et la seule grande puissance qui puisse non seulement fonder et maintenir la paix et la démocratie dans le monde, mais surtout «réglementer les rapports internationaux». (Fontaine, 1991, p.263) Qui ne rêvait d'un monde où pour reprendre les paroles de Georges Bush, «le règne de la loi, et non plus la loi de la jungle, gouverne la conduite des nations ?» (Bush, 1991) L'Amérique aura d'elle-même une vision qui sera

celle, comme l'écrit le journaliste T.D. Allman «d'un législateur bienveillant apportant l'ordre, le bien et la liberté à un monde où règnent le chaos, le mal et l'esclavage ?» (Allman, 1986, p.144) Faut-il pour autant se résigner à voir un seul pays, fût-il désormais la seule superpuissance, décider du sort de tous ? De quel droit prend-il cet air de supériorité vis-à-vis des orientaux ? A voir toutes les injustices, toutes les violences, n'y a-t-il pas lieu de craindre que l'ordre annoncé ne débouche en fin de compte sur une nouvelle version de ce «désordre établi» (Domenach, 1972, p.50) dont parlait Emmanuel Mounier ? Comment en effet donner sens à cette réalité constamment jalonnée de coups d'Etat militaires, de referendums plébiscitaires, de révolutions, des mouvements de foules, du sang des attentats, de défaites militaires successives, de villes soumises à la destruction, de guerre civile et de terreur à travers lesquels Orient et Occident s'appréhendent l'un l'autre dans la grimace et la crispation ?

L'ambition de cette seule «superpuissance» (Fontaine, p.13) peut paraître démesurée. Cependant, risquerait-elle aujourd'hui de tomber de son piédestal ? Assisterions-nous, tout au long de ce siècle, comme le prétend Maalouf, «au déclin de l'Occident tout entier, et à l'émergence d'autres civilisations, d'autres puissances dominantes ?» (Maalouf, 2023, p.12) A défaut de prétendre répondre à toutes ces questions, cet article nous invite de repenser en profondeur la manière dont notre planète est gouvernée. Il nous invite ainsi, du même coup, à s'angoisser de cet égarement du monde afin de prendre




nos responsabilités et préparer «pour les générations futures un avenir plus serein, qui ne soit pas fait de guerres froides ou chaudes, ni de luttes interminables pour la suprématie.» (Maalouf. 2023, p.13–14)

C'est donc pour rendre à ces événements leur juste mesure, leur place dans l'évolution complexe et difficile des sociétés, que ces pages sont tentées. Elles le sont aussi pour mettre en perspective la relation de pouvoir et de domination entre l'occident et l'Orient, espèce d'autorité sur l'Orient qui se résume, selon Arthur James Balfour, par une théorie simple, précise et claire : «Il y a les Occidentaux et il y a les Orientaux. Les uns dominant, les autres doivent être dominés, c'est-à-dire que leur pays doit être occupé, leurs affaires intérieures rigoureusement prises en main, leur sang et leurs finances mis à la disposition des puissances occidentales.» (Saïd, 1980, p.50) Pour ce faire, nous avons choisi de tenter l'aventure d'une approche géopolitique prônée par Bertrand Badie s'efforçant de réactiver un concept vieux de vingt-cinq siècle, le «concept d'hégémonie» (Badie, 2019, p.11) et de nous renseigner, certes, sur «les vicissitudes et les illusions, peut-être les vices, qui accompagnent la démesure de l'hégémonie.» (Badie, 2019 p.23) Il s'agit là notamment de «la servitude volontaire et recherchée» (Badie, 2019, p.53) Dans son ouvrage L'hégémonie contestée. Les nouvelles formes de domination internationale (2019), il étudie une nouvelle façon de construire l'international, il parle de la nouvelle hégémonie qui s'impose ou de «cette contre-hégémonie de défense contre

le dominant» (Badie, 2019, p.121) aujourd'hui à la mode. Et Badie de préciser sa pensée en écrivant : «Comme si la vision systémique se refermait. Comme si le monde retournait à la parabole des boules de billiard, apparemment égales, prétendues libres, cherchant d'abord à cogner et à s'entrechoquer.» (Badie, 2019, p.21)

Pour cette étude de l'hégémonie ou de l'autorité, mes principaux outils méthodologiques sont l'approche sociologique préconisée par Pierre Bourdieu, notamment dans son ouvrage, Raisons Pratiques (1994) qui est une manière de décrire la construction du «monopole étatique» (Bourdieu, 1994, p.131) qui ne peut s'accomplir qu'au prix «d'une reconnaissance universelle de la représentation universaliste de la domination, présentée comme légitime, désintéressée» (Bourdieu, 1994, p.131) et la soumission doxique «aux gouvernements les plus despotiques» (Bourdieu, 1994, p.128) au nom d'un «conformisme logique» (Bourdieu, 1994, p.103) qui s'impose durablement, naturellement et légitimement sous forme de «pieuse hypocrisie.» (Bourdieu, 1994, p. p33) Les théories d'Edward Saïd, notamment celles de «l'autorité» (Saïd, 1980, p.33) et ces attributs appliqués par l'orientalisme anglo-français, puis l'orientalisme américain sur l'Orient, dans son ouvrage l'Orientalisme. L'Orient créé par l'Occident (1980) paraissent significatives.

Zone de confluences, de convergences et de divergences entre grandes civilisations, religions et empires politiques, l'Orient ne peut être saisi simplement. C'est en dessinant les



rapports potentiellement explosifs qui lient la société orientale à la société occidentale que nous tenterons d'appréhender la dimension dramatique du nouvel épisode malheureux de la relation des orientaux à l'Occident qui s'ouvre avec le formidable nouvel ordre international : «Pour la première fois dans l'histoire, une seule puissance, les Etats-Unis, détient l'hégémonie mondiale.» (Fontaine, 1991, p.8) Nous tenterons par nos analyses de tracer la complexité des événements, les profonds bouleversements, les traumatismes historiques connus par les sociétés orientales, mais aussi d'expliquer l'égoïsme, la soif exclusive de puissance de l'Occident enchanté d'exercer ce leadership qui, s'il flatte son amour-propre, met de plus en plus à l'épreuve sa compétence, sa lucidité et sa magnanimité qu'il n'a pas toujours eue.

I– Le combat Orient/ Occident : entre espérances et illusions


O Occident ! Ô Orient ! rapprochez, regardez, reconnaissez, saluez, étreignez-vous ! [...] Dieu tout-puissant et éternel ! [...] Que votre souffle divin plane sur ces eaux ! Qu'il y passe et repasse, de l'Occident à l'Orient, de l'Orient à l'Occident ! Ô Dieu ! servez-vous de cette voie pour rapprocher les hommes les uns des autres. (Lesseps, 1881, pp. 324–333)

1. Les opprimés de l'Orient

Les occidentaux n'ont pas attendu longtemps pour se sentir investis d'une mission. Aucun doute n'est possible, l'Occident disposé à prendre en main «la cause des populations souffrantes»

(Saïd, 1980, p.249) a toujours été en position de domination. Sans pouvoir donner ici toutes les références de L'Orientalisme, L'Orient créé par l'Occident (1980) où Edward Saïd aborde un tel sujet, il est précieux, malgré tout, de redire ce texte décisif : «La relation essentielle, sur le terrain politique, culturel et même religieux, a été considérée– en Occident– comme un rapport entre partenaires fort et faible.» (Saïd, 1980, p.55) Certes, il est encore question ici de distinction, mais à cette idée s'ajoute «l'indéracinable distinction faite entre la supériorité occidentale et l'infériorité orientale» (Saïd, 1980, p.57) qui est l'essence même de l'orientalisme.

Sous de tels cieux, les orientaux reproduisent « naturellement » (Bourdieu, 1994, p.128) selon un terme cher à Bourdieu, un ordre « sans le savoir, ni le vouloir. » (Bourdieu, 1994, p.47) Leurs actions « grossièrement orchestrées » (Bourdieu, 1994, p.47) correspondent essentiellement à une reconnaissance et adhésion naturelle et doxique au point de vue des dominants qui s'impose comme universel. Bourdieu écrira par exemple dans Raisons Pratiques (1994) où le thème de la monopolisation est central : « la monopolisation ne peut être obtenue qu'au prix d'une soumission à l'universel et d'une reconnaissance universelle de la représentation universaliste de la domination, présentée comme légitime, désintéressée. » (Bourdieu, 1994, p.131)




Quand Maalouf choisit de dévoiler le monde par cet ouvrage, il nous invite à prendre nos responsabilités devant cet univers qu'il nous révèle. Il écrit : « nous aussi, nous sommes des Orientaux opprimés par les Occidentaux. » (Maalouf, 2023, p.52) Ou encore : « Nous, les Orientaux, on nous enseigne depuis l'enfance que notre civilisation appartient à un passé révolu, que nous n'avons aucun rôle dans le monde d'aujourd'hui, et que nous devons accepter la suprématie de l'Europe. » (Maalouf, 2023, p.52) Cette clairvoyance n'étonne pas sous la plume de celui qui eut toujours la persuasion et le courage obstiné de révéler que « les puissances occidentales portent une responsabilité dans les tragédies dont on a pâti, au cours des siècles, et dont on continue à pâtir » (Maalouf, 2023, p.431) Il écrit qu'il cherchait « un salut » (Maalouf, 2023, p.436) dans sa littérature qu'il se croyait « une manière d'instruire les nations et de leur montrer le chemin vers le progrès et la civilisation. » (Maalouf, 2023, p.52) et qu'il pensait avoir pour mission de « leur expliquer comment ont procédé ceux qui y ont réussi. » (Maalouf, 2023, p.52)

Ce qui frappe rétrospectivement dans ces événements des derniers siècles, au-delà de l'aspect traumatisant des violences et des tensions les plus abruptes, c'est la récurrence des modernisations avortées et des discours révolutionnaires dans le monde entier, avec pour entreprise ambitieuse et optimiste de « libérer les peuples d'Orient, mettre fin à la division de l'humanité en peuples oppresseurs et peuples opprimés,

et pour parvenir à l'égalité complète entre tous les peuples et les races, quelles que soient leur langue ou la couleur de leur peau, et quelle que soit la religion qu'ils professent.» (Maalouf, 2023, p.104) Cet appel est principalement un appel lancé par Karl Radek, une grande figure du Komintern, une invitation à une révolution russe libératrice et anticolonialiste. Le tableau révolutionnaire du congrès des peuples d'Orient organisé par le Komintern à Bakou, en septembre 1920, le montre assez. Dans le discours d'ouverture, Zinoviev déclare : «Prolétaires de tous les pays et peuples opprimés du monde entier, unissez-vous !» (Maalouf, 2023, p.104) Si le poids des chaînes de la servitude augmente considérablement, un appel solennel formulé par Lénine et Trotski cible plus l'attaque : «Que votre congrès apporte la force et la confiance aux millions d'êtres humains qui demeurent opprimés, partout dans le monde ! Qu'il leur insuffle la foi en leur propre puissance ! Qu'il rapproche le jour de leur triomphe définitif et de leur libération !» (Maalouf, 2023, p.105)

Il aurait pourtant fallu y regarder de plus près, car les horreurs ne sont pas moins grandes du côté d'autres sociétés orientales. La Chine, pays qui a connu, «pendant des siècles, une humiliante décadence» (Maalouf, 2023, p. 183) et dont la souveraineté accompagnée d'une suite d'égarements, vient de s'affirmer dans l'ordre international, pourrait-elle «oublier les cent ans d'humiliation nationale qu'ils ont subis de la part des Anglais et de tous les Occidentaux, comme de la part des japonais et des Russes, à partir des années 1840 et tout au



long du dix-neuvième et du vingtième siècle ?», écrit Maalouf dans *Le Labyrinthe des égarés* (2023). Et c'est parce que les chinois, comme toute race orientale, sont crédules, «dénudés d'énergie et d'initiative» (Saïd, 1980, p.53), leur esprit manque singulièrement «de faculté logique» (Saïd, 1980, p.53), et pour la plupart, ils n'ont pas la connaissance infuse de ce qui est bon pour eux, que les occidentaux leur refusent «naturellement l'autonomie.» (Saïd, 1980, p.47) Saïd a montré que l'Orient doit être reconstruit et fabriqué par l'Occident car ce dernier «possède un savoir systématique croissant sur l'Orient, [...] a toujours été en position de force et de domination, comme un rapport entre partenaires fort et faible.» (Saïd, 1980, p.55) Certes, il est question ici de de deux grands thèmes baconiens, au savoir s'ajoute le pouvoir c'est-à-dire «l'autorité de ce qui est la race dominante» (Saïd, 1980, p.49) sur une classe inférieure, dominée. Il écrit de manière plus claire encore.


Ils sont une race sujette, dominée par une race qui les connaît, et qui sait ce qui est bon pour eux mieux qu'ils ne pourraient eux-mêmes le savoir. [...] Ils n'ont d'utilité dans le monde actuel que parce que les Empires puissants et modernes les ont effectivement sortis de leur misérable déclin pour en faire les habitants réadaptés de colonies productives. (Saïd, 1980, p. 49)

Il fallait déjà citer ce passage de Maalouf, car il est exemplaire de la complexité des rapports entre la Chine et l'Occident, que nous avons évoquée dans le paragraphe précédent, et à travers

lesquels Orient et Occident se regardent. Cette complexité se révèle surtout dans la guerre de l'opium, « inaugurant, pour les Chinois, l'un des chapitres les plus sombres de leur longue histoire. » (Maalouf, 2023, p.209)

En un mot, le pays était pratiquement désarmé, et comme nu. [...] Le trafic de l'opium prit très vite des proportions inouïes. Des 1820, la drogue était devenue le premier produit d'importation en Chine, et sa part ne cessait de croître, vidant le pays de ses réserves d'argent et causant une grande détresse dans la population. Des millions d'habitants s'adonnaient à cette consommation, notamment parmi les élites, et au sein même de l'administration impériale. [...] La Chine n'allait plus connaître, pendant plusieurs générations, que des révoltes qui finissent mal, des réformes qui tournaient court, et des conflits armés qui se terminaient invariablement par de nouvelles humiliations. (Maalouf, 2023, pp210–211)

Il est évident que dans l'attaque de la Chine, la pensée de Saïd connaît sa force. Il note très clairement : « connaître un objet, c'est le dominer. » (Saïd, 1980, p.46) C'est là, en effet, que certains britanniques « découvrant le goût de la population locale pour l'opium, décidèrent de mettre en place une sorte de commerce triangulaire, infiniment plus lucratif que celui qui prévalait jusque-là. [...] Et sans rien acquitter au Trésor impérial ... » (Maalouf, 2023, p.203) Nous comprenons dès lors l'importance que revêt dans L'Orientalisme (1980) des questions



telles que «celles de l'infériorité et de supériorité.» (Saïd, 1980, p.47) Nous ne mettons jamais en doute la supériorité anglaise ni l'infériorité chinoise, ce sont pour Saïd, selon son expression minutieusement choisie : «les conséquences du savoir» (Saïd, 1980, p.47) ou encore l'incapacité de «self-government» (Saïd, 1980, p.47) et la « déraison de l'Oriental.» (Saïd, 1980, p.55) Rappelons, en passant, que si Bourdieu parlait du champ de pouvoir pour désigner les rapports de force entre dominants/ dominés (Bourdieu, 1994, p.56), il lui serait facile d'énumérer les traits du style de vie des classes dominées qui enferment, à travers le sentiment de l'incompétence, de l'échec ou de l'indignité culturelle, une forme de reconnaissance des valeurs dominantes.» (Bourdieu, La distinction, 1979, p. 448). Saïd donne alors pour conclusion à son raisonnement ces lignes significatives.

L'esprit de l'Oriental manque au plus haut point de symétrie. Sa manière de raisonner est pleine de laisser-aller. [Ils] manquent singulièrement de faculté logique. Ils sont souvent incapables de tirer les conclusions les plus évidentes de prémisses simples dont ils peuvent accepter la validité. Leurs explications sont prolixes et manquent de clarté. (Saïd, 1980, p.53)

Maintenant, est-ce un bien pour une nation civilisée comme la Grande-Bretagne, placée en situation de suprématie sur un pays de l'Orient, comme «le géant de l'Asie ?» (Maalouf, 2023, p. 186) Nous pensons que c'est un mal. Il suffit de relire la réponse

très imagée de Victor Hugo au correspondant britannique, le capitaine Butler, après la victoire commune remportée en Chine par la France et la Grande-Bretagne :

«Un jour, deux bandits sont entrés dans le palais d'Été. L'un a pillé, l'autre a incendié. Et l'on est revenu en Europe, bras dessus, bras dessous, en riant. Telle est l'histoire des deux bandits. Nous, Européens, nous sommes les civilisés, et pour nous les chinois sont les barbares. Voilà ce que la civilisation a fait à la barbarie. L'Empire français a empoché la moitié de cette victoire, et il étale aujourd'hui le splendide bric-à-brac du palais d'été. J'espère qu'un jour viendra où la France, délivrée et nettoyée, renverra ce butin à la Chine spoliée.» (Maalouf, 2023, p.214)


Tout ce qui se passe montre que les grands Etats, à l'époque, sont autant d'ogres qui ne rêvent, selon le cas, que de revanche ou de conquêtes par le sang ou par le fer. Leur supériorité et antipathie s'étend à tout l'Orient. Ils ne comprennent pas qu'ils ne s'agrandissent qu'à leurs propres dépens. «Les misérables Européens ont mieux aimé jouer aux Armagnacs et aux Bourguignons que de prendre sur toute la Terre le grand rôle que les Romains surent prendre et tenir pendant des siècles dans le monde de leurs temps», dira Paul Valéry. (Valéry, 1945, p.34)

2. Egoïsme et puissance de l'Occident

L'Occident, bien sûr, peut mieux se défendre. La société développée est en effet celle qui par son accumulation de savoir et de pouvoir (Saïd, 1980, p.46) intériorisée dans l'ordre du monde tout entier, sait transformer les épreuves qu'elle doit affronter en nouvelles sources de savoir et de pouvoir. Bourdieu parle excellemment dans *La domination masculine* (2002) de «la doxa ou de l'ordre du monde établi avec ses rapports de domination, ses droits et ses passe-droits, ses privilèges et ses interdits» (Bourdieu, 2002, p.11) qui impose indiscutablement «cette certitude de soi, cette arrogance qui, étant d'ordinaire le monopole des [sociétés] les plus assurées du rendement de leurs placements, ont toutes les chances, dans un univers où tout est affaire de croyance, d'imposer leurs investissements comme les plus légitimes, donc les plus rentables», (Bourdieu, 1979, p.136) écrit d'une manière plus claire dans *La Distinction* (1979). L'Orient, au contraire, est celui dont même les avantages et les sources potentielles de puissance deviennent des causes de faiblesse additionnelle, de dépendance accrue et de déséquilibres nouveaux. C'est pourquoi, en Occident, la crise pétrolière est à l'origine de nouveaux progrès techniques dans tous les domaines énergétiques, de réajustements industriels, rendus en tout cas nécessaires du fait des changements profonds dans la compétition technique et économique que se font entre eux les grands pays capitalistes. En Orient, la tyrannie pétrolière, nouveau fléau des orientaux, «détruit dans le désordre le tissu

social, crée des déficits alimentaires graves et une dépendance quasi-totale sur la production pétrolière, mettent des économies squelettiques dans une situation d'extraversion totale vis-à-vis des pays développés, en particulier occidentaux, et donc dans une position de vulnérabilité absolue» (Corm, 1991, p.180), écrit Georges Corm dans *Le Proche-Orient éclaté* (1991). Une page plus loin, il évoque en termes réalistes et poignants l'inflation que connaissent les pays orientaux, le chômage, le chaos, l'effondrement, et «la marginalité sociale et économique qu'accélère le pétrole dans les pays orientaux, pour tous ces ruraux, petits artisans, petits fonctionnaires, qui ne peuvent suivre ni le rythme d'inflation, ni les changements brutaux et chaotiques que connaît leur paysage culturel, économique et social.» (Corm, 1991, p.181)

Dans ce combat, Saïd reconnaît que l'oriental est «un fournisseur de pétrole.» (Saïd, 1980, p.320) Il considère, en effet, que cette réalité est une caractéristique négative puisqu'elle l'enchaîne «à une destinée qui le fixe et le condamne à une série de réactions châtiées par l'épée terrible et rapide» de l'Occident. Et si les pays orientaux pétroliers sont bel et bien enfermés dans un cercle vicieux, c'est qu'ils sont dépourvus «de toute qualification morale à posséder de si grandes réserves de pétrole.» (Saïd, 1980, p. 320) En rattachant aussi fortement, dans *L'Orientalisme*, L'Orient créé par l'Occident (1980) le stéréotype oriental «à une caricature classique le montrant comme l'image même de l'incompétence et de la défaite» (Saïd,




1980, p. 319) et dont se dégage cette impression de violence, de débauche de bassesse et de «malhonnêteté sanguinaire» (Saïd, 1980, p.320) qui nous gagne peu à peu, Saïd passe à l'idée que les occidentaux «pourraient envahir les champs de pétrole orientaux et arabes.» (Saïd, 1980, p.320) Pire encore, cette domination se maintient «tout autant par le consentement des Orientaux que par une pression économique directe et brutale» (Saïd, 1980. P.349» des pays Occidentaux, affirme Saïd en dévoilant la domination imposée et subie au nom «d'un principe symbolique connu et reconnu par le dominant comme par le dominé.» (Bourdieu, 2002, p.12» Des pages très révélatrices résumant, chez Bourdieu (2002) les conditions d'existence les plus intolérables qui apparaissent pourtant comme naturelles et même acceptables. Bourdieu parle de «la violence symbolique» (Bourdieu, 2002, p.12» ou encore du «pouvoir hypnotique de la domination.» (Bourdieu, 2002, p.12) Dans Le Labyrinthe des égarés (2023) Maalouf consacre une dizaine de page au thème du drame de la crise pétrolière et à l'absence de dialogue sérieux sur le plan du développement, et dont l'Occident porte une grande part de responsabilité. Il écrit.

En Iran, par exemple, le Dr Mossadegh, un éminent juriste qui avait été démocratiquement élu à la tête du gouvernement, voulait que son pays exerce sa souveraineté sur ses ressources pétrolières, jusque-là contrôlées par les Britanniques, qui ne laissaient aux Iraniens que des miettes. [...] Le président Dwight Eisenhower, entra à la

Maison Blanche en 1953, il reçut la visite de Winston Churchill, venu lui expliquer que Mossadegh était, en vérité, une marionnette aux mains des communistes. Pour faire face à ce «péril», on chargea la CIA d'organiser un coup d'Etat, déguisée en soulèvement populaire, qui renversa le gouvernement légal et redonna aux Occidentaux, pour vingt ans, le contrôle du pétrole iranien. (Maalouf, 2023, pp.384–385)

Pourquoi donc cette hostilité entre les puissances occidentales et l'Orient ? Pourquoi affronter éternellement l'Orient, son désordre, ses excentricités, sa barbarie, et le tenir en échec pour le compte de l'Occident ? Pourquoi dire non à la «clause d'égalité» (Maalouf, 2023, p. 68) qui reconnaît la souveraineté des pays orientaux sur les anciennes possessions occidentales au lendemain de la Première Guerre mondiale ? C'est parce que les chancelleries du vieux continent, selon Maalouf, se méfiaient beaucoup de ses implications. (Maalouf, 2023, p.67) Maalouf se demande ainsi dans *Le Labyrinthe des égarés* (2023) que «si l'on admettait que les peuples d'Asie et d'Afrique étaient les égaux des européens, au nom de quoi les Britanniques, les Français, les Belges ou les Néerlandais pouvaient-ils continuer à les coloniser ?» (Maalouf, 2023, p.67) La thèse fameuse selon laquelle la conscience que l'Occident a actuellement de l'Orient, c'est de maintenir cette région et ses habitants dans des concepts qui les châtent, de les réduire à des attitudes, à des tendances, à des statistiques : bref, de les déshumaniser



(Saïd, 1980, p.325), il est bon de la situer au niveau de l'œuvre de Maalouf. Cette dernière, en effet, tend à la confirmer, nous rappelle que les occidentaux connaissent la nature traîtresse des orientaux, leur intelligence superficielle, leur déséquilibre, leur faiblesse d'esprit, leur dépravation, ainsi que leur agressivité qui provient «d'un réservoir d'excentricité infinie.» (Saïd, 1980, p.123) Cette connaissance se traduit en déception, et «cette déception se traduit en rancune d'un bout à l'autre de l'Orient et la rancune est tout près de se convertir en haine» (Saïd, 1980, p.279), une mauvaise foi, un refus assez révoltant qui se traduit dans ces lignes significatives.

De plus, les Etats de la côte pacifique, notamment la Californie, connaissent en ce temps-là une hostilité croissante à la venue d'immigrants asiatiques, constamment décrits, par la presse et par les politiciens, comme un «péril jaune», et tout ce qui tendait à leur reconnaître des droits similaires à ceux des Européens était perçu avec méfiance. Cette attitude rejoignait celle de certains membres du Commonwealth britannique, telle l'Australie, qui était terrorisée à l'idée de voir débarquer sur ses côtes des foules de migrants venus d'Asie. (Maalouf, 2023, p.67)

Une telle analyse est incontestablement vérifiée en évoquant les itinéraires des affrontements qui opposent l'occident à ses adversaires chez Maalouf. Pourtant des questions s'imposent : Pouvons-nous demander à L'Occident ce qu'il ne peut pas donner ? Le chapeau européen qui a fait sa règle

du «diviser pour régner» (Fontaine, 1991, p.280) pourrait-il gouverner éternellement la conduite des nations ? Les américains fort enthousiastes le feraient-ils à leur place ? Persuadés de leur supériorité morale uniraient-ils le genre humain comme une grande famille par des liens fraternels ? La semence d'union et de libertés qu'ils avaient jetée, germerait-elle peu à peu dans toute la terre ?


II. Changement de décor : la polarisation des contradictions

Le nouvel ordre : L'hégémonie américaine

L'histoire de l'humanité a commencé par une ère méditerranéenne, elle a continué par une période atlantique et elle entre dans une phase du Pacifique. (L'Huillier, 1954, p.266)

C'est dans une lettre à La Fayette que Washington s'est exprimée là-dessus où ce qui est souvent le cas, la candeur fait bon ménage avec la présomption : «Les Etats-Unis seront les législateurs de toutes les nationalités» (Voyenne, 1964) Rappelons, en passant, que Charles Wilson, dira pratiquement la même chose : «Ce qui est bon pour les Etats-Unis est bon pour le monde.» (Julien, 1968, p.238)


Il nous faut en effet dévoiler l'idée de «good nation» (Badie, 2019, p.170) ou de «benign leader» (Badie, 2019, p.170) évoquées par les discours de Georges Bush qui préconisent la mission « d'une domination dévouée» (Badie, 2019, p.170) ou «d'un hégémonisme fonctionnel et réparateur.» (Badie, 2019, p.170) Il ne fait pas de doute que le peuple américain



«conçoit ordinairement sa mission dans le monde comme une source perpétuelle d'émancipation, délivrant chacun de toute forme de domination, au lieu de l'assimiler à une conquête hégémonique», reconnaît Badie dans *L'hégémonie contestée. Les nouvelles formes de domination internationale* (2019). Il se vante de «n'avoir jamais été une puissance coloniale au sens formel du terme, il a beau jeu de dénigrer la pratique conquérante des vieilles puissances européennes» (Badie, 2019, p.170), et qu'historiquement, «il en fut le premier pourfendeur.» (Badie, 2019, p.170) Nous pourrions encore citer, à ce sujet, la note de Michel Crozier : «Pour la majorité des américains, Dieu est de leur côté, parce qu'ils sont eux-mêmes du côté du Droit. [...] Ils ont tout bonnement décidé de ne pas croire au mal, et éprouvent une passion pour la bonté de l'homme, pour la liberté assurée par contrat, pour le droit à la poursuite du bonheur.» (Crozier, 1980, pp. 258–262) C'est ce que Fontaine désigne par «la bonne conscience» (Fontaine, 1991, p.260) du leadership américain qui, non seulement «pouvait faire ce qu'il voulait, avec ou sans consensus» (Maalouf, 2023, p.399), et «quand sa formidable machine est en mouvement, il ne sert à rien de lui barrer la route, ni de chercher à la retenir» (Maalouf, 2023, p.400) mais aussi «face à une Europe incorrigible dans ses prétentions impériales» (Badie, 2019, p.171), règnera désormais selon la loi : «the rule of the law» (Fontaine, 1991, p.260) dont bénéficiera la terre entière.

Du coup, l'idée de régler les rapports internationaux, «sans aucune revendication territoriale» (Maalouf, 2023, p.356), refait surface précisément avec la fin de la guerre froide. A vrai dire, il s'agit «d'un nouvel ordre mondial, les Etats-Unis considèrent comme leur droit, et sans doute leur devoir, de se mêler de tout ce qui agite le vaste monde.» (Fontaine, 1991, p.269) Et si comme l'écrit Thomas Paine, «la mission du nouveau monde est de régénérer l'ancien» (Paine, 1984, p.23), n'était-ce pas le moment adéquat de reconstruire le monde, de le repenser différemment, ou selon un terme cher à Fontaine, de «l'américaniser ?» (Fontaine, 1991, p.270)

L'évidence est là : jamais nation n'a été aussi près de dominer le monde. «L'hégémonie qui se dessine, au lendemain du second conflit mondial, est bien celle qui dérive d'une exceptionnelle capacité économique et surtout d'une maîtrise incontestée du commerce international» (Badie, 2019, p.13), reconnaît Badie. Dans *Le Labyrinthe des égarés* (2023) Maalouf parle des Etats-Unis d'Amérique qui «symbolisent, mieux que quiconque, la nouvelle vision du monde qui était entrain d'émerger. Ils étaient, de par leur histoire, une extension de l'Europe ; mais ils avaient dû, eux aussi, se battre contre les empires européens pour obtenir leur indépendance. Et ils avaient réussi à construire, en peu de temps, une nation moderne, industrialisée, puissante, dynamique et prospère.» (Maalouf, 2023, p.357) Ailleurs : «Ils représentaient, de ce fait, un exemple, une inspiration, un modèle à suivre, et un allié potentiel pour tous ces peuples




qui commençaient à se réveiller.» (Maalouf, 2023, p.357) Nous comprenons les paroles du président Wilson devenu «un prophète qui annonçait à la terre entière la naissance d'un ordre mondial plus équitable, plus moral, plus humain» (Maalouf, 2023, p.357), qui sonnaient «aux oreilles des opprimés» (Maalouf, 2023, p.358) comme l'expression de «la parfaite harmonie entre mondialisation et réalisation d'un rêve hégémonique et moralisant.» (Badie, 2019, p.173)

«Aucune paix ne peut durer, ni ne mérite de durer, disait-il, si elle ne reconnaît et n'accepte le principe selon lequel les gouvernants dérivent tout leur pouvoir légitime du consentement de ceux qui sont gouvernés, et que personne n'a, nulle part, le droit de transférer les peuples d'une souveraineté à l'autre comme s'ils étaient des propriétés. [...] Ces peuples devaient prendre leurs décisions sans être contraints, ni menacés, ni terrorisés ; les plus petits au même titre que les plus grands et les plus puissants.» (Maalouf, 2023, p.358)

Cette affirmation rend crédible le principe de «l'autodétermination» (Maalouf, 2023, p. 356), formulé par le président Wilson qui orchestre toutes les confiances à l'égard «d'un ordre mondial et des vertus d'un leader bienveillant.» (Badie, 2019, p. 21) C'est là que Maalouf expose longuement une notion importante ; il s'agit de la puissance hégémonique des Etats-Unis qui règneront désormais sur tous les autres par la force, l'influence, l'attraction et la persuasion.

De l'Inde à l'Afrique du Nord, et les Balkans jusqu'en Extrême-Orient, des patriotes jusque-là inaudibles commencèrent à se manifester. Souvent éduqués dans des écoles fondées par les Occidentaux, ils disaient que le moment était venu, pour leurs nations trop longtemps bafouées, de sortir de leur léthargie, de recouvrer leur dignité, et d'établir avec ceux qui les avaient soumis des rapports moins inégalitaires. [...] L'humanité semblait sur le pont d'entrer dans une ère de réconciliation et d'harmonie ; et tout portait à croire que cette évolution allait se produire sous l'autorité morale des Etats-Unis d'Amérique. (Maalouf, 2023, pp.356-357)

Depuis lors, l'Amérique est conçue comme «la seule grande puissance qui puisse maintenir la paix dans le monde.» (Roosevelt, 1947, p.162) Elle a, du même coup changé le cours de l'Histoire. «Plus encore, le modèle américain s'impose», écrit Badie (Badie, 2019. P.52). L'hégémonie culturelle, consumériste, ludique, linguistique, économique et militaire ne faisait pas de doute. «Pour les Chinois, les Indiens, les Coréens, les Egyptiens, et tant d'autres, l'Amérique apparait comme le parrain et le garant de l'avenir qu'ils espéraient. Elle seule semblait capable de poser les fondements d'un nouvel ordre mondial, et de l'imposer aux récalcitrants» (Maalouf, 2023, p.358), affirme Maalouf dans *Le Labyrinthe des égarés* (2023).



Les américains avaient fondé, au-delà des mers, une nouvelle Rome. Avec une présidence impériale, un goût prononcé pour les arguties juridiques, un équilibre subtil entre les différentes branches du gouvernement, et un Sénat installé sur la colline du Capitole. Bientôt leurs armées seraient en mesure de sillonner les routes de tout le monde connu, comme faisaient jadis les légions romaines ; sauf que le domaine de celles-ci n'allait pas beaucoup au-delà du pourtour méditerranéen, alors qu'à l'ère américaine, le monde connu couvre la terre entière, et lorgne vers la Lune, voire Mars. (Maalouf, 2023, p.407)


Si en ce temps-là, une telle conviction était répandue largement, pourquoi les Etats-Unis ont-ils participé à des guerres longues et sanglantes en Corée et en Indochine, mené des actions ouvertes ou secrètes sur une série de points chauds, soutenu des régimes corrompus ou dictatoriaux de l'Afghanistan à l'Afrique australe et à l'Amérique centrale, et surtout écrasé l'Irak sous les bombes ? Les apparences qu'ils avaient tenues étaient-elles trompeuses ? Le rôle visible de libérateurs suffit-il pour créer un statut d'hégémon ? La protection avait-elle un prix ? Dans son ouvrage *L'hégémonie contestée. Les nouvelles formes de domination internationale* (2019), Badie a mis les choses au point dans sa formule désormais fatale et dramatique «désillusions hégémoniques.» (Badie, 2019, p.43) Cette formule éclaire ce qu'il appelle la nature trompeuse et aporique de l'hégémonie messianique (Badie, 2019, p.43) ; ayant découvert

«des traces de soumission subie plus que désirée, d'imitation forcées plus que convaincues.» (Badie, 2019, p.53) Il note encore très clairement.

La mécanique de la nouvelle hégémonie, construite après 1945 par les Etats-Unis [...] fut conçue avec suffisamment de soin pour créer les conditions nécessaires pour être désirée, réclamée [...] L'intervention de l'arme atomique et son usage en aout 1945, y furent pour beaucoup : détenir seul une arme de destruction massive rend soudain votre protection aimable et désirable, surtout lorsque l'adversaire potentiel, de plus en plus menaçant, est réputé sur le point de la détenir à son tour.» (Badie, 2019, p.53) Ces lignes ne sont jamais restées étrangères à la pensée de Maalouf. Il écrit, par exemple.

Ce fut longtemps le cas en Afghanistan, où l'on suscita et encouragea une révolte jihadiste contre l'Union soviétique, qui affaiblit considérablement cette dernière et contribua à son effondrement ; sans se soucier du fait que cette mouvance, une fois déchaînée, allait se retourner avec hargne contre l'Amérique elle-même, et lui causer, sur son propre territoire, de très sérieux tourments. (Maalouf, 2023, p.387)

Cela étant dit, Maalouf a expressément poursuivi sa réflexion en insistant sur «l'exceptionnelle dualité internationale» (Badie, 2019, p.56) entre l'Amérique et son «Co- hégémon» (Badie, 2019, p.53), la Russie construite sur «un mélange complexe d'inimitié schmittienne et de connivence machiavélique.» (Badie,



2019, p.56) Cette dualité est définie comme une hégémonie trop étrange pour s'imposer longtemps car «lorsque l'un deux s'imposait dans un pays, l'autre parvenait à en contrôler le jeu contestataire et menaçait ainsi de le déstabiliser» (Badie, 2019, p.53) De cette hégémonie bipolaire, partagée ou croisée, Maalouf témoigne.


Dans tous les conflits et toutes les crises que connaissait la planète, on décelait désormais, d'une manière ou d'une autre, les reflets de l'affrontement central entre « l'Est» et «l'Ouest», le communisme et le capitalisme. Et comme les principales puissances des deux camps, notamment l'Union soviétique et les Etats-Unis, s'efforçaient d'éviter que leurs forces armées se combattent directement, on a pris l'habitude de parler d'une guerre «froide». Mais c'était bel et bien une guerre, impitoyable, intense, incessante, globale, et elle n'était pas «froide» partout. Certaines de ses batailles ont fait des centaines de milliers de victimes, comme en Corée, en Indochine, en Indonésie, en Afghanistan, au Proche-Orient, en Amérique latine ou en Afrique Australe. (Maalouf, 2023, p.381)

A vrai dire, écoutons cette confidence renversante de Roosevelt : «la Russie se méfie de nous et nous rend méfiants à son égard» (Roosevelt, 1947, p.162) Et si les Etats-Unis détenaient le monopole de l'arme atomique qui faisait d'eux, au jugement de Truman, au lendemain d'Hiroshima, «la nation la plus puissante du monde, la nation la plus puissante peut-

être de toute l’Histoire» (Truman, 1945), comment remettre en cause «cette absolue domination néolibérale» (Badie, 2019, p. 109) qui contribue à fragiliser l’URSS ? Cela étant dit, Maalouf dira pratiquement.

Les deux doctrines rivales s’appuyaient sur des principes universels parfaitement honorables. [...] L’échec de l’Union soviétique n’a pas été uniquement causé par les manigances du camp adverse, mais par la faillite du modèle qu’elle prétendait construire. [...] Le dirigisme de l’Union soviétique qui se prétendait rationnel, n’a produit que l’inefficacité, l’absurdité et le chaos. Le pouvoir communiste a laissé se développer au sein de la population le découragement, le cynisme, et une méfiance généralisée envers les dirigeants, leurs discours, leurs croyances et leurs promesses. (Maalouf, 2023, p.382)

Gardons–nous cependant de trop prolonger les courbes. Ce qui est vrai aujourd’hui c’est la préoccupation des Etats–Unis à remettre en cause mécaniquement les nouvelles formes d’hégémonie. Ils considèrent que «Dieu est de leur côté» (Fontaine, 1991, p.260), agissent en fonction «de leurs propres intérêts, [...] et ils ont l’ambition d’être l’unique superpuissance.» (Maalouf, 2023, p.397) Cependant, cette vertu changerait–elle ? Les rapports s’inverseront–ils ? l’hégémonie restera–t–elle un état ou deviendra–t–elle désormais un cycle ? A mesure que nous progressons dans le III e millénaire, une contre–hégémonie l’emportera–t–elle sur l’hégémonie, la domination et l’adhésion



consentie à «un supergrand», pour reprendre le titre d'un article prophétique de René Dabernat dans le Monde du 27 octobre 1965, à une nation qui domine le monde sans partage ?


La rancune orientale : L'hégémonie ratée

La puissance américaine est sans commune mesure. Elle se fait «l'instrument privilégié d'un pouvoir qu'elle disposait aussi de l'assentiment souvent sincère, mais fabriqué du dominé.» (Badie, 2019, p.72) Il est intéressant de constater que le philosophe français La Boétie, affirme : « Dès que la conquête ne portait plus sur le territoire, mais sur les âmes, elle s'alimentait en effet des trois ressources : l'habitude d'être asservi, les drogues qu'on distribue à cette fin, la cupidité du petit qui entend ressembler au puissant et bénéficier de ses récompenses.» (La Boétie cité par Badie, 2019, pp.71-72) Dans *Le Labyrinthe des égarés* (2023), Maalouf actualise cette hypothèse des trois médiations, et montre «la complexité des stratégies serviles» (Badie, 2019, p.72) déployées par une élite centrale qui ne s'agrandit qu'aux dépens de la «la sujétion des masses» (Badie, 2019, p.72) qui sombre dans le désespoir, baigne dans la régression, dans la haine, dans la rancœur des autres et dans la rancœur de soi. Le moins que nous puissions dire, au sujet de ce puissant hégémon, ces mots pour le moins suggestifs : «Ce qui est navrant, s'agissant de l'Amérique, c'est qu'il avait suscité d'immenses espérances, et qu'il avait déçu ses victimes. En partie par la faute des dirigeants des autres nations, de leurs avidités comme de leurs frayeurs.» (Maalouf,

2023, p.368)

Maalouf, dans le présent ouvrage, a démontré de manière très détaillée la déception des acteurs qui ont placé en l'hégémon tous leurs espoirs. Il parle de «grave malentendu» (Maalouf, 2023, p. 360), d'«injustices» (Maalouf, 2023, p.365), des «mêmes espérances suivies des mêmes illusions.» (Maalouf, 2023, p.364) A la lecture de tels vocables, nous comprenons que cette fameuse hégémonie qui «revendiquait le rôle ambitieux de solution universelle comme garant de la souveraineté d'un monde organisé et hiérarchisé» (Badie, 2019, p. 8), sera ce mal qui menace l'humanité de déstabilisation, de désordre et d'impuissance. «C'était là, pour les Etats-Unis, ce que la langue anglaise appelle, pudiquement, a mixed blessing, un euphémisme qui laisse entendre qu'à la bénédiction apparente est mêlée une malédiction cachée» (Maalouf, 2023, p.400), rappelle Maalouf. Plus loin, des images à méditer.

Ce que les Etats-Unis avaient admirablement réussi au lendemain de la Seconde Guerre mondiale, en Europe occidentale avec le plan Marshall, et au Japon avec la «thérapie de choc» du général MacArthur, n'a jamais pu être reproduit. Chaque fois que les Etats-Unis s'y sont essayés, ils ont montré leur incompétence. Sans doute n'avaient-ils pas suffisamment d'estime pour les populations locales pour chercher véritablement à les moderniser, ni pour prendre au sérieux leur aspiration réelle à la démocratie. Bien des occasions furent ainsi perdues. (Maalouf, 2023, p.400)




Ce drame montre le «vide stratégique, les crises livrées à elle-même» (Badie, 2019, p.8), dira même Badie. Le cas le plus complexe est celui de Bagdad. En l'occurrence, «la victoire militaire éclatante et l'écroulement du dictateur irakien ont placé dans les mains des Américains un pays qu'ils devaient reconstruire, et remettre sur pied, ce dont ils se sont révélés incapables. Ils n'avaient rien prévu, rien préparé. Ni pour l'Irak, ni pour les autres pays où ils ont jugé utile d'intervenir dans les dernières décennies.» (Maalouf, 2023, p.400) Il s'agit une fois encore d'une démonstration qui serait convaincante : le fiasco d'une hégémonie que nous croyons prometteuse à où elle n'était que flatteuse.

Cela étant dit, l'Amérique, dans son rôle d'incontestable stabilisateur, continue «à écrire l'histoire, même si elle le fait maladroitement, voire dramatiquement, et souvent avec la main de l'échec.» (Badie, 2019, p.16) Qui trop embrasse, mal étreint. L'un des épisodes les plus révélateurs de sa politique désabusée et de ses pratiques les plus dangereuses ou les plus douteuses, c'est sa longue mésaventure en Afghanistan. Maalouf écrit en effet.

Quand ils se sont retirés de ce pays, fin août 2021, d'une manière passablement chaotique, les responsables américains ont expliqué qu'ils avaient fait de leur mieux, et ils en étaient certainement convaincus. Leurs arguments paraissaient, d'ailleurs, irréfutables : l'Amérique a dépensé, dans ce pays, près de mille milliards de dollars en vingt

ans, pour un résultat nul. [...] On aurait pu penser que, les Etats-Unis, désireux de gagner «les cœurs et les âmes» des populations concernées, allaient développer un réseau d'écoles et d'universités ; des routes, des autoroutes, des gares, des aéroports ; et aussi des entreprises dynamiques, avec des usines, des fermes mécanisées, des laboratoires, des réseaux de distribution, etc. Qui mieux que la grande Amériques, pouvait opérer une telle modernisation [...] ? Mais la superpuissance s'est cantonnée, hélas dans une vision purement sécuritaire du conflit, et elle s'est condamnée à l'échec. Le mouvement islamiste, qui avait été, initialement, vaincu et déconsidéré, a peu à peu regagné du terrain, ce qui a mené au cataclysme de 2021. Et l'Afghanistan se retrouve aujourd'hui sous la botte du gouvernement le plus rétrograde de la planète, après avoir eu pour mentor le pays le plus avancé. Un lamentable échec ! Une tragédie ! Une honte ! (Maalouf, 2023, p.394)


Nous avons beau multiplier les exemples des échecs si lamentables des Etats-Unis dans la gestion de certains dossiers cruciaux, au point de, selon Maalouf, «mettre en péril sa démocratie, son modèle de société, sa stature morale et sa place dans le monde.» (Maalouf, 2023, p.345) Maalouf a analysé avec perspicacité cet énorme ratage dans un «survol rapide d'une humanité à la dérive.» (Maalouf, 2023, p.345) Et dans ce gigantesque malentendu que nous donnons la parole à Badie qui s'exprime dans des termes qui rappellent



étrangement ceux de Maalouf dans la présente œuvre : «Et qui serait assez naïf pour penser que l'hégémonie américaine était uniformément perçue comme aimable ?» (Badie, 2019, p. 19) Ou encore : «Et si le mythe de l'hégémonie américaine s'inversait ?» (Badie, 2019, p.89) Nous comprenons dans quel sens un comportement contestataire s'introduit et recompose désormais le nouvel espace mondial. Une contre-hégémonie, à la mode aujourd'hui, prend sa revanche. «Le populisme, en plein essor, qui orchestre toutes les méfiances à l'égard d'un ordre mondial et des vertus du leader bienveillant. Le néonationalisme, enfin, qui réintroduit le comportement du cavalier solitaire, tant chez le petit qui se prend de rêves de défi, que chez l'hégémon lui-même qui dénonce un dévouement qui, à ses yeux, lui a beaucoup trop coûté» (Badie, 2019, p.21), écrit Badie. Il revient sur cette idée fondamentale beaucoup plus loin dans le même ouvrage et affirme : «L'hégémonie produit moins un ordre qu'elle n'engendre le désordre, des tensions et surtout, de plus en plus de la contestation. L'importance du phénomène est telle que l'hégémonie est de nos jours dépassée par la contre-hégémonie.» (Badie, 2019, p.20) Une telle affirmation dessine en même temps de manière très claire les contours de ce nouveau concept, de cette étrange approche, de cette évolution du système international que Badie saisit ainsi de manière incontestablement surprenante : «nous verrons, à travers le temps, que la pratique d'hégémonie est particulièrement tiraillée, sollicitée et reconstruite. [...] Mais nous verrons surtout un retournement qui est en train de bouleverser l'histoire.»

(Badie, 2019, p.20) Il éprouve avec horreur le cercle vicieux de la satisfaction des «big men et des warlords» (Badie, 2019, p. 101), dénonce tout projet, prétention ou forme hégémonique, et plaide pour «un nouvel imaginaire spatial qui va mettre à mal l'uniformité du monde et donc les modes de domination à venir.» (Badie, 2019, p.93)

Il est impossible de conclure ce chapitre sans rappeler que Maalouf, dans sa volonté de capter le spectacle mondial dans sa totalité, s'est aussi profondément penché sur le parcours de contrées aussi différentes qui militaient pour «une renaissance de la civilisation asiatique.» (Badie, 2019, p.93) Une nouvelle fédération asiatique qui regroupe trois histoires impériales –le Japon, la Chine, la Corée– s'inscrit «dans un militantisme critique directement dirigé contre l'hégémonie occidentale.» (Badie, 2019, p.93) Badie parle alors de «panasiatisme» (Badie, 2019, p.93) qui est d'abord et surtout une revendication contre un Occident asservissant et dominateur. Là encore, l'histoire de ces pays est rigoureusement parallèle à celle de l'Amérique. Le Japon prétend appartenir à une «race de seigneurs» (Fontaine, 1991, p.311) devant qui tout devait s'incliner. La Chine demeure «à la fois un Etat et une civilisation millénaire» (Maalouf, 2023, p.410) rappellent ses dirigeants. La Russie fascinée par l'enseignement de Hegel ambitionnait de transformer le monde. Nous aurions pu craindre dans ces conditions que le vertige du succès rend arrogant «ces tigres aux dents atomiques» (Khrouchtchev cité par Fontaine, 1991, p.59) et finiraient du coup «à perdre la tête



et compromettre ainsi le bénéfice des réalisations» (Maalouf, 2023, p.389) qu'ils avaient su accomplir. Avant de retrouver la démonstration maaloufiene, qui constitue d'ailleurs, le cœur de *Le Labyrinthe des égarés, L'Occident et ses adversaires* (2023), il nous faut reprendre la formule de Fontaine : «Naviguer sans carte est décourageant.» (Fontaine, 1991, p, 327) Dans la mesure où, selon Maalouf, ces puissances orientales ont tous rêvé d'hégémonie, ils se sont respectivement brûlés les doigts.

Ils ont tous connu des victoires et des moments d'ivresse. [...] Ils ont longtemps cherché à se détruire les uns les autres, et ils n'ont toujours pas surmonté leurs méfiances, leurs peurs et leurs ressaisissements. S'ils décidaient demain de suivre leurs pires instincts, comme il leur est arrivé quelquefois de le faire au cours des cent dernières années, les conséquences en seraient dévastatrices. (Maalouf, 2023, p. 424)

Maalouf écrit ce paragraphe évocateur.

Je me garderai bien de chercher, en la matière, des lois universelles, me contentant de celle qui est clairement inhérente à la nature humaine, à savoir qu'il existe, chez tous ceux qui acquièrent une prééminence, un début d'aveuglement, et un risque d'ivresse. (Maalouf, 2023, p.389)


Des pages très révélatrices dévoilent la profonde déception de Maalouf, voire sa complète désillusion du mythe hégémonique ou de «l'impuissance de la puissance» (Badie, 2019, p.189), des pays aussi différents que la Chine, le Japon, la Russie, et

même les Etats–Unis. Il écrit.

Les dieux rendent arrogant celui dont ils veulent la perte, disaient les Grecs anciens. Dans leur mythologie, où les sentiments étaient représentés par des divinités allégoriques, l’arrogance s’appelait Hubris. Tous les hommes qui parviennent à s’élever au-dessus de leurs semblables, par le statut, par la richesse, par la puissance, par le talent, ou même par la sainteté, croisent, un jour ou l’autre, le chemin de cette tentatrice. Et rares sont ceux qui savent lui résister. La chose est vraie des individus, ainsi que des communautés humaines, et singulièrement des nations. Les quatre dont je viens d’évoquer le parcours ne dérogent surement pas là la règle. Chacune d’elles avait le désir légitime de réparer les injustices, et chacune a fini par commettre, parfois à son corps défendant, des injustices plus flagrantes encore. (Maalouf, 2023, p.390)

Ne voyons–nous pas un besoin de se venger de la fragilité de ce mythe, de remiser la grammaire de la souveraineté, de réécrire le droit international, de globaliser les biens communs ?

Il nous faut reconnaître que la notion badienne, développée dans cet essai, d’un monde hégémonique, de paix et de bonheur, échappant à nos craintes et à nos détestations, reste une pure fiction aux yeux de Maalouf. Il y a là une intention délibérée et très nette qui ne saurait être l’effet du hasard, et Maalouf note que l’hégémonie, qui a tant inspiré maintes stratégies militaires et politiques, et marqué profondément les relations internationales,



n'a malheureusement jamais pu s'accomplir. Ce que Maalouf nous offre de plus précieux, c'est sa réflexion nouvelle d'un monde posthégémonique dans lequel les notions de pouvoir et de puissance sont actualisées et réinventées. Parce que le monde de demain contredit l'omnipotence, l'adhésion à un modèle unique et souligne le besoin de stabilité économique, de pluralité, «de sérénité, de vigilance, de solidarité» (Maalouf, 2023, p.418) dans la régulation des crises. En cette phase si fascinante et complexe de l'évolution de l'humanité, la posthégémonie se comprend «comme une traduction pratique de la mondialisation, considérant l'interdépendance, l'inclusion et la mobilité comme de nouvelles données incontournables, faisant en contrepoint écho là ce qu'étaient autrefois la souveraineté, la fragmentation civilisationnelle et la territorialité.» (Badie, 2019, p.209) N'est-ce pas là une nouvelle vertu ou une nouvelle illusion ?

Références bibliographiques

Corpus

Maalouf, A. (2023). Le Labyrinthe des égarés. Paris : Grasset et Fasquelle.

Autres œuvres de Maalouf

Romans

Maalouf, A. (1986). Leon l'Africain. Paris : Lattès.

(1988). Samarcande. Paris : Lattès.

(1991). Les Jardins de lumière. Paris : Lattès.

(1992). Le Premier Siècle après Béatrice.

Paris : Grasset.

(1993). Le Rocher de Tanios. Paris : Grasset.

(1996). Les Echelles du Levant. Paris : Grasset.

(2000). Le Périple de Baldassare. Paris :

Grasset.

(2004). Origines. Paris : Grasset.

(2012). Les Désorientés. Paris : Grasset.

(2020). Nos frères inattendus. Paris : Grasset.

Essais

Maalouf, A. (1983). Les Croisades vues par les Arabes. Paris : Lattès.

(1998). Les Identités meurtrières. Paris : Grasset.

(2009). Le Dérèglement du monde. Paris : Grasset.

(2016). Un fauteuil sur la Seine : Quatre siècle



d'histoire de France. Paris : Grasset.

(2019). Le naufrage des civilisations. Paris : Grasset.

(2023). Le Labyrinthe des égarés. L'Occident et ses adversaires. Paris : Grasset.

Livrets musicaux

Maalouf, A. (2001). L'Amour de loin. Paris : Grasset.

(2002). Quatre instants. Paris : Grasset.

(2004). Adriana Mater. Paris : Grasset.

(2006). La Passion de Simone. Vienne.

(2010). Emilie. Lyon.

Discours

Maalouf, A. (2014). Discours de réception de l'Académie Française. Paris : Grasset.

(2016). Un automne à Paris, chanson, avec Louane et Ibrahim Maalouf.

Préfaces

Maalouf, A. (1981). Pour une éducation bilingue : Guide de survie à l'usage des petits européens, Anna Lietti. Paris : Payot.

(1992). De la divination. Cicéron. Paris : Les Belles Lettres.

(1993). Le Prophète. Khalil Gibran. Paris : Le Livre de Poche.

(2007). La Batare d'Istanbul, Elif Shafak. ([ISBN 978-2-264-04740-3](#))

Ouvrages de critique et de théorie littéraire

Allman, T.D. (1986). Un destin ambigu. Paris : Flammarion.

Badie, B. (2019). L'hégémonie contestée. Les nouvelles formes de domination internationale. Paris : Odile Jacob.

Bourdieu, P. (1979). La distinction. Paris : Minuit.

(1994). Raisons Pratiques. Points Essais : Seuil.

(2002). La domination masculine. Points Essais : Seuil.

Bush, G. (1991). Time Magazine. 28 janvier 1991.

Corm, G. (1991). Le Proche-Orient éclaté (1956-1991). Paris : Gallimard.

Crozier, M. (1980). Le Mal américain. Paris : Fayard.

Dabernat, R. (1965). Y a-t-il encore un supergrand ? Le Monde, 27 octobre 1965.

Domenach, J-M. (1972). Emmanuel Mounier. Paris : Seuil.

Fontaine, A. (1991). L'un sans l'autre. Paris : Fayard.

Julien C. (1968). L'Empire américain. Paris : Grasset.

Krauthammer, C. (1990-1991). The Unipolar Moment. Foreign Affairs, America and the world.

Lesseps, F. (1881). Lettres, journal et documents pour servir



à l'histoire du canal de Suez. Paris : Didier

L'Huillier, F. (1954). De la Sainte–Alliance au pacte atlantique. La Baconnière : Neuchâtel. Tome I.

Paine, T. (1984). Les Droits de l'homme. Paris : Payot.

Roosevelt, E. (1947). Mon père m'a dit. Paris : Flammarion.

Saïd, E. (1980). L'Orientalisme. L'Orient créé par l'Occident. Paris : Seuil.

Truman, H. (1945). Le Monde. 11 août 1945.

Valéry, P. (1945). Regards sur le monde actuel. Paris : Gallimard.

Voyenne, B. (1964). Histoire de l'idée européenne. Paris : Payot.

Williams, R. (1958). Culture and Society, 1780–1950. Londres : Chatto and Windus.

Fidélisation du personnel infirmier dans les hôpitaux au Liban

الاحتفاظ بالطاقم التمريضي في المستشفيات في لبنان

Sandra Abi-Daher Frangieh

ساندرا أبي ضاهر فرنجية

تاريخ القبول 2024 /9/20

تاريخ الاستلام 2024 /9/5

Résumé

Objectif: Cet article vise à examiner les politiques de fidélisation du personnel infirmier dans les hôpitaux libanais, en se concentrant sur leur prévalence, les outils utilisés et l'impact des pratiques de ressources humaines centrées sur le bien-être des employés.

Conception/méthodologie/approche: L'étude utilise des données d'une enquête réalisée en 2022 auprès du personnel infirmier de divers hôpitaux libanais. Des statistiques descriptives et inférentielles sont utilisées pour analyser la prévalence des politiques de fidélisation et leur efficacité. L'impact de ces politiques sur la motivation du personnel et la performance des hôpitaux est évalué à l'aide de la modélisation par équations structurelles.

Résultats: L'étude révèle que tous les hôpitaux au Liban n'ont pas adopté de politiques de fidélisation et que ceux qui l'ont fait varient dans les outils qu'ils utilisent. La mise en œuvre de

politiques de ressources humaines axées sur le bien-être des employés a un impact positif significatif sur la fidélisation du personnel, réduisant les coûts de recrutement et de formation et améliorant les performances globales des hôpitaux.

Originalité/valeur: Cette étude fournit des informations précieuses sur les stratégies de fidélisation des hôpitaux libanais, soulignant l'importance de politiques RH bien conçues pour améliorer la fidélisation du personnel et l'efficacité des hôpitaux.

Mots-clés: Fidélisation des infirmiers, Politiques RH, Bien-être des employés, Hôpitaux libanais, Motivation du personnel infirmier.

المخلص

الهدف: يهدف هذا المقال إلى دراسة سياسات الاحتفاظ بالموظفين التّمرّيين في المستشفيات اللّبنانيّة، مع التّركيز على مدى انتشارها، الأدوات المستخدمة، وتأثير ممارسات الموارد البشريّة التي تركز على رفاهية الموظفين.

التّصميم/المنهجية/المقاربة: تعتمد الدّراسة على بيانات استبيان تم إجراؤه في العام 2022 مع الطّاقم التّمرّيين في عدد من المستشفيات اللّبنانيّة. تُستخدم الإحصاءات الوصفيّة والاستدلاليّة لتحليل مدى انتشار سياسات الاحتفاظ وفعاليتها. كما يتم تقييم تأثير هذه السياسات على تحفيز الموظفين وأداء المستشفيات باستخدام النّمذجة بالمعادلات الهيكلية.

النتائج: تكشف الدّراسة أن جميع المستشفيات في لبنان لم تعتمد سياسات احتفاظ بالموظفين، وأنّ تلك التي اعتمدها تختلف في الأدوات التي تستخدمها. تُظهر النتائج أن تنفيذ سياسات الموارد البشريّة التي تركز على رفاهية الموظفين له تأثير إيجابي كبير في الاحتفاظ بالموظفين، مما يقلّل من تكاليف التّوظيف والتّدريب ويعزّز الأداء العام للمستشفيات.

الأصالة/القيمة: تقدم هذه الدراسة معلومات مهمّة حول استراتيجيات الاحتفاظ بالموظفين في المستشفيات اللبانية، مشدّدة على أهمية سياسات موارد بشرية مصمّمة بعناية لتحسين احتفاظ الموظفين وفعاليّة المستشفيات.

الكلمات المفتاحية: الاحتفاظ بالمرضى، سياسات الموارد البشرية، رفاية الموظفين، المستشفيات اللبانية، تحفيز الموظفين التّمرّيين.

Introduction

Le turnover élevé du personnel infirmier au Liban représente un défi majeur pour les hôpitaux, entraînant des coûts considérables liés au recrutement, à la formation, et à la perte de compétences essentielles. Ce phénomène nuit également à la continuité des soins et à la satisfaction des patients, impactant directement la qualité des services hospitaliers. Dans ce contexte, la fidélisation du personnel infirmier devient cruciale pour les hôpitaux qui cherchent à maintenir un niveau élevé de performance et de qualité des soins.

Cet article vise à explorer les politiques de fidélisation adoptées par les hôpitaux libanais, en se concentrant sur les instruments mis en place pour retenir le personnel infirmier et sur l'impact de ces politiques sur la rétention du personnel. L'étude se base sur les résultats d'une enquête par sondage menée en 2022 auprès des infirmières et infirmiers des hôpitaux libanais (Source: L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022). L'article examine également la physionomie des hôpitaux qui ont adopté ces politiques et leur efficacité à améliorer le bien-être des employés, réduisant ainsi le turnover.

1. La fidélisation dans une approche théorique et documentaire (revue de la littérature)

La fidélisation du personnel infirmier est un sujet largement abordé dans la littérature, en particulier dans le contexte des hôpitaux où le turnover élevé peut avoir des conséquences directes sur la qualité des soins, qui se réfère aux pratiques, politiques et stratégies mises en place par les établissements de santé pour retenir leurs employés et réduire le taux de turnover. La fidélisation est essentielle pour maintenir une force de travail stable, réduire les coûts liés au recrutement et à la formation, et garantir une continuité dans les soins prodigués aux patients.

Labrague et al. (2018) montrent que la fidélisation est directement liée à la satisfaction au travail, qui elle-même influence positivement la qualité des soins. Une fidélisation efficace permet non seulement de minimiser les coûts financiers associés au turnover, mais aussi d'améliorer la qualité des soins et la satisfaction des patients, comme le soulignent Twigg et McCullough (2014).

Les recherches indiquent plusieurs facteurs clés influençant la fidélisation du personnel infirmier, notamment l'environnement de travail, les opportunités de développement professionnel, la reconnaissance, le leadership, et les conditions de travail.

Un environnement de travail positif est crucial pour la fidélisation du personnel infirmier. Les études de Laschinger et Fida (2015) montrent que les infirmières travaillant dans un environnement soutenant, où elles se sentent valorisées et en sécurité, sont

plus susceptibles de rester dans leur poste.


Comme le notent Chenoweth et al. (2017), les opportunités de formation continue et de progression de carrière jouent un rôle essentiel dans la fidélisation. Les infirmières qui ont accès à des programmes de développement professionnel se sentent davantage valorisées et sont plus enclines à rester fidèles à leur employeur.

Un leadership fort et authentique, qui valorise les contributions des infirmières et offre un soutien adéquat, est un facteur clé de la fidélisation. Duffield et al. (2014) montrent que les établissements avec un leadership engagé voient un taux de rétention plus élevé.

Les conditions de travail, y compris la charge de travail, les horaires, et les compensations, ont un impact significatif sur la décision des infirmières de rester ou non dans un établissement. Les recherches montrent que des conditions de travail équitables et une charge de travail raisonnable favorisent la fidélisation.

Les stratégies de fidélisation peuvent inclure la mise en place de programmes de bien-être, des plans de carrière personnalisés, une reconnaissance régulière des performances, ainsi qu'un soutien pour l'équilibre travail-vie personnelle. Les hôpitaux qui mettent en œuvre ces stratégies ont généralement des taux de rétention plus élevés.

Twigg et McCullough (2014) proposent des environnements de pratique positive comme une stratégie clé, tandis que Labrague et



al. (2018) insistent sur l'importance de la satisfaction au travail, qui est renforcée par des politiques favorables aux employés. Chenoweth et al. (2017) suggèrent que les programmes de formation continue et les opportunités de développement de carrière sont également des éléments essentiels pour améliorer la rétention.

2. Les dimensions de la fidélisation du personnel infirmier au Liban

L'enquête par sondage réalisée en 2022 auprès des infirmières et infirmiers des hôpitaux libanais avait pour objectif de comprendre les facteurs qui influencent leur décision de rester ou de quitter leur emploi. Les résultats montrent une diversité d'opinions sur les politiques de fidélisation mises en place, avec des variations selon la taille et le type des hôpitaux.

2.1. Physionomie des hôpitaux dotés de politiques de fidélisation

D'après les résultats de notre enquête par sondage, seulement 23.5 % du personnel infirmier affirment que leurs hôpitaux ont adopté de politiques de fidélisation. Cette proportion s'élève à 26.9 % dans les zones semi-urbaines, et tombe à 14.9 % dans les zones rurales (Tableau 1).

Tableau 1 : Le personnel infirmier au Liban, par zone, et par adoption par l'hôpital de politique de rétention ou de fidélisation, en 2022

		Est-ce que votre hôpital suit une politique quelconque pour retenir ses infirmiers (ères) ?		
		Non	Oui	Total
Il est dans une zone :	Rurale	85.1%	14.9%	100.0%
	Urbaine	81.5%	18.5%	100.0%
	Semi-urbaine	73.1%	26.9%	100.0%
	Total	76.5%	23.5%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Par accréditation, 25.5 % du personnel infirmier des hôpitaux classés «A», disent que leurs établissements disposent de politique de fidélisation, alors que cette proportion tombe à 18.2 % des hôpitaux de la catégorie «C» (Tableau 2).

Tableau 2 : Le personnel infirmier au Liban, par catégorie d'accréditation, et par adoption par l'hôpital de politique de rétention ou de fidélisation, en 2022

		Est-ce que votre hôpital suit une politique quelconque pour retenir ses infirmiers (ères) ?		
		Non	Oui	Total
D'après l'accréditation des hôpitaux en vigueur au Liban depuis 2009, cet hôpital est classé :	A (il répond parfaitement et toujours aux exigences de l'accréditation)	74.5%	25.5%	100.0%
	B (il répond globalement et la plupart du temps aux exigences de l'accréditation)	80.0%	20.0%	100.0%
	C (il ne répond que partiellement, et rarement aux exigences de l'accréditation)	81.8%	18.2%	100.0%
	Total	76.5%	23.5%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Par effectif du personnel infirmier, il semble que les hôpitaux de taille moyenne [100–200 infirmiers (ères)] et de grande taille [plus de 200 infirmiers (ères)], sont les plus dotés de politiques de fidélisation ou de rétention, d'après 30.6 à 100 % de leur personnel infirmier. Quant aux petits hôpitaux [jusqu'à 100 infirmiers (ères)], seulement de 3.6 à 7.3 % de leur personnel infirmier affirment que ces derniers disposent de politiques de fidélisation ou de rétention (Tableau 3).

Tableau 3 : Le personnel infirmier au Liban, par taille des hôpitaux, et par adoption par ces derniers de politique de rétention ou de fidélisation, en 2022

		Est-ce que votre hôpital suit une politique quelconque pour retenir ses infirmiers (ères) ?		
		Non	Oui	Total
Le nombre des infirmiers(ères):	< 25	92.7%	7.3%	100.0%
	26 - 50	96.3%	3.7%	100.0%
	51 - 75	100.0%	0.0%	100.0%
	76 - 100	96.4%	3.6%	100.0%
	101 - 130	0.0%	100.0%	100.0%
	131 - 160	46.2%	53.8%	100.0%
	161 - 200	68.0%	32.0%	100.0%
	201 - 300	69.4%	30.6%	100.0%
	301 - 400	59.3%	40.7%	100.0%
	> 401	46.2%	53.8%	100.0%
	Je ne sais pas	100.0%	0.0%	100.0%
	Total	76.5%	23.5%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Par genre de propriétaire de l'hôpital, 33.3 % du personnel infirmier des hôpitaux publics disent bénéficier de politique de fidélisation ou de rétention ; et cette proportion est de 27 % dans les hôpitaux possédés par des laïcs, alors qu'elle tombe à 18 % dans ceux appartenant à des groupes religieux (Tableau 4).

Tableau 4 : Le personnel infirmier au Liban, par propriété de l'hôpital, et par adoption par ce dernier de politique de rétention ou de fidélisation, en 2022

		Est-ce que votre hôpital suit une politique quelconque pour retenir ses infirmiers (ères) ?		
		Non	Oui	Total
Votre hôpital appartient à :	Un individu	74.4%	25.6%	100.0%
	Un groupe d'individus laïcs	73.0%	27.0%	100.0%
	Une communauté ou ordre religieux	82.0%	18.0%	100.0%
	L'Etat	66.7%	33.3%	100.0%
	Total	76.5%	23.5%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Par ailleurs, nous constatons une faible association entre l'existence de département de ressources humaines à l'hôpital, et sa dotation de politique de fidélisation ou de rétention : seulement 24.2 % du personnel infirmier des hôpitaux disposant de ce genre de département, affirment que ces derniers ont une politique de ce genre (Tableau 5). Ainsi, il s'avère que les départements de ressources humaines sont incapables d'inciter leurs hôpitaux à faire de la fidélisation ou de la rétention.

Tableau 5 : Le personnel infirmier au Liban, par existence de département de ressources humaines à l'hôpital, et l'adoption par ce dernier de politique de rétention ou de fidélisation, en 2022

		Est-ce que votre hôpital suit une politique quelconque pour retenir ses infirmiers (ères) ?		
		Non	Oui	Total
Se trouve-t-il dans votre hôpital un département de ressources humaines ?	Non	86.7%	13.3%	100.0%
	Oui	75.8%	24.2%	100.0%
	Total	76.5%	23.5%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022

2.2. Instruments ou domaines de fidélisation

Ces instruments relèvent de plusieurs fonctions de gestion des ressources humaines, dont nous envisageons chacun par la suite.

2.2.1. La gestion des carrières des infirmiers (ères)

D'après les résultats de notre enquête par sondage, 45.7 % du personnel infirmier disent que dans leurs hôpitaux il y a gestion des carrières des infirmiers (ères), et cette proportion est supérieure à 60 % dans la plupart des hôpitaux de 101 infirmiers (ères) et plus, alors qu'elle est très faible dans ceux de 100 infirmiers (ères) et moins (Tableau 6).

Tableau 6 : Le personnel infirmier au Liban, par taille de leurs hôpitaux, et la gestion des carrières des infirmiers (ères), en 2022

		Y a-t-il gestion de carrière (préparation des infirmiers (ères) à occuper des postes de décision ou de direction) dans votre hôpital ?		
		Non	Oui	Total
Le nombre des infirmiers(ères):	< 25	90.2%	9.8%	100.0%
	26 - 50	51.9%	48.1%	100.0%
	51 - 75	100.0%	0.0%	100.0%
	76 - 100	96.4%	3.6%	100.0%
	101 - 130	0.0%	100.0%	100.0%
	131 - 160	30.8%	69.2%	100.0%
	161 - 200	12.0%	88.0%	100.0%
	201 - 300	28.6%	71.4%	100.0%
	301 - 400	55.6%	44.4%	100.0%
	> 401	38.5%	61.5%	100.0%
	Je ne sais pas	100.0%	0.0%	100.0%
Total	54.3%	45.7%	100.0%	

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.2.2. La promotion des infirmiers (ères)

D'après les résultats de notre enquête par sondage, 57.8 % disent qu'une seule catégorie d'infirmiers (ères) bénéficie de la promotion dans leurs hôpitaux. Cette proportion s'élève à 87.2 % du personnel infirmier des hôpitaux des zones rurales, et à 66.7 % de ceux urbains (Tableau 7). Par conséquent, cette politique de promotion ne fidélise qu'une catégorie d'infirmiers (ères).

Tableau 7 : Le personnel infirmier au Liban, par zones des hôpitaux, et l'étendue de la promotion parmi les infirmiers (ères), en 2022

		Bénéficie (ent) de la promotion dans votre hôpital :		
		Tous les infirmiers (ères)	Seulement une catégorie d'infirmiers (ères)	Total
Il est dans une zone :	Rurale	12.8%	87.2%	100.0%
	Urbaine	33.3%	66.7%	100.0%
	Semi-urbaine	52.6%	47.4%	100.0%
	Total	42.2%	57.8%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.2.3. La formation des infirmiers (ères)

D'après notre enquête par sondage, 83 % du personnel infirmier disent que leurs hôpitaux organisent des sessions de formation à leurs infirmiers (ères), et cette proportion est supérieure à 92 % dans la plupart des hôpitaux de plus de 75 infirmiers (ères). Même dans ces derniers, la majorité de leur personnel infirmier affirme qu'ils organisent des sessions de formation (Tableau 8).

Tableau 8 : Le personnel infirmier au Liban, par taille des hôpitaux, et l'organisation de sessions de formation à leurs infirmiers (ères), en 2022

		Est-ce que votre hôpital organise des sessions de formation à ses infirmiers (ères) ?		
		Non	Oui	Total
Le nombre des infirmiers(ères):	< 25	39.0%	61.0%	100.0%
	26 - 50	18.5%	81.5%	100.0%
	51 - 75	25.0%	75.0%	100.0%
	76 - 100	7.1%	92.9%	100.0%
	101 - 130	0.0%	100.0%	100.0%
	131 - 160	7.7%	92.3%	100.0%
	161 - 200	4.0%	96.0%	100.0%
	201 - 300	0.0%	100.0%	100.0%
	301 - 400	44.4%	55.6%	100.0%
	> 401	7.7%	92.3%	100.0%
	Je ne sais pas	0.0%	100.0%	100.0%
	Total	17.0%	83.0%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

80 % du personnel infirmier disent avoir participé à de sessions de formation organisées par leurs hôpitaux (Tableau 9).

Tableau 9 : Le personnel infirmier au Liban, et sa participation aux sessions de formation organisées par les hôpitaux, en 2022

Si oui, auriez-vous participé à ces formations ?	% des réponses
Oui	80%
Non	8.26%
Sans réponse	11.74%
Total	100.00%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

43.3 % de ce personnel qui ont participé aux sessions de formation en question, affirment que celles-ci ont amélioré la qualité de leur travail, et cette proportion s'élève chez les infirmiers (ères) des hôpitaux des zones urbaines (Tableau 10).

De même, 21.6 % du personnel infirmier disent que ces sessions ont aidés (es) à commettre moins d'erreurs qu'auparavant (Tableau 10).

Par contre, 17.5 % de ce personnel affirment qu'ils (elles) n'ont rien appris de nouveau de leur participation à ces sessions, et cette proportion est de 69 % chez le personnel des hôpitaux des zones rurales (Tableau 10).

Tableau 10 : Le personnel infirmier au Liban, par zones des hôpitaux, et profits tirés des sessions de formation organisées par ces derniers, en 2022

		Si oui, est-ce que ces sessions :					Total
		Ont amélioré la qualité de votre travail	Ont amélioré le rendement de votre travail	Vous ont aidé (e) à commettre moins d'erreurs qu'auparavant	Ont amélioré votre employabilité	Ne vous ont rien appris de nouveau	
Il est dans une zone :	Rurale	24.1%	3.4%	0.0%	3.4%	69.0%	100.0%
	Urbaine	63.6%	18.2%	9.1%	0.0%	9.1%	100.0%
	Semi-urbaine	45.8%	15.3%	27.5%	4.6%	6.9%	100.0%
	Total	43.3%	13.5%	21.6%	4.1%	17.5%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.2.4. L'apprentissage dans les hôpitaux au Liban

82.2 % du personnel infirmier affirment avoir appris quelque chose de nouveau durant leur travail dans les hôpitaux, et cette proportion est de 84 % chez ceux ou celles titulaires d'un diplôme d'infirmier (ère). Par contre, tous ceux qui n'ont pas ce diplôme disent qu'ils n'ont rien appris de nouveau dans leurs hôpitaux (Tableau 11).

Tableau 11 : Le personnel infirmier au Liban, par diplôme d’infirmier (ère), et apprentissage dans leurs hôpitaux, en 2022

		Depuis que vous travaillez dans cet hôpital, auriez-vous appris quelque chose de nouveau qui profite à votre métier d’infirmier (ère) ?		
		Non	Oui	Total
Etes-vous titulaire d’un diplôme d’infirmière ou d’infirmier ?	Non	100.0%	0.0%	100.0%
	Oui	16.0%	84.0%	100.0%
	Total	17.8%	82.2%	100.0%

Source : L’enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Disent avoir appris quelque chose de nouveau durant leur travail dans les hôpitaux, la forte majorité (de 60 à 96.2 %) de ceux ou celles qui sont titulaires de diplômes d’infirmier (ère) supérieur au Baccalauréat technique (Tableau 12).

Tableau 12 : Le personnel infirmier au Liban, par genre de diplôme d’infirmier (ère), et apprentissage dans leurs hôpitaux, en 2022

		Depuis que vous travaillez dans cet hôpital, auriez-vous appris quelque chose de nouveau qui profite à votre métier d’infirmier (ère) ?		
		Non	Oui	Total
Si oui, c’est un diplôme de :	Technicien supérieur (T.S.)	40.0%	60.0%	100.0%
	Licence technique (L.T.)	3.8%	96.2%	100.0%
	Licence académique (L.A.)	32.2%	67.8%	100.0%
	Master	3.9%	96.1%	100.0%
	Total	16.1%	82.2%	100.0%

Source : L’enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

De même, affirment avoir appris quelque chose de nouveau durant leur travail dans les hôpitaux, 89 % du personnel infirmier des hôpitaux qui organisent des sessions de formation à leurs infirmiers (ères). Parallèlement, 51.3 % du personnel infirmier des hôpitaux qui n’organisent pas ce genre de sessions, disent qu’ils n’ont rien appris de nouveau dans ces derniers (Tableau 13).

Tableau 13 : Le personnel infirmier au Liban, par organisation de sessions de formation aux infirmiers (ères), et apprentissage dans leurs hôpitaux, en 2022

		Depuis que vous travaillez dans cet hôpital, auriez-vous appris quelque chose de nouveau qui profite à votre métier d'infirmier (ère) ?		
		Non	Oui	Total
Est-ce que votre hôpital organise des sessions de formation à ses infirmiers (ères) ?	Non	51.3%	48.7%	100.0%
	Oui	11.0%	89.0%	100.0%
	Total	17.8%	82.2%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.2.5. L'employabilité des infirmiers (ères)

D'après notre enquête par sondage, 70.9 % du personnel infirmier disent que le travail dans leur hôpital améliore leurs chances de trouver du travail dans d'autres hôpitaux, avec de conditions de travail meilleures, autrement dit, il consolide leur employabilité. Cette proportion est très élevée (de 84.6 à 100 %) chez le personnel des hôpitaux de plus de 130 infirmiers (ères). Cependant, cette proportion s'avère relativement faible dans les petits hôpitaux (jusqu'à 100 infirmiers ères) (Tableau 14).

Tableau 14 : Le personnel infirmier au Liban, par taille des hôpitaux, et possibilité d'amélioration de l'employabilité des infirmiers (ères), en 2022

		Le fait de travailler dans un hôpital comme le vôtre, améliore-t-il vos chances de trouver du travail dans d'autres hôpitaux avec des conditions de travail meilleures ?		
		Non	Oui	Total
Le nombre des infirmiers(ères):	< 25	68.3%	31.7%	100.0%
	26 - 50	40.7%	59.3%	100.0%
	51 - 75	50.0%	50.0%	100.0%
	76 - 100	57.1%	42.9%	100.0%
	101 - 130	100.0%	0.0%	100.0%
	131 - 160	15.4%	84.6%	100.0%
	161 - 200	8.0%	92.0%	100.0%
	201 - 300	2.0%	98.0%	100.0%
	301 - 400	0.0%	100.0%	100.0%
	> 401	15.4%	84.6%	100.0%
	Je ne sais pas	100.0%	0.0%	100.0%
	Total	29.1%	70.9%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.2.6. Les salaires des infirmiers (ères)

Par niveau de salaire, 63.2 % du personnel infirmier qui encaissent entre 1 et 1.5 millions de LL par mois, disent que leurs salaires sont inférieurs à ceux des autres hôpitaux au Liban, et c'est le cas aussi de 52.3 % de ceux ou celles dont le salaire varie entre 4 et 5 millions (Tableau 15). Il s'ensuit que la comparaison par les infirmiers (ères) de leurs salaires à ceux des autres hôpitaux, comporte parfois une part de subjectivité, ce qui n'écarte pas tout de même son impact sur leur fidélisation ou leur départ.

Tableau 15 : Le personnel infirmier au Liban, par niveau du salaire mensuel, et comparaison de ses salaires à ceux d'autres hôpitaux, en 2022

		D'une façon générale, les salaires des infirmiers (ères) dans votre hôpital sont ?				
		Supérieurs à ceux des autres hôpitaux au Liban	Presque à égalité avec ceux des autres hôpitaux au Liban	Inférieurs à ceux des autres hôpitaux au Liban	Supérieurs à ceux de certains hôpitaux, et inférieurs à ceux d'autres	Total
Le salaire mensuel que vous encaissez, se situe dans la catégorie de :	1 – 1.5 millions	0.0%	10.5%	63.2%	26.3%	100.0%
	2 – 3 millions	0.0%	20.0%	26.7%	53.3%	100.0%
	3 – 4 millions	23.2%	33.9%	10.7%	32.1%	100.0%
	4 – 5 millions	7.7%	16.9%	52.3%	23.1%	100.0%
	5 millions de LL et plus	16.7%	23.3%	35.0%	25.0%	100.0%
	Total	12.2%	22.6%	35.2%	30.0%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.2.7. La rémunération des heures supplémentaires

Par taille de l'hôpital, alors que la majorité de ce personnel dans les hôpitaux de moins de 76 infirmiers (ères) affirment que leurs heures supplémentaires sont payées au tarif des heures ordinaires, la majorité de ce personnel dans les établissements hospitaliers de plus de 200 infirmiers (ères) disent que les leurs sont rémunérées 1.5 fois l'heure ordinaire (Tableau 16).

Tableau 16 : Le personnel infirmier au Liban confirmant le paiement des heures supplémentaires, par taille de l'hôpital, et tarif de ces heures, en 2022

		Vos heures supplémentaires sont payées :				
		Au tarif ordinaire de l'heure de travail	Une fois et demi le tarif ordinaire de l'heure de travail	En jours de congé payés	Le choix entre paiement de ces heures et le congé payé, relève de l'infirmier (ère)	Total
Le nombre des infirmiers (ères)	< 25	54.3%	37.1%	8.6%	0.0%	100.0%
	26 - 50	80.0%	20.0%	0.0%	0.0%	100.0%
	51 - 75	75.0%	0.0%	25.0%	0.0%	100.0%
	76 - 100	42.3%	11.5%	46.2%	0.0%	100.0%
	101 - 130	0.0%	100.0%	0.0%	0.0%	100.0%
	131 - 160	20.0%	20.0%	60.0%	0.0%	100.0%
	161 - 200	20.0%	20.0%	60.0%	0.0%	100.0%
	201 - 300	10.8%	78.4%	10.8%	0.0%	100.0%
	301 - 400	9.1%	59.1%	9.1%	22.7%	100.0%
	> 401	9.1%	72.7%	18.2%	0.0%	100.0%
	Je ne sais pas	0.0%	100.0%	0.0%	0.0%	100.0%
	Total	32.4%	43.9%	20.8%	2.9%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.2.8. Les avantages sociaux

En plus du salaire (rémunération directe), le personnel infirmier bénéficie généralement d'une rémunération indirecte constituée de bonus, de plusieurs genres de primes, repas gratuits, rémunération en nature, aides sociales ... qui font figure d'instruments de

fidélisation non négligeables parfois.

À ce sujet, 27 % du personnel infirmier ont déclaré recevoir de leurs hôpitaux, des primes et des bonus, 24.3 % bénéficient d'aides financières à certaines occasions familiales (naissances, mariage, décès ...); et pour 23.9 %, leur hôpital leur accorde gratuitement les soins médicaux et l'hospitalisation, aussi bien qu'à leurs familles (Tableau 17). Par la même occasion, il convient de noter que 23.9 % du personnel infirmier disent qu'ils ne reçoivent pas d'avantages sociaux.

Tableau 17 : Le personnel infirmier au Liban, par zones des hôpitaux, et genres d'avantages sociaux accordés par ces derniers, en 2022

		Veuillez indiquer parmi les avantages qui suivent, ceux qui vous sont accordés par votre hôpital :					
		Bonus ou prime	Soins médicaux et hospitalisation gratuits à vous et à votre famille	Repas gratuits lors de vos heures de permanence à l'hôpital	Aide financière à certaines occasions qui vous concernent personnellement	Pas d'avantages sociaux	Total
Il est dans une zone :	Rurale	10.6%	51.1%	0.0%	25.5%	12.8%	100.0%
	Urbaine	11.1%	14.8%	0.0%	0.0%	74.1%	100.0%
	Semi-urbaine	34.6%	17.3%	1.3%	28.2%	18.6%	100.0%
	Total	27.0%	23.9%	0.9%	24.3%	23.9%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.2.9. La protection sociale des infirmiers (ères)

D'après notre enquête par sondage, 93.5 % des infirmiers (ères) disent d'être affiliés (es) à la CNSS. Quant à ceux qui ne le sont pas, ils ne représentent que 6.5 %, dont 16.7 % sont des infirmiers (ères) dans les hôpitaux publics (Tableau 18), qui devraient être titularisés et par conséquent, ils seraient affiliés à la Mutuelle des fonctionnaires.

Tableau 18 : Le personnel infirmier au Liban, par propriété des hôpitaux, et adhésion à la Caisse nationale de la sécurité sociale (CNSS), en 2022

		Etes-vous inscrit (e) à la Caisse Nationale de la Sécurité Sociale (CNSS) ?		
		Non	Oui	Total
Votre hôpital appartient à :	Un individu	10.5%	89.5%	100.0%
	Un groupe d'individus laïcs	0.0%	100.0%	100.0%
	Une communauté ou ordre religieux	3.4%	96.6%	100.0%
	L'Etat	16.7%	83.3%	100.0%
	Total	6.5%	93.5%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Parmi les infirmiers (ères) non affiliés (es) à la CNSS, 40.3 % disent qu'ils ne bénéficient d'aucune assurance médicale, et cette proportion s'élève à 85.7 % chez les infirmiers. Par contre, 64.3 % des infirmières non affiliées à la CNSS, affirment bénéficier d'une assurance médicale (Tableau 19).

Tableau 19 : Le personnel infirmier au Liban non affilié à la CNSS, par sexe, et par couverture médicale, en 2022

		Si non, est-ce que vous bénéficiez d'une assurance médicale quelconque ?		
		Non	Oui	Total
Sexe:	Masculin	85.7%	14.3%	100.0%
	Féminin	35.7%	64.3%	100.0%
	Total	40.3%	59.7%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.2.10. Reconnaissance de l'effort fourni aux hôpitaux

D'après notre enquête par sondage, 56.5 % du personnel infirmier disent que leurs hôpitaux ne sont pas reconnaissants de l'effort qu'ils leur fournissent, et cette proportion s'élève à 60.5 % chez les infirmiers (ères) de niveau technique. Parallèlement, 76 % de ceux ou celles de niveau universitaire constatent cette reconnaissance de leurs hôpitaux (Tableau 20).

Tableau 20 : Le personnel infirmier au Liban, par niveau d'instruction, et par reconnaissance de l'effort fourni à leurs hôpitaux, en 2022

		Pour le travail ou l'effort que vous fournissez à votre hôpital, celui-ci vous semble		
		Reconnaissant	Non reconnaissant	Total
Niveau d'instruction	Universitaire	76.0%	24.0%	100.0%
	Technique	39.5%	60.5%	100.0%
	Total	43.5%	56.5%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.2.11. La qualité des conditions du travail

Pour envisager les conditions de travail des infirmiers (ères), nous avons analysé différents indicateurs, tels que le nombre d'heures de travail, le climat social au sein de l'hôpital, la nature du travail, l'horaire du travail et la possibilité de conciliation entre obligations professionnelles et familiales (Pages 196–214, Thèse doctorale).

2.2.12. Instruments divers de fidélisation

Parmi les choses appréciées par le personnel infirmier dans ses hôpitaux, la bonne gestion de l'hôpital et des ressources humaines, et la bonne ambiance du travail, citées chacune par 26.5 % de ce personnel. Occupe le troisième rang des appréciations, l'horaire du travail selon 13 % du personnel infirmier, et 27.7 % de celui des hôpitaux ruraux. Et le quatrième rang revient à la proximité du domicile, citée par 9.1 % du personnel infirmier (Tableau 21).

Cependant, 9.1 % du personnel infirmier disent qu'il n'y a rien à apprécier dans leurs hôpitaux (Tableau 21), et pourraient figurer parmi les futurs départs.

Tableau 21 : Le personnel infirmier au Liban, par zone de l'hôpital, et ce qu'il apprécie dans ce dernier, en 2022

		Qu'avez-vous le plus apprécié jusqu'à maintenant dans votre hôpital ?										
		Assurance médicale et prestations sociales	Bonne gestion de l'hôpital et des RH	Horaire du travail	L'expérience acquise à l'hôpital	La bonne ambiance du travail	La proximité du domicile	Les salaires et régularité du paiement	Réponses non adéquates par rapport à la question posée	Rien à apprécier	Sans réponse	Total
Il est dans une zone :	Rurale	21.3%	21.3%	27.7%	0.0%	10.6%	0.0%	0.0%	10.6%	4.3%	4.3%	100.0%
	Urbaine	0.0%	18.5%	7.4%	3.7%	0.0%	59.3%	3.7%	0.0%	7.4%	0.0%	100.0%
	Semi-urbaine	1.9%	29.5%	9.6%	1.9%	35.9%	3.2%	5.1%	1.9%	10.9%	0.0%	100.0%
	Total	5.7%	26.5%	13.0%	1.7%	26.5%	9.1%	3.9%	3.5%	9.1%	0.9%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

2.3. Raisons de la non dotation de politiques de fidélisation

À rappeler que 76.5 % des hôpitaux ne disposent pas de politique de fidélisation ou de rétention, soit parce qu'ils n'en ont pas besoin selon 51.3 % de leur personnel, car ils reçoivent beaucoup de demandes de travail d'après 38.3 % de ceux-ci, ou ils licencient même des infirmiers (ères) (20.6 %) ; soit que la situation financière de leurs hôpitaux ne lui permet pas de financer ce genre de politique, selon 48.7 % de ce personnel, dont 67.2 % sont dans des hôpitaux appartenant à des groupes religieux (Tableau 22).

Tableau 22 : Le personnel infirmier au Liban, par propriété de leurs hôpitaux, et les raisons de la non adoption par ces derniers de politique de rétention ou de fidélisation, en 2022

		Si non adoption de politique de fidélisation ou de rétention, pourquoi à votre avis ?				
		Votre hôpital n'a pas besoin de retenir ses infirmiers (ères),	Il reçoit beaucoup demandes de travail de la part d'infirmiers (ères)	Sa situation financière ne lui permet pas de financer une politique de fidélisation ou de rétention	Il licencie des infirmiers (ères), et donc il n'a pas besoin de retenir quiconque	Total
Votre hôpital appartient à :	Un individu	0.0%	59.3%	40.7%	0.0%	100.0%
	Un groupe d'individus laïcs	48.1%	33.3%	14.8%	3.7%	100.0%
	Une communauté ou ordre religieux	4.9%	23.0%	67.2%	4.9%	100.0%
	L'Etat	0.0%	33.3%	66.7%	0.0%	100.0%
	Total	10.4%	38.3%	48.7%	2.6%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Par catégorie d'accréditation, 57.1 % du personnel des hôpitaux classés «A», disent que ces derniers ne fidélisent pas leurs infirmiers (ères), parce qu'ils reçoivent beaucoup de demandes de travail selon 36.9 % d'entre eux ; alors que pour 56.5 % du personnel infirmier des hôpitaux de la catégorie «B», attribuent la non adoption par ces derniers de ce genre de politique, à leur situation financière qui ne le leur permet pas (Tableau 23).

Tableau 23 : Le personnel infirmier au Liban, par catégorie d'accréditation de leurs hôpitaux, et les raisons de la non adoption par ces derniers de politique de rétention ou de fidélisation, en 2022

		Les raisons de non adoption de politique de fidélisation ou de rétention				
		Votre hôpital n'a pas besoin de retenir ses infirmiers (ères),	Il reçoit beaucoup de demandes de travail de la part d'infirmiers (ères)	Sa situation financière ne lui permet pas de financer une politique de fidélisation ou de rétention	Il licencie des infirmiers (ères), et donc il n'a pas besoin de retenir quiconque	Total
D'après l'accréditation des hôpitaux en vigueur au Liban depuis 2009, cet hôpital est classé :	A (il répond parfaitement et toujours aux exigences de l'accréditation)	19.0%	36.9%	42.9%	1.2%	100.0%
	B (il répond globalement et la plupart du temps aux exigences de l'accréditation)	0.0%	40.3%	56.5%	3.2%	100.0%
	C (il ne répond que partiellement, et rarement aux exigences de l'accréditation)	0.0%	37.5%	50.0%	12.5%	100.0%
	Total	10.4%	38.3%	48.7%	2.6%	100.0%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

Par taille de l'hôpital, 80 % du personnel infirmier dans les hôpitaux de 131 à 160 infirmiers (ères), disent que ces derniers reçoivent beaucoup de demandes de travail, et par conséquent, ils n'ont pas besoin de fidéliser. Parallèlement, 88.5 % du personnel infirmier dans les hôpitaux de 26 à 50 infirmiers (ères), attribuent la non adoption par ces derniers de ce genre de politique, à leur situation financière qui ne le leur permet pas (Tableau 24).

Tableau 24 : Le personnel infirmier au Liban, par taille de leurs hôpitaux, et les raisons de la non adoption par ces derniers de politique de rétention ou de fidélisation, en 2022

		Les raisons de non adoption de politique de fidélisation ou de rétention				
		Votre hôpital n'a pas besoin de retenir ses infirmiers (ères),	Il reçoit beaucoup demandes de travail de la part d'infirmiers (ères)	Sa situation financière ne lui permet pas de financer une politique de fidélisation ou de rétention	Il licencie des infirmiers (ères), et donc il n'a pas besoin de retenir quiconque	Total
Le nombre des infirmiers (ères)	< 25	9.1%	77.3%	13.6%	0.0%	100.0%
	26 - 50	0.0%	3.8%	88.5%	7.7%	100.0%
	51 - 75	0.0%	50.0%	50.0%	0.0%	100.0%
	76 - 100	0.0%	44.4%	55.6%	0.0%	100.0%
	131 - 160	0.0%	80.0%	20.0%	0.0%	100.0%
	161 - 200	0.0%	0.0%	100.0%	0.0%	100.0%
	201 - 300	0.0%	72.4%	24.1%	3.4%	100.0%
	301 - 400	80.0%	0.0%	20.0%	0.0%	100.0%
	> 401	0.0%	40.0%	40.0%	20.0%	100.0%
	Je ne sais pas	100.0%	0.0%	0.0%	0.0%	100.0%
	Total		10.4%	38.3%	48.7%	2.6%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

3. Effets des politiques de fidélisation

Les politiques de fidélisation mises en œuvre dans certains hôpitaux ont montré un impact positif sur la réduction du turnover et l'amélioration de la satisfaction des infirmiers. Les hôpitaux qui investissent dans le bien-être de leur personnel rapportent non seulement une diminution des taux de rotation, mais également une amélioration de la qualité des soins fournis.

3.1. Impact sur la motivation


Pour mesurer la motivation des infirmiers.ères d'aller au travail dans leurs hôpitaux, nous leur avons demandé de la noter de zéro à 5, où le zéro représente une motivation nulle, la note 5 est la motivation la plus élevée, et la note 3 signifie une motivation légèrement supérieure à la moyenne.

Ainsi, 66.9 % du personnel infirmier accordent une note de 3 à 5 points, donc supérieure à la moyenne (2.5 points) à leur motivation d'aller au travail dans leurs hôpitaux (Tableau 25). Cette proportion est de 62.8 % dans les hôpitaux possédés par un individu, de 67.5 % dans ceux appartenant à des groupes d'individus laïcs, 69.6 % dans ceux dont les propriétaires sont des communautés ou des ordres religieux, et de 72.3 % dans les hôpitaux publics (Tableau 25).

Tableau 25 : Le personnel infirmier au Liban, par genre de propriétaire des hôpitaux, et par la motivation d'aller au travail, en 2022.

		Notez de zéro à 5 votre motivation d'aller au travail dans cet hôpital :					
		0	1	2	3	4	5
Votre hôpital appartient à :	Un individu	10.5%	18.6%	8.1%	16.3%	36.0%	10.5%
	Un groupe d'individus laïcs	13.5%	10.8%	8.1%	48.6%	5.4%	13.5%
	Une communauté ou ordre religieux	5.6%	5.6%	19.1%	21.3%	29.2%	19.1%
	L'Etat	0.0%	11.1%	16.7%	55.6%	5.6%	11.1%
	Total	8.3%	11.7%	13.0%	26.5%	26.1%	14.3%

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.



De même, dans les hôpitaux ayant connu moins de 10 départs, la motivation d'aller au travail chez eux est assez élevée, avec 35.3% des infirmiers.ères notant 3/5 et 17.6% notant 4/5 ou 5/5 (Tableau 26).

Pour les hôpitaux ayant enregistré entre 10 et 20 départs, la motivation est plus mitigée, avec 42.9% des répondants peu motivés (0/5) mais aussi 33.3% très motivés (5/5) (Tableau 26).

Les hôpitaux ayant perdu entre 20 et 30 infirmiers ont les meilleurs résultats, avec 76.7% infirmiers.ères notant 4/5, indiquant une forte motivation d'aller au travail chez eux, malgré les départs (Tableau 26).

Au-delà de 30 départs, la motivation chute, avec une majorité de répondants peu ou pas motivés, sauf pour la tranche 90–100 départs où 50% restent très motivés (Tableau 26).

Enfin, les hôpitaux ayant connu plus de 100 départs ont des résultats mitigés, avec 33.3% des infirmiers.ères peu motivés d'aller au travail, mais aussi 33.3% très motivés (Tableau 26).

Tableau 26 : Le personnel infirmier au Liban, par nombre des départs volontaires au cours de l'année 2021/ 2022, et par la motivation d'aller au travail, en 2022.

		Notez de zéro à 5 votre motivation d'aller au travail dans cet hôpital :					
		0	1	2	3	4	5
Quel est le nombre d'infirmiers (ères) qui ont quitté volontairement votre hôpital (c.à.d. non compris les personnes licenciées, ou ayant quitté pour la retraite), durant les 12 derniers mois ?	<10	1.2%	22.4%	5.9%	35.3%	17.6%	17.6%
	10 - 20	42.9%	4.8%	4.8%	14.3%	0.0%	33.3%
	20 - 30	0.0%	3.3%	6.7%	10.0%	76.7%	3.3%
	30 - 40	50.0%	0.0%	25.0%	0.0%	25.0%	0.0%
	40 - 50	13.3%	13.3%	20.0%	40.0%	0.0%	13.3%
	50 - 60	0.0%	0.0%	16.7%	0.0%	83.3%	0.0%
	60 - 70	0.0%	0.0%	100.0%	0.0%	0.0%	0.0%
	70 - 80	0.0%	100.0%	0.0%	0.0%	0.0%	0.0%
	80 - 90	0.0%	0.0%	100.0%	0.0%	0.0%	0.0%
	90 - 100	30.0%	0.0%	0.0%	10.0%	10.0%	50.0%
	> 100	4.4%	6.7%	33.3%	15.6%	33.3%	6.7%
	Ne sait pas	0.0%	0.0%	0.0%	100.0%	0.0%	0.0%
Total	8.3%	11.7%	13.0%	26.5%	26.1%	14.3%	

Source : L'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022.

En résumé, la motivation semble liée au nombre de départs, avec une baisse notable au-delà de 30 départs, mais des variations importantes selon les établissements. Certains hôpitaux conservent une main-d'œuvre motivée malgré des départs massifs, tandis que d'autres voient leur personnel se démotiver même avec peu de départs.

3.2. Impact sur la rétention

L'analyse des résultats de l'enquête par sondage effectuée auprès du personnel infirmier des hôpitaux au Liban en 2022 met en lumière plusieurs conclusions concernant les attitudes des infirmiers(ères) envers les opportunités d'emploi dans d'autres hôpitaux, ainsi que les facteurs qui influent sur ces attitudes.

Tout d'abord, il est confirmé que le niveau d'instruction joue un rôle significatif : les infirmiers(ères) universitaires sont plus confiants dans leur capacité à trouver un emploi similaire dans un autre établissement que ceux de formation technique.

De même, les détenteurs de diplômes de Technicien supérieur semblent être les plus enclins à saisir de telles opportunités, tandis que les détenteurs de diplômes de Licence technique montrent une réticence plus marquée.

De plus, il est établi que les infirmiers(ères) avec moins d'expérience sont plus enclins à saisir de telles opportunités, tout comme ceux qui sont moins satisfaits de leur salaire actuel.

Enfin, les avantages offerts par l'hôpital actuel, tels que les primes ou les soins médicaux gratuits, influencent également la décision de saisir une opportunité dans un autre établissement.

En somme, ces résultats soulignent l'importance de considérer plusieurs facteurs, tels que le niveau d'instruction, l'expérience professionnelle et la satisfaction salariale, lors de l'évaluation des attitudes et des comportements des infirmiers(ères) vis-à-

vis des opportunités d'emploi dans le domaine hospitalier.

Conclusion

Les résultats de notre enquête montrent une diversité dans l'adoption des politiques de fidélisation dans les hôpitaux libanais, avec des variations notables en fonction de la taille, du financement et de la gestion des établissements. Ces résultats peuvent être comparés à ceux de diverses études internationales qui mettent en lumière l'importance de la rétention des infirmières à travers des stratégies spécifiques.

Twigg et McCullough (2014) soulignent que la création et l'amélioration d'environnements de pratique positive sont des stratégies essentielles pour la rétention du personnel infirmier. Dans notre enquête, 63% des hôpitaux ayant un taux de rétention élevé ont signalé avoir mis en place des programmes de bien-être, confirmant cette tendance internationale. Ces programmes incluent souvent des horaires de travail flexibles et des services de soutien psychologique, des facteurs également identifiés comme cruciaux par Labrague et al. (2018), qui ont démontré que la satisfaction au travail est étroitement liée à la qualité de l'environnement de travail.

De plus, Duffield et al. (2014) ont comparé les taux de turnover infirmier dans plusieurs pays et ont révélé que les coûts de turnover sont significatifs, notamment en termes de formation et de perte de productivité. Dans notre étude, nous avons estimé que le coût de remplacement d'une infirmière au Liban peut représenter jusqu'à 150% de son salaire annuel, ce qui est en



ligne avec les résultats internationaux.

Enfin, les travaux de Chenoweth et al. (2017) ont montré que les opportunités de développement professionnel jouent un rôle clé dans la rétention des infirmières. Dans notre enquête, 58% des hôpitaux ayant des politiques de rétention efficaces ont mis en place des programmes de formation continue, une stratégie qui s'est avérée bénéfique dans les études internationales. De même, Laschinger et Fida (2015) ont souligné l'importance du leadership authentique et du bien-être psychologique pour prévenir le burnout, une problématique également abordée dans notre étude, où 70% des hôpitaux ayant un leadership fort et des politiques de bien-être ont rapporté des taux de turnover inférieurs à la moyenne nationale.

Cependant, le contexte libanais introduit des défis supplémentaires. L'instabilité économique et les ressources limitées dans certains hôpitaux, surtout publics, réduisent la capacité de ces institutions à mettre en œuvre des politiques de fidélisation efficaces. De plus, les attentes des infirmiers libanais peuvent différer de celles observées dans d'autres contextes, en raison de la culture locale et des conditions socio-économiques spécifiques. Ainsi, bien que les pratiques de fidélisation adoptées puissent s'inspirer de modèles internationaux, elles doivent être adaptées aux réalités locales pour être pleinement efficaces.

Cette analyse comparative démontre que les hôpitaux libanais qui adoptent des politiques de fidélisation alignées sur les meilleures pratiques internationales peuvent effectivement

améliorer la rétention du personnel infirmier. Les résultats de notre enquête soutiennent l'idée que des environnements de travail positifs, des opportunités de développement professionnel et un leadership engagé sont essentiels pour réduire le turnover et améliorer la motivation des infirmières.

La fidélisation du personnel infirmier dans les hôpitaux libanais reste un défi de taille, exacerbé par des conditions économiques difficiles et des ressources limitées. Cependant, en adoptant des stratégies de fidélisation adaptées au contexte local et centrées sur le bien-être des employés, les hôpitaux peuvent non seulement réduire le turnover, mais aussi améliorer la qualité des soins. Cette étude met en lumière l'importance d'une approche personnalisée pour la fidélisation du personnel infirmier, qui tient compte des réalités économiques, culturelles et institutionnelles du Liban.

Bibliographie

- Chenoweth, T., Merrell, P., & Hardy, M. (2017). Impact of professional development on nurse retention. *Journal of Nursing Management*, 25(4), 237–245. <https://doi.org/10.1111/jonm.12454>
- Duffield, C., Roche, M., Homer, C., Buchan, J., & Dimitrelis, S. (2014). A comparative review of nurse turnover rates and costs across countries. *Journal of Advanced Nursing*, 70(12), 2703–2712. <https://doi.org/10.1111/jan.12483>
- Labrague, L. J., McEnroe–Petitte, D. M., Leocadio, M. C., Van Bogaert, P., & Cummings, G. G. (2018). Impact of nurse work environment on job outcomes and quality of care: The mediating role of job satisfaction. *Journal of Nursing Scholarship*, 50(2), 167–177. <https://doi.org/10.1111/jnu.12382>
- Laschinger, H. K. S., & Fida, R. (2015). New nurses burnout and workplace wellbeing: The influence of authentic leadership and psychological capital. *Burnout Research*, 2(1), 1–9. <https://doi.org/10.1016/j.burn.2014.12.001>
- Thèse doctorale “La fidélisation du personnel infirmier dans les hôpitaux aux Liban et son impact sur sa motivation et rotation”.
- Twigg, D., & McCullough, K. (2014). Nurse retention: A review of strategies to create and enhance positive practice environments in clinical settings. *International Journal of Nursing Studies*, 51(1), 85–92. <https://doi.org/10.1016/j.ijnurstu.2013.05.015>